جامعة الدول العربية
الأمانة العامة
الإدارة الثقافية

المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية

تونس ١٨ - ٢٩ مايو (آيار) ١٩٦٣

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

الإدارة الثقافية



تونس ١٨ – ٢٩ مايو (آيار) ١٩٦٣

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٦٥

المحتويات

حفل الافتتاح

صفحة

المذكرات المقدمة إلى المؤتمر

اللجان الفرعية للمؤتمر وتقاريرها

توصيات المؤتمر :

التقارير المقدمة إلى المؤتمر

المحاضرات العامة

البحوث المقدمة إلى المؤتمر

مقدمة

يسر الإدارة الثقافية بالأمانة الأمة لجامعة الدول العربية أن تقدم بين يدى المختصين من أبناء الأمة العربية كتاب « المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية » الذى دعت إلى عقده فى الجمهورية التونسية فى المدة من ٣ إلى ١٩ مايو (أيار) ١٩٦٣ .

ولقد كان عقد هذا المؤتمر فرصة طيبة للمشتغلين من الخبراء العرب بدراسات علم الآثار ، حيث أتاح لهم تبادل الخبرة ، والوقوف على آخر ما تم إنجازه من أعمال وكشوف ، وما ظهر من مؤلفات أو ترجمات فى هذا المجال .

ويشتمل هذا الكتاب بالإضافة إلى التوصيات الهامة التى يطالعها القارئ على صفحاته على مجموعة قيمة من المحاضرات والأبحاث التى ألقيت أو قدمت إلى المؤتمر . كما يشتمل على تقارير مقدمة من الدول الأعضاء عن أعمال كل منها وإنجازاتها فى ميدان الآثار فى الفترة الأخيرة .

وترى الإدارة الثقافية أن من واجبها تقديم الشكر إلى السادة أعضاء المؤتمر ، على ما أبدوه من جهد صادق فى دراسة ومناقشة الموضوعات التى عرضت عليهم ، وعلى ما وفقوا إليه من قرارات وتوصيات ، يعقد عليها الأمل فى النهوض بعلم الآثار فى البلاد العربية .

كما تقدم الإدارة الثقافية الشكر إلى الحكومة التونسية على ترحيبها بعقد المؤتمر فوق أراضيها ، وتوفيرها كل أسباب النجاح له .

(الإدارة الثقافية)

أعضاء المؤتمر

أسماء أعضاء المؤتمر

الرئيس الفخري : السيد الشاذلي القليبي ، كاتب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار بتونس

الرئيس : السيد عثمان الكعاك ، حافظ دار الكتب الوطنية بتونس

السكرتارية العامة للمؤتمر :

١ ـ الدكتور علي إبرهيم عبده
وكيل الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية

٢ ـ السيد محمد احمد النيفر
عضو ديوان السيد كاتب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار بتونس

٣ ـ السيد حسني احمد عبد الرحيم
الملحق الأول بالإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية

* * *

وفد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية :

١ ـ الدكتور علي ابراهيم عبده ، وكيل الإدارة الثقافية

٢ ـ السيد حسني احمد عبد الرحيم ، الملحق الأول بالإدارة الثقافية

وفد الجمهورية التونسية :

١ ـ السيد عثمان الكعاك	حافظ دار الكتب الوطنية
٢ ـ السيد مصطفى زبيس	مدير مصلحة المعالم الأثرية
٣ ـ السيد عبدالعزيز إدريس	رئيس مصلحة المتاحف
٤ ـ السيد عمار المحجوبي	رئيس مصلحة البحوث الأثرية
٥ ـ السيد محمد الشابي	متفقد الآثار
٦ ـ السيد محمد الفندري	متفقد الآثار

وفد الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية :

١ ـ السيد عبد القادر محداد	مدير الشؤون الثقافية بالجزائر
٢ ـ السيد دهينة عطاء الله	الأستاذ بوزارة التربية الوطنية

وفد الجمهورية العراقية :

١ ـ الدكتور فيصل الوائلى	مدير الآثار بالجمهورية العراقية
٢ ـ السيد سعيد الديوه جى	مدير متحف الموصل
٣ ـ السيد كاظم الجنابى	المفتش فى مديرية الآثار العراقية

وفد الجمهورية العربية السورية :

١ ـ الدكتور سليم عادل عبد الحق	المدير العام للآثار والمتاحف فى الجمهورية العربية السورية
٢ ـ السيد بشير زهدى	محافظ المتحف الوطنى بدمشق

وفد الجمهورية العربية المتحدة :

١ ـ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة	أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس
٢ ـ السيد حسن عبد الوهاب	الخبير الفنى للآثار الإسلامية بمصلحة الآثار بالقاهرة

وفد دولة الكويت :

١ ـ السيد طارق فخرى السيد رجب رئيس قسم الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم .

وفد الجمهورية اللبنانية :

١ — سعادة فريد شهاب	السفير اللبنانى فى تونس
٢ — السيد منير النصولى	مستشار السفارة اللبنانية بتونس

وفد المملكة الليبية المتحدة :

١ — السيد مفتاح الكاديكى	السكرتير الأول بالسفارة الليبية بتونس .

وفد المملكة المغربية :

١ — سعادة السيد محمد المسفيوى	القائم بأعمال سفارة المغرب بتونس
٢ — السيد احمد المكناسى	مفتش الآثار وأمين الخزانة العامة بتطوان .
٣ — السيد محمد الحنشى	الملحق الثقافى بسفارة المغرب بتونس

وفد مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

١ — السيد محمد الفاضل بن عاشور	عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس .

وفد المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة :

١ — السيد حسن عبد الوهاب	كبير مفتشى الآثار الإسلامية بمصلحة الآثار بالقاهرة

وفد جامعة تونس :

١ — الأستاذ الهادى سليم	أستاذ التاريخ

وفد جامعة دمشق :

١ — الدكتور نور الدين حاطوم	رئيس قسم الدراسات التاريخية بكلية الآداب

وفد جامعة عين شمس بالقاهرة :

١ ــ الدكتور محمد عبدالهادى شعيرة أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

وفد الجامعة الأمريكية فى بيروت :

١ ــ الدكتور ديمترى برامكى أستاذ التاريخ القديم ومدير المتحف

وفد هيئة اليونسكو :

١ ــ الأستاذ دايفوكو بإدارة المتاحف والآثار

وفد منظمة مجلس المتاحف الدولى :

١ ــ الدكتور سليم عادل عبد الحق مدير عام الآثار فى الجمهورية العربية السوريّة

برنامج المؤتمر

برنامج المؤتمر

يوم السبت ١٨ مايو :

من ١٠ إلى ١٢ ظهرا :

اجتماع تمهيدى للتعارف وتوزيع الشارات والمطبوعات

٥ مساء : حفل الافتتاح .

٧ مساء : اجتماع عام لاستعراض جدول أعمال المؤتمر ، وتوزيع اللجان ، وانتخاب رئيس الدورة :

٩ مساء : مأدبة عشاء يقيمها على شرف السادة المؤتمرين المعهد القومى لعلم الآثار القديمة والفنون بدار الثقافة .

يوم الأحد ١٩ مايو :

من ٩ إلى ١٢ ظهرا :

جولة فى العاصمة لزيارة المعالم الأثرية الإسلامية بها .

برنامج الجولة

٩ صباحا : التجمع بصحن جامع الزيتونة

١٠ صباحا : الخروج من جامع الزيتونة ــ العطارين ــ البلافجية ــ زيارة المدرسة الشماعية ــ الرجوع إلى العطارين ــ زيارة درب ابن عبد السلام والميضاة ــ بقية العطارين ــ سيدى ابن عروس ــ جامع حموده باشا المرادى ــ سوق الشواشية ــ سوق الترك ــ زيارة جامع سيدى يوسف سوق البركة ــ سوق اللفة ــ سوق القماش ــ مقبرة العلامة ابن عصفور ــ سوق الوسطى ــ سوق الربع ــ دار ابن خلدون ــ مسيد القبة (مدرسة ابن خلدون الأولى) زقاق الأندلس ــ بطحاء دار حسين :

١١,٣٠ صباحا : زيارة متحف الآثار الإسلامية .

١٢,٣٠ ظهرا : الخروج من المتحف لزيارة مقبرة بنى خرسان (سيدى بو خريصان) ؛

١ ظهرا : انتهاء الجولة ؛

٤ مساء : زيارة متحف باردو

٩ مساء : سهرة بالمسرح البلدى

يوم الاثنين ٢٥ مايو :

من ٩ إلى ١ ظهرا :

اجتماع عام لاستعراض تقارير الدول العربية .

٥ مساء : محاضرة عامة عن الآثار فى تونس :

للأستاذ مصطفى زبيس

يوم الثلاثاء ٢١ مايو :

من ٩ إلى ١١ صباحا :

اجتماع اللجان الفرعية

من ١١,٣٠ إلى ٢ ظهرا :

اجتماع عام لسماع البحوث الآتية :

١ ــ الدكتور فيصل الوائلى : آثار العراق ومشاريع الرى .

٢ ــ الأستاذ حسن عبد الوهاب : الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة .

٣ ــ الأستاذ دهينة عطاء الله : عمليات فى حفائر سطيف وشرشال .

٤ ــ الأستاذ بشير زهدى : الحلى الذهبية القديمة .

٥ مساء : محاضرة عامة عن :

مدرج مسرح بصرى وقلعتها :

للدكتور سليم عادل عبد الحق .

٧ مساء حفلة استقبال يقيمها المعهد الرشيدى على شرف المؤتمرين

يوم الأربعاء ٢٢ مايو :

من ٩ إلى ١ ظهرا

اجتماع اللجان الفرعية

من ٥ إلى ٦ مساء

اجتماع عام لمناقشة اقتراحات اللجان الفرعية

٧ مساء حفلة استقبال يقيمها السيد كاتب الدولة للتربية القومية على شرف السادة المؤتمرين بدار الثقافة

يوم الخميس ٢٣ مايو :

من ٩ إلى ١ ظهرا

اجتماع عام لسماع البحوث الآتية :

١ ــ الدكتور عبد الهادى شعيرة تاريخ التحصينات فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة

٢ ــ الأستاذ سعيد الديوه جى : الزخارف الرخامية فى الموصل

٣ ــ الأستاذ عمار المحجوبى : مشاهد ساتورن بالأفارق

٤ ــ الأستاذ محمد الشابى : ثورة صاحب الحمار ونقوده

٥ ــ الأستاذ دايفوكو : برنامج اليونسكو منذ ١٩٥٩

٦ ــ الأستاذ كاظم الجنابى : دار الإمارة فى الكوفة

٧ ــ الأستاذ عبد القادر محداد آثار الجزائر

٥ مساء اجتماع عام لمناقشة اقتراحات اللجان الفرعية واختيار لجنة الصياغة العامة

من ٨ إلى ١٢ ليلا

اجتماع وفد الأمانة العامة لوضع مشروع التوصيات من واقع قرارات اللجان الفرعية

يوم الجمعة ٢٤ مايو :

١٥ر٧ صباحاً خروج الحافلة قاصدة القيروان (طريق زغوان)
المرور بالأماكن التاليّة :

* المحمدية
* بقايا الحنايا
* ديوان الأحياء بالنفيضة

١١ صباحاً الوصول إلى الولاية بالقيروان حيث يستقبل الوفد السيد والى سوسة والقيروان .

١٥ر١١ صباحا زيارة مركز الصناعات التقليدية

٤٥ر١١ صباحا المعهد الثانوى للزيارة والتهيؤ للصلاة

١٥ر١٢ ظهراً الصلاة بجامع الحنفية

١ ظهرا مأدبة غداء من السيد الوالى على شرف السادة المؤتمرين بمقام أبى زمعة البلوى

٣ بعد الظهر زيارة فسقية الأغالبة

١٥ر٣ بعد الظهر زيارة الملبس القومى ثم روضة وسيلة بورقيبة

٤٥ر٣ بعد الظهر زيادة متحف إبراهيم بن الأغلب

٤ مساء زيارة جامع عقبة

٥ مساء زيارة رقادة ثم مناطق الاحياء

٧ مساء الخروج من القيروان إلى صفاقس

١٠ ليلا الوصول إلى صفاقس (استراحة بالنزل)

١٠ر٣٠ ليلا مأدبة عشاء تقيمها على شرف السادة المؤتمرين اللجنة الثقافية الجهوية بصفاقس .

يوم السبت ٢٥ مايو :

٩ صباحا جولة بالمعالم الأثرية والقيام برحلة بحرية

١ ظهرا مأدبة غداء يقيمها السيد والى صفاقس على شرف السادة المؤتمرين

٦ مساء الخروج من صفاقس فى طريق الجم

٧ مساء الوصول إلى الجم لزيارة متحف الموزاييك والقصر

٧ر٣٠ مساء الخروج من الجم إلى المهدية

٨ مساء الوصول إلى المهدية وحضور حفلة استقبال تقيمها البلدية على شرف السادة المؤتمرين

تعقبها جولة بالمعالم الأثرية فى الجهة .

٩ ر ٥ مساء الخروج من المهدية إلى المنستير

١٠ر١٥ ليلا الوصول إلى المنستير (استراحة بالنزل)

١١ ليلا مأدبة عشاء تقيمها على شرف المؤتمرين اللجنة الثقافية بالمنستير .

يوم الأحد ٢٦ مايو :

٩ صباحا حفلة استقبال تنظمها بلدية المنستير للسادة المؤتمرين بالرباط

١٠ صباحا الخروج من الرباط وجولة بالمنستير

١٢ ظهرا الخروج من المنستير فى طريق سوسة

١ بعد الظهر الوصول إلى سوسة ثم حضور مأدبة غداء على شرف السادة المؤتمرين تقيمها اللجنة الثقافية الجهوية بسوسة ؛

٣ بعد الظهر ابتداء برنامج زيارة المعالم الأثرية والمتاحف بسوسة

٥ مساء الخروج من سوسة فى طريق تونس العاصمة

٧ مساء الوصول إلى تونس .

يوم الاثنين ٢٧ مايو :

٩ صباحا : زيارة قرطاج (تجمع الوفود بنهج اليونان)

٤ مساء : تجمع السادة المؤتمرين بنهج اليونان للتوجه إلى المرسى على طريق أريانة وسكرة .

٤,١٥ مساء : الوقوف بملتقى الطرق بسيدى داود عند أطلال القناة التى كان يصل عليها ماء زغوان إلى قرطاجنة . ثم الاتجاه إلى جبل المنار .

٤,٤٥ مساء : الوقوف على الرأس الشرقى لجبل المنار ثم الانحدار إلى المرسى ، الوقوف بدار الضيافة بسيدى الظريف .

٥,١٥ مساء : محاضرة الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور نائب مجمع اللغة العربية فى المؤتمر عن « الآثار الحفصية بالمرسى » .

٦,١٥ مساء : حفلة استقبال بمقهى الحفصى تقيمها بلدية المرسى على شرف السادة المؤتمرين .

يوم الثلاثاء ٢٨ مايو :

٩ إصباحا :

اجتماع عام لسماع البحوث الآتية :

١ ـ الأستاذ الهادى سليم : أضواء حول مشاكل قصر الجم .
٢ ـ الدكتور ديمترى برامكى : تتمة الحفريات فى تل الغسيل .
٣ ـ الأستاذ مصطفى زبيس : المحراب فى الفن المعمارى المغربى .
٤ ـ الأستاذ عثمان الكعاك : بالرم كأنك تراها .
٥ ـ الأستاذ عبد العزيز إدريس : الموسيقى فى آثار متحف باردو .

١٢,٣٠ ظهرا :

محاضرة عن بعض روائع العمارة فى القاهرة
للأستاذ حسن عبد الوهاب

٤ مساء : زيارة المكتبة الوطنية

٧ مساء : حفلة استقبال يقيمها على شرف السادة المؤتمرين
سعادة سفير الجمهورية العربية السورية

١٠ ليلا : حفلة استقبال يقيمها على شرف السادة المؤتمرين
نادى عزيزة عثمانه بتونس

يوم الأربعاء ٢٩ مايو :

٣٠ر٩ صباحا : استقبال الوفود من طرف السيد كاتب الدولة
للرئاسة والدفاع الوطنى

٣٠ر١٠ صباحاً زيارة مركز الصناعات التقليدية بالدندان

١ بعد الظهر الوصول إلى إدارة إحياء أراضى وادى مجردة
وحضور مأدبة غداء تقيمها الإدارة على شرف
السادة المؤتمرين

٢٫٣٠ بعد الظهر التوجه إلى مناطق الإحياء

٤٫٤٥ مساء الرجوع إلى العاصمة

٥٫٣٠ مساء التجمع بنهج اليونان

٦ مساء الوصول إلى قصر السعادة بالمرسى لمقابلة فخامة رئيس الجمهورية

٨ مساء مأدبة عشاء يقيمها السيد كاتب الدولة للشئون الثقافية والأخبار على شرف السادة المؤتمرين .

١٠ ليلا الرجوع إلى بورصة الشغل لإقرار التوصيات النهائية واختتام الدورة .

خطب حفل الإفتتاح

كلمة الرئيس الفخرى للمؤتمر

الأستاذ الشاذلى القليبى

كاتب الدولة للشئون الثقافية والأخبار بالجمهورية التونسية

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرنى ويشرفنى أن أرحب بكم وأن أبلغكم تحيات الحكومة والشعب وعلى رأسهم فخامة رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة .

كما يسعدنى أن أتوجه بخالص الشكر والتهانى إلى جامعة الدول العربية التى ما انفكت تعمل من أجل البعث الثقافى وتهيئ له الظروف والوسائل .

وإن مؤتمركم هذا يقيم الدليل على أن الجامعة ليست أداة سياسية محضا ، وليست أداة دفاع سلبى فحسب ، بل فى وسعها أن تكون أيضا أداة بناء وأداة تضامن وأخوة ، وأداة سلام .

أيها السادة

إن مؤتمركم الذى يعنى بالآثار فى البلاد العربية سيبحث ناحية هى فى الحقيقة من أهم ما يربط بين الشعوب العربية : ألا وهى التراث الثقافى والحضارى المشترك بين جميع البلاد المنتسبة إلى هذه العائلة الكبرى التى قوامها الألفة والمحبة والتجانس الذى لا ينفى التنوع ولا يتعارض مع الشخصيات الإقليمية التى ازدهرت وأينعت فى كنف القيم العربية والإسلامية الأصيلة .

وإن مؤتمركم هذا لا يعنى فحسب بالآثار العربية فى البلاد العربية ، بل بالآثار الموجودة فى تلك البلاد عامة ، على اختلاف عصورها وتنوع انتسابها دون تمييز ولا حصر :

ذلك أن هذه الآثار تحدثنا عن ماضى هذه الشعوب وعما صنعته من حضارات مجيدة بفضل سواعد أبنائها وقدرتهم على الخلق والابتكار. تحدثنا عن ماض بعيد غابر، أو قريب نابض كانت فيه هذه الشعوب هى التى تخلق الثقافة وتنشر المدنية وتغذى البشرية بخلجات أفكارها وقويم اختراعاتها وعظيم اصطناعاتها.

فمن هذه الوجهة تنتسب العناية بالآثار فى بلادنا العربية قاطبة إلى المحافظة على التراث الإنسانى العام فى أجلى مظاهره. وفى ذلك تأكيد لهذه النزعة الشمولية التى دوما تحلت بها أمتنا والتى جعلتها متفتحة إلى العالم الخارجى تتفاعل معه وتبادله التيارات والعوامل بدون انقطاع ولا انطواء.

وحقا فإن الآثار المختلفة المتلاحقة قد أمكنها التجاور على أديم أرضنا الخصبة، وأمكنها التآخى وأن تقوم على مر الأزمان والأحقاب شاهدا على تآلف البشر فى تربتنا الطيبة نتيجة تجانس عريق وتضامن أصيل وتواصل لدفع عميق؛ فقد تداولت على بلداننا دول وأنظمة وثقافات بعضها أصيل وبعضها دخيل. ولكن فى كل مرة تتغلب التربة وتعلو كلمة الأعماق ويتم المزج والصهر والانعتاق.

ثم إن عملية الصهر والتأليف هذه تمت غير ما مرة فى تاريخ شعوبنا بتقدم يتجاوز حدود البلد المعنى بالأمر وينتشر شيئاً فشيئاً حتى يعم المنطقة كلها؛ ذلك شأن الحضارة المصرية القديمة وذلك أيضاً شأن الحضارة الفينيقية، وأختها البونيقية التى انصهرت بطبائع المغرب الإفريقى ونضجت فى مناخه المعتدل ثم من هناك انتشرت وعمت الشواطئ حتى بلاد السودان.

بهاتين الميزتين تحلت البلاد العربية عامة، وهذه الرقعة الإفريقية على وجه الخصوص :

ـ أصالة الدفع وطول النفس والقدرة على هضم الحضارات المتوالية المتكاملة على أنها من تراث الإنسانية ومن مكاسبها المقدسة . هذا من جهة .

ـ ومن جهة أخرى : سعى متواصل إلى الرقى ومساهمة دائبة فى إنماء التراث الحضارى العام وتزكيته والارتقاء به ثم نشره وتعميمه .

من هذه الناحية لم تكن الضفاف الجنوبية من بحرنا هذا الأبيض المتوسط أقل من الضفاف الشمالية ابتكاراً ولا نفعاً فى أداء الرسالة الحضارية والثقافية وإنما هى عصور وفترات كان التاريخ يداولها بين هذه وتلك حسبما يتغلب من ظروف اجتماعية وعقلية فى حياض البحر .

وحسبنا ـ معشر العرب ـ ما نشرته مدنيتنا فى العالم القديم من ثورة روحية وفكرية لا تزال تشهد المدن والجزائر بمآثرها العربية الإسلامية .

وحسبنا هذه الطاقة الخلاقة التى أظهرها أسلافنا العرب فى تكييف العالم بحسب النظرة الإسلامية الجديدة دون أن يحدثوا فى تيار الحضارة الانفصام الذى يوقف سيرها ويعرقل تقدمها . بل هم استطاعوا أن يجمعوا بين عمليتين قليلا ما يتهيأ التأليف بينها : المحافظة من جهة والتحويل إلى خدمة الأغراض الجديدة من جهة أخرى .

وذلك بيّن فى معالمنا وبناءاتنا . وبذلك ينطق جامع عقبة وصومعته الجليلة .

وليس أعمق أثراً فى نفوس الشعوب ـ أيها السادة ـ ولا أنهض لهمم الأجيال الفتية منها خاصة من الاعتبار بماضيها المجيد الذى ملأ ذكره صفحات التاريخ من الفراعنة وبابل إلى قرطاج ورومة إلى الإسلام آخراً وختاماً .

وليس أوكد للاعتبار به والبرّ له من صيانته والمحافظة عليه أن

يتلاشى وتندثر معالمه ، وبالبحث والتنقيب والتحليل والمعرفة حتى يتعظ الخلف بالسلف ويمكن التأمل والاعتبار .

ولكم كنا ، معشر العرب ، مقصرين فى القيام بهذين الواجبين المقدسين :

فالكثير من معالمنا القديمة والحديثة اندثر أو هو يهدده الانهيار والاضمحلال بسبب الإهمال وقلة الاكتراث بفترات يخلط فى إدراك قيمتها بين الاعتبارات العاجلة والآجلة .

وهناك سبب آخر يجب أن نعترف به بصراحة حتى يمكن العمل على تلافيه فى جميع البلدان : وهو قلة الدراية وانصراف الشباب عندنا عن البحث والتنقيب حتى أصبحت البلاد العربية عالة فى كشف كنوزها — سواء فى ذلك العتيقة والإسلامية — على العلماء الأجانب الذين يكرسون حياتهم ويتحملون المشاق المختلفة المرهقة أحياناً ويضحون براحتهم ويعدلون عن مرافق العيش فى أوروبا وكبريات المدن ليجروا الحفريات ويدونوا المكتشفات ويترجموا المعطيات التى من شأنها أن تنير تاريخنا وتثبت أمجادنا . وكان خليقاً بنا أن نكون أول من يتصدى لهذا العمل .

نعلم أن الوضع بدأ يتغير من هذه الوجهة فى كثير من أقطارنا ، ونعلم جميعاً ما تقوم به جامعة الدول العربية فى سبيل إحياء التراث العربى الإسلامى بالخصوص ونعلم ما أثاره مشروع إنقاذ آثار النوبة من تضامن وتحمس من قبل كل من يغار على معالم المدنية الإنسانية ويعتبرها من مفاخر الدنيا .

ولكن — أيها السادة — مع الحفاظ والصيانة ، ليس أجمل براً بتاريخنا الزاهر اللامع من أن يكون الخلف فى مستوى الجدارة بالسلف ، وأن تكون هذه الآثار دالة علينا ، لا فى الماضى والذاكرة والخيال ، بل فى الحاضر أيضاً والواقع والمستقبل .

أما الواقع فإن شعوبنا العربية ليست اليوم بحيث يمكنها الافتخار بما هي عليه من نهوض اجتماعي وازدهار اقتصادي وتقدم ثقافي . وذلك نتيجة لعصور توالت فيها عوامل تاريخية واجتماعية متعددة جعلت جذوة الفكر الحرّ الخلاق تخبو بعد أن كانت أنارت عهدا من عهود الإنسانية الزاهرة .

تلك آثار عصور الانحطاط والركود والجمود التي جعلتنا نتخلف عن ركب الحضارة بينما كانت أمم أخرى تتحرك فجأة للسير بفضل ما هيأه آباؤنا من ظروف علمية وحضارية أقعدهم عن استغلالها والانتفاع بها تفرق الشمل وتقلب الأوضاع السياسية . ولما استأنف العالم الأوروبي سيره نحو الرقي كان الفكر البشرى إذ ذاك متهيئاً لاختراعات واكتشافات جعلت الخطى قفزات ، وجعلت تخلفنا هرولة إلى الوراء وجزرا مطردا . وأخذ البون يمتد ويتسع بين شعوبنا العربية وبقية الركب الحضارى ، حتى أصبحت جماهيرنا بالنسبة إلى الشعوب المتطورة فى منزلة الراقدين الذين أفاقوا فجأة من سباتهم بعد قرون .

فواجبنا الأول ، الذى يفرضه علينا وفاؤنا لتراثنا المجيد ، أن نعمل على تمكين شعوبنا من اللحاق ، وأن نعبئ جهودنا للخروج بأوطاننا من بؤرة التخلف حتى نعيد إلى التاريخ فينا سيره الحثيث الذى به استطاع غيرنا أن يصنعوا المعجزات .

وإنه لفى مقدورنا — إذا صدقت عزائمنا وجدت أعمالنا — أن نغيّر مجرى التاريخ نحو عزّة العرب وكرامة الشعوب من أجل الحرية والانعتاق فى قارتنا السمراء . ولكن ذلك لن يتم إلا إذا تصدت جميع الدول المسؤولة عن حظوظ العرب والأفارقة لإعداد خطة محكمة واضحة الأهداف بينة السبل ، ترمى إلى إقرار الديموقراطية الحق التى أساسها العدالة الاجتماعية حتى يتوفر الشغل والتعليم ثم سائر مرافق العيش الكريم ، لا لقلة من المحظوظين بحكم عوامل وظروف شتى ، بل لمجموع المواطنين المتساكنين فى كل بلد من بلداننا المتعطشة إلى النهوض .

أجل إنه لفي مقدورنا أن نغير مجرى التاريخ إذا فعلت ذلك كل دولة ، مع توخي الصدق في القول والإخلاص في العمل ، وإذا تكاتفت جهود الجميع في كنف الأخوة والتعاون .

وإن تونس لجادة في هذه الطريق بقيادة رئيسها وحزبها وبفضل جهود حكومتها الشعبية التي تعتبر أن مسئولية الجيل الحاضر — بعد تحقيق الاستقلال — تنحصر في القضاء على التخلف وفي النهوض بأمتنا إلى مصاف الأمم التي هي في غنى عن التسول لتعيش ولا تنتظر أن ينتج غيرها لتستهلك .

أيها السادة !

من عبر الآثار التي عقدتم من أجلها مؤتمركم هذا ، أنها تشيد بما بين شعوبنا من روابط تاريخية قوامها الألفة والتقارب ووحدة النظر إلى الحياة وهي تشير أيضاً إلى أن هذا التضامن هو الذي جعلها في أزهى عصورها تقوى على الخلق وترتقي إلى مراتب السيادة .

ومن عبر هذه الآثار أيضاً — أيها السادة — أن من وراء هذا التجانس العميق تنوعاً ينبغي أن لا نعمد إلى طمسه أو تجاهله . فكل هذه الشعوب لها شخصيات قوية ثابتة قد لا تكون دوما على قدر رفعتها ، وقد يخيل إلينا أنها تضعف أحيانا ولكنها تختفي ولا تنطوي .

وقد كان أحسن برهان على ذلك ما قامت به شعوب المغرب العربي مثلا من رد فعل حاسم بعد القهر والاستيلاء ومحاولة التزوير لشخصيتها القومية وإرساء قواعد الفرنسية فيها طيلة أجيال متعاقبة .

أيها السادة !

ليس أبلغ من هذه العبرة ، كما أنه ليس أروع ولا ألهب للحماس من اعتبار هذا الدفع الذي يأتينا من أعماق التاريخ وبواطن الروح والذي يحدثنا عن طموح شعوبنا إلى التآخي والتماسك والالتقاء .

ليس أبلغ ولا أقوى من هذا وذاك لشحذ عزائمنا وإنارة السبيل أمامنا وتجنبنا مزالق الطريق ومخاطرها .

من هذه الناحية أيها السادة أعتقد أن أعمالكم وبحوثكم ترتبط أشد الارتباط – وإن كان ذلك لا يظهر دائماً للعيان – بهذا السعى الجماعى العظيم لذى يلتقى فيه جميع العرب من أجل تدعيم الوعى وتهيئة المصير المشترك .

وإنى واثق أيها السادة أن أعمالكم سوف تسفر عن نتائج إيجابية لدفع البحوث الأثرية عندنا إلى أشواط جديدة ، وإنى على يقين بالخصوص أنكم سوف تعملون على توضيح الخطة التى يجب اتباعها فى ميادين الحفظ والإحياء والدراسة والتعريف حتى نربط أجيالنا بعضها ببعض ونعيد إليها آفاقها التاريخية وأبعادها الحضارية التى بها تكون الأمة وبها يذكو شعورها بذاتيتها .

فبعون الله وتوفيقه وباسم فخامة رئيس الجمهورية التونسية أفتتح هذا المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية متمنيا له كل النجاح .

كلمة وفد الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

للدكتور على إبراهيم عبده

وكيل الإدارة الثقافية

السيد كاتب الدولة للشئون الثقافية والأخبار ومندوب فخامة رئيس الجمهورية :

أيها السادة :

باسم سيادة الأمين العام لجامعة الدول العربية – أتقدم بأطيب التحية إلى شعب تونس ، هذا الشعب العربى الشقيق الناهض ، الذى له من أمجاد تاريخه وكفاحه ما يكفل له أن يكون دعامة قوية فى تشييد صرح التاريخ العربى الحديث . وأرفع آيات الشكر إلى فخامة رئيس الجمهورية التونسية على تفضله برعاية هذا المؤتمر ولما أسبغه عليه من معان كريمة ، كما أنى أسدى عبارات الشكر للحكومة التونسية الموقرة على ترحيبها بنا وعلى الحفاوة البالغة التى قدمتها لنا ، وأما بعد :

فإن جامعة الدول العربية ، التى أنشئت فى عام ١٩٤٥ – نتيجة يقظة الشعور القومى فى مختلف البلاد العربية ، ولغرض توثيق الصلات بين أعضائها وخدمة المصالح العربية عامة قد أدركت منذ البداية ما يترتب عليها من الواجبات الخطيرة فى الشئون الثقافية ، كما أدركت منذ نشأتها ضرورة وجود أساس متين للتعاون الثقافى بين الدول العربية فسعت فى ١٩٤٦ إلى وضع معاهدة ثقافية بين دول الجامعة العربية تخدم أهداف هذا التعاون وتحدد وسائله . وقد اهتم واضعو هذه المعاهدة بشئون الآثار فى البلاد العربية ، فنصوا فى مادتها العاشرة على أن « تعمل دول الجامعة على توثيق

الصلات بين دور الكتب فيها ومتاحفها العلمية والتاريخية والفنية بوسائل شتى ، كتبادل المؤلفات والفهارس والقطع الأثرية ذات النسخ المتعددة والموظفين الفنيين ، وتبادل بعثات التنقيب عن الآثار ، وذلك بالاتفاق فيما بينها » .

ولتحقيق هذه الأغراض وللعمل على المحافظة على كنوز الآثار التى تزخر بها بلادنا العربية وعلى صيانتها وتبادل المعلومات بشأنها وتوحيد قوانينها تستعين الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بعقد مؤتمرات الآثار ، التى يشترك فيها علماء متخصصون من البلاد العربية . وقد دعت حتى الآن إلى عقد أربعة مؤتمرات للآثار :

الأول عقد فى دمشق فى سبتمبر عام ١٩٤٧ ، ومن أهم الموضوعات التى بحثها : كيف تهيئ الدول العربية جيلا من شباب العرب الاختصاصين فى التنقيب عن الآثار ، بعد أن كان هذا العمل وقفا على رجال البعثات الأجنبية .

وعقد الثانى فى بغداد فى نوفمبر ١٩٥٧ ، وبحث موضوعات كثيرة تهم رجال الآثار وتعود على دراسة الآثار وحمايتها فى مختلف البلاد العربية بالخير والنفع .

وكان الثالث فى مدينة فاس بالمملكة المغربية فى نوفمبر ١٩٥٩ ، ونوقشت فيه تقارير كثيرة عن التنقيب عن الآثار فى البلاد العربية ، وألقى فيه نحو عشرين بحثا علميا فى النواحى الأثرية المختلفة الهامة .

والآن يتحقق حلم طالما راود علماء الآثار فى البلاد العربية بانعقاد مؤتمرهم الرابع فى تونس ، الغنية بآثارها ، والتى أسهمت بنصيب رائع فى كتابة سجل تاريخنا الحافل .

أيها السادة :

نحن لا نريد أن نفخر بالماضى ، وأن نعيش على ذلك فحسب ، وإنما نريد أن نحول دراستنا للآثار والتاريخ إلى قوة ودعامة تدفعنا إلى الأمام .
والله أسأل أن يوفقكم ، وأن يكلل أعمالكم بالنجاح التام .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

كلمة وفد الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

الأستاذ عبد القادر محداد

مدير الشئون الثقافية بالجزائر

سيدى كاتب الدولة :

يغمرنى سرور لا مزيد عليه أن أحضر هذا المؤتمر المبارك الذى نظمته جامعة الدول العربية بالعاصمة التونسية فشكرا للجامعة العربية وشكرا لتونس التى رحبت بنا ، وهذه هى المرة الأولى فى حياة قطرنا الفتى التى تمثل فيها الجزائر فى مؤتمر عربى للبلاد العربية الشقيقة التى طالما كانت تنتظر دخول الجزائر فى الحظيرة العربية ... حلم كنا نحلمه منذ زمن بعيد فهاهو ذا أصبح حقيقة وهاهو ذا العربى الجزائرى يقول بين إخوانه العرب كلمته فى الآثار والفن ، آثار البلاد العربية عموماً وبلاد المغرب العربى على الخصوص حيث المدنيات التى غمرت هذه الديار ولم تعرف الحدود ، فالعمارة التى أخرجها المنقبون فى واليلى هى نفس العمارة التى أخرجوها فى جميلة وغيرها ، والزخارف الموجودة بمسجد القيروان أثرت فى زخارف قصر باديس بقلعة بنى حماد .

هذا أيها السادة هو تراثنا المعنوى يرجع إليها كما رجع إليها تراثنا المادى ، فالجزائر اليوم مهيأة لتقوم بواجبها نحو ذلك التراث النفيس الذى طالما لعبت به أيدى الأجانب الذين كانوا يدعوه المحافظة عليه وهم فى الحقيقة ينهبون ما تستطيع أن تصل إليه أيديهم ، ويخربون المدرسة « التاشيفينية » بتلمسان والمسجد بمشور تلمسان .

إن هذه هى الخطوة الأولى التى تخطوها الجزائر فى ميدان الآثار بالمشاركة مع الأقطار العربية الأخرى ، وإنى أخشى أن تكون هذه المشاركة ضئيلة ولكن عذرنا أن إدارة الشئون الثقافية لم تنظم إلا منذ عهد قريب فأرجو المؤتمرين الكرام أن يغضوا الطرف عما يعوز هذه العجالة التى تلحظونها فى التقرير المقدم لكم من ممثل الجزائر .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة وفد الجمهورية العراقية

للدكتور فيصل الوائلى

مدير الآثار بالجمهورية العراقية

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد كاتب الدولة للشئون الثقافية والأخبار

حضرات السيدات والسادة

إن الحضارة الإنسانية بجوانبها العلمية والأدبية والفنية لم تبلغ هذه الدرجة من التطور والسمو بسحر ساحر أو قدرة قادر . إنها ثمرة كفاح مرير وعناء أجيال استغرق آلاف السنين تعرضت خلالها البشرية فى أكثر من مرة لخطر الفناء والدمار . . وآثار الإنسان فى كل مكان تروى قصة ذلك النضال من أجل التطور بل تروى قصة الحياة نفسها . . وقد أراد لنا الغد أيها السادة نحن أبناء الأمة العربية أن نعيش فى نفس الميدان الذى بدأت فيه أولى محاولات الإنسان من أجل الانطلاق بالحياة الإنسانية والانتقال بها من الطور الحيوانى إلى طور يليق بما للإنسان من مقام . . ونبتت فى هذا الميدان بذور أولى النظريات العلمية وأولى محاولات الإنسان للكشف عن أسرار الطبيعة وحدثت أهم التطورات الاقتصادية والفنية . . وظهرت أولى الأفكار الدينية . . فآثارنا تراث للإنسانية فى كل مكان ومن هنا تتضح عظم المسئولية التاريخية التى ألقيت على كواهل أبناء هذه الأمة بوصفهم ورثة أوسدنة لهذا التراث الإنسانى الجليل .

سادتى : لقد مرت أزمان كانت خلالها الأجيال العربية تكتفى بالفخر والاعتزاز بما ينتشر على أرضها من أطلال لأنها تعيد إلى الأذهان صوراً من الماضى المجيد وتنتقل بهم إلى تلك العهود الذهبية التى كان خلالها الشرق

العربى يسطع بنور العلم والمعرفة ويلف الظلام والجهل بقية بقاع الأرض دون أن تدرك تلك الأجيال مسؤوليتها الجسيمة نحو تلك الآثار فتحفظها وتصونها ضد عوامل الطبيعة التى كانت تأكل بها وضد يد الإنسان الجاهل التى كانت تعبث بها فضيعت على البشرية جزءاً من نتاج العقل الإنسانى وثمرة لا تقدر من ثمرات جهوده .. فوجب علينا نحن أبناء هذه الفترة أن نكفر عن الخطيئة التى ارتكبها أسلافنا وأن نتحمل مسئولية الحفاظ على آثارنا وننطلق بكل طاقاتنا وإمكانياتنا نحو هذا الهدف لنكون أهلاً بشرف الوصاية على تراث الإنسانية ، ومما يدعو إلى الأمل والاطمئنان أن حكوماتنا الوطنية قد أدركت مسئولياتها فقدمت كل ما يمكن تقديمه لتسهيل مهمة علماء الآثار وتمكينهم من أعمالهم ، كما أننا نقدر لجامعة الدول العربية كل التقدير جهودها التى تبذلها فى سبيل تنسيق الجهود العلمية فى هذا الفرع من فروع المعرفة فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى . . وإسهام جامعة الدول العربية فى هذا المجال لا يكوّن جزءاً من رسالتها التى أسست من أجلها فحسب بل هو ضرورة تفرضها الوحدة الفكرية فى هذه المنطقة فى العصور القديمة والعصور الإسلامية . إن تاريخ أجزاء الوطن العربى تشابك مع بعضه فى كل ناحية من نواحيه ، ويكفى مثلا أن نقرأ أساطير هذه المنطقة وآدابها لنتبين مدى تلاحم هذه الشعوب والوحدة الفكرية التى كانت تشدها إلى بعضها وغيرها عن بقية شعوب العالم ومن هذا تبدو أهمية التنسيق والتعاون بين فعاليات المعنيين بتاريخنا القديم وآثارنا القديمة حتى لاتتبعثر الجهود وتضيع معالم الصلة . وقد قامت الجامعة العربية بدورها خير قيام لتحقيق هذه الغاية .

أيها السادة . . اسمحوا لى أن أتقدم باسم الشعب العربى فى العراق وباسم المجلس الوطنى لقيادة الثورة المباركة التى أخرجت العراق من العزلة القاتلة التى فرضتها عليه الشعوبية أيام العهد القاسمى الأسود بأجمل التحية إلى الشعب

العربى العظيم فى تونس البلد الحبيب إلى قلب كل عربى وإلى حكومته التى فتحت لهذا المؤتمر قلبها وهيأت له كل أسباب النجاح ؛ وأرجو للسادة الأفاضل أعضاء هذا المؤتمر التوفيق فى أعماله وفى قراراته التى أرجو أن نحرص جميعاً على تنفيذها وألا نتركها تذهب إلى حيث ذهب كثير من قرارات المؤتمرات السابقة ... إليكم جميعاً أتقدم بتحية عربية خالصة ،

والسلام عليكم ورحمة الله »

كلمة الجمهورية العربية السورية

للدكتور سليم عادل عبد الحق

المدير العام للآثار والمتاحف فى سوريا

سيادة ممثل فخامة رئيس الجمهورية التونسية

سيادة رئيس المؤتمر

سيداتى وسادتى :

يتشرف وفد الجمهورية العربية السورية بتقديم خالص الشكر وأوفره ، إلى فخامة السيد الحبيب بورقيبه رئيس الجمهورية التونسية الشقيقة ، لتفضله برعاية مؤتمرنا الرابع للآثار فى البلاد العربية . كما يسعده أن يعبر عن سروره العميق بما قامت به كتابة الثقافة والاخبار التونسية من جهود فى تهيئة أعمال المؤتمر والتحضير لانعقاده فى هذا البلد الكريم الذى تهفو إليه قلوب العرب فى هذا الظرف بالذات ، لأنه يصنع تجربة جديدة بناءة فى الدنيا العربية ، بعد أن فجَّرَ طاقات أبنائه ، وهيأ الحياة الكريمة لشعب عظيم من أكثر الشعوب العربية ابتكاراً وإبداعاً سار بتصميم رائع على طريق المدنية الحديثة بعد أن احتفظ بأساس مدنيته العربية الصافية ؛

ولا يعدل فرحتنا بالحلول فى تونس الحبيبة إلا اجتماعنا بزملائنا أثريى بلاد العرب ومؤرخيها الذين تصلنا بهم أوثق روابط الزمالة منذ عهد بعيد أو الذين كان لنا الحظ بالالتقاء بهم لأول مرة ، خلال لقائنا الأخوى الحالى الذى نرجو منه لعلم الآثار العربى ، ولتاريخ الأمة العربيـــة أكبر الفوائد .

وقد مضى على لقائنا فى المؤتمر العربى الثالث للآثار ، الذى انعقد فى فاس فى المغرب العربى نحو أربع سنوات ، انصرفنا خلالها نحن أثريى سورية لتنفيذ الأفكار البناءة التى أجمع الرأى على إقرارها آنذاك ، ولتحقيق ما أمكن تحقيقه من توصيات صدرت من ذلك المؤتمر . وكان أن زيدت الاعتمادات المالية المخصصة للأعمال الأثرية والمتحفية فى سورية ، وقامت عشرات الحفائر الأثرية فى مناطق التنقيب منها ، وطورت المتاحف السورية ، وجددت أساليب العرض فيها ، وقلبت إلى مراكز ثقافية تتلقى فيها جماهير الشعب رسالات الحضارات ضمن أجمل الإطارات ، وأنشئ عدد من المبانى لمتاحف جديدة ، وأقيمت مئات المعارض الأثرية والفنية ، ورممت عشرات المبانى والمناطق التاريخية ، وخطت المشاريع الأثرية الكبرى وجعلت فى إطار الخطة الإنمائية الخماسية العامة للبلاد ، وبُدئ فى تنفيذ هذه المشاريع ، وقطع شوط واسع فى إنشاء معجم للمصطلحات الأثرية العلمية بواسطة لجنة مشتركة بين المجمع العلمى العربى والمديرية العامة للآثار والمتاحف ، ونُظِّم مشروع قانون آثار جديد مستوحى من المشروع الذى أوصى المؤتمر السابق بجعله أساساً للقوانين الأثرية فى البلاد العربية ، وسُنَّ مشروع قانون ثان لحماية الممتلكات الثقافية لدى وقوع نزاع مسلح ، وهيئ مشروع قانون ثالث لتطوير جهاز المديرية العامة للآثار والمتاحف وجعلها قادرة على حمل الأعباء الجديدة التى نطلبها منها . ومشاريع القوانين هذه معروضة حالياً على السلطات المسؤولة ، وهى برسم الصدور . ويسرنا أن نضع نسخاً عنها أمام المؤتمر الحالى الموقر .

وعززت بلادنا التعاون الأثرى مع اليونسكو والمؤسسات والمنظمات الدولية المهتمة بشؤون الآثار والمتاحف . وكان من ثمرات هذا التعاون أن فازت الجمهورية العربية السورية بعدة مناصب دولية فى إدارات المؤسسات والمنظمات المذكورة . كما عززنا التعاون مع بعثات التنقيب

الأجنبية التى تعمل داخل الأراضى السورية ، ووجهناه توجيهاً وطنياً لا يتوخى إلا مصلحة سورية والعروبة .

ويرى الوفد السورى إلى المؤتمر الرابع للآثار أن تتابع دراسة التجارب التى قمنا بها فى المؤتمرات الأثرية العربية الماضية ، وأن نستخلص من هذه التجارب عناصرها الإيجابية . ولزام علينا وبلادنا تترقب شمس فجر الغد الذى تلوح مع أنواره اللألاءة وحدة العرب الكبرى ، أن نوثق الروابط بين مؤسساتنا العلمية ، وأن نعزز علاقاتنا الأخوية ببعضنا ، وأن نهيئ كل السبل لانطلاق العقل العربى ، وأن نجعله يلتقى ويساير العقل الغربى فى كل ما يشمل اختصاصاتنا ، وحتى يكون علم الآثار العربى فى أرقى المستويات ، وحتى يكون هذا العلم فى خدمة قوميتنا العربية وتاريخنا المشترك ، وواسطة لإبراز الصفات الهامة التى اختص بها تراثنا .ولا بد لنا من أن نبحث نحن أحسن السبل المؤدية لإنارة ما غمض من هذا التراث واستكشاف الحلقات المفقودة التى تربط بين مختلف أجزائه .

إننا معشر الأثريين لسنا رجال فكر فقط . إننا رجال عمل مخصصون لخدمة تراثنا . إننا جنود معبؤون دوماً لحمايته والدفاع عنه والمحافظة عليه كاملاً غير منقوص . إنه وديعة الأجيال العربية بين أيدينا ، وأمانة التاريخ العربى فى أعناقنا .

وختاماً أعود فأوجه خالص الشكر إلى حكومة الجمهورية التونسية لعقدها مؤتمر الآثار الرابع للبلاد العربية فى تونس ، ولاهتمامها بالآثار والأثريين ورعايتها لهم . كما أوجه كل الشكر إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية التى قامت بجهود كبرى لتنظيم هذا اللقاء الذى ستبقى آثاره فى نفوسنا مدة طويلة .

كلمة وفد الجمهورية العربية المتحدة

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس بالقاهرة

السيد كاتب الدولة للشئون الثقافية والأخبار ومندوب فخامة رئيس الجمهورية .

أيها السادة :

أحييكم أصدق التحية وباسم الجمهورية العربية المتحدة أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير إلى فخامة رئيس الجمهورية لرعايته لهذا المؤتمر وإلى الحكومة التونسية الموقرة لترحيبها بنا وحفاوتها ، وإلى الشعب التونسى العربى الشقيق .

وبعد : فإن مؤتمرنا يجتمع اليوم لدراسة بعض قضايا الآثار فى البلاد العربية ولا شك أن مثل هذه المؤتمرات تعود بالفائدة الكبرى على العالم العربى وتصل بين حاضره وماضيه فهى فضلاً عما توطده من روابط وثيقة بين علماء العرب تتيح الفرص لدراسة الكثير من مشاكلنا العلمية ولأن يسمع كل منهم بحوث الآخرين فى مجالات التخصص المختلفة .

فشكراً لجامعة الدول العربية التى تدعو إلى هذه المؤتمرات المفيدة القيمة والتى تحرص على الاتصالات العلمية الثقافية بين جميع البلاد العربية .

أيها السادة . . أكرر لكم تحيتى وشكرى والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة وفد دولة الكويت

للأستاذ طارق السيد رجب

رئيس قسم الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى صاحب السعادة كاتب الدولة

حضرات السادة الكرام :

أتقدم باسم دولة الكويت بجزيل الشكر إلى المسئولين فى جامعة الدول العربية وإلى المسئولين فى الجمهورية التونسية حيث أتاحوا لنا فرصة الاشتراك معهم فى هذا المؤتمر القيم .

فنحن فى دولة الكويت نقدر جميع الجهود الجبارة التى تبذلها الجامعة العربية فى سبيل دفع البلاد العربية إلى الأمام ورفع مستواها المعيشى والثقافى .

فهذه الجهود التى تبذل فى سبيل الاهتمام والمحافظة على تراثنا الأثرى العظيم إن دل على شىء فإنما يدل على مدى وعينا الثقافى ومدى تقدم البلدان العربية .

لذلك فإن دولة الكويت التى هى جزء لا يتجزأ من الجامعة العربية تبذل قصارى جهدها وإمكانياتها من سبيل إحياء أمجادنا القديمة فبادرت إلى تشييد المتاحف والتنقيب عن الآثار وصيانتها ودراستها . وهى لا تتوقف عند هذا الحد بل تناشد الجامعة العربية والمسئولين عن تنفيذ أهدافها وتطلب منهم توجيه اهتمامهم إلى مناطق الخليج العربى الذى يعتبر بحق

من أغنى مناطق الآثار فى الشرق الأوسط . والكشف عن حضارات هذه المنطقة المنسية واجب علمى فربما نجد فيه أساس الحضارة فى الشرق الأوسط وعناصر أخرى مبهمة فى تاريخ الحضارات القديمة .

إننى أتقدم بالشكر ثانية إلى المسؤولين على مساندتهم لنا فى مهمتنا الصعبة التى لا زلنا فى البلاد العربية نهملها حقها من الرعاية والصيانة .

والله ولى التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمه وفد الجمهورية اللبنانية

لسعادة السفير فريد شهاب

سيدى كاتب الدولة — سيادة رئيس المؤتمر

سيداتى سادتى

يشرفنى أن أنقل تحية عاطرة من لبنان إلى هذا الحفل الكريم ، حاملا أعظم مشاعر الشكر والمنّة إلى هذا البلد العامر الذى ننعم بكريم ضيافته وإلى حكومته وإلى فخامة رئيسه الرجل العظيم .

إن لبنان وهو البلد الذى تعاقبت عليه أكبر مجموعة من المدنيات الغابرة ، وتركت فيه آثاراً من أقدم آثار العالم وأروعها سوف يجنى من نتائج أعمال هذا المؤتمر حصة وافرة يستعين بها على استكمال تراثه الأثرى وهو لم يزل جادا فى سبر غور تربته ليستفيد منها ويفيد . فإليكم أيها السادة أكرر تقديم شكرى داعيا المولى أن يكلل أعمالكم بالنجاح والتوفيق . . والسلام عليكم .

كلمة وفد المملكة الليبية

للأستاذ مفتاح السطاوكى

السكرتير الأول بالسفارة الليبية بتونس

سيدى الرئيس

إخوانى الأعضاء

يسرنى أن أنتهز هذه الفرصة لأقدم شكر الحكومة الليبية على ما أبداه فخامة رئيس الجمهورية والحكومة التونسية من استعداد كامل لاستضافة هذا المؤتمر بالعاصمة التونسية ، وإلى جامعة الدول العربية على ما أبدته دائماً من تبنٍّ ورعاية لمثل هذه المؤتمرات التى تمثل حلقة هامة تربط ما للدول العربية من تجانس وتكامل فى التراث التاريخى والحضارى الذى نأمل أن يبرز ويجسد فى الإطار الذى نصبو إليه جميعاً .

هذا ويلاحظ بأن الخطوات المشكورة التى قامت بها الإدارة الثقافية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية فى جمع المعالم الأثرية وما يدور بشأنها من أبحاث فى الأقطار العربية الشقيقة والاقتراح بإبرازها فى مؤلف خاص يمثل مصدراً حيوياً يمكن الوثوق به فى تتبع التراث العربى إلى أقرب عهوده هو جدير ببذل المجهودات والمساهمة الفعلية من قبل الدول الشقيقة الأعضاء لتحقيق هذا الهدف .

والحكومة الليبية يسرها أن تؤكد استعدادها الكامل فى المساهمة

بما لديها من إمكانيات فى تحقيق أهداف هذا المؤتمر والعمل على تنفيذ مقرراته وتوصياته .

وإن ليبيا إذ تشارك فى هذا المؤتمر ليحدوها الأمل القوى فى أن تكلل أعماله بالنجاح والتوفيق وأن يتوصل المؤتمر فى بحوثه إلى قرارات تبرز الآثار العربيـــة وتجعلها فى المركز الأول بين آثار الأمم وحضارتها .

كلمة الجمهورية التونسية

للأستاذ عثمان الكعاك

حافظ دار الكتب الوطنية

سيادة كاتب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار

سيادة نائب القسم الثقافى بجامعة الدول العربية

حضرات الوفود الكريمة

أيها السادة الأفاضل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وبعـد :

فإنى أرحب بكريم مقدمكم الذى هو عنوان العروبة وعنوان علوم العروبة وآثار العروبة فى كل مكان من الخافقين وفى كل زمان من أقدم العهود .

لقد حللتم ببلد هو بلدكم أصالة وأرومة وعنصراً ولغة وأدباً وحضارة وآثارا وعلوماً وفنوناً .

وسيرى ابن الجزيرة العربية الشقيق ابن الشمال وابن الجنوب ، عناصر عربية من الشمال ومن الجنوب قد نقلت العروبة مرة أخرى إلى هذه الديار دفعة بعد دفعة ونقلت آثار العروبة الخالدة على وجه الدهر وسيدرك جيد الإدراك خلال تجولاته بتونس والقيروان وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس أنه ما فارق مكة المكرمة ولا المدينة المنورة ،

ويتعرف فيه الشقيق السورى أنه الموطن الثانى للأمويين فتونس هى أخت دمشق بعمارها وأسواقها وتمصيرها وآثارها وأخلاق أهلها وألوان حضارتهم العامة .

ويتعرف فيه الشقيق العراقى أنه امتداد للعراق الحبيب وأن القيروان هى أخت بغداد وبنت الكوفة وصنو سرمن رأى وأن التعمير والحضارة واللغة والفنون المعمارية والآداب لا تختلف بين المدينتين التوأمين .

لقد حللتم ببلد يتعرف فيه الشقيق المصرى أنه مهد الفاطميين فالمهدية هى أخت القاهرة .

ويتعرف فيه الشقيق اللبنانى أخوات نظائر نواضر لبيروت وصور وصيدا وجبيل وبعلبك سواء فى العصور الفينيقية أو فى العصور العربية الكريمة الخالدة .

وسيجد الشقيق الأردنى فى هذا البلد عناصر من السكان كثيرة العدد لا تختلف فى أرومتها من العناصر الأردنية سيتعرف إليها من عناوين أسمائها ومن سيماء ملامحها ومن لهجة لغاتها ومن طرق عيشها وألوان حضارتها .

كما سيشاهد آثاراً معمارية لهشام بن عبد الملك صاحب الآثار فى الأردن الشقيق ، وسيرى مدناً رومانية لا تختلف فى تمصيرها وآيات عمرانها عن جرش وسبستية .

وسيجد الليبى الشقيق فى المدن التى سيزورها وفى المعالم التى سيشاهدها نظائر لطرابلس وأجدابية وبنغازى ودرنة وأشحات وابدة وصبراتة ووادى الكعام .

سيرى أشباهاً لجوامع القرجى وأحمد باشا ودرغوث نظائر لأسواق طرابلس وبنغازى ودرنة ، ومعالم ومنازل ومساكن لا تكاد تختلف .

وسيرى الشقيق الجزائرى أن المعمار الجزائرى والتمصير الجزائرى ومظاهر الحياة الجزائرية لا تختلف عما سيشاهده بجارته تونس العزيزة عليه .

وسيعلم الشقيق المغربى أن بين حضارة فاس والقيروان والرباط وتونس وغيرها من المدن المغربية والتونسية المتوامة صلات قديمة ووثيقة ودائمة وأشباها ونظائر ووحدة معمار وعناصر وحضارة .

ولو كان من ضمن الوفود وفد أندلسى لرأى مدائن أندلسية وألواناً من الحضارة الأندلسية والآداب والفنون والمعمار ، ولرأى أصولا لذلك المعمار وتلك الحضارات والآداب والفنون .

أيها السادة الأفاضل .

إن أول ما يسترعى الاهتمام هو وحدة المعمار فى البلاد العربية فى أى عصر من العصور ذلك لأن نفس الشعوب التى بنت الحضارات قد مرت بها جميعاً ، واستقرت لديه جميعاً ولذلك فشاكلنا الأثرية واحدة .

نحن لا نستطيع أن نفهم الحضارة اليمنية الأولى إلا بعد أن نفهم الحضارة البربرية الأولى .

ولا نستطيع أن نفهم حضارة صور وصيدا وجبيل إلا بعد أن ندرس حضارة قرطاجنة وكركوان .

ولا نستطيع أن نفهم جرش وسبستية وبصرى وتدمر وبعلبك والإسكندرية ولبدة وصبراتة إلا بعد مقارنتها بدقة ولمبز وشرشال ووليلى .

ونحن لا نستطيع أن نعرف حضارة الفاطميين فى الشرق إلا بعد أن ندرسها فى مهدها بالغرب فى سبحاسة وتديس والقيروان ورقادة والمهدية .

لذلك فإن مؤتمركم هذا قد جاء فى إبانه السيكولوجى بالضبط لإعادة الصلة وتمكين المقارنة وإيجاد التكملة وتقرير الوحدة .

ويهمنا بخاصة أن نتعرف إلى هذه الآثار التونسية لأنها شلملة للعصور

محفوظة على وجه الدهور تعطينا نماذج أصيلة وكاملة من المعمار الأول وتطوراته الكاملة فى كلياته وجزئياته .

وتعطينا صورة كاملة من نقطة الانطلاق جامع القيروان ، فجامع قرطبة فالفن المدجى الأسبانى إلى أن نصل إلى الفن المدجى بإيطاليا وألمانيا وفرنسا وانجلترا ثم ننتقل إليه بأمريكا فنجده قائما ودليلا آخر على إشعاع الفن العربى فى كل مكان :

لذلك تعلقت همة فخامة رئيس الجمهورية المجاهد الأكبر بالمحافظة على هذه الآثار وصرف العناية إلى صيانتها ودراستها والتأليف فيها والتنويه بشأنها والنسج على منوالها فسترون الجوامع الأثرية المرممة وسترون جوامع فخمة جديدة قد شيدت وفق نمط معمارى كلاسيكى سليم قويم .

وسترون قصوراً جديدة وقديمة فترون الصلة الوثيقة بينهما .

على أن سيادة كاتب الدولة للرئاسة والدفاع هو أثرى مشهود له ، وقد قضى مدة من حياته يبحث وينقب ، فتأصلت هذه العادة الحميدة فيه ، فما زال دؤوبا على صيانة المعالم شغوفا بترميمها وإحيائها .

وعلى أن سيادة كاتب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار قد بذل مجهوداً جبارا لإحياء المعالم والإكثار من المتاحف وإعداد الإطار الفنى وانتخب أخيراً رئيسا لمدينة قرطاجنة فهذا ضمان وأكبر ضمان لإحياء أربعة عصور من تاريخ حضاراتها القيمة .

وأنتم ترون من هنا أى مجال للعمل ينتظركم وأى ثروة أثرية هى بين أيديكم وأى دراسات قيمة مفتوحة أمامكم وأى كنوز مدفونة تحتاج إلى أن تكشفوا عنها الغطاء وتنفضوا الغبار .

من هنا تتبين أهمية هذا المؤتمر ويتضح ما تعلق عليه من آمال جسام ويتجلى مبلغ الفائدة من اختياركم لتونس كمركز لأعماله الحاضرة .

تونس التى ترحب بكم والتى تشرفت بحضوركم

تونس التى قال فيها الشاعر :

وتونس تونس من زارها

وأنتم ستجدون على باب تونس من القيروان الذى وصفه الجاحظ

كتاب الحيوان . . :

ستجدون على هذا الباب مكتوبا بالخط الكوفى من صنف الط مار :

هذه مدينة عز الإسلام ادخلوها بسلام آمنين

المذكرات المقدّمة إلى المؤتمر

مذكرة

بشأن تخصيص أسبوع فى البلاد العربية

لصالح مشروع إنقاذ آثار النوبة

(مقدمة من الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية)

يلقى مشروع إنقاذ آثار النوبة ترحيبا كبيراً من الهيئات والدول فى شتى أنحاء العالم منذ قامت هيئة اليونسكو بتوجيه ندائها الدولى للمشاركة فى إنقاذ هذا التراث الإنسانى .

وقد أمكن بفضل الجهود التى بذلت فى هذا المجال أن يتم جانب من أعمال هذا المشروع فاكتملت أعمال الحفائر والمسح الأثرى وأوشكت أعمال تسجيل المعابد والمقابر ونقوش الصخور على الاكتمال ، كما تم نقل بعض المعابد فى بلاد النوبة ولا يزال يجرى نقل البعض الآخر .

غير أنه لا يزال هناك جزء هام من آثار النوبة فى حاجة إلى تضافر الجهود لإنقاذها ، ونخص بالذكر معبدين يعتبران أهم ما فى بلاد النوبة من معابد ونعنى بذلك معبدى أبوسنبل اللذين نحتهما فى الصخر رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ويحتاج مشروع إنقاذهما إلى مبالغ كبيرة من المال لابد من بذل الجهد للحصول على مساهمة الدول وهيئاتها وشعوبها فى توفيرها .

وقد اهتمت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية بهذا الموضوع فعرضته على اللجنة الثقافية للجامعة فى دورتها السادسة عشرة التى عقدت بالقاهرة فى فبراير ١٩٦٣ فأوصت بما يأتى :

« توصى اللجنة الحكومات العربية بالمساهمة الفعلية فى معاونة الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان على تحقيق مشروع إنقاذ آثار النوبة ومعبد أبو سمبل خاصة ، وإذا كان التضامن العربى قد بدأ جليا فى المجال الدولى الثقافى إبان الدورة الثانية عشرة لليونسكو حين اجتمعت كلمة الدول العربية على مساندة الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان فى مشروع إنقاذ آثار النوبة فإن اللجنة : —

(ا) توصى الدول العربية التى لما تساهم فى المشروع بأن تقدم عونها الأدبى والمادى له .

(ب) توصى بأن تقوم الأمانة العامة للجامعة بتشكيل لجنة تنفيذية عربية للدعوة فى البلاد العربية لتأييد المشروع ورسم الخطة التى تؤدى إلى توفير أكبر قدر ممكن من المعونة المالية والأدبية له . وعلى هذه اللجنة أن تتصل باللجنة التنفيذية التى أقرها اليونسكو فى دورته الأخيرة والتى يمثل البلاد العربية فيها : لبنان — الجمهورية العربية المتحدة — السودان ، وذلك لتنسيق العمل بين اللجنتين .

وقد أقر مجلس جامعة الدول العربية هذه التوصية فى دورته التى عقدت فى مارس ١٩٦٣ .

• • •

وتدعيما لجهود الوطن العربى وتضامنه الكامل — شعوبا وحكومات — فى صيانة تراثه القديم ؛ هذا التراث الذى يمتد آلاف السنين على مدى العصور والذى كان ولا يزال منبعاً يرتوى منه ثقافيا وفكرياً وحضاريا ، يجب على أبناء الأمة العربية أن يبادروا بإظهار مشاعرهم وتآزرهم جميعاً من أجل صيانته والمحافظة عليه ، وبذلك تضرب الأمة العربية المثل على وحدة الصف

العربى وتعاونه لخير أبنائه ، ولخير تراث لا يخص الأمة العربية وحدها بل يخص العالم بأسره .

وترى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، وقد أظهرت حكومات الدول العربية مشاعرها الأخوية إزاء هذا المشروع ، فأعلنت حكومات المملكة العربية السعودية والعراق ولبنان وقطر والمغرب وتونس والكويت إستعدادها للمساهمة فى هذا المشروع . كما قامت حكومة الكويت مشكورة بالمساهمة بمبلغ مائة ألف دولار — وهو ما يزيد على ضعف ما طلب منها وقامت فعلا بسداده —ترى الأمانة العامة أن تقوم الشعوب العربية بتأييد هذا التضامن وإظهاره بكافة الوسائل المعنوية والمادية ، حتى يكون فى هذا الشعور ما يدفع الدول والشعوب الأخرى فى جميع أنحاء العالم إلى المسارعة فى المساهمة فيه .

ولذلك تتقدم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بمشروع قرار لتنظيم أسبوع فى الدول العربيـــة لصالح مشروع أبو سمبل فى الجمهورية العربية المتحدة ، تقوم فيه أجهزة الاعلام المختلفة فى هذه الدول من صحافة وإذاعة وتليفزيون بالدعوة إلى اكتتاب المواطنين والهيئات والمؤسسات والشركات للمشروع . وتقدم الأمانة العامة المقترحات التالية للمؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية للنظر فى إقرارها :

١ — تصدر كل دولة من الدول العربية طابعاً بهذه المناسبة ، يخصص منه عدد لصالح هذا المشروع .

٢ — إقامة حفلات ترفيهية يخصص إيرادها لصالح المشروع .

٣ — إقامة مهرجانات رياضية بين الأندية المختلفة تخصص إيراداتها للمشروع :

٤ — دعوة المؤسسات والشركات والأفراد للاكتتاب لهذا الغرض .

٥ — تنظيم مساهمة الجامعات والمعاهد والمدارس .

ولا شك أن تنظيم هذا الأسبوع فى العالم العربى ، ينبغى أن يتم فى جميع الدول العربية فى آن واحد ، وبهذا يظهر الشعور والتضامن العربى بالمظهر الجديد بالأمة العربية ومجدها القديم .

والأمر معروض على المؤتمر للتفضل بالنظر .

والله ولى التوفيق .

مذكرة

بشأن تأليف كتاب

« المعالم الأثرية فى البلاد العربيــة »

(مقدمة من الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية)

كانت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية قد ألفت فى عام ١٩٥٦ لجنة لوضع مشروع كتاب عن « المعالم الأثرية فى البلاد العربية » ينشر باللغة العربية ، ويترجم أيضا إلى اللغات الأجنبية الحية .

وقد عقدت هذه اللجنة عدة جلسات استعرضت فيها المعالم الأثرية فى البلاد العربية ووضعت بيانا بالمعالم التى تراها جديرة بالكتابة عنها ، ومرفق مع هذا — صورة طبق الأصل — من البيان المذكور ، ورأت اللجنة أن تطلب الإدارة الثقافية إلى المختصين فى البلاد العربية بالكتابة عن الآثار الموجودة فى بلادهم والمتضمنة فى البيان المشار إليه وأن تنقسم كتابات المختصين إلى قسمين :

الأول : عرض عام عن تاريخ البلاد ، منذ أقدم الأزمنة إلى الآن ، أخصه فيما يتصل بتلك الآثار على ألا يزيد عن ألفى كلمة .

الثانى : نبذة عن تاريخ كل أثر من هذه الآثار أو منطقة من مناطق الآثار تشمل موجز تاريخ المنطقة أو الأثر وأهم رسومه فى حدود ٢٠٠ إلى ٦٠٠ كلمة عن كل أثر أو منطقة حسب أهميتها الأثرية .

وقد كتبت الإدارة الثقافية فى حينه إلى البلاد العربية لتكليف المختصين بها بالكتابة عن أهم الآثار فى بلادهم وفقاً للبيان المرفق ، وقدرت مكافأة رمزية قدرها جنيه مصرى واحد عن كل صفحة فولسكاب مطبوعة

على الآلة الكاتبة وتحتوى على ما يتراوح بين ٣٥٠ و ٤٠٠ كلمة ، ولكن لم يرد للإدارة حتى الآن غير ما وافتها به مصلحة الآثار فى الجمهورية العربية المتحدة عن المعالم الأثرية بها :

ونظراً لأن البيان المرفق لم يتناول معالم الآثار فى بعض البلاد العربية التى لم تكن أعضاء فى جامعة الدول العربية فى ذلك الوقت مثل جمهورية تونس ودولة الكويت والمملكة المغربية والجزائر فإن الإدارة الثقافية تعرض الأمر على المؤتمر للتفضل بوضع بيان جديد بأهم الآثار والمناطق الأثرية التى يشملها الكتاب المقترح تأليفه ، وللتفضل ببحث أمثل الطرق وأجداها لتنفيذ هذا المشروع :

الآثار والمناطق الأثرية

المقترحة أن يشملها كتاب

« المعالم الأثرية فى البلاد العربية »

الأردن وفلسطين :

عرض عام للآثار فيها ــ فيلادلفيا ــ مدينة القدس ــ جراش ــ بطرة (البتراء) ــ قصور البادية (قصر عمره ــ المشتى ــ حمام الصرح) ــ قبة الصخرة ــ المسجد الأقصى ــ كنيسة القيامة ــ الأسوار والأبواب بالقدس ــ قصر هشام بخربة المغجر ــ الخليل ــ كنيسة المهد ــ متحف فلسطين .

السودان :

عرض عام للآثار فيها ــ متحف الآثار بالخرطوم ــ أهرام السودان ــ آثار دنقلة ــ آثار بوهن ــ الآثار المسيحية .

سوريا :

عرض عام للآثار فيها ــ متحف الآثار بدمشق ــ متحف حلب ــ تدمر ــ بصرى ــ الجامع الأموى ــ قبة صلاح الدين ــ قلعة دمشق ــ قلعة حلب ــ خان الوزير بحلب ــ قصر العظم ــ قلعة المرقب ــ قلعة الحصن ــ تفاصيل من قصر الحير ــ الرقة ــ المعرة ــ حمص ــ حماه .

العراق :

عرض عام للآثار فيها ــ متحف العراق ــ بابل ــ نينوى ــ كنوز مقابر أور ــ آثار سامرا ــ جامع المنصور ــ الكاظمية ــ العتبات الشريفة :

مشهد الإمام على ومشهد الإمام الحسين ــ قصر الأخيضر ــ القصر العباسى ــ قبة سهرو ردى ــ خان مرجان .

المملكة العربية السعودية :

عرض عام للآثار فيها ــ مدائن صالح (الحجر) ــ نجران ــ الحرمان الشريفان .

لبنان :

عرض عام للآثار فيها ــ متحف بيروت ــ جبيل ــ بعلبك ــ أفقا ــ قلعة طرابلس ــ قلعة جبيل ــ قلعة حصن الأكراد ــ قلعة المرقب (مع اختيار مسجدين أثريين) ــ صيدا ــ صور .

المملكة الليبية :

عرض عام للآثار فيها ــ عين شحات ــ جرنا ــ المسجد الكبير ــ بعض الأسوار .

مصر :

عرض عام للآثار فيها ــ المتحف المصرى ــ الأهرام ــ أبو الهول ــ سقارة ــ بنى حسن ــ تل العمارنة ــ تونة الجبل ــ أبيدوس ــ دندرة ــ معبد الأقصر ــ معبد الكرنك ــ وادى الملوك ــ الدير البحرى ــ الرمسيوم ــ المقابر الخاصة ــ مدينة هابو ــ معبد أدفو ــ معابد أنس الوجود ــ مقابر أسوان ــ أبو سنبل ــ جامع عمرو بن العاص ــ الجامع الطولونى ــ الجامع الأزهر ــ أبواب القاهرة وأسوارها ــ قلعة الجبل بمشتملاتها ــ قبة الإمام الشافعى ــ مدرسة وقبة المنصور قلاوون ــ مسجد السلطان حسن ــ جامع الماردانى ــ جامع آق سنقر ــ مسجد برقوق بالنحاسين ــ مسجد المؤيد شيخ ــ خانقاه فرج بن برقوق والقباب حولها ــ مسجد قايتباى بالصحراء ــ

مسجد قجماس الإسحاقى ــ مسجد الغورى ووكالته ــ خان الخليلى ــ مسجد البرديني ــ منزل جمال الدين ــ منزل السحيمى ــ متحف الفن الإسلامى ــ منزل الكريتلية ــ المتحف القبطى ــ كنيسة المعلقة ــ كنيسة أبو سرجة ــ دير السوريان بوادى النطرون .

اليمن :

عرض عام للآثار فيها ــ مأرب وآثارها ــ سد مأرب ــ صرواح ــ بلاد الجوف ــ جامع صنعاء الكبير ــ مسجد الجند ــ مساجد تعز .

• • •

هذا مع ملاحظة أن الآثار التى وقع الاختيار عليها سيكون لمن يحررها حرية استبدال بعضها بما هو أهم ؛

مذكرة

بشأن إقامة معرض ثقافى عربى متنقل

فى البلاد الأجنبية

(مقدمة من الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية)

أولا :

كان مكتب الاعلام العربى فى ألمانيا الغربية قد بعث إلى إدارة الاستعلام والنشر بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية مذكرة تتضمن : أن الجهات الصهيونية فى ألمانيا قد نظمت فى المدة من ١٩٦٠/١١/٣ حتى ١٩٦١/١/١٥ معرضاً فى مدينة « ريكنجهاوزن » بمنطقة الرور الصناعية باسم « سينا جوجيا » . وقد احتوى هذا المعرض على آثار ووثائق ومخطوطات وكتب دينية ولوحات فنية ، ويهدف إلى أغراض كثيرة منها ارتباط اليهودية والمسيحية ووحدتهما وإثبات حق تاريخى لليهود فى فلسطين . وأبدى مكتب الاعلام العربى فى ألمانيا رأيه بإقامة معرض عربى ثقافى موحد فى ألمانيا تساهم فيه الدول العربية أو معارض عربية عن كل إقليم عربى ، وذلك لمقاومة مثل هذه الدعاية الصهيونية .

وقد قامت إدارة الاستعلام والنشر بإرسال صورة من هذه المذكرة إلى الإدارة الثقافية للاطلاع والنظر فى إمكان القيام بالعمل المقترح .

ثانياً :

عرضت الإدارة الثقافية هـذا الموضوع على المكتب الدائم للجنة الثقافية فى جلسته الخامسة والستين التى عقدت يوم ١٧ يونيه ١٩٦١ وبعد أن بحث المكتب الدائم الأمر اتخذ بشأنه التوصية الآتية : ــ

« يوصى المكتب الدائم بتأليف لجنة من كبار رجال الفن والتاريخ والآثار فى البلاد العربية ومن مدير إدارة الاستعلام والنشر فى الأمانة العامة للجامعة العربية ، لتشترك فى حلقة دراسية مع المكتب الدائم ، لبحث إقامة معرض ثقافى عربى فى ألمانيا الغربية ، ووضع ميزانية له ، علماً بأن نفقات إقامة هذا المعرض ستتحملها حكومات البلاد العربية . على أن تجتمع هذه الحلقة بالقاهرة فى ٢ أكتوبر ١٩٦١ .

كما يوصى المكتب الدائم البلاد العربية بالعمل على الإكثار من إقامة المعارض الثقافية فى البلاد الأجنبية ، وذلك لتنوير الرأى العام العالمى بأسس الحضارة العربية » .

ثالثاً :

اجتمعت هـــذه الحلقة فى جلستها الأولى بمبنى الأمانة العامة فى التاريخ المحدد فى التوصية السابقة (الاثنين ٢ أكتوبر ١٩٦١) وبعد أن درست الموضوع دراسة مبدئية ألفت لجنة فرعية من أربعة من أعضائها . واجتمعت هذه اللجنة الفرعية يوم ٧ أكتوبر ١٩٦١ وبحثت الموضوع بحثاً تفصيلياً وتقدمت برأيها إلى الحلقة فى جلستها الثانية بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٦١ فأوصت الحلقة بإقامة معرض ثقافى عربى متنقل فى البلاد الأجنبية لإبراز المعالم الحضارية فى الدول العربية قديماً وحديثاً . ومرفق مع هذا صورة من توصيات هذه الحلقة .

رابعاً :

ثم عرضت هذه التوصية على اللجنة الثقافية الدائمة فى دورتها الخامسة عشرة التى عقدت بالقاهرة فى يناير ١٩٦٢ فاتخذت اللجنة الثقافية التوصية التالى نصها (وقد وافق عليها مجلس جامعة الدول العربية فى دور انعقاده العادى السابع والثلاثين بمدينة الرياض الذى عقد فى المدة بين ٣١ مارس و ٤ أبريل ١٦٩٢) .

« توافق اللجنة على مبدأ إقامة معرض ثقافى عربى متنقل فى البلاد الأجنبية لإبراز المعالم الحضارية فى الدول العربية . ويبدأ بمعرض للفنون مثل العمارة والنحت والتصوير والفنون الزخرفية والتطبيقية والخط : على أن تنتقى معروضاته من معرض يقام فى مقر الأمانة العامة للجامعة العربية تعرض فيه الدول العربية أفضل ما لديها » .

خامساً :

وهكذا يتضح أن الموضوع — وفقاً لتوصية اللجنة الثقافية التى وافق عليها مجلس الجامعة — يقتضى اتخاذ خطوتين :

(أ) البدء بإقامة معرض فى مقر الأمانة العامة للجامعة العربية تعرض فيه الدول العربية أفضل ما لديها مما يمثل الفنون مثل العمارة والنحت والتصوير والفنون الزخرفية والتطبيقية والخط .

(ب) تنتقى معروضات من هذا المعرض لتكون معرضاً ثقافياً عربياً متنقلا فى البلاد الأجنبية لإبراز المعالم الحضارية فى الدول العربية .

ولبحث خطة تنفيذ هذه التوصية عرضت الإدارة الثقافية الموضوع من جديد على المكتب الدائم للجنة الثقافية بجلسته المنعقدة بتاريخ ٢٨ يونيه ١٩٦٢ ، فناقش الموضوع ، — بحضور السيد مدير إدارة الاستعلام والنشر بالأمانة العامة — ورأى أن المقصود من مثل هذه المعارض هو التعريف بمظاهر حضارة الأمة العربية قديماً وحديثاً والدعاية لها فى الخارج ،

ولذلك فإن إقامة المعرض على هذا الأساس هو أصلا من اختصاص إدارة الاستعلام والنشر بالأمانة العامة للجامعة العربية من حيث التنسيق بين ما تقدمه الإدارات المختلفة بالأمانة العامة خاصاً بأجنحة المعرض وأركانه ومن حيث التنفيذ .

ولذلك أوصى المكتب الدائم الإدارة الثقافية أن تعهد إلى لجنة فنية بوضع بيان ما يمكن أن يحتوى عليه المعرض من المواد الثقافية على أن يتم وضع هذا البيان فى غضون شهر يوليو ١٩٦٢ ثم يعرض هذا البيان على المكتب الدائم لإقراره تمهيداً لإرساله إلى إدارة الاستعلام والنشر بالأمانة العامة لتعمل على الحصول على هذه المواد من البلاد العربية بالإضافة إلى المواد الأخرى التى سيشملها المعرض :

وترى الإدارة الثقافية أن مؤتمر الآثار هو خير هيئة فنية لوضع البيان المطلوب .

والأمر معروض على المؤتمر الموقر للتفضل بالبحث وإبداء الرأى .

(مرفق)

توصيات الحلقة الخاصة بدراسة موضوع

« إقامة معرض ثقافى عربى فى ألمانيا الغربية »

« توصى الحلقة بإقامة معرض ثقافى عربى متنقل فى البلاد الأجنبية لإبراز المعالم الحضارية فى الدول العربية قديماً وحديثاً بالصورة الآتية :

أولا – الإطار العام للمعرض :

١ – أن يكون معرضاً عاماً للثقافة العربية .

٢ – أن يكون المعرض متنقلا حتى يمكن الاستفادة به إلى أبعد مدى .

ثانياً – معروضات المعرض :

أن يحتوى على صور ونماذج مجسمة لبعض الآثار الممتازة ولبعض الصناعات الحديثة فى البلاد العربية .

ثالثاً – أقسام المعرض :

١ – قسم الفنون :

ويشمل العمارة والنحت والتصوير والفنون الزخرفية والتطبيقية والخط .

٢ – قسم العلوم عند العرب :

ويشمل الطب والفلك والكيمياء وغيرها .

٣ – قسم الكتاب العربى :

ويستهدف التعريف بالكتاب العربى قديماً وحديثاً كما يستهدف إبراز الوعى العربى الثقافى على حقيقته ومدى حرص العرب على نشر المعارف

وتنشيط الحركة الفكرية بتوليــة الكتاب اهتماماً خاصاً وبالعمل على تشجيعه .

٤ ــ قسم النهضة الحديثة فى العالم العربى :

ويشتمل على صور ونماذج للمنشئات العمرانية الحديثة التي أقيمت فى مختلف أرجاء العالم العربى تبين معالم الحضارة الناهضة فى البلاد العربية .

رابعاً – النفقات التقريبية للمعرض :

١٠ر٠٠٠ جم	تكاليف إعداد نماذج مجسمة
٢ر٠٠٠ »	تكاليف إعداد الصور الفوتوغرافية
٥ر٠٠٠ »	تكاليف إعداد الخرائط والخطوط
٦ر٠٠٠ »	تكاليف إعداد نماذج من الصناعات العربية الحديثة
١٥ر٠٠٠ »	مصاريف شحن وتأمين ونقل لمدة سنتين (وهى المدة التى يحتمل أن يستغرقها المعرض فى طوافه بالبلاد الأجنبية) .
٥ر٠٠٠ »	مصاريف إقامة وانتقالات للموظفين المرافقين للمعرض
٢ر٠٠٠ »	مصاريف الدعاية للمعرض وإعــداد الإعلانات والكتيبات للتعريف بالعالم العربى والاعلام عنه .
٥ر٠٠٠ »	رصيد احتياطى
٥٠ر٠٠٠	مجمل المصاريف التقريبية التى يتطلبها تنفيذ مشروع هذا المعرض .

وقد رأت الحلقة أن يقسم هذا المبلغ على سنتين فيخصص مبلغ ٣٥ر٠٠٠ جنيه للسنة الأولى و ١٥ر٠٠٠ جنيه السنة الثانية .

خامساً – أن تقوم السفارات العربية ومكاتب الجامعة فى الخارج بالاتفاق مع الدول التى يتقرر إقامة المعرض فيها على تقديم أماكن العرض والتسهيلات الأخرى اللازمة ؛

كما أوصت الحلقة بأن تقام معارض أخرى عربية ، نوعية ودورية بعد هذا المعرض ، وبأن تعرض هذه التوصيات على اللجنة الثقافية فى دورتها القادمة : –

مذكرة

حول المشروع التدمرى الاستثنائى

مقدم من السيد عدنان البنى مدير الحفريات والدراسات الفنية

بالجمهورية العربية السورية

خصصت حكومة الجمهورية العربية السورية فى موازنتها الإنمائية اعتماداً بخمسة ملايين ليرة سورية ، لتنفق على العناية بأطلال منطقة تدمر الأثرية ، والقيام بأعمال تنقيب وترميم واسعة فيها ، خلال عشر سنوات ، بواقع خمسمائة ألف ليرة سورية سنوياً من مخصصات الموازنة الاستثنائية للمديرية العامة للآثار والمتاحف . وذلك ابتداء من الدورة المالية الحالية (١٩٦٢ - ١٩٦٣) .

وقد اصطلحت المديرية على تسمية هذا المشروع بـ « المشروع التدمرى الاستثنائى » وأخذت تنشط لتنفيذه منذ خريف هذا العام (١٩٦٢) ، وتعد له كل ما بوسعها إعداده حتى تأتى الأعمال المنفذة متناسبة مع أهمية المشروع .

ونود فى هذا التقرير أن نحدث المهتمين بالآثار العربية السورية ، والمتتبعين للمنجزات الرائعة التى قام بها علم الآثار العربى السورى ، والمعجبين بتدمر وتاريخها المجيد وفنها الزاهر من المواطنين والمسؤولين فى بلادنا ، والبلاد العربية الشقيقة وبقية أجزاء العالم ، عن مشروعنا التدمرى ، وأن نضع أمامهم الدوافع التى قادتنا إليه ، والمبررات التى تؤيد تنفيذه ، والأهداف والغايات التى يتوخاها هذا التنفيذ .

(أ) تاريخ تدمر :

كانت واحة تدمر ، بوفرة مياهها وملاءمة موقعها للحياة والإنتاج منذ العصور الحجرية القديمة مركز تجمع للعناصر البشرية فى الطرف الشمالى من شبه

جزيرة العرب . كما أن وجود هذه الواحة على مسافة متساوية تقريباً بين المدن السورية من جهة ، وبلاد ما بين النهرين من جهة ثانية ، جعلها بصورة طبيعية مكان استراحة ومحطة للقوافل بين البحر الأبيض المتوسط والفرات منذ فجر التاريخ . وقد ورد ذكرها فى النصوص التاريخية التى تعود إلى مطلع الألف الثانى ، ثم فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد . وفى القرن الأول قبل الميلاد أصبحت تدمر عاصمة دولة مزدهرة استطاعت أن توطد كيانها وأن تقيم سياسة توازن بين إمبراطوريتى الفرس والرومان . ولم تقم وصاية روما على تدمر إلا بعد قرن ونصف من الفتح الرومانى لسورية ، ولم يتم ذلك بقوة الفتح بل كان نتيجة طبيعية اقتضتها مصالح تدمر الاقتصادية . وهكذا جعلت تدمر تحمى نفسها وباديتها وتجارتها بهجانتها وفرسانها ورماتها الذين ذاعت شهرتهم ، وتصرف شؤونها الداخلية بمنظماتها السياسية والإدارية والاجتماعية التدمرية ، وسرعان ما حازت على لقب « المدينة الحرة » ثم لقب « المستعمرة الرومانية » الذى وضعها فى مصاف روما نفسها . ولما شعرت تدمر بضعف روما أمام دولة الساسانيين التى قامت فى فارس وبلاد ما بين النهرين فى مطلع القرن الثالث الميلادى وسدت على تجارة تدمر سبل دجلة والفرات والخليج العربى ، صممت السلالة العربية الحاكمة فيها على إحباط مشاريع الساسانيين التوسعية ، وعلى إزالة النفوذ الرومانى عن الشرق كله ، وتقويم اقتصاد هذا الشرق الذى كان التدمريون سادته دون منازع منذ أكثر من مائة عام . وكان بطل هذه الانتفاضة الملك أذينة التدمرى الذى أوشك أن يحطم دولة الفرس . ولما مات قامت من بعده زوجته الزباء تحقق آمال شعبها ، وتتصرف بحزم وسرعة ، فتضع يدها على سورية كلها ثم على مصر (٢٧١ م) وعلى آسيا الصغرى ، وتتخذ وابنها لقب الأباطرة الرومان ، وتستمر الزباء فى صراع جبار مع روما ، ويخونها القدر فتسقط أسيرة تحت أسوار مدينتها الباسلة . ويدرك التدمريون من بعدها أن معركتهم مع روما معركة حياة أو موت ،

فيقومون بالثورة تلو الثورة . وتنتقم روما فتهدم المدينة بعد أن نهبتها ، ويخيم ظلام النسيان على عروس الصحراء . ولا تستعيد شيئاً من أهميتها إلا فى العهدين البيزنطى والعربى الإسلامى ، ثم سرعان ما يحل بها مصيرها المحتوم .

وقد ورثت تدمر البتراء بعد زوال مملكتها (١٠٦ م) خــلال عهد ازدهارها السياسى الذى بلغ أوجه خلال القرن الثانى الميلادى ، وصرفت أمور الاقتصاد فى منطقة الشرق كلها .

وكانت مركزاً لتجارة جزيرة العرب والهند وفارس والصين مع البحر المتوسط . وقد قصدتها القوافل من كل حدب وصوب وأدت لها الضرائب والجمارك ، وكانت تفرغ فيها الأفاويه والعطور والعاج والحرير والجواهر ويتبادل بها المنتجات السورية الفنية الجميلة التى كانت تحمل إليها أيضاً .

وتحولت تدمر من الناحية العمرانيــــة والمعمارية نتيجة لهذا الازدهار الاقتصادى إلى مدينة من أمهات المدن فى العالم القديم ، ولم تقصر فى ذلك عن روما نفسها ولم تكن دون أنطاكية والإسكندرية ، وقد نظمت شوارعها وفق مخطط رقعة الشطرنج وانتشرت فيها الدور والقصور الباذخة والمعابد الفخمة والشوارع والمنشآت الرسمية الرائعة ، وأحيطت بسور منيع .

(ب) أوابد تدمر الباقية :

من أهم أوابد تدمر الباقيـــة ، وأكبرها وأهمها من الناحية المعمارية والزخرفية (معبد بل) الذى بدئ ببنائه فى مطلع القرن الأول الميلادى ، ولم يتوقف تشييده ، والعناية به وتجميله خلال القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وقد أقيم هذا المعبد على نسق المعابد الشرقية ، له هيكل رئيسى شامخ يتوسط صحناً مربعاً مرتفعاً مقاييسه حوالى (٢٠٠ × ٢٠٠ م) وهذا الصحن محاط بسور تحف به أروقة جميلة فيها المئات من الأعمدة الكورنثية الرشيقة ، وفى الصحن المذبح والحوض والقنوات وممر الضحايا الخ : والخلاصة تتمثل

الخصائص الأساسية للمعبد الشرقى فى معبد بل التدمرى على حين أن بعض تفاصيل البناء كالتيجان والأعمدة اتبعت الشكل الرومانى المألوف فى ذلك العصر. وهناك أيضاً من المعابد الباقية المشهورة فى تدمر معبد (بعلشمين) ، وقدجرت فيه مؤخراً حفائر هامة أبانت كل أقسامه وماكان ملحقاً به من الباحات .

ومن أهم أوابد تدمر القائمة الشارع الطويل الذى ما تزال أكثر أعمدته باقية على مسافة تزيد على ألف متر ، ومعالمه واضحة ، بمدخله الثلاثى الفتحات الجميل الحافل بالزخارف الفنية وبرواقيه ومفارقه وشوارعه التى تتعمل بالمسرح والأغورا ومجلس الشيوخ والمخازن والدور الخاصة .

وتتوسط الشارع الطويل « الترابيل » أى المصلية التى يتقاطع عندها شارعا تدمر الرئيسيان وهى تتألف من أربع دكات ضخمة كان فوق كل منها أربعة أعمدة غرانيتية بينها تمثال وفوق الأعمدة تيجان كورنثية تحمل عوارض هائلة مزينة بأفاريز وأطناف غاية فى الذوق . وهناك فى نهاية الشارع هيكل الموتى ، وبين البوابة والترابيل نجد حمامات تدمر .

كما أن فى تدمر الدور الخاصة المنتشرة فى كل أرجائها ، وكان بعضها مبلطاً بالفسيفساء ومكسوا بالرخام . ونضيف إلى ذلك الأعمدة التذكارية والأسوار والأقنية والموقع المعروف بمعسكر ديوقلسيان . ولا ننسى البناء الجميل الذى يطل على تدمر من فوق الرابية الغربية وقد رجح لدينا أنه قصر الزباء وهو بناء فخم تتصدره حنية ، يشكل بتيجانه الكورنثية الفنية وبعضاداته وواجهاته المخرمة بالزخارف النباتية الدقيقة ، معجزة فى فن النحت والنقش والزخرفة .

وحول تدمر من كل جهاتها مقابرها الشهيرة : وادى القبور الحافل بالمدافن الأرضية والمدافن الأبراج والمدافن البيوت وكذلك المقبرة الغربية والمقبرة الجنوبية الشرقية والشمالية الشرقية . وفوق كل ذلك يطل من فوق الجبل حصن ابن معن العربى فيعطى لأفق تدمر مع هضابها وأبراجها منظراً أخاذا لاينسى .

(ج) شهرة موقع تدمر :

تتمتع تدمر بصيت رائع فى كل بلاد العالم ، ومنذ القرون السابقة للإسلام كان العرب يذهلون لمرآها فينسبون بناءها للجن وينسجون عنها وعن ملكتها الزباء قصصاً أسطورية ، ويشيرون لها فى آدابهم وتاريخهم . وبعد قرون فى مطلع عصر النهضة كانت واحة تدمر تختلط مع قصة الزباء كالأسطورة فى أذهان المتفتحين على الآداب الكلاسيكية فى العالم الغربى ، والمغامرين منهم فى تجارة الشرق ، ويسعد الحظ أفراداً منهم منذ مطلع القرن السادس عشر بالشخوص إلى مشارف تدمر أو الدخول إليها بأعجوبة .

وصدر حوالى منتصف القرن الثامن عشر أول مؤلف جامع محلى بالرسوم الرائعة عن تدمر فأحدث ضجة فى أوربا . وتلاحقت أخبار تدمر (ففسرت لغتها وصدرت كتب رحلات إليها ورسوم عن أطلالها وهكذا . . .) .

ونشر أيضاً فى القرن التاسع عشر عدد من المؤلفات عن تدمر وورد ذكرها حتى فى قصائد بعض شعراء الغرب . وقد شهدت أواخر ذلك القرن ومطلع القرن العشرين سرقات منظمة لا تحصى لنقوش تدمر وتماثيلها الجنازية ، واشترك فى هذه الأعمال المخزية هواة الآثار والتحف وتجار العاديات حتى والدبلوماسيون ، وملأت الآثار التدمرية المتاحف المشهورة : فى كارلسبرغ فى الدنيمرك ، والمتحف البريطانى ، والمتربوليتان ، واللوفر ، ومتحف لينينغراد وبرلين حتى وجنيف... . .. . وتتابعت الأبحاث بالألمانية والفرنسية والإنكليزية والروسية فى المؤلفات والمجلات العلمية عنها وعن لغتها ومجموعاتها الأثرية التى انتشلت منها حتى بلغ عدد هذه الأبحاث فى وقتنا الحاضر ما ينوف على المائتين بين مجلد ضخم ومقالة .

وما زالت تدمر إلى عصرنا هذا مبعث اهتمام علماء العالم ومثقفيه لأنها أجمل المواقع الأثرية وأهمها على الإطلاق فى الشرق الأدنى . ولم تتجمع فى أى بلد

من بلاد العالم أوابد فى مثل تنوع أوابدها واتساعها ولمتدادها على مساحة تنوف على ١٢ كم٢ . هذا فضلا عن وجود تدمر فى وسط بادية الشام الرحيبة الشائقة وإحاطتها بنخيلها الظليل وتدفق العيون المعدنية فى أرجائها مما يجعلها فضلا عن أهميتها الأثرية منطقة سياحية من الدرجة الأولى وحلماً من أحلام المواطنين والسياح ، وقد عبدت مؤخراً طريق جيدة بينها وبين حمص فاتصلت بواسطتها بجميع المدن السورية . كما أنها ترتبط بدمشق وحلب ودير الزور بخط جوى ، وتنشأ فيها حالياً مؤسسات فندقية جديدة بالإضافة لفندقها المعروف . وفوق هذا وذاك أقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف فيها متحفاً إقليمياً رائعاً على أحدث أساليب العرض والتثقيف ويضم أكبر مجموعة من الآثار التدمرية فى العالم أجمع .

وأخيراً فإن تدمر رمز من أهم رموز ماضى بلادنا العربى الزاهر ، فقد ظلت كما ذكرنا خلال القرون الميلادية الثلاثة الأولى تكافح لتبقى سيدة مصيرها فى الوقت الذى كانت تتساقط الدول والممالك تحت نير روما ، وتمكنت فى أكثر من قرن أن تكون سيدة التجارة فى العالم القديم وصلة الوصل بين الشرق والغرب ، ولقب ملكها أذينة بمصلح الشرق كله ، وجمعت ملكتها الشرق كله من الفرات إلى النيل .

(د) النشاط الأثرى فى تدمر :

بدأ الاهتمام العلمى المنظم القائم على أعمال التنقيب المنهجية وإصلاح الأوابد بشكل فنى مدروس فى تدمرمنذ عهد مصلحة الآثار القديمة ، زمن الانتداب ، وذلك حوالى عام ١٩٢٤ ، حيث أجريت أولى أعمال التنقيب ، وفى العام الثانى أعد أول مخطط دقيق نسبياً للمدينة القديمة وفى عام ١٩٢٩ نقلت البلدة الجاثمة فوق معبد بل الشهير إلى شمالى شرقى الواحة . ثم سجلت الأوابد الأثرية منعاً للتعدى عليها ورسمت حدود المنطقة الأثرية . وبالتدريج تمت أعمال التنقيب فى معبد بل ، وفى الأغورا ، وفى الدور الخاصة القديمة شرقى المعبد ، وفى

وادى القبور والمقبرة الغربية ، وبعض أجزاء سور زنوبيا . وآزرت بعثة دنمركية فى بعض تلك الأعمال فى المقبرة الغربية . كما جرت بعض الإصلاحات والتدعيمات والدراسات فى معبد بل ومدخل الشارع الطويل والأغورا ومعبد بعلشمين والمدافن والأبراج .

وبعد إنشاء المديرية العامة للآثار والمتاحف بعد الاستقلال ، وجهت هذه المديرية لتدمر اهتمامها الأول . وفى بحر عشر سنوات (٥٢ — ١٩٦٢) لم تنقطع بعثاتها عن تدمر فى الخريف والربيع ، وأحيانا فى الصيف والشتاء فأزالت عشرات الألوف من أطنان الرمال والأنقاض وأظهرت المسرح الجميل والشارع الطويل بين «التترابيل» «والمدخل» ، على طول ينوف عن ٤٠٠ م وعرض ٤٠ م . واكتشفت حمام تدمر وجانبا من أسواقها ، وثكنة من ثكناتها . كما جلت أسرار حوالى ٢٥ مدفنا من مدافنها وأخرجت منها مئات التماثيل والمنحوتات . وصانت بعثات المديرية المذكورة أجزاء كبيرة من أروقة شارعها الطويل وأعادت بعض أعمدتها المنهارة ، كما أعادت إنشاء بعض المدافن الأرضية والبرجية . ودفعت المديرية العامة للآثار والمتاحف بعثة سويسرية للتنقيب فى معبد بعلشمين وأخرى بولونية لتكشف عن الموقع المعروف بمعسكر ديوقلسيان .

وقام اختصاصيو المديرية العامة للآثار والمتاحف بالإضافة إلى هذا النشاط بإعداد دراسات علمية عن تدمر وتهيئة مصورات عديدة لها . واتبعوا ذلك بتحديد المنطقة الأثرية بشكل نهائى .

ومع ذلك فإن أكثر من ثلاثة أرباع مدينة تدمر على الرغم من الأوابد الظاهرة والأوابد التى اكتشفت خلال ذلك النشاط كله ، ما يزال مغيبا تحت الثرى ينتظر دوره ليبدى جماله ويسهم فى إكمال صورة تدمر الرائعة .

إنها لمهمة شاقة وطويلة ، ولكن كم من المفاجآت ما تزال تنتظرنا وكم من مبان تحدثت عنها النصوص التاريخية نتوقع العثور عليها . إن مشروع

الكشف عن منشآت تدمر الأثرية وترميم هذه المنشآت جليل حقا وينتظره العلم والعلماء ، ويرتقبه العالم أجمع ، وتمنى متاحفنا نفسها به منذ وقت طويل . وها هى ذى المديرية العامة للآثار والمتاحف تتصدى لتحقيقه بحرارة وشجاعة وتحشد له خبراءها واختصاصييها وما يتوفر لديها من فنيين سواء فى البلاد أو خارجها ، وتضع لتحقيقه خطة مدروسة فى ميدانى التنقيب والترميم تستمر ستة أشهر كل عام . فى الربيع والخريف ، وتسخر فيه الأدوات والمعدات الميكانيكية المختلفة والرافعات والسيارات مع كل ما يتبع ذلك من تنظيمات إدارية وفنية .

(هـ) أعمال التنقيب فى المشروع التدمرى الاستثنائى :

١ ــ إكمال التنقيب فى الشارع الطويل وتوضيح الدروب المتفرعة منه وجلاء المخطط العمرانى لتدمر وتمكين الزوار من التجول بيسر فى كل أرجاء المدينة القديمة والتنقل بين معابدها وساحاتها وأحيائها الرسمية والعامة .

٢ ــ إتمام الكشف عن المنطقة التى تحف بالأغوار والمسرح وتخليصها من أكبر عملية من الرمال والأنقاض والأتربة فى تدمر كلها .

٣ ــ التنقيب حول معبد بل وإظهار المعبد بالشكل الذى كان عليه فى عصر تدمر الذهبى .

٤ ــ التنقيب عن معبد الربة أترغاديس عند بوابة الشارع الطويل والبحث عن معابد أخرى ذكرتها النصوص كمعبد اللات ومعبد آريس وغيرها .

٥ ــ توضيح معالم السور حول المدينة وجــلاء التحصينات التى أعدتها زنوبيا لتواجه جحافل روما وتعيين الأجزاء التى أضيفت فى العهــدين البيزنطى والعربى .

٦ ــ الربط بين الترابيل ومعبد بعلشمين بعملية تنقيب واسعه تكتشف فى طريقها المبانى المجهولة القائمه هناك .

٧ – إظهار شبكة القنوات فى المدينة وهى من أكثر المشاريع التدمرية إتقانا وفناً ، ومعرفة منشئها ومنتهاها ، الأمر الذى هو فى غاية الأهمية من الناحيتين العملية والعمرانية .

٨ – إجراء تنقيبات واسعة فى المدافن البيوت والمدافن الأرضية وحول المدافن الأبراج فى المقابر الأربعة التى تمتد بضعة كيلومترات حول تدمر .

٩ – التنقيب فى عدد من أحياء المدينة المجهولة حتى الآن وكشف نماذج جديدة من مساكن المدينة .

١٠ – تنفيذ مئات الاسبار فى تدمر وحولها لأغراض دراسية وتمهيداً لإعداد المصور النهائى لتدمر الذى سيكون ولا شك حدثا فى علم الآثار ؛

(و) الترميم فى المشروع التدمرى الاستثنائى :

١ – إصلاح معبد بل بإعادة تشييد بعض أجزاء أسواره الهائلة المنهارة وأعمدته وتفاصيله المعمارية الفريدة :

٢ – إصلاح معبد بعلشمين والعناية بباحته الخارجية وهيكله المركزى وإعادة تكوين التفاصيل الفنية والطقسية داخل ذلك الهيكل .

٣ – إعادة التراbيل إلى ما كانت عليه علماً بأن بعض عناصرها تزن أكثر من عشرة أطنان وهى إحدى مشاكل العمارة التدمرية المعقدة .

٤ – إعادة بناء المسرح تمهيدا لاستخدامه فى إحياء حفلات موسيقية واستعراضات فولكلورية ومسرحيات كلاسيكية .

٥ – إعادة إنشاء بعض المدافن البيوت ومنها مدفن مارونا (قصر الحية) وبعض المدافن الأبراج وعدد من المدافن الأرضية التى سترتبط بعضها فى نفق تحت الأرض تسهل للزائر اجتلاءها وتعطيه فكرة واضحة عن اتساعها وامتداد رقعتها .

٦ – إعادة نصب أعمدة الشارع الطويل وتركيب أطناف الأروقة

وأفاريزها والعمل على إظهار هذا الشارع جهد المستطاع ، بروعته الأولى .

٧ — تدعيم الأوابد التى تكشف عنها أعمال التنقيب وإعادة الأقسام المنهارة منها وإعداد المخططات الهندسية لها .

٨ — ترميم القصر المشرف على الموقع المعروف بمعسكر ديوقلسيان .

(ز) بعض النتائج التى يؤمنها المشروع التدمرى الاستثنائى :

١ — إحداث مركز أثرى لتدريب جيل جديد من الاختصاصيين العرب فى شؤون التنقيب والترميم وإنشاء الدراسات والمخططات .

٢ — خلق بؤرة سياحية فى واحة بقلب بادية الشام من أحدث ما عهده الشرق الأدنى مجهزة بالصوت والضوء ، حافلة بالمؤسسات الفندقية ومعسكرات الشبيبة تبعث النشاط فى منطقة البادية كلها وتؤمن للبلاد موارد كبيرة من النقد النادر فضلا عن الدعاية للبلاد .

٣ — تشغيل اليد العاملة من أهالى المنطقة والعشائر الضاربة حولها وتهيئة فرصة العمل المنتج لها مما يؤدى إلى تدريبها على الأعمال الحديثة ، وبالتالى يطور أهالى المنطقة اجتماعياً واقتصادياً .

٤ — هذا وإن مشروع التنقيب فى أطلال مدينة تدمر وإصلاح أبنيتها الأثرية بشكله الواسع ، من أهم المشاريع العلمية التى يمكن أن يحققها العصر الحاضر . لأنه سيؤمن لعلم الآثار واللغات الألوف من المكتشفات والنصوص التدمرية الجديدة التى تجلى نواحى كثيرة من ماضينا العريق . كما سيمكننا من وضع اليد على الكثير من الثروات الأثرية المنقولة الثمنية جداً من التماثيل والمنحوتات والنقود والحلى والأوانى التى تحفل بها هذه المدينة التى كانت فى عصرها واحدة من أغنى مدن العالم .

مذكرة

بشأن إنقاذ الآثار المهددة بالغرق

بعد إقامة سدود دجلة والفرات

(مقدمة من وفد الجمهورية العراقية)

استمع أعضاء المؤتمر أمس بتاريخ ٢١ / ٥ / ١٩٦٣ إلى محاضرة الأستاذ الدكتور فيصل الوائلى رئيس وفد العراق ومدير الآثار العام بالعراق عن « آثارنا ومشاريع الرى » .

ولعل السادة الأعضاء المحترمين بالمؤتمر الرابع للآثار قد اقتنعوا بوجاهة الأسباب الداعية إلى ضرورة إنقاذ الآثار وإجراء مسح عام لجميع المواقع المهددة بالغرق والضياع .

ولهذا يرجو أعضاء الوفد العراقى ، بأن يوصى المؤتمر بضرورة إجراء مثل هذا المسح العام وأن يوصى بتقديم المساعدات الفنية وغيرها للجمهورية العراقية :

مذكرة

بشأن حفظ التراث الموسيقى العربى

(مقدمة من وفد الجمهورية العراقية ووفد جامعة عين شمس بالقاهرة)

لاحظ أعضاء المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية المنعقد فى تونس عند زيارتهم للمعهد الرشيدى للموسيقى فى مساء ٢١ / ٥ / ٦٣ أن هذا المعهد يقوم بعمل جليل منذ عام ١٩٣٤ وهو تسجيل كل التراث الموسيقى التونسى ، ولاحظ الأعضاء أيضاً أن هذا التسجيل مدون بخط اليد تدويناً جميلا غير أنه يخشى على هذا الجمع أن يتبدد وأن تعدو عليه الظروف .

وقد تحدث الأعضاء فيما بينهم وانتهوا إلى أن مثل هذا التدوين يجب أن يكون مذاعاً معروفاً فى البلاد العربية كلها باعتباره أثراً من آثار التراث الموسيقى الأندلسى ذاع فى الماضى فى كل البلاد العربية .

ولهذا نقترح بأن يوصى المؤتمر الرابع للآثار بأن تقوم الأمانة العامة للجامعة العربية بتصوير نوت هذه الموسيقى ، وبطبعها ، وبإذاعتها .

اللجان الفرعية للمؤتمر

اللجنـــة الأولى

(لدراسة موضوع : إنقاذ آثار النوبة
ومشروع منطقة تدمر الأثرية)

الأعضاء :

١ – الدكتور سليم عادل عبد الحق (الرئيس)
٢ – الأستاذ طارق السيد رجب (المقرر)
٣ – الدكتور كاظم الجنابي .
٤ – الأستاذ عبد العزيز إدريس .
٥ – الأستاذ مفتاح الكاديكي .
٦ – الدكتور عبد الهادي شعيرة .
٧ – الدكتور ديمتري برامكي .
٨ – مستر دايفوكو .
٩ – الأستاذ محمد المسفيوي .
١٠ – الأستاذ منير النصولي

اللجنـــة الثانيـــة

(لدراسة موضوع : قوانين الآثار ورعاية الصناع المشتغلين بالآثار)

الأعضاء :

١ ـ الأستاذ حسن عبد الوهاب (الرئيس)
٢ ـ الأستاذ بشير زهدى (المقرر)
٣ ـ الدكتور فيصل الوائلى .
٤ ـ الأستاذ جهينة عطاء الله .
٥ ـ الأستاذ مفتاح الكاديكى .
٦ ـ الأستاذ طارق السيد رجب .

اللجنــــة الثالثــــة

(لدراسة موضوع : المصطلحات وتأليف كتاب
« المعالم الأثرية فى البلاد العربية »)

الأعضاء :

١ ــ الأستاذ مصطفى زبيس (الرئيس) ٥
٢ ــ الدكتور نور الدين حاطوم (المقرر)
٣ ــ الأستاذ حسن عبد الوهاب ؛
٤ ــ الأستاذ عبد القادر محداد ؛
٥ ــ الأستاذ سعيد الديوه جى ؛
٦ ــ الأستاذ عمار المحجوبى ؛
٧ ــ الأستاذ بشير زهدى ؛
٨ ــ الأستاذ ديمترى برامكى ؛
٩ ــ الأستاذ محمد الشابى ؛
١٠ ــ الأستاذ محمد الحنشى ؛

لجنة الصـــياغة العامة

الأعضاء :

١ ـ الدكتور سليم عادل عبد الحق :

٢ ـ الدكتور على إبراهيم عبده :

٣ ـ الأستاذ عثمان الكعاك :

٤ ـ الأستاذ حسن عبد الوهاب .

٥ ـ الأستاذ نور الدين حاطوم .

٦ ـ الدكتور عبد الهادى شعيره .

٧ ـ الدكتور فيصل الوائلى .

٨ ـ الأستاذ طارق السيد رجب .

٩ ـ الأستاذ حسنى أحمد عبد الرحيم .

تقرير اللجنـــة الأولى

عقدت اللجنة الفرعية الأولى جلستين : الأولى يوم الثلاثاء ٢١ مايو ١٩٦٢ ، والثانية يوم الأربعاء ٢٢ مايو ١٩٦٣ بحضور السادة :

١ – الدكتور سليم عادل عبد الحق .

٢ – الأستاذ عبد العزيز إدريس .

٣ – الدكتور عبد الهادى شعيره .

٤ – الأستاذ كاظم الجنابى .

٥ – الأستاذ طارق السيد فخرى رجب .

٦ – الدكتور ديمترى برامكى .

٧ – الدكتور دايفوكو .

٨ – الأستاذ مفتاح الكاديكى

٩ – الأستاذ محمد المسفيوى .

١٠ – الأستاذ منير النصولى .

* * *

واختارت اللجنة الدكتور سليم عادل عبد الحق رئيسا لها ، الأستاذ طارق السيد فخرى رجب مقرراً .

وبحثت اللجنة الموضوعات المحالة إليها وهى :

أولا : موضوع تخصيص أسبوع فى البلاد العربية لصالح مشروع إنقاذ آثار النوبة :

وبعد تلاوة المذكرة المقدمة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

تحدث السيد رئيس اللجنة عن أهمية إنقاذ آثار النوبة وخاصة معبدى أبى سمبل وواجب الدول العربية فى الإسراع بالمساهمة فى هذا المشروع الجليل قبل فوات الأوان ، ثم تحدث السيد مندوب اليونسكو فذكر أن هناك مشروعين استثنائيين لا تتجاوز تكاليف تنفيذ كل منهما ٣٦ مليون دولار وهما :

١ – المشروع السويدى : ويقترح تجزئة المعبدين ونقلهما إلى مكان آخر ؛

٢ – المشروع الفرنسى ويقترح إحاطة كتلتى معبدى أبى سمبل بصندوق من الخرسانة ثم سحبه إلى مكان آخر بعد ارتفاع مستوى النيل .

وأضاف مندوب اليونسكو أن الدول الأعضاء على استعداد لتخصيص ما يقارب ٧ ملايين دولار ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الجمهورية العربية المتحدة ستساهم بمبلغ ١١٫٥ مليون دولار ، وبين أن المنحة التى ستقدمها الولايات المتحدة إذا عُدل عن المشروع القديم الذى قدرت تكاليفه بمبلغ ٨٦ مليون دولار سوف تكون فى حدود ٣٣٪ من مجموع المبالغ المتجمعة .

وبعد المناقشات رأت اللجنة أن تقوم حكومات الدول العربية بتنظيم أسبوع لصالح إنقاذ معبدى أبى سمبل تقوم فيه أجهزة الإعلام المختلفة فى هذه الدول من صحافة وإذاعة وتليفزيون بالدعوة إلى اكتتاب المواطنين والهيئات والمؤسسات والشركات للمشروع وذلك على النحو الآتى :

١ – تصدر كل دولة من الدول العربية طابعاً بهذه المناسبة يخصص من ريعه نصيب لصالح هذا المشروع ؛

٢ – إقامة حفلات ترفيهية يخصص إيرادها لصالح المشروع ؛

٣ – إقامة مهرجانات رياضية بين الأندية المختلفة تخصص إيراداتها للمشروع.

٤ – دعوة المؤسسات والشركات والأفراد للاكتتاب لهذا الغرض .

٥ – تنظيم مساهمة الجامعات والمعاهد والمدارس .

٦ – أن تسهم الحكومات العربية بمساعدات مالية لصالح هذا الأسبوع ؛

وتؤيد اللجنة التوصية التى اتخذتها اللجنة الثقافية فى دورتها السادسة عشرة بتكوين لجنة تنفيذية عربية للدعوة فى البلاد العربية لتأييد المشروع ورسم الخطة التى تؤدى إلى توفير أكبر قدر ممكن من المعونة المالية والأدبية له وتنسيق الجهود المبذولة فى هذا السبيل مع اللجنة التنفيذية فى اليونسكو . وترى اللجنة أن يكون تكوين اللجنة التنفيذية العربية المشار إليها على النحو الآتى :

١ – مندوب عن الجمهورية التونسية ؛

٢ – مندوب عن الجمهورية العراقية ؛

٣ – مندوب عن الجمهورية العربية السورية ؛

٤ – مندوب عن الجمهورية العربية المتحدة ؛

٥ – مندوب عن دولة الكويت ؛

٦ – مندوب عن الجمهورية اللبنانية .

٧ – مندوب عن المملكة الليبية .

٨ – مندوب عن المملكة المغربية .

٩ – مندوب عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ؛

ثانياً : *المشروع الاستثنائى لصيانة آثار تدمر* :

١ – تناشد اللجنة الحكومة السورية تعضيد المديرية العامة للآثار والمتاحف فى مشروعاتها لإنقاذ آثار تدمر وصيانتها بزيادة الاعتمادات المالية التى تمكن المديرية من إنجاز هذه المشروعات الضخمة ؛

٢ – توصى اللجنة الدول العربية بإيفاد علمائها ومهندسيها إلى سورية للمشاركة فى أعمال التنقيب وصيانة الآثار التدمرية .

ثالثا : موضوعات عامة :

ترى اللجنة أن تراعى الدول العربية ما يأتى :

١ – العمل على صيانة المواقع الأثرية لدى القيام بمشاريع التنمية الاقتصادية ، وتفادى التضحية بها .

٢ – ضرورة اشتراك الإدارات التى تقوم على تنفيذ مشاريع التنمية الاقتصادية بأن تتحمل كافة نفقات البحث العلمى والحفر والتنقيب .

٣ – أن تستطلع إدارات المشاريع الكبرى فى كل دولة عربية رأى الهيئات المختصة بالآثار فى الأعمال التى تنوى القيام بها مقدماً والتى تهدد المناطق الأثرية وأن تلحق بها مستشاراً أثرياً دائماً يكون حلقة الوصل بينها وبين هيئة الآثار المختصة ؛

٤ – أن تنجز إدارات الآثار فيها فى أقرب وقت ممكن عمليات المسح الجوى والأرضى وإنشاء مخططات دقيقة توضع تحت تصرف إدارات المشاريع الكبيرة ؛

٥ – أن تطلب من منظمة اليونسكو زيادة الاعتمادات المالية التى تخصصها لإدارة المتاحف والآثار بها لتتمكن من تقديم مساعداتها على نطاق أوسع فى مجال اختصاصها إلى الدول التى تطلبها ؛

٦ – ان تقوم بأعمال علمية مشتركة ذات طابع عام وأن ترسل كل دولة بعثات للتدرب على كيفية تنفيذ بعض المشاريع الأثرية الكبرى مثل عمليات المسح الجوى .

٧ ــ أن تعمل المتاحف الأثرية والمتاحف التاريخية فى الدول الأعضاء جهدها لدى تصنيف المجموعات التى تملكها ، ولدى عرض هذه المجموعات على تتبع المفاهيم الحديثة فى علم التاريخ وأن تسعى لتمثيل الحالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنيكية والفنية فى تطورات تاريخها الوطنى دون إهمال الحوادث البارزة فى هذا التاريخ .

٨ ــ أن تنشئ المتاحف الأثرية والمتاحف التاريخية فى الدول الأعضاء مع المحافظة على استقلالها التام تعاوناً وثيقاً مع القائمين على تدريس مادتى التاريخ والآثار فى الجامعات ومؤسسات التعليم العليا ، وذلك فى مضمار البحث العلمى ، وتصنيف المجموعات وعرضها .

٩ ــ أن تتوخى إدارات المتاحف الأثرية والتاريخية فى الدول الأعضاء ، فى تطورها المتحفى إنشاء وتنمية متحف مركزى على الأقل فى العاصمة يمثل ما أمكن فى أجنحته المختلفة كل الحضارات التى مرت عليها ، منذ أقدم عصور تاريخها حتى العصر الحاضر . وإنشاء متحف أو أكثر من المتاحف الإقليمية فى مدينة من مدنها الأخرى تكون الغاية منها موازرة المتحف أو المتاحف المركزية وتمثيل حضارة أو حضارات المنطقة التى نشأ فيها ، وذلك لحسن توزيع الثروات الأثرية والتاريخية التى تملكها البلاد ولتعميم رسالة التربية والتثقيف الواجب تعميمها على كل المواطنين .

١٠ ــ أن تحوى المتاحف الأثرية والتاريخية ــ بقدر الإمكان ــ بعض الآثار والوثائق التى تمثل حضارات الدول الأوربية والأمريكية والآسيوية والأفريقية ، وذلك حرصاً على نشر المعلومات الصحيحة عن هذه المدنيات بين جماهير الأمة العربية ، ورغبة فى توطيد التفاهم الدولى بين شعوب العالم العربى وبقية الشعوب الأخرى .

١١ ــ رغبة فى بالنهوض بعلم الآثار العربى الناشئ تعزز علاقات

الإدارات الأثرية والمتحفية فى الدول الأعضاء بالمؤسسات والمنظمات الدولية المهتمة بشؤون الآثار والمتاحف كمنظمة اليونسكو ، والمجلس الدولى للمتاحف ، ومؤتمر المستشرقين ، ومؤتمر الآثار الكلاسيكية ، ومؤتمر آثار ما قبل التاريخ والتاريخ المباشر ، وأن تسهم فى نشاط هذه المؤسسات والمنظمات الدولية وأن تحضر اجتماعاتها .

١٢ ــ أن تعمل على أن تحدث الجامعات فى بلادها معاهد أو فروعاً خاصة لدراسة الآثار وتوفير كل أسباب الازدهار لهذه الدراسة ، وذلك لتأمين جيل مطلع بصورة علمية دقيقة على آثار البلاد وتاريخها .

١٣ ــ تحسين أوضاع الاختصاصيين من إدارات الآثار والمتاحف والقائمين على هذه الإدارات ، وإنشاء علاقات (كادرات) جديدة لهم تجعلهم من حيث التعيين والترفيع ونوال العلاوات فى مصاف أساتذة الجامعات وذلك لرفع سوية الوظائف الأثرية والمتحفية وتشجيع الشبان على التهيؤ لها والإقبال على إشغالها .

١٤ ــ أن تهتم إدارات المتاحف فيها بالمتاحف الاثنوغرافية والأثنلوجية العامة والخاصة ، وأن تنشىء فى بلادها عددا وافياً من هذه المتاحف التى غايتها الاهتمام بالحضارة المادية ودراسة الحضارات الاجتماعية والمحافظة على مخلفات الفنون الشعبية والفولكلورية والزخرفية وإجراء تسجيلات عن موسيقى الماضى . وأن تقوم إلى جانب هذه المتاحف مؤسسات البحث العلمى . الأثنوغرافى والاثنلوجى التى تقوم بإجراء الدراسات المجردة .

١٥ ــ أن تكون إدارات المتاحف والتنقيب والمبانى التاريخية مجموعة فى كيان واحد على شكل أمانة عامة أو مديرية عامة أو مصلحة ، وذلك لتسهيل العمل بين الإدارات المذكورة التى تقوم بأعمال متكاملة ولتنظيم هذا العمل ، وأن يكون هذا الكيان الواحد فى وزارة الثقافة أو وزارة التربية .

١٦ ـ أن تعمل جهدها على تنمية الإدارات الأثرية والمتحفية ، وأن تسمح لها بتأليف عدد واف من الفنيين من جميع الاختصاصات ، وأن تزودها بالاعتمادات اللازمة ؛ وذلك لتمكنها من القيام بأعباء اكتشاف الآثار التي تزخر بها بلاد العالم العربي وصيانة هذه الآثار والاستفادة منها .

١٧ ـ أن تتزود متاحفها الأثرية والتاريخية بآثار ووثائق من بقية الدول العربية عن طريق التبادل المتكافئ حتى يكون عرضها لمخلفات المدنية العربية وللمدنيات التي هيأت هذه المدنية ممثلا وحدة الأمة العربية وشاملا لحركات الإبداع والابتكار التي قامت بها شعوبها .

كما ترى اللجنة أن تقوم جامعة الدول العربية بإنشاء فرع للدراسات الأثرية في معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية وأن تصدر مجلة للآثار .

تقرير عن الجلسة الإضافية

التى عقدتها اللجنة الأولى

بعد انتهاء جلسات اللجان ، وعلى أثر وصول السيد على ڤريونى مدير حملة إنقاذ آثار النوبة فى اليونسكو دعيت اللجنة الأولى لعقد جلسة إضافية ، فيما يلى تقرير عن أعمالها :

فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الثلاثاء ٢٨ /٥/ ١٩٦٣ عقدت لجنة إنقاذ النوبة جلستها الأخيرة برئاسة الدكتور سليم عادل عبد الحق وحضور السادة :

على ڤريونى VRIONI مدير حملة إنقاذ آثار النوبة فى اليونسكو

الدكتور نور الدين حاطوم (من جامعة دمشق)

الدكتور ديمترى برابكى (من الجامعة الأمريكية فى بيروت)

الأستاذ دايفوكو (ممثل اليونسكو)

الأستاذ طارق رجب (رئيس وفد الكويت)

« كاظم الجنابى (عضو وفد الجمهورية العراقية)

« بشير زهدى (« « « السورية)

« عبد القادر محداد (رئيس « « الجزائرية)

« جهينة عطاء الله (عضو « « «)

وقام الأستاذ بشير زهدى بأمانة سر اللجنة .

رحب الدكتور عبد الحق بالأستاذ ڤريونى أجمل ترحيب ودعاه إلى إيضاح القضايا الفنية المتعلقة بإنقاذ آثار النوبة واطلاع اللجنة على المساعى

الأخيرة التى قامت بها اليونسكو لدفع هذا المشروع إلى الأمام ، فأوضح الأستاذ ڤريونى أن ضيق الوقت يتطلب منا الإسراع فى إعداد كل ما يلزم من مخططات وأعمال ليكون عملنا منسجماً مع المشاريع التى تقوم بها حكومة الجمهورية العربية فى بناء السد العالى . علماً بأن التوقيع على العقود اللازمة لمشروع السد العالى سيتم فى أول أكتوبر ١٩٦٣ ، لهذا يجب إعداد كل ما يلزم قبل هذا التاريخ المحدد ، وأن يتم التمهيد لحملة إنقاذ النوبة بمدة تسبق التاريخ المحدد للتوقيع على العقد ، كما نأمل أن تكون جلسة مجلس الجامعة فى أقرب وقت ممكن للاطلاع على توصيات مؤتمركم . وتساءل عن إمكانية قيام الحكومات العربية بإعداد الحملة قبل جلسات مجلس الجامعة . فذكر الدكتور عبد الحق أن وفود مؤتمر الآثار سترفع توصيات المؤتمر إلى حكوماتهم فور عودتهم إلى بلادهم ، وأن البلاد العربية ستقوم بتنظيم أسبوع إنقاذ آثار النوبة ، وأن هذا الموضوع مستعجل لهذا ، وأن من المعتقد أن مجلس الجامعة سيبحثها فى أول جلسة من جلساته ، لأن الجامعة العربية تحرص كل الحرص على إنقاذ آثار النوبة وأنها ستتخذ كل الإجراءات اللازمة لذلك .

ثم اقترح الأستاذ (فريونى) تأليف (لجنة وطنية) لمتابعة الأعمال اللازمة على أن تضم اللجنة الشخصيات القوية التى تساعد على نجاح الحملة . وذكر على سبيل المثال شخصيات مدراء الإذاعة والتلفزيون ، ورؤساء تحرير الصحف ، ووزراء السياحة ، والخطوط الجوية ذات الموازنات الهامة والتأثير الكبير فى ميدان الدعاية ، كما اقترح عرض أفلام فى التلفزيون . فأعرب الدكتور عبد الحق عن تفاؤله بنجاح الحملة وقال إن الحكومة تشرف على المديريات المتعلقة بالدعاية والنشر ، وأن هذه المديريات ستقوم بالعمل فور تلقيها الأوامر من الحكومة . وطلب أن يوضع تحت تصرف البلاد العربية أفلام لعرضها بواسطة صالات السينما والتلفزيون . وذلك للتمهيد لأسبوع حملة إنقاذ آثار النوبة . فقال الأستاذ فريونى يمكننا أن نضع تحت

تصرفكم الأفلام لتوزعوها فيما بينكم : وإننى سأطلب من المدير العام نسخاً من هذه الأفلام :

فقال الدكتور عبد الحق بأن البلاد المجاورة مثل (سورية ولبنان والعراق والكويت والأردن) يمكنها أن تتوزع هذه الأفلام كما أن (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) يمكنها أن تتوزع فيما بينها الأفلام ، وذلك لكثرة وسهولة الاتصالات فيما بينها :

ثم قال الأستاذ (فريونى) بأنه يفكر فى الاقتراحات الثلاثة الآتية :

١ – تأليف لجنة خاصة لإصدار طوابع لاستخدامها كطوابع إضافية خلال الأسبوع :

٢ – بيع أشياء صغيرة ذات صبغة فنية . وقد جرى ذلك فى بعض البلاد كالدانمرك التى بيعت فيها تماثيل صغيرة لـ (نفرتارى) توحى بذكريات هامة ، وتكون قيمة هذه الأشياء بسيطة أى من دولار إلى ستة دولارات .

٣ – إضافة بعض الرسوم المالية الإضافية على أسعار الدخول إلى المسارح والسينما الخ :

فذكر الدكتور سليم عادل بأن اللجنة قد اتخذت سلسلة من التوصيات لتحقيق ذلك ، « ولكن لابد أن نشير إلى بعض الصعوبات إلا أننا سنعمل كل ما من شأنه أن يؤدى إلى نجاح الحملة : وسيخصص قسم من ريع الطوابع للحملة .

أما اقتراحكم المتعلق ببيع أشياء ذات صبغة فنية ، فإنه ليس من السهل أن يتم ذلك لأن ذلك يتطلب وقتاً وحسن اختيار الموضوع وذلك للتمكن من بيع كميات كبيرة من هذه الأشياء : ومع ذلك فإننا نعدكم بدراسة هذا

الاقتراح . كما أنه من السهل إضافة بعض الرسوم على أسعار بطاقات الدخول إلى المسارح وصالات السينما » .

ثم تساءل السيد (فريونى) عن إمكانية تنظيم (فرق فلكلور) تجوب أنحاء العالم العربى لما لهذه الفرق من تأثير : فأجاب الدكتور سليم عادل « أننا نقيم أحياناً حفلات (أضواء المدينة) يسهم فى إحيائها فنانون من مصر وسورية ولبنان : وأنه لابد لنجاح هذا الاقتراح أن يضم عناصر قوية ولكن التكاليف ستكون مرتفعة بسبب أجور السفريات الجوية ، وغير ذلك » :

ثم اقترح عضو الوفد الجزائرى أن تقوم اليونسكو بالدعاية لهذه الحملة فى الصحف ، فأجابه السيد (فريونى) بأن لدينا كل المواد اللازمة لذلك « ولكننا ننتظر عملكم لنستفيد من صداه وانعكاساته فى العالم لأن ذلك يغذى حملتنا ويقويها : وسأل عن الجهة التى يجب أن ترسل إليها المواد فأجابه الدكتور عبد الحق بأنه من المستحسن إرسال المواد إلى الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية :

ثم قال عضو وفد العراق بأن مشروع إنقاذ آثار النوبة مشروع إنسانى وأن على اليونسكو أن تقوم بهذه الحملة فى الشرق والغرب معاً : فذكر الأستاذ (فريونى) أهمية القطاع الخاص فى بعض البلاد مثل (إيطاليا وفرنسا والدانمرك) وأن هذا القطاع قد أسهم فى قيام المشاريع المحلية . ثم أعرب الأستاذ فريونى عن ثقته بأهمية صدى هذه الحملة فى أنحاء العالم .

واختتم الدكتور سليم عادل الجلسة بشكر الأستاذ (فريونى) وذكر بأن البلاد العربية ستتخذ كل ما يلزم لنجاح مشروع أبى سنبل وثقوا بأنكم

ستكونون مسرورين من نجاح الحملة وأننا نرجو أن تقوموا فوراً بالتنفيذ دون أن تنتظرونا لأن حملتنا ستكون ناجحة . وأن البلاد العربية يسعدها أن تتعاون فى هذا المشروع الكبير . فأجاب الأستاذ (فريونى) إننا نرجو أن تكون هذه الحملة بمثابة أول حملة فى ميدان التعاون الدولى .

وانتهت الجلسة فى الساعة الحادية عشرة .

تقرير اللجنـــة الثانية

عقدت لجنة قوانين الآثار ورعاية الصناع الأثريين وأصحاب الصناعات التقليدية جلستين إحداهما فى الساعة التاسعة من صباح يوم الثلاثاء الواقع فى ١٩٦٣/٥/٢١ ، والأخرى فى الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء الواقع فى ١٩٦٣/٥/٢٢ وذلك بحضور السادة :

الدكتور فيصل الوائلى (العراق)

الأستاذ حسن عبد الوهاب (الجمهورية العربية المتحدة)

» محمد الشابى (الجمهورية التونسية)

» محمد الفندرى (» »)

» جهينه عطاء الله (» الجزائرية)

» بشير زهدى (» العربية السورية)

الدكتور على ابراهيم عبده (جامعة الدول العربية)

واتفق الأعضاء على أن يكون الأستاذ حسن عبد الوهاب رئيساً للجنة والأستاذ بشير زهدى مقرراً لها .

ثم عرض الأستاذ زهدى مشروع قانون الآثار السورى . فأبدى الأستاذ عبد الوهاب إعجابه به ووافق السادة الأعضاء على تلاوة مواده لمناقشتها ، ثم أبدى الدكتور الوائلى رغبته فى تلاوة مشروع قانون الآثار الذى كان قد تقدم به وفد الجمهورية العربية المتحدة ورأى المؤتمر الثالث للآثار أنه يصلح أن يكون أساساً للمشاريع الأثرية فى البلاد العربية . وبعد تلاوة المواد أبدى السادة الأعضاء الملاحظات الشكلية على مشروع قانون الآثار الذى كان قد تقدم وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى مؤتمر الآثار العربى الثالث الذى عقد فى فاس عام ١٩٥٩ .

الملاحظات :

١ — تحذف عبارة : (إقليم مصرى وسورى) أينما وجدت .

٢ — تعديل عبارة (وزير الثقافة) بعبارة (الوزير المختص) أينما وجدت ؛

٣ — جعل (المدة اللازمة لاعتبار الشىء المنقول وغير المنقول أثراً) الواردة فى مشروع قانون الآثار (مائة سنة بدلاً من مائتى سنة) ، وأن تكون عبارة (مائة سنة) مطلقة أى دون أن تحدد بكلمة ميلادية أو هجرية .

٤ — تعديل عبارة (السلطات الأثرية) بعبارة (دوائر الآثار) .

٥ — إضافة لفظ (تسجيلها) إلى المادة الثالثة وجعلها كما يلى : يعتبر من الآثار القديمة الواجب على دوائر الآثار تسجيلها ودراستها . . . الخ .

٦ — تضاف إلى المادة (٨) عبارة (أو استعمالها لغير ما هيئت لها) .

٧ — تعديل عبارة (غير المسجلة) بعبارة (التى لم يتم إجراء تسجيلها) فى المادة (١٤) .

٨ — تضاف إلى المادة (٢٣) عبارة (ولا تسرى عليها الأحكام المتعلقة بمرور الزمن) .

٩ — تضاف إلى الفقرة (٢) فى المادة (٢٥) عبارة (إلا إذا كان المالك أو المتولى معسراً) .

١٠ — توضيح لفظ (العائدات) المذكور فى الفقرة (٤) من المادة (٢٥) بلفظ (الدخل) .

١١ — تبديل لفظ (الحرب) المذكور فى المادة (٣٠) بلفظ (خرائب) .

وبعد إبداء السادة الأعضاء هذه الملاحظات الشكلية على (مشروع قانون الآثار الذى كان قد تقدم به وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى مؤتمر الآثار العربى الثالث) قرر السادة الأعضاء رفع توصية تؤكد من جديد تأييد مؤتمر الآثار العربى الرابع لمشروع قانون الآثار ، وقرر السادة الأعضاء أن تكون التوصية كما يلى :

(توصى لجنة قوانين الآثار ورعاية الصناع الأثريين وأصحاب الصناعات التقليدية من جديد بأن يكون (مشروع قانون الآثار الذى كان قد تقدم به وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى مؤتمر الآثار العربى الثالث المنعقد فى فاس) أساساً لمشاريع قوانين الآثار فى البلاد العربية) .

أما فيما يتعلق بموضوع رعاية الصناع الأثريين وأصحاب الصناعات التقليدية فى البلاد العربية فقد بحث السادة الأعضاء هذا الموضوع ، وذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب النتائج التى قد تنجم عن خسارة البلاد لهذه الفئة المبدعة من الصناع الأثريين وأصحاب الصناعات التقليدية ، ورأى بأن خير وسيلة لصيانة بقايا هؤلاء الصناع هو أن يعهد إليهم بأعمال ترميم الآثار وتدريب الصناع الجدد ، مما يؤدى إلى تكوين جيل جديد من الصناع الأثريين وأصحاب الصناعات التقليدية خلال عشر سنوات . لهذا فيستحسن رصد الاعتمادات اللازمة لذلك ورأى السادة الأعضاء أن ترفع توصية بذلك كما يلى :

(توصى لجنة قوانين الآثار بالعناية بالصناع المختصين بترميم الآثار وإصلاحها ، واتخاذ كل ما يلزم لرفع مستواهم وتشجيعهم على العمل وتدريب مساعديهم ، وتأمين الأعمال اللازمة لهم للاستفادة من مواهبهم الفنية وخبرتهم المهنية فى ترميم الآثار . كما توصى بتشجيع المتفوقين من هؤلاء الصناع وترشيحهم للقيـــام بأعمال الترميم التى تشرف عليها الهيئات الدولية).

تقرير اللجنـــة الثالثة

لقد درست لجنة المصطلحات وتأليف كتاب عن المعالم الأثرية فى البلاد العربية فى اجتماعها المنعقدين فى ٢١ و ٢٢ / ٥ / ١٩٦٣ جميع المذكرات والمقترحات المتعلقة بوضع معجم للمصطلحات الأثرية وتأليف كتاب عن المعالم الأثرية فى البلاد العربية والمقدمة من الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ومن السادة أعضاء المؤتمر . وبعد المداولة تتشرف بأن ترفع إلى المؤتمر الرابع للآثار المقترحات الآتية :

١ — أن تعمل الجامعة العربية على وضع كتاب عن « المعالم الأثرية فى البلاد العربية » ينشر باللغة العربية ويترجم أيضاً إلى اللغات الأجنبية الحية . ومرفق مع هذا بيان بالمعالم الأثرية التى تراها اللجنة جديرة بالكتابة عنها . وترى اللجنة أن تكتب نبذة عن كل أثر من هذه الآثار أو منطقة من مناطق الآثار تشمل موجز تاريخ المنطقة أو الأثر وأهم رسومه فى حدود ٢٠٠ — ٦٠٠ كلمة عن كل أثر أو منطقة حسب أهميتها الأثرية ، على أن يسبق آثار كل قطر عرض عام عن تاريخه منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم ، أخصه فيما يتصل بتلك الآثار على ألا يزيد هذا العرض عن ألفى كلمة .

٢ — عمل قاموس موضح بالرسوم للتفاصيل المعمارية فى مختلف الآثار فى مختلف العصور على أن يكتب أمام كل رسم الاسم الشائع فى مختلف الأقطار ، فإذا ما اتفق الاسم فى أكثر من قطر ذكر الاختلاف فى الأقطار الأخرى ، وإذا تبين أن الاختلاف ناشئ عن تحريف أو متقاربٌ توحد .

٣ — توصية الجهات المعنية فى البلاد العربية بصيانة الأبنية والمدن والمواقع الأثرية ، والحفاظ على طابعها القديم وعدم شق طرق أو شوارع

بها . والتحكم بالطابع المعمارى الملاصق للآثار على أن يرجع فى كل ذلك إلى دوائر الآثار المختصة ، وعلى ألا تصرف رخص التجديد أو البناء إلا بعد أخذ رأى هذه الدوائر :

٤ – عقد لقاء فى المستقبل القريب فى مدينة من المدن العربية التى تهددها معاول التهديم بسبب التنظيم العمرانى ومشاريع التنمية ، على أن يضم هذا اللقاء المختصين بالآثار والمسؤولين عن البلديات ووزارات الأشغال العامة والإسكان ومؤسسات السياحة ، لاتخاذ قرار عام بحماية معالم الآثار والمناطق الأثرية من الدمار ، وعلى أن تكون الكلمة الفصل لدوائر الآثار فى هذا الشأن .

٥ – إقامة معرض ثقافى متنقل فى البلاد الأجنبية لإبراز المعالم الحضارية فى الدول الغربية قديماً وحديثاً بالصورة الآتية :

(أولا) الإطار العام للمعرض :

١ – أن يكون المعرض عاماً للثقافة العربية .

٢ – أن يكون المعرض متنقلاً حتى تمكن الاستفادة منه إلى أبعد مدى :

(ثانياً) معروضات المعرض :

أن يحتوى المعرض على صور ونماذج مجسمة لبعض الآثار الممتازة ولبعض الصناعات الحديثة فى البلاد العربية .

(ثالثاً) أقسام المعرض :

١ – قسم الفنون : – ويشمل العمارة والنحت والتصوير والفنون الزخرفية والتطبيقية والخط :

٢ – قسم العلوم عند العرب : – ويشمل الطب والفلك والكيمياء وغيرها .

٣ – قسم الكتاب العربى . – ويستهدف التعريف بالكتاب العربى قديماً وحديثاً ، كما يستهدف إبراز الوعى العربى الثقافى على حقيقته ومدى حرص العرب على نشر المعارف وتنشيط الحركة الفكرية بتولية الكتاب اهتماماً خاصاً ، وبالعمل على تشجيعه .

٤ – قسم النهضة الحديثة فى العالم العربى . – ويشتمل على صور ونماذج للمنشآت العمرانية الحديثة التى أقيمت فى مختلف أرجاء العالم تبين معالم الحضارة الناهضة فى البلاد العربية :

٥ – تأليف كتاب أو عدة كتب فى قواعد أسلوب الآثار من مستوى التعليم الثانوى لتعريف النشء باللغة الفنية والمعارف الأثرية الضرورية لنمو الذوق . وبالمدارس والأنواع الفنية فى البلاد العربية .

٦ – تأليف مجموعة كتب عن تاريخ الآثار فى البلاد العربية يقوم به جماعة من الاختصاصيين العرب بالآثار .

٧ – ترجمة الكتب الأثرية الهامة المؤلفة باللغات الأجنبية إلى العربية .

٨ – وضع نشرة دورية تتضمن المصادر الأثرية فى البلاد العربية .

توصيات المؤتمر

توصيات المؤتمر

بالصيغة التى وافق عليها مجلس جامعة الدول اعربية

(فى دور انعقاده العادى الأربعين فى ١٩٦٣/٩/١٩)

يقرر المجلس الموافقة على توصية لجنة الشئون الاجتماعية والثقافية الآتية :

توصى اللجنة بالموافقة على التوصيات التالية للمؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية ، المنعقد فى تونس خلال المدة من ١٨–٢٩ مايو (آيار) ١٩٦٣ :

أولا – المشاريع الأثرية الكبرى :

١ – تخصيص أسبوع فى البلاد العربية لصالح مشروع إنقاذ آثار النوبة :

(ا) يوصى المؤتمر حكومات الدول العربية بتنظيم أسبوع تحدد موعده جامعة الدول العربية لصالح إنقاذ معبدى أبى سنبل ، تقوم فيه أجهزة الإعلام المختلفة فى هذه الدول من صحافة وإذاعة وتليفزيون بالدعوة إلى اكتتاب المواطنين والهيئات والمؤسسات والشركات للمشروع وذلك على النحو الآتى : –

١ – إصدار طابع بهذه المناسبة يخصص ريعه لصالح هذا المشروع .

٢ – إقامة حفلات ترفيهية وسينمائية يخصص إيرادها لصالح المشروع .

٣ – إقامة مهرجانات رياضية بين الأندية المختلفة تخصص إيراداتها للمشروع .

٤ – دعوة المؤسسات والشركات والأفراد للاكتتاب لهذا الغرض .

٥ – تنظيم مساهمة الجامعات والمعاهد والمدارس فى هذا الشأن .

كما يوصى المؤتمر حكومات الدول العربية بالإسهام بمساعدات مالية لصالح هذا الأسبوع .

(ب) يؤيد المؤتمر التوصية التى اتخذتها اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية فى دورتها السادسة عشرة بتكوين لجنة تنفيذية عربية للدعوة فى البلاد العربية لتأييد المشروع ، ورسم الخطة التى تؤدى إلى توفير أكبر قدر ممكن من المعونة المالية والأدبية له ، وتنسيق الجهود المبذولة فى هذا السبيل مع اللجنة التنفيذية المؤلفة فى اليونسكو لهذا الغرض .

ويرى المؤتمر أن تتألف اللجنة التنفيذية العربية المشار إليها على النحو الآتى :

- مندوب عن الجمهورية التونسية .
- مندوب عن الجمهورية العراقية .
- مندوب عن الجمهورية العربية السورية .
- مندوب عن الجمهورية العربية المتحدة .
- مندوب عن دولة الكويت .
- مندوب عن الجمهورية اللبنانية .
- مندوب عن المملكة الليبية .
- مندوب عن المملكة المغربية .
- مندوب عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

٢ – المشروع الاستثنائى لصيانة آثار تدمر :

(ا) يناشد المؤتمر حكومة الجمهورية العربية السورية تعضيد المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية لتمكنها من متابعة مشروعاتها فى إنقاذ آثار تدمر وصيانتها ، وزيادة الاعتمادات والمساعدات المالية التى تسهل على المديرية المذكورة إنجاز هذه المشروعات الكبيرة الهامة .

(ب) يوصى المؤتمر حكومات الدول العربية بإيفاد بعثات علمائها ومهندسيها إلى الجمهورية العربية السورية خلال مواسم التنقيب التدمرية للمشاركة فى أعمال التنقيب وصيانة الآثار التدمرية التى يهم الأمة العربية مصيرها .

٣ – صيانة آثار العراق المهددة بالغرق :

يوصى المؤتمر الجمهورية العراقية ببذل كل الجهود الممكنة مالية وفنية للقيام بمسح آثار المناطق التى ستغمرها مياه السدود لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار ودارسة ما لا يمكن إنقاذه ، ويوصى الدول العربية بالإسهام فنياً فى هذا الموضوع .

٤ – عمليات المسح الجوى :

يوصى المؤتمر الدول العربية بأن تنجز إدارات الآثار فيها فى أقرب وقت ممكن عمليات المسح الجوى والأرضى ، وإنشاء مخططات دقيقة توضع تحت تصرف إدارات المشاريع الكبرى .

ثانيا – نشر الثقافة الأثرية :

٥ – يوافق المؤتمر على وضع كتاب عن «المعالم الأثرية فى البلاد العربية» ، ينشر باللغة العربية ويترجم أيضاً إلى اللغات الأجنبية الحية ، ومرفق مع هذا بيان بالمعالم الأثرية التى يرى المؤتمر أنها جديرة بالكتابة عنها .

ويرى المؤتمر أن تكتب نبذة عن كل أثر من هذه الآثار أو منطقة أو مناطق الآثار ، تشمل موجز تاريخ المنطقة أو الأثر وأهم رسومه ، فى حدود ٤٠٠ إلى ٦٠٠ كلمة عن كل أثر أو منطقة حسب أهميتها الأثرية . على أن يسبق آثار كل قطر عرض عام عن تاريخه منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم ، أخصه فيما يتصل بتلك الآثار ، على ألا يزيد هذا العرض على ألفى كلمة .

٦ – يوصى المؤتمر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالعمل على وضع قاموس موضح بالرسوم للتفاصيل الفنية فى جميع الآثار على اختلاف العصور ، على أن يكتب أمام كل رسم الاسم الشائع فى مختلف الأقطار ، فإذا ما اتفق الاسم فى أكثر من قطر ذكر الاختلاف فى الأقطار الأخرى ، وإذا تبين أن الاختلاف ناشئ عن تحريف أو كان متقاربا توحد .

٧-يؤيد المؤتمر إقامة معرض ثقافى عربى متنقل فى البلاد الأجنبية لإبراز المعالم الحضارية فى الدول العربية - قديماً وحديثاً - بالصورة التى وضعتها الحلقة المنعقدة بدعوة من الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. ويوصى إدارات الآثار والمتاحف فى الدول العربية أن تهيئ مشروع المعرض وأن تنفذه خلال العامين القادمين .

٨ - يوصى المؤتمر الدول العربية بأن تعمل جامعاتها على إنشاء معاهد أو فروع خاصة لدراسة الآثار وتوفير كل أسباب الازدهار لهذه الدراسة وإلحاق متاحف أو مجموعات تعليمية بهذه المعاهد ، وذلك لإعداد جيل مطلع بصورة علمية دقيقة على آثار البلاد وتاريخها .

٩ - يوصى المؤتمر الأمانة العامة الدول العربية بأن تقدم إلى المجلس فى دورته المقبلة مشروع ميزانية لإنشاء فرع للدراسات الأثرية فى معهد الدراسات العربية العالية التابع لها إذا توفرت الإمكانيات (اعترض على هذه التوصية السيد رئيس وفد جمهورية السودان) .

١٠ - يوصى المؤتمر الدول العربية بتشجيع الجمعيات الأهلية للآثار أدبياً ومادياً ، وذلك حتى تحقق الأهداف المرجوة من إنشائها ، ومن ذلك : نشر الوعى الثقافى الأثرى فى البلاد العربية .

١١ - يوصى المؤتمر حكومات الدول العربية بأن تقوم بالأعمال الآتية :

(ا) تأليف كتب مبسطة فى قواعد أساليب الآثار لتعريف النشء باللغة الفنية وتنمية الذوق العام .

(ب) تأليف مجموعة كتب عن تاريخ الآثار فى البلاد العربية يقوم بها جماعة من الاختصاصيين العرب بالآثار .

(ج) ترجمة الكتب الأثرية الهامة المؤلفة باللغات الأجنبية إلى العربية .

١٢ – يوصى المؤتمر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالعمل على تسجيل التراث الموسيقى العربى فى تونس والجزائر والمغرب وتصوير نوت هذه الموسيقى وطبعها ونشرها .

١٣ – يوصى المؤتمر الدول العربية المتقدمة فى الدراسات الآثارية والمعروفة بنشاطها الأثرى أن تخصص منحا سنوية تدريبية ودراسية للدول العربية المحتاجة إلى المختصين فى هذه الدراسات .

ثالثاً – التنقيبات الأثرية :

١٤ – يوصى المؤتمر حكومات الدول العربية بأن تبذل العناية بالحفر والتنقيب فى المواقع الأثرية التى يمكن أن تظهر التنقيات فيها ما يوضح ما خفى من حوادث تاريخ الأمة العربية وما يزيد معرفة خصائص مدنيتها .

١٥ – يوصى المؤتمر حكومات الدول العربية بأن تعنى إداراتها الأثرية لدى القيام بأعمال التنقيب ، بالمواضع الأثرية المنقب فيها وأن ترمم هذه المواقع وأن تنظمها ، وأن تعدها للزيارات ، وأن تعمل على تأمين صيانة ما قد يوجد فيها من صور جدارية وألواح فسيفسائية متخذة بذلك كل الطرق العلمية المناسبة .

١٦ – يوصى المؤتمر حكومة الجمهورية التونسية أن تقوم بإجراء حفريات ودراسات بين القصر الحفصى والجامع الكبير بالمرسى وقصر العدلية الصغرى بالصفصاف وذلك لإيضاح تاريخ المواقع المذكورة .

١٧ – يوصى المؤتمر الدول العربية بأن تعمل جهدها لتنمية إدارات الآثار والمتاحف بها وأن تسمح لها بإعداد عدد وافر من الفنيين فى جميع الاختصاصات وأن تزودها بالاعتمادات اللازمة وذلك لتمكنها من القيام بأعباء التنقيب عن الآثار التى تزخر بها بلاد العالم العربى ، وبأعباء صيانة هذه الآثار ، وبالاستفادة منها .

رابعاً – حماية الآثار وصيانتها :

١٨ – يوصى المؤتمر الدول العربية بالعمل على صيانة المواقع والأبنية الأثرية عند القيام بمشاريع التنمية الاقتصادية والمنشآت العامة ، والعمل على ألا يمس شىء مما فى هذه المواقع من معالم وتفادى شق الطرق فيها ومنع إقامة المنشآت الصناعية التى تهددها بقربها .

١٩ – كما يوصى المؤتمر بضرورة إشراك الإدارات التى تقوم على تنفيذ مشاريع التنمية الاقتصادية فى تحمل كافة نفقات أعمال البحث العلمى والحفر والتنقيب وإنقاذ الآثار الواجب إجراؤها فى المناطق المراد استثمارها ، وأن تستطلع إدارات المشاريع الكبرى فى كل دولة عربية آراء الهيئات المختصة بالآثار فى الأعمال التى تنوى القيام بها مقدما والتى تهدد المناطق الأثرية وأن تلحق مستشاراً أثريا دائماً يكون حلقة الوصل بينها وبين هيئات الآثار المختصة .

٢٠ – يوصى المؤتمر جامعة الدول العربية والحكومات العربية بأن تعمل وفودها لدى منظمة اليونسكو على إنهاء بحث الاتفاقية الدولية التى تحظر بيع الآثار وشرائها وتصديرها بشكل غير مشروع ، واستصدارها وذلك بأقرب وقت .

٢١ – يوصى المؤتمر الدول العربية بالعناية بالصناع المختصين فى ترميم الآثار وإصلاحها ، واتخاذ كل ما يلزم لرفع مستواهم وتشجيعهم على العمل وتدريب مساعديهم وتأمين الأعمال اللازمة لهم ، للاستفادة من مواهبهم الفنية وخبرتهم المهنية فى ترميم الآثار . كما يوصى المؤتمر بتشجيع المتفوقين من هؤلاء الصناع وترشيحهم للقيام بأعمال الترميم التى تشرف عليها الهيئات الدولية .

٢٢ – يناشد المؤتمر الحكومة التونسية أن تعمل على المحافظة على قصر

العدلية الكبيرة (برج السلاسل) لأنه مثال فريد عن طراز الهندسة المدنية في المغرب العربي وأن تعنى بترميمه وإعادة رونقه إليه .

خامسا – إدارات الآثار والمتاحف :

٢٣ – يوصى المؤتمر الدول العربية بأن تطلب من منظمة اليونسكو زيادة الاعتمادات المالية التى تخصصها لإدارة المتاحف والآثار بها لتتمكن هذه الإدارة من تقديم مساعداتها إلى الدول المشتركة فى المنظمة المذكورة على نطاق أوسع فى مجال اختصاصها .

٢٤ – يوصى المؤتمر المتاحف الأثرية والمتاحف التاريخية فى الدول العربية أن تعمل جهدها عند تصنيف وعرض المجموعات التى تملكها ، أن تتبع المفاهيم الحديثة فى علم التاريخ وأن تسعى لتمثيل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنيكية والفنية فى تطورات تاريخها الوطنى ، دون إهمال للحوادث البارزة فى هذا التاريخ .

٢٥ – كما يوصى المؤتمر المتاحف الأثرية والمتاحف التاريخية فى الدول العربية مع المحافظة على استقلالها التام ، أن تنشئ تعاونا وثيقا مع القائمين على تدريس مادتى التاريخ والآثار فى الجامعات ومؤسسات التعليم العليا ، وذلك فى مضمار البحث العلمى وتصنيف المجموعات وعرضها .

٢٦ – ويوصى المؤتمر كذلك إدارات المتاحف الأثرية والتاريخية فى الدول العربية ، أن يكون التطور المتحفى فى كل منها متوخيا إنشاء وتنمية متحف مركزى على الأقل فى العاصمة تمثل ما أمكن فى أجنحته المختلفة كل الحضارات التى مرت عليها منذ أقدم عصور تاريخها حتى العصر الحاضر ، ومتوخيا كذلك إنشاء متحف أو أكثر من المتاحف الإقليمية فى كل مدينة من مدنها الأخرى ، تكون الغاية منها موازة المتحف أو المتاحف المركزية ، وتمثيل حضارة أو حضارات المنطقة التى تنشأ فيها ، وذلك لحسن توزيع

الثروات الأثرية والتاريخية التى تملكها البلاد ، ولتعميم رسالة التربية والتثقيف الواجب تأمينها لكل المواطنين .

٢٧ – يوصى المؤتمر الدول العربية أن تهتم إدارات المتاحف بها المتاحف الاثنوغرافية والاثنولوجية العامة والخاصة وأن تنشئ عددا وافيا من هذه المتاحف التى غايتها الاهتمام بالحضارة المادية ، ودراسة الحالات الاجتماعية ، والمحافظة على مخلفات الفنون الشعبية والفلكلورية والزخرفية ، وإجراء تسجيلات عن التراث الموسيقى ، كما يوصى المؤتمر أن تقوم إلى جانب هذه المتاحف مؤسسات البحث العلمى الاثنوغرافى والاتنولوجى التى تقوم بإجراء الدراسات المجردة .

٢٨ – يوصى المؤتمر الدول العربية أن تزود متاحفها الأثرية والتاريخية بآثار ووثائق من بقية الدول العربية عن طريق التبادل المتكافئ ، حتى يكون عرضها لمخلفات المدنية العربية وللمدنيات التى هيأت هذه المدنية ممثلا وحدة الأمة العربية وشاملا لحركات الإبداع والابتكار التى قامت بها شعوبها .

٢٩ – يوصى المؤتمر الدول العربية أن تحوى متاحفها بقدر الإمكان ، بعض الآثار والوثائق التى تمثل حضارات الدول الأوربية والأمريكية والآسيوية والإفريقية ، وذلك حرصا على نشر المعلومات الصحيحة عن هذه المدنيات بين جماهير الأمة العربية ورغبة فى توطيد التفاهم الدولى بين شعوب العالم العربى وبقية الشعوب الأخرى .

٣٠ – يوصى المؤتمر الدول العربية – حبا فى النهوض بعلم الآثار العربى الناشئ – بأن تعزز علاقات إدارات الآثار والمتاحف فيها بالمؤسسات والمنظمات الدولية المهتمة بشئون الآثار والمتاحف كمنظمة اليونسكو والمجلس الدولى للمتاحف ، ومؤتمر المستشرقين ومؤتمر الآثار الكلاسيكية ، ومؤتمر

آثار ما قبل التاريخ والتاريخ المباشر ، وأن تسهم فى نشاط هذه المؤسسات والمنظمات الدولية ، وأن تحضر اجتماعاتها .

٣١ ـ يوصى المؤتمر الدول العربية أن تكون إدارات المتاحف والتنقيب والمبانى التاريخية مجموعة فى كيان إدارى ومالى مستقل لتسهيل وتنسيق العمل بين الإدارات المذكورة التى تقوم بأعمال مماثلة .

سادساً ـ قوانين الآثار فى البلاد العربية :

٣٢ ـ يوصى المؤتمر بأن يكون مشروع قانون الآثار الذى كان قد تقدم به وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية المعقود فى مدينة فاس عام ١٩٥٩ أساساً لمشاريع قوانين الآثار فى البلاد العربية .

توصيات عامة :

٣٣ ـ يوصى المؤتمر الدول العربية بتحسين أوضاع الاختصاصيين فى إدارات الآثار والمتاحف والقائمين على هذه الإدارات وإنشاء ملاكات (كادرات) جديدة لهم ، تجعلهم من حيث التعيين والترقية (الترفيع) ونوال العلاوات فى مصاف أساتذة الجامعات (إذا تكافأت الشروط) ، وذلك لرفع مستوى الوظائف الأثرية والمتحفية وتشجيع الشبان على التهيؤ لها والإقبال على أشغالها .

٣٤ ـ يوصى المؤتمر الجهات المختصة فى الدول العربية والأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالعمل على تنفيذ ما لم ينفذ بعد من مقررات مؤتمرات الآثار السابقة ومنها إنشاء مكتب دائم للآثار يتبع الجامعة العربية ويعمل على التعاون العلمى والفنى بين المؤسسات الأثرية فى البلاد العربية وعلى تنفيذ مقررات مؤتمرات الآثار .

٣٥ ـ يوصى المؤتمر حكومة الجمهورية التونسية بتأليف لجنة للعمل فى خزائن الوثائق بمصلحة أملاك الدولة ودفترخانة الأملاك العقارية لتضبط تنقلات ملكية السواقى والآبار والمروج فيما بين قرت وسكرة والمرسى وقرطاجنة عساها تتوصل إلى كشف شىء عن حقيقة تلك البساتين فى الدولة الحفصية ـ تطبقه على أعيان الأراضى بالمسح وتستهدى فيه بما يؤخذ من نصوص الأدب وكتب التاريخ .

٣٦ ـ يقترح المؤتمر أن نعقد المؤتمر الخامس للآثار فى غضون عام ١٩٦٥ فى جمهورية الجزائر بناء على الرغبة التى أبداها وفد الجزائر فى هذا المؤتمر .

بيان

بالآثار والمناطق الأثرية المقترحة لتكون موضوعات كتاب

« المعالم الأثرية في البلاد العربية »

١ — الأردن وفلسطين :

عرض عام للآثار : فيلادلفيا . مدينة القدس ؛ جرش ؛ البتراء ؛ قصور البادية (قصر عمرة المشتى ، حمام الصرح) ، قبة الصخرة ، المسجد الأقصى ، كنيسة القيامة ، الأسوار والأبواب بالقدس ؛ قصر هشام بخربة المفجر . الخليل . كنيسة المهد . متحف فلسطين ؛

٢ — تونس .

عرض عام للآثار : المتاحف . آثار قرطاجنة ؛ كركوان ؛ الضريح النوميدى بدقة . ميدان (فلدروم) سبيطلة ؛ دقة . كولبزة تيزدورت (الجم) . المنازل الرومانية ؛ الحمامات الرومانية ؛ الكنائس القديمة ؛

القيروان . سوسة ؛ المهدية ؛ المنستير ؛ صفاقس ؛ تونس ؛

٣ — الجزائر :

عرض عام للآثار : أيكوزيوم (الجزائر القديمة) ، مرسى راشقون ؛ تيمغاد ؛ لامبيز . شرشال ؛ تيبازا ؛ سطيف جميلة . سيقا ؛ تيديس ؛ قلعة بنى حماد . آشير . بجاية . بونه ؛ منصورة ؛ تلمسان ؛ المشور بتلمسان ؛ متحف سيدى أحمد بن الحسن ؛ صومعة أغادير بتلمسان . هنين ؛ مدينة البطحاء ؛

٤ — السودان :

عرض عام للآثار . متحف الآثار بالخرطوم . أهرام السودان : آثار دنقلة . آثار بوهن . الآثار المسيحية :

٥ — العراق :

عرض عام للآثار : أور . آشور . نينوى . نمرود . دورشركين (خرسباد) بابل . الحضر الأخيضر . المستنصرية . سامراء . القصر العباسي . جامع مرجان . خان مرجان . العتبات المقدسة . الكوفة . قبة السهرودى . الجامع النووى . مشهد يحيي بن القسم . دير الجب . متحف بغداد . متحف الموصل .

٦ — المملكة السعودية :

عرض عام للآثار . مداين صالح (الحجر) . نجران . الحرمان الشريفان .

٧ — سورية :

عرض عام للآثار . متحف الآثار بدمشق . متحف حلب . تدمر . مسرح بصرى . الجامع الأموى . ضريح صلاح الدين . دمشق . قلعة حلب . خان الوزير بحلب : قصر العظم بدمشق . قصر العظم بحماة . قلعة المرتب . قلعة الحصن . تفاصيل من قصر الحير . الرقة . قبر أبي العلاء المعرى بالمعرة . جامع خالد بن الوليد بحمص . نواعير حماة والقنوات الرومانية . دير جبل سمعان العمودى . الرصافة . مارى الصالحية (دورا أوروبوس) .

٨ — الجمهورية العربية المتحدة :

عرض عام الآثار . المتحف المصرى . الأهرام . أبو الهول . سقارة بني حسن . تل العمارنة . تونة الجبل . أبيدوس . دندرة . معبد الأقصر .

معبد الكرنك . وادى الملوك . الدير البحرى . الرمسيوم . المقابر الخاصة . مدينة هابو . معبد ادفو . معبد أنس الوجود . مقابر أسوان . أبو سنبل . جامع عمرو بن العاص . الجامع الطولونى . الجامع الأزهر . أبواب القاهرة وأسوارها . قلعة الجبل بمشتملاتها . قبة الإمام الشافعى . مدرسة وقبة الناصر قلاوون . مسجد السلطان حسن . جامع الماردانى . جامع آق سنقر . مسجد برقوق بالنحاسين . مسجد المؤيد شيخ . خانقاه فرج بن برقوق والقباب حولها . مسجد قايتباى بالصحراء . مسجد قجماس الإسحاقى . مسجد الغورى ووكالته . خان الخليلى . مسجد البرديني . منزل جمال الدين . منزل السحيمى . متحف الفن الإسلامى . منزل الكريتلية . المتحف القبطى . كنيسة المعلقة . كنيسة أبى سرجة . دير السوريان بوادى النطرون . المتحف اليونانى فى الإسكندرية . متحف الجزيرة .

٩ — اليمن :

عرض عام للآثار : مأرب وآثارها . سد مأرب . صرواح . بلاد الجوف . جامع صنعاء الكبير . مسجد الجند . مساجد تعز .

١٠ — الكويت :

عرض عام للآثار : متحف الكويت . الآثار القديمة من جزيرة فيلكا . مجموعة الآثار الشعبية . منطقة الآثار فى جزيرة فيلكا . الآثار اليونانية . الآثار من العصور البرونزية . متحف جزيرة فليكا للآثار القديمة . متحف فيلكا للآثار الشعبية . أبواب مدينة الكويت القديمة . القصر الأحمر التاريخى فى واحة الجهراء . قصر السيف . معالم الآثار فى كاظمة .

١١ — لبنان :

عرض عام للآثار : متحف بيروت . جبيل . بعلبك . أفقا . قلعة

طرابلس . قلعة جبيل . قلعة شقيف . صيدا . صور . بلدة مجدل عنجر . بيت الدين .

١٢ — المملكة الليبية :

عرض عام للآثار : عين شحات . جرنا . المسجد الكبير . بعض الأسوار . سبراطا . لبده . متحف طرابلس .

١٣ — المملكة المغربية :

عرض عام للآثار : قصبة الوداية . متحف الوداية . شالا . جامع حسان . جامعة القرويين . المدرسة البوعنانية . متحف دار البطحاء . زاوية المولى إدريس . مدينة وليلي . بقايا قصر البديع . قصر الباهية . جامع الكتبية . مدرسة أبي يوسف . كنيسة أسمسيون . صهريج قلعة الجديدة . المهدية . لوكوس (العرائش) . تموده (تطوان) . دار البحر (آسفى) . متحف تمودة .

ملاحظة :

إن هذه الآثار والمعالم الموضحة آنفا قد ذكرت على سبيل المثال . ولمن يكتب عنها حرية استبدال بعضها بما هو أهم منها .

التقارير المقدمة إلى المؤتمر

تقرير الجمهورية التونسية

عن أشغال الترميم والصيانة

فى السنوات الثلاث من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٢

أولا — الإسلاميات

١ — الجوامع :

جامع الزيتونة بتونس :

تجرى فيه منذ ثلاث سنوات أشغال ترمى إلى تدعيم المبنى تدعيما شاملا . وبهذه المناسبة وقعت تعرية عدّة عناصر معمارية وفنيّة جديدة أفادتنا إفادات طريفة عن أطوار البناء التى مرّ عليها الجامع وخصوصا عن النواة الأولى للهيكل قبل أن يقام الجامع على مساحته الحالية سنة ٢٥٠هـ . بأمر من الخليفة المستعين العباسى .

جامع القصبة بتونس :

يعنى منذ ثلاث سنوات بترميم هذا الجامع الذى بناه الأمير الحفصى أبو زكرياء الأول فى الثلث الأول من القرن السابع هـ . وتشتمل الأشغال على التدعيم وكذلك على إعادة ما انهدم منه منذ أمد بعيد أو تداعى للانهيار : ومن ذلك : الرواقان الشمالى والشرقى المحيطان ببيت الصلاة وهما من بناء الأتراك (القرن الحادى عشر هـ .) وكذلك قبة المحراب المصنوعة على نمط القباب المغربية فى عهد الموحدين وهى نسخة من قبة المحراب بجامع الكُتُبيِّين فى مدينة مراكش .

جامع التوفيق :

بنت هذا الجامع الأميرة عطف زوج أبي زكرياء الأكبر مؤسس الدولة الحفصية وذلك فى أواسط القرن السابع هـ . اقتصرت الأشغال هذا الجامع على التدعيم .

جامع صاحب الطابع :

يرجع هذا الجامع إلى بداية القرن الفائت ، وهو مبنى على الطرز التركى يتخلله شىء كثير من الطراز الإيطالى وقد لاحت عليه بوادر السقوط منذ خمس سنوات حتى عنى بإصلاحه فشُرع فى ذلك فى مفتتح سنة ١٩٦٠ وعنى بتدعيم جدرانه وإعادة كسوها بالزليج والجبس المنقوش .

جامع القيروان :

عنى منذ سنتين بإعداد مشروع لترميم جامع القيروان ترميما كاملا . وقد عرض المشروع فى خلال هذه السنة على فخامة رئيس الجمهورية فصادق عليه ورصد له اعتمادات مالية وفيرة . وسيقع الشروع فى الأشغال ابتداء من هذه الصائفة .

الجامع الكبير بالمنستير :

يرجع هذا الجامع إلى أواسط القرن الخامس هـ . إذ بناه الأمير الصنهاجى المعزّ بن باديس وتجرى فيه منذ عامين أشغال ترمى إلى تدعيمه وتعرية العناصر الفنيّـــة المهمّة كالتى غمرها التلبيس فى المحراب وهى كتابة وزخارف .

مسجد السيدة فى المنستير :

وهو مسجد معاصر للمسجد السابق . قد كان مغمورا بالبناءات المتهدمة القيمة والصحة فوقع تهديمها لإبراز هذا المعلم الجليل ، فلما أزيلت عنه هذه البناءات بان أنه مبنى على برج وسطانى من هيكل متسع الأرجاء له

أبراج فى الأركان وفى وسط كل ضلع من مخطّطه المربع ، والمظنون أن هذا الهيكل قد كان قلعة من تلك القلاع المسماة عندنا بالرباطات .

مسجد التوبة بالمنستير :

وهو مسجد من القرن الخامس هـ . قد كان متداعيا للسقوط حتى تداركناه بالإصلاح والتدعيم من حيث جداره الشرقى وجداره القبلى .

جامع صفاقس :

بهذا الجامع المعاد بناؤه فى القرن الرابع هـ . قد كانت أخلال خفيفة فى السقوف فوقع تداركها سنة ١٩٦٠ .

مسجد البقّالين فى مدينة سوسة :

يرجع تاريخ هذا المسجد إلى القرن الخامس هـ . حسبما يلوح ذلك على محرابه ، وقد وقع تسقيف بيت الصلاة منه بتربيعة واحدة قد كان وزنها الضخم سببا فى تفكّك أوصالها إلى أن انهارت فى السنة الفارطة وقد وُضع لها برنامج أشغال سوف يقع الشروع فيها عما قريب .

الزوايا والتربات وغير ذلك :

زواية سيدى قاسم الزليجى بتونس :

وهى مجموعة معمارية بها مسجد ومدرسة للطلبة وتربة تعلوها قبة من الطرز المغربى الإسبانى وقد بناها صاحبها وهو عاقل من عقلاء رجال الأندلس النازحين من إسبانيا بعد سقوط غرناطة مباشرة . فالزاوية حينئذ من نهاية القرن التاسع هـ . وهى تزخر بمجموعة من القراميد المطلية بالطلاء الأندلسى المنعدمة المثيـــل . وقع تدعيم المسجد ويعنى الآن بإعادة الأروقة المنهارة .

الزاوية العيساوية بمدينة الكاف :

وهى قبة ومسجد يرجعان إلى أواسط القرن الفائت وقد أعيدت النقوش الجبسية الموجودة فى القبة ووضع مشروع لترميم بيت الصلاة التى زال عنها سقفها وزخارفها الجبسية .

الزاوية العيساوية ببلدة تبرسق :

ترجع هذه الزاوية إلى منتصف القرن الفائت مثل السابقة وبها نقوش وقراميد مطلية . وقع إصلاح الزاوية مع تعويض بعض القراميد الناقصة وإعادة نقش المناطق الجبسية الفاسدة .

تربة البايات فى تونس :

هذه التربة نرى فيها مزيجا من الفن التونسى والأندلسى والتركى والإيطالى وهى ترجع إلى القرن الثانى عشر ه . وقد وقع فى خلال سنة ١٩٦١ تدارك ما ظهر فى مبناها من الخلل ورفع الضرر فى انتظار ترميم فنى سوف يشرع فيه ابتداء من السنة المقبلة .

ميضأة السلطان :

بنيت هذه الميضأة فى القرن التاسع ه . بأمر من أحد أمراء الدولة الحفصية . وهى تمتاز بطرزها المغربى الإسبانى المكيف حسب الذوق التونسى . وقد اشتملت الأشغال على إصلاح المناطق المتخربة وتدعيم الأقواس وإعادة أجهزتها الرخامية .

دار حسين بتونس :

وهو القصر الذى كان يأوى المجلس البلدى لمدينة تونس قبل انتصاب الحماية الفرنسية ، وقد قاوم أفراده هذا السعى الأجنبى ، فلما غلبت تونس على أمرها وقع تشريدهم وجعل من هذا القصر مقراً لجيوش الاحتلال

الفرنسى وذلك من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٩٥٨ . فلما غادرته قيادة الجيش الأجنبي أسندته الحكومة الوطنية إلى دائرة الآثار ليكون مقرها الإدارى ، فشرعت هذه فى ترميمه وإرجاع أصوله المعمارية والزخرفية حسب القواعد الفنية المعمول بها عند تأسيس هذا القصر فى القرن الثانى عشر هـ .

رباط المنستير :

وهو القلعة التى بناها هرثمة بن أعين قائد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨١ هـ . وذلك تحصيناً للسواحل التونسية ودفاعاً عنها من غارات النصارى القادمة من البحر . وقد زيد فى هذا المعلم زيادات عديدة عبر العصور حتى صار له الاتساع الخارق الذى نشاهده عليه اليوم . وقد أقبلت الدوائر المختصة منذ ثمان سنين على ترميمه وتدعيمه وإرجاع أصوله متى سمحت لها الفرصة بذلك .

٢ — المعالم السابقة للعصور الإسلامية :

قصر ألْجَم :

هذا الملعب الرومانى يرجع تاريخه إلى الثلث الأول من القرن الثالث م ، وهو من حيث الاتساع فى المنزلة السادسة بعد (كولبزى) روما ولكنه أكثر ارتفاعاً وأشمل عناصر . وقد شرعت الحكومة فى إعداد برنامج لترميمه ونزع البناءات الملاصقة له والمشوهة لمظهره الهيكلى ، كما رصدت لذلك مقداراً من المال ليس بالهين ليصرف على خمس سنوات .

هذه جملة الإنجازات التى وقعت فى تونس فى بحر السنوات الثلاث الأخيرة (١٩٦٠ – ١٩٦١ – ١٩٦٢) بالنسبة إلى ترميم وإصلاح المعالم التاريخية .

ثانياً – المتاحف

فى السنوات الأخيرة اهتمت الحكومة التونسية غاية الاهتمام بالمتاحف وكان العمل فى الميادين الآتية :

١ – تعصير عرض القاعات القديمة طبق المبادئ الجديدة للفن المتحفى الجديد ؛

٢ – تأسيس متاحف جديدة .

٣ – تحضير مشاريع متاحف جديدة .

٤ – جعل المتاحف آلة لبث وتبسيط الثقافة القومية .

* * *

تعصير عرض القاعات القديمة طبق المبادئ الجديدة للفن المتحفى الجديد :

بمتحف باردو القومى وقع تعصير وتنظيم القاعات الآتية :

قاعة ألتبروس

قاعة دقّة

قاعة وذنة

وكذلك وقع ترميم سقف قاعة قرطاج ونظم فى طابقها الأعلى عرض مجموعة من الدمى العتيقة مع مجموعة من أشياء برنزية ذات الحجم الصغير ومجموعة من أوانى البلّور وكل ذلك من العصر الرومانى .

أضف إلى ذلك أننا اتبعنا سياسة إكثار الإرشادات المكتوبة بالعربية والفرنسية والانكليزية وذلك فى أكثرية القاعات.

توسيع المتاحف القديمة بتأسيس قاعات جديدة :

قمنا بهذا العمل بالمتحف القومى بباردو وبمتحف سوسة العتيق .

بمتحف باردو القومى وقع تأسيس قاعة كبرى لعرض المجموعة الكبرى من الفسيفساء التى اكتشفت بأشولة العتيقة بين الشابة وصفاقس .

ودشنت هاته القاعة سنة ١٩٦١ بمحضر السيد كاتب الدولة للرئاسة والدفاع وضيف تونس المرشال تيتو .

وفتحت قاعة ثانية سنة ١٩٦٢ مخصّصة للرسوم الزيتية لأمراء ووزراء الدولة الحسينية .

وفى الطابق الأسفل للمتحف القومى فإننا على وشك إتمام أعمال قاعات ثلاث مخصصة للفن النصرانى القديم حول معرض تعميد قليبية ويرجع تاريخه إلى بداية القرن السادس بعد المسيح .

أما متحف سوسة فإنه وقع إعداد ثلاث قاعات جديدة خصصت لمجموعة الفسيفساء المكتشفة بسوسة والجم وسلقطة ومن بينها فسيفساء أشهر السنة من الجم ، وفسيفساء الأسد من السلقطة .

تأسيس متاحف جديدة :

(ا) متحف الآثار الإسلامية بدار حسين بتونس وهو مخصص لمجموعة من الآثار الإسلامية المكتشفة بالبلاد التونسية أو المستوردة من الشرق .

(ب) متحف الآثار الإسلامية بالقيروان ودشن سنة ١٩٦٢ بمحضر فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة والسيد كاتب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار السيد الشاذلى القليبى .

(ج) المتحف العتيق بدار الطيور بقرطاج دشن بصيف سنة ١٩٦١ بمحضر فخامة رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة وعرضنا فى هذا المتحف مجموعات بونيقية ورومانية ووندالية وبيظنطية اكتشفت معظمها بخرائب

قرطاجنة . أضف إلى ذلك أننا دخلنا فى طور إنجاز متاحف بمكنين مخصص للتقاليد والفنون الشعبية :

بصفاقس بوردانين – للفنون والتقاليد الشعبية .

ونريد أن نعرض بهاته المتاحف الثلاثة الأزياء الشعبية الجهوية : آلات العمل التقليدى – آلات الموسيقى التقليدية وكل الوثائق التى ترتبط بالحياة التقليدية .

تحضير مشاريع ومخططات لمتاحف جديدة :

تتبع كتابة الدولة للشؤون الثقافية والإرشاد سياسة اللامركزية فى المتاحف وهو مما جعلنا نعمل لتأسيس متاحف فى الإطار الجهوى . فما عدا متاحف المكنين وصفاقس والوردانين التى هى اليوم فى طور الإنجاز ، فإننا نحضر اليوم مشاريع المتاحف الجديدة الآتية :

(ا) متحف الجم للآثار التى اكتشفت فى خرائب الجم وهى « تسدروس » العتيقة المشهورة بملعبها العملاق ، وسوف نعرض فيه مجموعة من الألواح الفسيفسائية الوحيدة من نوعها فى العالم العتيق .

(ب) متاحف الفنون والتقاليد الشعبية لمدينة تونس وجهتها – سوسة وجهتها – للقيروان وجهتها – لجربة وجهتها – للكاف وجهتها – لبنزرت وجهتها .

(ج) متحف لتاريخ العهد التركى والحسينى بقصر البلى بقرطاجنة .

(د) متحف للثورة والاستقلال .

(ه) متحف الفنون التونسية العصرية من رسم ونحت وخزف .

جعل المتاحف آلة حية لبث الثقافة القومية وتبسيطها :

ولهذا الهدف وقع نشر كتاب عنوانه : كنوز متحف باردو وهو الأول من مجموعة يتواصل نشرها .

وظهر بالمشاركة بين تونس واليونسكو كتاب ثانٍ مخصص لمجموعة الفسيفساء عنوانه « تونس العتيقة » .

ومن جهة أخرى فإن قسم التصوير للمتحف القومى بباردو يمدّ كل الباحثين والأساتذة بالوثائق الفوتوغرافية المتعلقة بالتّراث التونسى .

وفى داخل المتحف تقام محاضرات متجولة وقارة فى مواضيع أثرية وتاريخية ؛ وأشرف على هذا المشروع السيد كاتب الدولة للشؤون الثقافية بنفسه ، وفى نيتّها أن تكون المحاضرات دورية فى داخل المتاحف التونسية .

أضف ذلك أن المتربصين لإدارة دور الثقافة والمعلمين المكلفين بالتّربية الاجتماعية قضوا مدة بالمتحف القومى من حيث استمعوا دروسا ومحاضرات أشعرتّهم بأهمية المتاحف التثقيفية .

وفى الميدان التثقيفى المتحفى نظم معمل لصنع النسخ الجصية للمعروضات ، وتباع اليوم بأثمان معقولة للمدارس والعموم . هكذا فإن سياسة كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ترمى قبل كل شىء إلى جعل المتاحف أحسن آلة تثقيف للأمة بجميع طبقاتّها بوسائل محسوسة وملموسة .

ثالثا ــ البحوث الأثرية والتاريخية

كوّنت كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار خلال سنة ١٩٦٢ مركزا للبحوث الأثرية والتاريخية عهدت له بمهمتين :

١ ــ الحفريات فى المواقع الأثرية .

٢ ــ النشاط العلمى .

والمركز وإن كان حديث العهد تنقصه بعض الإطارات الفنية إذ ما زال من أفراده من يتابع دروس التخصص فى البلاد الأجنبية فهو مع ذلك قطع شوطا فى إنجاز خطته التى تكون من أجلها .

وها هو اليوم يشترك لأول مرة فى مؤتمر الآثار للبلاد العربية فيقدم لكم تقريرا عاما عن نشاطه ومنجزاته .

١ ـ الحفريات الأثرية

يقوم المركز بحفريات منتظمة موسميــة فى المواقع الأثرية التالية :

(ا) فى المواقع الكلاسيكية

هنشير الفوار :

وهى قديما Belalis Major كما بينته نقيشة قدّمتها إلى أكادمية النقائش بباريس سنة ١٩٦٠ .

وتقع هذه المدينة على بعد ١٠٨ ك . م غربى مدينة تونس على مقربة من مدينة باجه .

وتواصلت الحفريات بها مدة موسمين اكتشفت فيهما المعالم التالية :

١ ـ كنيسة الأسقف Restitutus ويرجع تاريخ بنائها إلى القرن السادس الميلادى .

٢ ـ الميدان Forum وهو ساحة ط 34 م ـ ع ـ 25 م .
وهذا الميدان صغير الحجم إذا قابلناه بالميادين الأفريقية الأخرى كدقة ومكثر وسبيطلة .

٣ ـ وحول الميدان عدّة مبانى نذكر منها الحمام العمومى وقد أدخلت عليه تحويرات عديدة غيرت هيكله خاصــة أثر تكسير القناة التى كانت تجلب إليه المياه من العين وتعويضها ببئر ـ هذا من الناحية المعمارية .

أما من الناحية الفنية فلقد تبرز بهنشير الفوار مميزات الفن النوميدى فى

ميدان النحت وتتبين صبغته الأهلية رغم سيطرة الفن الرومانى الرسمى على بعض عناصره .

* * *

ومن النقائش اللاطينية التى اكتشفت أثناء التنقيب ما يهم الحياة الدينية . من ذلك جمع من المشاهد للإله Saturne « بعل » البونقيين :

ونقيشة تثبت لأول مرة أن بإفريقية الرومانية كان يعبد الإله Sábazios ، وهى عقيدة شرقية الأصل . ونصب المذبح الذى عليه النقيشة تعزيزا لـ Dionysos بوحى من Sabazios .

أما ما يهم الحياة السياسية فنقائش عدة تعزز القيصر إمبراطور رومة فهذا Hadrien وهذا Marc Aurèle وهذا Elagabal وغيرهم . ولعلنا عند مواصلة الحفريات نعثر على ما يدلنا قطعيا ــ من الناحية التأسيسية ــ ما نعتقده اليوم وهو أن مدينة Belalis قبل أن تصير بلدية رومانية لها ذاتيتها السياسية كانت تابعة لإقليم قرطاجنة Colonia Karthago أى قرية محصنة من الاثنين وثمانين قرية (82 castella) التى كان يحويها هذا الإقليم ، ومن الأدلة التى ترجح اعتقادنا انتماء سكان مدينة Belalis إلى قبيلة Arneusis التى ينتمى إليها مواطنو قرطاجنة .

هنشير المست :

وهى قديما موستيس Mustis – ويسهر على الحفريات بها الأستاذ عز الدين باش شاوش ــ وتمتد آثار هذه المدينة بمقربة من بلدة الكريب الحديثة على بعد ١٢٠ ك . م غربى تونس (طريق تونس الكاف) حول زاوية سيدى عبد ربه .

وتواصلت الحفريات بها مدة موسمين اكتشفت أثناءهما المعالم التالية :

١ ــ كنيسة الأسقف ڤيكتور Victor وقد بنيت فوق دار رومانية وجدنا منها بيتا به فسيفساء ودهليزا ربما استعمل فى العهد المسيحى .

٢ ــ معبد إله الخصب والخير Pluton .

٣ ــ ثم إننا أتممنا فى الموسم الأخير كشف الحصن الروى البيزنطى (Pl III l'enceinte) وبه استعملت جل النقائش اللاطينية التى كانت من قبل منصوبة بالميدان البلدى فى العهد الرومانى .

النقــائش :

وتثبت لنا هذه النقائش وجود عدة معابد لم نكشف عليها بعد .

ــ معبد Dionysos .

ــ معبد اسكولاب Esculape إله الطب .

ــ معبد الأرض باعتبارها الأمّ المغذية Tellus .

ــ معبد الزهراء Venus .

ــ معبد ربّى الفلاحة والخصب Cereres .

ــ معبد إله البحر Neptune .

ثم أنها تمكننا من معرفة الحياة السياسية داخل البلدية .

إن « موستيس » قديما بلدية رومانية لها كيانها الذاتى يدير شؤونها مجلس بلدى يترأسه رئيسان (Ordo decurionum et II viri) وترجع بالنظر إداريا إلى النائب حاكم إقليم نوميديا Légat de Numidie باسم الوالى Proconsul . وجل المواطنين بها تنتسب ألقابهم إلى « يوليوس » قيصر والقياصرة البوليين Julii .

وتنتمى المدينة إلى قبيلة Cornelia ، وهى المدينة الوحيدة فى إفريقية الرومانية التى تنتمى إلى هذه القبيلة الشاذة . ولعل هذا أثر من أيام القائد الرومانى Marius الذى وطن جنده ومن ناصره من البربر فى فحص

الكريب وسوق الأربعاء على شافة الحفير « Fossa Regia » الذى كان يحد بين أفريقيا العتيقة Africa Vetus وأفريقيا الحديثـة Africa Nova أى نوميديا .

(ب) فى المواقع الإسلامية

رقاده :

تقع أطلال رقاده على بعد تسعة ك . م جنوب القيروان — ويسهر على الحفريات بها الأستاذ محمد الشامى. ابتدأت بها الحفريات سنة ١٩٦٢ ، لمدة موسمين . اكتشفنا بها قصرا يلى وصفه : هو بناء مستطيل يحيط به سور خارجى تدعمه أبراج نصف دائرية ، أما برجا المدخل فربع دائرة .

يتجه مدخل القصر إلى الشرق . وهو باب عريض يقود إلى دهليز يميل إلى اليسار يؤدى سقيفة نافذة إلى الصحن . وفى جانب الدهليز الأيمن الغير نافذ ماجل للماء .

وقد فرش الصحن بالآجر الأغلبى . به ماجل كبير لخزن الماء ، تتخلله كثير من السواقى التى كانت تجلب له ماء السطوح .

تفتح أبواب الغرف كلها إلى الصحن ، وببعضها بقايا تبليط بالآجر ؛ وتمر أمام الغرف بقايا أعمدة مما يدل على وجود رواق كان يظلل الجهات الثلاث المعرّاة لحدّ الآن .

أضيف إلى بناءاته الأصلية جدران أحدث منها استعمل بعضها لسد بعض أبواب الغرف الأغلبية والتصقت بعض الجدران المضافة بخارج الجدار الجنوبى مستندة على الأبراج أحيانا مكوّنة غرفا أخرى تتجه إلى الجنوب .

اعتمد فى مواد بنائه على قوالب الطين النىّ واستحكمت أسسه بأنواع من الأخشاب جعلت للربط تمر تحت الجـــدران فى أربعة خطوط متوازية .

وجدت به كسرات من الفخار تحمل زخارف نباتية وفى بعضها الآخر بقايا من صور حيوانية ، واستعملت فيها الألوان الأخضر والأصفر والأسود . ووجدت أيضا بعض زخارف جصية كانت على الجدران داخل الغرف تمثل وريدات وزخارف نباتية وهندسية محفورة تعتمد على الألوان الأحمر والأخضر . كذلك وجد بالماجل الزليج ذو البريق المعدنى وهو يشبه الزليج المحيط بمحراب جامع القيروان مما يؤيد النظرية القائلة أن هذا الزليج صنع بإفريقية وليس مجلوبا من العراق على أنها كانت تقليد للزليج العراقى .

ويبدو أن هذا القصر هو قصر الصحن لأن ابن عذارى يذكر أن المهدى الفاطمى حينما أراد قتل أبى عبد الله الشيعى أمر عروبه بن يوسف الملوسى ، وجبر بن نُماسب الميلى أن يكمنا خلف قصر الصحن فإذا مر بهما أبو عبد الله الشيعى وأخوه أبو العباس طعنوهما بالرماح حتى يموتا .". وبعث لهما المهدى يدعوهما للأكل كعادته فإذا مرًّا بالمكان الذى فيه الكمين خرج عليهما وطعنهما فماتا . . . ومكثا صريعين على حف الحفير المعروف بالبحر إلى ما بعد الظهر[1] . ويقع الحفير المذكور وراء القصر الذى به الحفريات الآن مباشرة مما لا يدع مجالا للشك أنه هو قصر الصحن .

٢ – النشاط العلمى

(١) النشريات :

نشرتُ علاوة على التقرير الذى صدر بمجلة (Les Cahiers de Tunisie) حول الحفريات بجهة باجه دراسة تناولت بالبحث ما كشفه الموسم الأول للحفريات بمدينة Belalis (انظر نشرية أكادمية باريس للنقائش) .

وإنّى بصدد تحضير تقرير جديد عن حفريات هنشير الفوار فى موسم ١٩٦٢ – ١٩٦٣ :

(١) ابن عذارى : البيان ص ١٦٤ . ط . ليدن .

وجعل السيد عز الدين باش شاوش من حفريات « موستيس » موضوع بحثه الذى يقدمه فى السنة القادمة إلى جامعة باريس للأحراز على شهادة الدراسات العليا . وسينشر بالمركز تقريراً عن النقائش اللاطينية المكتشفة .

ونشر السيد الهادى سليم الذى كلف فى هذه السنة بحفريات الجم Thysdrus دراسة عن الحياة الاقتصادية بهاته المدينة فى فترة ازدهارها وهو بصدد تحضير دراسة عن الفسيفساء التى اكتشفت أخيرا .

وقدم السيد محمد الشابى للطبع كتاب « سجل النقود العربية فى أفريقية » . وهو يعد تقريرا خاصا عن حفريات قصر الصحن برقاده .

(ب) المشاركة فى الملتقيات العلمية :

شارك مركز البحوث الأثرية خلال شهر مارس ١٩٦٣ فى الملتقى الثانى للآثار بسوسه وقدم أفراده الدراسات التالية :

١ ـ الأستاذ عمار المحجوبى

« نقيشة لاطينية اكتشفت بالقيروان تثبت وجود مجموعة مسيحية بهذه المدينة فى القرن الخامس للهجرة ـ الحادى عشر ميلادى » .

٢ ـ الأستاذ الهادى سليم

« أضواء حول الحياة الاقتصادية بالجم فى القرن الأول قبل المسيح »

٣ ـ الأستاذ عز الدين باش شاوش

« فسيفساء تمثل مصارعة السباع بالملعب عليها نقيشة لاطينية تبين كيف يقام هذا الحفل وأسباب إقامته وما اتصال ألعاب الـ amphithéâtre بالحياة البلدية فى أفريقية الرومانية » .

وستنشر هذه الدراسات فى عدد خاص من مطبوعات الجامعة التونسية Cahiers de Tunisie .

تقرير الجمهورية العراقية

عما قامت به من أبحاث أثرية وحفائر وما أصدرته من مؤلفات

فى السنوات الثلاث من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٢ .

أولا – الحفائر الأثرية

١ – حفائر سهل شهرزور :

سهل شهرزور سهل واسع عظيم يقع إلى الجنوب الشرقى من لواء السليمانية بشمال العراق ، وفضلا إلى كون هذا السهل معروفا فى التاريخ فهو من أغنى مناطق العراق بالآثار وأوسعها مجالا للتنقيب والبحث الأثرى ، لأنه يضم فى الحقيقة مجموعة كبيرة من المواقع والتلول والمستوطنات الأثرية التى سكنت فى مختلف العصور والأزمنة منذ العصر الحجرى الحديث إلى يومنا هذا . ولما كانت بعض هذه التلول ستغمر بمياه سد « دربندى خان » الذى شيد فى أعالى نهر ديالى عند ملتقاه بنهر « التانجرو » و « سيروان » ، أوفدت مديريتنا العامة فى أوائل شتاء عام ١٩٥٩ و١٩٦٠ و ١٩٦١ هيئات فنية من موظفيها ومستخدميها لإجراء سلسلة من الحفائر والتحريات الاستكشافية فى أول التلول التى ستغمرها مياه السد المذكور لمعرفة ما تحتويه فى بطونها من آثار وما تعاقب عليها من أدوار السكن . ولقد توصلت تلك الهيآت بعد جهود كبيرة من العمل والبحث المتواصل إلى معلومات حضارية جديدة من بينها حضارتان متمثلتان فى نوعين من الفخار النادر لم يسبق لأحد أن كشف مثله من قبل لا فى العراق ولا فى الأقطار المجاورة له . يرتقى زمن الحضارة الأولى إلى الألف الخامس قبل الميلاد وتتمثل فى مجموعة من أوان من الفخار ذات أشكال غريبة متنوعة تزينها رسوم كثيرة تشبه إلى حد كبير فخار حلف

الملون، وقد سمينا هذه الحضارة موقتا بحضارة « بيكم » نسبة إلى الموقع الذى كشفت فيه . والثانية تتمثل أيضاً فى نوع من الفخار المحزز والغفل من الحزوز يرتقى زمنها إلى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد . وقد سمينا هذه الحضارة بحضارة « شاملو » نسبة إلى المستوطن الذى كشفت فيه : ويبدو أن الزمن الذى صنعت فيه كل من تلك الحضارتين كان عهد عمران ورخاء فى منطقة شهرزور . ومن التلول المهمة التى شملها الحفر فى السهل المذكور تل كبير يعرف حالياً بتل « بكر آوه » وقد عثر فى هذا الموضع على مستوطنات سكنية كثيرة مع جملة من الآثار النادرة من بينها ألواح من الطين المشوى منقوشة بكتابات مسمارية يرتقى زمنها إلى عهد حورابى ، وأغلب الظن أن هذا الموقع كان من المراكز الإدارية المهمة فى منطقة شهرزور . وفى خارج منطقة الانغار تم العثور على سور كبير مشيد بالحجر والجص مزين بأبراج ومزاغل دفاعية ، ويبدو من تصميم هذا السور أنه يعود إلى قلعة أثرية تعرف بقلعة « خورمال » التى يظن أنها بقايا مدينة شهرزور التى شيدت فى أواخر العهد الساسانى واشتهرت فى العصر العباسى .

٢ – الحضر :

من المدن العربية المعاصرة لتدمر وبعلبك وجرش . وتقع أطلالها فى البادية الكائنة بين دجلة والفرات على نحو ١٤٠ كم جنوب غربى مدينة الموصل . وأظهر البحث الأثرى الذى قامت به مديريتنا العامة أن موقع الحضر كان مستوطنا لعرب البادية وقاعدة لدويلة عربية حكامها من « آل نصر » أطلقوا على أنفسهم لقب « ملك العرب » .

وقد ازدهرت حضارة الحضر وتجارتها فى الفترة التاريخية المعروفة بالعصر الفرثى أى من القرن الأول قبل الميلاد حتى منتصف القرن الثالث الميلادى . كما أشتهرت بمناعة أسوارها وعظمة قصورها ومعابدها ومنحوتاتها الجميلة . ولأهمية هذا الموقع من الناحية التاريخية والأثرية والسياحية ، وبالنظر لبقاء آثار

الحضر سالمة وبعيدة عن أيدى العابثين خلافا لما أصاب أخواتها من المدن التى نشأت على أطراف بادية الجزيرة العربية . فقد قامت مديريتنا العامة منذ عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٥٥ بالتنقيب فيها فعثرت على اثنى عشر معهدا فى أماكن مختلفة من المدينة وكشفت فى تلك المعابد على مجاميع نفيسة ونادرة من التماثيل والكتابات الآرامية المهمة قد تلقى ضوءاً كثيراً على التراث العربى قبل دخول الإسلام إلى العراق . ولأهمية المواقع كما ذكرنا عادت مديريتنا فى نهاية عام ١٩٦٠ إلى اجراء سلسلة من التنقيبات والصيانة الأثرية فى آن واحد . وبعدجهود كبيرة من العمل توصلنا إلى العثور على معبد جميل مشيد على الطراز الهلنستى الإغريقى الشرقى قوامه غرفة مستطيلة الشكل تقوم على دكة محوطة بأعمدة تتألف من الحجر . ووجدت فى هذا المعبد تماثيل نادرة كانت مطمورة فى الأنقاض من بينها آلهة يونانية شهيرة مثل الإله « ابولو » و « بوسايدن » وإله البحر المعروف « نيبتون » والإله «كيوبيد » إله الحب والإله « هرمز » ، وتمثال من النحاس ربما يعود إلى الإلهة « أرتيسى » (العذراء) ، وجملة تماثيل صغيرة من النحاس تعود إلى البطل الأسطورى « هرقل » ومن الاكتشافات الخطيرة المهمة العثور على أربعة تماثيل بالحجم الطبيعى تقريباً وجدت فى المعبد الكبير ، وقد نقشت قواعد هذه وغيرها من التماثيل المكتشفة بكتابات آرامية مطعم بعضها بالرصاص تذكر أسماء للملوك الحضر منهم « وبلحش» و « سنطرق » و « عبد سميا » و « سنطرق الثانى » الذى تقهقرت أمامه جيوش الرومان بقيادة إمبراطورهم تراجان فى عام ١١٦م . وهكذا فقد تخلصت الحضر من التدمير الواسع الذى حل فى مدن العراق الأخرى على أيديهم . كما عثر أيضاً على مجموعة كبيرة أخرى لتماثيل نحاسية صغيرة تمثل آلهة وكهنة ورجال من علية القوم وكذلك آثار نفيسة دقيقة الصنع من النحاس والحجر والذهب والفضة . وتأمل مديريتنا أن تجعل الحضر بعد إتمام أعمالها الفنية من صيانة وحفر من أعظم وأشهر المواقع الأثرية والسياحية فى شرقى الوطن العربى .

٣ ـ الأخيضر :

يقع هذا القصر جنوب غربى كربلاء على على نحو من ٥٠ كم . ويبعد عن العاصمة بغداد بـ (١٥٢ كم) ، وينفرد هذا القصر بفخامته وهندسته وطرز بنائه .

يرتسم قصر الأخيضر على أرض مساحتها ١٢ × ٨٢ كم محوط من الخارج بحصن شاهق منيع أبعاده ١٧٥ × ١٦٩ م . أما أقسامه الداخلية فتضم مرافق متعددة من بيوت وساحات ومسجد وأروقة وإيوانات مشيدة على طراز يعرف بالطراز الحيرى المركب وهو نمط من العمارة نشأ وتطور فى العراق وصار مركبا فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد ، ولأهمية هذا القصر من الناحية التاريخية والأثرية والسياحية قامت مديريتنا بإيفاد هيئة فنية من موظفيها ومستخدميها فى أواخر ربيع عام ١٩٦٢ للقيام بأعمال الحفر والصيانة الأثرية فى آن واحد أيضاً . فرفعت الأنقاض والأتربة المتراكمة فى مرافق القصر ثم باشرت بصيانة بعض الأجزاء المتداعية والماثلة إلى الانهدام . أما النتائج الأثرية المهمة فقد عثرت هيئتنا على مجموعة كبيرة من الفخار والزجاج والخزف الجميل يرتقى زمنه إلى حدود القرن الثانى للهجرة على غرار ماكشف منها فى حفائر المدينة العربية الإسلامية الكوفة . ومن المكتشفات الأثرية الأخرى العثور على مسجد آخر فى الطابق الثانى من القصر المذكور كما ثبت لدينا أن محراب مسجد الأخيضر الأول هو من صلب البناء وليس منحوتا فى جدار القبلة كما كان يظن، أما فى خارج موقع القصر فقد تم العثور على بقايا سور كبير مما يظن أن قصر الأخيضر وما يحيط به ربما كان فى الأصل موضعا لمدينة . وبهذا تكون مديريتنا قد أضافت كشفا جديداً يقرب الزمن التاريخى لقصر الأخيضر الذى ما زال معلقا إلى الآن . ومن المهم ذكره العثور على حمام داخل القصر لم يكن معروفا فى السابق وهو فى تخطيطه شبيه بما هو موجود فى قصير عمره وفى حمام السرخ من العهد الأموى .

٤ - تل الضباعى :

بذلت مديريتنا مجهوداً كبيراً فى تل « الضباعى » وهو أحد التلول الأثرية الكثيرة المنتشرة فى شرقى بغداد على مقربة من تل « حرمل » الشهير . وقد سبق لمديريتنا أن أجرت تنقيبات استكشافية فيه عام ١٩٤٧ واستخرجت منه مجموعة كبيرة من ألواح الطين المكتوبة بالخط المسمارى مع جملة آثار فخارية وطبقات سكنى تعود لأدوار سكنية مختلفة . ولأهمية هذا الموقع من الناحية التاريخية والأثرية باشرت مديريتنا فى صيف عام ١٩٦٢ أعمالها الاستكشافية فى التل المذكور ، وبعد جهود كبيرة من العمل المتواصل أسفرت حفائرنا عن اكتشاف ألواح رياضية خطيرة مدونة على الطين بالخط المسمارى يرتقى زمنها إلى حدود ١٧٥٠ قبل الميلاد منها لوح عليه قضية هندسية تثبت أن العراقيين القدماء عرفوا النظرية المنسوبة إلى فيثاغورس قبل اليونان بما يتجاوز (١٢) قرنا . كما عثرت هيئتنا على أبنية وطبقات سكنية مختلفة وآثار متنوعة يرتقى زمنها إلى أدوار مختلفة من تاريخ العراق القديم . وسنواصل البحث والتحرى فى هذا الموضع ريثما تتوافر الاعتمادات المالية القادمة .

٥ - سامراء :

وفى سامراء باشرت مديريتنا بأعمال التحرى فى خرائب المسجد الجامع الذى شيد عام ٣٥٢ ﻫ من قبل المتوكل على الله والذى يعد أكبر مسجد فى العالم حيث تقارب مساحته (٣٣) ألف متر مربع عدا الزيادات التى ألحقت به فتضاعفت مساحته . فاستظهرت التباليط الأصلية وبقايا الأروقة تمهيداً لصيانة هذا المسجد العظيم على الشكل المطلوب . وقد تمكنت هيئتنا من رفع القسم الأكبر من الانقاض المتراكمة من وسط الصحن وأروقته فعثرت بين النقض على قطع من الفسيفساء الجميل منه ما هو مطلى بالذهب كانت تزين الجدران الأربعة للنافورة المعروفة بكاس فرعون . وعثر أيضاً

على نماذج فريدة بهيئة آجر مربع من الزجاج كان يزين القسم السفلى للجدار القبلى من الداخل . وكشف على أساطين رخامية وجدت بين الأنقاض وكانت فى الأصل تزين مداخل الجامع ، وسوف نباشر بأعمال الصيانة الأثرية على غرار ما قمنا به من ترميم وصيانة جامع « أبى دلف » فى سامراء قبل سنوات .

ثانياً - حفائر البعثات الأجنبية

لم تقتصر الحفائر الأثرية فى العراق على مديريتنا فحسب بل واصلت البعثات الأجنبية الموفدة من الجامعات الأوربية والأمريكية أعمالها الأثرية فى بعض المواقع التى تعودت العمل فيها منذ سنين طويلة . وأول هذه البعثات الأجنبية البعثة الأمريكية التابعة لجامعتى شيكاغو وبنسلفانيا حيث واصلت أعمال التنقيب فى خرائب « نفر » السومرية جنوب العراق برئاسة الأستاذ الأستاذ هينس . وأسفرت حفائرها فى مطلع عام ١٩٦٠على جملة تماثيل سومرية نادرة من الحجر الجميل ومجموعة طيبة من فخار وأوانى وألواح تضم على كتابات مسمارية عادت معظمها إلى المتحف العراقى . كما عثرت البعثة المذكورة على جملة معابد وطبقات سكنى مهمة قد تضيف إلى تاريخنا القديم جديداً .

أما البعثة الأثرية الألمانية فقد باشرت أعمالها برئاسة الأستاذ هـ . لينزن فى خرائب بابل أولا حيث تحرت فى برجها المشهور لاستكمال بعض الحقائق العلمية عنه . وكذلك حاولت التنقيب فى موضع البرج المدرج لمدينة بابل ثم انتقلت بعدها إلى خرائب الوركاء السومرية جنوب العراق فواصلت أبحاثها فى منطقة المعابد التى تعرف بـ (أى ــ أنا) فعثرت على جملة معابد مهمة وآثار وكتابات مسمارية مدونة على ألواح الطين .وتناولت التنقيب فى قصر واسع شيده (سين ــ كاشد) أحد حكام الوركاء فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، والقصر مشيد بالآجر وقد عثر فيه على مجموعة قيمة من ألواح الطين عددها ما يقارب من نحو ألفى لوح مدونة بالخط المسمارى تشمل نصوصا

إدارية ودينية وأدبية من بينها رسالة تاريخية ذات أهمية بالغة فى تاريخ العراق القديم — أنها رسالة بعث بها ملك الوركاء (أن — نام) إلى الملك البابلى (سين مبلط) والد الملك الشهير حورابى تضمنت إقامة التحالف والروابط بين مدينة بابل والوركاء فى حربهما ضد العيلاميين . ومنها أيضا ختم منقوش بكتابة مسماوية تذكر اسم زوجة ملك الوركاء « سين كاشن » وتذكر اسم أبيها (سومو لا ايلو) . وفى مطلع هذا العام عثرت على معبد جميل التشييد وجملة آثار من بينها زورق من الفخار صغير الحجم وألواح طينية تحمل كتابات مسمارية فى طورها الأول عادت جميعها إلى المتحف العـراقى حسب أحكام قانون الآثار .

أما البعثة الأثرية البريطانية فقد باشرت أعمالها برئاسة الأستاذ ديفيد أوتس فى موقع (نمرود) المدينة الآشورية المعروفة بشمال العراق . وأسفرت نتائجها إلى العثور على جملة عاجيات دقيقة الصنع وعلى منصة حجرية للملك الآشورى شيامنصر الثالث (القرن التاسع ق . م) عليها كتابات مسمارية وزخرفة جميلة تبين أعمال هذا الملك عادت جميع آثارها أيضا إلى المتحف العراقى . ولا يخفى بأن جميع أعمال هذه البعثات تخضع لقانون الآثار العراقى وتحت إشراف ومراقبة الفنين والمختصين فى مديريتنا .

ثالثا — أعمال الصيانة الأثرية

لم تقتصر أعمال مديريتنا على الحفائر الأثرية خلال الثلاث سنوات الأخيرة الماضية بل شملت الترميم والأعمار لبعض الأبنية الأثرية الشاخصة نظراً لما لها من شهرة تاريخية وسياحية وأول هذه المواقع التى جرت فيها أعمال الصيانة هى : —

١ — المدرسة المستنصرية :

والمدرسة المستنصرية من أهم المبانى العربية الإسلامية المتبقية فى بغداد اليوم . ومن الثابت تاريخها أن مؤسسها وبانيها الخليفة العباسى (المستنصر

بالله) الذى خلافته من سنة ٦٢٣ إلى ٦٤٠ هـ (١٢٢٦ – ١٢٤٢ م) .
وبدأ بتأسيسها سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ويبدو أنها تكاملت فى سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤ م) .

وترتسم المدرسة المستنصرية على أرض مستطيلة الشكل مساحتها ٤٨٣٦ متراً مربعاً تطل على الضفة اليسرى من دجلة تتألف من طابقين متناظرين بالشكل والتصميم . الطابق الأرضى يحتوى على غرف وقاعات وأروقة وإيوانات ومسجد وحمام ومطبخ وحجر للطلبة كلها تطل على فناء مستطيل مساحته (١٧١٠) متراً مربعاً أما الطابق العلوى فيشتمل على مجموعة من الغرف فقط . ومن الملاحظ أن واجهات الجدران والإيوانات والمدخل الرئيسى محلى بزخرفة آجرية جميلة كل منها على نظير الواجهة المقابلة للأخرى مع اختلاف طفيف من ناحية التصميم والتشكيل ويلف حول جدرانها من الخارج شريط زخرفى من الكتابة محفورة على الآجر بصورة ناتئة تشير إلى مشيد البناء وتاريخه وتجديده فيما بعد .

كانت هذه المدرسة فيما تشير إليه المصادر لتدريس علوم القرآن والدين واللغة والطب والرياضيات وغيرها من العلوم الإنسانية الأخرى

ولما كان هذا البناء من الأبنية العربية الإسلامية الفريدة ببغداد واصلت مديريتنا جهودها فى صيانة وأعمار هذا البناء وإبرازه إلى سابق عزه حيث رمت جميع مرافقها وأقسامها وإعادتها إلى الشكل المطلوب ولعل أبرز ما قامت به مديريتنا أخيراً فى هذا البناء صيانة إيوان دار القرآن وإظهاره على الوجه المطلوب كما رمت بقايا الوجهة المطلة من المدرسة على نهر دجلة بمقاساتها وزخرفتها وسنواصل أعمال البناء والصيانة حتى تتكامل جميع أجزائها ومن الجدير بالذكر أننـــا قد اتخذنا من بناء المدرسة المستنصرية متحفاً فنياً للخط العربى وداراً لجميع المخطوطات والكتب الأثرية .

٢ ـ منارة سوق الغزل :

ومن أعمال الصيانة الأخرى التى ركزت مديريتنا عليها ترميم وصيانة منارة سوق الغزل وهى أقدم ما بقى من مآثر بغداد العباسية القائمة اليوم ببغداد ، ومما يذكر أنها كانت تقوم فى موضع جامع الخلفاء الذى يعزى تشييده إلى الخليفة العباسى المكتفى بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ) (٩٠٢ ـ ٩٠٨ م) ولقد استطاعت مديريتنا أن ترمم وتعيد جميع زخارف هذه المئذنة وما سقط من مدنها كما عملت لها سلم وسياج من الحديد يحميها من العبث .

٣ ـ خان مرجان :

شيد هذا الخان الذى يعرف بخان « الأورتمة » أى الخان المسقوف ـ أمين الدين مرجان حاكم بغداد فى عهد السلطان أويس بن الشيخ حسن الجلائرى عام ٧٦٠ هـ (١٣٥٨ م) وقد قامت مديريتنا عام ١٩٣٥ م بترميم وصيانة هذا الخان وافتتح عام ١٩٣٦ م ليكون متحفاً للآثار العربية الإسلامية إلا أن ثمة تشقق وتصدع حدث فى جدرانه فآل إلى الانهدام فأسرعت مديريتنا لإعماره وصيانته فحفرت الأسس وقويت بالسمنت المسلح ثم رمت جميع جدرانه الداخلية لأن هذا البناء تحفة نادرة فى تاريخ العمارة الإسلامية من حيث الشكل والتصميم .

٤ ـ بابل :

لا يخفى ما لبابل من شهرة تاريخية وسياحية فى آثار العراق ولقد واصلت مديريتنا أعمال البناء والصيانة فى هذا الموقع منذ عام ١٩٥٨ وإلى الآن . ولعل أبرز ما قامت به صيانة شارع الموكب (شارع الاحتفالات الدينية) وتشييد باباً على نمط بوابة عشتار وكذلك صيانة وإعمار معبد (نن ماخ) بالشكل المطلوب تقريباً ونظم للموقع متحف

موضعي واسع يحتوى على بعض آثار بابل وما اكتشف بها من جديد .

٥ - عقرقوف :

ويأتى موقع عقرقوف من الناحية الأثرية والسياحية بعد « بابل » وقد ثبت تاريخياً أن زمن تأسيس هذه المدينة يعود إلى عهد الملك « كوريكالزو » الأول فى مطلع القرن الخامس للميلاد وقد ظلت هذه المدينة مأهولة بالسكان إلى العصور المتأخرة مثل العهد البابلى (١١٠٠ - ٥٤٨ ق . م) والعهود العربية الإسلامية .

ولا يخفى بأن مديريتنا سبق لها وأن أجرت فى هذا الموقع المهم سلسلة من الحفائر الأثرية فى عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٤٥ فعثرت على مجاميع نادرة من التحف والآثار عرض معظمها فى المتحف العراقى ولأهمية هذا الموقع من الناحية التاريخية والسياحية أعدت مديريتنا منهجا كاملا لصيانة وأعمار موقع عقرقوف فصانت بعض معابدها المهمة وبعض أطراف برجها المدرج وسنواصل العمل فى هذا الموقع ليكون محطا سياحيا مهما فى شرق الوطن العربى .

٦ - اور :

وهى المدينة المقدسة التى إليها تنسب التوراة سيدنا إبراهيم الخليل من بداية الألف الثانى قبل الميلاد . سكنت هذه المدينة منذ الألف الخامس قبل الميلاد إلى أن ابتعد عنها نهر الفرات كثيراً (حوالى ١٢ كم الآن) فى نحو القرن الثانى للميلاد وأصبحت مدينة مهجورة منذ ذلك الحين وقد ازدهرت هذه المدينة فى الألف الثالث قبل الميلاد وأصبحت عاصمة للعراق القديم لثلاث سلالات سومرية حكمت فيها .

وقد بدأت الحفريات فى هذا الموقع عام ١٩١٨ - ١٩١٩ و ١٩٢٢ إلى نهاية ١٩٣٤ . قام بها السير ليونارد وولى فكشف عن جملة أبنية مهمة منها

قصر مؤسس سلالة أور الثالثة الملك أورنمو ومعبد للإله « سن » الإله القمر . ومحلة سنية يرتقى زمنها إلى ما قبل أربعة آلاف سنة لا زالت معظم جدران أبنيتها شاخصة إلى السقف وهى ذات خطط تتجمع على جانبى دروب ضيقة تلتقى فى ساحة يقع فيها معبد خاص لساكنى هذه المحلة . وقد وجدت آثار نفيسة فى هذه الدور لعل أهمها رقيم طينى منقوش بكتابة مسمارية جاء فيها اسم سامى من أسماء الأموريين الذين كانوا يسكنون هذه المحلة وقد ورد الاسم بشكل (آب — رامو) ذهب البعض إلى عده الصيغة البابلية القديمة لاسم إبراهيم .

كما أظهرت الحفائر المقبرة الملكية الشهيرة بآثارها وبأسلوب الدفن الغريب عن العراق القديم ، فقد وجدت فى حفائر هذه المقبرة جثث أفراد من الحاشية دفنوا أحياءا مع الملك المتوفى ومعهم جهاز الميت من نفائس الآثار . على أن أعظم أثر شاخص بقى فى مدينة أور هو برجها المدرج (الزقورة) ولابد لنا هنا من القول بأن البرج السومرى عبارة عن بناء صلد اصم من اللبن مغلف بجدار عريض من الآجر ، والقبر مزين بغضون عمودية تضفى عليه علوا إلى علوه وهذا البرج رغم البساطة فى مظهره فإنه يتم على فن رفيع للريازة يستند على دراسات هندسية واسعة لا سيما بإدراك ظاهرة الخداع النظرى والإفادة منها فى بناء هذه الأبراج وكان فى كل مدينة عراقية صرح واحد من هذه الصروح مخصصا لعبادة كبير آلهة المدينة ومنها برج بابل المشهور الذى ورد ذكره فى التواريخ والكتب المقدسة .

على أن برج أور هو أكبر الأبراج الذى تركه لنا الزمن من العهد السومرى طوله ٢٠٠ قدم وعرضه ١٥٠ قدما يتكون فى الأصل من ثلاث طبقات متتالية الواحدة أصغر من الأخرى ويقوم على الطبقة العليا منها معبد صغير كان مخصصا لعبادة الإله « سن » الإله القمر كبير آلهة مدينة أور .

وقد قامت مديريتنا بعمليات الصيانه فى هذا الموقع فى نهاية عام ١٩٦٠ وتم إنجاز القسم الأكبر من عمليات صيانة البرج وأعماره سيما بناء الطبقة

السفلى (وهى أكبر الطبقات) وأعيد بناء السلالم الثلاثة المؤدية إلى سطح تلك الطبقة والتى ينسب بناؤها إلى الملك السومرى أورنمو :

ولقد روعى أثناء الصيانة المحافظة على معالم الترميمات القديمة التى أجريت على هذا البرج فى مختلف العهود لا سيما الإصلاحات التى أجراها الملك كوريكالزو فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد والتغييرات التى قام بها الملك الكلدانى نابونائيد فى القرن السادس قبل الميلاد فقد حور هذه الزقورة وجعلها سبع طبقات كل طبقة ذات لون خاص .

كما شملت أعمال الصيانة قصر أورنمو (٥٥ + ٥٤ م) فقويت جدرانه وشيدت أجزاء لم يبق منها سوى الأسس . وقد روعى فى هذه العمليات جميعاً أن تكون الأجزاء المعمرة بالآجر والقير على غرار ما كانت عليه وأن يكون الآجر المستخدم حديثا مماثلا للآجر القديم من حيث الحجم واللون والصلابة وذلك لتلافى ما قد يحصل من تشويه فى الناحية الفنية الاستيتيكية لهذه الابنية أما الأجزاء المشيدة فى هذا القصر فلم نرتفع بها أكثر من متر واحد عن أرضيته .

وإننا سنستمر على عمليات الصيانة فى أبنية هذه المدينة لما لها من مكانة مرموقة فى تاريخ الحضارة وتطورها ولكثرة ما لدينا فى المتحف العراقى من آثار نفيسة من هذا الموقع وكذلك فى متاحف عالمية أخرى .

٧ ــ تل حرمل :

هو أحد التلول الأثرية الواقعة ضمن حدود مدينة بغداد ولقد ظهرت أهمية هذا الموقع بعد حفائر مديريتنا الواسعة التى ابتدأت عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٩ إذ كشف فيه عن ما لا يقل عن ثلاثة آلاف لوح طينى مدونة بكتابات من بداية الألف الثانى قبل الميلاد وبمختلف نواحى المعرفة من بينها الصكوك والعقود التجارية والرسائل الرسمية بين موظفى مدينة حرمل ومملكة اشنونا وسجلات واثبات بأسماء المدن المهمة القديمة . كما كان الطلاب يمارسون الخط المعارى والإملاء الصحيح .

فكان تل حرمل بلدة جامعية حتى أن اسمها وهو « شادبم » قد يدل على ذلك إذ أن هذا الاسم يعنى بالمسمارية مكان الكتابة .

ومن أهم ما عثر عليه لوح فيه قضية هندسية تسبق نظرية إقليدس بـ ١٧٠٠ سنة كما كشف التنقيب عن مبان مهمة منها أربعة معابد صغيرة ومعبد كبير كان يحرس بداخله تماثيل أسود من الفخار بالحجم الطبيعى . وقد قامت مديريتنا بصيانة معابد هذه المدينة وسورت منطقة المعابد بسياج للمحافظة عليه . هذا وأن العمل والتنقيب سيستمر فى هـــذا الموقع لمواسم أخرى .

٨ – الحضر :

أما فى الحضر فقد باشرت مديريتنا صيانة بعض أبنية الموقع منذ عام ١٩٦٠ وركزت جهودها فى ترميم وصيانة المعبد الكبير القائم وسط المدينة وهذا المعبد مستطيل الشكل (طوله ٤٢٠ م) وعرضه ٣٢٠ م يقسم بجدار إلى صحن واسع وإلى حرم المعبد الذى فيه جملة أبنية متماثلة تقريباً كل منها كان مخصصا لعبادة إلـه أو آلهة من آلهة الحضر ومنها (شمش) وهو كبير الآلهة اللات والسحر والثالوث الحضرى المتكون من مرن ومرتن وبر مرين . وشملت أعمال الصيانة ترميم المدخلين الضخمين المؤدين من صحن المعبد إلى حرمه . وتمت صيانة أحد الأواوين الكبيرة بعد إزلة الانقاض من داخله وارتفاع هذا الايوان (٢٨ م) وعرضه (١٥ م) وعمقه (٣١ م) فهو يعتبر بعد طاق كسرى المشهور ثانى إيوان معروف من تاريخ العراق القديم من حيث الضخامة والارتفاع إلا أنه أقدم منه بما لا يقل عن ثلاثة قرون وينسب تشييده إلى حاكم للمدينة اسمه « ورود » وجد اسمه منقوشا فى أماكن مختلفة من جدران هذا الإيوان كما وجدت أسماء العمال الذين اشتركوا فى بنائه وعلى رأسهم « برنى » الذى لقب نفسه بالبناء المهندس النحات وكذلك « أبا » الذى صنع الصفائح المعدنية المزينة بالرسوم والنقوش والتى كانت تزين

هذا البناء . كما تناولت أعمال الصيانة أحد أبنية المعبد الكبير وهذا البناء عبارة عن غرفة مكعبة الشكل تقريباً محوطة بدهليز من جوانبها الأربعة كانت على ما يظن كعبة من الكعبات المألوفة لدى عرب الجاهلية وضعت فيها أصنام القبائل العربية التى كانت تتجول فى بادية ما بين النهرين حيث تقع مدينة الحضر. وأنجز أيضا ترميم الإيوانين الصغيرين الكائنين على جانبى الإيوان الكبير وكذلك الحجرات المعقودة الواقعة وراء هذين الإيوانين .

ولا بد لنا من الإشارة إلى إحدى العوامل التى ساعدتنا على القيام بأعمال الصيانة والاستمرار فيها وهو وجود العمال الفنيين من أبناء مدينة الموصل الاختصاصيين بقطع الحجر ونحته وزخرفته فسرعان ما تفهموا وتذوقوا أسلوب الفن المميز لأبنية الحضر . فتمكنا من صنع زخارف جديدة على غرار الزخارف القديمة لتكملة السلسلة الزخرفية فى جدران الأواوين المذكورة وواجهتها ومن إعادة بناء بعض الجدران بالأحجار المهندمة إلى الشكل الذى كانت فيه .

فبأعمال الصيانة هذه التى ما هى فى الحقيقة إلا بداية لمشروع واسع أخذت الحضر هذه تشرق ثانية فى الصحراء وتحكى قصة المجد التليد الذى كانت تنعم فيه دويلة الحضر .

رابعا ـ أبحاث أثرية مطبوعات

أما فى مجال الأبحاث الأثرية فقد أجريت عدة بحوث ومواضيع مختلفة من قبل اختصاص مديريتنا أهمها نشر أبحاث تتعلق بفك رموز الكتابة الآرامية اكتشفت من قبل هيآتنا الفنية فى موقع الحضر وكذلك دراسة ونشر نتائج الحفريات الأثرية التى قامت بها مديريتنا فى سهل شهرزور بشمال العراق وكذلك نشر بعض نتائج أعمال الصيانة الأثرية وما يتعلق بالمبانى الأثرية وقد تم نشر بعض منها فى مجلة سومر التى تصدرها مديريتنا العامة .

ولا يخفى بأنه قد أم العراق فريق من بعض علماء الآثار الأجانب بموجب اتفاقيات التبادل الثقافى ووفقا للشروط التى وضعتها مديريتنا للدراسة واستنساخ الكتابات المسمارية المكتشفة فى الحفائر الأثرية أو فى الاستفادة منهم فى تنظيم المتاحف وعرض الآثار وقد نشرت بعض أبحاثهم فى القسم الأجنبى من مجلة « سومر » أيضاً . وتابعت مديريتنا فى ميدان الكشف والتحرى على مواقع الآثار خصوصا المواقع التى ستغمرها مشاريع الرى فى أعلى الفرات فأعدت التقارير والخرائط اللازمة تمهيدا لإجراء الحفائر الأثرية ، كما قامت مديريتنا بإحصاء وتحرى المواقع الأثرية فى جميع أنحاء العراق فتجمع لديها إلى الآن حوالى (٦٦٠٧) موقعا أثريا نشرت وأعلنت فى الجريدة الرسمية بموجب المادة (٨) من قانون الآثار لسنة ١٩٣٦ . كما استمر العمل على وضع الخرائط اللازمة لتزويد مديريات الإصلاح الزراعى فى الألوية للعمل على استثناء المواقع الأثرية من التوزيع من جهة ومن جهة أخرى فقد تم إعداد جداول خاصة بالمواقع الأثرية المعلنة عنها فى الجريدة الرسمية حسب التقسيمات الإدارية الجديدة سيتم طبعها قريباً كما تم طبع ونشر دليل باللغة العربية للمتحف العراقى وما يحتويه من آثار يضاف إلى ذلك أننا قمنا بعمل فهرس كامل لمجلة « سومر » وقد تم طبعه ونشره عام ١٩٦٠ وقمنا بإعادة طبع قانون الآثار باللغة الإنجليزية لنفاذه من مخازننا وأصدرنا المجلد السادس عشر لسنة ١٩٦٠ والمجلد السابع عشر لسنة ١٩٦١ من مجلة « سومر » أما المجلد الثامن عشر لسنة ١٩٦٢ من المجلة المذكورة فخاضع للطبع وسوف يصدر قريباً

خامسا ــ أعمال متحفية

أما فى مجال المتاحف فقد باشرت مديريتنا بالانتقال إلى أبنية المتحف العراقى الجديدة فى بغداد والعمل قائم على إعداده وتنظيمه بالشكل المطلوب . أما فى خارج بغداد فقد تم فتح متحف جديد فى لواء السليمانية فى شمال العراق وقد عرضنا فى هذا المتحف تحفا أثرية تمثل مختلف العصور من تاريخ العراق وزودنا هذا المتحف بمكتبة تضم مجموعة نفيسة من المراجع والكتب التى تهم الباحث والمتتبع لتاريخ العراق .

تقرير الجمهورية العربية السورية

عن أعمال التنقيب الأثرى

(فى المدة من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٢)

إعداد : الأستاذ عدنان البنى

كانت أعمال التنقيب الأثرى التى تمت فى سورية ، بين المؤتمرين الثالث والرابع للآثار فى البلاد العربية من الاتساع والأهمية بحيث يصعب إدراجها والإلمام بنتائجها جميعاً فى هذا العرض الموجز ومع ذلك فلابد أن نجهد حتى نعطى زملاءنا فى البلاد العربية الشقيقة فكرة ولو سريعة عن النمو الكمى والكيفى فى ميدان التنقيب الأثرى فى بلادنا وعن الجهود التى صرفت وتصرف فى هذا السبيل .

وتسهيلا للبحث نقسم أعمال التنقيب الأثرى إلى وطنية وأجنبية ونتبع فى إيرادها الترتيب الزمنى .

أولا – أعمال التنقيبات

(ا) أعمال التنقيب الوطنية :

كانت أعمال التنقيب الوطنية والبعثات التى نفذتها ودرست نتائجها بإشراف الدكتور سليم عادل عبد الحق والمنقبين العرب السوريين السادة : الأستاذ عدنان البنى ، الأستاذ نسيب صليبى ، الأستاذ خالد الأسعد ، ومن المهندسين والملحقين والمساعدين الفنيين الأساتذة والسادة : نظمى خير ، زكى الأمير ، آغوب كيريشيان ، رئيف الحافظ ، صبحى الصواف ، عبيد الله ، سليمان المقداد ؛ ومن المراقبين الفنيين والمرممين والرسامين السادة : غالب العامر ، كامل شحادة ، مصطفى المملوك ، حسن زرقش ، أنطون مالو ثوبار برطميان ، محمد مكى .

١ – موسم خريف ١٩٥٩ :

فى تشرين الثانى ١٩٥٩ كانت بعثة من بعثات المديرية العامة للآثار والمتاحف تجرى موسماً جديداً فى معبد مدينة عمريت (ماراتوس) على الساحل السورى ، جنوبى طرطوس ، وهذا المعبد الشرقى المحفور فى الصخر ذى الحوض المقدس هو من أهم الأوابد الأثرية فى سورية وقد كان محور جدل طويل بين علماء الآثار منذ عهد أرنست رينان من حيث عصره وعمارته والشعائر التى كانت تجرى فيه . وقد انجلى ذلك الموسم الذى استمر حتى نهاية كانون الثانى عن الوصول إلى بعض أعماق الحوض المقدس والعثور فيه على عناصر معمارية فريدة منهارة من الأجزاء العليا للهيكل المركزى والأروقة التى تكتنف الحوض وتبين أن هذه العناصر المعمارية ذات نسب بفن العمارة فى البتراء . كما أدى الموسم للكشف فى مخبىء النذور عن مجموعة نادرة من التماثيل ذات الأسلوب اليونانى المبكر الذى يرد للقرن الخامس وهى دلالة قاطعة على تاريخ المعبد وبرهان على العلاقات الحضارية الوشيجة التى كانت تربط الساحل السورى بعالم البحر المتوسط .

وفى الوقت نفسه زودتنا التنقيبات الاستكشافية فى موقع دير العدس جنوبى دمشق بعدد من لوحات الفسيفساء المسيحية الرائعة من أواخر العهد البيزنطى وأوائل الدور العربى هى من الناحيتين الأثرية والفنية فى غاية الأهمية ، تمثل مشاهد صادقة من حياة القوافل وحياة الحيوان فى بلادنا وفيها زخارف جميلة وكتابات يونانية وسريانية مفيدة .

٢ – عام ١٩٦٠ :

وفى مطلع كانون الثانى من عام ١٩٦٠ لم تحل رداءة الأحوال الجوية دون التنقيب فى مدفن من العهد الرومانى فى محافظة حمص . وفى الوقت نفسه بدأت الاسبار التمهيدية فى تدمر للموسم الثالث فى الشارع الطويل والحمام المجاور له .

وفى شباط نفذت فى جوار تل رأس الشمرة الشهير تنقيبات استكشافية أدت إلى توضيح بعض أساليب السقاية فى العهد الرومانى فى تلك المنطقة الزراعية الهامة .

وفى مايس كانت أعمال التنقيب تسير على قدم وساق وبشكل واسع معزز بالمعدات الميكانيكية فى الشارع الطويل بتدمر وتستمر حتى آخر حزيران وتؤدى إلى الكشف عن أجزاء جديدة من حمامات تدمر (الردهة الحارة ، وقسم الرياضة والتدليك والمواقد الخ) وتتضح الصلة الوثيقة بين تلك الحمامات والشارع الطويل وتعطى للباحثين إمكانية تصحيح تاريخ هذه الحمامات التى تنسب خطأ إلى زمن الإمبراطور ديوقلسيان ، وردها إلى عهد بناء هذا الجزء من الشارع فى القرن الثانى الميلادى أو النصف الأول من القرن الذى يليه .

وفى شهرى حزيران ومايس تم الموسم الأول لتنقيبات من أهم وأوسع ما قامت به المديرية العامة للآثار والمتاحف فى سورية . فبعد دراسة طوبوغرافية تاريخية ، وأسبار طبقية فى عدد من مناطق الساحل جنوبى طرطوس بحثاً عن مدينة (سميرا) العاصمة الكنعانية التى ذكرت فى النصوص التاريخية منذ عهد تل العمارنة حتى القرن الثانى قبل الميلاد ، اهتدينا إلى تل الكزل الذى دلتنا الأسبار فيه على أنه يضم بقايا هـــذه المدينة بشكل شبه مؤكد .

وفى آب ١٩٦٠ رغم شدة الحرارة نفذت حفريات استكشافية فى مجرى العاصى القديم قرب اللطامنة (محافظة حماه) أدت إلى ظهور أدوات ومستحاثات حيوانية تعود للدور الحجرى القديم الأوسط والأخير . وقد بينت الدراسة العلمية لهذه الأدوات الحجرية أن إنسان الدور الحجرى القديم كان على جانب كبير من رقى الصناعة الحجرية وتطور أساليب الصيد ، سابق بألوف السنين معاصريه فى أوربا .

وفى المنطقة ذاتها والوقت نفسه أدت أسبار سريعة إلى العثور على مقابر تعود للألف الثالث قبل الميلاد .

ويمر الصيف ويحل تشرين الأول فتم أسبار طبقية فى تل يبرود الأثرى لدراسة سوياته وتاريخه . وفى الشهر الذى يليه أسهمت المديرية العامة للآثار والمتاحف فنياً ومادياً فى الموسم الثالث والعشرين لبعثة رأس الشمرة .

وفى تشرين الثانى وكانون الأول أنجز موسم رابع فى معبد عمريت الذى ذكرناه سابقاً ، فاتضحت أجزاء هذا المعبد وتفاصيله بشكل كامل وبدء بدراسة جانب من عناصره العمرانية المنهارة تمهيداً لإعادة بنائه بالشكل الذى كان عليه فى القرن الخامس قبل الميلاد .

٣ — عام ١٩٦١ :

وما أن حل عام ١٩٦١ وفى ظرف من أقل الظروف ملاءمة للحفريات كشفنا عن مدفن من العهد الرومانى فى حمص وبدأنا بعشرات الأسبار فى بصرى تمهيداً لإجراء المخطط الأثرى التاريخى لهذه المدينة العربية الشهيرة .

وكان موسم الربيع من أخصب المواسم الأثرية ، فنى مايس وحزيران كانت هناك ثلاث بعثات تشق بطن الأرض فى ثلاثة مواقع هامة من مواقع بلادنا .

الأولى تجرى الموسم الثانى فى تل الكزل على نطاق واسع . والثانية تكتشف إحدى ثكنات تدمر القديمة وتوضح أحد أبراج الدفاع فى سور زنوبيا . والثالثة تنقب فى موقعين أثريين مجهولين (رسم طنجرة ، ورسم خنزورة) كشف عنهما مشروع تجفيف سهل الغاب .

وفى آب تم سبر فى تل شيحان عند مدينة شهبا .

وشاهد موسم الخريف عدداً أكبر من البعثات ، أولها بعثة متنقلة تجوب المناطق الأثرية فى حوران خلال شهر أيلول وتجرى عدداً من الحفائر فى تل

الأشعرى وطفس وزيزون واليادودة وعمّان . وثانيتها تعمل فى مدافن من العهد الرومانى بحمص انجلت عن كنوز أثرية ثمينة من الزجاج السورى الشهير والفخار والحلى الذهبية وأدوات الزينة . والثالثة فى معبد عمريت . والرابعة فى منطقة الصابونية بحماه . والخامسة تنقب فى مدفن تدمرى فى المقبرة الجنوبية الغربية بتدمر وتكتشف « ٢٠ » تمثالا دفعة واحدة وعشرات من القبور المنفردة فيها لطائف من الأثاث الجنائزى التدمرى . والسادسة تسبر من جديد وادى العاصى القديم فى اللطامنــــة وتكتشف مركزاً للصناعة الحجرية فى الدور الحجرى القديم .

٤ — عام ١٩٦٢ :

وكان شتاء هذا العام خيِّراً وافر الأمطار فما برحت الأرض بليلة حتى آذار حيث بدأ ينقطع تهاطل المطر ، فبادرت المديرية العامة للآثار والمتاحف إلى السماح بإجراء أسبار واسعة فى شهبا عاصمة الإمبراطور فيليب العربى استمرت حتى نيسان وانجلت عن كشف جانب من دارة رحيبة من القرن الثالث الميلادى فيه أربع لوحات من الفسيفساء الدقيقة جداً المتينة التكوين تمثل مشاهد من الميتولوجيا اليونانية تمثل حياة البحر والغاب والخمر والحب وتسر النواظر بألوانها الضاحكة وتشكيلاتها البديعة وتناسق أوضاع شخوصها .

وفى الوقت نفسه تقريباً كانت بصرى أم المدائن العربية منذ إنشاء الولاية العربية عام ١٠٦ ، تشهد القيام بعدد من الأسبار الاستكشافية فى شارعها الرئيسى ومعبدها النبطى ومقابرها وضواحيها توضح مخططها وأسواقها ومبانيها وأسوارها المغيبة .

وآخر أعمال التنقيب الأثرى فى ربيع هذا العام تمت فى مايس وحزيران أولا فى تدمر حيث أكمل التنقيب عن حمامات تدمر وظهر حدها الشمالى وانجلت معالمها بشكل كامل ووضحت عشرة مخازن تجارية فى الشارع الطويل ، كما

عثر على بناء جديد مجاور للأغورا (الميدان) فيه باحة مروقة ذات أعمدة وشيقة مخددة وصف من قواعد التماثيل وعلى مقربة منه أخرجت جفنة حجرية ضخمة جداً تحمل كتابة تدمرية من أقدم ما عرف من كتابات تدمر (عام ٢٩ ميلادى) تشير إلى وجود معبد جديد ومجهول فى تدمر لا بد أن يظهر قريباً فى تلك الناحية .

ثانياً فى تل الكزل حيث أدت التنقيبات إلى نتائج واستنتاجات تؤكد تأكيداً شبه نهائى أن علم الآثار العربى السورى هو فى الطريق الصحيحة إلى اكتشاف مدينة سميرا المفقودة إذ أن السوية الخامسة فى هذا التل المعاصرة لعصر تل العمارنة الذى ازدهرت فيه سميرا ، تدل معالمها على مدينة زاهرة من حيث عمارتها وبيوتها وفخارها وآثارها على الجملة ولا تقل بحال عن المعروف فى رأس الشمرة وجبيل .

(ب) أعمال بعثات التنقيب الأجنبية :

إن أعمال بعثات التنقيب الأجنبية التى تمت بين خريف ١٩٥٩ وربيع ١٩٦٢ هى أيضاً متعددة وهامة ، ولا بد أن نذكر أن ممثلى المديرية العامة للآثار والمتاحف لدى هذه البعثات ، وجلهم من المنقبين والفنيين الاختصاصيين ساهموا مساهمة علمية وفنية واسعة فى أعمال البعثات ولا يضنون بخبرتهم خاصة على البعثات الجديدة التى تتعود لأول مرة على أرض موقع ما والمصاعب النوعية الخاصة به .

وفى البعثات الكبيرة كبعثة رأس الشمرة هناك منذ عشر سنين اثنان أو ثلاثة من اختصاصى المديرية العامة للآثار والمتاحف يعملون كأعضاء ثابتين فى البعثة . كما أن المديرية أسهمت مادياً فى بعض مواسم رأس الشمرة والرصافة .

ونجعل أعمال بعثات التنقيب الأجنبية على أساس ما تم فى كل موقع من

المواقع خلال الفترة التى نحن بصددها من النشاط الأثرى مع إيراد أهم نتائج الأعمال عند الضرورة :

١ – رأس الشمرة (أوغاريت) :

فى تشرين الثانى ١٩٥٩ أنهت البعثة الفرنسية العاملة بإدارة كلود شيفر فى رأس الشمرة – أوغاريت – موسمها الثانى والعشرين ، وفى تشرين الثانى ١٩٦٠ أتمت موسمها الثالث والعشرين الذى أسهمت فيه المديرية العامة للآثار والمتاحف فى سورية مساهمة مادية قيمة إضافة لمساهمتها الفنية التى تؤديها فى كل المواسم كما ذكرنا من قبل . وقد ظهرت فى هذا الموسم أحياء صناعية جديدة فى المدينة ومجموعات من التماثيل البرونزية المذهبة النادرة والحلى الفضية مع بضع مدافن أوغاريتية بعضها سليم تماماً . أما الموسم الرابع والعشرين فقد أنجز فى تشرين الأول ١٩٦١ وأدى للعثور على لوحات فخارية محررة بالأبجدية الأوغاريتية يبلغ عددها قرابة خمسين لوحة وهى ذات مواضيع دينية وميتولوجية تلقى ضوء ساطعاً على الأدب الكنعانى فى الألف الثانى قبل الميلاد .

٢ – تل الحريرى (مارى) :

فى هذه الفترة قامت البعثة الفرنسية العاملة بإدارة آندره بارو بإجراء موسمها الحادى عشر والثانى عشر فى تل الحريرى – مارى – على الفرات الأوسط ، الأول فى آذار ونيسان ١٩٦٠ والثانى بين تشرين الأول وكانون الأول ١٩٦١ . وفيهما نقبت زقورة المدينة ووضحت علاقتها بعبادة الإله داغون ويعتقد أنها تقوم على بقايا معبد لداغون سابق لعصر سارغون .

٣ – تل سوكاس :

أجرت البعثة الدنمركية العاملة فى هذا التل الواقع جنوبى جبلة على الساحل السورى بإدارة بول ريس ثلاثة مواسم فى خريف ١٩٥٩ و ١٩٦٠ و ١٩٦١

أدت إلى الكشف عن معبد من العهد اليونانى وإلى توضيح علاقات هامة بين العالم اليونانى والشرق خلال الألف الأول قبل الميلاد .

٤ ـ تل الحويرة :

ما تزال البعثة الألمانية بإدارة أنطون مورتغات فى صدد البحث عن آثار الحضارة الميتانية فى تل الحويرة الذى يتوسط منطقة ميتانى فى الجزيرة العليا ، وكانت تتوقع أنه موقع مدينة واشوكانى عاصمة الميتانيين الأمر الذى لم يتأكد بعد . وخلال هذه الفترة أجرت موسمين فى خريف ١٩٥٩ و ١٩٦٠ ولم تحضر فى خريف ١٩٦١ بسبب مرض مديرها .

٥ ـ معسكر ديوقلسيان (تدمر) :

فى ربيع ١٩٦٠ و١٩٦١ و ١٩٦٢ استأنفت البعثة البولونية العاملة بإدارة كازميرز ميخائلوفسكى حفرياتها فى المكان الملقب بمعسكر ديوقلسيان فى تدمر وفى وادى القبور وحصلت على نتائج فى المكان الأول قد تعدل ما عرف من تاريخه ، ووجدت فيه كنزاً بيزنطياً ذهبياً من النقود والحلى ، ومجموعة غنية من المنحوتات ، كما عثرت فى وادى القبور على مدفن زبدا وفى هذا وذاك وفقت للعثور على كتابات تدمرية هامة .

٦ ـ الرصافة :

أجرت بعثة الرصافة الألمانية بإدارة جوهانس كولوينز موسمها الرابع فى خريف ١٩٦١ فى مدينة هشام ، وفى الكنائس التى تعود للعهد البيزنطى .

٧ ـ تل رفعة (أرباض) :

باشرت البعثة الإنكليزية بإدارة الآنسة سيتون ويليمس فى موسمها الأول فى صيف ١٩٦٠ فى تل رفعة شمالى حلب بحثاً عن معالم مدينة أرباض التى كانت عاصمة مملكة آرامية هامة ووفقت للعثور فى التل المذكور على سوية آرامية كثيفة .

٨ – القصر الأموى فى جبل سيس :

فى ربيع ١٩٦٢ أجرت بعثة ألمانية بإدارة كلاوس- بريش موسمها الأول فى جبل سيس بادية الشام الجنوبية ، ووفقت للكشف عن قصر أموى يزيد ضلعه عن ٦٥ مترا ، ويشابه فى عمرانه وتفاصيله القصور الأموية الشهيرة فى بادية الشام كقصر الحير الشرقى والغربى .

* * *

وأخيرا تتهيأ المديرية العامة للآثار والمتاحف وهى على أبواب الخريف فى هذا العام لاستقبال ثلاث على الأقل من البعثات الأجنبية ، وتهيئ لأعمال تنقيب وطنية فى تدمر والساحل والجنوب .

ثانيا – ترميم الأبنية الأثرية

إن تعاقب مختلف الحضارات على البلاد السورية قد ترك فيها عدداً وافرا من الأوابد الأثرية التى لامثيل لها من حيث الروعة والجمال وخاصة وهى تؤلف مجموعة فريدة تروى تاريخ البلاد منذ عصر ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا . فإلى جانب الأوابد والقبور الشرقية القديمة نجد الأبنية والمعابد اليونانية والرومانية والكنائس البيزنطية والقلاع الصليبية والمساجد والقبور الإسلامية على مختلف عصورها ، وقد وصلتنا مع الأسف بحالة يرثى لها من التفكك والتداعى تكاد تفقد معها معالمها . ولا شك أن الجهود الجبارة التى بذلها المهندسون فى المديرية على قلة عددهم فى ترميم هذه الأبنية قد أعاد لها كيانها ورونقها .

لقد قامت مديرية الهندسة فى المديرية العامة للآثار والمتاحف خلال الفترة الأخيرة بحملة واسعة النطاق لترميم كافة الأبنية الأثرية فى مختلف المناطق وصرفت فى سبيل ذلك ما يزيد على المليون والنصف من الليرات

السورية متتبعة بذلك أحدث النظريات العلمية فى الترميم ، وأن مدن بصرى والجامع الأموى والقلاع الأثرية والقبور والمعابد فى تدمر وغيرها من بقية المناطق أصبحت الآن مثار الإعجاب بدقة ترميمها بالإضافة إلى روعة وجمال بنائها . ولا يتسع المجال فى هذا البحث لسرد كافة أعمال الترميمات وإنما نكتفى بذكر أهمها وهى :

(ا) ترميمات مسرح بصرى :

يعتبر مسرح بصرى من أهم المبانى الأثرية من نوعه فى العالم ، ويعود تاريخه للقرن الثانى بعد الميلاد ويتميز بكونه الآبدة التى حفظتها العصور التاريخية من الهدم والتخريب . ويعطينا بذلك المثال الكامل عن بناء المسارح السورية فى أزهى عصور فن العمارة القديم ، ويتسع هذا المدرج لاثنى عشر ألف متفرج ، ويبلغ قطره ١٠٢ م وعرض منصة التمثيل ٤٥ مترا تقوم خلفها ممرات ومماشى أعدت لانتظار الممثلين . ويتألف المسرح من ثلاثة أقسام : العلوى ٥ درجات يعلوها رواق مسقوف مستند على أعمدة من الطراز الدروى ، أما القسم الأوسط فيتألف من ثمان عشرة درجة ، ويبلغ عدد درجات القسم الأول ١٤ درجة يفصل بين كل منها مماشى عريضة تفتح عليها الأبواب المعينة لخروج الممثلين ودخولهم بصورة تسمح بتفريغ المدرج خلال عشر دقائق . ولا تزال ساحة العازفين محتفظة ببلاطها القديم . وكذلك حفظت لنا الأيام قسماً من الأعمدة التى كانت تزين واجهة المسرح والألواح الجانبية التى أعدت لجلوس كبار المتفرجين وحكام المدينة . وقد بوشر منذ عام ١٩٥٦ بكشف هذا البناء وترميمه وبذلت لذلك جهود جبارة حتى أعيد إليه رونقه وجماله . وفيما يلى أهم الترميمات التى جرت خلال الفترة ١٩٥٦ — ١٩٦٢ :

١ — تم هدم وإزالة الطابق الأوسط والأرضى من العنابر التى كانت قائمة على المدرج ؛

٢ — تم رفع ونقل أتربة وأنقاض من مختلف أقسام القلعة والمدن ، وتقدر الكميات التى رفعت بمئات الألوف من الأطنان .

٣ — تم ترميم الألواح وتقويتها وتعبئة جدرانها بالأسمنت وإعادة سقوفها وترميم مداخلها ونوافذها وتجديد الأدراج المؤدية إليها .

٤ — تم ترميم المداخل والمخارج العلوية مع إدراجها وسقوفها وتجديد المهدم منها .

٥ — تم ترميم جميع الأدراج الداخلية التى تصل الرواق الأوسط الداخلى بالممشى الفاصل بين القسم الثانى والثالث فى المدرج .

٦ — تم ترميم الجدار الخارجى المستدير من الجهة الشرقية والجنوبية من المدرج مع ترميم المداخل التى تحيط به وتجديد الناقص والمتهدم منه حتى ارتفاع النوافذ التى كانت موجودة فى الرواق العلوى المستدير .

٧ — إعادة بناء أعمدة الجهة الشرقية من الرواق العلوى المستدير مع قواعدها وتيجانها ومدماك الأرشيتراف الذى يستند عليها .

٨ — ترميم السقف للعقد الحجرى للبهو الأوسط الشرقى والغربى والأقواس المتداعية التى تستند عليها درجات الطابق الأوسط .

٩ — تم فك وبناء الواجهة الشمالية الرئيسية المطلة على القسم العلوى والغربى من المدرج مع فك وبناء الواجهة الخارجية الشمالية المقابلة لها المطلة على الناحية الغربية والمدرج الفاصل بينها .

١٠ — ترميم الواجهة الشمالية الرئيسية لمنصة التمثيل وتكحيلها وترويبها وبناء المهدم منها .

١١ — تفريغ منصة التمثيل من الأتربة والأنقاض وترميم جدرانها ودعامتها وتغطيتها ببلاط من الأسمنت المسلح .

١٢ — ترميم جدران الكواليس الداخلية وتقويتها وإعادة بناء المتهدم منها مع ترميم سقفها وتجديد بعض أقسامه وتوريقها .

١٣ ـ ترميم الجدران والسقوف والأروقة المؤدية للمسرح وتبليط أرضها ببلاط حجرى بازلتى .

١٤ ـ تجديد البلاط الحجرى فى مدخل القلعة والناحية الشرقية حتى الاستراحة والمقصف .

وإلى جانب المسرح قامت مديرية الهندسة بالإشراف على ترميم الجامع العمرى فى المدينة وهو من أندر المساجد التى تعود إلى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب وتعتبر حجر الأساس فى بناء المساجد الإسلامية .

وهناك مشروع لترميم جامع مبرك الناقة الشهير، كما تجرى الدراسات أيضاً لترميم دير الراهب بحيرا .

(ب) محافظة السويداء :

تعتبر محافظة السويداء من أهم المناطق التاريخية الغنية بآثارها المختلفة ومن أهم مدنها مدينة شهبا التى قام بتوسيعها وتنظيمها الإمبراطور فيليب العربى خلال توليه عرش روما (٣٤٤ ـ ٣٤٩) ميلادية وسميت باسمه (فيليبو بوليس) ، وأولاها عناية هامة وازدهرت كثيراً فى عهده . ومن أهم أبنيتها الأثرية التى خلدت شهرتها مداخلها الأربعة والحمامات الكبرى التى تعتبر من أهم الحمامات فى العهد الرومانى ، ومسرحها ومعابدها ومختلف الأبنية والقصور التى كانت أراضى غرفها مفروشة بالفسيفساء الضخم النادر . وقد اهتمت المديرية العامة للآثار والمتاحف بهذه المدينة التاريخية العظيمة وأولتها عناية خاصة حيث قامت بترميم مداخلها والكشف عن بقايا البيوت التى كانت أرضها مبلطة بأجمل وأروع أنواع الفسيفساء . وقد بوشر بترميم الدور الرومانية والمسرح والفلبيون والمداخل الشمالية ، كما تم ترميم المداخل الجنوبية وأصبحت هذه المدينة تحتل الدرجة الأولى من المدن السياحية العالمية .

(جـ) مداخل مدينة شهبا :

تتألف المداخل الجنوبية لمدينة شهبا من مدخل رئيسى كبير فى الوسط ومدخلين فرعيين جانبيين ، يفصل المدخل الرئيسى عن المدخلين الجانبيين برجان مستطيلان بارزان للجهة الخارجية وينتهى كل من المدخلين الفرعيين ببرج مضلع بارز من جهتى المداخل الداخلية والخارجية .

وقد ساءت حالة هذه المداخل حتى كادت تفقد معالمها . وفى عام ١٩٦٠ بوشر بأعمال الترميم وقامت مديرية الهندسة بإنشاء السقالات وفك الأقسام المتداعية من البناء ، واضطرت إلى فك أساسات الأبراج لتداعيها وأعيد إنشاء المدخل الرئيسى والمدخلين الجانبيين الفرعين . وفى ١٩٦١ — ١٩٦٢ تم ترميم الأبراج الأربعة ، كما أتمت الأقسام العلوية من المداخل وإعادة بناء سقفها الذى فى شكل عقد لسقف مستدير . كما تم ترميم قسم من سور المدينة الملاصق للبرجين المضلعين الجانبيين ، وأعيد بناء الدرع المؤدى إلى القسم العلوى من المدخل ورممت الواجهات الجانبية للأبواب وأعيدت إليه عناصره الفنية والزخرفية ويبلغ طول البناء المرمم حوالى ٣٨ مترا وارتفاعه فى الوسط عشرة أمتار تقريباً . وكذلك بدئ العمل فى ترميم المداخل الشمالية ، وتم الكشف عن المسرح ورممت الأقسام المتداعية منه . وهناك مشروع لترميم الفيليبيون والدرار الرومانية التى اكتشف فيها الموازييك مؤخرا . وقد أصبحت مدينة شهبا فى عداد المدن السياحية الأثرية الكبرى فى العالم كبومبيى وغيرها .

(د) ترميمات مدينة تدمر :

إن أطلال مدينة تدمر وأوابدها التاريخية لها شهرة عالمية واسعة . وليست شهرتها بمعابدها وقبورها ومسارحها وأسواقها وشوارعها ونصبها التذكارية فقط ، بل بمدافنها المتنوعة فمنها المدافن فى أبراج ومنها فى بيوت ومنها المنفردة والأرضية فى شكل مغر . وقد تم نقر وترميم مدفنين أرضيين

خلال عام ١٩٥٩ – ١٩٦٠ وفى عام ١٩٦١ تم ترميم مجموعة من أعمدة الشارع الرئيسى الواقعة قرب المسرح .

١ – ترميم المدفن ٥ والمدفن ٧ الواقعين فى المقبرة الجنوبية الشرقية من تدمر :

إن هذين المدفنين من المدافن المحفورة فى كتل ترابية صلبة فى باطن الأرض ينحدر إليهما المرء على سلم حجرى تزيد درجاته عن ٢٠ درجة ، ويتألف المدفن ٥ من فسحة سماوية ومدخل حيث تنزل منه على بضع درجات فتصل ببهو داخلى مسقوف فى شكل مهد مقلوب محفور فى كتلة غضارية صلبة . ويتفرع من هذا البهو ثلاثة أواوين مستطيلة محفورة فى التراب ، والإيوان المقابل للمدخل مفتوح فى نهايته ويتصل ببهو ثانٍ داخلى . ويتفرع من هذا البهو أيضاً ثلاثة أواوين الذى فى صدر المدفن هو الرئيسى فيها ، وإن جميع هذه الأواوين محفورة بالتراب فى باطن الأرض شقت فيها ٦٨ معزبه طولانية تتسع كل منها لخمسة قبور فوق بعضها البعض . ويتسع هذا المدفن لأكثر من ٣٥٠ شخصاً ، وزينت واجهات أواوينه وقبوره بإطارات حجرية مزخرفة وبمحاريب وأقواس حجرية منحوتة ومزينة بعناصر زخرفية جميلة . كما يزين بعض واجهات قبوره ما يزيد عن ٣٠ تمثالاً نصفياً منحوتاً فى حجر كلسى صلب . ويزين صدر المدفن سرير جنائزى يمثل صاحب المدفن وأولاده وعائلته ، ومنها يمكننا التعرف على عائلة تدمرية كاملة وعن علاقاتها وصلاتها ببعضها البعض . ويعتبر هذا المدفن من المدافن الهامة جداً والغنية بعناصرها الفنية والزخرفية وبثروته الأثرية . وقد تبين بعد كشفه أن الكتل الترابية التى يتألف منها بناؤه وتستند عليها عناصره الزخرفية متفككة ومتداعية كما تساقط الكثير منها ، لذا فقد قمنا بنقل جميع هذه الكتل الترابية وأنشأنا مكانها جدران حجرية وصبات أسمنت مسلحة ، ورممنا واجهاته الحجرية وأقواسه وجددنا المتهدم والناقص منها حتى أعدناه كما كان عليه حيث بناءه . وبلغت تكاليف ترميمه ٢٥٫٠٠٠ ألف ليرة سورية بدأت فى

أواخر عام ١٩٥٩ وانتهت فى حزيران عام ١٩٦٠ وأصبح صالحاً للزيارة .

٢ – ترميم المدفن ٧ :

وهو أيضاً من المدافن المحفورة فى باطن الأرض وأصغر حجماً من المدفن ٥ ، فهو يتألف من منحدر ومدخل وبهو داخلى تتفرع منه ثلاثة أواوين فقط . ويعتبر من المدافن الأرضية الغنية جداً بثروتها الأثرية ، فقد عثر فيه على ما يزيد عن ٣٠ تمثيال نصفى وسريرين جنائزيين ضخمين وفيه عناصر بنائية وزخرفية رائعة . وقد تم نقل جميع كتله الترابية التى تستند عليها واجهاته عدا أبواب الصدر الذى سيرمم قريباً وانشىء بدلا عنها جدران حجرية وصبات من الأسمنت ثم رممت واجهاته وسرره ومدخله ودرجه وأعد للزيارة وكان ترميمه خلال النصف الأول من عام ١٩٥٠ وبلغت تكاليف ترميمه . حوالى ١٢٫٠٠٠ ألف ليرة سورية .

وفى عام ١٩٦١ تم ترميم مجموعة من أعمدة الشارع الرئيسى الواقعة قرب المسرح وتتألف من ثمانية أعمدة ، فقد أنزلت إلى الأرض ورممت أساساتها وأعيدت كما كانت عليه وأعيد القسم الكبير من البناء العلوى الذى يزينها والذى يتألف من ثلاثة مداميك (الارشيتراف ثم الافريز وفوقه الكورنيش) . وقد بلغت تكاليف ترميمه حوالى ٨٫٠٠٠ آلاف ليرة سورية .

كما أن الدراسات جارية لإعادة الترابيل الشهير وترميم الشارع المستقيم وبقية المدافن . وكذلك معبد الإله بل وبعل شمين . ولن تصبح تدمر عروس الصحراء فقط بل عروس المدن الأثرية فى العالم .

(هـ) ترميمات مدينة دمشق :

قامت المديرية خلال الأعوام الأخيرة بجولة واسعة لترميم الأبنية الأثرية فى دمشق وإظهار رونقها وجمالها وفيما يلى أهم هذه الأعمال :

١ – المدرسة الجقمقية :

إحدى الأوابد الأثرية الرائعة من العصر المملوكي وتعتبر دعامة أساسية في تاريخ المدارس ، وقد أصابتها قنبلة فرنسية أثناء العدوان الفرنسي على دمشق عام ١٩٤٥ أودت بما تبقى منها . وقامت مديرية الهندسة بإعادتها إلى حالتها الأصلية وهي الآن في طور الانتهاء ، كما أن أهم الأعمال التي تمت خلال الفترة ١٩٥٩ – ١٩٦٢ :

– عمل دهانات للأعمدة الخشبية لسقفي المصلى ورقبة الباحة من دهانات مزخرفة حسب النماذج الفنية وتركيبها في مكانها وصب أسمنت فوقها .

– إكمال وضع وترميم الأقسام الموجودة من الزخارف الرخامية من نقوش ومشقفات في الجدران الثلاث في المصلى والإيوان الشمالي والجدران الأربع في التربة وتركيبها بكاملها ، وكذلك تركيب الكتابات فوق أجزائها السابقة بالمصلى والتربة .

– تبليط المصلى من بلاط لاطون كالبلاط السابق . صنع أبواب وشبابيك إلى المدرسة بكاملها . تجديد سقافي الشبابيك من خشب والدهانات الزخرفية كالموجود .

– صنع ملابن إلى الشبابيك ودهنها بزخارف نباتية وتركيبها بإطار حولها من الخشب المحفور .

– صنع شبابيك جصية ملونة للنوافذ العلوية .

٢ – قصر العظم :

يعتبر قصر العظم بدمشق أحد مفاخر فن البناء العثماني ، وقد بناه والي دمشق أسعد باشا العظم ، وهو غني بالزخارف والسقوف والنقوش البديعة التي لا مثيل لها ، وقد بدأت هذه الزخارف تتآكل وتتفكك على ممر الأيام مما اضطر المديرية العامة للآثار لاستملاكه وإعادة زخارفه ونقوشه بكاملها

إلى حالتها الأصلية . وقد جمع فيه من روائع النفائس الدمشقية من صناعات وملابس وغيرها وجعل منه متحفاً للتقاليد الشعبية . وأهم الأعمال التي جرت خلال الفترة ١٩٥٩ – ١٩٦٢ :

– إعادة تبليط الممرات من الحجر المزى والأسود .
– فك الجدران المتصدعة وإعادة بنائها وتجديد الأحجار المهدومة منها .
– إصلاح جميع الأقواس فى الرواق الشمالى والنقوش المزخرفة وإعادة حفر النوافذ .
– إصلاح جميع الأسقف وإعادة دهانها .

٣ – التربة العادلية البرانية :

إحدى الأوابد الأثرية الرائعة تشرف على دمشق فى افخم أحيائها . وقد أعيد بناؤها كما أعيد بناء زخارفها الحجرية وكذلك النوافذ والأبواب .

٤ – باب شرقى :

وهو الباب الوحيد لدمشق الذى وصلنا منذ العصر الرومانى ذو هندسة بديعة دمرت جيوش الفاتحين قسما كبيرا منه على مختلف العصور . كما تسلقه جيش خالد بن الوليد حين فتح دمشق . ولم يبق منه حالياً سوى بعض الأقسام الشمالية . وقد تم مؤخراً الكشف عليه كما تم تحضير معظم الأحجار لإعادته كما كان عليه فى الحالة السابقة .

كما جرت ترميمات لكثير من الأبنية الأثرية فى دمشق وخاصة فيما يتعلق بإعادة نقوش وفسيفساء الجامع الأموى وكذلك ، بعض الحمامات الإسلامية الشهيرة بدمشق .

(و) ترميمات مدينة حماه :

إن قصر العظم فى حماه لا يقل روعة وجمالا عن مثيله فى دمشق ، كما أن

القاعة الكبرى فى الطابق العلوى تعتبر فريدة فى نوعها فى كافة البلاد الإسلامية . وقد بدئ بترميم نقوشها وزخارفها منذ عام ١٦٩٠ . كما أن إصلاح أخشاب وزخارف السقوف وكذلك تزيينات الجدران أصبحت معه القاعة مثارا لإعجاب الزوار والسائحين . كما أن هناك دراسات عديدة لإصلاح القصور والقلاع فى هذه المنطقة وخاصة قصر ابن وردان وقلعة مصياف .

كما تم أيضاً فى منطقة اللاذقية الكشف على مدرج مدينة جبلة الرومانى . وقد بوشر بترميمه وكذلك ترميم كاتدرائية مدينة طرطوس الشهيرة . كما أن هناك دراسات واسعة لترميم القصور الملكية فى مدينة أوغاريت .

(ز) ترميمات المناطق الشمالية :

لا شك بأن هذه المناطق الواسعة لغنية بأوابدها الأثرية الرائعة وتضاهى مناطق بصرى وجبل العرب بقلاعها وقصورها ومعابدها الفخمة ، ولكنها مع الأسف بحالة يرثى لها من التداعي والانهيار . وقد بدأت مديرية الهندسة فى المديرية العامة للآثار والمتاحف بدراسات واسعة للترميمات الأثرية وقد بوشر فعلا فى الأعمال وأهمها :

١ ـ قلعة الحصن :

تعتبر من أهم القلاع فى هذه المنطقة وقد دخلها الصليبيون عام ١١١٠ ميلادية وقاموا بتوسيعها ، وقد غدت أهم قلاعهم . وقد استرجعت منهم من قبل الملك الظاهر بيبرس الذى بنى فيها أبراجا عديدة . وقد جرى فيها مؤخرا ترميم الأماكن الخطرة وهناك مقصف جميل بنى مؤخرا للسياح وأصبحت بذلك من أهم القلاع الأثرية .

٢ ـ قلعة سمعان :

عبارة عن عدة منشآت بيزنطية أهمها الكاتدرائية والدير ، وقد اتخذت

من قبل الصليبيين كمكان محصن . كما أن الكاتدرائية تقوم حول عمود اعتصم فوقه القديس سمعان فى القرن الخامس . وتعتبر مكانا سياحياً هاماً لأهميتها الدينية والأثرية . ولا تزال أعمال الترميم جارية وقد تم تدعيم جميع الأقسام الخطرة .

٣ ـ قلعة حلب :

وهى من أهم آثار المدينة وتتألف من مجموعة من الأبنية أنشأت فى عصور مختلفة وأهمها السور والصهاريج والحمام والمأذنة وقاعة العرش :

وقد تم ترميم معظم الأقسام المتداعية وأن معظم الاهتمام موجه الآن لإعادة قاعة العرش إلى حالتها السابقة . ولا تزال أعمال الترميم فيها قائمة على قدم وساق .

ولا يتسع المجال لذكر كافة الأعمال التى يجرى فيها الترميم غير أن أهمها بيمارستان الأرغون ذو المقرنصات البديعة ، وحمام اللبابيدية الذى يعتبر من أهم حمامات سورية .

ثالثاً ـ النهضة المتحفية

تقوم فى الجمهورية العربية السورية نهضة مباركة تعتبر المتاحف أحد ميادينها . وتعتمد نهضتنا المتحفية على ما يلى :

(١) توسيع المتاحف القديمة وزيادة عدد فروعها

١ ـ المتحف الوطنى فى دمشق :

كان فى دمشق متحف صغير مؤلف من بضعة قاعات عرضت فيها الآثار السورية القديمة من العصر الرومانى ، وبعض التحف التى وصلت إلى المتحف عن طريق الإهداء أو الشراء . ثم أخذت المديرية العامة للآثار والمتاحف بناء بقية أجنحة المتحف حتى أصبح يعتبر من أكبر متاحف

الشرق ومن ، أهم المتاحف العالمية غنى وتنظيما ، ويضم خمسة فروع كل منها يعتبر بمثابة متحف وهى :

فرع ما قبل التاريخ :

عرضت فيه الأدوات الصوانية المكتشفة فى جرف العجلا وثنية البيضا قرب تدمر ، وبقايا حيوانات انقرضت وأدوات صوانية اكتشفت فى منطقة اللطامنة فى حوض العاصى . وتعتبر هذه المجموعات نواة هامة لفرع ما قبل التاريخ .

فرع الآثار الشرقية القديمة :

نظمت فيه التماثيل المكتشفة فى مارى والرقم والحلى الذهبية والتماثيل وقطع العاج المكتشفة فى أوغاريت . أضف إلى ذلك روائع الفن المكتشفة فى عمريت وتل سوكاس وتل خويرة وسيميرا وتل رفعت . وقد عرضت كل هذه الروائع مؤخراً فى بناء بنى حديثا وفق أحدث الأصول المتبعة .

فرع الآثار السورية من العهود اليونانية والرومانية والبيزنطية :

عرضت فى واجهاته روائع الزجاج والفخار بشكل يعطى الزائر فكرة عن تطورهما التاريخى ، وعرضت فى قاعاته روائع الفن التدمرى ، وروائع الفن المكتشفة فى حوران وجبل العرب . كما عرضت فى قسم الحلى روائع ما أبدعه الصائغون من أطواق وأقراط وأساور وخواتم ووريقات ذهبية ، وعرضت فى قسم النقود مجموعات من النقود المكتشفة فى سورية . كما خصص جناح للفن البيزنطى عرضت فيه روائع فن النحت السورى المسيحى والزجاج والفخار والمخطوطات والمنسوجات والموزاييك .

فرع الآثار العربية والإسلامية :

يعتبر من أهم فروع المتحف الوطني أعيد فيه بناء واجهة قصر الحير الغربي وعرضت فيه النوافذ الجصية ، والآثار المكتشفة في الرقة ، ومجموعات النقود والحلي والسيوف وروائع الزجاج والخزف الإسلامي والمخطوطات العربية والتحف الخشبية . وقد نظم العرض في هذا الجناح خلال العامين الماضيين تنظيما جديداً في قاعات جديدة ، وتم فيه أيضاً إنشاء قاعة ثانية كان قد أهدى المرحوم السيد جميل مردم بك إلى المتحف الوطني معظم أخشابها التي تعود إلى ١١٥٠ هـ ١٧٣٧ م .

فرع الفن الحديث :

عرضت فيه أجمل ما أبدعه الفنانون السوريون المعاصرون مثل الأستاذ محمود جلال وسعيد تحسين ونصير شورى وميشيل كرشه وناظم الجعفري ومحمود حماد وصلاح الناشف وعبد الوهاب أبو السعود ورشاد قصيباتي ولؤي الكيالي وفاتح المدرس وغيرهم .

كما عرضت فيه بعض اللوحات التي أبدعها فنانون أجانب أقيمت لهم معارض فنية رسمية أو خاصة في المتحف الوطني بدمشق . وقد أضيفت قاعات ثلاث جديدة إليه خلال العام الماضي .

وأخيراً لابد أن نشير إلى أن حديقة المتحف قد نظمت وعرضت فيها الآثار الحجرية البازلتية عرضا جميلا وسط إطار من الورود والأزهار والأغراس والأشجار مما جعلها بمثابة متحف في الهواء الطلق .

٢ — متحف التقاليد الشعبية والصناعات الوطنية :

يعتبر قصر العظم من أجمل المساكن الدمشقية القديمة . وهذا ما جعل المديرية العامة للآثار والمتاحف تهتم به وتحرص عليه وتقوم بترميمه وتحويله

إلى متحف للتقاليد الشعبية ، ثم أخذت المديرية تعرض فى بقية قاعاته مخلفات الصناعات الوطنية التقليدية . ويعتبر هذا المتحف من أكثر المتاحف السورية زوارا . وقد نظم فيه خلال العامين الماضيين جناح الصناعات الوطنية وسيفتح هذا الجناح تقريباً جداً إلى الجمهور .

فى حلب :

١ – المتحف الوطنى فى حلب :

وكان فى حلب متحف وطنى عرضت آثاره النادرة فى بناء لم يعد لذلك . وهذا ما جعل المديرية العامة للآثار والمتاحف تقوم بوضع وتنفيذ مشروع بناء متحف وطنى كبير فى حلب يليق بعاصمة سيف الدولة . وأجريت مسابقة دولية لاختيار تصميم له . وقد بوشر فى البناء ولن يمضى وقت قصير حتى يتم نهائيا تشييد البناء وعرض الآثار النادرة المكتشفة فى شمال سورية .

(ب) تأسيس متاحف جديدة

وأخذت المديرية العامة للآثار والمتاحف تؤسس متاحف جديدة فى مختلف المدن السورية :

فى دمشق :

١ – متحف الخط العربى :

تمت أعمال ترميم مدرسة الجقمقية ، وقررت المديرية أن تحول البناء إلى متحف للخط العربى .

٢ – المتحف الحربى :

شعرت المديرية العامة للآثار والمتاحف بحاجة البلاد إلى متحف تاريخى ومتحف حربى ، وقد رحبت وزارة الدفاع بفكرة تأسيس المتحف الحربى

الذى أصبح من أجمل المتاحف الحربية ؛ يضم قاعة تاريخية وقاعة السيوف وقاعة الأعلام وقاعة الأسلحة . . الخ . وهو أجمل المتاحف الحربية فى الشرق العربى :

٣ ــ المتحف الزراعى :

ورحبت وزارة الزراعة بفكرة تأسيس متحف زراعى وقد بوشر بالتنفيذ وأسس المتحف ، وفتحت بعض قاعاته للجمهور .

فى حلب:

١ ــ المتحف التجارى :

بعد ما تم ترميم المطبخ العجمى فى حلب تقرر تحويل بنائه إلى متحف خاص بتجارة حلب القديمة .

٢ ــ متحف التقاليد الشعبية فى حلب :

تقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميم قاعة العرش فى قلعة حلب لتكون متحفا للتقاليد الشعبية .

فى طرطوس :

بعد ماتم ترميم المعبد الأثرى الكبير فى طرطوس حول إلى متحف إقليمى يضم روائع الآثار الزجاجية والفخارية والحجرية المكتشفة فى مختلف مناطق الساحل السورى (مثــل رأس شمرا وتل سوكاس وعمريت وجبلة وسيميرا . . . الخ .) والتى من شأنها أن تعطى الزائر فكرة واضحة عن الحضارات التى ازدهرت فى منطقة الساحل السورى . كما عرضت فيه النقود ونماذج المراكب القديمة ، وأدوات الصيد البحرى وأزياء المنطقة الساحلية مما جعل هذا المتحف من أكبر المتاحف الإقليمية وأكثرها طرافة ، وهو أحسن نموذج للمتحف الإقليمى فى الجمهورية العربية السورية .

فى تدمر :

إن ما أخرجته أعمال الحفر والتنقيب من روائع الفن التدمرى أظهر ضرورة تأسيس متحف يليق بتدمر عروس الصحراء وعاصمة زينوبيا . وقد تم البناء وعرضت فيه الآثار وفق أحدث المفاهيم المتحفية . وجعل أيضاً متحفا إقليميا وقسم إلى جناحين ، خصص أحدهما بمخلفات المدينة التدمرية ، والثانى جعل متحفا لبادية الشام تمثل فيه تقاليد البدو والحضر . وقد افتتح من سنة ونصف .

فى حماه :

وبعدما تم ترميم قصر العظم فى حماه جعل متحفا وطنيا يضم الآثار المكتشفة فى وادى العاصى ومناطق حماه ، كما عرضت فيه الأزياء الشعبية ومجموعات من نماذج الصناعات المحلية . وهو أيضاً نموذج آخر عن المتحف الإقليمى فى سورية .

فى دير الزور :

إن الآثار الهامة المكتشفة فى مختلف مناطق الفرات تطلب تأسيس متحف إقليمى فى دير الزور . وقد بدأنا بالعمل فى هذا السبيل ولن يمضى وقت قصير حتى يحتفل رسميا بتأسيس هذا المتحف .

وما زالت المديرية العامة للآثار والمتاحف تعد كل ما يلزم لإنجاز مشروع متحف كبير فى دمشق خاص بالآثار الشرقية القديمة التى تتكاثر لديها يوما بعد يوم ، ومتحف آخر بالفنون الحديثة ، ومتحف ثالث فى رأس شمرا كى تعرض فيه الرقم الهامة التى تعتبر وثائق تاريخية نادرة ، وتزين قاعاته بروائع الفن المكتشفة فى أوغاريت الأثرية .

كما أنها تسعى لتشييد بناء خاص يليق بالآثار المكتشفة فى منطقة جبل العرب والمحفوظة حاليا فى متحف صغير فى مدينة السويداء ، ومتحف آخر إقليمى فى حمص تعرض فيه .

(ح) عرض الآثار وفق أحدث المفاهيم المتحفية والنظريات العلمية

عرضت الآثار القديمة ، والتحف الثمينة ، والروائع الفنية حسب التسلسل التاريخى والتطور الزمنى ، والموقع الجغرافى ، والتصنيف النوعى ، ضمن أجمل الإطارات الحديثة ووفق الطرق التربوية المعاصرة ، مما جعل المتاحف السورية بمثابة مراكز للإشعاع العلمى والفنى والفكرى .

نشر الثقافة والوعى الآثارى

١ — النشاط الثقافى :

ولم تقتصر جهود المديرية العامة للآثار والمتاحف على زيادة فروع المتاحف القديمة وتأسيس متاحف جديدة ، والاهتمام بحسن عرض كنوزها الثمينة بل أخذت تعنى بالنشاط الثقافى وذلك بإصدار (مجلة الحوليات الأثرية السورية) التى تعتبر مرجعا لكل باحث فى التاريخ الحضارى . كما نشرت عددا من الكتب الهامة التى من شأنها أن تعرف المواطنين والأجانب بأبنيتنا الأثرية ، وروائعنا الفنية .

٢ — النشاط الفنى :

وخصصت المديرية العامة للآثار والمتاحف جناحا خاصاً بالمعارض الرسمية من وطنية وأجنبية مما أتاح للزائرين من مواطنين وأجانب الاطلاع على ما أبدعه الفنانون من روائع فنية معاصرة ستشكل فصلا جديدا فى تاريخ

البلاد الحضارى المعاصر ، وستعتبر خير هدية يقدمها المعاصرون إلى الأبناء والأحفاد .

* * *

والخلاصة : إن النهضة المتحفية التى تقوم فى الجمهورية العربية السورية تسهم فى تعميم الثقافة وحفظ ما أبدعه الآباء والأجداد وتنشيط النهضات الفنية ، وتنمية الذوق الفنى والإحساس بالجمال ، كما تثير الهمم باستمرار لإبداع روائع فنية نضيفها إلى تراثنا الحضارى الذى تزهو به الإنسانية .

تقرير دولة الكويت
عن سير الحفريات الأثرية فيها

أهمية الخليج العربى :

يعتبر الخليج العربى من أهم مناطق الشرق الأوسط التى كانت تمر بها الطرق التجارية القديمة ، ويعتبر همزة الوصل بين حضارات وادى السند وحضارات وادى الرافدين وحوض البحر المتوسط .

وبالرغم من أهمية هذه المنطقة التى ما زالت قوية بارزة فى العصر الحديث حيث أن الحركة التجارية بين الشرق الأوسط وبقية بلدان العالم التى تعتمد على هذا الطريق الدولى نشطة وقوية .

وبالرغم من هذا كله فإن تاريخ هذه المنطقة الحساسة من العالم العربى مجهول وغير معروف . واندثر تاريخ سكان الخليج الذى يبلغ طوله الساحلى الغربى من مضيق هرمز إلى رأسه عند مصب شط العرب فى العراق ، حوالى (٨٠٠) . كيلو متر واستمر علماء التاريخ فى زعمهم بأن بعض جزر الخليج الكبيرة وهى جزر البحرين كانت مقابر لسكان الساحل الغربى من الجزيرة العربية المحاذى للبحرين . وساعد على اعتقادهم هذا قرب الساحل من الجزيرة ، وأصبح كل ما نعرفه وتبقى لنا من معلومات عن تاريخ الخليج العربى القديم هو بعض التلميحات التى وردت فى الكتابات المسمارية من حضارات وادى الرافدين . وأحيانا يرد اسم (ماكان) أى عمان حاليا وتذكر هذه الكتابات أن أهل (ماكان) اشتهروا بصناعة السفن وأنهم كانوا يستخرجون النحاس من جبالها ، ويصدرون الأخشاب التى تنقلها سفنهم من الهند وعرفت

الحضارة البابلية بعض الجزر فى الخليج باسم (دلمون) وذكروا أنهم كانوا يحملون من (دلمون) الصوف والأحجار وعيون السمك (اللؤلؤ) والعاج والماس . ويحتمل أن يكون بعضها مما كان ينقل إلى هذه الجزر من أقطار أخرى كالهند وعمان .

وفى عهد الرومان قلت أهمية الخليج العربى بعد أن تحولت عنه الطرق التجارية إلى البحر الأحمر بعد أن ساءت العلاقات السياسية بين بقايا الدولة السلوقية ثم الدولة الرومانية مع الفرس الذين كانوا يسيطرون فى وداى الرافدين فقل وضعف شأن الخليج كما ضعف شأن تدمر فى الصحراء السورية التى كانت تعتمد بلا شك على نشاط الملاحة والتجارة فى الخليج .

وبعد اتحاد الشرق العربى تحت راية الدولة الإسلامية عادت الحركة التجارية إلى الخليج العربى وأصبح ممرًّا دولياً يربط الشرق والغرب ، غير أن تاريخ حضارات الخليج اختفى تماما وكان منسيا فى بداية الدولة الإسلامية . وفى سنة ١٩٥٣ م توجهت إلى جزر البحرين بعثة دنمركية أثرية وأخذت على عاتقها التنقيب عن آثارها . وبعد الكشف عن مجموعة التلال فى المدافن الأثرية التى بلغ عددها حوالى مائة ألف ، وبعد اكتشاف مناطق سكنية وهياكل عديدة يعود تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد تبين أن الجزيرة كانت مركزا للتجارة البحرية فى الخليج وأن أهلها استفادوا من التبادل التجارى وأن التلال العديدة المنتشرة فى صحراء البحرين تضم قبور هؤلاء التجار وأسرهم الذين ورد ذكرهم فى ألواح (أور) باسم (ألك دلمون) . وعثر فى هذه المناطق السكنية على أختام مستديرة مدببة لها قيمة تاريخية عظيمة لأنها من نوع غير معروف وجد منه نماذج قليلة فى البلدان المجاورة .

دور دولة الكويت فى حضارة أهل الخليج :

تقع الكويت فى الزاوية الشمالية الغربية من الخليج العربى ، وهى مدينة حديثة العهد نشأت منذ أوائل القرن السابع عشر . وقد استقرت القبائل العربية فى هذا الموضع لوقوعه على خليج صغير (هو خليج الكويت) وسهل لأهلها السفر فى البحار والغوص فى منطقة بحرية اشتهرت منذ القدم باللؤلؤ وكثرة الأسماك . كما أن القبائل العربية باليمامة ونجد كانت تمر بهذه المنطقة فى طريقها إلى جنوب العراق وحوض الفرات للتبادل التجارى . وعلى بعد نحو عشرين كيلو مترا كانت تقع كاظمة غربى مدينة الكويت ؛ وإلى الشرق من مدخل جون الكويت بمسافة عشرين كيلو مترا تقع جزيرة فيلكا ، وهى تابعة لدولة الكويت طولها اثنا عشر كيلو مترا وعرضها ستة كيلو مترات على شكل مثلث مستطيل الأضلاع بها تلال أثرية ومياهها عذبة خصبة التربة ولها موانئ طبيعية حسنة صالحة لحماية المراكب عند هبوب الرياح .

وحيث أنها كانت واقعة على الطرق البحرية التجارية بين وادى الرافدين وبقية مناطق الخليج ، لذلك فقد توفرت فيها جميع المقومات لقيام حضارة غنية تعتمد على التبادل التجارى وعلى الرسوم البحرية من السفن التى كانت تمر فى موانئها .

وعلى ضوء المكتشفات الأثرية المهمة فى البحرين قررت حكومة الكويت استدعاء تلك البعثة للتنقيب فى جزيرة فيلكا المعروفة محليا بكثرة تلالها الأثرية التى كان سكان الجزيرة ينقلون حجارتها لبناء البيوت . ومن ضمن الأشياء التى عثر عليها فى عمليات التنقيب تلك هو حجر عليه كتابة

يونانية هذا نصها : — (سوتيلس المواطن الأثيني والجنود قدموا هذا إلى زوس سوتر المخلص وإلى بوزيدون وإلى ارتميس المخلصة) ، فبادرت البعثة المذكورة بالتنقيب فى جزيرة فيلكا وهى على ثقة بأنها ستكشف معالم مستعمرات من زمن الإسكندر الكبير ولكن سرعان ما تبين أن فى الجزيرة تلالاً عديدة يعود بعضها إلى العصر البرونزى القديم وتركز العمل فى تلين متقابلين هما سعد وسعيد.

دار الضيافة (المعبد والخان) :

وعلى مقربة من الساحل الغربى من الجزيرة كشفت آثار بيت مؤلف من اثنتى عشرة غرفة ، غرفتان منها فى وسطه ويرجح أنهما كانتا تؤلفان ساحة البيت ، أما جدرانه فهى لاتزال قائمة وهى مبنية فى أجزائها من الآجر المربع من النوع المعروف فى بابل ، ويرجح أنه استورد منها . وتبين أن إحدى الغرف اتخذت ورشة حدادة فقد وجدت فيها قوالب كثيرة من الآجر — قالب منها صبت فيه مادة طرية فخرج منها صورة صغيرة لوجه الإسكندر ، وصبت فى قالب آخر فخرج منها تمثال صغير يونانى لإلهة النصر . ومن هذا يظهر الأثر اليونانى فى الجزيرة ، وربما مر بها جنود الإسكندر فقدموا هذه التحف حمداً لآلهتهم التى نصرتهم فى الهند على أعدائهم وأعادتهم سالمين إلى هذه الجزيرة القريبة من بابل عاصمة الإسكندر الشرقية ، وقد يكون الحجر اليونانى الذى عثر عليه فى هذه الجزيرة سنة ١٩٣٧ معاصرا لهذه التحف اليونانية .

أما القلعة أى تل سعيد فقد برز قسم كبير من سورها وعثر فيها على قطعة من عمود من حجر مصقول وعلى قطعة حجرية أخرى مما يوضع على مدخل الهياكل . ويرجح أن تكون القلعة قائمة فى هذا المكان لحماية المدينة وأن يكون فى وسطها هيكل لآلهة الإغريق من عهد الإسكندر ،

وفى التل أى تل سعد حفر خندق طويل بعمق ثلاثة أمتار تقريبا وجد فيه قطع من الفخار استدل منها على أن التل يرجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد . كما عثرت على عدد كبير من الأختام المستديرة بلغ عددها (٤٣) ختما أكثرها من النوع المستدير وعلى الوجه منها رسوم وأشكال غريبة . ثلاثة أختام منها من النوع الاسطوانى الذى يشبه الأختام العراقية . وتدلنا هذه الأختام على أن حضارة أهل هذه المنطقة كانت لها صفات خاصة ، وعلى أن مستواهم الفنىّ كان عاليا بالنسبة إلى زمانهم كما يبدو من الرسوم المختلفة المنقوشة على الأختام .

وفى مطلع عام ١٩٦٠ م استمر التنقيب عن الآثار فى فيلكا فى ثلاثة مواقع : فنى تل سعد توصلت إلى التربة العذراء وإلى المراحل التى تحددت بنمو التل التدريجى فى العصر البرونزى وفى العصر الحديدى نوعا ما ، وفى تل سعيد كان ما اكتشف قد زاد فى معرفتنا للحضارات المحلية خصوصا فى ميدان الفخار . والمكان المحصن الذى وجد تحت هذا التل يمثل العصر الحديدى بأضيق وأشهر صوره — العصر الهلينى — وهو أقدم سكن هناك .

فنى الموسم السابق وجدت قاعدة عمود مزخرفة جميلة ترتبط بأرضية وجدران من صخر أحسن قطعه ، كما اكتشف قاعدة عمود كبيرة مزخرفة بنخيلات . ووجد معبد يقوم فيه مذبح وإلى جواره معبد آخر أصغر منه . كما وجد لوح جيرى يحمل كتابة يونانية طويلة ملقيا على الأرض وعلى مقربة من مكانه الأصلى فى الواجهة الأمامية من المعبد الأول : كما وجد فى بنائه قطعة تحمل كتابة أصغر ، وعدد من التماثيل المصنوعة من الطين المشوى وكثير من الفخار وكمية من النقود لاسيا مجموعة من النقود تتألف من ثلاث عشرة قطعة فضية هيلينية من فئة أربع دراخمات :

وحول المعبد وجدت بقايا مبان غير منتظمة لعلها كانت للسكن : وهناك تحصينات ذات نفع قليل وقد دمرت وبنيت عدة مرات . كما حفر حول المكان خندق عميق وعريض ، وهناك افتراض يقول إن هذه المبانى قد شيدها الإسكندر الكبير أو أحد خلفائه . ولا شك أن هذه المستعمرة من ضمن المبانى التى كان الملوك السلوقيون يقيمونها فى أمكنة متباعدة من مقاطعاتهم الشرقية . والكتابة اليونانية التى اكتشفت تشير إلى أن هذا المكان كان مركزاً ثقافيا وإدارياً للجزيرة فى العهد الهلينى ، وربما كان همزة الوصل بين الجزيرة والعالم الخارجى ولعله كان مركزاً دينياً أيضاً . والكتابة التى وجدت كانت موجهة إلى سكان الجزيرة كلها ، أما المعبد فلامحه المعمارية تشير إلى أنه هيلينى الطراز : فالمذبح فى خارجه وهناك بقايا قاعدة مستطيلة لتمثال الطقوس ، وأرضية مدخل القاعة من الطين أما أرضية الهيكل فهى مرصوفة بحجارة أحسن قطعها .

والجدران مبنية من مواد متوسطة القيمة وشكلها الخارجى يوحى بأنها بنيت من حجارة مربعة على الطريقة اليونانية . ويظهر الأسلوب المحلى فى البناء من وضع الطين بين الحجارة ، ويشير عدم الانتظام فى شكل الحجارة إلى أن أسافين بدائية قد استعملت فى قطعها وهى حجارة جيرية ملساء ومرجانية التركيب ومع الزمن أصبح لونها رماديا يشبه لون الطين . وتمثال الطقوس قد يكون ورد الجزيرة جاهزا ، فربما جاء هدية من أحد حماة الجزيرة ولكن أمر صنع إطار له قد ترك لعمال الجزيرة . وربما أنه ليس هناك ما يدل على وجود نوافذ فى الهيكل . فإن تمثال الطقوس هذا كان فى مكان مظلم لايصله النور إلا فى النهار ويأتيه خافتا . أما العتبة فلم توجد فيها أى عروق لوضع عمود يمسك الباب الذى يقفل المدخل .

ونجد بالممر المحفوف بالعمدان بقايا قاعدتى عمودين ، الجنوبية منهما كاملة وتتألف من ثلاثة أجزاء منفصلة : الجزء الأسفل مؤلف من حجر مربع رقيق وفوقه قاعدة مستديرة مزخرفة بأوراق شجر من طراز كان معروفا فى فن المعمار الأخمنيدى (فى بيرسبولس وسوزا) وفوقها قرص منخفض وهذا الأخير لا يوجد على قاعدة العمود الشمالى . وفى موضع آخر نجد أن قواعد الأعمدة من طرازفارسى ، أما تيجانها بشكلها اللولبى فتشبه التيجان الأيونية) (اليونانية) وقد يكون هذا داعيا لنا إلى التحدث عن أسلوب فارسى يونانى . فالقواعد الفارسية قد أعيد استعمالها ولعلها قد أحضرت من بنايات أقدم من المعبد بنيت على الطريقة الفارسية .

ولم نجد هناك ما يدل على وجود أقنية لنزول الأمطار عن السطح ، ولم يوجد أى آجر ليغطى السطح ولعل هذا السطح كان منبسطاً يتألف من طبقة أو أكثر من خشب السقف وفوقها حصر من سعف النخيل وطين . أما التأثير الزخرفى فقد ازداد بالطريقة اليونانية وهى الدهن بألوان فاقعة ، فالنخيلات كانت محاطة بألوان حمراء فاتحة ويمكن أن يقال إن تيجان الأعمدة الأيونية الحلزونية قد أظهرت كهذه . ولا شك أن ألواناً أخرى استعملت ، وإن كان لم يبق منها أثر .

وقد وجد تاج عمود من الطراز الدورى وراء هيكل للعبد الأول مباشرة ، كما وجد تاج أحسن من هذا فى الجانب الثانى من جدار المدينة . وكذلك آثار المعبد الثانى وهو على طراز المعبد الأول وإن كان أصغر منه كما أن تيجان أعمدته دورية وليست أيونية .

ويمكننا من كل ما تقدم أن نستنتج أنه كان فى جزيرة فيلكا فى العهد الهلينى مدرسة محلية للبناء اعتادت أن تعمل بأدوات بسيطة ومواد سهلة وبسيطة أيضا وتأثرت ببعض المعلومات عن فن المعمار اليونانى . وهـذه المعلومات عبارة عن انطباعات البنائين من أهل الجزيرة أثناء سفرهم أكثر

منها دراسة دقيقة لنماذج لا يعتقد أنها وجدت فوق أرض هذه الجزيرة . وكان الأمر عبارة عن نسخ للمظاهر السطحية لفن البناء الأجنبى . ولا يمكن أن نحدد بسهولة زمن هذا الفن المعمارى المحلى ، فانثناء أوراق النخيلة يشير إلى الطراز الهلينى ولعلها من الطراز الذى كان فى عهد الإسكندر . ويمكن أن يقال مثل هذا عن التيجان الدورية . أما التيجان الأيونية فهى تقليد مبسط لطراز كان شائعا فى آسيا الصغرى فى القرن الرابع . وقد وجد نصب ضخم سحب من مكانه الأصلى فى واجهة المعبد الأمامية . وقد تكسر بعد سحبه من مكانه ونقل إلى متحف الكويت وطوله ١١٦ سم وعرضه عند أعلاه ٦١,٣ — ٦٢ سم وعند أسفله ٦١,٣ سم أما سمكه فيبلغ فى بعض جهاته ١٦ سم . وعلى هذا النصب رسالة موجهة إلى أهل ايكاروس (أى فيلكا) والرسالة تغطى معظم وجه النصب وسطورها ٤٤ سطرا مقسمة . وهناك عدد من كلماتها أو أحرفها قد طمس أو ضاع ولم يبق منها سوى آثارها الحمراء ، وقد كان التفسير الأولى لهذه الكتابة أنها مماثلة للكتابة البطلمية التى كانت فى القرن الثالث .

والرسالة هذه تشير إلى أن أيكاديون قد تلقى رسالة من الملك ، وهو يشير إلى رسالة الملك التى لابد وأنها كانت تتضمن أشياء غير ايكاروس ، فيكتب (ايكاديون) إلى (انكزاروخس) يأمره بأن يرسل الرسالة إلى أهل ايكاروس . ويمكننا أن نستنتج من الرسالة أن انكزاروخس لم يكن يعيش فى ايكاروس ولعله كان حاكما لإحدى مدن الخليج العربى عند دلتا الفرات ودجلة . ولعلنا يمكن أن نفترض أنه كان مرزبانا لسوزا بالرغم من أن المصادر التاريخية المتوفرة لم تذكر مرزبانا بهذا الاسم أما اسم ، الملك فلا يظهر فى هذه الكتابة .

IBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

ولكننا نستطيع أن نستنتج من الأبجدية أن الحروف ترجع إلى النصف الثانى من القرن الثالث ق . م . أو النصف الأول من القرن الثانى ق . م .

ولعلنا يمكن أن نستنتج من الكتابة أنها كانت حوالى ٢٣٩ ق . م . ولذا فالملك المشار إليه هو سلوقس الثانى (كلينيكيوس) . وكانت حياة هذا الملك مليئة بالحروب غير أن الفترة الواقعة ما بين ٢٤١ — ٢٣٩ ق . م . من عهده كانت هادئة نسبيا فأتاحت له أن يبحث أموراً ليست عظيمة الأهمية كأمور ايكاروس . ومحتويات الكتابة ليس من السهل إدراكها كلها ولكننا يمكن أن نوجزها بما يلى :

« إن أسلاف الملك أرادوا أن يقيموا معبداً يكرسونه إلى المنقذة ، وقد كتبوا إلى ضباطهم بذلك فلم يتم شىء . وعندما تلقى أيكاديون الرسالة قام بالعمل فى الحال وعين الألعاب الجيمنازية كما عين الرهبان لترتيبها طبقا لرغبة الملك وأسلافه . ولعل هذه الألعاب تتصل بالتضحيات والطقوس الأخرى التى تسبق تأسيس معبد المنقذة . ثم تنتقل الرسالة إلى بعض جوانب الاحتفال بإيجاز وهناك مجموعة من الأوامر حول حقوق الشعب ولعلها أصدرت بالنظر إلى المشاركين فى المهرجانات الدينية . وهناك بند يدافع عن الملكية والمستأجرين المشار إليهم كان موضع كره سكان ايكاروس الأصليين لأنهم كانوا يدفعون الأجور إلى الملك . وقد حددت امتيازات الزائرين الأجانب فى عبارات قصيرة وقد ذكرت بعض التقيدات (لكى تحمى الاحتقار الملكى) » .

كما وجدت مجموعة من النقود فى مارس ١٩٦٠ م ، وإحدى قطع هذه النقود تحمل صور أنطيوخس الثالث الذى حكم الإمبراطورية السلوقية ما بين ٢٢٣ — ١٨٧ ق . م . ويرجح أن تكون قد سكت فى سوريا ما بين ٢٢٣ — ٢١٢ ق . م . ويحمل الوجه الثانى لقطعة النقود هذه صورة الإله أبوللو الذى كان يعتبر حامى الأسرة السلوقية . أما النقود الباقية وهى اثنتا عشرة قطعة فهى مسكوكة من نفس قطعة النقد السلوقية على وجه التقريب . وعلى أحد وجهى القطعة من هذه النقود صورة البطل هرقل وعلى الوجه

الثانى صورة كبير الآلهة زيوس . والنقود هذه مسكوكة باسم الإسكندر الأكبر وإن كان هناك ما يقرب من قرن بين وفاته وتاريخ ضربها.. وهناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه النقود قد ضربت فى فيلكا وإن كان هناك اعتراض على ذلك هو أن فيلكا كانت تحت الحكم السلوقى إبان تلك الفترة كما ظهر من قطعة النقود الأولى . وهناك احتمال ثالث هو أن هذه النقود ربما ضربت فى جرها مقابل البحرين . والجرهائيون اشتهروا بالتجارة وكانت طريقهم التجارية من جرها إلى مداخل الفرات ودجلة ؛ أى تمر هذه الطريق بفيلكا وتستمر حتى سلوقية وسوزا . وكان هؤلاء التجار يسيرون مع الأنهار فى طرق القوافل القديمة إلى سوريا وفينيقية ، بل لقد وجدت كتابات فى هذه الجزيرة تشير إلى أنهم وصلوا إلى ديلوس فى البحر الإيجى . ومما يذكر أن أنطيوخوس الثالث قد جرد حملة على الجرهائيين سنة ٢٠٥ ق.م. وليس هناك ما يشير إلى إخضاع بلادهم . وهناك ما يحملنا على أن نربط بين هذه الحملة وبين الكنز المدفون فى فيلكا . (وهناك احتمال قوى إلى أن هذه النقود قد ضربت فى جرها ، وهذا لا يعدو كونه فرضا يجب أن يعاد بحثه عند اكتشاف أشياء جديدة) .

وفى حملات التنقيب التى جرت عام ١٩٥٨ وعام ١٩٥٩ م وجدت بعض النقود هنا وهناك وثلاث قطع منها نحاسية سلوقية أتت من سوزا أو سلوقية على نهر دجلة . وإحدى هذه القطع ضربها سلوقس الأول باسم الإسكندر الأكبر (حوالى ٣١٠ — ٣٠٠ ق . م .) . أما القطعتان الأخريان فهما من عهد أنطيوخوس الثالث (٢٢٣ — ١٨٧ ق . م .) أى أنهما معاصرة للكنز الذى اكتشف فى عام ١٩٦٠ . ومع أن هذه القطع قليلة إلا أنها توضح كثيراً العلاقات الاقتصادية المتينة التى كانت قائمة بين فيلكا والمدن الكبيرة فى المقاطعات الشرقية من إمبراطورية سلوقية . أما العلاقات مع الجنوب فتشير إليها قطعة نقود فضية صغيرة (دراخما) ويمكن أن تعزى هذه القطعة إلى

الميناثين وهم من قبيلة عربية كانت تعيش جنوب الجزيرة العربية على بعد بضع مئات من الأميال إلى الشمال من منطقة عدن .

وقيمة هذه القطعة فى ندرتها . ومثل هذا السك لم يعرف إلا فى قطعة وحيدة (أربع دراخمات) فى أبردين وهى مطابقة لهذه فى التفاصيل . كما أنها تقليد لنقود الإسكندر الأكبر ولكن الكتابة اليونانية مستبدلة بالاسم الملكى (ابياثا) مكتوبا بالكتابة العربية القديمة . ونحن لانعرف شيئاً عن حكم ابياثا هذا غير أننا نرجح ـ لأسباب تتعلق بطرازها ـ أنها ترجع إلى ما يقرب من عام ١٥٠ ق . م . وهذا الطراز أقرب إلى اليونانية من مجموعة النقود التى وجدت فى فيلكا وهذه أقدم من هاتين القطعتين بستين عاماً :
(ف ـ ٥) :

وفى عام ٦١ ـ ١٩٦٢ م أظهرت الحفائر فى تل سعيد (القلعة اليونانية) التى يرجع عهدها إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، يحيطها خندق دقيق الصنعة وكان من الصعب تحديد الشكل الهندسى الأصلى للقلعة منذ بداية إنشائها ، غير أن استمرار الحفريات قد أظهر بعض الأخطاء : وقد ثبت لدينا فى فى الموسم الأخير سنة ٦١ ـ ١٩٦٢ أن القلعة بنيت على شكل مربع طول كل من جوانبه ٢٠٠ قدم وفى كل زاوية برج مربع ولها بوابتان واحدة شمالية والأخرى جنوبية وقد أضيفت إلى مبان أخرى فيما بعد أفقدتها الشكل الأصلى فى هندستها الرتيبة بعد أن خربت عدة مرات كما ذكرنا سابقاً . وقد تبين من الحفريات المستمرة فى منطقة القلعة اليونانية بأنها بنيت على منطقة سكنية يعود أقدمها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وذلك باكتشاف ثمانية أختام فى الطبقات السفلى من هذه المنطقة ويعود تاريخ هذه الأختام إلى حوالى ٢٥٠٠ ق . م . وتمتد آثار هذه المنطقة إلى أعمق طبقة فى التل الشمالى للقلعة الذى يعود تاريخه إلى العصر البرونزى والذى سنورد ذكره فيما بعد . هذا بجانب اكتشاف عدد من التماثيل الفخارية واحد منها يمثل

فينوس إلهة الجمال والثانى رأس الإسكندر والثالث مبخرة من الفخار عليها تمثال رأس بنت بارز ، كما تم أيضاً اكتشاف عدد من النقود الفضية اليونانية شبيهة بالنقود المكتشفة فى حفريات عام ١٩٦٠ م الآنفة الذكر.

حفريات سنة ١٩٦٢ – ١٩٦٣ :

لقد أظهرت ملامح المنطقة الرئيسية والتى ذكرنا أوصافها سابقا . ويبدو أن النصف الشرقى كان مقدسا يحتوى على معبدين ومذبحين بينما النصف الغربى عبارة عن منطقة سكنية . وقد بنيت الإضافة الأخيرة فى التحصينات على امتداد الجهة الشمالية إلى القلعة ثم أضيف إليها خندق حول الحصن ، وأن التقاسيم الداخلية توضح مداخل القلعة ويحتمل أن تكون البوابة الجنوبية هى المدخل الرئيسى للمعبد ولكنها ما ابثت أن انطمست ومن ثم استعملت البوابة الشمالية فقط . ولقد تبين من الخندق الممتد من الشرق إلى الغرب بأن البناء بالنصف الغربى من القلعة كان يتألف من بنيان ضعيف من اللبن وربما شيدت لتكون مخزناً يستعمل كملجأ عند محاصرة القلعة . وفى متحف الكويت مجموعة ثمينة من التماثيل والأوانى الفخارية وغيرها .

وبهذا فقد انتهت حفريات آثار القلعة اليونانية لهذا العام عن أن يستأنف العمل فى السنوات القادمة .

(تل سعد ف ، ٣) :

ابتدأت الحفائر الأثرية فى تل سعد الكبير الذى يقع فى الجهة القريبة من تل سعد ، وتبين من بداية التنقيب أن المنطقة السكنية فى هذا التل كانت معاصرة للطبقات السكنية فى جزر البحرين . وقد تم اكتشاف أوانى حجرية من الحجارة السوداء المسماة استياتايت وكذلك اكتشاف أختام مستديرة مدبية بعضها مستدير ذو وجهين عليها رسوم أشخاص بلباس يشبه اللباس السومرى وعلى أغلبها رسوم غزلان وثيران . وفى حفريات سنة ١٩٥٩ م

بوشر العمل بحفر خندق يبلغ عمقه من ٤ . . ٤/٥٠ م مخترقا تل سعد من الجنوب إلى الشمال ، وقد وجدت فيه طبقات متعاقبة وفى كل طبقة قطع كثيرة من الفخار وعظام الحيوان والأصداف البحرية . وبعد فحص الفخار المستخرج من الطبقات ظهر أنه يمثل عدة عهود مختلفة . ووجد أيضاً وعلى عمق مترين ونصف المتر تقريباً من مستوى التل أسس جدران غرف مبنية بالحجارة التى توجد على ساحل الجزيرة ، وعثر فى هذه الغرف على قطع كثيرة من النحاس منها رأس حربة ، وكذلك اكتشاف جرة كروية سالمة قطرها ٥٦ سم ومجموعة من الأختام المصنوعة من الحجر الهش الاستياتايت ، وقد بلغ عددها فى ذلك العام ٤٠ ختما وعلى ظهرها المدبب ثلاثة خطوط متوازية وأربع حلقات وتتكرر هذه الخطوط والحلقات فى جميع الأختام المكتشفة فى جزر البحرين ، وهى تختلف عن أختام العراق الاسطوانية وأختام الهند المربعة وهى فريدة فى بابها ورسومها الغريبة المتنوعة وبحاجة إلى دراسة فقد تجمعت رموز صورية كثيرة من هذه الأختام تشابه بعض الشىء ، الكتابة العيلامية الصورية ويحتمل أن يعود تاريخها إلى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد . وقد اكتشف ضمن هذا الموقع أيضاً قطعة من رقيم عليها كتابة مسمارية تذكر اسم أنزاك إله دلمون والمصطلح عليه حتى الآن أن دلمون هى البحرين وقد تكون فيلكا هى مقر دلمون أو جزءاً منها .

وفى مطلع عام ١٩٦٠ بوشر العمل مرة أخرى فى تل سعد غربى الخندق الرئيسى وشرقيه فى خنادق متوازية مربعة الشكل على طريقة الصناديق ، وقد قسمت هذه الخنادق إلى عدة أقسام متساوية وقد بلغت مساحتها ٥٧٥ متراً ويتراوح عمقها من ٣ — ٤ أمتار . وفى القسم الجنوبى من الخنادق عثر على بقايا بيوت وحجرات كثيرة متزاحمة أقيمت فى صفوف باتجاه شرقى وشمالى شرقى وغربى إلى جنوبى غربى ومساحة الغرفة ٣ × ٣ مترا مربعاً ، وجدران هذه البيوت مبنية من الحجر الموجود على ساحل الجزيرة والأحجار المبنية بالجص وكذلك الجدران مجصصة فى بعض الحالات .

وعثر على جدار واحد عليه قليل من الصبغ الأحمر ، وكذلك وجدت بعض الجدران مطلية بالقار ، أما ارتفاعها فقد بلغ ١/٥٠ مترا وفيها مداخل أبواب ولها درجة أو أكثر وفى الدرجة والعتبة موضع حفرة يركز فيها الباب . ويمكن الدخول من حجرة إلى أخرى مجاورة لها وهذا يدلنا أن كل مجموعة من الحجرات المتصلة بالأبواب كانت تؤلف بيتا واحدا ، ويظهر أن كل حجرة كانت تستعمل لغرض معين يستدل على ذلك من الأوعية التى عثر عليها فى الحجرات . فقد عثر فى إحداها على منضدة حجرية مجصصة عليها آنية خزفية وحجرية وهاون (جرن) من الحجر ، وفى المنضدة حفرة يحتمل أنها كانت حوض صغير ، واكتشف فى الغرف الأخرى أفران مبنية بالطين والحجر ، وفى خارج أكثر البيوت عثر على آبار غير عميقة كان يؤخذ منها الماء كما كان يفعل سكان الجزيرة قبل وقت قريب وقد تكون خزانات صغيرة كالبرك لحفظ الماء بها . وفى الطرف الجنوبى من الخندق لم يعثر على بيوت أو غرف بل عثر على أربعة أفران مبنية من الحجر لحرق الأوانى الخزفية وغيرها وفى شمال هذه الأفران عثر فى الخنادق الشرقية على بناء يختلف عن البيوت الصغيرة التى وجدت أنقاضها فى الجزء الجنوبى ، والجدران أضخم وأوسع مساحة فى هذه الناحية وطول الجدار ١١ر٧٥ مترا وعرضه ٦ مترات على الأقل والأرض داخل الجدار بعضها مبلط بحجارة مسطحة ومثبتة بالطين وفيها دكتان من الحجر إحداهما فوق الأخرى ولعلهما كانتا قاعدة لعمود ثقيل ولم يتم الحفر فى هذه البقعة لذلك لا يمكننا وصف هذا البناء ومعرفة الغاية منه . وقد ظهر من دراسة آثار هذا التل (ف ٣) أن سكانه أقاموا فيه مدة طويلة متصلة وأن البيوت الجديدة كانت تبنى فوق البيوت القديمة المتهدمة حتى ارتفع هذا التل ووصل إلى ارتفاعه الحالى ولوحظ أيضاً أن جدران البيوت القديمة اتخذت أساساً للبيوت الجديدة ولا يمكن تعيين طبقات التل وعصورها إلا بعد دراسة أوفى للآثار والجدران . وهكذا فقد كان هذا الموقع غنياً

بالقطع الأثرية وأكثرها من الأختام المستديرة المدبية وقد بلغ عددها فى حفريات هذا العام (١١٤) ختما وهى ترجع إلى عهد واحد من الحضارة ولا يمكن الآن تقدير طول العهد الذى تمثله هذه الآثار إلا بعد الاستمرار والبحث والكشف عن بقية الآثار فى هذا الموقع .

حفريات سنة ١٩٦١ – ١٩٦٢ م :

وعلى ضوء هذه الاكتشافات المهمة لذلك فقد استمرت الحفريات فى هذه المنطقة فى عام ١٩٦١ م ، وقد تركز العمل على جهتين من تل سعد الواقعة فى الجنوب الغربى بالجزيرة بمحاذاة اتجاه البيوت التى تمتد على الشاطئ الغربى للجزيرة ، وفى جنوب هذا التل افتتحت خمسة خنادق على شكل مربعات أو صناديق طول كل منها سبعة أمتار وعرضه أربعة أمتار . وفى شمال التل نفسه افتتح أحد عشر خندقا وبنفس المقاييس والطريقة التى تم فيها الحفر سنة ١٩٦٠ تاركين مسافة متر واحد بين كل خندق كما أن جميع هذه المنطقة رسمت بدقة فى خلال هذا الفصل بينما درست جميع الأبنية المكتشفة وتم فحصها وتتبع رسوم الخرائط لكل بيت واختلاف عهودها السكنية ، وبالحفر على خط امتداد البيوت توصلنا إلى معرفة امتداد السكن من الجنوب الشرقى إلى الجنوب الغربى . وإلى مدى عدة أمتار ظهر أن البيوت بنيت بالأصل على شكل مربع واسع ثم قسمت إلى غرفتين وبعضها إلى ثلاثة ونظمت على صفين متقابلين ومواجهين إلى الجهة الجنوبية الشرقية على طول امتداد الممر الضيق بينها . وعلى كل زاوية أو بيت وجد بئر رفعت فتحته بالحجارة كما وجد فى بعض البيوت مواقد للنار مبنية داخل الجدران وموائد مبنية من الحجر يرتفع بعضها عن أرضية البيت مسافة ١٠ سم وقد اكتشف فى أحد البيوت مخزن للمواد البنائية وبه هيكل عظمى لحيوان ربما كان لماعز سقط إلى قعره .

كما أن أرضية الغرف وجدرانها قصرت ويحتمل بأنها طليت بالكلس الأبيض عدة مرات وأما خارج جدران الغرف فلم تقصر غير أن أكثر مداخل الغرف قد قصرت وفى بعض الأبنية أضيفت إليها أبنية أخرى بعد مرور زمن طويل من إنشائها الأول وفى الناحية الجنوبية الشرقية من البيوت وجدت بيوت على شكلين مختلفين وذلك جنوب الفرن الذى اكتشف سنة ١٩٦٠ م . والفرن الأوسط وجد غير كامل سوى أرضية البناء بينما بنى الفرن الجنوبى وترك على علو البناء الأصلى . وقد شغرت هذه الأفران الساحة الخارجية من البيوت وقد بنيت من الحجارة المربعة ومادة البيتومين وكانت توقد النيران من هذه الأفران من خلال ثقب مربع مواجه للجهة الجنوبية وبالقرب من الأفران وجدت تراكمات من طبقات الرماد على علو متر تقريباً وكذلك تراكمات الأتربة الحمراء وهى بقايا الأتربة الطينية المخروطة الشكل التى تحكم بها الأفران عند البدء بكل عملية والتى جرفت من الأفران وقذف بها إلى الخارج . وأما البيوت فى الجنوب فكانت صغيرة :

وأقرب البيوت التى تقع إلى جهة الجنوب وجدت جدرانها مواجهة لمساحة تقدر بمائتين من الأمتار المربعة ويظهر بأنها ساحة سماوية لم يكن لها أى سقف وربما كانت مكانا مقدساً (معبد) ، وذلك بسبب اكتشاف ثلاثة مذابح بداخلها ، كما عثر أيضاً بوسط الساحة على خمسة أعمدة وسادس بقيت منه القاعدة فقط وعلى مقربة من الجدار الغربى للبناء وجد مذبح آخر مستدير الشكل ، لم يعرف القصد منه فى تقريرنا السابق بينما الحجر الشمالى كان مركز لاستعماله كمبخر ، وعلى أحد الأعمدة الستة الموجودة بالوسط اكتشفنا تمثال ضفدع صغير من البرنز وخرز من العقيق وقد رصفت أرضية البناء من الداخل بالحجارة المسطحة وكان المدخل مواجها للجهة الشرقية من البناء والتى هدم بابها ، وقد رممت جدران هذا المعبد ثلاث مرات ولكن أقدمها كان أقصر زمنا للمدة السكنية فيه . وكذلك فإن جميع

المذابح التى تم الكشف عنها تعود للعهد الثانى من ترميم المعبد وإصلاحه وفى شمال هذه المنطقة عثرنا على بناء كبير وجدران مقصورة من الداخل والخارج وقد قسمت هذه البناية إلى ثلاث غرف طويلة ومتوازية ويستمر امتدادها إلى ما تحت المنطقة التى لم يتم حفرها فى هذا العام وعلى أرضية الغرفة الغربية من هذا البناء عثرنا على أختام اسطوانية أخرى وتحت هذا البناء بناء آخر أقدم منه ، وقد انكشف نصف غرفة منه حتى وصلنا إلى أرضية الغرفة ، ويعود تاريخ هذا البناء إلى أقدم عهد سكنى أنشئ فى هذه المنطقة فى تل سعد كما وأن هذا البناء يختلف اختلافا كليا عن بقية الأبنية الجنوبية التى ربما كانت منازل أو ورش وقد اكتشف فى حفريات هذا العام (٤٠) ختما من الطراز الدلمونى المستدير المدبب وقطع من الكتابات المسمارية وبضع قطع منحوتة من أوانى حجرية (استياتايت) وثلاثة أوانى حجرية أخرى مزخرفة كاملة الشكل .

وهكذا فإن وجود الأختام بالطبقات السفلى والكتابات المسمارية يرجع عهدها إلى تاريخ العهد الأكادى وبالطبقات الأخرى التى تليها فيرجع تاريخها إلى العهد البابلى القديم والتى تدل على مدى امتداد حضارة هذا التل بالعصور البرنزية .

وقد بلغت المساحة التى كشفت عنها الحفريات فى هذه المنطقة خلال مواسم الحفريات الخمسة من سنة ٥٨ — ١٩٦٣ م حوالى (٢٠٠٠) مترا مربعا ، ويبدو أن الجزء الشرقى من هذه المنطقة قد سكنها صانعو الخزف . واكتشف هنا ثلاثة أفران منها واحد فى حالة جيدة وفى وسط التل يقع المعبد وهو عبارة عن ساحة مربعة مرصوفة ومحاط بجدران حجرية وفى الساحة ثلاثة مذابح قائمة واحد منها مستدير والثانى مربع والثالث محتويا على ستة أعمدة أقيمت فى وسط الساحة .

إن الكتابات المسمارية والأوانى الحجرية والأختام والجرات والألواح الطينية التى اكتشفت بالتل تعنى بأن المعبد للإله أنزاك كبير آلهة دلمون .

وقد أعيد بناء المعبد ثلاث مرات وفى شمال المعبد بناء كبير ربما كان قصراً أو بناء مهما بنى فى الزمن الأخير من العصر البرنزى وبنى هذا على أقدم جزء من المنطقة السكنية على جدران حجرية جيدة كما أن البيوت التى تقع بالقسم الغربى من الأحياء السكنية على امتداد الشاطئ متهدمة ومن المؤكد أن يستمر كذلك فى الجهة الغربية التى لم تحفر حتى الآن .

التل الشمالى ، للقلعة اليونانية (ف ، ٦) :

لقد تقرر العمل فى هذا التل سنة ١٩٦٠ م . محاولة لإيجاد بعض الصلات بين هذه المنطقة وكل من تلى سعد وسعيد أو العصر البرنزى واليونانى أو إلى أى عصر آخر ، وقد اتبع فى الحفر نفس الطريقة التى اتبعت فى التلال الأخرى من الجزيرة وقد ظهر من آثار هذا التل أنها ترجع إلى العصر البرونزى فى جميع مراحله ، فقد وجد فى هذا التل أختام بلغ عددها سنة ١٩٦٠ م ستة وثلاثون ختما كالتى عثر عليها فى تل سعد ، وكذلك أظهرت الحفريات مخزنا للأوانى الفخارية وجرات عديدة يعود تاريخها إلى العصر البرونزى الأخير ويرجح أن آثار المساكن التى تم الكشف عنها من آثار قرية كانت فى هذا الموقع فى العصر البرونزى فى نفس الوقت الذى كانت فيه حضارة قديمة فى تل سعد الكبير الذى يقع إلى الجنوب الغربى من هذا التل .

ولقد أظهرت الحفريات أسمى تأثيرات العصر البرنزى وبنائه فى فيلكا ، ولقد بوشر العمل مرة ثانية فى سنة ٦١ — ١٩٦٢ م وكان استمرار للكشف عن الجدران والمبانى المختلفة العهود فى امتداد أصغر من منطقتى (ف ، ٣ و ف ، ٥) وقد اكتشف فى هذا التل عدة أختام أخرى مستديرة مدببة كأختام تل سعد الكبير الآنفة الذكر وقطع حجرية منحوتة عليها رسوم مختلفة وبعض الكتابات المسمارية . وما زال البحث مستمرا فى منطقة سكنية قد تكون بيتا كبيرا يحتوى على غرف عديدة فى الجزء الغربى منه ،

وفيه أيضاً أربعة أعمدة وساحة وغرف بالجزء الشرقى منه كما تم الكشف عن فرنين مستديرين مبنيين من جدران حجرية وربما تكون أحدث عهدا من البيت الكبير وفى الجهة الغربية من القصر ظهرت أرضية مجصصة ولكنها مهدمة من الجهة الشرقية ، ولهذا فإنه من غير الممكن أن يرسم مخطط للكشف النهائى فى هذه المنطقة ولكن بما أن هذه المنطقة أغنى وأحسن صيانة بمحتوياتها من منطقة تل سعد ، لذا فإن استمرار الحفريات فى السنوات القادمة سيكشف لنا أهمية كبيرة لآثار هذه المنطقة وارتباطاتها فى حضارة دلمون أو بمعنى آخر حضارة أهل الخليج ، ويمكن أن تكون هناك صلات قوية بين حضارات وادى الرافدين ، فبالإضافة إلى بعض الكتابات المسمارية هنالك عدد قليل من الأختام الاسطوانية المعروفة فى العراق القديم ولكن هناك أيضاً بعض الجعران الذى يشابه الجعران المصرى ، كما أن صور جلجامش وجدت منقوشة على بعض الأختام المستديرة ذات الوجهين ، فالاستمرار فى التنقيب فى هذه المنطقة المهمة سيكشف القناع عن كثير من الأسرار والألغاز المرتبطة فى أصل وجنس الإنسان الذى سكن الخليج العربى ، فحتى الآن لم يعرف أصل الإنسان فى الخليج وكذلك لم يتمكن العلماء من معرفة أصل السومريين سكان جنوب العراق ، فربما نجد الحلقة المفقودة .

وفى جزر الخليج وعلى سواحله الغنية بالمناطق الأثرية والتى يعود بعضها إلى العصور الحجرية القديمة ، وبالإضافة إلى التنقيب فى الكويت والبحرين فقد تم اكتشاف كميات من الحجر الصوان فى قطر فى مكان يسمى (الحملة ورأس عوينات على) وقد تم تحديد ما يقارب خمسين موقعا فيها آثار أحجار صوانية من العصور الباليوليثيكية ، والنيوليتيكية كلها على وجه الصحراء ، كما تم اكتشاف عدد كبير من الآثار فى منطقة نيوليثيكية جنوب مكان يسمى (دخان فى قطر) حيث تم العثور على ما يزيد على ٢٠٠ رأس نبل وعدد كبير من الفؤوس والمقاشر الحجرية .

وفى جزيرة أم النار فى أبوظبى تم التنقيب فى عدة مقابر أثرية من الألف الثالثة قبل الميلاد ، وهندستها معقدة وتحتوى على هياكل عظمية وخرز وفخار عليه رسوم ، وهذه المقابر مغطاة بحجارة منحوتة . بعضها تحتوى على رسوم ونقوش بارزة على هيئة ثيران وجمال وأفاعى وحيوانات أخرى ، وهذا ما يبرهن على أن الساحل الشرقى من الجزيرة العربية كبقية مناطق الشرق الأوسط غنى بالآثار ، كما أنها ما زالت منسية ومجهولة ومنفصلة تماماً عن بقية حضارات الشرق الأوسط التى سبق وكانت متصلة اتصالا أوثق مما نتصور ، وبالنسبة للبحوث العلمية فإن الخليج العربى أحرى بالانتباه وأحرى بأن تبادر الجامعة العربية لتنظيم بعثات عربية أثرية فى هذه المنطقة ، التى أصبح كثير من آثارها مهدد بالزوال خاصة بعد عمليات التنقيب عن البترول التى تغير مساحات شاسعة من الصحراء تضيع معالمها بالإضافة إلى أن أى اكتشاف فى هذه المنطقة يعتبر اكتشاف جديد فى علم الآثار على خلاف التنقيب على الآثار فى البلاد العربية التى رسخت قواعد دراستها وأصبحت مجرد روتين ودراسة منظمة ومعروفة .

* * *

وفى سنة ١٩٦٠ صدر المرسوم الأميرى بقانون الآثار فى الكويت ، وهو المنشور فى الصفحات التالية :

المرسوم الأميرى رقم (١١)* لسنة ١٩٦٠

بقانون الآثار

فى دولة الكويت

نحن عبد الله السالم الصباح أمير الكويت
بناء على عرض رئيس إدارة المعارف
قررنا القانون الآتى : —

الفصل الأول — أحكام عامة

(مادة ١)

تحافظ الكويت داخل حدودها ، ووفقا لأحكام هذا القانون ، على الآثار القائمة فيها ، وذلك صيانة لتراثها الثقافى الذى تركته عصور ماضيها المتعاقبة ، كما تحترم آثار الشعوب العربية والأمم الأخرى خارج حدودها ، وفقا لأحكام الاتفاقيات والمعاهدات التى تعقدها .

(مادة ٢)

تناط مهمة المحافظة على الآثار بإدارة المعارف ، ويعود إلى هذه الإدارة وحدها مسؤولية تقدير الصفة الأثرية والتاريخية للأشياء والمواقع والمبانى ، والحكم بأهمية كل أثر ، وتقرير الآثار الواجب تسجيلها ، لحمايتها وصيانتها ودراستها والانتفاع بها .

---

* المرسوم الأميرى رقم ١١ لسنة ١٩٦٠ المنشور فى العدد ٢٧١ الصادر فى ١٧ إبريل (نيسان) ١٩٦٠ هو (مرسوم) لا (مرسوم بقانون) وصحة رقمه (١) لا (١١) .

(مادة ٣)

كل ما صنعه الإنسان أو أنتجه أو شيده قبل أربعين سنة ميلادية ، يعتبر من الآثار الواجب دراستها وتسجيلها ، وصيانة ما تجدر صيانته منها ؛

(مادة ٤)

تقسم الآثار إلى نوعين : آثار غير منقولة ، وآثار منقولة . فالآثار غير المنقولة هي الثابتة التي اكتسبت هذه الصفة بطبيعتها كخرائب المدن وأطلال المنشآت البائدة ، والأبنية التاريخية المشيدة لغايات مختلفة . والآثار المنقولة هي المنفصلة عن الأرض مهما كانت مادتها والغرض من صنعها ووجوه استعمالها .

(مادة ٥)

جميع الآثار المنقولة وغير المنقولة الموجودة فى باطن أراضى الكويت تعتبر من أملاك الدولة العامة . أما الآثار الظاهرة على سطح الأراضى الكويتية ، فتبقى فى تصرف مالكها إلى أن يتم لإدارة المعارف استملاك ما ترى ضروريا لاستملاكه منها .

(مادة ٦)

ملكية الأرض لا تمنح صاحبها حق التصرف فى الآثار الموجودة على سطحها أو فى باطنها ولا تخوله حق التنقيب عن الآثار فيها .

(مادة ٧)

لرئيس المعارف أن يستملك أى أثر منقول أو غير منقول يوجد فى أراضى الكويت ، ويتم ذلك وفقا للأنظمة المقررة .

(مادة ٨)

يحظر حظرا باتا إتلاف الآثار المنقولة أو غير المنقولة ، أو إلحاق الضرر

بها ، أو تشويهها بالكتابة ، أو الحفر عليها ، أو تغيير معالمها ، أوفصل جزء منها ، أو تزييفها .

الفصل الثانى – الآثار غير المنقولة

(مادة ٩)

يدرس موظفو إدارة المعارف المختصون جميع الآثار غير المنقولة فى الأراضى الكويتية ، ويجمعون الوثائق العلمية ، والمعلومات التاريخية المتعلقة بها ، ويفردون ملفا خاصا لكل منها ، ويقررون ما تجب المحافظة عليه منها ، ويطلقون حرية التصرف فيما عدا ذلك .

(مادة ١٠)

يقصد من تسجيل المواقع الأثرية والمبانى التاريخية فى الكويت ، تقرير أهلية هذه المواقع والمبانى لأن تبقى ، وأن تنقل إلى الأجيال المقبلة وتوفير الحماية الرسمية لها ، وتأمين صيانتها . ويتم التسجيل المشار إليه بقرار من رئيس المعارف ، ويبلغ القرار المذكور إلى الدوائر المعنية ، ويؤشر على المواقع والمبانى المسجلة فى السجل العقارى .

(مادة ١١)

إذا لم تستملك إدارة المعارف الموقع الأثرى أو البناء التاريخى المسجل خلال عام من تسجيله ، جاز لصاحبه أن يطالب هذه الإدارة بالتعويض عن التسجيل .

(مادة ١٢)

تقوم إدارة المعارف بأعمال الصيانة والترميم اللازمة لجميع المواقع الأثرية والمبانى التاريخية المسجلة ، وتشرف عليها للمحافظة على ميزتها الفنية وطابعها التاريخى ، وتنفق عليها من ميزانيتها ، كما تقوم بتجميلها ، وإنشاء

الحدائق حولها ، وإعدادها لزيارة السائحين ، وتحول ما يمكن تحويله منها إلى متاحف أو معارض دائمة ، وتجهزها بالاستراحات اللازمة للزوار.

(مادة ١٣)

يجب على إدارة المعارف أن تدفع أى ضرر يلحق المواقع الأثرية والأبنية التاريخية المسجلة ، ولا يحق للمالك إجراء الإصلاح أو الترميم دون موافقة الإدارة المذكورة ودون إشرافها . وإذا هدم المالك عقاره المسجل أو قسما منه ، أو حور فيه دون موافقة إدارة المعارف ، أجبر على إعادة البناء إلى ما كان عليه فضلا عن العقوبات المنصوص عنها فى هذا القانون .

(مادة ١٤)

يجوز ترتيب حقوق ارتفاق ذات نفع عام على كل عقار أو أرض يقعان بالقرب من موقع أثرى أو بناء تاريخى ، وكذلك لا تجوز إقامة بناء جديد على أرض أثرية أو إلصاق هذا البناء على بناء تاريخى مسجل ، دون ترخيص إدارة المعارف ، ويدفع إلى أصحاب العقارات المتضررة من وضع الوجائب وحقوق الارتفاق ، عليها تعويض عادل .

(مادة ١٥)

تستشير دائرة الأشغال العامة وكل هيئة مختصة أخرى ، عندما تضع تصاميم مدينة الكويت وتوابعها ، أو عند بدئها تنفيذ هذه التصاميم ، إدارة المعارف فيما يتعلق بالأبنية ، وتعين شروط ونماذج الأبنية الجديدة المجاورة لها ، بما ينسجم مع بيئتها التاريخية القائمة .

(مادة ١٦)

تتخذ إدارة المعارف مع سلطات الأمن فى زمن السلم والحرب ، كل التدابير اللازمة لحفظ المواقع الأثرية والأبنية التاريخية وبقية الممتلكات الثقافية

الأخرى المنصوص عنها فى الاتفاقية الدولية لحماية الممتلكات الثقافية لدى وقوع نزاع مسلح .

الفصل الثالث – الآثار المنقولة

(مادة ١٧)

تحتفظ الآثار المنقولة فى متحف مدينة الكويت ، وفى المتاحف الأخرى التى تنشأ فى المستقبل ، حيث تدرس ، وترمم ، ويعرض ما يجب عرضه منها ، ويخزن ما تبقى . ولايمكن أن تباع أو تهدى ، إلا أنه يجوز تبادلها بآثار أخرى مع متاحف الدول العربية والأجنبية .

(مادة ١٨)

يجوز للأفراد اقتناء بعض الآثار المنقولة ، بشرط عرضها على إدارة المعارف ، لتسجيل ما هو مهم منها ، واستصدار وثيقة رسمية بذلك تعطى إلى صاحب الأثر ، والسماح له بحرية التصرف فى الآثار غير المهمة .

(مادة ١٩)

تمنح مهلة ثلاث سنوات إلى الأفراد بعد صدور هذا القانون لتسجيل ما لديهم من آثار ، ويصادر بعد انتهائها كل أثر منقول غير مسجل ، أو لم يرخص لصاحبه فى حرية التصرف به .

(مادة ٢٠)

يجوز انتقال ملكية الآثار المنقولة المسجلة . وعلى من يبيع أثراً منقولا مسجلا أن يعرضه على إدارة المعارف ، لتستعمل حق الرجحان فى شرائه . وعلى بائع الأثر المسجل أن يبلغ إدارة المعارف اسم المشترى الجديد ومحل إقامته .

(مادة ٢١)

على كل من يكتشف أثرا منقولا أو يعثر عليه بطريق الصدفة ، أن

يخبر إدارة المعارف بذلك خلال (٤٨) ساعة من اكتشافه أو العثور عليه ، وللإدارة المذكورة أن تقرر إذا كانت تود الاحتفاظ بالأثر ، ويتعين عليها فى هذه الحالة ، أن تدفع مكافأة نقدية مناسبة ، أو أن تقرر تركه فى حيازة مكتشفه .

(مادة ٢٢)

على كل من يستورد أثرا من خارج حدود الكويت ، أن يبلغ عنه إدارة المعارف ، خلال ثلاثة أيام من وصوله ، ولا يجبر المستورد على التخلى عن ملكية أثره ، إذا كانت نيته اقتناءه ، لا الاتجار به .

(مادة ٢٣)

لاتحور الآثار المنقولة المسجلة ، ولاترم ، ولاتنقل من مكان إلى آخر دون ترخيص إدارة المعارف .

الفصل الرابع – الحفائر الأثرية

(مادة ٢٤)

يقصد بالحفائر الأثرية جميع التحريات التى تستهدف العثور على آثار منقولة وغير منقولة ، وتجرى عن طريق دراسة سطح الأرض أوحفرها ، أو الغوص إلى أعماق المياه البحرية الإقليمة الكويتية .

(مادة ٢٥)

يحصر حق إجراء الحفائر الأثرية فى إدارة المعارف ، وفى الهيئات العلمية والعلماء بالآثار العرب والأجانب الذين ترخص الإدارة المذكورة لهم بذلك ، وفقا لأحكام هذا القانون . ولايجوز لأحد أن يقوم بالحفائر الأثرية دون أن يحصل على اجازة رسمية ، حتى لو كانت الأرض ملكا له .

(مادة ٢٦)

يحق لإدارة المعارف ، أن تجرى حفائر أثرية فى أية بقعة من أراضى الكويت . وعليها أن تعيد بعد التنقيب الأراضى الخاصة التى نقبت فيها إلى أصحابها ويحق لهؤلاء أن يطالبوا بتعويضات عن الأضرار اللاحقة بأراضيهم من جراء الحفائر ، إلا إذا أجرى استملاك هذه الأراضى .

(مادة ٢٧)

تمنح إدارة المعارف اجازات للقيام بالحفائر ، إلى البعثات الأثرية العربية والأجنبية بعد التأكد من مقدرتها وكفاءتها فى التنقيب من الوجهتين العلمية والمالية ، وتكون هذه البعثات طيلة مدة إقامتها بالكويت ، فى حمى قوانينها ، ورعاية سلطاتها .

(مادة ٢٨)

يتعهد رئيس البعثة الأثرية خطياً ، قبل حصوله على اجازة الحفائر بما يلى : —

(أ) التقيد بكل أحكام هذا القانون .

(ب) قبول بعثته لمرافقة ممثل أو أكثر عن إدارة المعارف طيلة موسم الحفائر .

(جـ) إرساله تقارير مختصرة عن سير أعمال التنقيب ، ونتائجها ، مرة واحدة كل خمسة عشر يوماً ، وذلك خلال موسم التنقيب .

(د) تسليمه نسخاً من كل الرسوم والمقاطع والصور الشمسية التى صنعها لجميع الآثار المكتشفة ، منقولة وغير منقولة ، وذلك بعد انتهاء موسم التنقيب .

(هـ) إيداعه نسخة عن سجله المفصل الذى يصف فيه جميع الآثار

المكتشفة بالتفاصيل العلمية اللازمة ، والذى ينظم بشكل يتفق عليه مقدماً بينه وبين إدارة المعارف .

(و) نقله جميع الآثار المنقولة المكتشفة إلى متحف الكويت لدى انتهاء موسم التنقيب ، وتسليمها لأمين المتحف ، وفق السجل المفصل .

(ز) أن يقدم بالعربية أو الإنجليزية أو الفرنسية خلال ستة شهور من انتهاء كل موسم من مواسم الحفائر تقريراً تمهيدياً مهيأً للطبع عن أهم النتائج العلمية التى حصل عليها .

(ح) أن يصدر خلال سنتين من اختتام الحفائر المرخص بها دراسة علمية مفصلة عن نتائج حفائره ، ويجوز أن تمد هذه المهلة حتى خمس سنوات .

(ط) أن يسلم إدارة المعارف عشر نسخ من كل كتاب أو نشرة أو مقال يصدره عن أعمال التنقيب ونتائجه .

(ى) أن يساعد إدارة المعارف على تنظيم منطقة الحفائر ، وإعدادها لزيارات العلماء والسائحين والمثقفين والطلاب ، وأن يؤازر أمانة المتحف فى تصنيف الآثار المنقولة المكتشفة ، وفى عرضها وخزنها على الشكل العلمى .

(مادة ٢٩)

يجوز لإدارة المعارف أن تشترك مع إحدى البعثات الأثرية للتحرى عن الاثار فى موقع ما . كما يجوز لهذه الإدارة أن تقدم مساعدة مالية إلى بعض البعثات التى لا تكفى مواردها للقيام بأعمالها ، إذا ثبت أن هذه الأعمال ذات أهمية علمية كبرى .

(مادة ٣٠)

تدرج فى اجازات الحفائر التى تمنح إلى البعثات الأجنبية الأمور الآتية : —

(ا) شروط إسهام إدارة الآثار علميا وفنيا وماليا ، إذا كان يوجد ثمة مثل هذا الإسهام .

(ب) تحديد الموقع الأثرى المراد إجراء التنقيب فيه .

(ح) أسماء العلماء الاختصاصيين رئيس وأعضاء البعثة .

(مادة ٣١)

إذا خالف صاحب الاجازة فى الحفائر أى شرط من شروط تعهده الواردة فى المادة (٢٨) من هذا القانون ، فلإدارة المعارف أن توقف حفائره وتسحب إجازته . وإذا انقطع خلال موسمين فى سنتين متلاحقتين دون عذر مقبول على مواصلة حفائره ، فلإدارة المعارف اعتبار إجازته ملغاة .

(مادة ٣٢)

تكفل إدارة المعارف حقوق الملكية العلمية ، عن نتائج الحفائر التى تجريها البعثات الأثرية الأجنبية ، وتحفظ لها حق الأسبقية فى نشر كل المعلومات عن الآثار التى تكشفها ، وذلك خلال خمس سنوات بعد اكتشاف هذه الآثار . وإذا انقضت هذه المدة دون أن تقوم البعثات بنشر مكتشفاتها جاز لإدارة المعارف أن تنشر كل ما توافر لديها من معلومات عن الآثار المذكورة وأن تكلف غير المكتشف بنشرها .

(مادة ٣٣)

تكون جميع الآثار التى تعثر عليها البعثات الأثرية ملكا للكويت ، وتودع هذه الآثار فى المتحف لتؤلف فيه مجموعات تامة تمثل مدنيات المنطقة وتاريخها وفنونها . ويجوز أن تعطى البعثات الأثرية مكافأة على أتعابها : بعض الآثار المنقولة أو مجموعة منها ، يمكن لإدارة المعارف أن تستغنى عنها لمماثلتها من حيث المادة ، والصنعة والدلالة التاريخية والقيمة الفنية ، لبعض الآثار المكتشفة خلال الحفائر نفسها ، والتى أودعت المتحف ، وذلك بعد نشر كل المعلومات العلمية المتعلقة بها .

(مادة ٣٤)

تسمح إدارة المعارف للبعثات الأثرية الأجنبية أن تستعير موقتا بعض الآثار التى تكتشفها ، ويجب أن تكون الآثار المعارة متينة ، تحتمل السفر ، وأن تكون دراستها متعذرة فى الكويت .

كذلك يجوز لإدارة المعارف أن تسمح بإخراج بعض الآثار الكويتية إلى البلاد العربية والأجنبية ، إخراجاً موقتاً ، على سبيل الدعاية لحضارة البلاد ، والتعريف بثرواتها الأثرية ، والإسهام فى المعارض والمناسبات الدولية المختلفة .

الفصل الخامس - تجارة الآثار وتصديرها

(مادة ٣٥)

تشرف إدارة المعارف على تنظيم الاتجار بالآثار لمنع تسرب آثار البلاد خارج الحدود ، وتوفير الإمكانيات لنشوء ونمو المجموعات الأثرية المودعة فى المتاحف .

(مادة ٣٦)

لايجوز لأحد أن يتجر بالآثار مالم يحصل على رخصة رسمية بذلك من إدارة المعارف . والرخصة فردية ، ومدتها سنة قابلة للتجديد ، ويجب أن تكون الآثار التى يتجر بها مسجلة ، أو أجيز التصرف بها وإذا ظهرت فى حوزة التاجر آثار غير ذلك ، صودرت وأحيل التاجر إلى القضاء .

(مادة ٣٧)

يحق لممثلى إدارة المعارف الدخول إلى حوانيت التجار ، وتفتيشها ويجب على التجار المذكورين ، التقيد بالتعليمات التى تصدرها إدارة المعارف .

(مادة ٣٨)

يمنع تصدير أى أثر من الآثار إلى خارج الحدود ، إلا إذا أجازت ذلك إدارة المعارف ، بترخيص خاص ، وبعد تأكدها من أن الآثار المنوى تصديرها لن تؤدى إلى إفقار التراث الكويتى الثقافى ، وأنه يوجد ما يماثلها فى المتاحف ويمكن الاستغناء عنها .

(مادة ٣٩)

لإدارة المعارف أن تجيز التصدير ، أو أن ترفضه ، أو أن تبتاع ما تشاء من الآثار التى يراد تصديرها بسعرها الذى ثبت فى طلب التصدير . إلا أنه يترتب على الإدارة المذكورة أن تعطى اجازة تصدير للآثار التالية : —

(ا) الآثار التى تقرر تبادلها مع المتاحف والهيئات العلمية خارج الكويت .

(ب) الآثار التى خصصت لبعثة علمية على أثر حفائر رسمية ، أو الآثار التى أعيرت لتدرس إعارة مؤقتة .

(مادة ٤٠)

يجب على طالب تصدير الآثار أن يغلف الآثار المراد تصديرها ، ويجعلها فى صندوق خاص ، ويختم الصندوق بالرصاص بخاتم المعارف .

(مادة ٤١)

على موظفى الجمارك والبريد وسلطات الأمن مصادرة كل أثر لايحمل صاحبه اجازة بتصديره ، ثم تسليم المصادرات إلى إدارة المعارف .

الفصل السادس — العقوبات

(مادة ٤٢)

يعاقب بالسجن مدة لاتقل عن سنة ولا تجاوز خمس سنوات ، وبغرامة نقدية ، لا تقل عن ١٠٠٠ روبية) ولاتجاوز (١٠,٠٠٠ روبية) ، أوبإحدى

هاتين العقوبتين ، كل من أتلف قصداً أثراً منقولا مسجلا ولو كان هذا الأثر فى ملكه وتحت تصرفه ، وكل من هدم بناء تاريخيا أو موقعا أثريا مكتشفا ، وكل من اعتدى على بناء تاريخى أو على موقع أثرى ، مخالفا بذلك أحكام المواد (٨ و١٣ و١٤) من هذا القانون .

(مادة ٤٣)

يعاقب بالسجن مدة لا تقل عن شهر ولا تزيد عن سنة ، وبغرامة نقدية لاتقل عن (٥٠٠ روبية) ولا تزيد عن (١٠٥٠ روبية) ، أو بإحدى هاتين العقوبتين ، كل من كان ملزما بإخبار السلطات عن اكتشاف أثر من الآثار وأحجم عن أداء هذا الواجب ، وكل من مارس التنقيب عن الآثار أو ساعد أو حرض على ذلك دون اجازة ، وكل من اتجر بالآثار ، وكل من صدر أو حاول أو ساعد على تصدير الآثار دون رخصة ، مخالفا بذلك أحكام المواد (٢١ ، و٢٥ ، و٣٦ ، و٣٨) من هذا القانون .

(مادة ٤٤)

يعاقب بالسجن مدة لاتقل عن أسبوع ولا تزيد عن شهر ، وبغرامة نقدية لاتقل عن (١٠٠ روبية) ولا تزيد عن ٥٠٠ روبية) ، أو بإحدى هاتين العقوبتين كل من زيف أثراً ، وكل من شوه موقعاً أثرياً أو بناء تاريخياً بالحفر أو الكتابة أو الدهان ، أولصق عليها إعلانات أو وضع لافتات ، وكل من اقتنى آثار مسجلة ، وكل من أهدى أو باع أثراً مسجلا كان فى حوزته ، وكل من استورد أثراً من الخارج ، ولم يخبر بذلك إدارة المعارف خلال ثلاثة أيام ، وكل من نقل آثاراً من مكان إلى آخر ، أو أخذ أنقاضا أثرية دون رخصة ، وكل من دخل إلى المتاحف والأماكن

الأثرية دون التقيد عمدا بالبلاغات والأوامر المعلن عنها ، مخالفا بذلك أحكام المواد (٨ ، و١٥ ، و١٩ ، و٢٠ ، و٢٢ ، و٢٣) من هذا القانون .

(مادة ٤٥)

ينشر هذا القانون فى الجريدة الرسمية ، ويعمل به من تاريخ نشره ، وتصدر القرارات اللازمة لتنفيذه من رئيس المعارف .

أمير الكويت

عبد الله السالم الصباح

صدر بقصر السيف يوم الخميس ١٩ شوال سنة ١٣٧٩
الموافق ١٤ أبريل سنة ١٩٦٠

مذكرة تفسيرية للقانون الخاص بالآثار

لا بد من إصدار قانون خاص بالآثار يعمل به فى الكويت ، بعد الاكتشافات الأثرية الهامة التى أخذت تتتابع فى الأراضى الكويتية منذ بضع سنوات ، وعلى أثر نشوء متحف ، لإيجاد متحف كبير ، فى المستقبل القريب ، يليق بنهضة البلاد الحالية .

وينسجم هذا القانون مع القوانين الأثرية الحديثة المعمول بها فى الدول العربية ، ومع مشروع قانون الآثار الموحد الذى أقره المؤتمر العربى الثالث للآثار المنعقد فى مدينة فاس من المغرب العربى ، بين ٨ — ١٨ نوفمبر من سنة ١٩٥٩ ، كما أنه متفق مع أحكام (الاتفاقية الدولية لحماية الأبنية الثقافية فى حالة وقوع نزاع مسلح) التى وقعت فى مدينة (لاهاى) من هولاندا ، فى ١٤ مايو من سنة ١٩٥٤ ، ومع بنود (التوصية المحددة للمبادئ الدولية الواجب تطبيقها فيما يتعلق بالحفائر الأثرية) التى أقرتها الجمعية العامة لليونسكو فى تاسع دورة عقدتها فى اليوم الخامس من شهر ديسمبر عام ١٩٥٦ ، فى (نيودلهى) من الهند .

ثم إن القانون المذكور ، يراعى ، إلى التزامه المبادئ العامة فى التشاريع المشار إليها ، الأوضاع الكويتية المحلية ، ويعمل على التوفيق بين هذه المبادئ ، وبين الحالة الراهنة للآثار فى الكويت ؛ متوخيا المحافظة على كل أجزاء التراث الثقافى لهذه البلاد ، وصيانة مواقعها الأثرية وأبنيتها التاريخية ، والمساعدة على نشوء مجموعاتها الأثرية فى متاحفها وإنمائها ، ونقل كل ذلك إلى الأجيال الصاعدة .

وقد نصت مواد الفصل الأول (١ — ٨) من القانون ، على حماية حكومة الكويت لتراثها الثقافى ، وأناطت بإدارة المعارف مهمة القيام بهذه

الحماية ، وأوضحت مجال الأعمال الأثرية المقبلة ، وعرفت الآثار بأنها كل ما صنعه الإنسان ، أو أنتجه أو شيده قبل أربعين سنة ميلادية . ويبرر اتخاذ هذه المدة كمقياس لتحديد صفة الأشياء الأثرية ، أن البلاد تتطور بسرعة مدهشة ، وأنه لا يمكن الانتظار مدة أطول ليجمع مخلفات ماضيها البعيد والقريب ، وأن الأولى إنقاذ كل ما يمكن إنقاذه من الذكريات المادية الكويتية السالفة ، منذ الآن . كما أن أبواب المدينة وأسوارها التى تعد من أجمل أبنيتها التاريخية ، يعود زمن إنشائها بشكلها الحالى إلى تاريخ سنة ١٩١٩ ميلادية . وقد قسم هذا الفصل الآثار إلى نوعين : — منقولة وغير منقولة لاختلاف التدابير القانونية وأعمال الصيانة الواجب تأمينها إلى كل منهما ، ثم تعرض ، إلى ملكية ما يوجد من الآثار فى باطن الأرض ، فاعتبرها من أملاك الدولة العامة ، ولم يرد إخضاع الآثار الظاهرة على سطح الأرض إلى مثل ذلك ، وترك إدارة المعارف تتحمل نفقات استملاك ما هو هام منها ، وأجاز هذا الاستملاك ووفر وضمن مستقبل الآثار وحظر إتلافها وإلحاق الضرر بها .

وعرفت مواد الفصل الثانى (٩ — ١٦) من القانون نوع الرعاية الواجب على إدارة المعارف تأمينها للآثار غير المنقولة (المواقع الأثرية والأبنية التاريخية) ، وأوضحت معنى تسجيل هذه المواقع والأبنية ، وكيفية القيام بالتسجيل المذكور ، وصانت حقوق أصحاب المواقع والأبنية المسجلة التى لم تستملك ، فأوجبت التعويض عليهم ، وحصرت حق ترميم المواقع والأبنية بإدارة المعارف ، ونظمت شروطا خاصة لارتفاع الأبنية الحديثة حول المناطق الأثرية والأبنية التاريخية للمحافظة على بيئاتها الخاصة ، وأوجبت على دوائر الأشغال العامة وغيرها ، أن تلحظ مواقع الآثار فى تصاميم التنظيم التى تعدها ، كما أوجبت على سلطات الأمن أن تساعد إدارة المعارف على صيانة كل أجزاء التراث الثقافى الكويتى فى زمن السلم والحرب ، توفيقا

مع ما هو مثبت فى الاتفاقية الدولية لحماية الممتلكات الثقافية لدى وقوع نزاع مسلح .

وتعرضت مواد الفصل الثالث (١٧ – ٢٣) من القانون إلى الآثار المنقولة فأوجبت أن تحفظ هذه الآثار فى متحف الكويت والمتاحف الأخرى التى تنشأ في المستقبل وأجازت للأفراد أن يقتنوا بعض الآثار المذكورة ، شريطة أن تكون مقتنياتهم معروفة ، ومسجلة لدى إدارة المعارف ، ومنحت المواد المشار إليها من يملك حاليا بعض الآثار ، مهلة كافية للقيام بعملية تسجيلها وتركت حرا بيع هذه الآثار ، على شريطة ن يظل اسم من تدخل فى حوزته معروفا لدى إدارة المعارف . ثم نظمت مواد هذا الفصل بالشئون المختلفة الناتجة عن اكتشاف الأفراد لبعض الآثار بطريق الصدفة ، أو استيرادهم لها من الخارج ، فأوجبت التصريح عن ذلك ؛ ووضعت مكافأة نقدية مناسبة تعطى للمكتشف فى حالة إبداء إدارة المعارف رغبتها بحفظ الآثار المكتشفة فى المتاحف. وأخيراً حظرت تحوير الآثار ، وترميمها ، ونقلها من مكان إلى آخر دون ترخيص إدارة المعارف ؛ لأن هذه الأعمال تعرض الآثار إلى إمكان فقدها قيمتها أو للتلف والكسر ، إذا جرت دون مشورة الرجال الاختصاصيين .

وفى مواد الفصل الرابع (٢٤ – ٣٤) من القانون الأحكام المتعلقة بالحفائر الأثرية . وقد أوضح المقصود من هذه الحفائر ، وحصر حق إجرائها بإدارة المعارف والهيئات العلمية والعلماء المختصين الذين تسمح لهم الإدارة المذكورة بذلك ، بعد إصدار اجازة خاصة ، وصينت حقوق الأفراد الذين قد تجرى الحفائر فى أراضيهم ، وعينت الشروط الواجب تقييد البعثات الأثرية الأجنبية بها لكى يؤتى التعاون العلمى بين الكويت وبين هذه البعثات ثماره المرجوة من تسجيل حياة الماضى تسجيلا صحيحا ، وضمان حصول المتاحف الكويتية على مجموعات أثرية تامة تكون ممثلة

لمدنيات الكويت وتاريخها وفنونها ، والمحافظة على حقوق البعثات الأثرية ، وخاصة على حقوقها فى الملكية العلمية ، وكفالة مستقبل الحفائر الأثرية فى منطقة الكويت ، بما تمنحه حكومتها من مساعدات مختلفة تقيم الدليل على رغبتها الأكيدة بالإسهام الفعلى فى النشاط العلمى العالمى .

ثم إن مواد الفصل الخامس (٣٥ ــ ٤١) من القانون تتعرض إلى أحكام مختلفة ، تتعلق بإشراف إدارة المعارف على تنظيم الاتجار بالآثار ، وعلى تصدير هذه الآثار إلى خارج الحدود . وتوجب هذه الأحكام على تجار الآثار الحصول على رخصة رسمية بالاتجار ، وتجيز ممثلى إدارة المعارف بتفتيش حوانيت التجار المشار إليهم ، وتقيد هؤلاء بالتدابير التى تراها إدارة المعارف ضرورية لتأمين حق الأولوية للمتاحف فى شراء الآثار التى يتجر بها ، ولمنع تصدير الهام منها خارج الحدود الكويتية ، ولتنظيم شروط هذا التصدير تحت مراقبة السلطات المعنية .

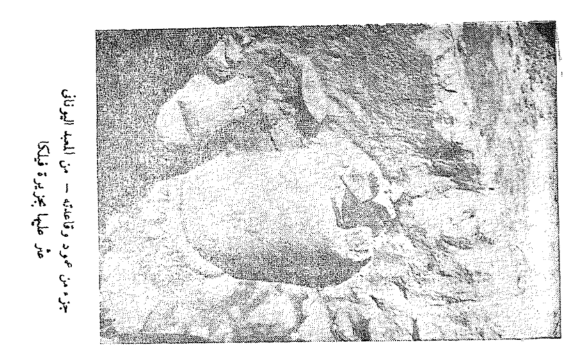
وأخيرا فإن مواد الفصل السادس (٤٢ ــ ٤٤) من القانون تنص على ثلاثة أنواع من العقوبات بالسجن والغرامات النقدية ، الواجب تطبيقها على المخالفين للأحكام التى سبقت الإشارة إليها .

لوحة رقم ١ – آثار الكويت



صور أختام حجرية من العصر البرونزي القديم – عثر عليها في جزيرة فيلكا

لوحة رقم ٢ ـ آثار الكويت



جزء من عمود وقاعدته – من المعبد اليوناني
عثر عليها بجزيرة فيلكا

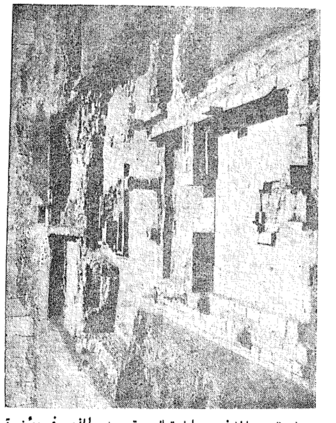


رأس تمثال حجري
عثر عليه بجزيرة فيلكا

لوحة رقم ٣ — آثار الكويت



أحد أعمدة المعبد والتاج على الطراز الأيونى
اليونانى من القرن الثالث ق . م . عثر عليه بجزيرة فيلكا



منظر للمعبد الهلينى من الجهة الغربية ويبدو المذبح فى مؤخرة
الصورة — عثر عليه فى جزيرة فيلكا

تقرير المملكة الليبية

عن النشاط والإنجازات الآثارية بها

إعداد : الأستاذ سليمان أيوب . مراقب الآثار

تعتبر ليبيا منذ أقدم العصور الجسر الذى عبرت عليه الحضارات المتتالية من شرق العالم العربى إلى غربه والعكس ، وهى بحكم موقعها الجغرافى المتوسط كانت البودقة التى انصهرت فيها مدنيات المشرق والمغرب طوال عصور التاريخ ؛ هذا فضلا عن أنها كانت موطناً لأقدم الحضارات الإفريقية التى تركت آثارها على صخور « الأتاكوس » ووادى « برجوج » .

فنى عصور ما قبل التاريخ حيث كان الجو مختلفاً عما هو عليه اليوم إذ كانت الأمطار أكثر غزارة والنبات أكثر كثافة وكانت الوديان التى نراها اليوم فى الصحراء تفيض بالمياه ، كان صيادو العصر الينوليتى يعبرون تلك المناطق بحيواناتهم الكثيرة ، وعندما تغير المناخ وانقطعت الأمطار بالصحراء وجفت الوديان هاجر الرعاة إلى وادى النيل شرقاً وإلى شمال إفريقيا غرباً بينما سكن قسم منهم الواحات بالصحراء الليبية . وأصبحت تلك الواحات مرتعا لنشاط حضارى كبير اعتمد على مركز البلاد الجغرافى كحلقة اتصال بين شواطئ البحر الأبيض المتوسط ووسط إفريقيا .

وكان من ضمن القبائل التى ورد ذكرها فى كتابات « هيرودوت » الذى عاش فى القرن الخامس ق . م قبيلة الجرمانت التى عاشت فى دواخل ليبيا والتى ملكت الصحراء ، ونكاد نجهل للآن أصل تلك القبيلة وإن كانت الأساطير الإغريقية تشير إلى أنهم جاءوا من ساحل البحر (خليج تريتونس) . ونستنتج من خلال ما كتبه أدباء العصر الكلاسيكى من أمثال بلينى واسترابو وغيرهم من أن مملكة الجرمانتين قد مرت بخمس مراحل وهى :

العصر الهومرى : وهى فترة ما بين استقرار الجرمانتيين لواحات فزان حتى القرن الثانى قبل الميلاد .

عصر الكفاح ضد روما : من القرن الثانى ق . م حتى القرن الأول الميلادى .

العصر الذهبى : من القرن الأول الميلادى حتى القرن الخامس الميلادى .

عصر الاضمحلال : من القرن الخامس الميلادى حتى الفتح الإسلامى .

وقد ورد ذكر جرمة لدى الكثيرين من الكتاب نذكر منهم ابن عبد الحكم الذى أورد ذكر فتح عقبة ابن نافع لجرمة . وظلت جرمة فى العصر الإسلامى مركزاً تجارياً هاماً وأن لم تبلغ من الأهمية ما بلغته قبل الإسلام حتى اضمحلت تدريجياً نتيجة لعدة عوامل سيرد ذكرها فيما بعد .

وكانت البعثة الإنجليزية (رنهام) (كلابرتون) (أورنى) ١٩٢٢ هى أول من سجل وجود جرمة القديمة للعالم الأوربى ، وقد تعاقبت البعثات خلال القرن التاسع عشر من الفرنسيين (دوفرييه) والألمان (بارث) وغيرهم ؛ وقد قاموا جميعاً بتسجيل الكثير من الآثار الموجودة بجرمة ، ثم توجت هذه الجهود أخيراً سنة ١٩٣٤ ببعثة أرسلتها الجمعية الجغرافية الملكية الإيطالية فى ذلك الوقت برآسة البرفسور سيرجى وعضوية الدكتورين كابوتو وبيشى ، وقد قامت تلك البعثة بتسجيل الكثير من المناطق الأثرية بفزان كما أنها قامت بحفريات على نطاق محدود .

وقامت مصلحة الآثار خلال العام الماضى بحفريات هامة فى منطقة جرمة شملت المدينة القديمة حيث عثرت على بقايا معبد هو أكبر ما عرف فى الصحراء من مبان من هذا النوع وهو مشيد من قوالب كبيرة من الحجارة المنتظمة كما تبين للمسئول عن الحفريات بما لا يدعو مجالا للشك

بأن المقبرة الكبرى هي مقبرة الأسرة المالكة ، وكذلك قامت بحفريات في منطقة زنككرة الواقعة على حافة الهضبة الجنوبية للحمادة وتمكنت من تحديد المستقر الأول للجرمانتيين والذى يرجع للقرن الثامن قبل الميلاد ، كما عثرت على مقبرة ترجع للقرن الرابع الميلادى وهى تعاصر العهد الرومانى بالساحل الليبى . وعثرت المصلحة على عدد لا بأس به من القطع الأثرية من ضمنها عدد كبير من الفخار وبعض القطع من الذهب وعدد كبير من عقود الزينـــة وغيرها وقد أودعت جميعاً متحف سبها الأثرى .

وتدل هذه المخلفات على أن الجرمانتيين كانوا رسل حضارة كما أنهم في الوقت نفسه مارسوا التجارة في البر في نفس الزمن الذى بدأت فيه المستقرات الفينيقية على الساحل الليبى ، وقد أقام الجرمانتيون مخازن كبرى لتجارتهم فى الواحات بالداخل وازدهرت تلك المراكز فى القرنين الثانى والثالث التى تعتبر ضمن العصر الذهبى بمملكة جرمة .

ولقد أولى الجرمانتيون الزراعة عناية كبرى فبنوا الفنارات ، وهى سلسلة من الآبار المتصلة بقنوات جوفية ، والغرض منها توفير أكبر كمية من المياه للزراعة ، ولقد دلت الدراسات التى أجريت بوادى الآجال بفزان أن مساحة الأرض المزروعة كانت كبيرة وتدل المخلفات على علو كعبهم فى الصناعات المختلفة لا سيما الصناعات الدقيقة ، وربما كان ظهور الجمل فى الصحراء الإفريقية أحد أسباب انهيار مملكة الجرمانتيين ؛ فمن المعروف أن ملوك جرمة كانوا يجهلون هذا الحيوان وكانوا يستعملون الخيول التى عنوا بتربيتها واستعمالها فى جر العربات ، كما لم يعثر بمنطقة جرمة على أى أثر للجمال فى العصور الأولى للمملكة ، ولم يشر الكتاب الكلاسيك له كأحد الحيوانات ببلاد الجرمانتيين . فكان لظهور هذا الحيوان أثره فى الانقلاب الاقتصادى الذى نشأ نتيجة لظهور قبائل الجمالة التى كان فى

إمكانها قطع مسافات كبيرة على ظهر الإبل لا تستطيع الخيول والعربات قطعه ، وربما هاجمت هذه القبائل جرمة نفسها فى أواخر القرن الخامس الميلادى إذ تبدو آثار الحرائق بادية بوضوح على بقايا جدران معبد جرمة .

تدل الشواهد على أن ديانة الجرمانتيين كانت خليطاً من العقائد المصرية والقرطاجنية إذ وجدت رموز دينية تدل على عبادة الشمس وأخرى تدل على عبادة الإله تانيت كما كانت لديهم عقيدة عن البعث والعالم الآخر .

وظلت جرمة على الرغم من عوامل الفناء مدينة لها قدرها وأهميتها حتى الفتح الإسلامى ، وقد عددها ابن عبد الحكم المؤرخ العربى المعروف ضمن البلاد التى فتحها عقبة بن نافع أثناء غزوه لفزان .

ولا زالت مصلحة الآثار بليبيا تتابع حفرياتها الهامة لهذه المنطقة ؛ تلك الحفريات التى ستؤدى يوماً ما إلى ملء الفراغ الشاغر حالياً بين تاريخ المشرق العربى ومغربه الكبير .

تقرير المملكة المغربية

عن المواقع الأثرية فى شمال المغرب

إعداد : الأستاذ أحمد المكناس . محافظ الآثار القديمة

يمتاز شمال المغرب بتنوع مواقعه الأثرية الهامة ، التى تتجسم فيها جميع العصور التاريخية الغابرة ، مما قبل التاريخ إلى عصر الفتوحات الإسلامية واستقرار الحضارة العربية فى جميع نواحى البــلاد المغربية من سهول وجبال وصحراء .

ولقد دلت جميع الاكتشافات الأثرية ، خصوصاً فى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق وسهل المحيط الأطلسى على وجود مراكز غنية بالآثار المختلفة الأهمية ، منها ما يرجع عهده للعصر الحجرى القديم والحجرى الجديد وللمستعمرات الفينيقية وللحضارة الموريطانية — القرطاجنية والرومانية والإسلامية ، الشىء الذى لفت نظر المشتغلين بالآثار الذين وجهوا عنايتهم الكاملة للتنقيب ودرس هذه الذخيرة النفيسة ، وذلك منذ النصف الثانى من القرن الماضى .

وبالفعل ابتدأت منذ سنة ١٨٤٥ م حملات اكتشافية عن هذه المواقع الأثرية العديدة من طرف بعض الرحالة الأوربيين وعلماء التاريخ الذين أثبتوا فى تقاريرهم ومذكراتهم معلومات وأخباراً عن وجود بعض المراكز بها بقاياومخلفات أثرية قديمة مستعينين ببعض النصوص الإغريقية واللاتينية التى تشير إلى بعض أسماء المدن العتيقة المغربية التى يرجع عهد تأسيسها إلى الزيارات الأولى للفينيقيين بشواطئ المغرب . وبفضل تلك المعلومات الأولية التى توصلنا بها بواسطة المراجع التاريخية ، قام جيل علماء الآثار فى الوقت الحاضر ، بحملات اكتشافية علمية مركزة على الأساليب الفنية العصرية للتنقيب وحفر تلك المراكز ، فكان ملخص ما اكتشف ، منذ

سنة ١٩٢٥ إلى يومنا هذا ، مدناً مثل تمودة الواقعة على بعد ٥ ك . م من تطوان ومدينة الشمس (ليكسوس) على بعد ٤ ك . م من مدينة العرائش ، وكوطة قرب رأس اسبرطيل بناحية طنجة ، واد ميركورى قرب مدينة أصيلا ، وطبرنى بين أصيلا والعرائش ، وقصر مصمودة على شاطئ بوغاز جبل طارق ، وتيكيساس بغمارة وبادس والنكور والمزمة وغصاصة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بإقليم الريف .

فالمجموعة الأولى التى تتكون من مدينتى تمودة وليكسوس تعتبر من الآثار الهامة ، وقد أظهرت عمليات الحفر بين أطلالها وفى طبقاتها الأرضية المختلفة أهمية كلتى المدينتين إذ استطعنا جمع نماذج كسرات الفخار الأحمر الفينيقى العتيق من عمق يبلغ خمسة أمتار ، ثم يليه فى الطبقات العلوية الفخار الأسود المعروف باسم (الكمبنين) ، بشكليه أ و ب ، ثم يليه مباشرة الخزف الرومانى الذى اشتهر باسم (طيرا سيجيلاطا) أى الفخار المطبوع ، بجميع أصنافه وألوانه . هذا بالإضافة إلى نماذج وتماثيل أخرى رخامية وبرونزية وفسيفساء ملون به رسوم هندسية جميلة وحيوانية وبشرية .

وقد استطعنا منذ سنة ١٩٥٠ جمع هذه الثروة الأثرية المختلفة فى المتحف الإقليمى بتطوان بقصد دراستها وعرضها على الزوار .

أما المجموعة الثانية التى تتكون من أد ميركورى وكوطة وطبرنى فهى من المؤسسات الرومانية إلا أن بعض طبقاتها السفلى كشفت لنا فى بعض الأحيان عن بقايا أثرية يرجع عهدها إلى العصر الموريطانى — البونيكى والتى تتجلى حضارتها بوضوح فى تمودة وليكسوس .

والمجموعة الثالثة والأخيرة هى التى تضم قصر مصمودة وتيكيساس وبادس والنكور والمزمة وغصاصة ، وكلها مدن صغيرة أسسها المغاربة القدماء . ويمكننا تحديد تأسيسها بعد سقوط الحكم الرومانى فى شمال المغرب ، أى بين القرن الخامس والسادس الميلاديين . وازدهرت بعض تلك المدن مع

الفتح الإسلامى ، وتأسس البعض الآخر مع الفاتحين العرب : لقد لفت نظرنا منذ اللحظة الأولى ، عند بداية عملنا فى حفر تلك المدن (سنة ١٩٥٧) قصر مصمودة الواقع فى وسط شاطئ البوغاز . وذلك لأهمية هذا الموقع الاستراتيجى المقابل لعدوة الأندلس ، ولتاريخه الحافل فى هذه الناحية من بلادنا :

وضع أسسه رجال من قبائل مصمودة الأماجد وسمى باسمهم ، ثم أطلق عليه مؤرخو العرب مثل ابن حوقل وابن خلدون اسم « قصر الأول » ، نسبة لمؤسسيه الأولين والرومان الذين ربطوا به ، جاعلين منه مركزاً هاماً لرقابة شاطئ البوغاز . وسمى كذلك بقصر المجاز لأنه كان موضعاً ممتازا لتجمع الجيوش الموحدية وعبورها إلى عدوة الأندلس ، وفى الأخير سمى بالقصر الصغير لتمييزه عن القصر الكبير (قصر كتامة) الواقع فى جنوب هذه الناحية .

وتحكى لنا مصادر التاريخ أن تأسيس قصر مصمودة كرباط للجهاد يرجع إلى رابع أمراء الدولة الموحدية يعقوب المنصور ، كما أن كتاب القرطاس من جهته ينص على أن السلطان المرينى أبا يعقوب هو الذى شيد أسواره سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧ م) ، ويتأكد هذا القول فى الخصائص المعمارية لما هو ظاهر فى بقايا الباب الكبير « باب البحر » الذى يوجد وسط القلعة التى شيدها البرتغاليون حينما استولوا على هذا القصر سنة ١٤٥٨ م وجعلوا منه معسكرا لحماية مواصلاتهم البحرية و البرية التى كانت تربط سبتة وطنجة . ولكن سرعان ما اشتد على البرتغاليين حصار القبائل المجاورة لهم فأرغموا على الانسحاب بعد أن خربوا المدينة تخريباً كلياً (سنة ١٥٤٠ م) ، وبقى قصر مصمودة منذ ذلك الحين بلقعا يبابا .

وتستحق هذه المدينة الأثرية النموذجية عناية خاصة من طرفنا ، لأنها تنطوى على عصور مختلفة أهمها تلك العصور الإسلامية التى عاشتها باتصال

مباشر مع الأندلس زمن الفتوحات والانتصارات الموحـدية فى شبه الجزيرة الأيبرية :

وقد طبقنا فى عملية حفر آثارها الطريقة الفنية الحديثة بفتح حفر متسعة وترتيب طبقاتها الأرضية لجمع الأدوات المستخرجة أثناء الحفر ، وهكذا استطعنا جمع نماذج الفخار والخزف وفرزه ودراسته دراسة شاملة مع تحديد عصوره التاريخية وعلى هذا المنوال تعمقنا فى باطن الأرض حتى أن وصلنا إلى الأرض البكر الخالية من البقايا الأثرية . وتبينت لنا فى هذه العمليات ثلاث طبقات رئيسية : الأولى توجد فى عمق يبلغ أربعة أمتار ، وهى الطبقة التى تحتفظ ببناء التأسيس وبنوع الفخار القديم بغير مينا مزخرف بعصائب من دهان أسود اللون أو مائل إلى الحمرة أحياناً . وفوق هذه الطبقة طبقة ثانية اتساعها متران تقريباً وتحتفظ ببقايا البنيان الموحدى والمرينى وبالخزف الإسلامى المغربى الأندلسى الجميل الذى كان يستورد بعضه من مصانع مالقة وأشبيليا وقرطبة وغرناطة ، وهو مختلف الصنع والنمط حسب الشكل والمواد التى كان يصنع بها ، أقدمه يرجع عهده إلى الخلافة الأموية بقرطبة وبعضه الآخر بعد هذه الخلافة ، زمن ملوك الطوائف إلى عصر دولة بنى نصر بغرناطة .

ونماذجه الرئيسية هى : نموذج نسميه « بالعسلى » للون المينا المدهون بها فهى تشبه كثيراً لون العسل ، ويظهر هذا الخزف أحيانا مختلطا بالفخار القديم الذى سبقت الإشارة إليه ، وألوانه هى : أصفر فاتح ، أصفر غامق وبنى فاتح وبنى غامق وأخضر زجاجى فاتح ؛ واللونان الأصفر والبنى يكثر فى الطبقة الثانية المذكورة مزدانا بعصائب وزخاريف هندسية بسيطة وفى بعض الأحيان بكتابة يصعب قراءتها . وأدهشتنا كثيراً وفرته فى تنقياتنا بقصر مصمودة وغيرها من المدن الآنفة الذكر ، إذ كانت صناعته جد شائعة فى الدولة الإسلامية الغربية ، خصوصا فى المغرب والأندلس . وكانت الأوانى المصنوعة

منه عبارة عن أوانى منزلية صغيرة ومتوسطة الحجم تستعمل بكثرة فى المطبخ والمائدة .

وبعد هذا النوع يأتى مباشرة خزف رفيع اشتهر فى بلاد الأندلس باسم « الحبل اليابس » (Cuerda seca) الذى يرجع تاريخ صنعه إلى ما بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين ، وقد أفرزنا بين كسراته العديدة نوعين مختلفين ، الأول بدائى خشن والثانى متقن الصنع فيما يرجع لطينه وشكل زخاريفه وألوانه . وقد عثر على كسراته فى بجاية بالجزائر وفى قلعة بنى حماد الشهيرة ، وفى المغرب : فى فاس وتمارة وشلا (قرب الرباط) وفى مراكش : أما ما وقع العثور عليه فى مدينة سلا فهو أهم ، ومن المرجح أن يكون أصل هذا الخزف من المشرق ، وبلغ فى العصر الوسيط من الروعة الزخرفية شأوا عاليا . وعاد هذا الفن الخزفى للظهور فى أيامنا هذه ، فى جهات عديدة من أسبانيا . واختار منه الأستاذ الاسبانى غوميث مورينه وكذلك الفنان غونثالث مرطى صنفين من حيث شكله الزخرفى : يتكون الأول بإحاطة الآنية كلها بشبكة من الحبل اليابس وتعمير فجواتها بالمينا والآخر بتعمير هذه العناصر بالغشاء الملون فقط .

وعثرنا كذلك على نوع آخر منحدر من هذا الخزف صنع فى القرن الثانى عشر وامتد إلى حدود القرن الرابع عشر ، وتزينه أشكال نباتية بالمينا الخضراء على رقعة بيضاء . وكان هذا النوع معدا للاستعمال العادى ، أما الألوان المستعملة فى صنع الحبل اليابس هى : الأبيض القصديرى ، والأخضر الزمردى ، والأصفر الطينى ، والبنى الغامق ، والأخضر الزجاجى ، والأزرق .

وبعد هذه الطبقة الغربية الغنية تأتى الطبقة الأولى التى تنقسم إلى قسمين : القسم الأول يحتوى على بقايا الفخار المنقوش بالقوالب والذى كان يوضع فى الفرن مرة واحدة ، وهذه الطريقة كانت تستخدم لصنع القطع ذات

الحجم الكبير من سيافات الآبار وخوابى كبيرة وجرار وأوان ذات شكل دائرى ، وأشكالها الزخرفية هى عادة أزهار ورسوم هندسية ونجوم وكتابة بالخط الكوفى وأسماء أعلام فى بعض الأحيان . وقد ظهر هذا النوع فى المغرب وأسبانيا منذ القرن الثانى عشر ودام حتى أواخر القرن الخامس عشر . وهو الذى كان سائدا فى العهد الغرناطى كله ، وكان شائعا دهن هذا الفخار المنقوش بالمينا الخضراء وبجانبه عثرنا على خزف أخضر به نقوش دائرية وأخرى تشبه جوزة الأناناس .

القسم الثانى من هذه الطبقة ، الموجود على سطح الأرض ، هو عبارة عن بقايا أثرية برتغالية ممزوجة بالآثار العربى المتأخر ، ويظهر بواسطته وبوضوح كيف تخربت المدينة من طرف البرتغاليين فى أواسط القرن السادس عشر .

هذا ملخص اكتشافاتنا فى المدن الأثرية الواقعة فى شمال المغرب ، وسنواصل بحول الله الجهود فى خدمة الآثار العربية فى بلادنا حتى نبرز للإخصائيين ولعموم أفراد الشعب أهميتها ومكانتها بالنسبة لماضينا المجيد .

تقرير منظمة اليونسكو

عن نشاطها في مجال الآثار

بالنيابة عن منظمة اليونسكو لى الشرف أن أعبر عن تقدير المنظمة للدعوة التى وجهتموها إليها مرة أخرى لانتداب أحد أعضائها للاشتراك فى مؤتمر الآثار فى البلاد العربية — حصل أن حظيت بتمثيل اليونسكو فى المؤتمر الثالث الذى عقد فى المغرب فى نوفمبر ١٩٥٩ وإنه لمن دواعى الاغتباط حقاً أن أجد نفسى ثانية بين الزملاء الذين أصبحت تربطنى ببعضهم أواصر الصداقة المتينة منذ زمن بعيد .

إن أغلبكم يعلم أيها السادة المحترمين برامج أعمال اليونسكو فى مضمار صيانة الآثار القديمة وتطور المتاحف ، فبعض هذه الأعمال الطويلة الأمد مثلا تشمل تطبيق مبادئ الاتفاق الدولى التى وضعت لصيانة التراث الثقافى فى حالة وقوع نزاع مسلح ، وموازرة اللجنة الدولية للمتاحف أى الإيكوم (Icom) ، ونشر مجلة موزيوم (Museum) وبعض النشرات الأخرى وإعطاء الإرشادات الفنية وهلم جرا . فى هذه المرحلة سأقتصر كلمتى هذه على تلك الأعمال التى طرأ عليها بعض التبديل من جهة ، ومن جهة أخرى سأتحدث عن مدى التقدم فى بعض الأعمال وأنوه بالمشاريع الجديدة التى ظهرت إلى حيز الوجود منذ سنة ١٩٥٩ .

١ — إن المركز الدولى للبحث عن طرق لصيانة التراث الثقافى والحفاظ عليه قد تأسس فعلا وأخذ يقوم بأعباء المهمة الموكلة إليه بقدم وساق ، وهو يضم الآن ٣٢ دولة بينها ٩ من البلاد العربية هى العراق والأردن والكويت ولبنان وليبيا والمغرب والسودان وسورية والجمهورية العربية المتحدة ورغم حداثة عهده فلقد قام هذا المركز بأعمال عديدة

موقتة وخصوصاً فى إعداد البرامج التعاونية فى البحوث فى مختبرات البلدان المختلفة وأصدر المركز سلسلة من المنشورات الغنية ، نشر بعضها بمساعدة اليونسكو من جهة وموازرة الإيكوم من جهة أخرى . ومن الأعمال الجديدة التى قام بها المركز إعداد نشرة عن تكييف الهواء فى خزائن العرض فى المتاحف وهو حالياً قيد بالطبع .

والمركز يعد الآن نشرة عن الطرق الناجعة لصيانة التراث الثقافى والمحافظة عليه :

٢ ــ أما على الصعيد الدولى ففى الدورة الثانية عشر للاجتماع العام اتخذ قرار جديد فى سبيل صيانة جمال المناظر الطبيعية والحفاظ على رونقها والمحافظة على المواقع الأثرية ــ أرسلت نسخ من هذه النشرة إلى حكوماتكم الموقرة وكانت هذه التوصية متممة لتوصية سابقة أقرها الاجتماع العام فى دورته التاسعة حين وضع الأسس للمبادئ الدولية بخصوص الحفريات الأثرية .

وهنالك توصية أخرى تتعلق بزيارة المتاحف جلبت معى عدة نسخ منها لوضعها على بساط البحث فى الاجتماعات القادمة .

٣ ــ أما فيما يتعلق بالمساعدات المباشرة للدول الأعضاء ، فلقد قمنا بمشاريع عديدة حققنا البعض منها مثل إيفاد بعثات أخصاء إلى العراق والمغرب وتونس والجمهورية العربية المتحدة ، وعدا ذلك فإن أضخم مشروع قمنا به فى سبيل الحفاظ على الثقافة العامة وتاريخ المدنية فى وقتنا هذا هو الحملة التى قمنا بها لصيانة آثار ومعابد النوبة المصرية والسودانية : إن هذه الحملة كما تعلمون قد لاقت نجاحاً باهراً خصوصاً فى نطاق الأبحاث الأثرية وفى صيانة جميع المعابد إلا معبد أبى سنبل الذى لا تزال معالجته قيد البحث :

٤ – يهمكم بدون شك أن تقوموا على بعض البرامج الجديدة المنوى إعدادها وتنفيذها ؛ إن الاجتماع العام قد وافق على مخطط لشن حملة دولية تنبه الرأى العام عن أهمية الآثار التاريخية ، وهذه الحملة ستكون على نمط الدعاية الدولية التى أقيمت فى سبيل تنوير الرأى العام عن أهمية المتاحف التى قام بها اليونسكو سنة ١٩٥٦ . إننا ننوى القيام بهذه الحملة بعد ستة على أن تمتد مدتها من ستة أشهر إلى سنة وفقاً للسرعة التى يجيب بها الأعضاء على سلسلة من الأسئلة سنقدمها لهم عما قريب – المرجو من الدول العربية ، نظراً لما لتراثهم العظيم من أهمية كبرى أن يساهموا فى هذه الحملة وأن يذكروا العالم بالآثار الموجودة فى أراضيهم . فلو فرضنا أن الجامعة قررت أن تنشر كتابا عن أهم الآثار الموجودة فى البلاد العربية ، فهذا العمل سيكون بدون شك مساهمة كبرى ولائقة فى هذا السبيل وسيؤدى خدمة جلى للحملة المنوية – لقد وضعت مسودة توجيه تتعلق بالخطوات التى يجب اتخاذها للحؤول دون تصدير أو استيراد أو بيع التراث الثقافى بصورة غير شرعية ، ستقدم هذه التوصية للبحث فى الاجتماع العام المقبل وستصاغ التوصية بشكلها النهائى فى الاجتماع الدولى للاختصاصيين الحكوميين الذى يعقد فى السنة القادمة ، وربما عقد اجتماع تمهيدى لهذه الغاية فى النمسا فى وقت لاحق إما فى هذه السنة أو فى السنة المقبلة .

إننا الآن نبحث فى إمكانية إرصاد مبلغ دولى لسد نفقات صيانة الآثار ، ولكن عقبة كبرى تواجهنا فى هذا السبيل إذ أن هذا المصرف يجب أن نجد من يغذيه بالنفقات الضرورية ، لأنه كما ولا شك تعلمون أن صيانة الآثار تحتاج إلى مبالغ باهظة . لقد برز اقتراح لتزويد هذا المصرف بالمال الضرورى عن طريق بيع بطاقات للسواح تؤهلهم زيارة المتاحف والأماكن الأثرية دون مقابل آخر ، وصيد ربع ثمن التذاكر لصيانة آثار البلاد التى ستساهم فى المشروع .

وأخيرا كما كانت الحالة فى الماضى سيكون بإمكاننا مساعدة الدول مساعدة مباشرة فى نطاق البرامج التعاونية ، ولكن نظرا لموازنتنا المحدودة ستقتصر هذه المساعدة على إرسال أخصاء إلى الدول الأعضاء ومساعدة المواطنين للتخصص فى الخارج . أود أن ألفت أنظاركم إلى إمكانية أخرى نحن الآن فى صدد بحثها ونود تشجيعها وتنميتها ، إن هنالك برنامج كما هو معلوم لدى القسم الأكبر منكم ، تديره منظمة اليونسكو يدعى بالبرنامج الموسع للمساعدة الفنية ويلخص بعبارة أبتا . إن المساعدة المقدمة فى برنامج المساعدة الفنية ترتكز على التقدم الاقتصادى وكل منا من الذين اشتغلوا فى المشاريع ذات الصبغة الثقافية الصرفة يعرف الصعوبة التى نواجهها للحصول على المال المطلوب من الوزارات عندما تكون الثقافة المقياس المهم ، فيها ويعرف عن عدم الاهتمام أو الاكتراث فى هذه المشاريع من قبل المراجع الإدارية العليا لأن الوضع الاقتصادى فى أغلب البلدان محصور ، ولكن رغم هذه الصعوبة أن هنالك فى كثير من المناطق ظهر اهتمام فى ما يسمونه بالسياحة الثقافية ، أعنى إعداد مشاريع يمكن بواسطة تحقيقها اجتذاب السواح للمواقع الأثرية التى تزيد فى مفهوم السواح لتاريخ الثقافة وتطورها . إن هذه النقطة قيد البحث من قبل اللجنة الاقتصادية والاجتماعية للأمم المتحدة وربما حصلت بعض البلدان على قسم أوفر من المساعدة عن طريق أبتا لصيانة الآثار كقسم من مخطط لتشجيع السياحة الثقافية ، فهذا سيؤدى مباشرة إلى فوائد اقتصادية للبلدان صاحبة العلاقة .

إن مندوبى الأمم المتحدة فى بلدانكم يعدون البرامج فى هذه الآونة لتقديمها للأمم المتحدة عن الفترة الواقعة بين ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ، وربما من المستحسن أن تفكروا فى طلب المساعدات ضمن برنامج أبتا فور عودتكم إلى بلدانكم ، إن هذه البرامج يجب مثلا أن تنطوى على مخططات لتحسين

شكل المواقع الأثرية كما فعل الدكتور سليم عبد الحق فى المدرج الرومانى فى بصرى وبناء الفنادق والفنادق الشعبيـــة السياحية (موتل) ، وتعبيد الطرق وهلم جرا ، حتى يجعل الوصول إلى المواقع الأثرية سهلا للسواح ، فنحن تحت تصرفكم للإجابة على أى سؤال تطرحونه متعلق بالاقتراحات التى قدمناها .

تقرير المجلس الدولى للمتاحف

عن رسالته ونشاطه

تفضلت الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية بتوجيه الدعوة إلى المجلس الدولى للمتاحف (ICOM) لحضور هذا المؤتمر للآثار الذى يعقد فى هذا البلد المضياف وقد قبل المجلس الدولى هذه الدعوة شاكرا .

وتهتم المنظمة الدولية المستقلة المذكورة بكل الشئون العلمية والفنية والمسلكية المتعلقة بالمتاحف على اختلاف أنواعها ، وتؤلف مخبرا للأفكار الجديدة التى يتم تبادلها خلال الاجتماعات العامة والمؤتمرات والمناظرات الدولية التى يقيمها بصورة دورية بين الحين والآخر ، وتنشر الكتب والمجلدات ، وتصدر النشرات التى تهدف إلى إحداث نهضة متحفية شاملة وتبديل المفاهيم التقليدية عن المتاحف ، وتحويل هذه الدور إلى معاهد ثقافية يشع منها بأبسط التعاليم وخلال أجمل الإطارات ما اجتمع للعالم من معرفة .

وتشترك فى أعمال المجلس الدولى للمتاحف نحو ٦٦ دولة منها عدد من الدول العربية هى الجمهورية التونسية والجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة والمملكة المغربية ، وكم يكون هذا المجلس سعيدا إذا سارعت بقية الدول العربية لتأليف لجانها الوطنية التى ينص على تأليفها نظام المجلس ، وأن تأخذ كل اللجان الوطنية العربية مكانها اللائق إلى جانب اللجان الوطنية الأخرى ، وبذلك يصبح بالإمكان توجيه الحركة المتحفية العالمية نحو آفاق جديدة وفى سبيل خدمة الثقافة الإنسانية .

المحاضرات التي أُلقيتْ في المؤتمر

آثار تونس

للأستاذ مصطفى زبيس

مدير مصلحة المعالم الأثرية فى الجهوريه التونسية

كانت السفن الفينيقية تجوب البحر الأبيض بين الشرق والغرب من مدينة صور والمدن الفينيقية المجاورة لها إلى المضيق بين تونس وصقلية ، وقد كانوا ينزلون للاستراحة والاتجار فى المنازل العديدة التى أنشأوها على شواطئ البلاد التى كانت فى طريقهم ، وأخذت هذه المنازل تنمو بطول الزمن حتى صارت دويلات لها بعض الشأن مثل عتيقة وسوسة وقرطاجنة .

وقد كتب لهذه الأخيرة أن تبلغ من الأهمية وسعة السلطان ما جعلها تسيطر على المراكز الأخرى وتفرض عليها نفوذها وتحول نهائياً بينها وبين أم وطنها الأولى فينيقيا .

ومن ذلك العهد استقل فينيقيو المهجر أو فينيقيو المغرب تحت لواء قرطاجنة وكان ذلك إثر حملة (نبوخذ نصر) المظفرة على المدائن الفينيقية وإخضاعها إلى سيطرته فى القرن السادس ق . م .

ومن ذلك الوقت استهل العالم القرطاجنى عهدا جديدا أسماه المؤرخون بالعهد البونيقى .

ثم أخذت قرطاجنة تنتشر نحو الغرب إلى أن عبرت سفنها مضيق جبل طارق وراحت سائرة فى المحيط الأطلسى إلى (إنقلترا) تحت قيادة (عملقون) والى (الكمرون) تحت قيادة (حنون) فغنمت قرطاجنة على أيديهما ذخيرة لا تنفذ من الذهب والفضة ساعدتها على توطيد سيادتها فى العالم الشاسع الذى مسكت زمامه .

وقد توسعت فى التراب التونسى خارج منطقتها الأولى توسعاً عميقاً متوغلة إلى ما وراء الساحل جنوباً وإلى ما وراء الكاف غرباً وذلك ليس فقط لاستغلال الأرض بل وأيضاً لتجعل من ذلك حرماً يقيها عند الحاجة من الغارات المفاجئة ؛

وقد بلغت قرطاجنة من سعة السلطان فى أواسط القرن السادس ق . م شأوا لم تفته بعد ذلك . وقد كانت مظاهر عظمتها سبباً فى إثارة منافسة قوية وإيجاد نفرة شديدة بين اليونان وبينها — واحتدم الأمر بينهما حتى حملوا عليها حملة عنيفة فى صقلية تصدعت من أجلها أركان الهيكل القرطاجنى الرهيب وكان ذلك سنة ٤٨٠ ق . م .

واستمر الكفاح بين الطرفين فى صقلية بدون أن يسفر عن نتيجة حاسمة إلى أن اصطدمت قرطاجنة فى القرن الثالث بقوة جديدة هى قوة روما الفتية العاتية ذلك الاصطدام الطويل المعروف بالحروب البونيقية الثلاث التى دامت من سنة ٢٦٢ ق . م إلى سنة ١٤٦ ق . م والتى نتج عنها القضاء على النظام القرطاجنى وتخريب قرطاجنة .

وقد ظلمها الرومان بعد الظفر بها إذ عمل مؤرخوها على تشويه سمعتها وتصويرها فى صورة مقيتة، ثم ظلمتها ثانية بعض المدارس التاريخية التى عكفت منذ قرن على درس آثارها الوطنية درساً يعمل بداية ونهاية على إحياء التراث الرومانى ، فقررت مبدئياً أن كل ما يُعثر عليه فى المواقع القرطاجنية إنما هو رومانى وذلك بناء على قرار تقرر بموجبه أن البونيقيين لم تكن لهم حضارة وأنهم كانوا عالة على الحضارات الأخرى .

ولنترك الجدال فى هذا الموضوع ولنشر إلى أن هناك تنقيبات حديثة ودراسات جديدة قد جاءت لرفع ظلامة شديدة الوطأة على قرطاجنة ولإحياء تراثها .

فقد عثر فى ضاحية لقرطاجنة اسمها اليوم (سلامبو) على معبد بونيقى

قد يرجع إلى عهد تأسيس قرطاجنة أى إلى بداية القرن التاسع ق . م ولعله هو الموقع الذى انتحرت فيه (عليسة) مؤسسة قرطاجنة وذلك نفورا منها من التزوج بالملك البربرى المشار إليه فى قصة مأساة هذه الأميرة التعسة .

وبالقرب من هذا المعبد توجد اليوم آثار للمرسى القرطاجنى القديم ويلوح فى صورة ، بركة مستطيلة للسفن التجارية ، تتبعها بركة مستديرة للسفن الحربية وهى صورة تطابق الأوصاف التى جاءت فى تواريخ القدماء مثل تيمى (Timée) وجوستان (Justin) وفرجيل (Virgile) .

وقد عثر أيضاً حديثاً بواسطة الصور الجوية على الخط الخارجى للاستحكامات المجعولة لتحصين قرطاجنة ويشتمل على حفير قد رفعت حافته الداخلية بالتراب المخرج منه وجهزت بالأجهزة الخشبية ــ هذا هو الخط الخارجى الأول ويوجد وراءه سور أول من الحجارة ووراءه سور آخر أكثر ارتفاعاً من الحجارة أيضاً، ومثل هذا الترتيب قد اتبعه الرومان فى إقامة خط الدفاع الذى أقاموه على تخوم الصحراء فى الجزائر وأسموه « ليماس » (Limes) ــ كما اتبعه الموحدون فى مراكش فى القرن السادس (الثانى عشر م) لبناء أسوار مدنهم وقلاعهم وقصباتهم .

وإن معظم الآثار البونيقية التى عُثر عليها إلى هذا اليوم تشتمل على المقبريات كالشواهد التى وضعت على القبور وما وضع فى هذه القبور من أدوات وأوان :

أما الشواهد فقد رسم عليها بالحفر أو بالنحت صور للأشخاص والآلهة والحيوان والطيور والنبات ورموز وزخارف هندسية أخرى لها مدلولها ومغزاها .

كما مُثّلت فيها بعض المشاهد للطقوس الدينية مصحوبة عادة بأمثلة للفن المعمارى البونيقى التى اضمحلت معالمه ولم يصلنا منها شىء .

وأما الأوانى الخزفية فهى لا تُحْصَى أشكالها وحجومها وأنواع زخارفها

وتشتمل الأدوات الأخرى على الخواتم والفصوص من الحجارة الكريمة المنقوش عليها أنواع الرموز والزخارف والصور ، وتشتمل أيضاً على القناديل والأقنعة والتماثيل الصغيرة المصنوعة جميعاً من الفخار وقل منها ما لا يحمل زخرفة أو أثراً ما لعمل فنى مقرون غالباً بصورة أو رسم يُشير إلى الإله (بعل عمون) وإلى الإلهة (تانيت) :

وقد أخذت قرطاجنة الكثير من فنونها وروحانياتها عن فينيقيا وعن مصر القديمة وعن اليونان وعن الأتروسك ولكنها جعلت من جملة تلك العناصر المختلفة المتناثرة وحدة لها شخصيتها وطرافتها .

وعلى كل فإن الحضارة البونيقية قد خلفت أثرا عميقاً وانطباعا قويا فى نفوس البربر الذين كانوا يعيشون فى كنفها فلما أفل ظلها قويت شوكة ملوكهم ووقفوا فى وجه رومية محاولين الذود عن استقلال بلادهم وتوحيد كلمتهم تحت الراية الوطنية .

وقامت هذه الحركة على كاهل الملك ماسينيسا وخلفائه ودامت ما يقرب من قرن ونصف انطاقت خلالها الشخصية البربرية ــ وقد وصلتنا من ذلك العصر آثار ليست بالهينة أشهرها قبر كليب الهيكلى فى جبل مَسُّوج قرب بلدة السّرس ، والضريح الملكى الموجود فى مدينة دُقّة الأثرية .

وقد تبرمت رومية من سلطان ملوك البربر المتزايد فحاولت الفتّ فى استفحاله حتى جرّ بها ذلك إلى حرب ضروس طاحنة عرفت بحرب جوغورطا التى أسفرت على هزيمة الملك جوغورطا وقتله .

وهكذا صفا الجو لرومية ولكنها احتاطت على ألا يعود إلى الميدان مثل جوغورطا فيضايقها ، فقسّمت مملكته بين طائفة من الرؤساء وكسبت بذلك راحة بال وطمأنينة ، إلى أن حمل قيصر حملته الشهيرة الموفقة على البلاد التونسية سنة ٤٦ وجعل منها مقاطعة رومانية إفريقية أسموها « أفريكا » (Africa) ــ وهى تسمية ما زالت مستعملة عندنا إلى اليوم بالنسبة إلى الشمال الغربى التونسى

وهى أيضاً التسمية التى وجدها العرب شائعة عند الناس أيام فتحهم للبلاد فجرت على ألسنتهم وفى كتبهم بصيغة (إفريقية) .

وقد دام النفوذ الرومانى فى هذه الربوع خمسة قرون تقريباً من أواسط القرن الثانى ق . م إلى سنة ٤٤٠ م فازدهرت أثناءها معالم الحضارة بصورة تدعو إلى الإعجاب وكان السرّ فى ذلك استتباب الأمن مدة طويلة حتى انقطع الناس إلى العمل المثمر المتواصل ولم يكن هذا الأمن نتيجة لنظام عسكرى أو نظام بوليسى أقرهما الحكم الرومانى ليضمن لنفسه الدوام فجعلهما يعتمدان على جيش وشرطة وفيرة العدد، بل أن الحاميات الرومانية المنتشرة فى الآفاق لم يكن عدد الواحدة منها يفوت بعض المئات بدليل أن كوكبة الجند المجعولة لحماية قرطاجنة لم يفت عددها ستمائة جندى يضاف إليها فصيلة من الشرطة المدنية . وعلى كل فإن عدد الحاميات جميعا لم يفت ٣٥٠٠٠ رجل .

لقد كانت البلديات الوطنية هى التى تسهر على الأمن والنظام وذلك بوسائلها الخاصة ، معنى هذا كله أن العهد الرومانى فى البلاد التونسية لم يكن بصفة عامة عهد استعمار واستغلال وكبت وتعسف ، بل كان عهداً انطلقت فيه الشخصية التونسية فساس التونسيون شؤونهم بنفسهم تحت رعاية حاكم أجنبى اختار عن السيطرة الغاشمة سياسة التعامل على أساس الاحترام المتبادل :

ولهذه العوامل آثارها البينة فى الحضارة الرومانية التونسية فهى حضارة رومانية باعتبار العهد الذى ظهرت فيه وباعتبار ضرورة مجاراة مظاهر العصر كتقليد رومية فى معمارياتها وتخطيط مدنها وغير ذلك من الأمور ذات الصبغة الرسمية ، ولكن هذه الحضارة تبدو تونسية صميمة خصوصا عندما ننظر إليها من خلال الإنتاج المتصل بجوهر الحياة اليومية والمتعلق بنشاط المرء فى المنزل والضيعة والمعبد وإزاء أضرحة الآباء والأجداد .

ومن حسن حظ هذه البلاد أنها تكسب عددا لا يحصى من مفروشات الفسيفساء قد صوّرت لنا المجتمع التونسى فى العصر الرومانى فى مختلف مظاهر

نشاطه كما صورت لنا مشاهد كثيرة من الميثولوجيا الإفريقية، وهى مزيج من الميثولوجيا البونيقية واليونانية والرومانية .

وعلى كل فإن هذه الثروة الفنية الخارقة تنمّ على ثروة مادية واسعة وهى التى ساعدت على انتشار هذا العدد الضخم من المدن الرومانية المندرسة التى نشاهد أطلالها فى مختلف أنحاء قطرنا ، وفى هذه الثروة المادية سرّ نموها وازدهارها – وهناك مدن كثيرة على السواحل – منها طينة قرب صفاقس وطبارورا (صفاقس) وقُمِّى (المهدية) وتابسوس الصغرى (لمطة) وروسبينا (المنستير) وهيبودياريتوس (بنزرت) .

وفى الوسط التونسى آثار لمدن عظيمة منها تلابت (فريانة) وسيلوم (القصرين) وسبيطلة التى اشتهرت شهرة فائقة فى صدر الفتح العربى .

وفى الشمال والشمال الغربى من البلاد التونسية مدن أخرى لا تقل عظمة عن السابقة ومنها أمايدرا (حيدرة) وسيكا فينيريا (الكاف اليوم وقد جاءت فى كتب التاريخ والجغرافيا العربية بصيغة « شق بناريا » ونضيف إلى ما سبق من المدن ألْتِيبوروس (المديِّنة) ومَكْثَر ودُقّة وبولاريجيا وتوبوربو ماجوس وفى هذه المدن يشاهد الزائر الحمامات الفاخرة وأكثرها أناقة حمام الأنطونيين فى قرطاجنة وأكثرها صحة وسلامة حمام طينة – ويشاهد الزائر أيضا المعابد الجليلة ، وأجمل مجموعة منها هى المعابد الثلاثة المتوازية القائمة فى موقع حبيطلة – وهناك أيضا المسارح على أنواعها وأشهرها مسرح دُقّة ومسرح قرطاجنة وأما الملاعب فأشهرها وأكثرها بهجة ملعب ألْجَمَ المشهور بقصر ألْجَمَ أو بحصن ألْجَمَ وقد تحصنت فيه الكاهنة أيام حملة حسان ابن النعمان فى الربع الأخير من القرن الأول – وهو أكبر الملاعب الموجودة فى القارة الإفريقية .

وفى المواقع الأثرية التونسية فى العهد الرومانى أبواب ضخمة وأقواس

نصر كثيرة ما زالت تتمتع بحالة جيدة ومنها قوس طراجان فى مكثر وقوس سبتيموس سيفيروس فى سبيطلة .

وأما التحف الرومانية المنقولة من تماثيل وقناديل وأوان وآلات ومصوغ فإن مادتها الفنية والعلمية غزيرة إلى أبعد حد ، وهى ميدان للدرس لا حدّ له وأن هذا النوع من الآثار هو الذى يصور لنا الحضارة الوطنية الحقة ، بينما لا نجد فى المعالم المعمارية الرسمية إلا مظهرا من التقليد عن رومية ومن النسج على منوال معالمها .

وقد دام هذا التوازن إلى أن أخذت علائم الانحلال تظهر فى هيكل الإمبراطورية الرومانية ، وذلك من جرّاء التكالب على السلطان فمنذ نهاية القرن الثانى م أخذ الجند يساند هذا الحزب وذاك الشقّ وطفق يعمل على إرقاء هذا فوق عرش الحكم وإقصاء ذاك الآخر عنه ، بجميع الطرق وبمختلف الوسائل ولو أدى ذلك إلى الاغتيال وسفك الدماء ، وقد زاد الجو تعكرا وتعفنا أزمات شديدة : اقتصادية ودينية وسياسية ؛ أزمات اقتصادية جابه فيها كبار الفلاحين حملة الرقيق العنيفة ، وأزمات دينية تسبب فيها انتشار الدين المسيحى واضطهاد معتنقيه ؛ وأزمات سياسية بموجب ثورات البربر المتوالية والرامية إلى التحرر من الحكم الرومانى .

وهكذا سارت حالة الإمبراطورية من سيئ إلى أسوأ حتى إذا ما جاز الوندال مضيق جبل طارق وولج التراب الإفريقى لم يجدوا من يقف موقف الجد فى وجههم فواصلوا سيرهم إلى قرطاجنــة وفتحوها بدون عناء سنة ٤٣٩ م .

والوندال كما هو معلوم أقوام جرمانيون من الرحّل قد اكتسحوا فرنسا وإسبانيا ، وعبروا إلى العدوة الإفريقية فأذعنوها إلى سلطانهم ، فكان تغلبهم على المدن الإفريقية تغلب البداوة والعنف والعجرفة على التحضر والرقة واللطف ، فكان ملكهم من جراء ذلك ينذر بالزوال منذ البداية فلم يكن للوندال العدد

الكافى من الرجال لإقامة دولة منتظمة والسهر على كيانها بالانتشار فى كل مكان ولم يكن لهم حضارة يستميلون بها ألباب الأفارقة ، فلم يبق لهم من المؤهلات للسيطرة إلا القوة والشدة بينما كانت الوسيلة الوحيدة هى تشريك الرعايا فى الأمر وسلوك سياسة التعاون معهم .

ومن أجل هذا الوضع المختل كانت مدة الوندال من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٤ م . مدة عقيمة من حيث الإنتاج الفنى ، وإننا لنعثر بين الفينة والأخرى على قطع من النقود الوندالية ولكنها لا تختلف عن النقود الرومانية من حيث طريقة صنعها ، وتصور لنا هذه النقودُ الملوكَ فى لباسهم الرسمى أحيانا ، وتصور لنا أحيانا أخرى امرأة تحمل سنبلة إشارة إلى خصب البلاد ورفاهيتها إذ تُقرأ العبارة التالية تحت الصورة « قرطاجنة السعيدة » .

وعاش الوندال فى مدنهم الأولى حياة الخوشنة والسذاجة التى دأبوا عليها منذ أجيال فى حظيرة المعسكرات المتجولة ، حتى طالت بهم الإقامة فى المدن التونسية وتذوقوا حياة الترف والدعة والمتعة ، فكان ذلك من الأسباب التى أسرعت بدولتهم إلى الانهيار فاغتنم بربر الصحراء الفرصة للزحف إليهم وتضييق الخناق عليهم شيئاً فشيئاً ، حتى لم يجدوا من شدة بأسهم السابق الطاقة التى تدفع بهم إلى رد هذا الخطر الداهم .

وبينما كانوا فى هذا الصراع أقبلت عليهم جيوش بليزار البيزنطية فقضت عليهم قضاء مبرماً وشتتت جموعهم وأبادتهم عن آخرهم .

ولنا من آثارهم تحف طفيفة العدد تشتمل على نقود وقناديل ومصوغ وأما المعماريات فإنها تشتمل على طائفة من الكنائس كانت تقام فيها طقوس الديانة الآرية وعلى طائفة من المشاهد المقبرية .

وبزوال الحكم الوندالى دخلت البلاد التونسية تحت سيطرة بيزنطة فأعادت هذه النظام الإدارى الذى أقامه الرومان من قبل ، وجعلت عليها واليا مدنياً ثم أبدل بعد مدة بحاكم عسكرى ، إلا أن هذا النظام الذى أطلق

أيدى الحكام ورجال الإدارة أثقل كاهل الناس بالضرائب والمظالم ، حتى صاروا خصوما ألداء يتحينون جميع الفرص للتمرد والتخلص من الكابوس البيزنطى بأية وسيلة — وفى هذه النفسية المفعمة بالمقت البالغ سرّ سهولة الفتح العربى فإن الأمة الإفريقية لم تحرك ساكنا لمساندة أولى الأمر من البيزنطيين فى هذه الربوع عندما بانت طلائع الجيش العربى الزاحف ، وتركت هؤلاء يحطّمون بأسرع من البرق قواعد الحكم البيزنطى فانهار هذا بين عشية وضحاها بالصورة المعلومة .

على أن هذا العصر الذى دام من سنة ٥٣٤ م إلى سنة ٦٤٨ م . قد كان حافلا بالنشاط العمرانى والمعمارى والفنى ، فهناك عدد كبير فى مواقعنا الأثرية من القلاع والأسوار التى تنبئ على مهارة فائقة فى إقامة الاستحكامات الحربية ، وكثيرا ما أقيمت هذه القلاع والأسوار بغاية السرعة فاقتصرت على ترصيف الحجارة الضخمة بدون مراعاة التنسيق بين الهجوم والأشكال والتقطيع ، وما تحمله أحيانا هذه الحجارة من كتابة أو زخرفة أو لون من ألوان الصناعة ، وكثيراً ما جلبت هذه الحجارة من المعالم الرومانية المجاورة ، وكثيراً ما استعملت المعالم القديمة نفسها حصونا بعد تعديلات خفيفة وسدم الأبواب والنوافذ وتعلية الجدران الخارجية .

ومن الآثار البيزنطية فى البلاد التونسية تلك الكنائس الزاخرة بأنواع المفروشات الفسيفسائية ، ورؤوس السوارى البديعة الزخرف مع جدران مكسوة بألواح قد رسمت عليها أنواع المشاهد المستوحاة مواضيعها من الكتب المقدسة — ولدينا كثير من الأبسطة الفسيفسائية التى كانت تكسو القبريات وهى محلاة بأنواع الزخرف والنصوص الطريفة نثرا ونظما .

وبزوال الحكم البيزنطى استهلت البلاد التونسية عهدا جديداً ، تقرر لما فيه مصير واتجاه حضارى جعلاها حلقة من سلسلة لم تنفصم عراها ، ودرّة

من الدرر التى تألف منها عقد نفيس ألا وهما سلسلة العروبة وعقد الحضارة العربية المتألق فى سماء الثقافة العالمية :

وإن للبلاد التونسية اليوم ثروة غزيزة من الآثار العربية تلوح لنا فى مظاهر عدة نحاول فى بقية هذه الكلمة الإلماع إليها سريعا .

لقد توالت على البلاد التونسية التى أسماها المؤرخون العرب (إفريقية) — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — توالت على البلاد التونسية غزوات عربية عدة قبل أن تستقر قدم الحكم العربى إلى أن كانت أشهرها وهى الغزوة الحاسمة التى قادها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ والتى أسفرت على بناء القيروان وجامعها وذلك سنة ٥٧ هـ ثم واصل العرب فتوحاتهم نحو الشمال إلى أن ظفروا بآخر قوة مقاومة تجمعت فى قرطاجنة وتم ذلك على يد القائد حسان بن النعمان الذى هدم المدينة ونقل أهلها إلى تونس وكانت قرية متواضعة فأصبحت عاصمة عربية ثانية بعد القيروان وبنى بها جامع الزيتونية :

ودام حكم الولاة الأمويين والعباسيين على أفريقية إلى الربع الأخير من القرن الثانى هـ فبنوا جوامع ووسعوا فى أخرى ولكنها اضمحلت كلها ولم يصلنا منها إلا ذكرها — وأما البناءات الأخرى الحربية منها والمدنية فكأن الولاة، لم يعنوا بإنشائها ، واكتفوا باستعمال العمارات الموجودة قبلهم إلا قصر الإمارة فى القيروان لخلوّ موقع المدينة من بناءات سابقة وكذلك رباط المنستير الذى أسسه قائد الرشيد العباسى هرثمة بن أعين سنة ١٨١ هـ .

وعلى كل فإن الفن الإسلامى التونسى لم تظهر له معالم تمتاز عن غيرها بمميزاتها الخاصة إلا فى أيام ملوك الأغالبة التابعين للدولة العباسية وقد ساسوا البلاد بحكمة طيلة القرن الثالث هـ ، وأسسوا فيها المبانى الفاخرة الزاخرة بأنواع الفنون كجامع القيروان ، وجامع الزيتونة بتونس ، على المظهر الذى يلوحان عليه اليوم ، وأسسوا على كامل السواحل سلسلة من الرباطات لرد غائلة الروم المغيرين عليها ، وأحكموا بنيانها حتى انقلبت سريعاً من معاقل دفاعية إلى قلاع

منطلق منها الغزاة نحو العدوة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط – حيث فتحوا مناطق عدة منها – وامتلكوا جزيرة صقلية وبذلك صار البحر بحراً عربياً تونسياً ، ودامت لهم السيادة فيه دهراً طويلا ؛ وقد توفر لدى الأمراء الأغالبة بموجب ذلك ثروة عريضة ساعدتهم على تجهيز البلاد بالمرافق النافعة كمصانع الماء ، وتعبيد الطرقات وبناء الجسور كما ساعدتهم على إقامة معالم الترف كتشييد القصور والمدن الأميرية مثل القصر القديم الذى آل إلى مدينة سميت بالعباسية – ومثل مدينة رقادة التى صارت عاصمة الدولة فى النصف الثانى من القرن الثالث هـ .

ويعتبر فن الأغالبة بتونس كمظهر من مظاهر الفن العباسى خارج العراق وفى مدينة رقادة نزل عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية قبل أن يبنى مدينة المهـدية التى عرفت به – وقد بناها على الساحل ليعتصم بها إذا ما أحوجته الضرورة إلى ذلك – إذ كانت بوادر الثورة تلوح وخطرها يخيم ثم اندلعت هذه الثورة – وقام أبو يزيد فى وجه الدولة فاحتل كامل البلاد حتى لم يبق للفواطم إلا المهدية وكاد أبو يزيد أن يفوز عليهم فلم يوفق فظفروا به وقتلوه – ولم يبق لهم منازع فعادوا إلى القيروان وأسسوا بإزائها مدينتهم المعروفة بصبرة المنصورية وذلك سنة ٣٣٧هـ ، وجعلوا منها قاعدة للخلافة – وقد تخربت هذه المدينة ولكن التحف الفنية التى توجد فى أطلالها تدل على درجة رفيعة من الازدهار ، وأما المهدية فقد بقى فيها إلى اليوم مدخلها القديم المسمى بالسقيفة الكحلاء أو باب زويلة ، والجامع وأطلال قصر المهدى وقصر ولى عهده القائم بأمر الله – كما يوجد المرسى القديم . ولهذه الآثار قيمة عظيمة لأنها تمثل الطور الأول من فن الفواطم والحقبة التى بقيت غامضة من تاريخ حضارتهم .

ولما انتقل الفواطم إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ تركوا ولاة من قبلهم على البلاد التونسية ، وهم بنو زيرى من قبائل صنهاجة البربرية ، وقد ازدهر الفن فى

عهدهم ازدهارا خارقا كما تشهد بذلك مجموعة النقوش المكتوبة والمزخرفة التى نراها فى مقبرة الجناح الأخضر بالقيروان، وكذلك مقصورة الإمام بجامع القيروان ، وسقوف هذا الجامع وجميعها من الخشب البديع النقش والزخرفة .

وترجع أيضا إلى عهدهم طائفة من الطرف البللورية والخزفية والمعدنية ، نذكر منها المشكاة النحاسية المخرمة التى صنعت برسم ألمع ملوك صنهاجة وهو (المعز بن باديس) .

على أن ازدهار هذه الدولة لم يدم طويلا إذ قضت عليه الزحفة الهلالية التى اكتسحت البلاد التونسية أواسط القرن الخامس هـ ، فانقسمت البلاد إلى دويلات استبد أصحابها بالمدن الساحلية فكان عصر اضطراب وفوضى دام إلى أن نشر الخليفة عبد المؤمن ابن على نفوذ الدولة الموحدية على كامل المغرب العربى وذلك سنة ٥٥٥ هـ .

ولكن الموحدين لم يخلفوا من آثارهم فى البلاد التونسية شيئا يذكر — على أن الفن التونسى قد عاد إلى الازدهار منذ الثلث الأول من القرن السابع عندما استبد بالأمر أبو زكرياء الحفصى أحد ولاة الموحدين على تونس ، فأسس الدولة الحفصية التى دامت إلى النصف الأول من القرن العاشر هـ .

وعلى عهد هذه الدولة ظهرت معالم تشترك فى الأسلوب بين الفن التونسى العريق وبين الفن المغربى الإسبانى ، ومن آيات هذا الفن الباقية : جامع القصبة وجامع التوفيق بتونس ، وقصر العبدلية بضاحيتها المعروفة بالمرسى ، ورباط سيدى قاسم الزليجى ، ويعتمد هذا الضرب الجديد من الفن على كسو الجدران بالزليج والجبس المنقوش وبتغطية القباب بالقراميد المطلية وبتشكيل هذه الأغطية بالشكل الهرمى .

وبزوال الدولة الحفصية نزل الإسبان فى السواحل التونسية وبنوا بها

قلاعا منيعة كيفوا عمارتها بحسب استعمال السلاح الجديد فى ذلك العصر وهى المدفعية .

وإذ أجلى الأتراك العثمانيون الإسبان عن البلاد استعملوا قلاعهم وزادوا من تشييد عدد عديد آخر منها، وما زال جلها موجوداً سالما إلى هذا اليوم .

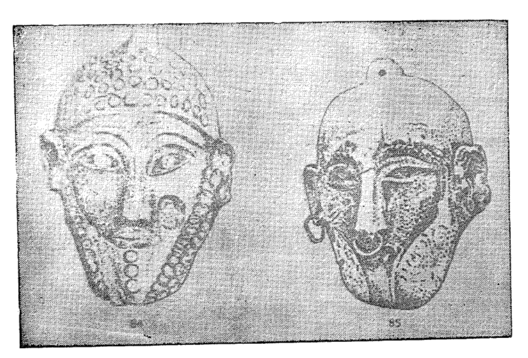
وفى عهد الأتراك العثمانيين أقبل على تونس وفود من الجالية الأندلسية المسلمة بعد تغلب النصارى عليها تغلبهم النهائى فى بداية القرن الحادى عشر هـ — وكانوا أهل فن وأهل صنائع رقيقة فازدهرت الحضارة التونسية من جديد على عهدهم، إذ أقاموا لنا معالم على غاية ما تكون من الجودة والرقة ، وتمتاز هذه المعالم بمسحتها الأندلسية الطاغية أحيانا عليها ولكن الممعن فيها يشاهد أيضا عناصر تركية وعناصر إيطالية وعناصر تونسية ، وكل هذه العناصر تمتزج وتتفاعل وتنسجم بحيث تصعب تجزئتها .

ولتونس من هذه المعالم عدد وفير يشتمل على المساجد والمدارس والزوايا والتربات والأسبلة والقصور والقناطر وغيرها ، مما يتمثل فيه أحدث مظهر للفن التونسى وأقربه إلينا عهداً .

لوحة رقم ١ — آثار تونس

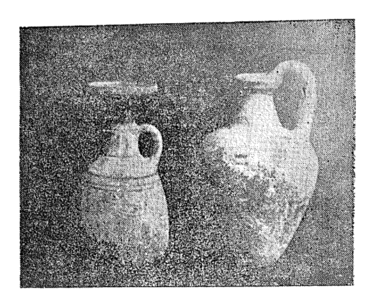


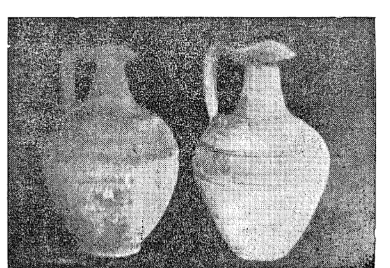
حفر على جعران



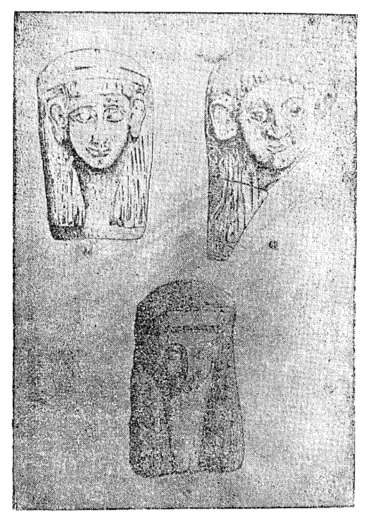
أقنعة من المجموعة الرابعة

لوحة رقم ٢ — آثار تونس





آنية فخارية من القبور رقم ٩ و ١٠ و ١١

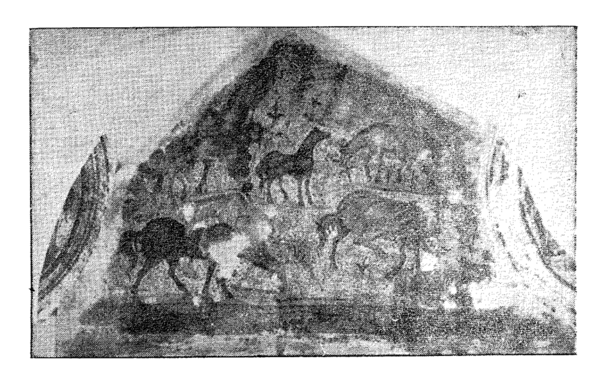


أقنعة : (٦٦) من الطراز المصرى (٦٧) من العصر الوسيط
(٦٨) من العصر الرومانى

لوحةرقم ٣ – آثار تونس

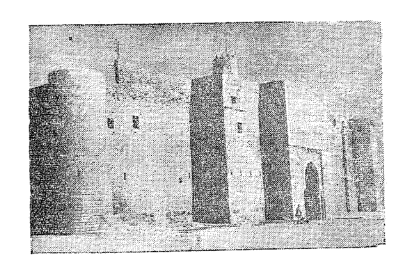


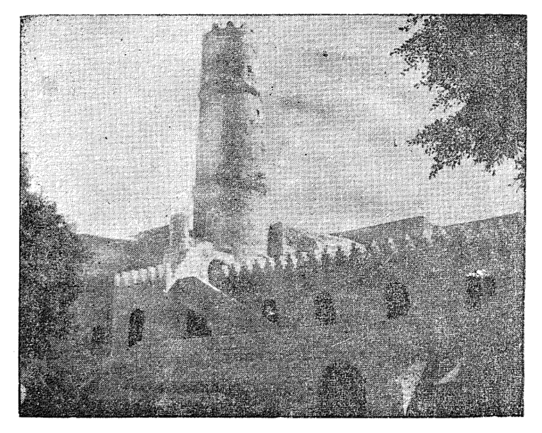
تميمة بونية مصنوعة من الزجاج



لوحة فسيفسائية فى حالتها الراهنة

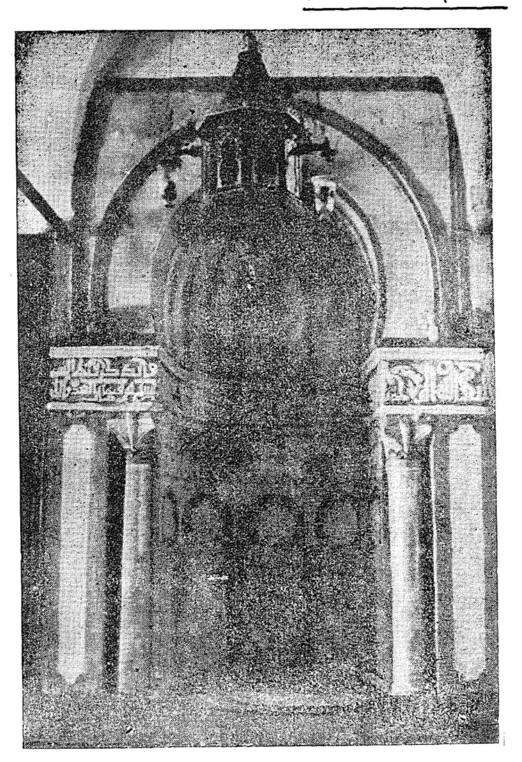
لوحة رقم ٥ — آثار تونس





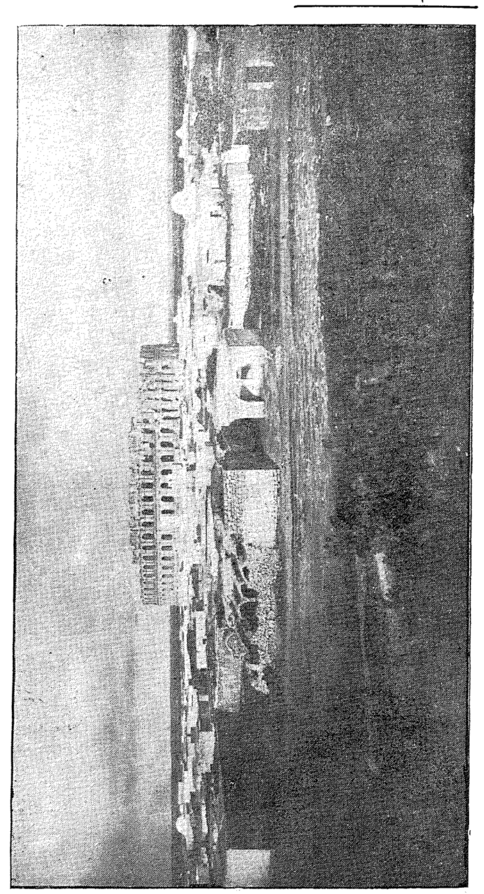
رباط المنستير ، وفى الصورة العليا منظر للواجهة القبلية

لوحة رقم ٦ – آثار تونس



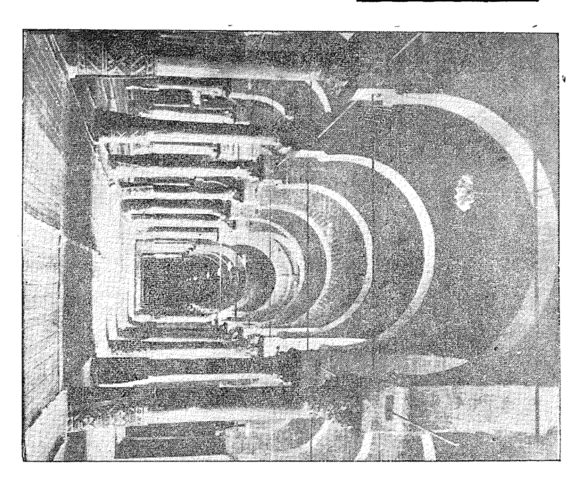
محراب الجامع الكبير بالمنستير

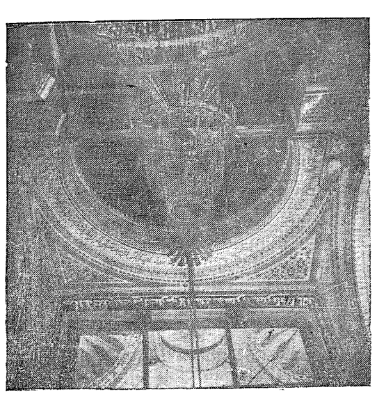
لوحة رقم ٧ – آثار تونس



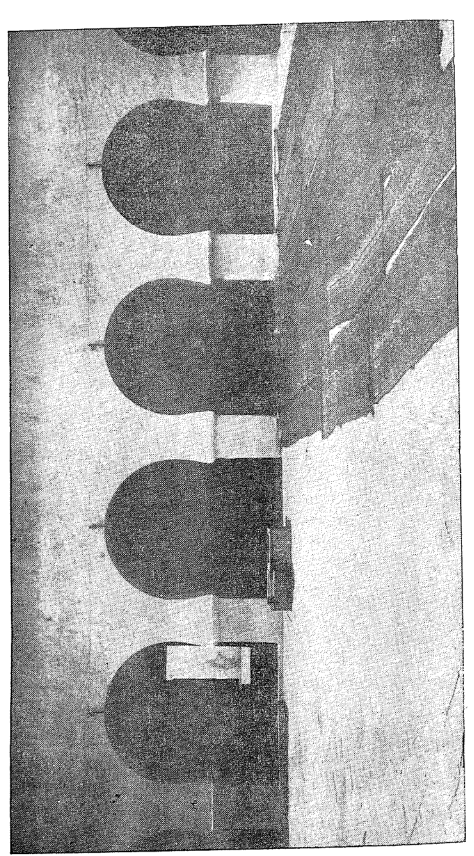
قفصة

لوحة رقم ٨ ــ آثار تونس



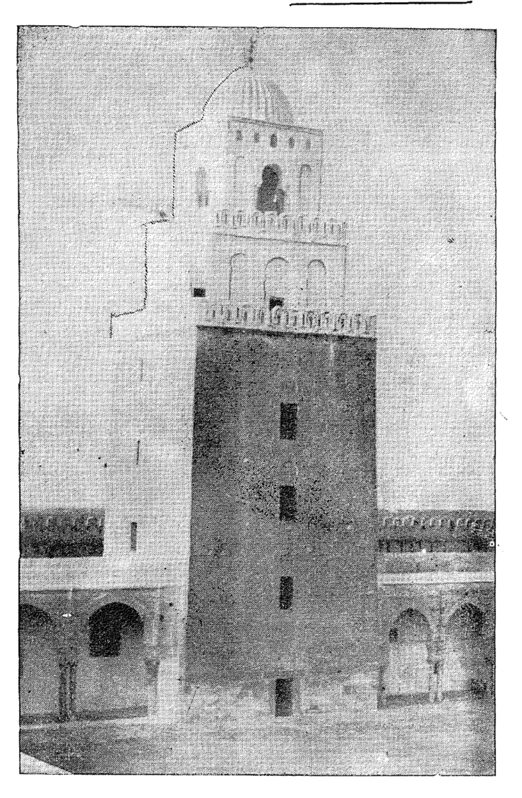


لوحة رقم ٩ — آثار تونس



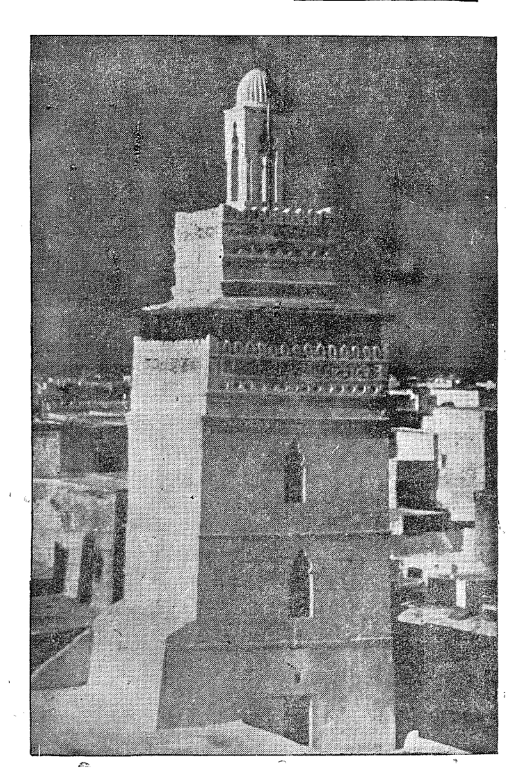
الجامع الكبير بمدينة سوسة

لوحة رقم ١٠ – آثار تونس



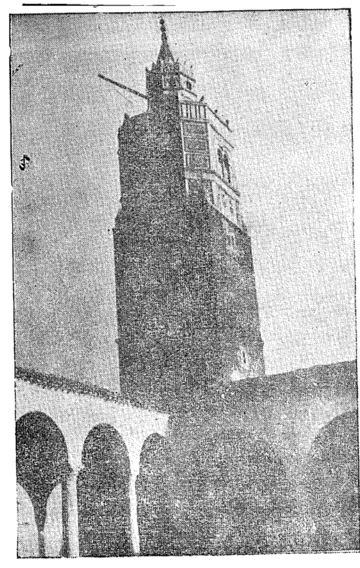
جامع عقبة بالقيروان

لوحة رقم ١١ — آثار تونس

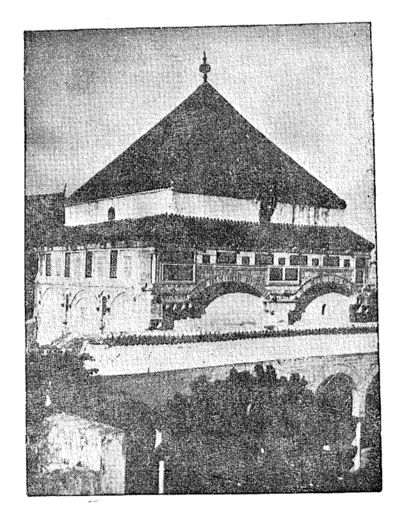


الجامع الكبير بصفاقس

لوحة رقم ١٢ — آثار تونس

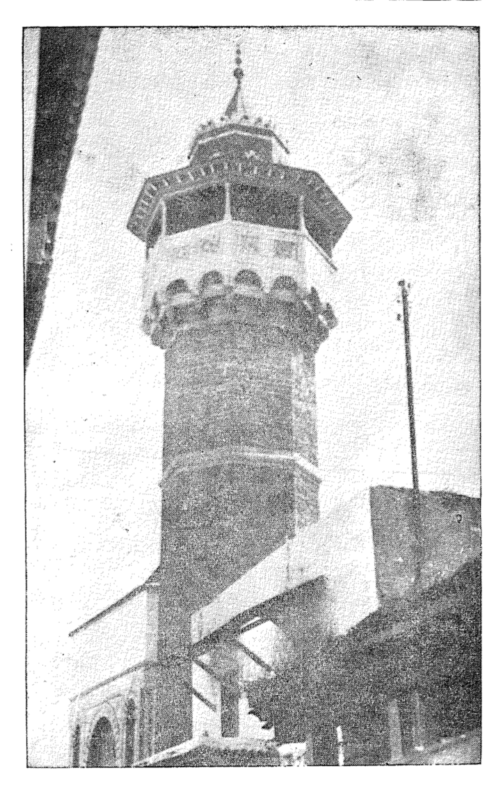


الجامع الكبير بتستور



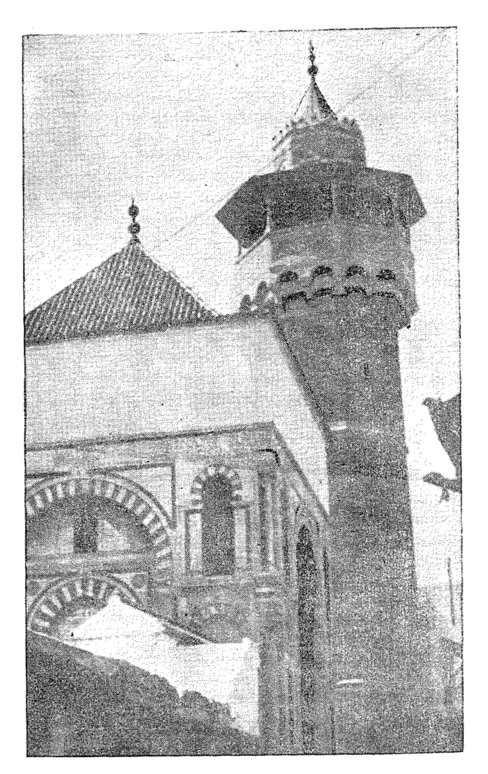
سيدى قاسم الزليجى بمدينة تونس

لوحة رقم ١٣ ـ آثار تونس



جامع يوسف داى بمدينة تونس

لوحة رقم ١٤ — آثار تونس



منارة جامع يوسف داى بمدينة تونس

مسرح بصرى وقلعتها

للدكتور سليم عادل عبد الحق

المدير العام للآثار والمتاحف فى الجمهورية العربية السورية

مدينة بصرى من أكبر حواضر بلاد الشام القديمة ، وتقع فى سهل حوران جنوبى دمشق ، وتؤلف قاعدة هامة للاستثمار الزراعى ، ومحطة للقوافل التى كانت تصل شمالى سورية بجنوبها . وقد تأثرت من المدنيات الآرامية والنبطية والهلنستية والرومانية والبيزنطية والغسانية والإسلامية التى تعاقبت على أرضها ، وخلفت فى منشآتها الرائعة المشيدة بالأحجار البازلتية السوداء سجلا حافلا تكشفت فى صفحاته أخيلة القرون المبدعة ، ومفاهيمها فى تنظيم الفراغ ، وجهودها فى ابتكار إطارات الحياة الإنسانية التى صرفت فى تلك المنطقة من الريف العربى السورى .

ومن أشهر مبانى بصرى التاريخية قلعتها الأيوبية التى شيدت فى مسرحها الرومانى وحوله . وقد اعتدنا نحن المشتغلين بالآثار أن نرى حالات شتى فى تحويل بناء عن شكله الأول إلى شكل آخر واستبدال الغاية التى أنشئ من أجلها بغاية ثانية تخالفها ، فيهدم جزء منه أو بعضه ، أو لا يبقى إلا أساساته أو يجعل معظمه فى مجموعة معمارية جديدة . أما حال مسرح بصرى وقلعتها فعجيب جدا . إذ تعايش البنيان ، وتراكب الواحد فوق الآخر ، ولم يفقدا أى عنصر من عناصرهما ، وامتدت منشآتهما إلى بعضهما واستعارت القاعة من المسرح أجزاء هامة ، وتكاملا ، وتوافقا ، وانسجما على اختلاف بين جدا فيما أريد من تشييد الأول ، وفيما رغب أن يتوفر فى الثانى . ولزام علينا أن نؤكد أنه لولا قيام القلعة فى مسرح بصرى لما انتهى إلى عصرنا الحاضر من هذا المسرح إلا بعض درجات مدرجة ، أو جزء من منصة

تمثيلية ، كما أن شكل المسرح لم يسئ إلى القلعة ، بل إنه منحها كتلته المتراصة لتكون نواة لأبراجها ، وقدم لها ممراته وأدراجه لتكون وسائط الاتصال بين مختلف منشآتها : ونعتقد بعد طول دراستنا له ولمخلفات العمارة العسكرية الأيوبية الرائعة فى بلاد الشام أنه أسهم إسهاما جديا فى نشوء نموذج من نماذج متعددة بنيت عليها القلاع والحصون المنيعة التى دفعت عن بلادنا إغارات الصليبيين وأبعدت عنها خطرها فى آخر القرن الثانى عشر وأول القرن الثالث عشر الميلاديين .

ودفعنا منذ سنة ١٩٤٧ إلى العناية بهذه المجموعة المعمارية العجيبة التى مرت عليها سبعة قرون دون أن تتلقى شيئا من الإصلاح والترميم . وكان واجبنا عسيرا عندما حاولنا أن نعيد الحياة إلى البناءين اللذين تشملهما . فقد كان شأنهما كأخوين سياميين من نوع خاص متصلين ببعضهما لامن طرف واحد ، بل متعانقين وملتزمين عناقا والتزاما كاملين . ولا يمكننى أن أعرض على حضراتكم مختلف القضايا والمشكلات الفنية حملنا على حلها من جراء ذلك قبل أن أتحدث على حدة عن كل من المسرح والقلعة ، حتى يتوفر الاطلاع على كل المعطيات التى وجب أخذها بعين الاعتبار خلال السنوات الماضية فى الحلول المنفذة .

بنى مسرح بصرى فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى ، أى فى الزمن الذى تألفت فيه الولاية العربية . ولم يكن هدية الاحتلال الرومانى إلى المدينة النبطية الكبرى التى أصبحت مركزاً للولاية الجديدة كما يدعى بعض مؤرخى العمارة الغربيين المعاصرين ، لأن المدن السورية الشمالية والجنوبية كانت آنذاك فى ذروة ازدهارها العمرانى . وقد تكاملت أصول تنظيمها وفق رقعة الشطرنج ، ومبادىء ذرع ميادينها ومبانيها العامة فى أرجاء هذه الرقعة . وجرت العادة أن يجعل المسرح فى المنطقة الوسطى من المدينة موازياً بجدار منصة التمثيل فيه إلى الشارع الطويل الذى يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب وغير بعيد عن

الشارع المستعرض الذى يتعامد معه ، ويجتازها من الشمال إلى الجنوب .

وما كانت سورية فى القرن الثانى الميلادى بحاجة إلى المهندسين الرومان ليرفعوا صروح منشآتها — المعمارية ، لأنه كان فيها مهندسون نابغون شيدوا مبانى دمشق وحلب وتدمر وبعلبك وجوش ، فنبه ذكرهم حتى أن الإمبراطور تراجان الذى بنى مسرح بصرى خلال حكمه دفع إلى استدعاء أحدهم وهو (أبوللودور الدمشقى) لتنظيم الميدان المشهور المعروف باسم (فوروم تراجان) ، وتشييد ما حوله من مبان فى روما نفسها ، ولإلقاء جسر (الدوبروجا) المعروف على نهر الدانوب .

وقد انتشرت المسارح فى كل المدن السورية آنذاك ، حتى بلغ عدد ما اكتشفت آثاره منها حتى الآن نحو الأربعين ، مما دعا العالم جونس لأن يقول : « إن بناء المسارح فى سورية كان شائعاً حتى فى القرى ، وكان ذلك شيئاً استثنائياً بين الولايات الرومانية وحتى فى إيتاليا نفسها » . وأظن أن ذلك يمكن أن يعزى إلى أن السوريين فى العصر الرومانى ، ما كانوا يستخدمون المسارح فقط لمشاهدة التمثيليات وسماع جوقات الموسيقى ، بل إنهم اتخذوها أيضاً لعقد الاجتماعات العامة التى يحضرها كل المواطنين استجابة لمقتضيات الحياة المدنية التى كانت نامية كل النماء آنذاك فى شرقى البحر الأبيض المتوسط .

وقد اختير لمسرح بصرى موقع لا يبعد إلا قليلا عن خارج المدينة ، وجعل الجدار الخارجى لمنصة التمثيل فيه موازياً لشارع المدينة الطويل ، كما جعل محوره متفقاً مع محور الشارع المستعرض ، بحيث أن القسم المتوسط من منصة التمثيل يقع فى امتداد مركز قوس النصر الكبير ، ومركز الباب الجنوبى للمدينة وأقيم إلى جواره ملعب كبير يظن أن أحجاره استخدمت فى بناء ما استحدث من مبان على المسرح فى العهود الإسلامية . وأتى المسرح بخطوطه العامة وفق نموذج المسارح التى بنيت فى السهول ، والتى حدد قواعدها المهندس (فيتروف) فى القرن الأول قبل الميلاد فى كتابه عن العمارة ، وانتشرت

فى كثير من أقطار البحر المتوسط كمسرح (مارسللوس) فى روما ومسرح مدينة (هركولانوم) ، ومسرح مدينة (ساغونت) فى أسبانيا ، ومسرح مدينة (تيبازا) فى الجزائر ، ومسرح (بولاريجيا) فى تونس .

وأتى مسرح بصرى من أعظم هذه المسارح ، جامعاً ضخامة الأبعاد إلى توازن البناء وقوته ، وجمال التنفيذ إلى رشاقة التزيين والزخرفة . وقد وصف العالمان (برونو) و (دومازويسكى) بعد رحلتهما إلى الجنوب السورى فى سنتى ١٨٩٧ — ١٨٩٨ ، فى كتابهما : (الولاية العربية) أقسامه الظاهرة ، ونشرا عنه مخططاً أثبتت أعمال التنقيب التى سأتحدث عنها كثيراً من الأخطاء فيه :

ولذا كانت فكرة تحويل المسارح إلى حصون طبيعية كما يقول أحد المتحدثين عن قلعة بصرى ، لأنه رأى تطبيقاً لها فى مسرح (أورانج) وفى ملعب (آرل) ، فإن هذا التحويل جرى فى بصرى على شكل فى منتهى البراعة لا ينص فقط على الاعتماد على كتلة المسرح كنواة تنشأ حولها الأبراج الدفاعية وإنما يستعين بالكتلة نفسها لكى يدمجها باستطالاتها المحصنة ، ويخلق منها كلا عضوياً يؤدى وظيفة دقيقة للغاية ، وتعتمد هذه الوظيفة على ما استحدث من مبتكرات فى عصور الملاحم الكبرى التى مرت بها بلادنا . وكان ذلك فى غاية من التأنى وعلى مراحل ثلاث :

١ — اقتصر تحويل مسرح بصرى فى المرحلة الأولى ، بعد توقفه عن أداء وظيفته التى شيد من أجلها وأثر انتصار المسيحية ، على سد مداخله الخارجية بالجدران البازلتية الغليظة . ويشير إلى ذلك ما أورده المؤرخ ابن عساكر فى خبر ذكره عن أبى الهيذام زعيم قيس : « أنه ركب هو وابنه وغلامه ، وكانوا فى بصرى ، وخرجوا فى الناس ، وهم منهزمون إلى ملعب الروم ، وهو محصن فى مدينة بصرى . . . . »[1] وأكبر الظن أن شكل

---

(١) انظر كتاب الأستاذ سليمان عبد الله المقداد ، بصرى ، الطبعة الثانية ، الصفحتين ٢٠ ، و٦٥ .

المسرح العام لم يتغير آنئذ ، لا من الداخل ولا من الخارج ما عدا الأبواب وبعض النوافذ التى سدت ، وبعض طاقات الرمى التى شقت هنا وهناك وخاصة فى الجدار الشمالى لمنصة التمثيل . وقد دامت هذه الحال إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى . وما ذلك إلا لأن مدينة بصرى لم تلعب فى هذه المرحلة من حياة الدولة العربية دوراً استراتيجياً هاماً .

٢ — وتبدل هذا الوضع بعد انقسام الدولة العربية فى عهد أتابكة دمشق الذين آلت إليهم مدينة بصرى ، وخاصة لما نشأت مملكة الصليبيين فى القدس فى نهاية القرن الحادى عشر ، وبدأ الصراع بينها وبين مملكة دمشق . وقد اكتسبت بصرى من جراء ذلك هى وقلعة صلخد المجاورة أهمية استراتيجية كبرى ، وأصبحتا قاعدتين من قواعد الدفاع عن بلاد الشام . ولم يتغير أيضاً فى هذه المرحلة شكل المسرح اللهم إلا نمو بعض الاستطالات منه التى بدأت تبرز حول جدرانه الخارجية . ومن هذه الاستطالات ما انتهى آثارها إلى عصرنا وهى : برج فى الجهة الشرقية من المسرح يستند على الطرف العلوى الشرقى من منصة التمثيل ، ولم يبق فى يومنا هذا إلا قاعدته المربعة التى كانت مماوءة بالأنقاض . وقد عثر بين هذه الأنقاض على كتابة تبين أن بانى درج البرج كان أبا منصور كمشتكين سنة (٤٨١ هـ = ١٠٨٩ م) . ثم برج مربع ثان فى الجهة الغربية من نهاية مدرج المسرح وهو لا يزال إلى الآن محتفظاً بطوابقه الثلاثة على الرغم مما أصابه من تصدع وتداع ، ولم يعثر فيه على أية كتابة تدل على زمن بنائه . ويعتقد أنه معاصر للبرج الأول وبإمكانه أن يعطينا فكرة عن الشكل الذى كان لهذا البرج . وأخيراً برج ثالث فى الجهة الغربية الجنوبية من مدرج المسرح . وقد وجدت فى مدخل الطابق الأول منه كتابة حجرية تدل على أن مشيده كان الأتابك ألب غازى فى سنة ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ — ١١٤٨ م ، أى أنه من السنة التى تقدم فيها الصليبيون بقيادة ملكهم بودوان الثالث حتى أسوار بصرى ، يريدون الاستيلاء عليها ، فهزموا وعادوا

أدراجهم . وشكل هذا البرج مستطيل ، وطوله (١٥ مترا) وعرضه (١٠ أمتار) . ولا بد من القول أن شكل المسرح لم يتغير فى هذه المرحلة الثانية إلا قليلا حيث وجب إجراء بعض التعديلات فى المدرجات العلوية من المدرج وبعض جدران منصة التمثيل وبعض جدران المسرح المحيطية .

٣ - وكانت المرحلة الثالثة فى تحويل مسرح بصرى إلى قلعة حاسمة وتامة . وقد جرى معظم الأعمال اللازمة لذلك دفعة واحدة وخلال ستة عشر عاما ، وفق مفاهيم العمارة العسكرية الأيوبية المتمثلة فى أكثر الحصون والقلاع العربية على خطوط الدفاع التى تشرف عليها راية الإسلام أمام حصون وقلاع العدو الصليبى المتمركز على خطوط دفاع تقابل الخطوط الأولى فى حدود المناطق الساحلية السورية التى استولى عليها الغرب مدة من الزمن .

وكان حظ قلعة بصرى من المنشآت الدفاعية الجديدة كبيراً جداً ، وذلك بفضل الملك العادل أبى بكر بن أيوب الذى آل على نفسه المحافظة على نتائج انتصارات أخيه السلطان صلاح الدين والدفاع عن مملكته المترامية الأطراف ، وتدعيم مقاومة مدينة بصرى التى أصبحت منذ توحيد مصر وسورية محطة كبرى على الطريق الموصل إلى بلاد النيل وعلى طريق الحج . وتابع هذا العمل بعده ابنه الملك شرف الدولة عيسى . وقد نظمت منشآت قلعة بصرى الدفاعية الجديدة حول خطوط محيطة بجدران المسرح الخارجية ، ومبتعدة عنها وسطياً نحو (١٠ أمتار) بعد أن غلفتها تغليفاً تاماً . وعلى هذه الخطوط أحدث عدد من الأبراج الضخمة ، ووصلت هذه الأبراج ببعضها بسلسلة من الأسوار والباحات والسطوح والممرات والأدراج على عدة مستويات ، فتشكل من كل ذلك ومن مبانى المسرح القديمة ، كل عضوى متوازن ذى حجم ضخم جداً . ولاشك أن كل هذا تطلب تخطيطاً دقيقاً عاماً ، وأنه تحقق بموجب برنامج شامل .

وبدئ فى تحقيق البرنامج المذكور ببناء برج ضخم هو برج النصر

سنة ٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ ـ ١٢٠٣ م فى الزاوية الغربية من المسرح . وقد ذكر على مبنى البرج اسم مهندس البناء وهو إبراهيم بن على الفهيد واسم والى بصرى سنقر طغرتكين فى زمن الملك العادل .

وفى سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١١ ـ ١٢١٢ م فى حكم الملك العادل أيضاً شيد البرج الشمالى الشرقى الذى يحمى مدخل القلعة ، ويعد من أروع أبراجها ، وجعل طوله (٣٤ مترا) ، وعرضه (٢٤ متراً) وكان ذلك فى ولاية الأمير ركن الدين منكورس ، كما تفيد الكتابة التذكارية التى عليه ، وبعد سنتين أى فى سنة ٦١٠ هـ = ١٢١٣ ـ ١٢١٤ م ارتفع بناء البرج المستطيل الشرقى المتوازن الجميل الذى يقع جنوبى البرج المتقدم وشرقى البرج الأتابكى القديم ، فى ولاية الأمير نفسه ، الذى تحقق أيضاً على يده فى سنة ٦١٢ هـ = ١٢١٥ ـ ١٢١٦ م[1] البرج المربع الرشيق الواقع فى شمال القلعة ، والذى حوى طابقه العلوى قاعة استقبال فسيحة .

وتابع الأمير منكورس تحقيق برنامج الملك العادل فى تحويل مسرح بصرى إلى قلعة جبارة فعزز الجهة الغربية وشيد سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨ ـ ١٢١٩ م برجاً جباراً من الأحجار المجهزة الكبرى ، وذلك بين برجى العهد الأتابكى الغربى والجنوبى الغربى ، ومتقدما عليهما إلى الأمام ، ووصل بينه وبين البرجين المذكورين وبين برج الزاوية الغربية بسور ضخم وممرات أرضية متقنة ، مما جعل منه مركزاً للدفاع عن الجهة الغربية كلها .

ويظهر أن الدافع للإسراع فى إكمال جهاز قلعة بصرى الدفاعى كان اشتداد الحروب الصليبية الذى تجلى بهجوم بودوان الخامس ملك القدس على أراضى المملكة الأيوبية وبلوغه بلدة (نوى) من حوران فى سنة ١٢١٧م ، ثم قيام الصليبيين بالهجوم على دمياط والمنصورة خلال السنة التالية . إلا

---

(١) لا تشير إلى ذلك كتابة تذكارية .

أن الملك العادل توفى وقام النزاع بين ورثته ، فتوقفت أعمال إكمال بناء قلعة بصرى مدة من الزمن ولم تعاود إلا بعد عشر سنوات من توقفها .

ومما يجدر ذكره إيضاحاً لما ذكرناه فى أن هذه الأعمال كانت تنفذ وفقا لمخطط مرسوم ، أنها توبعت فى منطقة من القلعة لم تشغل إلا بمنصة التمثيل والأوركسترا وطوابق المدرج من المسرح الرومانى . وقد ذكرنا أن منشآت القلعة الدفاعية الجديدة قامت خارج هذه الأقسام وجعلت مستقلة عنها وزودت بجميع ما تحتاج إليه من قاعات وممرات وأدراج ، على أن مستلزمات الدفاع اقتضت إحداث منشآت أخرى وكان من الطبيعى أن يفكر فى الاستفادة من منصة التمثيل والأوركسترا والمدرج عن طريق تغطيتها بمبان تكمل وظيفة ما ذكرنا من مبانى القلعة . وباعتقادى أن مياه الأمطار كانت فى القرن الثالث عشر تجتمع فى الأوركسترا كما تجتمع الآن فى الفصل المطير بسبب ارتفاع سوية الأراضى الخارجة عن القلعة مع الزمن . لهذا فإنه فكر بإنشاء صهريج دائم هناك يسد ماؤه حاجة حامية القلعة عن طريق جمع الأمطار ، ومدها بما يأتى من بركة الحج الرومانية التى تقع خارج القلعة بواسطة قناة فخارية تساير جسر القلعة المؤدى إلى مداخلها ويمر الجسر المذكور على خندق القلعة الذى أحدث فى زمن إنشاء الأبراج الخارجية . وكان لابد من تغطية الصهريج المكشوف بعد تنظيمه .

وهكذا فإن الأيوبيين بنوا سنة (٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ م) أو قبلها بقليل صهريجاً مستطيلا ضلعه الأول (٣١٫٥ م) من الشرق للغرب وضلعه الثانى (٢٥ م) من الشمال إلى الجنوب ، واعتمدت جدران هذا الصهريج من جهة على منصة التمثيل التى ردمت وملئت أرضها الصخرية بالأنقاض ، وعلى درجات الطابق الأول من المدرج من جهة ثانية وزرعت الأوركسترا بأربع وعشرين دعامة مربعة متوسطة إحداها فقط ملتصقة بجدار الأوركسترا ودعامات جانبية وشمالية وجنوبية وغربية ملتصقة كلها مبنية بالأحجار

المجهزة المتوسطة ، وضلع كل منها (٤٠ر١ م) ، وعقد فوق هذه الدعائم سقف (سمكه ٥ر٢ م) على ارتفاع (٥ر٣ م) . ثم جعل المهندسون فوق هذا الصهريج الذى ملأوا فواصل جدرانه بالملاط القوى حفظا على مائه من الترشيح ، قبواً امتدت جدرانه الشرقية والغربية والجنوبية على بقية درجات الطابق السفلى من المدرج واعتمد سقفه المعقود على ست دعامات ضخمة فى الوسط عرض كل منها (٠٥ر٢ م) والمسافة بين كل واحدة منها والأخرى (٥ر٥ م) وعلى ثلاث دعامات ملتصقة بالجدار الشمالى وثلاث أخرى ملتصقة بالجدار الجنوبى ، وكل هذه الدعامات تحمل أقواساً مجزوءة ويرتفع السقف المعقود بعقود محدودة من أحجار صغيرة وملاط عن أرض القبو بـ (٦ م) . وكانت إحدى دعاماته اليسرى بالقرب من مدخله الشمالى تحمل كتابة تشير إلى أن هذا المبنى شيد فى زمن السلطان الملك الصالح أبو الفدا إسماعيل بن الملك العادل فى سنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧ م ، وفى ولاية الأمير بدر الدين داوود أيدكين . هذا ويقع مدخل القبو فى الزاوية الجنوبية الغربية ، ويؤدى إليه درج جنوبى من الطابق العلوى . وله مدخل آخر من شرقه يؤدى بواسطة بعض الدهاليز إلى أحد ممرات المسرح . وأخيراً فإنه كان يمكن النفوذ إلى هذا القبو من جهته الشمالية بواسطة مدخل ثالث يقع فى جهة منصة التمثيل . وكانت تلحق به من الجهة الغربية أيضاً بعض القاعات المشيدة ضمن درجات المدرج الأوسط .

وبنى أيضاً على سوية أرض القبو ، وإلى الشمال منه فوق سوية منصة التمثيل مسجد صغير جعل مدخله فى الحنية المتوسطة من المنصة المذكورة ودلت كتابة على ساكف باب المسجد أن تشييده كان فى زمن الملك الصالح عماد الدين وتحت ولاية الأمير بدر الدين نفسه ، وقامت فوق القبو قاعة كبرى طولها (٥٠ر٣٠ متراً) من الشرق إلى الغرب ، وعرضها (٣٠ر٢٣ متراً) من الشمال إلى الجنوب . وقد كانت زردخانة (مستودع الزرد) ،

وذات بناء ضخم ومسقوفة بعقود مجزوءة عالية ارتفاعها (٦ر٥م) ومحمولة على ست ركائز متوسطة ضخمة مربعة مجهزة بأحجار متوسطة الحجم ، ويبلغ عرض كل ضلع منها (١ر٩٥ م) وعلى ثلاث ركائز شمالية وثلاث جنوبية واثنتين غربيتين ملتصقة كلها بالجدران المذكورة، كما كانت المسافة بين كل واحدة وأخرى (٥ر٥م) وفوق العقود والركائز المذكورة سقف سمكه (١ر٨٠ م) . وقد وجدت فى القاعة كتابة تشير إلى أنها بنيت بأمر الملك الصالح عماد الدين أبو الفدا إسماعيل . وفى ولاية الأمير بدر الدين بانى القبو وذلك فى سنة ٦٢٩ هـ = ١٢٣٢ م ولم يكن لها إلا مدخل رئيسى فى الجهة الشرقية . وكان يوجد إلى جانب هذه القاعة الكبيرة قاعات صغيرة أخرى ومنها الممر الذى يقع إلى شرق القاعة ممتدا من الشمال إلى الجنوب ويبلغ عرضه (٦ر٣٠ أمتار) ، وكان أيضاً مسقوفا بالعقود المجزوءة . ثم الدهليز الذى يحاذى الجدار الجنوبى من القاعة ، ومن هنا ينحدر الدرج إلى القبو الذى تحدثنا عنه . ولهذا الدرج درجات عريضة معقودة وكانت تقع قاعتان صغيرتان على الجدار الجنوبى من الزردخانة فى امتداد الدرج المذكور . وأخيراً يلحق بهذا القسم رواق جنوبى ثان ورواق غربى وبعض الملحقات الغربية الأخرى . وكانت كل هذه المنشآت تركز على درجات الطابق الأوسط من مدرج المسرح . وأخيرا فإن سمك السقف الذى كان يعلو دعائم وعقود كل هذه المنشآت (١ر٨٠ م) . والخلاصة أن أحداثات الملك الصالح عماد الدين إسماعيل أنهت إخفاء أقسام المسرح ، ولم يعد يظهر منه إلا بعض مقاطع من درجات الطابق الأوسط للمدرج ، وإلا درجات الطابق العلوى التى انتزع قسم كبير منها فى الجهة الغربية وأنشئ بدلا عنه ملحق للأبراج المتصلة بها .

ولايدرى أحد لماذا تركت الجهتان الجنوبية والجنوبية الشرقية الخارجتان عن كتلة المسرح دون أبراج مدة ثمانية عشر عاما أخرى ؟ والظاهر أن خطر غزوات

المغول التى تدفقت على العراق وسورية فى ذلك الزمن هو الذى دعا ملكاً أيوبياً آخر هو الصالح نجم الدين أيوب لمتابعة سد نواقص التحصينات فى الجهتين المذكورتين . وقد أقام هذا الملك برجا هائلا فى الجهة الجنوبية وزينه بكتابة على حجر أبيض ذكرت أنه أمر ببنائه فى ولاية شجاع الدين أنر الصالحى فى سنة ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م ويظن أن البرج الذى بجانبه شيد أيضا فى ذلك الزمن أو بعده بقليل ولا توجد عليه أية كتابة . وفى سنة ٦٤٩ هـ = ١٢٥١ م ، أقيم فى الجهة الشرقية جنوبى مدخل القلعة ، وبعد البرج الذى بناه منكورس سنة (٦١٠ هـ = ١٢١٦ م) برج مستطيل أخير زين هو أيضاً بكتابة تذكر أن الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى هو الذى بناه فى ولاية شهاب الدين ياقوت . والتاريخ المشار إليه آخر التواريخ التى عثر عليها فى قلعة بصرى .

وخلاصة القول أن منشآت قلعة بصرى الأيوبية أتم رفعها كلها بين نصفى دائرتين متداخلتين وفى وسط هاتين الدائرتين حول منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، فأتت مثلا رائعاً عن فن العمارة العسكرية العربية الإسلامية الذى بلغ آنذاك الذروة التى قدر له بلوغها .

وكان على القائمين بشؤون الآثار فى سورية فى عصرنا هذا أن يولوا اهتمامهم مسرح بصرى وقلعتها للأهمية الأثرية الكبرى التى يمثلانها . إذ أن الأبراج بعد مضى سبعة قرون على بناء أحدثها قد تداعى معظمها وانهارت سقوف طوابقها ، وطفحت ممراتها بالأنقاض والأتربة ، وتحطمت أدراجها وسدت مداخلها وغابت عن الأنظار مسالكها . أما المسرح فما كانت تدرك الأبصار منه إلا مشاهد جزئية لا تكاد تسمح لأشد الأخيلة العلمية جرأة على تصور ما كان عليه . وكنا نلقى المصاعب الجمة لما نخاطر بأنفسنا ونحاول دراسة أحد التفاصيل المعمارية فى المسرح أو القلعة ، فنزحف على بطوننا

حينا ، وتغور أقدامنا وسوقنا فى الوحول حينا آخر ، ونحمل المصابيح الكهربائية خشية المتاهات ونحترس احتراس متسلقى الجبال خوفا من انهيارات مفاجئة لجدران مائلة ومتصدعة تغلق علينا نهائيا هذه السراديب .

وقررنا أن نعمل كل سنة كل ما بوسعنا عمله لتقويم الوضع الذى وصفته ضمن الاعتمادات المالية التى تخصص للعناية بالمبانى الأثرية السورية كل سنة . ولم تكن هذه الاعتمادات كبيرة فى سنة ١٩٤٧ التى بدأنا فيها العمل ، ولا فى السنوات التالية . وكان ما أمكننا تخصيصه منها لبصرى آنذاك سنويا يتراوح بين (١٠ - ١٥ ألف ليرة سورية) . إلا أن براعة مراقب الآثار الأستاذ سليمان المقداد وخبرته بشؤون مبانى بصرى الأثرية كانتا تفعلان الأعاجيب بهذه المبالغ الصغيرة التى صارت تتضخم تدريجيا بعد سنة ١٩٥٥ حتى بلغت فى سنتنا الحالية (١٢٠ ألف ليرة سورية) . ولنا أمل وطيد أن نتمكن من مضاعفة هذا المبلغ الأخير فى السنة المقبلة .

واتضحت فى ذهننا خلال السنوات العشر الماضية تفاصيل خطة طويلة الأمد لإعادة الحياة إلى مسرح بصرى وقلعتها ، بعد تخليصهما من جميع الأنقاض التى تملأ درجاتهما ، وبعد ترميم وإصلاح جميع منشآتهما ، ومنها أسوار القلعة وأبراجها وممراتها ومداخلها وأدراجها لتكون مثلا عن العمارة العربية الإسلامية العسكرية ، ثم تخصيص هذه الأبراج لعرض بعض مجموعات الأسلحة الإسلامية التى نملكها ، - ولعرض المجموعات الفولكلورية الشعبية التى جمعناها من بصرى ومن قرى المنطقة ، وتحويل أحد الأبراج إلى استراحة للزوار . وانصرفت مديرية الهندسة فى مصلحتنا لتحقيق مفردات البرنامج المذكور بهمة ونشاط شديدين بإشراف المهندس نظمى خير الذى يصح أن يكتب اسمه فى السجل الذهبى لهذه الآبدة . ولا يزال العمل يجرى حتى اليوم فى أقسام قلعة بصرى . وإليكم ملخصاً عن النتائج التى أحرزناها فى هذا المضمار :

لقد اكتشفنا أكثر من ثلاثة أرباع ممرات القلعة والمسرح ، وأزلنا آلافا من أطنان الأنقاض منها ، وأصلحنا جدرانها ، وقومنا عقودها ، وأدخلنا الأنوار الكهربائية إليها وأصلحنا الأدراج وأرضيات الباحات المكشوفة بين الأبراج ، وكذلك فعلنا فى أبراج القلعة التى خلصناها من أنقاض طوابقها العلوية المنهارة ورممنا بعضها ، وأعدنا الحياة خاصة إلى البرج الشمالى الذى أحلناه إلى استراحة هادئة ينعم الزوار بجوها اللطيف ، وعرضنا فى قاعة داخلية منه بعض المصنوعات البصراوية الشعبية ، ودعمنا موقتا الأبراج التى تهدد بالانهيار ، وإذا لم تتح لنا حتى الآن فرص إصلاحها كلها فيعود السبب فى ذلك إلى أسباب سأشرحها بعد قليل .

ومهما يكن فقد رسمنا مخططات هذه الأبراج ، وقمنا بدراسات هندسية وأثرية عليها ، مما أوضح لنا فروق سوياتها ، ومناعتها وأسلوب عمارتها ، وتوفرت لنا معلومات فنية فى طرق استخدام العرب لأنقاض المبانى القديمة فى منشآتهم ، وفى نحت الأحجار الجديدة على وجه ووجهين ، وفى تجهيز السافات (المداميك) ، وتركيب الدعائم ، وأركاز السواكف ، وغرس الميازين والعقبان ، ورفع القناطر وعقد العقود المهدية والمهدية المحددة والمتصالبة ، ومقدار بروز الأبراج ، ورصف الأحجار ذات السطوح الخارجية الناتئة (البوساج) فيها ، وانحدار المائلة التى ترتكز عليها فوق الخندق ، وكيفية تآذر هذه الأبراج فى حالات الدفاع ، وتنظيم السقاطات وطاقات الرمى فيها ، ومدى عمل كل منها إلى الخارج ، وعددها فى كل برج ، وكذلك إعداد قاعات الرمى والحراسة فى داخلها ، واتباع تخطيطات دقيقة فى ذلك تسهيلا لتزويدها بالمحاربين وإقامة التعاون بينهم ، وسحبهم عند الاقتضاء منها . حسبنا أيضا ما طرأ على كل ذلك من تطور بين عصر المنشآت الأتابكية وبين عصر المنشآت الأيوبية .

وكنا نتطلع أيضا إلى المسرح الرومانى المغطى بمنشآت القلعة الأيوبية ،

وندرس كل الحلول الممكنة لإظهار أقسامه ، وإبراز المزايا النادرة التى تتوفر فيه ، وقد تبين لنا أنه يستحيل ذلك طالما أن البناء المتوسط الأيوبى الذى يستر درجات الطابق الأول والطابق الثانى للمدرج والأوركسترا ومنصة التمثيل ، قائم بكتلته المربعة الضخمة التى تحوى كما ذكرنا صهريج القلعة وقبوها وزردخانتها . وقد فكرنا طويلا فى قول الأثرى (فوغه) الذى كتب سنة ١٨٦٨ فى مسرح بصرى بعد أن زاره وعاين حاله ، ما يلى : « ما زالت هذه العمارة محافظة على جميع أقسامها ، وإذا قدر لها أن تتخلص يوما مما تراكب عليها من مبان أخرى لتمكنت من أن تبدى إلى الوجود شكل المسرح القديم أكثر من أية أطلال أخرى فى الشرق أو الغرب» .

وعز علينا أن نضحى بالمبنى العربى الجاثم فوق المسرح ، واستعرضنا حلولا متعددة للمحافظة عليهما معاً إلا أنه تبين لنا استحالة إظهار المسرح والوصول إلى الممرات السفلية المؤدية إلى بعض طوابق الأبراج السفلية قبل إزالة كتلة المكعب الضخمة . واستعنا بمؤسسة اليونسكو واستقدمنا سنة ١٩٥٤ لجنـــة دولية درست المسرح والقلعة دراسة وافية ، وضمنت تقريرها عنهما ما يلى :

« هاتان العمارتان أختان مرتبطتان بعضهما ببعض ، وقد قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بأعمال هامة لإظهارهما . ونعتقد أن على هذه المديرية أن تخطو خطوة جريئة أخرى وأن تهدم المكعب الضخم الذى ليس له إلا بعض الأهمية . وعندئذ يمكن إظهار هذا المسرح العظيم إظهاراً تاماً ، مع المحافظة على الأقسام الهامة من القلعة الإسلامية . إن مسرح بصرى من أكبر وأجمل وأكمل المسارح الرومانية الباقية ويقدم بمزاياه صفات خاصة فريدة . كما أن أبراج القلعة العربية تعد من أجمل آيات العمارة العسكرية فى العصر الوسيط . لهذا فعوضاً أن تسىء كل من هاتين العمارتين الواحدة إلى الأخرى كما هو

حالياً يمكنهما أن تتحسنا معاً ، وأن تقدما مشتركتين للزائرين لذات سياحية منقطعة النظير » .

ووافقت الحكومة السورية على تقرير اللجنة الدولية ، وأقر مجلسنا النيابى الاعتماد المالى اللازم لتنفيذ المشروع وبدأنا نخطو الخطوة الجريئة التى نصحنا أن نقوم بها وذلك منذ سنة ١٩٥٦ . ووجب علينا أن نفكك بكل حذر خمسين ألف متر مكعب من العمارة الضخمة المجهزة بالأحجار المنحوتة ، وأن نفرز منها كتل الأحجار التى كانت للمسرح القديم ، وأن نرحل الأنقاض الأخرى . وقد انصرفنا إلى هذا العمل بكايتنا ، وكنا نخشى الانهيارات المفاجئة ونتخذ الحيطة التامة فى هدم العقود التى تبلغ فتحاتها بين (٥ — ٦ أمتار) فى الزردخانة والقبو . ورأينا أن أضمن شكل لفكها ، أن نتخذ طريقة معاكسة للطريقة التى بنيت بموجبها . فننزع مفاتيح ذراها ثم الكتل التى تأتى بعدها ، وهكذا . . . واستخدمنا لوقاية عمالنا السقائل الهوائية والجسور الحديدية والخشبية التى زادت أطوالها على عشرة أمتار ، وكان علينا أيضاً أن نتخلص من الأنقاض . ولم يكن بالإمكان استخدام الآلات الحديثة الضخمة فى ذلك ، لأنه لا يمكن بلوغ منطقة الهدم إلا بعد الانحدار إليها من درجات المدرج العلوية . ولم نتمكن من إيصال بعض العربات والخطوط الحديدية الصغيرة إلا بصعوبة إلى المنطقة المذكورة ودفعنا لإنشاء بعض السطوح المائلة التى رفعنا عليها بالحبال المواد الواجب إخلاؤها .

ودامت عمليات فك المكعب الضخم ، وترحيل أنقاضه خلال سنوات ١٩٥٦ و ١٩٥٨ و ١٩٥٩ . وكانت النتيجة التى أدت إليها هذه الجهود أكبر مما تصورنا . إذ خرج للوجود ، بعد أن اختفى مدة سبعة قرون أعظم مسرح بنى فى الشرق فى العصر الرومانى ، عارضاً على أنظارنا المبهورة كتلته الهائلة التى يبلغ قطرها (١٠٢ م) وأقسامه المختلفة الفريدة التى تدل

دلالة أكيدة على ما بلغه فن العمارة المسرحية فى شرقنا العربى فى ذلك الزمن .

وسارعنا إلى مسح المسرح ورسم المخططات التفصيلية اللازمة له ، واتخاذ كل التدابير التى تؤدى إلى جعله مركزا من المراكز السياحية الهامة فى سورية . وكان فى حاجة ماسة للترميم ، وقد بدأنا عملياته قبل أن تنتهى عمليات التنقيب وترحيل الأنقاض .

وتبين لنا أن درجات مدرج المسرح خمسة فى الطابق العلوى وثمانية عشر فى الطابق المتوسط وأربعة عشرة فى الطابق السفلى . ووجدنا أن الواجب جعل أى شىء آخر يقضى بتقوية الأروقة التى ترتكز عليها درجات المدرج ، فأفرغناها من آلاف الأطنان من الأنقاض التى كانت تملؤها ، وأصلحنا عقودها ، وجدرانها ومداخلها وأدراجها ، وأعدناها إلى ما كانت عليه . وقد دفعنا خاصة إلى تقوية الجدار الخارجى المستدير الذى يستند عليه الطابقان المتوسط والعلوى من المدرج فى الجهة الجنوبية الشرقية . وكان ذلك عملية معمارية كبرى اقتضت كثيراً من الدراسة والجهد والمال ثم التفتنا إلى المدرج نفسه ، فأصلحنا سواكف عدد كبير من مداخله ، وما وراءها من عقود ، واستبدلنا عددا من الدرجات الواهنة ورممنا الأدراج الصغيرة الموصلة إلى كل طابق من طوابقه بعد الممرات المستعرضة التى تفرق الطوابق بعضها عن بعض .

وكان علينا أن نعنى بالرواق العلوى الجميل الذى يكلل هامة الطابق الأخير من المدرج معتمدا على عدد من الأعمدة الدورية . ولم يكن يوجد واقفا من هذه الأعمدة إلا اثنان فى الزاوية الشرقية من بدء عملية كشف المدرج . وقد أخرجنا من أنقاض المكعب الضخم عددا من الأعمدة الأخرى نصبنا منها اثنى عشر عمودا آخر إلى جانب العمودين الأولين ؛ وأربعة أخرى فى منتصف الرواق المذكور ؛ بعد أن أعدنا لها قواعدها وتيجانها

وما تحمله من بساتيل . وأصلحنا زاوية المبنى الشرقية المشار إليها وبذلك اتصلت الأعمدة الدورية المذكورة بأنصاف الأعمدة الملتصقة على الجدارين الجانبيين من منصة التمثيل .

ووجدنا قسم الأوركسترا سليما ، تمتد بلاطاته ذات الأحجام الكبيرة على نصف دائرة قطرها ٥٠ر٢٧ مترا . وهنا كانت تجلس جوقة الموسيقيين فى المسارح اليونانية ، وكبار المتفرجين فى المسارح الرومانية ، وكذلك الأمر فى المسارح الشرقية . وأكبر الظن أن مسرح بصرى كان يستخدم كما ذكرنا سابقا إلى جانب استخدامه للتمثيل وسماع الموسيقى لاجتماع المواطنين وتداولهم فى شؤون مدينتهم العامة ، ويدل على ذلك وجود درجين صغيرين فى واجهة منصة التمثيل كانا يصلانها بالأوركسترا .

وفى هذه الواجهة (البلبتوم) ستة محاريب مستطيلة عرض كل منها (٣٥ر١ — ٤٠ر١ م) وعمقه (٧٥ر٠ م) وخمسة محاريب نصف مستديرة نصف قطر كل فاصلة منها (٣٥ر١ — ٤٠ر١م) وعمق (٦٥ر٠ م) تتعاقب وراء بعضها ؛ وبين كل منها والآخر فواصل ؛ عرض كل منها (٢٥ر١ — ٣٠ر١م) وارتفاع كل منها عن الأرض (٢٠ر١ م) .

وكانت أرض منصة التمثيل مملوءة بالأنقاض المتراصة ويظن أنها جعلت على هذا الشكل عمدا عند ما بدئ ببناء كتلة المكعب . وكانت غايتنا من التنقيب فى هذا المكان معرضة أوضاعه لأن العادة جرت أن توضع فى مثل هذا المكان السفلى بعض أدوات التمثيل ولواحقه ؛ وأن ينزل إليه الملقن الذى يساعد الممثلين على أداء أدوارهم ، وقد وجدنا فيه صفا من الركائز المربعة وبعض الركائز الأخرى الملتصقة على الجانبين وعرض كل ركيزة (٤٥—٦٠سم) وترتفع نحو (٦٠ر١ — ٨٠ر١ م) وكلها مبنية من الأحجار المجهزة . ويظهر أنها كانت تحمل أربادا حجرية تتألف منها أرض المنصة ؛ وقد

وجدنا عددا من حبات الفسيفساء الحجرية مما جعلنا نعتقد أن الأرباد المذكورة كانت مغطاة بطبقة من الفسيفساء الحجرية .

ومما يجدر ذكره أنه كان ينزل إلى هذا المكان من الكواليس من باب خلف جدار منصة التمثيل وراءه على درج مؤلف من عدة درجات إلى أرض منصة التمثيل . وأكبر الظن أن هذا الدرج كان يستخدم من قبل الملقن وربما الممثلين أو مستخدمي المسرح . وقد أعدنا إنشاء أرض منصة التمثيل التي نتحدث عنها من الأسمنت المسلح وسيصار إلى فرش سطحها الخارجي بألواح خشبية وذلك لتهيئة إمكانية إعادة الاستفادة من المسرح .

واقتضى منا إصلاح جدران منصة التمثيل ولواحقها عناية خاصة . وقد اضطررنا لرفع كل الأحجار التي وضعها العهد الأيوبي في سافاتها العلوية ، وسددنا المدخل الذي أحدث في الجانب الغربي من حنيتها المتوسطة . وأعدنا فتح النوافذ التزيينية التي كانت لها قديماً ، ونظفنا أقسامها بالماء المضغوط الساخن ، وكحلنا فواصلها بالأسمنت . ونحن اليوم منصرفون إلى إعادة أعمدتها التزيينية إليها . وقد تبين لنا من الآثار المتبقية فيها أنه كان يحف بحنيتها المتوسطة عمودان ضخمان من كل جانب . ويبلغ قطر كل عمود من هذه الأعمدة الأربعة (٩٥ر. م) ، ويبلغ ارتفاعه مع قاعدته وتاجه الكورنثي (٣٥ر٩ أمتار) منها (٧٨ر٧م) جزع العمود ، و(٥٢ر. م) للقاعدة و(٠٥ر١م) للتاج . ويبتعد العمودان الأوسطان عن بعضهما من طرفي الحنية بين محوريهما بمسافة (٧٠ر٣ أمتار) . وكانت هذه الأعمدة الأربعة تحمل فوقها كورنيشا من الأوراق الكورنثية التي تنسجم مع التيجان ، عرضه (٩٠ر٠م) . ويعتقد أن كان فوق هذا الكورنيش جبهة مثلثة مرتفعة .

وإلى طرفي الأعمدة الأربعة وحول الحنيتين الجانبيتين كان يتوزع (٢٨) عموداً أصغر من الأعمدة المتقدمة ويبلغ عددها في كل جهة (١٤) عموداً ، وقطر كل منها (٦٥ ر٠ م) ، وارتفاعه مع قاعدته وتاجه الكورنثي

(٨٠ر٥ أمتار) منها (٥٥ر٤٧م) لجزع العمود ، و(٤٥ر٠م) للقاعدة و(٨٠ر٠م) للتاج . وقد عثرنا فقط على (١١ عموداً) قائمة فى أماكنها أو مضطجعة بين الأنقاض ، أما الأعمدة الأخرى فقد زالت . وهذه الأعمدة من الحجر الجيرى الأبيض ، وكان جدار منصة التمثيل خلفها ملبساً بألواح المرمر البيضاء التى وجدنا كسراً منها فى حفائر منصة التمثيل التى تحدثنا عنها ؛ وقد رأينا أن نعيد صب الأعمدة المفقودة من الأسمنت المسلح الأبيض بعد تلوينه بلون الأعمدة الباقية كما رأينا أن ننحت لها تيجاناً وكرانيش على شكل النماذج القديمة المتبقية ، والعمل فى ذلك يجرى اليوم بسرعة كبرى . وباعتقادى أن كل هذه الأعمدة ستكون بعد شهرين فى أماكنها . ومما لا أشك فيه أنه كان يوجد فوق طابق هذه الأعمدة طابق ثان وربما ثالث لأعمدة أخرى ، وتجرى أيضاً دراسات مفصلة مقارنة مع منصات المسارح الرومانية فى إيتاليا وتركيا واليونان من قبل بعض مشهورى المهندسين بالعمارة القديمة للتأكد من أوضاعها الحقيقية فى مسرح بصرى . وأخيراً لابد من الإشارة إلى ما يشعر به المرء من إحساس بالعظمة المنبثقة عن القوة المعمارية المتقشفة والمتبدية فى حنيات هذه الواجهة وفى أعمدتها ، وتيجانها وكرانيشها وفى الرواق العلوى للأعمدة الدورية فى المدرج الذى تحدثنا عنه ، وفى الأعمدة الملتصقة فى جدارى منصة التمثيل .

ومن الأمور التى تنفرد بها منصة التمثيل فى مسرح بصرى سلسلتا الألواج المنظمة على الجدارين الجانبيين فى مبنين متلاصقين أحدهما للألواج المنظمة على أربعة طوابق فى كل جانب وثانيهما متصل بالأول ومخصص لأدراج موصلة إلى هذه الألواج ، ووضع الألواج على الشكل الموصوف ابتكار معمارى جرىء يجعل من يجلس فيها يشاهد التمثيل دون أن يراه المتفرجون الجالسون على درجات المدرج كما أن الوصول إلى هذه الألواج عن طريق

الأدراج يخفى قدومه وخروجه . ولاشك أن الألواج المتحدث عنها كانت مخصصة أيضاً لحاكم بصرى وكبار القواد ورجال الدولة .

ووجدنا جميع درجات الأدراج مهدمة ومنهارة فوق بعضها ولم يكن يوجد ما يدل عليها إلا أماكنها فى الجدران . فرممت مبانيها وأعيدت درجاتها . وكذلك كانت الألواج متصدعة وقد انهارت سقوفها وتصدعت سواكفها ، ومالت جدرانها الخارجية ، ففكت هذه الجدران حجراً حجراً ، ثم جددت السقوف ، واستبدلت السواكف المتصدعة وأصبح الآن بإمكان كل الزائرين أن يصعدوا إليها ويهبطوا منها كما يحلو لهم .

ولم نجد حول منصة التمثيل فى مسرح بصرى غرفاً كانت تلحق بها وتخصص للممثلين كما نعهد ذلك فى المسارح الرومانية خارج سورية وفى مسرح مدينة تدمر . ولا يدرى إذا كان الممثلون يتهيئون للتمثيل فى رواق الكواليس خلف منصة التمثيل فى الطابق الأول أو فى أحد الطابقين العلويين منه ، أو فى المبنى القائم تحت المنصة المذكورة . ومهما يكن فقد أخليت كل الأنقاض التى كانت فى طوابق الكواليس وأصلحت الجدران ، وأعيد إنشاء عقودها . وقد أسهم فى هذا العمل المهندس عدنان المفتى بتفان وإخلاص شديدين .

وتم اكتشاف باحة تقع غربى منصة التمثيل يطوف بها من طرفها الشرقى والجنوبى رواق قائم على أعمدة ولها فى طرفها الشمالى ثلاثة أبواب . وهذه الأبواب الثلاثة كانت هى أبواب المسرح الخارجية التى كان يدخل منها جمهور المتفرجين ، الذين يتجهون جنوباً ويجتازون بابين وراء رواق الأعمدة فى جنوبها سالكين ممرات المدرج الداخلية إلى درجات طابقيه العلوى والأوسط ، وباباً ثالثاً فى غربها يمرون منه تحت منصة التحكيم (البارادوى)

إلى درجات طابق المدرج الأسفل ، وكذلك يوجد باب رابع فى جدار الباحة كان يؤدى إلى الألواج التى جرى الحديث عنها .

وكانت هذه الباحة مملوءة بكتل الأحجار الضخمة المنهارة التى يزيد وزن كل منها على عدة أطنان فأخليت كلها بعد جهود جبارة ، ورممت دعائم قناطر الرواق ، وأصلحت كل المداخـــل ، وكان ذلك خلال أعوام (١٩٦٠ – ١٩٦٢) .

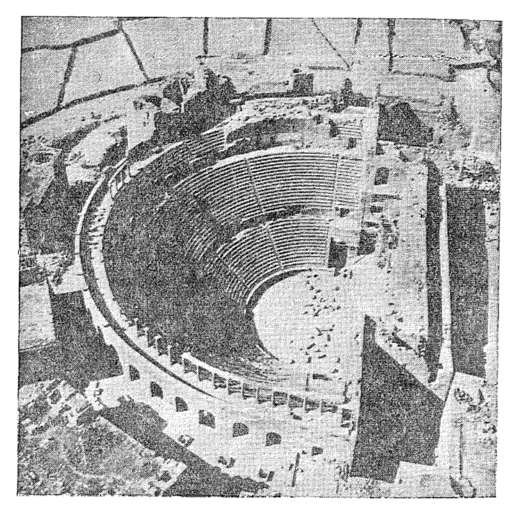
ولا ريب أنه كانت توجد باحة شرقية من الطرف الثانى من منصة التمثيل تماثل وتناظر الباحة الغربية التى تحدثنا عنها ، وأنه كان لهذه الباحة ثلاثة أبواب خارجية للمسرح . وبإضافة هذه الأبواب إلى الأبواب المتقدمة ، وإلى بابين آخرين كانا فى الجدار الشمالى لرواق الكواليس تصبح أبواب المسرح الشمالية ثمانية . ويصعب علينا ذكر عدد أبواب المسرح الأخرى التى كانت تتوزع حول المدرج المستدير .

وقد شغلت المنشآت الأيوبية الدفاعية الباحة الشرقية لذلك فإنها غابت عن الأنظار ولم تجد فائدة من إعادتها إلى ما كانت عليه سابقاً . ومن المستحسن أن ننوه أخيراً بالممرات الأيوبية الواسعة التى أضيفت خلف الكواليس ، وكانت واسطة الاتصال بين الطوابق الأرضية للأبراج المنشأة فى الجهات الغربية والشمالية والشرقية من القلعة . وقد أصلحنا مؤخراً هذه الممرات الكبرى ، وأصبح بإمكاننا الوصول إلى كل الأبراج المذكورة .

ولا ريب أنه ستمر سنوات طويلة أخرى قبل ترميم وإصلاح كل أجزاء قلعة بصرى ومسرحها . إلا أن إلحاح الرأى العام فى بلادنا علينا لمتابعة هذا العمل ، ومطالبته الحكومة بمنحنا كل ما نحتاج إليه من اعتمادات يجعلاننا نصمم على أن يكون مشروع إعادة الحياة إلى قلعة بصرى ومسرحها بين المشاريع الأثرية الأولى التى نسعى لإنجازها .

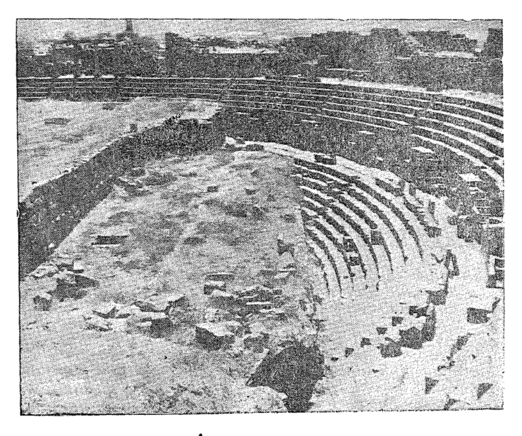
وقد استقر الرأى على أن يكون مسرح بصرى القديم بعد إنجازه مقراً لمهرجان دولى كبير تنظمه وزارة الثقافة والإرشاد القومى السورية ، وتدعو إليه فى شهر آب (أغسطس) من كل عام أعظم الفرق التمثيلية والموسيقية الأجنبية والعربية والسورية لتسهم بإنشاء ظاهرة هامة من ظواهر الثقافة الرفيعة فى الشرق العربى . وبذلك تكافأ الجهود التى بذلت فى هذا السبيل خير مكافأة .

لوحة رقم ١ - من مدرج مسرح بصرى وقلعتها



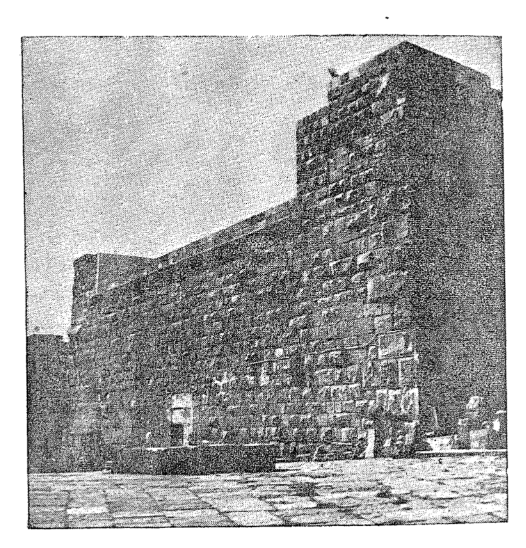
صورة جوية لمدرج بصرى بعد انتهاء أعمال الترميم والتنقيب فيه

لوحة رقم ٢ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



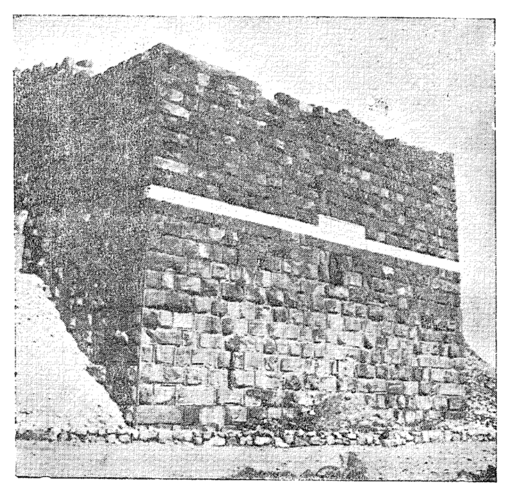
وضع مدرج بصرى بعد تنفيذ جزء من أعمال التنقيب فيه

لوحة رقم ٣ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



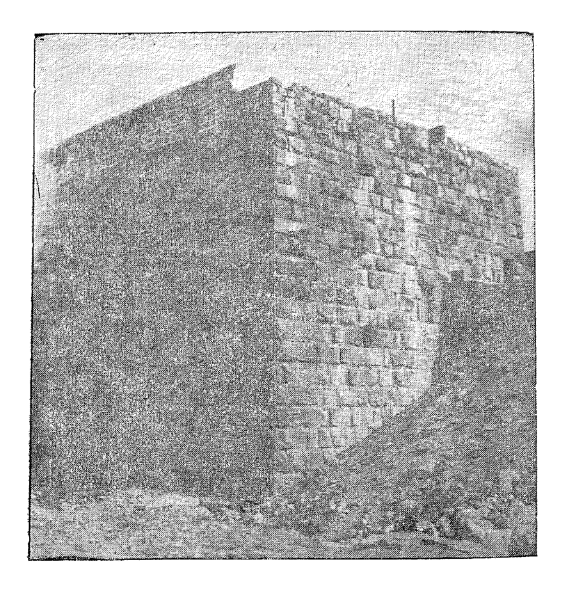
البرج الشمالى فى قلعة بصرى من الداخل

لوحة رقم ٤ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



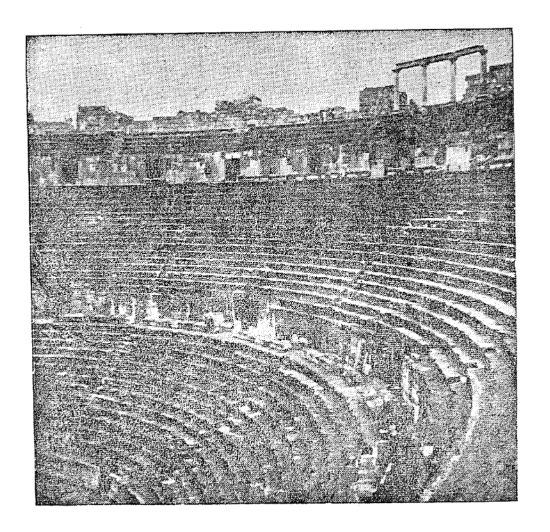
أحد الأبراج الغربية فى قلعة بصرى

لوحـــة رقم ٥ ــ مدرج مسرح بصرى وقلعتها



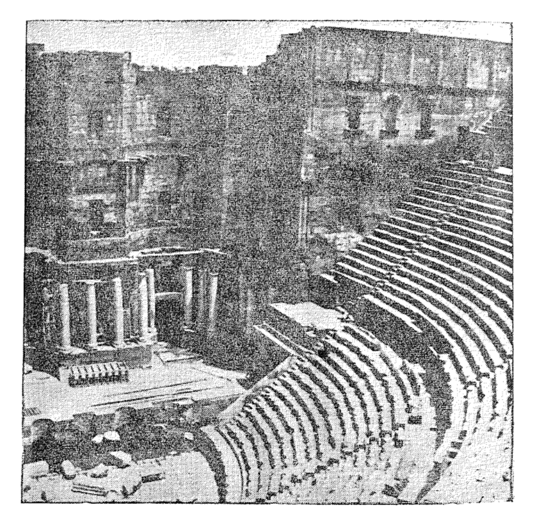
أحد الأبراج الجنوبية فى قلعة بصرى

لوحه رقم ٦ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



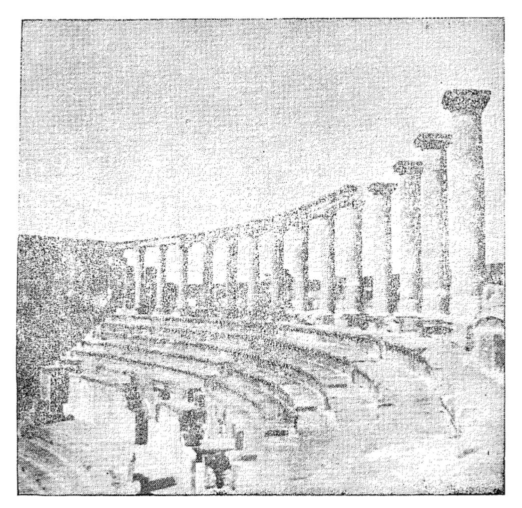
منظر عام لمدرج مسرح بصرى بعد انتهاء عمليات التنقيب فيه

لوحة رقم ٧ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



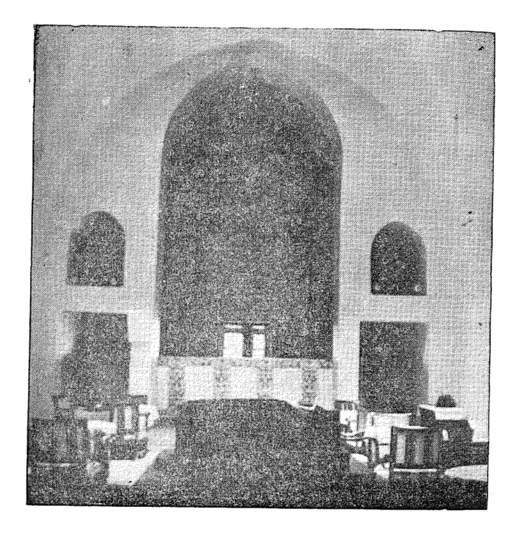
منظر جانبى لمدرج مسرح بصرى ومنصة التمثيل فيه بعد انتهاء عمليات كشفه

لوحة رقم ٨ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



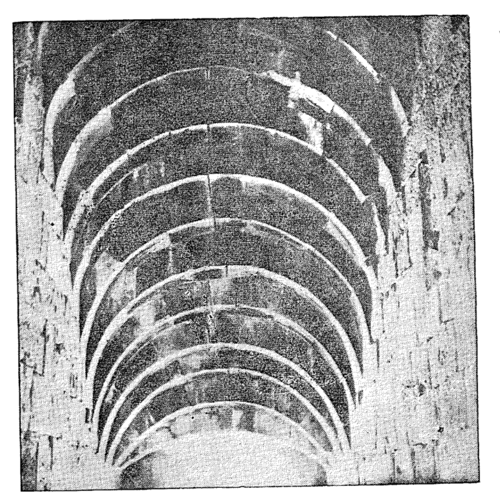
الزاوية العلوية اليمنى من مدرج بصرى بعد تركيب الأعمدة الدورية

لوحة رقم ٩ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



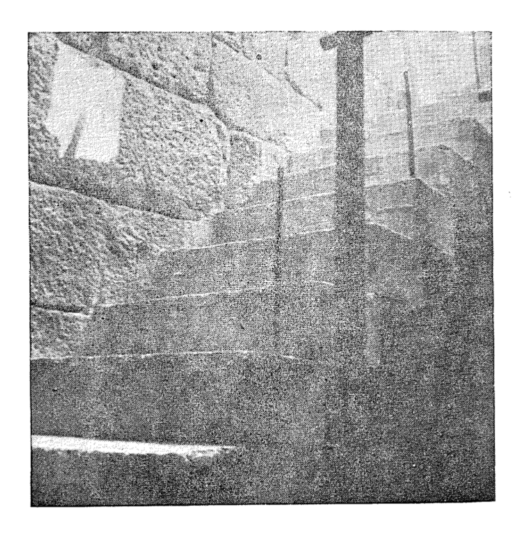
داخل البرج الشمالى بعد تحويله إلى استراحة لائقة للزوار

لوحة رقم ١٠ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



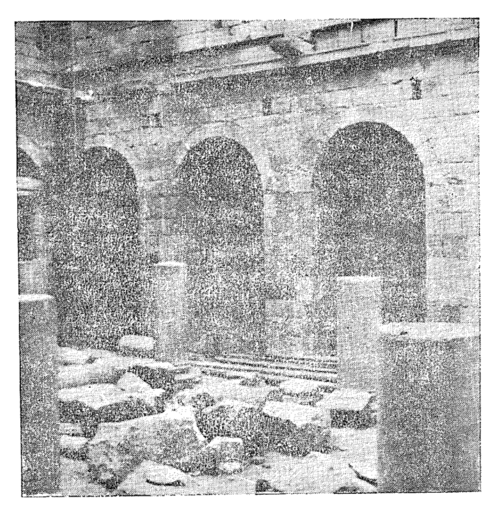
سقف أحد الأبراج مرفوعا على عدد من الأقواس التى أعيد إنشاؤها

لوحة رقم ١١ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



أحد أدراج الألواج اليسرى إلى جانب منصة التمثيل بعد إعادة إنشائها

لوحة رقم ١٢ – مدرج مسرح بصرى وقلعتها



الجانب الشمالى من الساحة الواقعة غربى منصة التمثيل ، وفيها الأبواب الثلاثة الخارجية التى كانت لمسرح بصرى

من روائع العمارة الإسلامية فى مصر

للأستاذ حسن عبد الوهاب

عرض تاريخى فى لنشأة العمارة الإسلامية
فى مصر والتأثيرات التى وقعت عليها ثم انفرادها
بطرزها المميزة لها على سائر الأقطار .

كانت الفتوحات الإسلامية سبباً فى نشأة العمارة والفنون الإسلامية ، ولقد نجح العرب فى تعريب الأقطار التى افتتحوها ، حيث اندمجوا فى أهل البلاد ، وتعلموا منهم الزراعة والصناعة ، وذلك بعكس ما اتهموا به من أنهم لم يمارسوا زراعة ولا صناعة ، ويدحض هذا الاتهام إجابة عمرو بن العاص على سؤال عمر بن الخطاب ، حينما سأله من أين لك هذا — إذ قال « وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى بأرض السعر فيه رخيص وأنى أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله » .

ولا شك فى أن المسلمين فى صدر دولتهم استعانوا بعباقرة الصناعة وغيرها ممن وجدوهم فى الأقطار التى افتتحوها . كما أنه كان من بينهم عدد من ذوى الصناعات لأنهم لم يكونوا كلهم من البادية كما توهم الكثير . بل كان منهم من اليمن والشام وهى بلاد لها حضارات عريقة .

ويبدو لى أن استعانتهم بصناع تلك البلاد فى مستهل فتوحاتهم كان غالباً للمنشآت المدنية وغيرها من منسوجات وصناعات أخرى ، ولذلك كانت كل المساجد الجامعة عند نشأتها فى صدر الإسلام مثالا للبساطة لا أثر للفن المعمارى فيها . فلا زخرف ، ولا بناء بالحجر ، ولا بياض ، ولا بلاط ، ولا محاريب مجوفة ، ولا منارات ، ولكنها لم تلبث طويلا حتى سايرت سنة التطور ، وهذا

نلمسه جليا فى تتبع تاريخ جامع عمرو بن العاص المنشأ بالفسطاط سنة ٢١ هـ ٦٤١ م . فإنه رغم إنشائه وسط الكنائس المسيحية فى عز ازدهارها ومجاورته لحصن قصر الشمع ، فإنه كان غاية فى البساطة ، بنى باللبن ، وسقّف بالجريد والطين ، واتخذت عمده من جذوع النخل ، ولم يكن له مئذنة ولا محراب . ثم تدرجت فيه أعمال الإصلاح مع الزيادات تبعا لأطراد التقدم والعمران ، وهذا ماكان يبدو أثره عاما بعد عام . وما انتهى القرن الهجرى الأول إلا وكان الجامع هدم وأعيد بناؤه أكثر من مرة مع الإضافة والتجميل . فقد هدم سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ م) وأعيد بناؤه وأحدث فيه المحراب المجوف اقتداء بالمحراب الذى أحدثه بالحرم النبوى عمر بن عبد العزيز سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م وأقيم به منبرا خشبيا جديدا سنة ٩٤ هـ (٧١٢ م) . وأحدثت فيه المقصورة اقتداء بمعاوية حيث فعل ذلك بالجامع الأموى بالشام .

ومن ثم سار الجامع فى درجات الكمال ومسايرة التقدم المعمارى فى زخرفة المساجد وتذهيبها وارتفاع مناراتها وكسوة جدران المساجد بالرخام والفسيفساء .

وهذا أكبر دليل على نهوض المسلمين بالعمارة والصناعة ، فإنهم ما تم لهم تمكين ملكهم الجديد وتوطيده . وما إن ألقوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار حتى نشطوا للفتح الثانى ، وهو الفتح العلمى والصناعى ، فأتوا فى الفتحين على قصر المدة بما لم يسبق له مثيل مما أثار الإعجاب . وأحدثوا لهم مدنية خاصة صبغوها بصبغتهم فى كل مظهر من مظاهرها ، وأبقوا لهم الأثر البين فيما نقلوه من علوم وفنون وعمارة . أما بالتنقيح والتهذيب أو الزيادة والاختراع .

وكان للصناعة والعمارة نصيب موفور تجلى فى منشآتهم منذ القرن الأول من مساجد وقصور وغيرها ، ينبئ بهذا تاريخ المسجد النبوى والمسجد الأقصى وقبة الصخرة . وجامع عمرو .

وخير دليل على عبقريتهم وميلهم لطبع كل شيء بطابعهم وأنهم نجحوا في تعريب وادى النيل تدريجياً فى مختلف النواحى الإدارية ، والفنية والمعمارية ، حتى اللغة ، ذلك أنه لم ينقض القرن الأول الهجرى إلا وأمر عبد الملك بن مروان بتحويل ضرب الدنانير الرومانية إلى عربية ، وذلك فى سنة ٧٧ هـ ٦٩٦ م . كما وأنه أمر فى سنة ٨٦ هـ ٧٠٥ م بنسخ الدواوين باللغة العربية وكانت تكتب بالقبطية .

ثم استطاع المسلمون بعد قضاء فترة الانتقال فى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد أن يؤلفوا فنا إسلامياً يطبعوه بطابعهم الخاص وبالمؤثرات التى وقعت عليه .

وأكثر من هذا أن العمارة والفنون فى مصر كانت تتطور مع الدول التى حكمتها فى العصر الإسلامى . وقد أضفى ولاة الدولتين الأموية والعباسية فى مصر على جامع عمرو بن العاص التأثيرات الأموية والعباسية طبقا لعادتهم فى زخرفة المساجد .

وحينما ولى عبد العزيز بن مروان مصر من قبل أخيه عبد الملك سنة ٦٥ هـ ٦٨٤ م حمل معه إليها الاهتمام بفخامة البناء فبنى بالفسطاط دار الامارة ذات القبة المذهبة سنة ٦٧ هـ ٦٨٦ م سماها دار الذهب ، وما كانت مصر قبل ذلك تعرف القباب المذهبة .

ولا عجب فالدولة الأموية دولة بناء وتعمير . كان من أهم أهدافها مناهضة الشعوب المسيحية وإقناعها بأن المسلمين قادرين على تكوين حضارة عمارية تضاهى حضارتهم وأن مساجدهم فاقت معابدهم فخامة وزخرفاً ، وأن عبد الملك بن مروان لما رأى كنيسة القيامة وعظمتها أقام قبة فخمة على الصخرة بالقدس وهى الآن إحدى عجائب العمارة الإسلامية وفخرها .

وكذلك فإن الوليد بن عبد الملك حينما رأى بالشام بيعاً وكنائس عنى بزخرفتها وفخامتها ، اتخذ للمسلمين الجامع الأموى بدمشق وجعله أحد عجائب الدنيا .

وقد انتقلت إلى مصر التأثيرات الأموية والعباسية إبان تنقل ولاتهما إلى مصر .

وحينما ظهر الفن العراقى فى مصر بعد أن نشأ فى سامرا وأنشأ أحمد بن طولون مسجده بمدينة القطائع سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م فقد حمل مهندسه تفاصيل العمارة العراقية من منارة ذات سلم خارجى ، ومن تصميم ومن زخرفة .

وهذا يدعم نظرية أن العمارة كما هو شأنها أصبحت تتأثر بالدولة الحاكمة لها . وأصبح التأثير والتنوع فى الطرز والفنون يشمل منشآت مصر على اختلاف مللها ونحلها .

الدولة الفاطمية :

وكذلك فإن الدولة الفاطمية أحضرت معها فى مستهل حكمها بالقاهرة بعض أساليب العمارة التونسية ، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات وأصبحت لها طابعاً قاهرياً بحتاً فى جميع تفاصيلها ، وهذا ما تناولته بالشرح والتصوير فى بحثى عن « الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة » :

الدولة الأيوبية :

وكان للعمارة والفنون التى ازدهرت فى ظل الدولة الفاطمية أثر كبير فى الدولة الأيوبية التى أعقبتها نلحظه فى صناعة الجص ، وفى نقش الأخشاب وفى المنارات .

والدولة الأيوبية وإن شغلتها الحروب مع الصليبيين ، إلا أنها خلفت وراءها ثروة معمارية فى مصر وسوريا ولكنها فى مصر انفردت بطرزها

واختلفت اختلافاً بيّناً عن سورية ، بل بزتها عمارة وزخرفاً ، اللهم إلا فى التحصينات .

ورغم أنها حكمت مصر من سنة ٥٦٧ — ٦٤٨ ﻫ ١١٧١ — ١٢٥٠ م وأنشأت فيها مجموعة من المساجد والمدارس والتحصينات ، فإنا نأسف لفقدان أكثرها ووجود عدد قليل من تلك الآثار غير مكتمل . ولكنها مع قلتها اشتملت على تفاصيل معمارية هامة تعتبر أساساً نسج على منواله فى كثير من الآثار التى أعقبتها ، وكانت باكورة لتطور كثير من التفاصيل المعمارية التى دقت وتهذبت فى كثير من الفنون الفرعية .

وفى أيام هذه الدولة ظهر بمصر تصميم المدرسة ذات التخطيط المتعامد ، ثم شاعت بعدها فى دولتى المماليك . وفيها ظهر على العمائر والطرف الخط النسخى واتخذ أساساً للنصوص التاريخية . واستعمل الخط الكوفى المزهر بجانبه للآيات القرآنية .

ومن مميزات هذا العصر ، تطور المنارة وظهور طرز مخصوص للقبة وبناء الإيوان منفرداً فوق القبور بدل القباب أو بجانبها وفيها كان ظهور الخوانق لإقامة الصوفية .

وفى هذا العصر انصرف الفنانون عن رسوم الإنسان والحيوان التى عاشت فى العصر الفاطمى وأبدعوا فى الزخارف النباتية والهندسية وقد نجحوا فى هذا الميدان حتى أصبحت العناصر الزخرفية التى ابتدعوها طابعاً لفنونهم .

ومن روائع تلك الدولة تابوت الإمام الشافعى .

هذا التابوت مخلف من عمارة صلاح الدين يوسف بن أيوب الأولى لقبر الإمام الشافعى . وهو تابوت فاخر من الخشب ، مستطيل وغطاؤه هرمى وجميعه حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية ، وجميع وجوه هذا التابوت مكونة من أطباق عربية كبيرة حشواتها منقوشة بزخارف نباتية دقيقة ،

من غصون مفرّعة وأوراق مفرّقة ، فى مجاميع متماثلة تتخللها أشكال نجمية ومسدّسة ، ومما زاد فى أهميته اشتماله على اسم صانعه « عبيد النجار المعروف بابن معالى » وتاريخ سنة ٥٧٤ هـ ١١٧٨ م .

ويرجع إلى هذا العصر بل وأستطيع أن أنسبه إلى صلاح الدين أيضاً تابوت المشهد الحسينى ، وهو تابوت خشبى يزرى بالذهب والفضة . كان محتجباً تحت أرضية المقصورة بقية المشهد الحسينى نحو ثمانية قرون ، وكان لى شرف اكتشافه ، وهو مكون من ثلاثة أجناب بحكم موقعه ومقاسه ١٫٨٥ متر × ١٫٣٢ متر × ١٫٣٥ متر ، وهو مصنوع من خشب ساج هندى ، مكون من جنب ورأسين ، ومقسم إلى مستطيلات رأسية وأفقية ، يحيط بها ويفصلها بعضها عن بعض إطارات مكتوبة بالخطين الكوفى المزخرف والبسيط والنسخ الأيوبى ، وهذه المستطيلات تحتوى على حشوات نجمية ومسدسة ، محفور بها زخارف نباتية مورقة ، تنوعت أشكالها فى جميع أجزاء التابوت .

وقد روعى فى اختيار الآيات القرآنية المنقوشة عليه ما يناسب تابوت جثمان طاهر من فرع الدوحة المحمدية ومنها : « بسم الله الرحمن الرحيم — رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت — إنه حميد مجيد » .

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وإنى أرجح نسبة هذا التابوت إلى صلاح الدين لأنه ثبت أنه عنى بهذا المشهد وأنشأ بجواره مدرسة ؛ ويحتمل جداً أن يكون أمر بعمل هذا التابوت كما أمر بصنع تابوت الإمام الشافعى سنة ٥٧٤ هـ وذلك لاتفاق صناعتهما واحتمال أن يكون صانعهما واحد . ولم يكتب صلاح الدين اسمه على كليهما .

ومن روائع هذا العصر قبة الإمام الشافعى التى أمر بإنشائها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل فى سنة ٦٠٨ هـ ١٢١١ م ، وهى قبة كبيرة من

أجمل القباب الخشبية وأكبرها بمصر ، بذل المهندس جهده فى زخرفتها وكسوتها بالقاشانى ونقشها من الداخل والخارج . وقد حليت جدرانها الداخلية بإزار خشبي به زخارف ناتئة ، كما امتازت بجمال الكتابات الكوفية المكتوبة فى أوتارها وبالكتابة الكوفية الأندلسية فى قطبها .

وبهذه القبة تابوت آخر فوق قبر أم الملك الكامل لا يقل فى أهميته عن تابوت الإمام الشافعى ، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت بالأويمة ذات الفروع النباتية تتوسطها حشوات نجمية اثنا عشرية آية فى الدقة والجمال .

ومن روائع العمارة فى تلك الدولة باب تربة الثعالبة التى أنشأها الشريف السيد الأمير إسماعيل بن ثعلب سنة ٦١٣ هـ ١٢١٦م وهو مبنى بالحجر له مزرر أحيط بترابيع صغيرة حفرت بها كتابات كوفية وزخارف متنوعة .

باب ومنارة المدارس الصالحية :

ومن روائع العمارة فى تلك الدولة المدارس الصالحية التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤١هـ ١٢٤٣م على رقعة من أرض القصر الكبير الفاطمى ، وقد تخربت ولم يبق منها سوى الإيوان الغربى بالمدرسة الشمالية وواجهتها الغربية الحافلة أعتاب شبابيكها الحجرية بنقوش متنوعة يتوسطها الباب تعلوه المنارة ، وهذا الباب تأثرت زخارفه المحيطة باللوحة التذكارية بالمحاريب الفاطمية فى أواخر عصرها . ومنارته وإن كانت أقرب شبهاً بالمنارة الفاطمية إلا أنها امتازت عنها بالزخارف النباتية فى طاقاتها المخوصة وبالتنوع الجديد فى خوذتها المضلعة والمقرنصات تحتها .

ومن القباب الجميلة التى أنشئت فى هذا العصر قبة الخلفاء العباسيين المنشأة فى أواخر العصر الأيوبى حوالى سنة ٦٤٠ هـ ١٢٤٢ م وهى وقبة شجر الدر ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م على طرز واحد اقتصر ظهوره بمصر على هذا العصر ، وامتازت قبة الخلفاء العباسيين بدقة الزخارف الجصية الموجودة بداخلها

وبالخط الكوفى الأندلسى وزخرفة مقرنصها كما امتازت قبة شجر الدر بدقة تلك الزخارف وبالفسيفساء المذهبة فى محرابها .

دولة المماليك البحرية : ٦٤٨-٧٨٤هـ ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م :

فى هذا العصر ازدهرت العمارة الإسلامية أيما ازدهار وذلك بسبب تنافس ملوكها وأمرائها فى تشييد المنشآت الخيرية والمدنية :

وقد عمرت تلك الدولة زهاء ١٣٦ سنة وقامت بالحكم فيها أكثر هذه المدة أسرة واحدة توارثت الحكم ، على رأسها المنصور قلاوون الصالحى ، وفى عهد هذه الأسرة وقعت على العمارة تأثيرات جزئية سورية ، كما ظهرت عليها بعض التأثيرات الفارسية والأندلسية لم تكن عامة فى جميع العمائر بل وقعت على بعض منشآت المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد .

ولم تلبث العمارة فى هذا العصر أن تخلصت من تلك المؤثرات وتمصرت وأخذت طابعاً خاصاً بها ميزها حيث تركزت قواعدها وترقت ، وظهر تحسن رائع فى المنارة والقبة وتنوعت أشكالهما ، وشاع إنشاء الخوانق والربط وظهرت بواكير الكساء بالقيشانى فى قمم المنارات ورقاب القباب ، وظهر المنبر الرخامى بجوار الخشبى ، وازدهرت صناعة الرخام وتنوعت الأبواب النحاسية مع تكفيت بعضها بالذهب والفضة .

إن الثروة المعمارية التى خلفتها تلك الدولة رغم ما ضاع منها كبيرة ، وقد تأخذنى الحيرة فى اختيار ما أعرضه ، ولكنى سأكتفى بنشر نماذج ممتازة من روائعها :

منارة زاوية الهنود بشارع التبانة :

أنشئت حوالى سنة ٦٦٠ هـ ١٢٦١ . وهى منارة جميلة النسب وقد جمعت بين المنارة الأيوبية والمملوكية .

مدرسة وقبة وبيمارستان قلاوون بشارع بين القصرين :

أنشأ هذه المجموعة السلطان الملك المنصور قلاوون على رقعة من أرض القصر الفاطمى الصغير ، وكان البدء فى إنشائها فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٣ م . وانتهت فى نهاية سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩١ .

والناظر لهذه المجموعة يرى منظراً من أروع المناظر للعمارة الإسلامية بالقاهرة ، فقد اشتملت الواجهة على عقود محمولة على عمد رخامية ؛ وبداخل تلك العقود شبابيك مفرغة بأشكال هندسية ، وبها إفريز مكتوب به اسم المنشئ وألقابه ، وتاريخ الإنشاء ، وعلى الطرف البحرى المنارة الضخمة المكونة من ثلاث دورات . وهذه المنارة جدد إنشاءها ابنه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م .

وتصميم القبة غريب بالنسبة للقباب غيرها بمصر . لكنه مقتبس إلى حدما من تصميم قبة الصخرة بالقدس . ومن أرضية هذه القبة إلى قمتها لا نرى إلا لوناً زاهياً ، وتذهيباً براقاً وزجاجاً ملوناً بالشبابيك الجصية وعقوداً محلاة بزخارف جصية مورقة . وكسيت الجدران بوزرة رخامية مطعمة بالصدف غاية فى الدقة فى تكوينها وألوانها . ومنها ما كتب فيه بالخط الكوفى المربع محمد مكررة ثمانى مرات أو اثنى عشر مرة بشكل زخرفى . ومحراب هذه القبة من أكبر وأدق المحاريب ، فقد كسى بالرخام الدقيق المطعم بالصدف ولا نظير له بين آثار مصر .

أجتزئ من وصف هذه القبة العظيمة بهذا القدر . لأنى مهما أطنبت فى وصفها فلا أوفيها حقها مكتفياً بنشر صورها ولم يبق من البيمارستان سوى ايوانين متقابلين .

وأمام القبة المدرسة ، وهى ذات تصميم خاص ، وقد احتفظت بتفاصيل إيوانها الشرقى بزخارفه الجصية وبالمحراب بفسيفسائه المذهبة .

عصر الناصر محمد بن قلاوون :

لقد حكم هذا السلطان أطول مدة فى دولة المماليك وأنشأ الكثير من المساجد والمدارس والقصور ، حتى إنه أنشأ ديواناً للأشغال . ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد تبارى أمراؤه فى إنشاء المدارس والمساجد والخوانق .

وأذكر من روائع تلك الدولة وخاصة عصر الناصر مدرسته بجوار قبة والده المنصور قلاوون سنة ٦٩٥ – ٧٠٣ هـ ١٢٩٥ – ١٣٠٣ م وبابها الرئيسي منقول من أحد كنائس عكا . وامتازت بجمال الزخارف الجصية فى المنارة وفى الإيوانين الشرقى والغربى وهى زخارف دقيقة متأثرة بالزخارف الأندلسية .

وزاوية زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٨ م وقد امتازت بجمال قبتها وبالطراز المكتوب برقبتها وبالزخارف المنتشرة فى باطنها ومقرنصها ، وبدقة الزخارف الجصية فى أفاريزها .

ومنها خانقاه الأمير سلار سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وقد امتازت بجمال الواجهة المشتملة على قبتين ومنارة جميلة ، كما امتازت بالشقق الحجرية المفرغة بزخارف مورقة وبالشبابيك الحجرية فوق الخلاوى المفرغة بأشكال زخرفية . وبالطرز الجصية المنقوشة داخل الخانقاه وفى حوشها .

أما خانقاه الأمير بيبرس الجاشنكير ٧٠٦ – ٧٠٩ هـ ١٣٠٦ – ١٣٠٩ م فقد امتازت بتصميمها وجمال وتنوع العقود بوجهة الإيوانين القبلى والبحرى ، حول الصحن وبفخامة مدخلها المكسو بالرخام الملون وبابها المكسو بالنحاس الدقيق . كما امتازت بمنارتها الضخمة التى كانت قمتها مكسوة بالقاشانى .

ومن المحاريب النادرة محراب المدرسة الطيبرسية بالأزهر سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م ذلك المحراب النادر الممتاز بتلبيس الرخام الملون بتشكيلاته الهندسية فى الرخام الأبيض ونماذجه نادرة ، وكذلك امتاز هذا المحراب بالفسيفساء المذهبة بتواشيحه .

ومثله محرابا المدرسة الأقبغاوية بالأزهر سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م فقد امتازا بدقة صناعة الرخام المطعم بالصدف وبالفسيفساء المذهبة فى طاقيتهما .

ومدرسة وقبة سنقر السعدى سنة ٧١٥ – ٧٢٢ هـ ١٣١٥ – ١٣٢٢ م وقد امتازت بجمال مدخلها المبنى بالحجر وبالأعتاب الحجرية المنقوشة .

أما القبة فقد حفلت بزخارف جصية من الداخل والخارج . وملحق بها منارة منفردة بطرزها وزخارفها وهلالها .

وعلى ذكر المنارات أذكر المنارة العظيمة الباقية من خانقاه الأمير قوصون بصحراء السيوطى سنة ٧٣٦ هـ ١٣٣٦ م ، تلك المنارة الحجرية المخلفة هى والقبة من خانقاه كبيرة . وامتازت بفخامتها مع تناسب أجزائها وخوذتها المخوصة . ولها ميزة أخرى وهى اشتمالها على سلمين فيما بين الدورة الأولى والثانية لا يرى الصاعد النازل فيها .

ومن المنارات الوحيدة فى طرزها منارة مسجد الأمير منجك اليوسفى سنة ٧٥٠ هـ ١٣٤٩ م فقد اقتبست قمتها من المنارة الأيوبية .

ونذكر من منشآت الناصر محمد بن قلاوون مسجده بالقلعة المنشأ سنة ٧٣٥ هـ ١٣٣٥ م فهو من المساجد الجامعة ، وقد كانت وزرته ومحرابه غاية فى الدقة والجمال ، وانفرد بطرز منارتيه وتنوعهما وكسوة قمتهما بالقاشانى ، وهو تأثير فارسى .

ومن الآثار الممتازة فى هذا العصر مسجد الطنبغا الماردانى سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م وهو مسجد كبير جمع محاسن العمارة المملوكية من مداخل فخمة كسيت بالرخام . ومنارة رشيقة . ومقصورة خشبية وحيدة ورخام دقيق مطعم بالصدف فى الوزرات وفى المحراب المعدود بين المحاريب الدقيقة الصنع . وامتاز بمجموعة من الزخارف الجصية التى تمثل أشجارا وبخاريات مذهبة ، هذا عدا منبره الدقيق الصنع وسقوفه المنقوشة بالأويمة والألوان والتذهيب .

ومن المساجد التى اكتسبت شهرة فى هذه الدولة مسجد آق سنقر سنة ٧٤٨ هـ — ١٣٤٨ م وقد امتاز برشاقة منارته وبمحرابه ومنبره الرخامى ، كما أنه انفرد بطرز عقوده والأكتاف الحاملة لها . وقد اشتهر بالجامع الأزراق نسبة إلى مجموعة القاشانى النادرة التى تكسو جداره الشرقى والتى

تكسو مدفن إبراهيم أغا مستحفظان الآمر بعمل هـــذه الكسوات فى سنة ١٠٦٢ هـ ١٦٥٢ م

ومن الحمامات الهامة حمام بشـــتاك الذى أنشأه الأمير بشتاك سنة ٧٤٢ هـ ١٣٤٢ م وقد امتاز بجمال واجهته الوحيدة المكسوة بالرخام الملون وعليها رنكه .

وقد تخلف من هذا العصر بقايا آثار تدل على ما كانت عليه من روعة وجمال ، مثل خانقاه أم أنوك زوجة الناصر حوالى سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م وقد امتازت قبتها بالقاشانى المكتوب برقبتها مقلدة فيه. قبة مدرسة أصلم السلحدار ٧٤٦ هـ ١٣٣٥ م . وبدقة الزخارف الجصية فى جانبى إيوانها .

ودرة منشآت هذه الدولة مدرسة السلطان حسن سنة ٧٦٤ هـ ١٣٦٤ م فهى غنية بفنونها وعمارتها ، ولا شك فى أنها من مفاخر العمارة الإسلامية ، فقد عنى بها السلطان حسن عناية شديدة واستمرت العمارة جارية فيها من سنة ٧٥٧ هـ — ١٣٥٧ م ، وكان يصرف عليها بسخاء عظيم ، وقد أجاد مهندسه محمد بن بيليك المحسنى فى وضع تصميمها ونجح كل النجاح فى تناسب أجزاء هذا البناء الضخم وأحسن فى اختيار زخارفه الدقيقة وكتاباته الكوفية .

وقد وضع تصميمها على طريقة التعامد التى تشتمل على أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة ، وهو إيوان كبير لا نظير له فى سعته وارتفاعه يحيط به إفريز نادر من الجص مكتوب عليه بالخط الكوفى آيات من سورة الفتح ، وبهذا الإيوان محراب رخامى دقيق يجاوره منبر من الرخام . وبه دكة رخامية للمبلّغ لبّست عُمد نواصيها برخام ملون .

وتقوم القبة خلف المحراب وهو وضع شاذ ، وهى قبة كبيرة كسيت جدرانها ومحرابها بالرخام الملون ونقش مقرنصها بالذهب والألوان وكتب

بطرازها الخشبي آية الكرسى وتاريخ الفراغ من بنائها . ومصراعا بابها الجنوبى مغشيان بالنحاس المنقوش والمكفّت بالذهب .

والمدخل الرئيسى بالطرف الغربى بالواجهة الشمالية ويبلغ ارتفاعه ٧٠ ر٣٧ متراً . ويعتبر هذا المدخل من طُرف العمارة الإسلامية ، فقد حلى من جانبيه بالزخارف المتنوعة الممتدة إلى أعلى ، وكثير منها لم يتم إلى الآن ، ولا عجب فقد توفى السلطان حسن سنة ٧٦٢ هـ – ١٣٦١ م وكانت المدرسة كاملة عدا بعض الأعمال التكميلية التى أتم بعضها الطواشى بشير الجمدار .

وفى ظل هذه الدولة تركزت قواعد المنارة المصرية وأخذت طابعها النهائى المميز لها فارتفعت وتعددت دوراتها ، حتى أنها فى نهاية هذا العصر اكتسبت رشاقة مثل منارة الأمير آسنبغا البوبكرى سنة ٧٧٣ هـ ١٣٧١ م وتأثرت بها المنارة الشركسية .

ومثلها القبة فقد تنوعت أشكالها وتطور بناؤها من الآجر إلى الحجر ووجدت منها نماذج رائعة ، مثل قبة عبد الله المنوفى نهاية القرن الثالث عشر التى سبقت قباب البندقية فى طرزها ، وقبة مدرسة الجاى اليوسفى سنة ٧٧٤ هـ ١٣٧٣ م . وقبة تكزبغا حوالى سنة ٧٦٤ هـ ١٣٦٢ . وقد انفردت بطرزها .

دولة المماليك الجراكسة : سنة ٧٨٤–٩٢٣هـ–١٣٨٣–١٥١٧م :

إذا أطلقنا على عصر العمارة فى دولة المماليك البحرية العصر الذهبى ، فجدير بهذا العصر أن يطلق عليه العصر الماسى ، ذلك أنه بعد أن تطورت العمارة فى دولة المماليك البحرية وتم تمصيرها فى هذه الدولة أخذت زخرفها وازّينت ، وتغلب تصميم المدرسة على المسجد وازدات المنارة رشاقة وجمالا ، كما حفلت القبة من خارجها بنقوش هندسية وأخرى مورقة ، ويكفينى من روائع تلك الدولة بعض المدارس والمساجد .

مدرسة الظاهر برقوق بالنحاسين ٧٨٦ – ٧٨٨هـ ١٣٨٤ – ١٣٨٦ م :

أمر بإنشائها الملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة ، وهى من المدارس الغنية بمختلف الفنون . فقد كسى الباب العمومى بالرخام وركب عليه مصراعان مغشيان بالنحاس المكفّت بالفضة وحليت الواجهة بشبابيك خشبية مجمعة بأشكال هندسية حلت محل الشبابيك الجصية وبها المنارة الشاهقة المطعم بدنها بالرخام ، والمدرسة من الداخل أربعة إيوانات متعامدة أهمها إيوان القبلة المقسم إلى ثلاثة أقسام أكبرها أوسطها وسقفه من رقعة واحدة حفلت بالزخارف الملونة والمذهبة .

وفى الطرف البحرى القبة وقد كسيت جدرانها بالرخام وهى غنية بالزخارف وخاصة طرازها ومقرنصاتها .

خانقاه فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية :

هذه الخانقاه بصحراء قايتباى . أمر بإنشائها الملك الظاهر برقوق قبل وفاته فنفذ ابنه الناصر فرج وصيته . وأنشأها لتؤدى عدة أغراض . أولها مدفنين للظاهر برقوق وأسرته : ثانياً مسجد لإقامة الشعائر الدينية . ثالثاً خانقاه لإقامة الصوفية .

وكان البدء فى إنشائها سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٨ م عقب وفاة الظاهر برقوق وانتهت عمارتها سنة ٨١٣ هـ ١٤١٠ م .

وهذه المجموعة تشغل مساحة تكاد تكون مربعة لها أربعة واجهات مبنية بالحجر ، فالوجهة الشرقية ينتهى طرفاها بقبتين كبيرتين حلى سطحهما بنقوش دالية تعتبر من بواكير زخرفة سطح القباب يتوسطهما قبة صغيرة فوق المحراب .

ويتوسط الواجهة الغربية منارتين رشيقتين ، ويحيط بصحنها أربعة إيوانات

ذات سقوف معقودة ، بالإيوانين القبلى والبحرى حجرات للصوفية تتصل بالحجرات خلفها .

وقد أقيم على فتحتى القبتين حجاب من الخشب المجمع بأشكال هندسية وحلى باطنهما بزخارف وكتابات ملونة ، البحرية منهما طرازها المكتوب جمع بين الخطين النسخى والكوفى .

ويجاور المحراب منبر حجرى حفرت بجوانبه وقوائمه زخارف دقيقة . أمر بعمله السلطان قايتباى سنة ٨٨٨ هـ ١٤٨٣ م وهو منبر فريد .

مسجد المؤيد شيخ :

هذا المسجد داخل باب زويلة وملاصق له . وهو فخر المساجد فى دولة المماليك الجراكسة . أمر بإنشائه الملك المؤيد شيخ المحمودى . وشرع فى حفر أساسه سنة ٨١٨ هـ ١٤١٥ م . وإلى أن توفى سنة ٨٢٢ هـ ١٤٢١ م لم تكن قباب المسجد كملت فدفن فى القبة البحرية . وهى قبة شاهقة حلى سطحها بنقوش دالية واستمرت الأعمال جارية إلى أن كمل المسجد ، وقد احتفظ بواجهته الشرقية الرئيسية ، وهى واجهة شاهقة البناء فى طرفها البحرى باب كبير كسى بالرخام الملون والجرانيت المرقط وغطى بمقرنصات دقيقة ، وقد ركب عليه مصراعان مغشيان بالنحاس من أكبر وأجمل الأبواب النحاسية نقلهما المؤيد إليه من مدرسة السلطان حسن .

وتتجلى عظمة هذا المسجد فى الإيوان الشرقى المحتفظ بتفاصيله وبنجارته . فالزخرف يغمره من الأرض إلى السقف . وقد كسى الجدار الشرقى بالرخام الملون وبالزخارف المذهبة والكتابات الكوفية ، وقد تنوعت زخارف السقف وهى أرقى نماذج السقوف الخشبية ، ويتوسط هذا الجدار محراب مكسو بالرخام الملون يجاوره منبر كبير مطعم بالسن والزرنشان من أجمل المنابر ، وكذلك فإن مصاريع أبواب القباب مطعمة بالسن .

وقد انتهز مهندسه فرصة وجود بدنتى باب زويله بجواره فاتخذ منهما قاعدتين لمنارتى المسجد . وهما منارتان من أجمل منارات بمصر .

مسجد قايتباى بالقرافة الشرقية :

أنشأه السلطان قايتباى ، وهو من خيرة ملوك الجراكسة وأطولهم مدة ، فقد كان رحمه الله من المغرمين بالعمارة وله منشآت خيرية كثيرة فى الأقطار الإسلامية ، وقل أن يخلو حى من أحياء القاهرة إلا وله فيه أثر لامع واتسمت جميع منشآته بدقة الصناعة .

شرع فى إنشاء هذا المسجد فى سنة ٨٨٧ هـ – ١٤٧٢ م ، وانتهى منه سنة ٧٨٩ هـ – ١٤٧٤ م ؛ والزائر له يستهويه بجمال فنونه ودقة تفاصيله لأنه جمع أرق التفاصيل المعمارية ويتجلى جماله فى وجهته البحرية المشتملة على المدخل والمنارة والسبيل والكتاب والشرقية المشتملة على قبته الشاهقة المحلى سطحها بنقوش مورقة بلغت الذروة فى نقش القباب .

أما من الداخل فهو تحفة فنية ، فالأرضيات فرشت بالرخام الملون برسوم مختلفة والسقوف نقشت بنقوش ملونة مذهبة ، والشبابيك ذات الجص والزجاج الملون من أدق وأرق النماذج ، وبه منبر وكرسى للمصحف دقت حشواتهما السن بالأويمة الدقيقة .

مسجد قجماس الإسحاقى بالدرب الأحمر:

أنشأه الأمير قجماس الإسحاقى أحد أمراء السلطان قايتباى سنة ٨٨٧ هـ ١٤٤٢ م وهو من أجمل مساجد المماليك الجراكسة ، فهو غنى بشتى الفنون وأينما اتجهت العين داخل هذا المسجد أو خارجه فلا ترى إلا صناعة دقيقة وألواناً زاهية . فالأرضيات بالصحن والإيوانات فرشت برخام ملون تنوعت رسومه ، وإيوان المحراب يستهوى الناظر إليه بما حواه من صناعات دقيقة وألوان أخاذة . وقد كسى صدره بوزرة رخامية ارتفاعها نحو خمسة

أمتار يتوسطها المحراب المكون من أشرطة رخامية ورخام مجمع ومطعم بالمعجون الملون يتوسطه اسم صانعه (عبد القادر النقاش) يجاوره منبر خشبي جمعت حشواته بأشكال هندسية ومطعم بالسن المدقوق بالأويمة . وهو من المنابر القيمة النادرة .

مدرسة أبو بكر مزهر :

أنشئت هذه المدرسة سنة ٨٨٤ – ٨٨٥ ه ١٤٩٧ – ١٤٨٠ م أمر بإنشائها أبو بكر محمد بن محمد الأنصارى المعروف بابن مزهر ناظر ديوان الإنشاء فى دولة السلطان قايتباى . وتصميم المدرسة ينبئ عن مهارة مهندسها لأن الأرض المزورة التى وضعت تحت يده قد تحصل منها على إنشاء قاعة للصلاة منتظمة ومستوفاة المضاهاة بالنسبة لمحورها ، وأجمل ما فى الوجهة الشرقية ، تلك المنارة الرشيقة القائمة فوق الباب العمومى المشتمل على ترابيع ومستطيلات رخامية منقوشة ومركب على هذا الباب مصراعين مغشيين بالنحاس المنفرد بدقته وتقاسيمه . أما داخلها فهو على جانب عظيم من الأهمية فقد كسيت جدران المحراب والمحراب برخام ملون ورخام ملبس بالمعجون الأحمر والأسود بأشكال زخرفية يتوسطها اسم الصانع عبد القادر النقاش) ويلفت النظر فيه دقة النجارة ، وتنحصر فى المنبر والأبواب والدواليب والمزيرة وكلها على غاية من الأهمية .

مسجد الغورى بالغورية :

كان الملك الأشرف قانصوه الغورى مغرماً بالعمارة . وليس أدل على غرامه بها من إنشائه فى منطقة واحدة مجموعة مكونة من مسجد وقبة وسبيل وكتاب ووكالة ومقعد ومنزل .

وهذه المجموعة من بواكير منشآته المعمارية لأن الفراغ منها كان فى سنة ٩٠٩ ه – ٩١٠ ه ١٥٠٣ – ١٥٠٤ م .

ولا شك فى أن هذا المسجد تحفة عصره ، فقد عنى به عناية بالغة وأفرط فى زخرفته إفراطاً أخرجه من وقار المساجد إلى بهرجة القاعات ، وتصميمه من الداخل أربعة إيوانات كسيت جدرانها بوزرة رخامية انتهت بإفريز مكتوب فيه بالخط الكوفى آيات من القرآن الكريم وتاريخ الإنشاء ، وبصدر الإيوان الشرقى محراب دقيق يجاوره منبر قيم دقت حشوات السن فيه بالأويمة وفرشت الأرضيات بالرخام الملون . وكما أسلفت القول فقد أسرف المهندس فى زخرفته فلم يترك جزءاً منه بلون زخرف حتى العقود نقشت صنجها .

وكما حرص مهندسه على التماثل والمضاهاة فى أجزائه الداخلية ، فقد تعدى هذا التماثل إلى خارجه ، فأنشأ تجاهه مدرسة وقبة وسبيلا اتفقا معه طولا وعرضاً وزخرفاً ، وهيأ لمن يعبر بينهما فرصة المتعة بجوفنى يملأ النفس روعة وجلالا .

العصر العثمانى :

كان لسقوط دولة المماليك ودخول مصر فى حوزة الدولة العثمانية واستيلاء السلطان سليم عليها أثر كبير فى تأخر الفنون والعمارة الإسلامية وذلك بحكم أخذه نوابغ الصناع وإرسالهم إلى استامبول ، وبحكم الحالة الاقتصادية التى سادت البلاد فى تلك الحقبة المظلمة ، فإن المنشآت المعمارية كانت مصرية الطرز فقيرة التنفيذ بسبب قلة المال ، ووقعت على بعض منشآت هذا العصر تأثيرات عثمانية ، ومنها ما أنشئ على الطرز العثمانى . أما نبوغ الصناع فقد كان كامناً ، وحينما يجد من يستطيع الصرف يظهر الفن العربى بأجلى معانيه . نلمس هذا فى قبة الأمير سليمان بالقرافة الشرقية المنشأة سنة ٩٥١ هـ ١٥٤٤ م فإن مهندسه حينما وجد نفسه وسط مجموعة من أرقى القباب اضطر لأن ينشئ قبة لا تقل عنها روعة ونراه ، أيضاً ممثلا فى مسجد كريم الدين أحمد البرديني فإنه لما أنشأ مسجده بالداودية سنة ١٠٢٥ ـ ١٠٣٨ هـ ١٦١٦ ـ ١٨٢٨ م وصرف عليه بسخاء ظهر نبوغ الصناع الكامل فكان مسجداً لا يقل روعة عن

جمال المساجد المملوكية ، فقد حفل داخله بمختلف الفنون ما بين وزرة رخامية تحيط بجدرانه ، ومحراب كسى برخام ملون دقيق مطعم بالصدف يجاوره منبر صغير مطعم بالصدف يناسب حجم المسجد ، وسقوف منقوشة ،

وتقوم على يسار الباب منارة حجرية من دورتين متأثرة بالمنــارة المملوكية .

مسجد سليمان باشا بالقلعة :

وأذكر من روائع العصر العثمانى مسجد سليمان باشا داخل القلعة . وهو أول مسجد أنشئ بمصر على الطرز العثمانى ، جدّد إنشاءه والى مصر سليمان باشا الخادم سنة ٩٣٥ هـ ١٥٢٨ م ، وهو فى تصميمه ينقسم إلى قسمين ، الشرقى المعدّ للصلاة ، تغطيه قبة كبيرة يحيط بها أنصاف قباب نقشت بنقوش دقيقة ملونة وكتبت بها آيات من القرآن بخطوط متنوعة وبشكل زخرفى ، أما القسم الغربى فهو الصحن وقد فرشت أرضيته بالرخام الدقيق ويحيط به أربعة إيوانات غطيت بقباب صغيرة كانت هى والقبة الكبيرة مغطاة بقاشانى أخضر .

أما المنارة فقد جمعت بين المنارة المصرية من حيث اشتمالها على دورتين ومقرنصات محكمة ، وبين المنارة التركية باشتمالها على مسلة كانت مكسوة بالقاشانى .

ومع أن المسجد منشأ على الطرز العثمانى من حيث التخطيط وبعض الزخارف إلا أن الكثير من تفاصيله متأثر بالعمارة الإسلامية فى مصر .

ومن المساجد التى أنشئت على الطرز العثمانى مسجد سنان باشا ببولاق سنة ٩٧٩ هـ ١٥٧١ م . أنشأه والى مصر سنان باشا . وهو مكون من قبة كبيرة تقوم على أربع زوايا معقودة ، وبرقبتها مجموعة من الشبابيك الجصية والدوائر الحجرية .

ويحيط بالقبة من جوانبها الثلاثة البحرية والقبلية والغربية إيوانات مغطاة بقباب صغيرة .

أما زخارف المحراب الرخامى والمنبر فإنها مملوكية الطرز .

ومن روائع هذا العصر سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا بشارع بين القصرين سنة ١١٥٧ هـ ١٧٤٤ م أنه من أجمل نماذج الأسبلة التى شاع انتشارها فى هذا العصر ، وامتاز بدقة النقوش فى رخام تواشيخ الشبابيك وشبابيكه النحاسية المصبوبة . وقد كسيت جدران السبيل من الداخل بقاشانى تركى به صورة الكعبة ، ولا عجب فقد امتازت منشآت هذا الأمير وما أكثرها بالدقة والجمال ، ومنها تلك الزاوية اللطيفة التى أنشأها بالسروجية سنة ١١٤٥ هـ ١٧٣٢ م ، وأعماله بالجامع الأزهر .

وقد احتفظت الدار الإسلامية المصرية بطابعها فلم يطرأ عليها تغيير وظلت محتفظة بدقة الكثير من الصناعات وخاصة فى النجارة والرخام ونذكر من تلك الدور :

منزل السحيمى :

هذا المنزل من الدور القديمة التى احتفظت بجميع تفاصيلها . وهو يرجع إلى عصرين : فالقسم القبلى منه وبه المدخل الرئيسى وما يتصل به من مقعد وقاعات ومشربيات من إنشاء الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى سنة ١٠٥٨ هـ ١٦٤٨ م ثم امتلكه الشيخ أحمد بن محمد السحيمى .

والقسم البحرى من المنزل من إنشاء الحاج إسماعيل بن الحاج إسماعيل شلبى سنة ١٢١١ هـ ١٧٩٧ م وأدمج فى القسم الأول . ويشمل هذا القسم التختبوش بعموده الرخامى والقاعة أعلاه بمشربيتها الكبيرة . وقد كسيت جدرانها بمجموعة من القاشانى .

ويتبع هذا الجناح القاعة الغربية بالدور الأرضى . وهى قاعة كبيرة ذات

إيوانين تتوسطهما فسقية من الرخام الدقيق بنافورتها المفرغة بأشكال زخرفية .

ولاشك أن هذا المنزل من أكمل المنازل الأثرية بالقاهرة ويعطى أحسن فكرة على ماكانت عليه دور مصر .

ومن الدور المحتفظة بتفاصيلها — دار جمال الدين الذهبي : بحارة خشقدم .

أنشأ هذه الدار الخواجا جمال الدين الذهبي شاهبندر التجار بمصر سنة ١٠٤٧ هـ ١٦٣٧ م . وجمال هذا المنزل ينحصر فى داخله ويتجلى جماله فى فنائه حيث يشرف عليه المقعد وتحيط به المشربيات .

على أن أهم قسم فى هذه الدار قاعتها الكبيرة فإنها مثال راق لقاعات الدور ، فقد غشيت جدرانها بوزرة رخامية دقيقة يتوسطها محراب وبصدرها مشربية تعلوها شبابيك جصية .

هذا عدا الأسقف المموهة بالذهب والألوان . وبالإيوان البحرى لهذه القاعة توجد المغانى على جانبيه .

ومن روائع العمارة فى القرن التاسع عشر مسجد المرحوم محمد على باشا بالقلعة وهذا المسجد من أجمل منشآت القرن التاسع عشر فى مصر وكان الشروع فى إنشائه سنة ١٢٤٦ هـ — ١٨٣٠ م واستمر العمل فيه بلا انقطاع حتى توفى إلى رحمة الله سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨م .

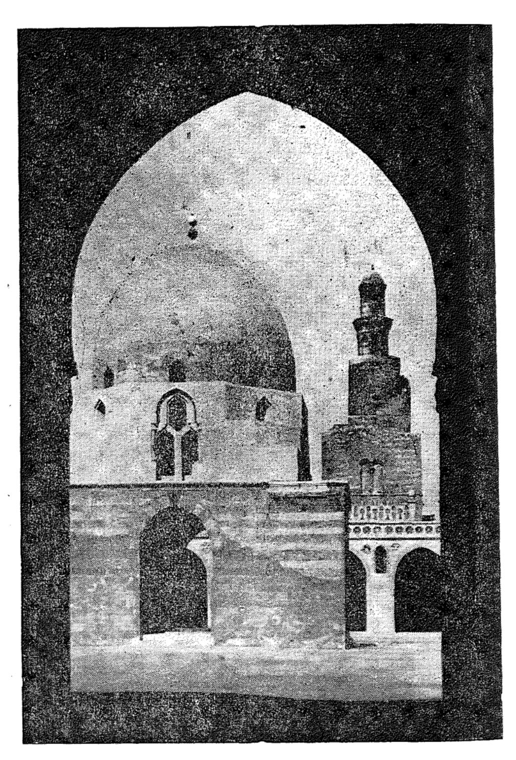
والمسجد فى مجموعه مستطيل ومنقسم إلى قسمين الشرقى منهما مربع الشكل تتوسطه قبة قطرها ٢١ متراً وارتفاعها ٥٢ متراً نقشت بنقوش ملونة مذهبة وكسيت جدرانها من أسفل برخام الألبستر المستورد من محاجر بنى سويف ، ومنبره القديم من الخشب المحلى بنقوش بارزة مذهبة .

والقسم الثانى الصحن تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة تتوسطه قبة الوضوء

الرخامية القائمة على ثمانية أعمدة من الرخام ، ويتوسط الرواق الغربى الساعة الدقاقة التى أهداها ملك فرنسا لويس فيليب ملك فرنسا سنة ١٨٤٥ م للمسجد ؛

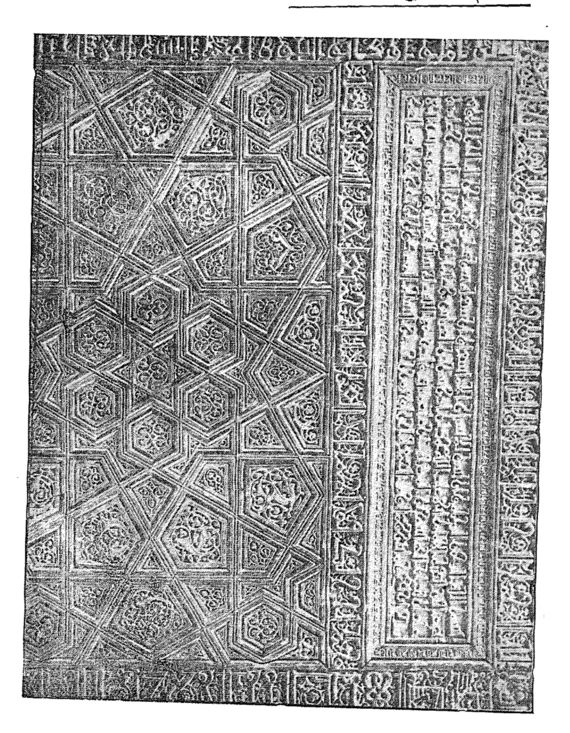
وللمسجد منارتان رشيقتان بارتفاع ٨٤ متراً عن مستوى أرض الصحن ؛ وموقع المسجد من أجمل المواقع ، إذ يشرف على القاهرة بمنارتيه وقبته الكبيرة ترمقه العيون من جميع أنحائها .

لوحة رقم ١ — روائع العمارة فى القاهرة



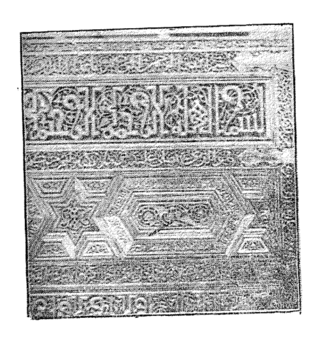
الجامع الطولونى

لوحة رقم ٢ – روائع العمارة فى القاهرة



تابوت الإمام الشافعى

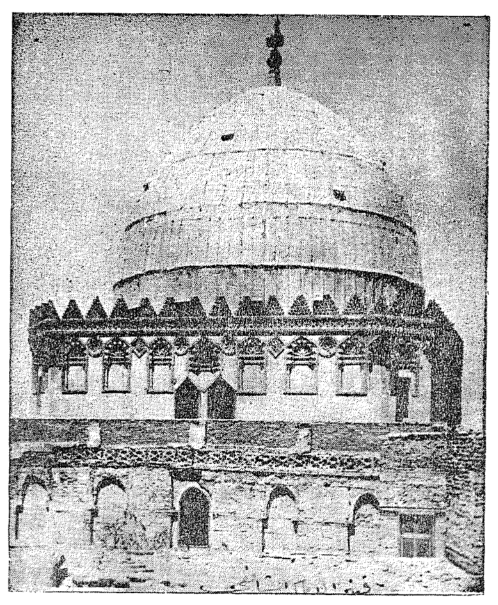
لوحة رقم ٣ — روائع العمارة فى القاهرة





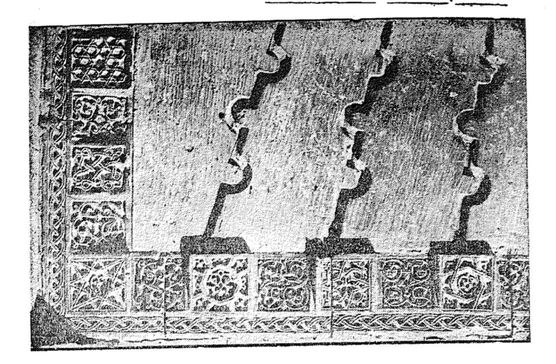
تفاصيل من تابوب المشهد الحسينى

لوحة رقم ٤ — روائع العمارة فى القاهرة

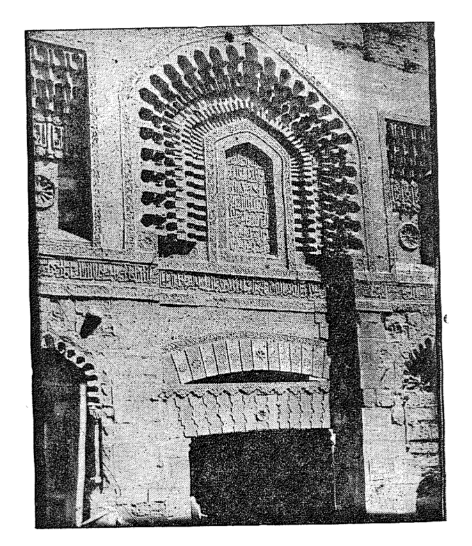


قبة الإمام الشافعى

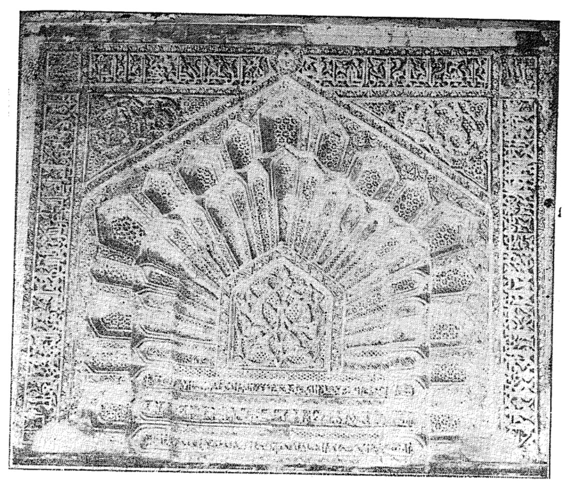
لوحة رقم ٥ — روائع العمارة فى القاهرة



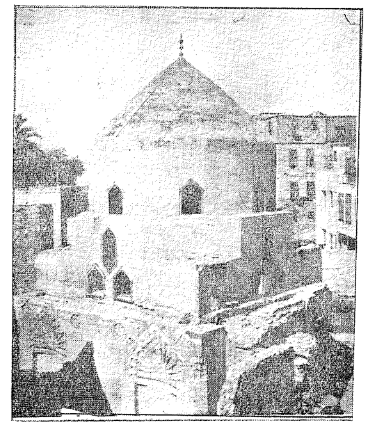
باب إسماعيل بن ثعلب



باب مدارس الصالح نجم الدين

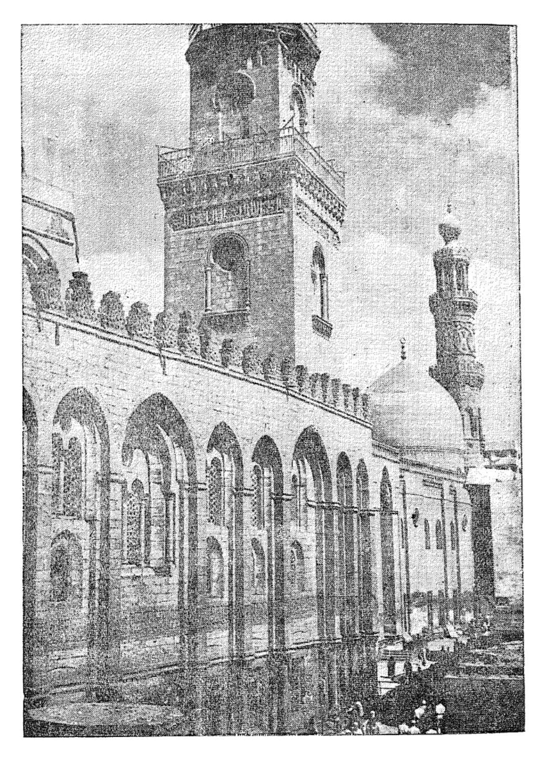


محراب قبة الخلفاء العباسيين



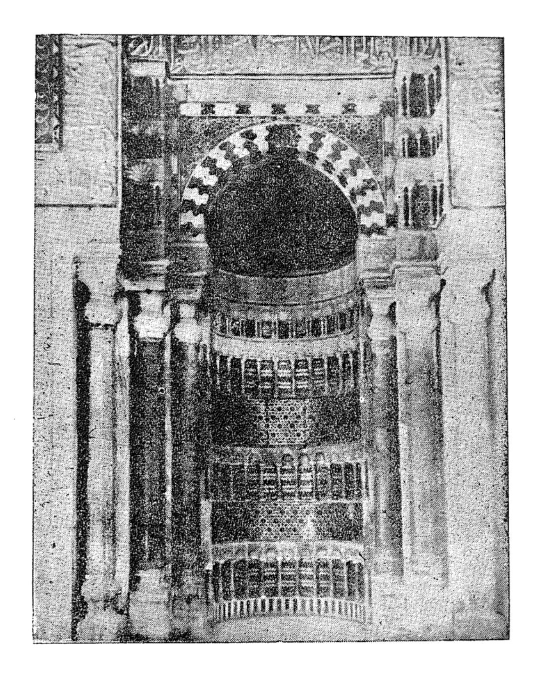
قبة شجر الدر

لوحة رقم ٧ — روائع العمارة فى القاهرة



قبة ومنارة المنصور قلاوون وفى طرفها قبة ومنارة الظاهر برقوق

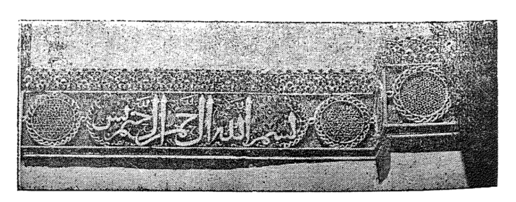
لوحة رقم ٨ — روائع العمارة فى القاهرة



محراب قبة قلاوون

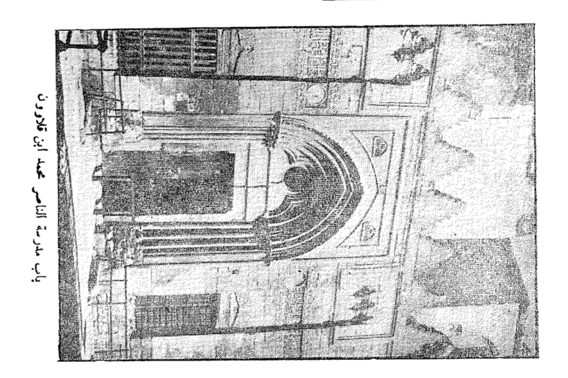
لوحة رقم ٩ ـ روائع العمارة في القاهرة

داخل قبة المنصور قلاوون



طراز جصي في زاوية زين الدين يوسف

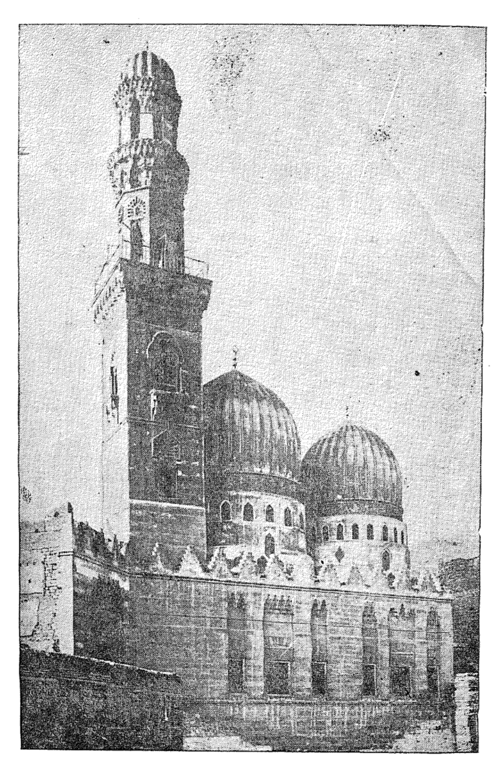
لوحة رقم ١٠ ــ روائع العمارة فى القاهرة



باب مدرسة الناصر محمد ابن قلاوون

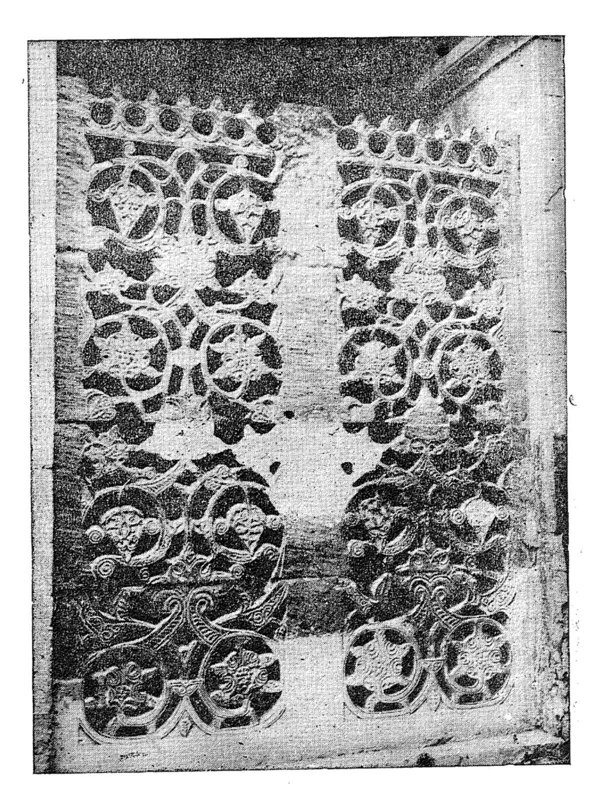
داخل مدرسة قلاوون

لوحة رقم ١١ — روائع العمارة فى القاهرة



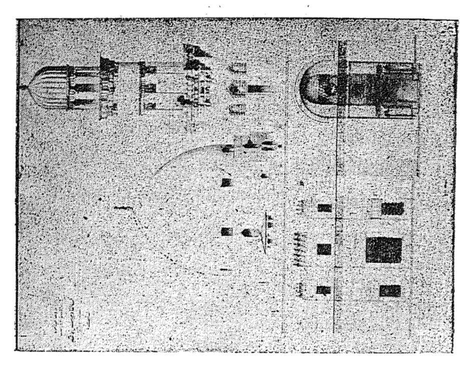
الخانقاه الجاولية

لوحة رقم ١٢ – روائع العمارة فى القاهرة

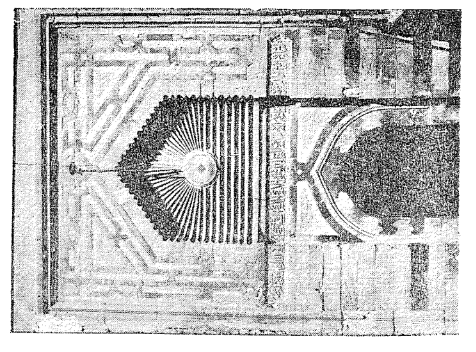


شباك من الحجر المفرغ بالخانقاه الجاولية

لوحة رقم ١٣ ـ روائع العمارة فى القاهرة

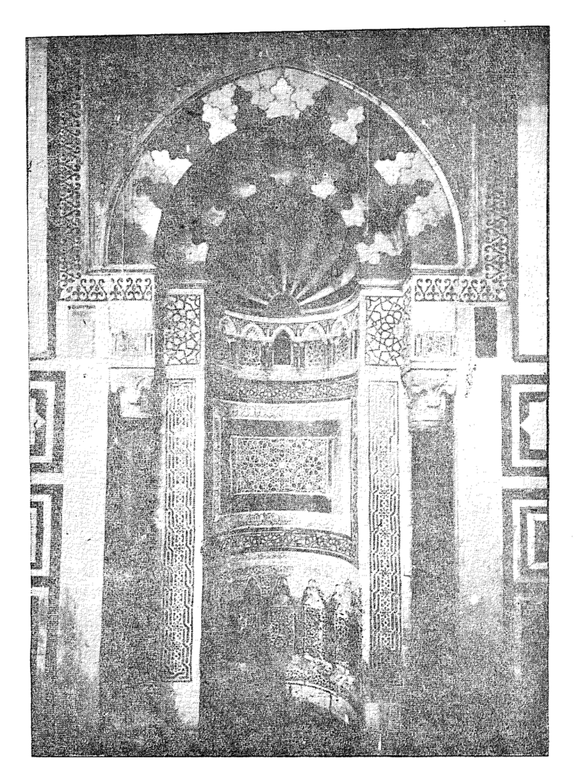


واجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير



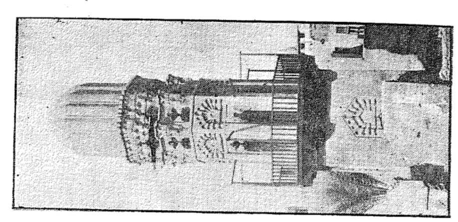
باب حمام الأمير بشتاك

لوحة ١٤ – روائع العمارة فى القاهرة

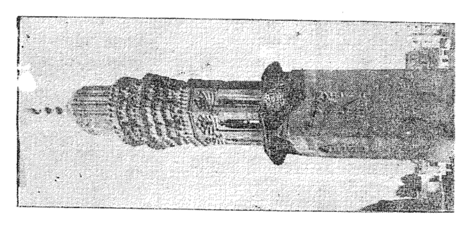


محراب المدرسة الطيبرسية

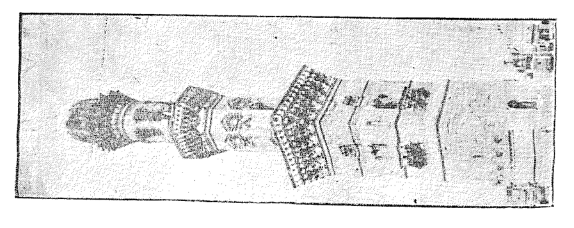
لوحة رقم ١٥ – روائع العمارة فى القاهرة



منارة قوصون

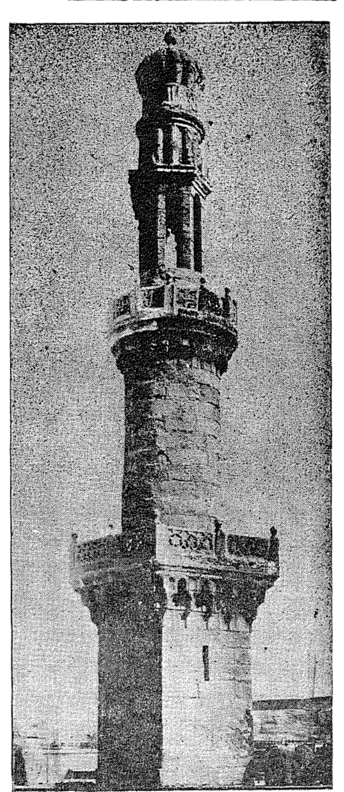


منارة زاوية الهنود



منارة سنقر السعدى

لوحة رقم ١٦ — روائع العمارة فى القاهرة



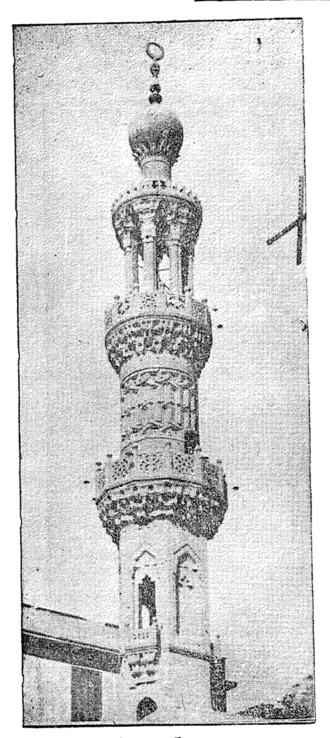
منارة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة

منارة مسجد منجك اليوسفى

لوحة رقم ١٧ – روائع العمارة فى القاهرة

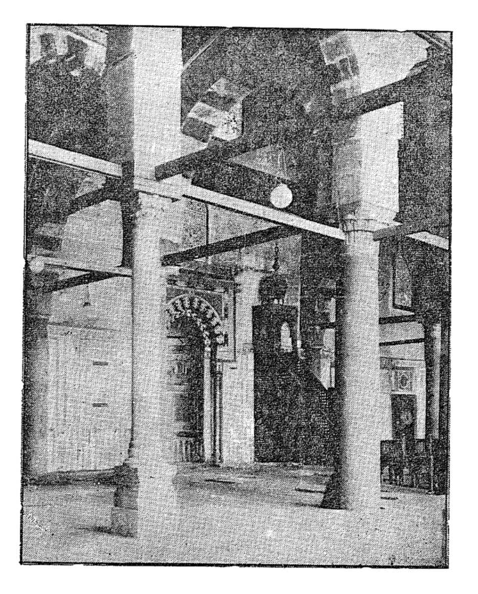


منارة مدرسة ألجاى اليوسفى



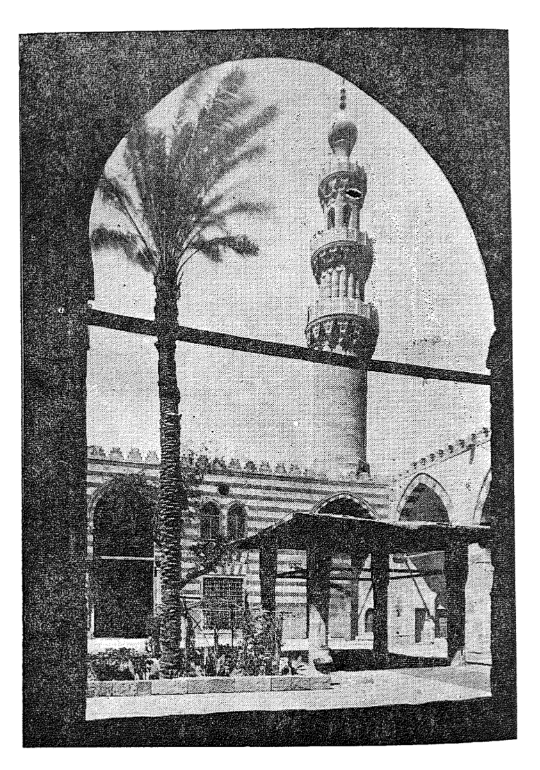
منارة مسجد آسنبغا البوبكرى

لوحة رقم ١٨ – روائع العمارة فى القاهرة



داخل مسجد المـــاردانى

لوحة رقم ١٩ – روائع العمارة فى القاهرة



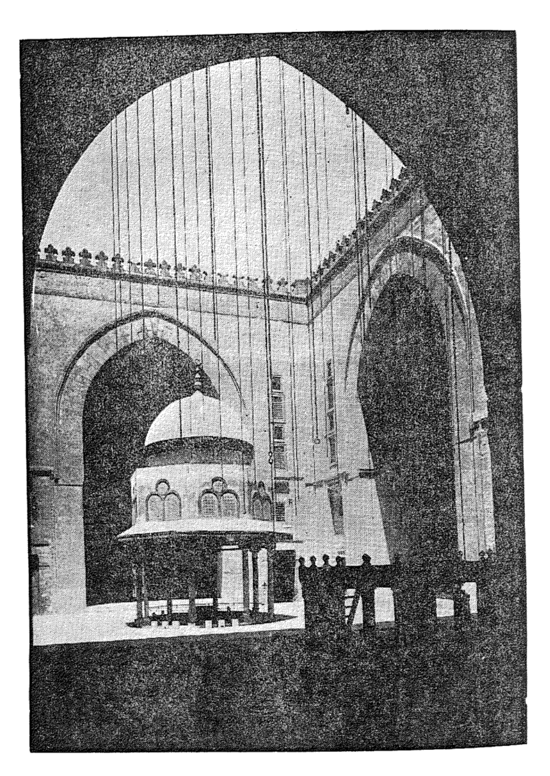
مسجد آق سنقر (إبراهيم أغا)

لوحة رقم ٢٠ — روائع العمارة فى القاهرة

مدرسة السلطان حسن

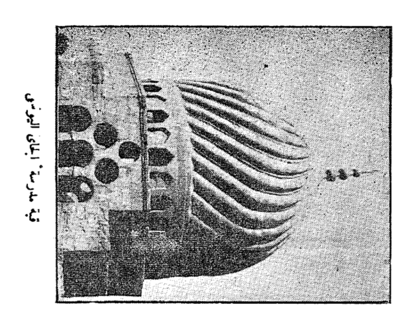
مسجد الرفاعى

لوحة رقم ٢١ – روائع العمارة فى القاهرة

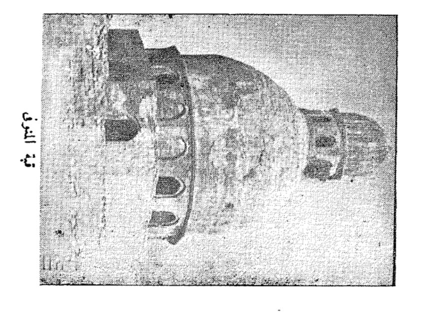


داخل مدرسة السلطان حسن

لوحة رقم ٢٢ ـ روائع العمارة فى القاهرة

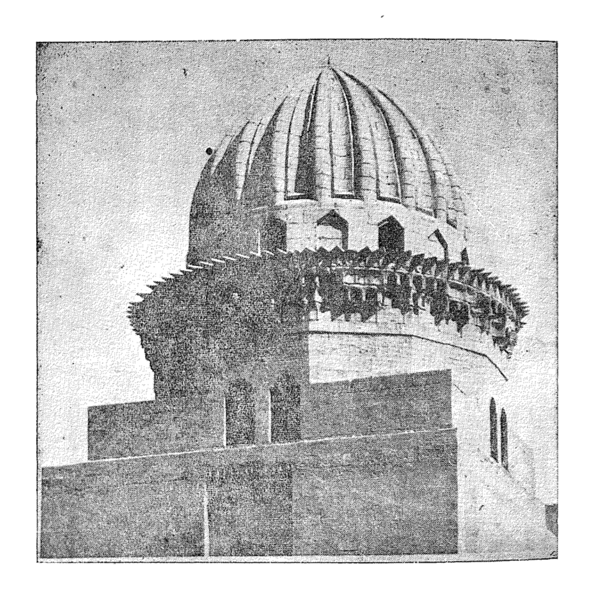


قبة مدرسة الجاى اليوسفى



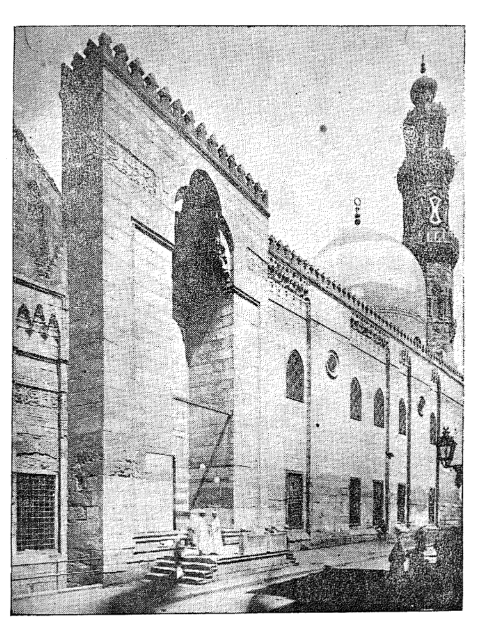
قبة الغورى

لوحة رقم ٢٣ — روائع العمارة فى القاهرة



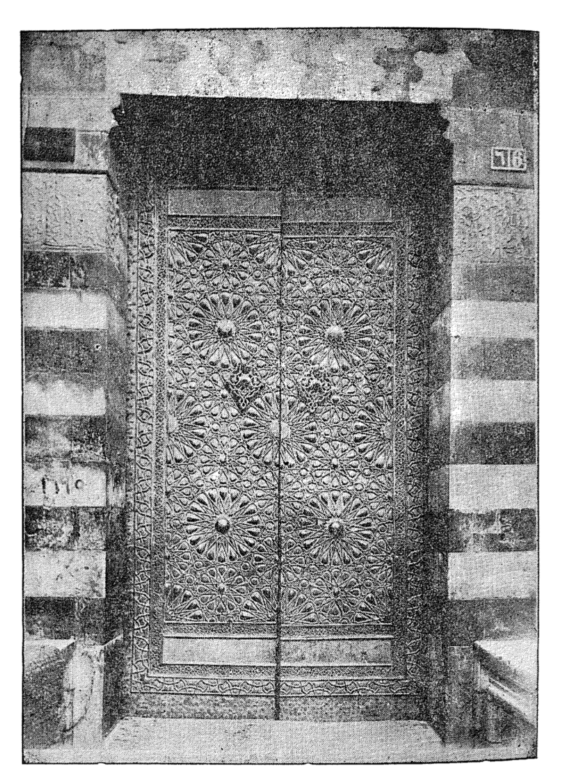
قبة تنكزبغا

لوحة رقم ٢٤ ــ روائع العمارة فى القاهرة



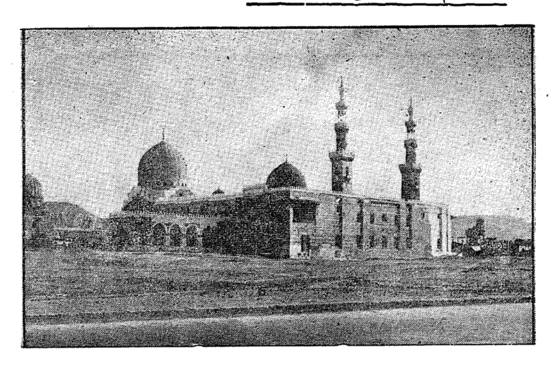
واجهة مدرسة الظاهر برقوق

لوحة رقم ٢٥ — روائع العمارة فى القاهرة

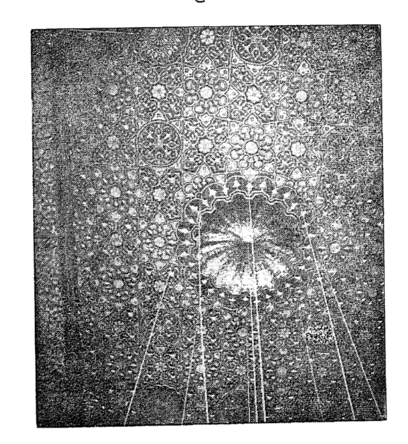


باب مدرسة برقوق بالنحاسين

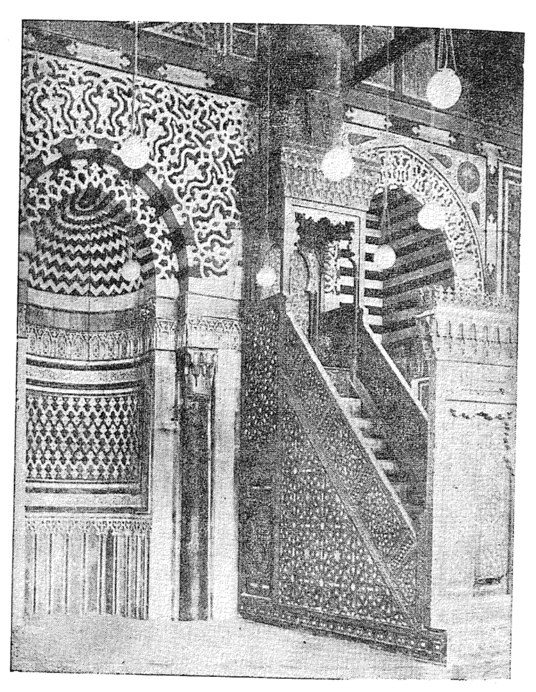
لوحة رقم ٢٦ – روائع العمارة فى القاهرة



واجهة خانقاه فرج بن برقوق

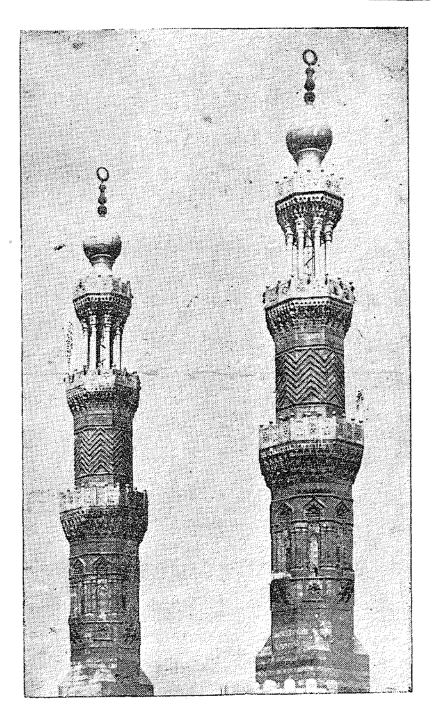


لوحة رقم ٢٧ – روائع العمارة فى القاهرة



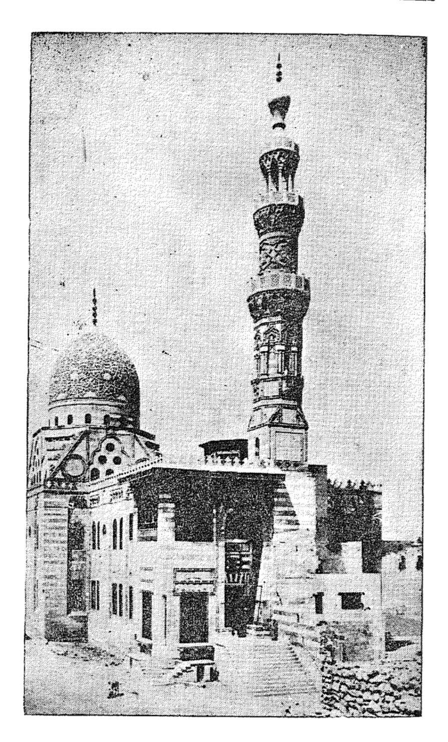
محراب ومنبر جامع المؤيد

لوحة رقم ٢٨ — روائع العمارة فى القاهرة



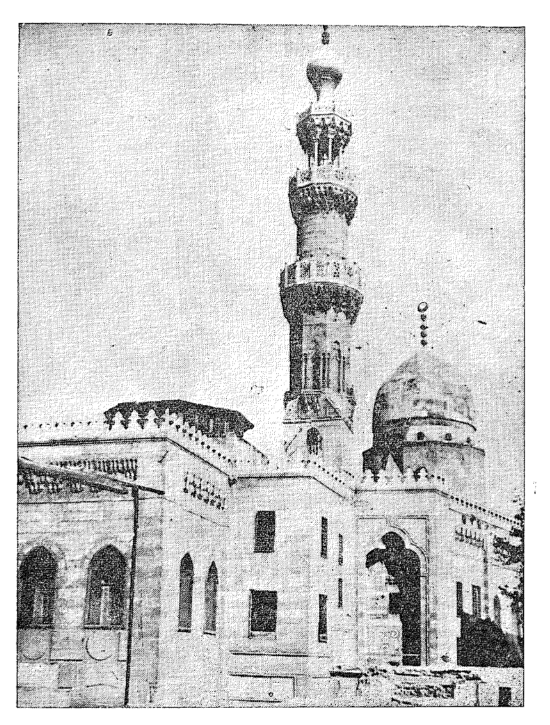
منارتا جامع المؤيد

لوحة رقم ٢٩ – روائع العمارة فى القاهرة



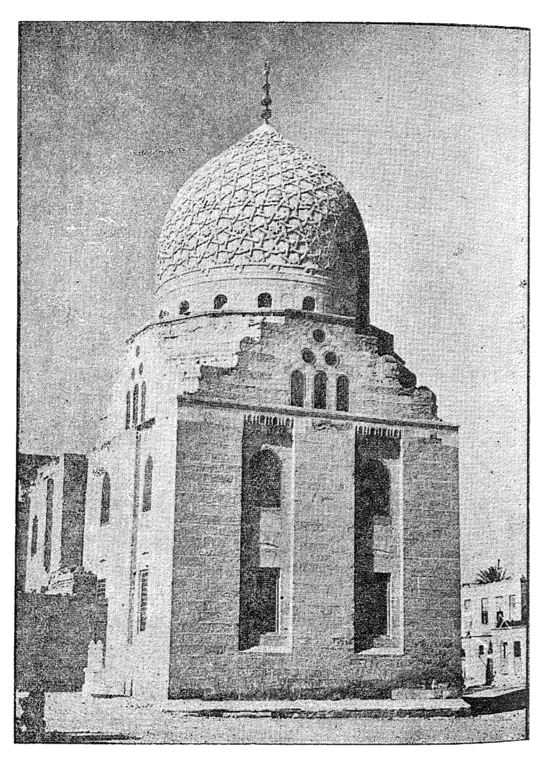
جامع قايتباى

لوحة رقم ٣٠ - روائع العمارة فى القاهرة



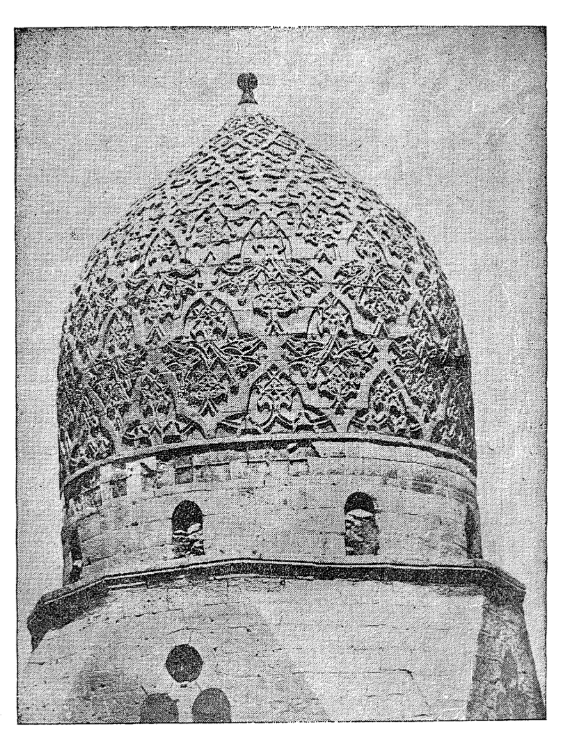
مسجد قجماس الإسحاقى (أبو حريبة)

لوحة رقم ٣١ – روائع العمارة فى القاهرة



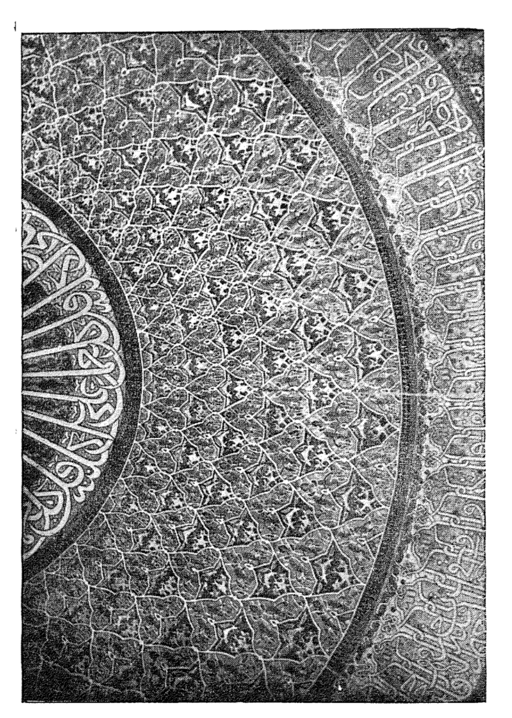
قبة الأشرف سباى بالقرافة الشرقية

لوحة رقم ٣٢ – روائع العمارة فى القاهرة



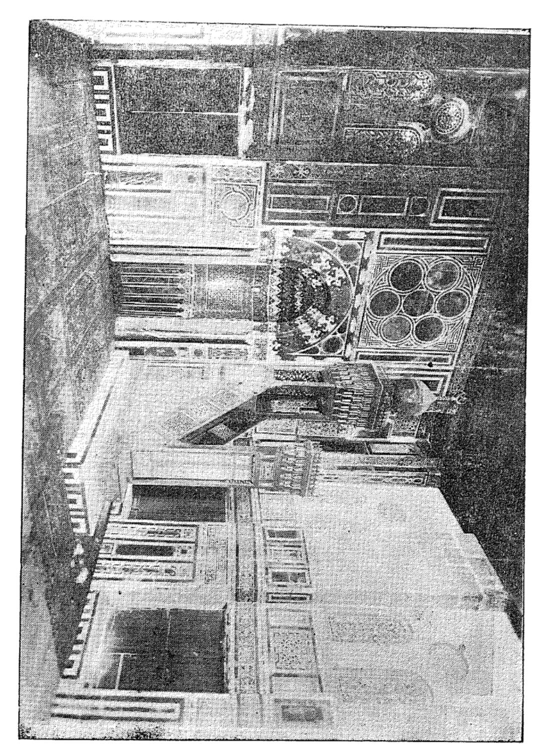
قبة الأمير سليمان بالقرافة الشرقية

لوحة رقم ٣٣ — روائع العمارة فى القاهرة



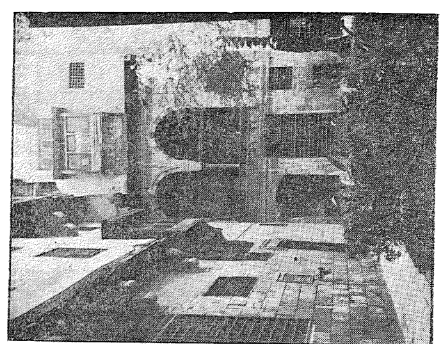
زخارف قبة مسجد سليمان باشا بالقلعة

لوحة رقم ٣٤ ــ روائع العمارة فى القاهرة



داخل مسجد البرديني

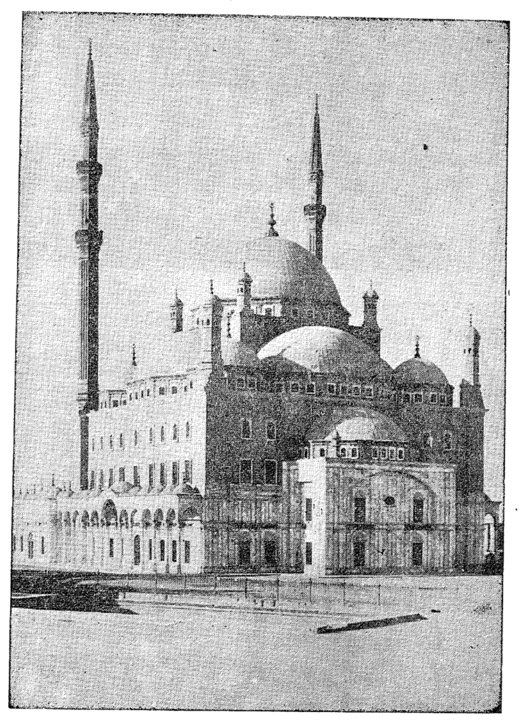
لوحة رقم ٣٥ – روائع العمارة فى القاهرة



مقعد منزل السحيمى

فسقية منزل السحيمى

لوحة رقم ٣٦ – روائع العمارة فى القاهرة



جامع محمد على بالقلعة

البحوث المقدمة إلى المؤتمر

الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

للأستاذ حسن عبد الوهاب

تونس الخضراء ، ذلك الاسم الحبيب إلى القلوب ، تربطه بمصر أواصر المودة والمحبة . كما تربطه أواصر العمارة والفنون ، والتعاون العلمى والسلمى منذ أقدم العصور .

ذلك أنه لما أراد عبد الملك بن مروان بناء ميناء تونس ، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان ، وهو والى مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى من المتخصصين فى صناعة السفن . كما كتب إلى ابن النعمان أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة للمسلمين بمساعدة مسلمى البلاد[1] .

ولاشك فى أن هذا العدد من الفنيين المصريين ساهم فى بناء دار الصناعة . كما ساهم فى بناء الأسطول وإعداده .

وأيضا فإن رأس دولة الأغالبة ومؤسسها ، إبراهيم بن الأغلب التميمى نشأ بمصر ، وتلقى العلوم على الامام الكبير الليث بن سعد ، فقيه مصر ، وأحد أعلامها ، وكان مقربا منه حتى إنه وهبه عند سفره إلى أفريقيا السيدة جلاجل أم ولده زيادة الله ، وكانت من جواريه اللائى علّمهن وثقفهن .

ومن شعره يحن إلى سكن خلّفه بمصر[2] :

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة   إلا وذكرك يثنى دائما عنقى

ولا ذكرتك إلا بت مرتقبا   أرعى النجوم كأن الموت مغتبقى

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٨

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ١١٦ — ١١٧

وكانت مصر ترسل سنويا إلى أفريقيا مبلغ مائة ألف دينار معونة لها . فلما عرضت إمارتها على إبراهيم بن الأغلب ، اشترط ألاّ يرسل إليه المائة ألف دينار التى كانت ترسلها مصر ، على أن يحمل هو إلى الرشيد أربعين ألف دينار كل عام .

ولما ولى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب أفريقيا سنة ٢٦١هـ — ٨٧٤ م حسنت سيرته ، وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر . فقد كانت توقد النار فى أبراج من مدينة سبتة إلى الإسكندرية إنذاراً بالعدو ، فيصل إيقادها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة[١] .

هذا عدا التبادل الثقافى ، ورحلة علمائها إلى الإسكندرية والقاهرة طلبا للعلم ، وأداء لفريضة الحج ، وما دونوه فى معاجمهم ورحلاتهم النافعة من وصف للبلدان وللآثار ، وأخبار من قابلوهم من العلماء ، فأفادوا واستفادوا . هذا عدا من توطن منهم القاهرة وتمصر ، ويكفى أن يكون فى مقدمتهم العلامة ابن خلدون الفقيه والمؤرخ الكبير .

ومن الدول المتعاقبة على حكم القطر التونسى ، الدولة الفاطمية ، وأولهم عبد الله بن المهدى ، فإنه استحوذ على مخلفات بنى الأغلب فى ربيع سنة ٢٩٧ هـ — ٩٠٩ م ، وتسلم زمام الدولة ، وأنشأ مدينة المهدية سنة ٣٠٣ — ٣٠٨ هـ ٩١٥ — ٩٢٠ م واتخذها مقرا للحكم .

ومن خلفائه أبو الطاهر ، إسماعيل المنصور بالله ، وهو الذى أنشأ مدينة المنصورية بالقرب من القيروان تذكارا لانتصاراته سنة ٣٣٧ هـ — ٩٤٨ م ، وتعرف بصبره[٢] . وظلت مقرا للولاة حتى تخربت . وفى المدة التى حكمت فيها تلك الدولة أفريقية أنشأت مدينة المهدية وميناءها ومسجد المهدية .

أما المعز لدين الله فإنه بعد أن ولى الخلافة أرسل فى سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٨ م

---

(١) الأعلام جـ ١ ص ٢٢ (٢) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٥٩

القائد جوهر الصقلى للاستيلاء على مصر ، فدخلها بدون مقاومة . وكانت غنما يسيرا للدولة الفاطمية ، ولكنها كانت أسطع جوهرة فى تلك الإمبراطورية الشاسعة التى سيطرت عليها . وقد توطنها الكثير من الغزاة الفاتحين ، وعرفت بعض أخطاط القاهرة بهم مثل حارة زويلة ، وحارة كتامة .

وفى سنة ٣٦١ هـ ــ ٩٧١ م غادرها المعز لدين الله ومعه ثروته وتوابيت آبائه فدخل القاهرة سنة ٣٦٢ هـ ــ ٩٧٢ م واستخلف على أفريقية الأمير بُلُكّين بن زيرى الصنهاجى مؤسس الدولة الصنهاجية .

ظلت إفريقية خاضعة لحكم الفاطميين يصدر منها تقليد الخليفة الفاطمى للأمراء الصنهاجية ، ويتبادلون المودة والهدايا ، إلى أن تنكر لهم المعز بن باديس سنة ٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م . وهنا نرى أن الدولة الفاطمية لم تحكم إفريقية حكماً مباشراً سوى ٦٤ عاما . وكان المفروض أن يحمل المعز معه إلى القاهرة أساليب العمارة التونسية سواء كانت فاطمية أو قبل العصر الفاطمى ، غير أن الباحث لتاريخ العمارة الفاطمية القاهرية ، يجد أن التأثيرات التونسية التى وقعت عليها جزئية . منها ما هو فى المسميات . ومنها ما هو فى العمارة ، فقد سميت القاهرة أول ما أنشئت بالمنصورية أسوة بالمنصورية القريبة من القيروان إلى أن سماها المعز لدين الله بالقاهرة ، وسميت أبواب القاهرة بالاسماء التيمنية التى أطلقت على أبواب المنصورية ــ باب النصر ، باب الفتوح ، بعد أن كانت أسماؤهما العز والإقبال . كما سمّى الباب الجنوبى بباب زويله نسبة إلى القبيلة التى حضر أفرادها مع جوهر وبتسمية صنوه بالمهدية .

وكما أطلق على غدير كبير كان بتونس « غدير الفحامين » فقد أطلق هذا الاسم على السوق التى يقطن فيها إلى الآن بالقاهرة تجار المغاربة الذين يتاجرون فى سلع المغرب .

وتبادلوا مع القاهرة الكثير من مسميات المناطق والقصور بتونس . فأطلقوا اسم رأس الطابية ، على المنطقة الموجود بها قبر بدر الجمالى ، خارج

باب النصر ، وهى التى كانت تؤدى إلى بساتين الخلفاء الفاطميين ومناظرهم أسوة برأس الطابية بتونس التى كانت تؤدى إلى بساتين أبى فهد والقصور بضواحى تونس . كما أطلقوا على أحد قصورهم بجزيرة الروضة ، اسم المختار أسوة بقصر المختار بتونس .

وهناك اقتباسات وتأثيرات معمارية ، وقعت على العمارة فى الإسكندرية والقاهرة ، ومنها إيداع المنبر فى حجرة خاصة به بجوار المحراب ، يجرى على عجل ولا يخرج إلا عند خطبة الجمعة أو العيدين ، مثل ما هو موجود فى جوامع الزيتونة وصفاقس ، والمنستير وغيرهم . فقد كان كذلك منبر الجامع الأزهر عند إنشائه ، وبعض منابر مساجد الإسكندرية ، على ما رواه الزركشى فى كتابه « اعلام الساجد بأحكام المساجد » .

وكما أن حشوات منبر جامع الزيتونة مربعة ، فإن الكثير من حشوات المنابر الفاطمية كانت مربعة ، مثل منبر الجامع الأقمر سنة ٥١٩هـ — ١١٢٥ م ، ومنبر مسجد دير طورسينا سنة ٥٠٠ هـ — ١١٠٦ م . وبقايا منبر الحسن بن صالح بالبهنسا القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى .

وفى تخطيط المساجد ، تأثر الجامع الأزهر بتخطيط مسجدى القيروان والزيتونة إلى حد كبير ، وخاصة المجاز القاطع على المحراب ، والقبة فوق المحراب ، والقبة على رأس المجاز ، والرواق المضاف حول الصحن الذى أمر به الحافظ لدين الله ، كما حدث ذلك أيضاً فى مسجد سوسه .

ونأسف لفقد القباب الفاطمية التى كانت فوق المحراب وعلى طرفى الرواق الشرقى بالأزهر ولعلها كانت متأثرة بالقبة التونسية ، وهذا ما أرجحه . كما نأسف لفقد منارته وقد كانت قائمة فوق مدخله الغربى ولعلها كذلك كانت متأثرة بمنارات تونس .

أما جامع الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٠ — ٤٠٣ هـ / ٩٩٠ — ١٠١٢ م فقد شق إيوانه الشرقى مجاز مرتفع مثل مجاز الزيتونة . واقتبس من جامع المهدية الباب البارز عن سمت الواجهة وتأثرت قبته بالقبة التونسية ، فقد قامت

القبة فوق المحراب على قاعدة مربعة فتحت فى واجهتها الغربية شبابيك مثل قبة البهو بجامع الزيتونة ، كما وأن مقرنصها من طاقة واحدة . وكذلك اقتبس من مسجد الزيتونة أنه أقام على طرفيه فى الواجهة الغربية منارتين كبيرتين أسوة بالبرجين على طوفى الواجهة البحرية لمسجدى الزيتونة وسوسة ، وفى مسجد سوسة ، حول أحدهما لمنارة ، ووقعت على زخارف منارة الحاكم ومدخله تأثيرات من الزخارف الموجودة فى رواق البهو بجامع الزيتونة والموجودة فى باب الميضأة بجامع القيروان . وكذلك اقتبس مسجد الحاكم كتابة الإزار الكوفى تحت السقف ، من مسجد القيروان ، غير أنه فى جامع الحاكم من الجص وفى القيروان من الخشب .

ونرى فى طى عقد باب الفتوح سنة ٤٨٠ هـ – ١٠٨٧ م ، زخارف مدقوقة فى الحجر مقتبسة من مثيلتها فى مربع قاعدة قبة جامع سوسة .

وهناك تفاصيل زخرفية فى الحجر تبودلت بين تونس والقاهرة .

وقد تأثر تصميم مشهد السيدة رقية سنة ٥٢٧ هـ بتصميم مسجد أبى فتاتة بسوسة سنة ٢٢٢ هـ – ٢٢٦١ هـ /٨٣٨ – ٨٤١ م وذلك بإقامة رواق خارجى أمام قبة المشهد كما تأثر به مسجد الصالح طلائع بن رزّيك . فقد أقيم أمام واجهته الغربية رواق خارجى . وإذا كان برجا (منارتا) رباط سوسة ٢٠٦ هـ – ٨٢١ م ومسجدها الجامع ٢٣٦ هـ – ٨٥٠ م أسطونيتين ، وانتهيا بقبة ، فقد وقع هذا التأثير إلى حد ما على منارة حنضل أسيو بشلال أسوان (القرن الرابع الهجرى – العاشر عشر الميلادى) . وإلى حد ما على منارة بدر الجمالى بإسنا سنة ٤٧٠ هـ – ١٠٧٧ م . وعلى منارة مسجد بهجوره بالصعيد المعاصرة لها ؟

وعلى ذكر رباط سوسة ، أذكر أنه كان للدعائم أو الأبراج القائمة على جوانبه وينتهى بعضها بقبة أثر فى مشهد بدر الجمالى (الجيوشى) سنة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٤ م وذلك بإقامة دعائم على جانبيه القبلى والبحرى وانتهت بقباب فاطمية صغيرة .

وعلى ذكر الرُّبطُ المنتشرة فى القطر التونسى ، أذكر أن سيدات الأسرة الفاطمية بالقاهرة أنشأن الكثير من الربط فى القرافة الكبرى بمصر ، مثل رباط الحجازية . وقد أمرت بإنشائه السيدة فوز جارية على بن أحمد الجرجرائى : وذلك فى سنة ٤١٥ هـ – ١٠٢٤م، وأوقفته على واعظة زمانها السيدة الحجازية : ورباط النارنج ، وقد أمرت ببنائه الجهة الآمرية المعروفة بجهة الدار الجديدة سنة ٥٢٢ هـ – ١١٢٨ م – ورباط الأندلس ، وقد أمرت بإنشائه السيدة علم الآمرية ، وتسمى ست القصور ، سنة ٥٢٦ هـ – ١١٣١ م . وخصصته للعجائز والأرامل . ولا شك أنها كانت متأثرة بطرز الرُّبطُ التونسية .

القبة التونسية :

كان للبحث القيم الذى ألقاه الزميل الأستاذ سليمان مصطفى زبيس فى مؤتمر الآثار الثانى فى بغداد عن القبة التونسية ، والذى أخرجه مستوفى فى رسالة خاصة ، فضل فى إعطائى الفرصة لفحصها ومقارنتها بالقبة الفاطمية القاهرية .

وفيه تناول دراستها قبيل العصر الفاطمى وفيه وبعده . وقد اخترت من بين تلك القباب نماذج القباب السابقة للعصر الفاطمى والتى تأثرت بها القباب الفاطمية المنشأة بعدها فى القطر التونسى ، مثل قبة المحراب بجامع القيروان سنة ٢٢١ هـ – ٨٣٥ م – قبة المحراب بجامع الزيتونة ٢٥٠ هـ – ٨٦٤ م – قبة المحراب بجامع سوسة ٢٣٧ هـ – ٨٥١ م – ثم قبة البهو بجامع الزيتونة ٣٨١ هـ – ٩٩١ م .

وقد لاحظت أن تلك القباب سار المعمار التونسى على نهجها دون تغيير يذكر لا فى مظهرها الخارجى أو الداخلى منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث مع تفاوت جزئى .

أما قبة المحراب بجامع القيروان ، فقد قامت على قاعدة مربعة بواجهتها خمس فتحات معقودة ، وقامت القبة على رقبة مثمنة منحورة الأضلاع .

وتضليعها من الخارج مجوف من الداخل . ومقرنصها من حطة واحدة محارية (مروحة) .

ونحر الأضلاع المثمنة بالرقبة رأيته فى القباب الفاطمية بأسوان ، أما فى فى القاهرة فلم أجده إلا فى قبة أبى تراب التى اكتشفتها بالعباسية ، أوائل القرن السادس الهجرى – الثانى عشر الميلادى وهى قائمة على عقود مفتوحة ومقرنصها من طاقة واحدة وليست مضلعة .

وقبة المحراب بجامع سوسة ، قامت على قاعدة مربعة فوقها رقبة مخططها نجمة ذات ثمانية اضلاع ، وهى غير مضلعة ، ومقرنصها من حطة واحدة محارية بأسفله طراز كوفى ، يحيط بقاعدة القبة – هذا النوع من القباب إلى حد كبير انتقل إلى قباب جبانة أسوان الفاطمية ، نراه فى قباب قاضى الشريعة ، وإبراهيم الدسوقى ، وقباب جبانة العنانى باسوان أيضاً وهى قباب ترجع إلى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى .

وأيضا فإن مقرنص القباب الفاطمية فى مصر ظل من طاقة واحدة مثل القبة التونسية ، ولم ينتقل إلى حطتين إلا فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، بينما فى تونس استمر على طاقة واحدة فى مختلف العصور إلى العصر الحديث ، على أن مقرنص القبة الفاطمية بتونس الذى على شكل محارة (مروحة) ، وجدته فى القاهرة فى نموذج واحد فى صُفّة مدخل باب زيلة .

أما قبة المحراب بجامع الزيتونة فإنها قائمة على قاعدة حجرية فوقها رقبة بها ١٢ شباك ، وهى مضلعة من الخارج مجوفة التضليع من الداخل ، وامتاز مقرنصها المحارى بنقوش مورقة فى حافته وحافة نصف العقد فوقه ، كما امتاز بوجود عمد صغيرة تكتنف المقرنصات ، وهذا النوع من القباب وجد فى قباب جبانة أسوان شبيه له فى قبتى السيدة فاطمة الزهراء ، والسيدة

رقية ، وهما من أقدم القباب الفاطمية فى جبانة أسوان ولا نظير لهما بين القباب الفاطمية بالقاهرة .

وقبة السيدة رقية بجبانة أسوان على جانب عظيم من الأهمية ، وامتازت بأن رقبتها مثمنة مشطوفة الزوايا مضلعة من الخارج ، مجوفة الأضلاع من الداخل مقرنصها من طاقة واحدة ، وعلى ظهر طاقات المقرنص وفيما بينها عمد صغيرة تحمل أضلاع القبة ويحيط برقبتها شبابيك على شكل زخرفى .

ومثلها قبة السيدة فاطمة الزهراء بأسوان مع تفاوت جزئى .

قبة البهو بجامع الزيتونة ٣٨١ هـ – ٩٩١ م – هذه القبة لا تختلف كثيراً عن زميلتها فوق المحراب من حيث القاعدة المربعة والشبابيك الثلاث المفتوحة فيها ، ثم الرقبة المثمنة فالقبة المضلعة كما تتفق تفاصيلها من الداخل مع زميلتها .

وسواء أكانت هذه القبة للعزيز بالله ، أوباديس بن المنصور ، فهى تهمنى من حيث تقارب الشبه بين قبة جامع الحاكم بأمر الله وبينها ، من حيث فتح الشبابيك بواجهة قاعدتها الغربية ، والمقرنص والإفريز المكتوب تحته ولعلها كانت مضلعة مثلها لأن غطاءها الحالى حديث .

ونستطيع القول إن القبة التونسية وخاصة فى مسجدى القيروان وتونس سبقت زميلتها فى القاهرة فى الرقى المعمارى والزخرفى .

هذه هى التأثيرات الجزئية ، التى وعيتها من زيارتى العابرة لآثار تونس سنة ١٩٣٧ والتى حصرتها فى حيز المدة التى حكمتها الدولة الفاطمية حكما مباشرا فى تونس ، هذا عدا التأثيرات المتبادلة فى كثير من قواعد الخط الكوفى بالمساجد وعلى شواهد القبور وفى المصاحف بزخرفتها .

وحينما نستعرض آثار القاهرة الفاطمية الباقية ، يظهر بوضوح أنها تخلصت من المؤثرات التى وقعت عليها فى مستهل حكمها ، وأصبح لها طابع قاهرى بحت فى جميع تفاصيلها : فى الواجهات ، والقباب ، والمنارات ، والمحاريب ، والمنابر ، وفى الجص ، والنجارة ، وسائر الفنون : فقد حكمت تلك الدولة فى مصر من سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م إلى سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧١م ، وفى أيام هذه الدولة ، أخذت أنوار الحضارة الإسلامية تنبثق من هذه المدينة الزاهية على أرجاء الأرض : وأخذ الفن الإسلامى المصرى يتألق فى جميع نواحيه .

وفى رعاية هذه الدولة وثبت العمارة الإسلامية وثبة قوية قاربت الكمال : لأن خلفاءها تباروا فى إنشاء المساجد ، والحصون ، والقصور ، والمناظر كما تبارت نساؤهم فى هذا المضمار الخيرى العظيم بإنشاء الربط للسيدات المنقطعات ولعلها كانت فى تصميمها متأثرة برباط المنستير ورباط سوسه ورباط أم ملال بالمنستير :

وفى هذا العصر الزاهى ، انتشر الزخرف فى وجهات المساجد ، وعنى بتصميمها ، وانتعش التصوير ، ونبغ المصورون : وترقت ودقت صناعة الجص والأخشاب : وبلغ الخط الكوفى ذروته فى حسن التنسيق وجمال الزخرف.

وفى عهدها أنشئت مشاهد على القبور المنسوبة لأهل البيت ، لها تصميم خاص ، كما أنشئت القباب على بعض القبور أحيط بعضها برحاب مسوّرة مثل قباب أسوان ، والقباب الست بالقرافة الكبرى ، وحليت محاريبها بنقوش وكتابات كوفية جميلة – كما امتازت دون غيرها باستعمال المحاريب الخشبية المتنقلة ، وبالتنوع العجيب فى المحاريب الجصية وتنوعها وتنوع كتاباتها وزخارفها ، وبالتنوع المبالغ حد الروعة فى نجارة المنابر والأبواب والتوابيت والمقاصير. وانتشر البناء بالحجر بجانب الآجر وتهذبت المنارة وارتقت القبة وتطورت .

وكانت أيامهم كلها أعيادا بما ، ابتكروه من حفلات جمعت بين جلال الخلافة وطرب الشعب وبهجته ، فانتعشت الفنون .

وهذه الدولة ، وإن كان الزمن قد اعتدى على أكثر منشآتها كما أباد التعنت الدينى والسياسى منشآتها المدنية من مناظر وقصور ، فإنه أبقى على الكثير من منشآتها الدينية والحربية ، ما بين مساجد ، ومشاهد ، وقباب ، وأسوار وأبواب ، كما أبقى التاريخ على وصف حضارتها الممثلة فى وصف قصورها وما كانت تحويه خزائنها من فرش وأسلحة وجواهر ، أطنب فى وصفها المقريزى مؤرخ مصر إلى حد لا يصدقه القارئ . ولكن مشاهدة الرحالة لتلك القصور ووصفها ، ومشاهدة ما تخلف منها فى متاحفنا ومتاحف العالم من خزف ذى بريق معدنى وزجاج وحلى ، وجواهر ونسيج وأخشاب نقشت عليها حفلات طربهم وصيدهم ، وأخبار مصوريهم ومبارياتهم . وما كان فى قصورهم من طوائف الصناع والصانعات . وما تخلف عنهم من أقمشة منسوجة عملت فى دور طرازهم ، وما اشتهر به عصرهم من دقة النسيج ، وجمال الحلى ، ورقة الأوانى الخزفية والبللورية ، وما أحيطت به حفلاتهم من مظاهر العظمة من فرش حريرية ، وبسط مصورة ، وأرائك مطعمة بالذهب ، كل ذلك يجعلنا نشهد لتلك الدولة بتركيز الفنون والحضارة العريضة فى وادى النيل .

لا يتسع المجال للاسترسال فى حضارة تلك الدولة ، واستعراض فنونها وطرائفها المبعثرة فى متاحفنا ومتاحف العالم ، ولذلك سأقتصر على عرض تفاصيل عمائرها القاهرية بما يجلو مميزاتها الفنية التى تؤكد انفرادها بطرز خاص عن سائر الأقطار .

وحينا نستعرض الآثار الفاطمية الباقية نذكر أهمها حسب تسلسلها التاريخى مع شرح ما حواه كل أثر منها ، من مميزات معمارية :

الجامع الأزهر : سنة ٣٦١ هـ ٩٧٢ م .

أول جامع أنشئ بمدينة القاهرة ، أنشأه القائد جوهر الصقلى ، بأمر سيده المعز لدين الله . ولم يبق من التفاصيل الفاطمية فيه سوى المجاز بعقوده وزخارفه، وكتاباته وعقد المحراب بزخارفه وكتاباته، وبقايا زخارف الجدران الشرقية والبحرية والقبلية بالإيوان الشرقى ، وزخارف مؤخر الإيوان الشرقى وقبة البهو ، ونقل منه إلى متحف الفن الإسلامى ، باب خشبى من مصراعين باسم الحاكم بأمر الله ، ومحراب خشبى متنقل ، باسم الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ ١١٢٥ م .

هذه التفاصيل تميزه على غيره . فالكتابات الكوفية منها ما هو مبسّط ومنها ما ظهرت به بواكير الزخارف . وامتازت عقود المجاز بالكتابات الكوفية فى حافاتها ، وبالزخارف المورقة المنقوشة فى خواصر عقودها . ونرى التنوع فى هذه الكتابات فهى فى عقدى المحراب ، تغاير بعضها ، وتغاير ما هو منها فى حافة العقود بالمجاز ، وما كان منها فى حافة عقود الشبابيك والمضاهيات بالجدران .

وكما رأينا التنوع فى أسلوب الكتابة الكوفية ، رأيناه كذلك يبلغ الذروة فى قبة البهو ، تلك القبة الحافل باطنها بالكتابات والزخرف .

ومع أن قبة البهو مبنية هى والعقود حول الصحن فى المدة من سنة ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ، فإنها لم تساير تطور القبة الفاطمية فى تلك الحقبة ، وظلت على بساطتها الخارجية دون تضليع وعلى بقاء مقرنصها من حطة واحدة مستطيلة ، ولكن حفل باطنها بالزخرف وكتابة آيات من سورة يس ، وآية الكرسى . وكما تنوعت الكتابات الكوفية فقد تنوعت الزخارف الجصية المتوالية على الجامع فى حقبات العصر الفاطمى فبينما هى مختلفة ومتفقة فى مضاهيات الشبابيك نراها مختلفة فى المحراب ونراها مختلفة فى مؤخر الإيوان الشرقى ، وفى قبة البهو ، تلك الثروة الفنية المخلفة فى هذا الجامع نعتبرها

أساساً وثبتاً لتطور الزخارف والكتابات الكوفية فى العصر الفاطمى ، ونراها أيضاً ممثلة فى المحراب الخشبى المتنقل الذى أمر به الآمر بأحكام الله ، وفى مصراعى الباب الذى أمر بعملهما الحاكم بأمر الله ، ونلحظ فى زخارفهما بعض التأثيرات التونسية .

والمحاريب الخشبية من مميزات العصر الفاطمى القاهرى ، ولعل أقدمها المحراب الذى عمل بجامع عمرو بن العاص سنة ٤٤٢ هـ ١٠٥٥م ، وقد فقد :

جامع الحاكم بأمر الله :

هو ثانى جامع أنشئ فى الدولة الفاطمية أنشأه الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م ، وقبل أن يتم بناؤه افتتحه بصلاة الجمعة يوم ٢ رمضان سنة ٣٨٠ هـ ٩٩١ م، ثم أتمه ابنه الحاكم ، فغلب عليه اسمه .

وبعد وفاة العزيز بالله قام الحاكم بأمر الله بإتمام الجامع ، فأتم المنارة البحرية وكتب اسمه عليها ، وأنشأ المنارة القبلية . ولظهور ميل خشى معه سقوطهما ، بنى القاعدتين الهرميتين حولها لتدعيمهما ، ثم افتتحه للصلاة فى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م .

هذا الجامع رغم تخربه احتفظ بأهم تفاصيله المعمارية ، كما احتفظ بأهم مجموعة من الزخارف فى الحجر ، فى المنارتين ، وفى المدخل الغربى ، وبتنوع عجيب فى كتاباته الكوفية فى إزار القبة ، وحول شبابيك الإيوان الشرقى ، وحول زخارف المدخل ، وفى بدنى ، المنارتين ، وحول القاعدة القبلية ، وفى الطراز أسفل السقف. هذا التنوع فى أساليب الكتابة وفى الزخارف ، يؤكد ازدهار الزخرفة والخط الكوفى منـــذ نشأة الدولة الفاطمية ، وقد جمع بين الخط الدقيـــق ، والخط الكبير منقوشاً فى الجص والحجر والرخام ، والخشب والنسيج .

وامتاز بمنارتيه المبنيتين بالحجر ، إحداهما القبلية مربعة القاعدة ، والثانية

البحرية مستديرة ، وقد شحنتا بالزخارف والكتابات ، ونأسف لفقد قبتهما كما لا نستطيع التكهن بما كانتا عليه ، ومن رسمى قطاعيهما نقف على أهميتهما المعمارية وثروتهما الزخرفية والكتابية ، أما قبتهما الحاليتين فهما من تجديد الأمير بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م عقب الزلزال الذى حدث سنة ٧٠٢ هـ ١٣٠٢ م .

وكذلك امتاز بمدخله الغربى البارز عن سمت الواجهة والمشتمل على مجموعة قيمة من الزخارف الحجرية فى جانبيه .

هذا ولا ننسى جمال شبابيكه الفاطمية ممثلة فيما بقى منها فى جدار المحراب فقد كتب فى إطار أحدهما قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وملئ فراغه بشكل زخرف « الملك لله » طردا وعكسا .

مشهد الجيوشى :

هـــذا المشهد بأعلى المقطم . أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م وهو رغم صغره اشتمل على مميزات معمارية طريفة ، هذا فضلا عن غرابة مسقطه الأفقى . ومن أبرز تلك المميزات تلك الدعائم القائمة فى الوجهتين الجنوبية والشمالية بقبابها الصغيرة ، وامتاز أيضا بأن منارته كاملة ، إذ تسبقها منارته التى أنشأها بإسنا سنة ٤٧٠هـ ١٠٧٧م ، وقد وقعت على منارة الجيوشى تأثيرات جزئية من منارة مسجد عقبة بالقيروان . كما يبدو فى الصور المقارنة ؛ ويلفت النظر فى هذا المشهد عدا تخطيطه ، أن وجه إيوانه الشرقى مكون من عقد كبير محمول على عمد مزدوجة يكتنفه عقدان صغيران .

ولهذا المشهد محراب حلى بكتاباب كوفية انفردت بطرزها ، كما امتازت الكتابات الكوفية بمربع القبة أسفل المقرنص بزخرفة الحروف : ويعلو المحراب قبة يكتنفها إيوانان ، وهذه القبة مقرنصها من طاقة واحدة وكتب

بقطبها « بسم الله الرحمن الرحيم إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما أحد من بعده » يتوسطها كتابة أخرى بشكل زخرفى « محمد . على » مكررة ومتقاطعة ويحيط الصحن شرفة فاطمية ؛

قبة بدر الجمالى :

هذه القبة خارج باب النصر . وهى خالية من النصوص التاريخية ، إلا أن التاريخ يذكر أن بدر الجمالى دفن خارج باب النصر ، وتفاصيلها المعمارية تضعها فى عصر بدر الجمالى حوالى سنة ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م ، وفى هذه القبة نرى تطورا للقبة الفاطمية ، فقد كانت جوانبها مفتوحة عدا جدار المحراب وفتحت فى أضلاع المثمن الحامل للقبة شبابيك بشكل زخرفى ، وللمرة الأولى ينتقل المقرنص من حطة واحدة إلى حطتين تعددت طاقاتهما . وقد سادت المحراب البساطة ، فقد أحيط عقده الفارسى الذى يظهر لأول مرة بكتابة كوفية نصها : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ... الآية » .

مشهد إخوة يوسف :

هذا المشهد يرجع إلى أبنية النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى آخر الحادى عشر الميلادى . وينسب إلى إخوة يوسف عليه السلام اليسع وبنيامين ، وله تصميم خاص يعطينا فكرة عما كانت عليه المشاهد الفاطمية ، وقد جمع تشكيلة من العقود المصلبة والمقبية والقباب الصغيرة المعقودة بالحجر . وينتهى إلى قبة رغم بساطة مظهرها فإنها تعطينا فكرة عن تطور القبة وجمال تكوينها . ومقرنصها من طاقة واحدة يسترى النظر فيها عقود شبابيكيا الصغيرة بمثمن الرقبة ؛

وبصدر هذه القبة محراب كبير يكتنفه محرابان صغيران حليت كلها بزخارف جصية وكتابات كوفية يقرأ منها قوله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن

بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ــ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » ويعتبر هذا المحراب من أرقى ما وصل إليه الزخرف فى الكتابة الكوفية لهذا العصر .

وعلى ذكر هذا المحراب أذكر بالإعجاب محراب الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى بالجامع الطولونى سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م ، فإنه من المحاريب غير المجوفة ، وقد جمع بين جمال الخط الكوفى وزخرفته وبين دقة الزخارف الجصية وهو من أدق المحاريب وعليه اسم المستنصر بالله واسم الأفضل شاهنشاه .

وبالجامع الطولونى أيضاً محراب فاطمى آخر غير مجوف انفرد بزخارفه المورقة المشرشرة .

قبتا عاتكة والجعفرى :

قبتان صغيرتان لصق بعضهما فى فناء مشهد السيدة رقية أنشئتا فى المدة من سنة ٥١٤ ــ ٥١٩ هـ ١١٢٠ ــ ١١٢٥ م ، والمرجح أن قبة الجعفرى أنشئت قبل قبة عاتكة بسنوات ، وقد ضاع الكثير من معالمها قبل تجديدها وبقيت بها بقايا من زخارفها تطابق زخارف قبة عاتكة ، وفى قبة عاتكة نلحظ تطوراً جديداً فى رشاقة القبة وجمال تكوينها . وهى مع صغرها جمعت محاسن العمائر الفاطمية ، وفى الوقت نفسه نعتبرها ثانى قبة انتقل مقرنصها من حطة واحدة إلى حطتين ، ويحيط بمربع القبة أسفل المقرنص سطر مكتوب فيه بالخط الكوفى آية الكرسى ، وحلى عقد المحراب وتواشيحه بكتابات كوفية وزخارف جميلة تعلوه شرفة متشابكة .

وقد احتفظ سور هذا المشهد بشرفة فاطمية تعتبر الثالثة إذ الأولى اكتشفت بقاياها فى الجامع الأزهر .

مشهد السيدة كلثوم (بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق) :
٥١٦ هـ ١١٢١ م :

هذا المشهد جهة الإمام الليث وقد عنى بإنشائه الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ، غير أنه لم يبق منه إلا محرابه الفريد بين المحاريب الفاطمية . وهذا المحراب مع صغره حوى دقائق لطيفة ، فقد اتخذ عقده من محارة يجمع أضلاعها سرة ، وحليت تواشيح أضلاع المحارة بزخارف مورقة . ويعلو عقد المحراب عقد آخر به خمس طاقات صغيرة تواشيحها مزخرفة يعلوه زخارف ذات خطوط متقاطعة ملئت بزخارف مورقة . أما تجويف المحراب فقد ملئ بزخارف متقاطعة ملأ فراغها « محمد وعلى » بالخط الكوفى .

الجامع الأقمر : سنة ٥١٩ هـ ١١٢٥

أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله ، وهو من أجمل منشآته بل ومن مفاخر العمارة الفاطمية ، وواجهته الغربية وحيدة فى طرزها ، مبنية بالحجر ، وهى أجمل واجهة حافلة بالنقوش والكتابات الكوفية من آيات قرآنية ونصوص تاريخية ، كما اشتملت على مقرنصات وعقود محارية تتوسطها دوائر مكتوب بها بشكل زخرفى « محمد وعلى » ، وأجمل تلك الدوائر الدائرة الكبيرة فوق الباب وقد كتب بها بتركيب دقيق قوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » . كما يوجد بها حنايا وشبابيك صغيرة تكتنفها عمد صغيرة حلزونية يتوسطها قنديل وتفاصيل زخرفية أخرى دقيقة .

والمسجد صغير الحجم ، يؤدى إلى داخله باب بارز قليلا عن الواجهة له صحن مكشوف يحيط به أربعة إيوانات ، أكبرها إيوان المحراب المشتمل على ثلاثة أروقة بها عمد رخامية تحمل عقوداً فارسية مغطاة بقبوات صغيرة ، أما الرواق أمام المحراب فهو أوسعها ، ويبدو لى أنه كانت به مقصورة خشبية لأن أثر قوائمها باق فى بدن العمد وقواعدها .

وكانت العقود حول الصحن محاطة بكتابات كوفية بها آيات من القرآن ، أما نجارته فقسم منها تسوده البساطة ، مثـل معبرة الباب العمومى ، وباقيها دقيق الصنع يتمثل فى حشوات الدواليب وتواشيح باب المنبر .

مشهد السيدة رقية :

عرف هذا المشهد باسم السيدة رقية ، ابنة أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وهو من مشاهد الرؤيا ، شيده الخليفة الحافظ لدين الله ، وعهد بإنشائه إلى وزيره أبى تميم تراب الحافظى سنة ٥٢٧ هـ ١١٣٢ م . وأمرت بعمل التابوت والمحراب المتنقل ، السيدة علم الآمرية سنة ٥٣٣ هـ ١١٣٨ م . وهذا المشهد على جانب عظيم من الأهمية لم يتخلف منه سوى القبة والإيوان الخارجى أمامها المتأثر فى تخطيطه بالرواق الموجود أمام مسجد أبى فتاته بسوسه ، وباقى المشهد هدم حيث نجد طرفا رباط يمتدان إلى الشمال مما يفيد وجود صحن له .

وبالإيوان الخارجى محرابان صغيران بهما زخارف جصية وكتابات كوفية يتوسطهما باب القبة . وقد انفردت بمميزات عمارية ، فقد اشتملت على إيوانين بكل منهما محراب جصى تتوسطهما القبة وبها محراب كبير طاقيته محارية مزخرفة بأطرافها حول العقد مقرنص من حطتين ينتهى بدلايات على امتداد أضلاع المحارة ، وقد حليت تواشيح عقود المقرنص ، كما حليت تواشيح عقد المحراب بزخارف دقيقة يعلوه سطر مكتوب بالخط الكوفى فوقه شرفة .

أما تجويفه المحراب فقد أدركت بها أثر كسوة رخامية باق منها عصابة فى أعلاها ، فإن صح أنها ترجع إلى العصر الفاطمى فتكون أقدم كسوة رخامية فى المحاريب ، وليس بمستبعد ، فقد أثبت المقريزى المؤرخ أن

الحافظ لدين الله جدد فى سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧م قبة السيدة نفيسة، وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب ، ومقرنص القبة من حطتين، وبرقبتها شبابيك معقودة بشكل زخرفى ، والقبة مضلعة من الخارج مجوفة الأضلاع من الداخل .

وكذلك نرى زخارف المحراب وتكوينه مبدأ لتطور زخارف المحراب الفاطمى ، وهو مقتبس أو مشابه لصنوه فى قبة الحصواتى المعاصرة لها ، وكلاهما يعطينا طرزا جديداً للمحاريب الفاطمية .

ويتوسط القبة تابوت من نفائس صناعة النجارة ، تنوعت زخارفه ، كما تنوعت أشكال الخط الكوفى فيه ، وعليه تاريخه واسم منشئته .

وكان بالمشهد محراب خشبي متنقل، أودع متحف الفن الإسلامى ، وهو من خشب أرو تركى، مزخرف بحشوات مجمعة من ساج هندى وخشب زيتون على شكل نجوم ورسومات أخرى هندسية، والجانبان والظهر من حشوات كبيرة منقوشة ، والكل تتخلله زخارف متناسقة جميلة جداً .

وفى المحراب والتابوت ، تجلت دقة الصناعة والحفر على الخشب وقد أبدع فيهما الصانع أيما إبداع ، ولا عجب فالآمر بعملها سيدة لضريح سيدة .

وعلى ذكر هذا المحراب ، أذكر محراباً خشبياً متنقلا ثالثاً أودع متحف الفن الإسلامى كان موجوداً فى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وهو من أثر عمارة الحافظ لدين الله سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م وهو لا يقل أهمية عن صنوه ومعاصره .

ولم يتخلف من جامع الظافر (الفاكهانى) الذى أنشأه الخليفة الظافر بنصر الله سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨م ، سوى مصاريعه ، تلك المصاريع المكونة من حشوات مستطيلة مكونة من زهرية تفرعت منها فروع نباتية دقيقة .

وعلى ذكر المصاريع ، أذكر بالإعجاب تلك المصاريع المخلفة من القصور الفاطمية ، والمحفوظة بمتحف الفن الإسلامى ، وفيها نلحظ دقة الزخارف ، ودقة الرسوم الآدمية والحيوانية والطيور .

ولا ننسى الإشادة بدقة الأفاريز والحشوات الخشبية المخلفة من القصور الفاطمية وغيرها والمحفوظة بمتحف الفن الإسلامى ، والتى تمثل حياة الفاطميين الاجتماعية من رقص ، وطرب ، وفروسية وصيد ، كما لا ننسى تلك الأخشاب الفاطمية المخلفة أيضاً من القصور الفاطمية والمنقولة من سقف البيمارستان المنصورى ، والباقية فيه ، والتى تمثل الطيور والحيوانات والفرسان بحفر دقيق جميل :

نذكر ما نذكر من طرائف النجارة فى الدولة الفاطمية على سبيل الاستدلال لا الحصر ، فإن دقائقها مبعثرة فى المتاحف وفى المساجد ، وفى الكنائس ، ومنها أحجبة هامة جداً فى أديرة وادى النطرون ، أبو مقار ، أنبا بشوى . وفى كنائس مصر القديمة « أبى سيفين وبربارة ، والمعلقة ودير البنات » فإنها بلغت حد الروعة فى دقة النقش والتصوير .

مشهد السيد يحي الشبيه بالقرب من الإمام الليث :

أبو القاسم بن جعفر الصادق . كان شبيهاً بالنبى صلى الله عليه وسلم . توفى سنة ٢٦٣ هـ :

أنشئ هذا المشهد حوالى سنة ٥٣٠ هـ ١١٣٥ م وهو مشهد كبير احتفظ بقبته الكبيرة ، كما احتفظ بقبته فوق المحراب وبعقوده ، وقبته الكبيرة مضلعة من الخارج مجوفة الأضلاع من الداخل ومقرنصها من حطتين ؛ وبالمشهد عدة قبور لأفراد من أسرة الشبيه عليها شواهد مكتوبة بالخط الكوفى ، منها ما يرجع إلى سنى ٢٦١ ، ٢٦٣ هجرية -٨٤٧-٨٧٦ ميلادية . ويحيط بالتراكيب فوقها طراز خشبى مكتوب عليه بالخط الكوفى آيات من القرآن ، ونلحظ فى محاريبه البساطة فقد اقتصر عقد المحاريب على طاقية محارية أحيط بها مقرنص من ثلاث حطات ينتهى بدلاية محازية للأضلاع ، وهذا النوع انتقل إلى المحاريب الأيوبية بعده .

مسجد الصالح طلائع بن رزّيك بالقاهرة :

أنشأه أبو الغارات الملقب بالملك الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٥ هـ ١١٦٠م ، وهو من المساجد الكبيرة المعلّقة إذ تبلغ مساحته ١٥٢٢ متراً ، وقد انفرد بطرز واجهته ، واشتمل على مميزات معمارية قل أن تتوفر فى مسجد فاطمى آخر ، فقد بنيت وجهاته بالحجر أسفل ثلاث منها حوانيت ، أهمها الواجهة الغربية وبها الباب العمومى ، وقد أقيم أمامها رواق محمول على أربعة عمد رخامية تحمل عقوداً حليت حافاتها بزخارف ، وينتهى من طرفيه بحجرتين ، وحلى صدر هذا الرواق وجانباه بزخارف على هيئة مروحة مخوصة . ونقشت بأفاريزه آيات من القرآن بالخط الكوفى المزخرف . ولهذا الرواق سقف من الخشب حلى بزخارف فاطمية لعله السقف الفاطمى الوحيد . ويعلو الدكاكين أسفل الواجهات أفريز حلى بترابيع مزخرفة تنوعت أشكالها .

وكانت المنارة تعلو الباب الغربى شأن المساجد للفاطمية ، وكان لهذا الباب مصراعان مغشيان بحشوات نحاسية مفرغة بأشكال زخرفية يعتبر من أقدم المصاريع المكسوة بالنحاس ، وقد حلى ظهراهما بنقوش جميلة حفراً فى الخشب . وقد أودعا متحف الفن الإسلامى وعمل بدلهما على مثالها .

والمسجد من الداخل يتكون من إيوانات تحيط بالصحن ، وأهم هذه الإيوانات الإيوان الشرقى الكبير المكون من ثلاثة أروقة حليت حافات عقودها من الداخل والخارج بكتابة آيات من القرآن بالخط الكوفى المزهر ، وفتحت بخواصر العقود دوائر جصية مزخرفة من وجهيها فرغ وسطها بأشكال هندسية .

ويعلو كل عقد شباك صغير مفرغ بزخارف نباتية مختلفة ، وحليت الطبالى الخشبية فوق تيجان العمد بزخارف مورقة ، كما حليت الأوتار بنقوش نباتية وأخرى مكتوب بها آيات من القرآن .

وفى جدار المحراب شبابيك من الجص حديثه ، يحيط بكل منها إفريز جصى مكتوب فيه بالخط الكوفى المزخرف آيات من القرآن ، ونقل إلى متحف الفن الإسلامى نوع آخر من الشبابيك التى كانت بالمسجد . وكان مركباً على وجه الإيوان الشرقى مقصورة من الخشب أدركنا بقاياها فأكملت ووضعت على الرواق الخارجى .

والمنبر الحالى للمسجد ليس منبره بل هو من عمل الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ ١٢٩٩ م وهو طرفة نادرة ، ولا شك فى أن منبر الجامع القديم كان تحفة لأن صنوه بمسجد الصالح طلائع بقوص سنة ٥٥٠ هـ من أفخم وأكبر المنابر تنوعت زخارف حشواته المورقة الدقيقة ، وهو غاية فى دقة الصناعة ، وأكتفى عن وصفه بنشر صورته . وبهذا المسجد يكون مسك الختام للعمارة الفاطمية فى القاهرة .

ولا مجال لمقارنة التحصينات والأبواب الفاطمية فإن غالبها فى القطر التونسى تجدد فى الدولتين الحفصية والتركية وبعدها مما أفقدها طابعها القديم الذى يضعها موضع المقارنة بين أسوار وأبواب القاهرة الفاطمية . تلك الأبواب التى لم يبق منها سوى أبواب النصر والفتوح والتوفيق سنة ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م وباب زويلة سنة ٤٨٤ هـ ١٠٩١ م ، وهى الأبواب التى أعاد بنائها بدر الجمالى .

وهذه الأبواب أشرف على بنائها ثلاثة إخوة قدموا من الرها ، وهى مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام تعرف باسم أورفا .

وقد تجلت فى هذه الأبواب الضخامة والعظمة ، بما حوته من دقائق فنية قل أن توجد فى غيرها ، ويمكن القول بأن هذه الأبواب قد يكون طرزها منقولا عن استحكامات قريبة من الإمبراطورية البيزنطية والعراق .

وقد تنوع تصميم وزخرف هذه الأبواب ، فبينما نرى باب الفتوح له بدنتان مستديرتان وكوابيل على هيئة رأس كبش ، نرى باب النصر له بدنتان مربعتان ، واستبدل الزخرف برسوم آلات حربية .

ويربط البابين سور المدينة ، وهو أكمل جزء من سور بدر الجمالى ، تتمثل فيه حصانة أسوار القاهرة ، وهو سور حجرى عريض اشتمل باطنه على سراديب ومزاغل وشرفات وأبراج تساعد على تحصين الجند فيها للدفاع عن المدينة .

أما باب زويلة فهو فى الحد الجنوبى للقاهرة . وهو أقرب شبهاً إلى باب الفتوح من حيث استدارة برجيه ، وقد امتاز بالضخامة والفخامة وبالزخارف .

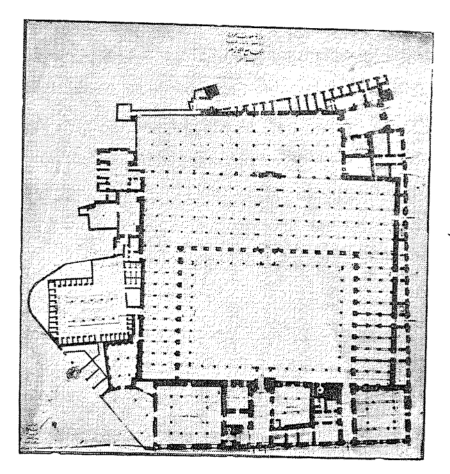
وقد انتهز مهندس مسجد المؤيد وجود الباب لصق المسجد فاتخذ من بدنتيه قاعدتهن لمنارتى المسجد ، وهو اعتداء صارخ فى نظر الآثاريين . ولكنه كان موفقا فيه كل التوفيق .

لوحة رقم ١ - الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

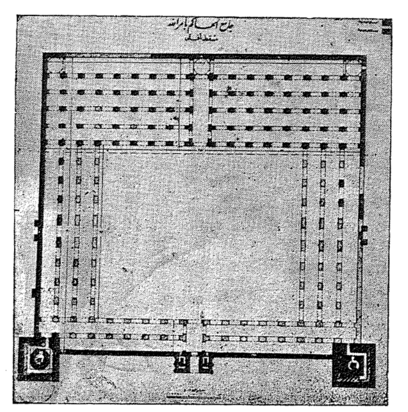
المسقط الأفقي لجامع الزيتونة
مقياس الرسم ١ - ٥٠٠

المسقط الأفقي لجامع الزيتونة - مقياس الرسم ١ - ٥٠٠

لوحة رقم٢ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

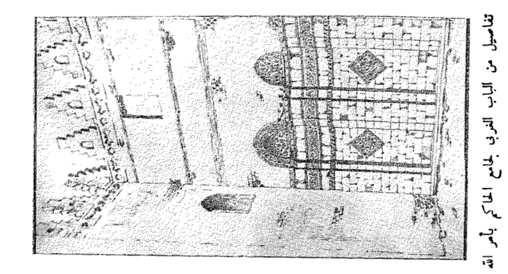


المسقط الأفقى للجامع الأزهر وإضافاته

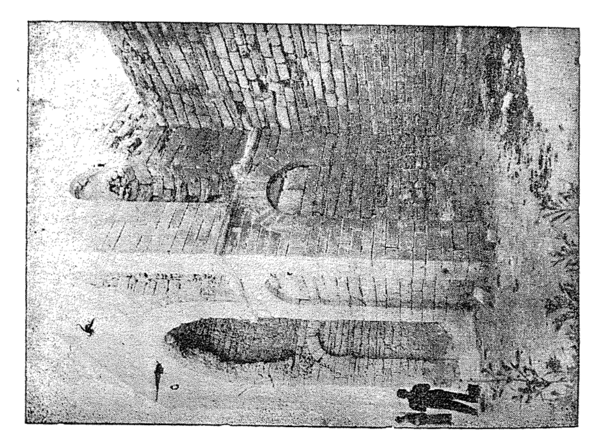


المسقط الأفقى لجامع الحاكم بأمر الله

لوحة رقم ٣ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

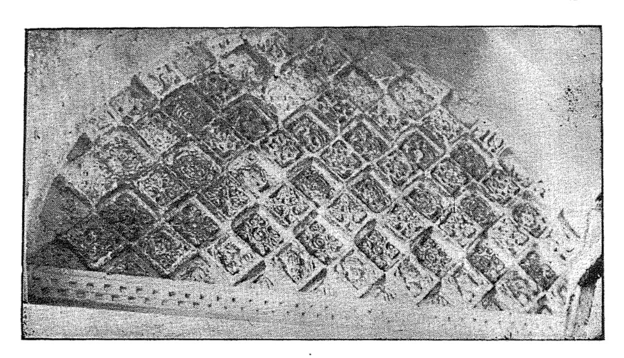


تفاصيل من الباب الغربي لجامع الحاكم بأمر الله

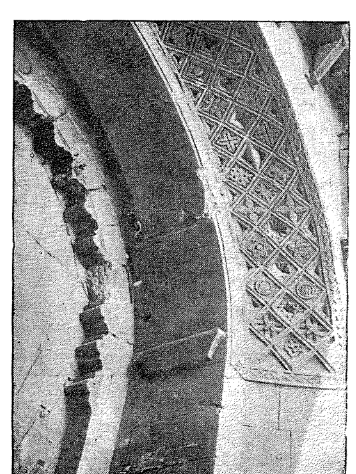


[باب جامع المهدية بالمهدية

لوحة رقم ٤ ــ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

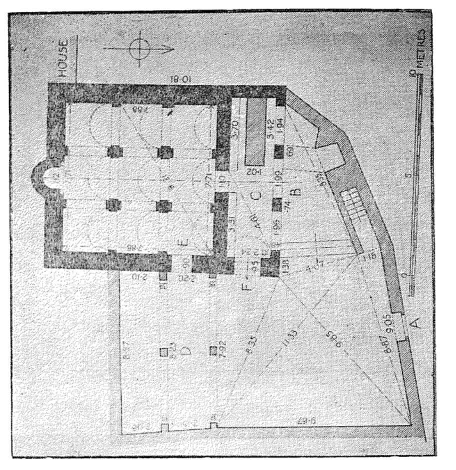


↑
تفاصيل من زخارف
قبة مسجد سوسة

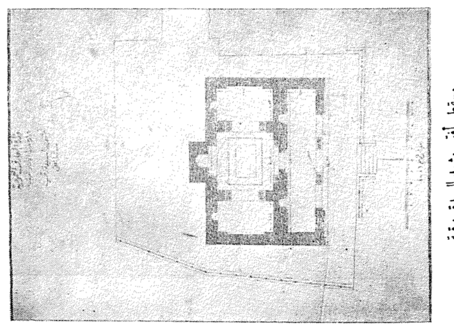


تفاصيل من زخارف
عقد باب الفتوح

لوحة رقم ٥ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

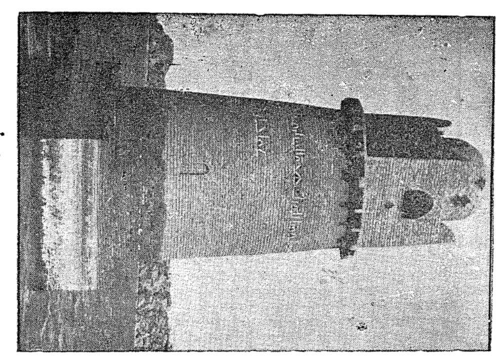


مسقط أفقي مسجد أبو فتاتة

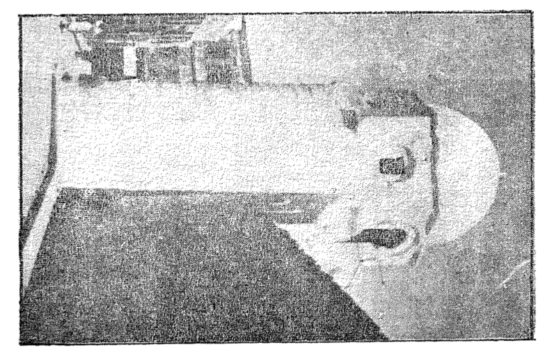


مسقط أفقي مشهد السيدة رقية

لوحة رقم ٦ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

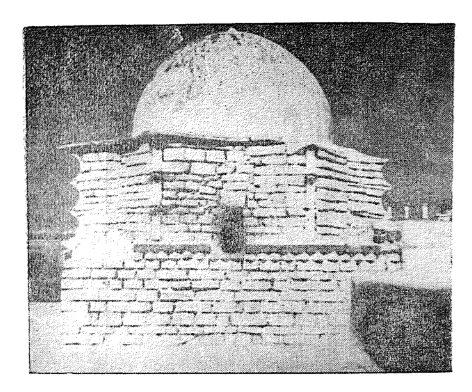


منارة مسجد بلال بأسوان

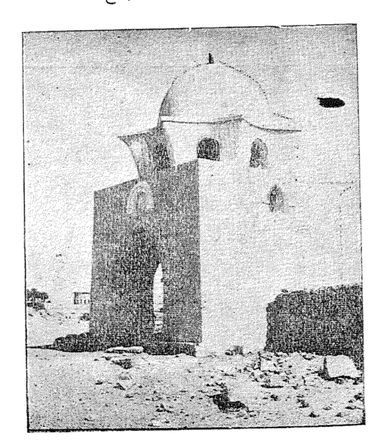


منارة مسجد سوسة

لوحة رقم ٧ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

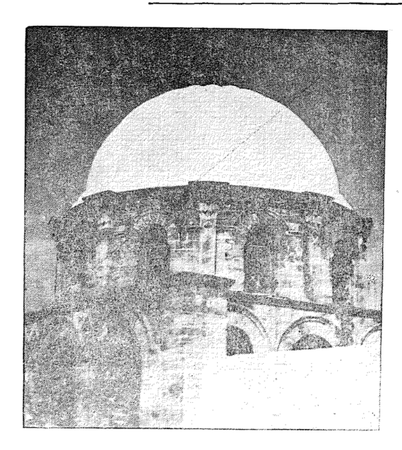


قبة المحراب بجامع سوسة

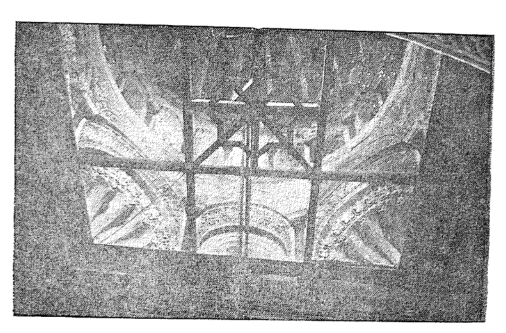


قبة قاضي الشريعة
بأسوان

لوحة رقم ٨ ـ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

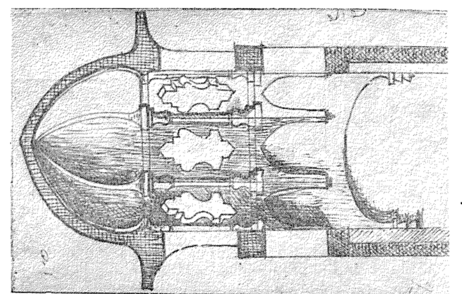


قبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس

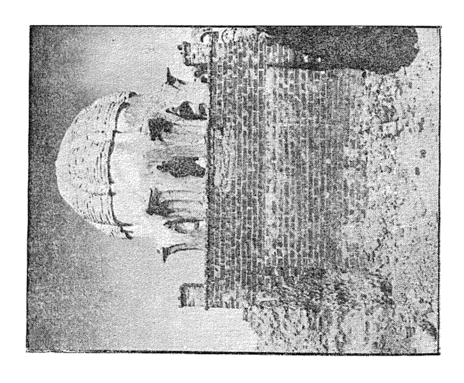


مقرنص قبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس

لوحة رقم ٩ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

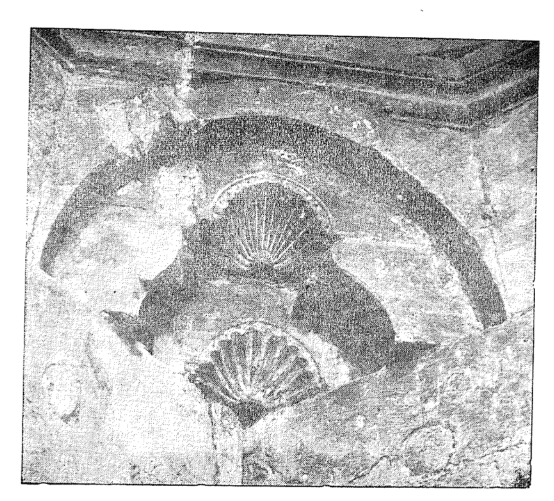


قطاع لقبة السيدة رقية بأسوان



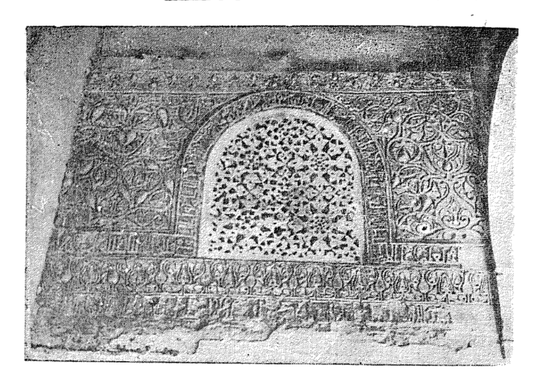
قبة السيدة رقية بأسوان

لوحة رقم ١٠ ـ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

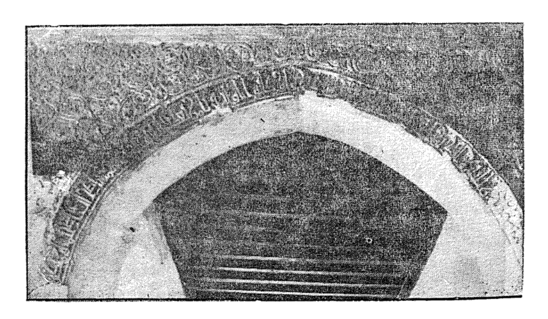


مقرنص مدخل باب زويلة

لوحة رقم ١١ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

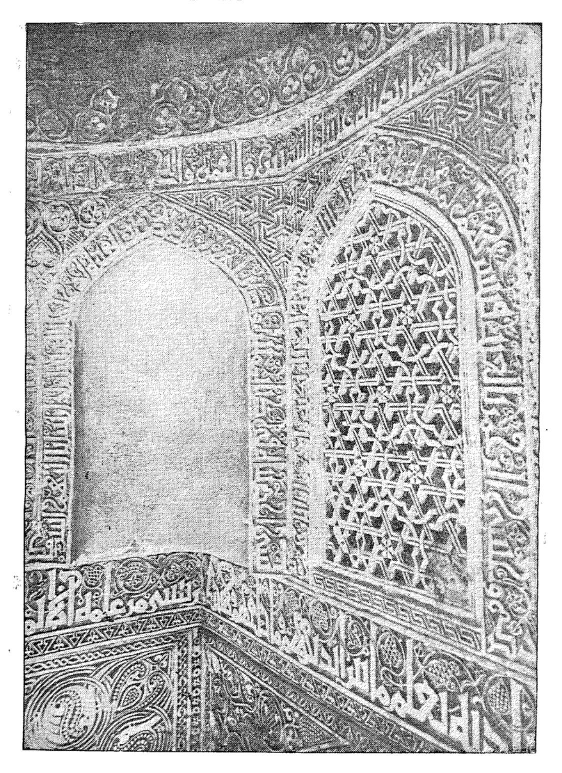


شباك بالجدار الشمالي بالأزهر بزخارفه وكتاباته



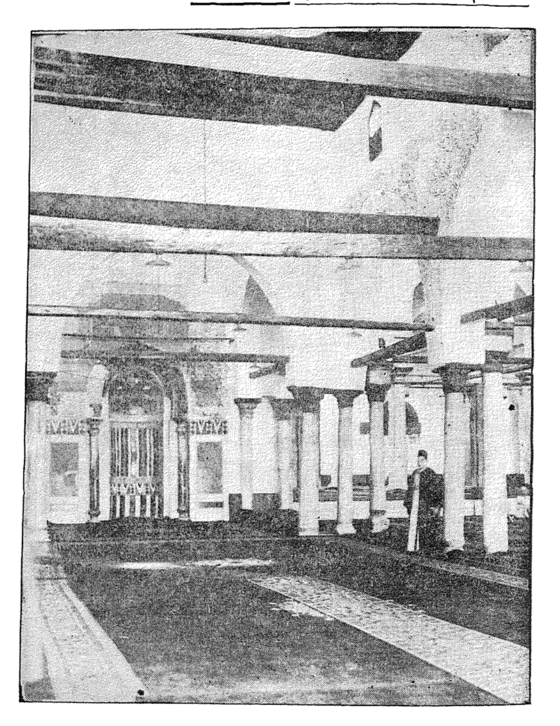
عقد من عقود المجاز بالأزهر بزخارفه وكتاباته

لوحة رقم ١٢ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



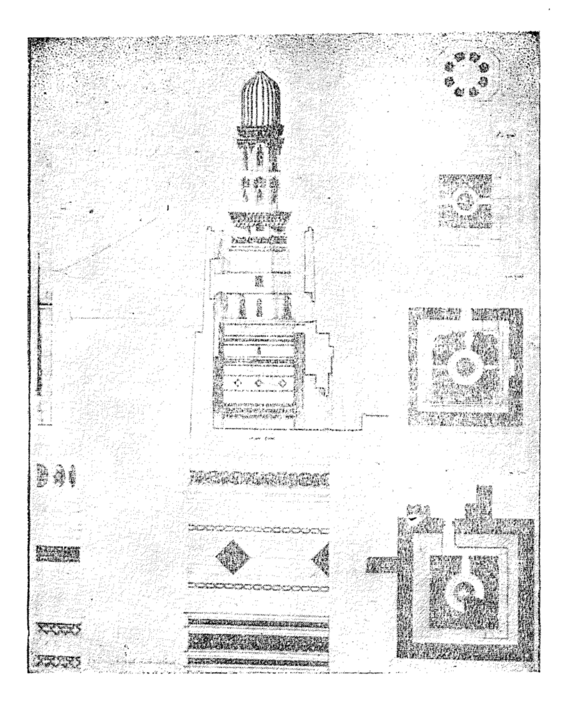
مقتر نصر، قبة البهو برأس المجاز بالأزهر

لوحة رقم ١٣ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



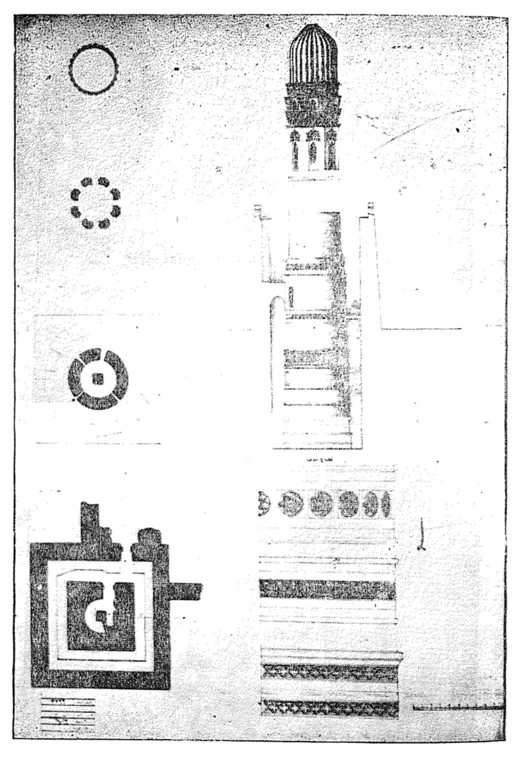
داخل الأزهر وتظهر عقود المجاز والمحراب القديم

لوحة رقم ١٤ ــ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



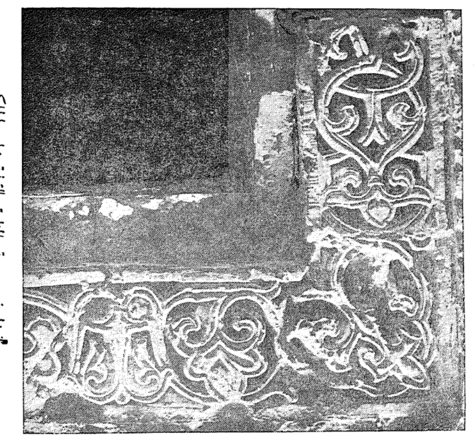
المنارة القبلية لجامع الحاكم بأمر الله

لوحة رقم ١٥ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

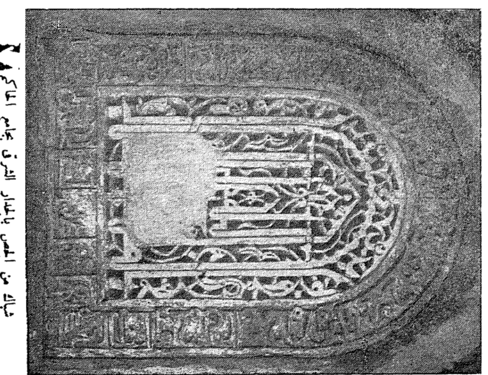


المنارة البحرية لجامع الحاكم بأمر الله

لوحة رقم ١٦ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



زخارف حجرية بالمنارة القبلية بجامع الحاكم

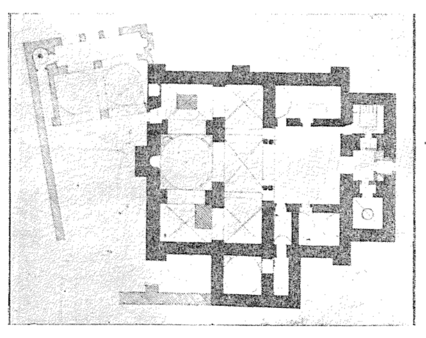


شباك من الجص بالجدار الشرقي بجامع الحاكم

لوحة رقم ١٧ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

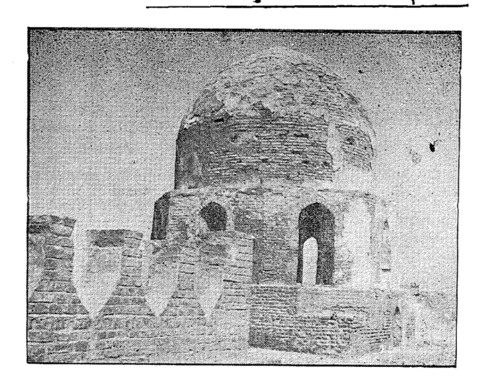


محراب مشهد الجيوشى

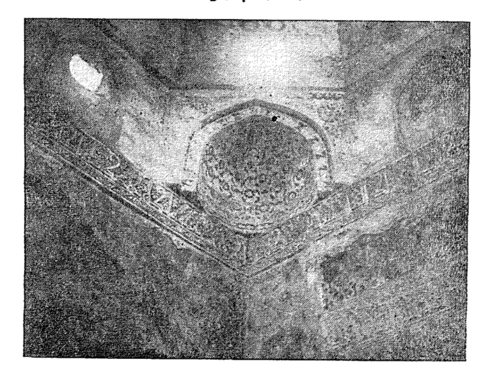


[مسقط أفقى للمشهد الجيوشى]

لوحة رقم ١٨ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

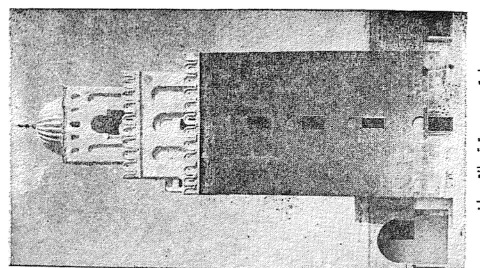


قبة مشهد الجيوشى

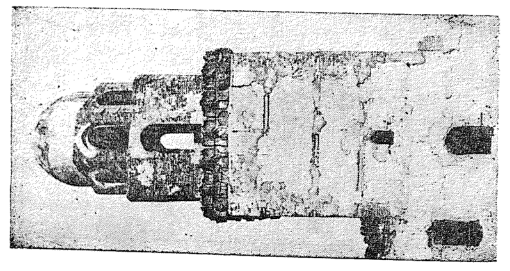


مقرنص قبة الجيوشى

لوحة رقم ١٩ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

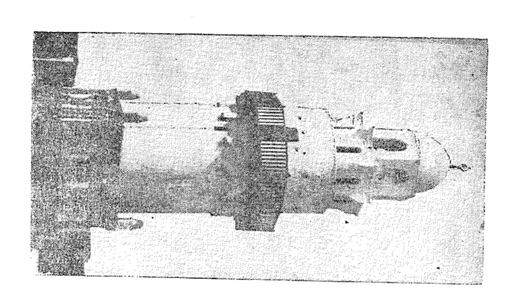


منارة مسجد عقبة بالقيروان

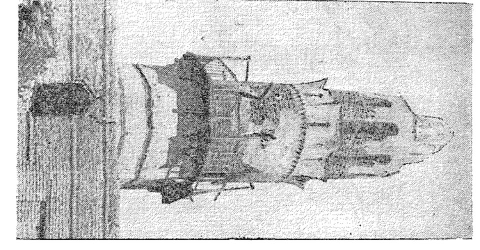


منارة مسجد الجيوشى

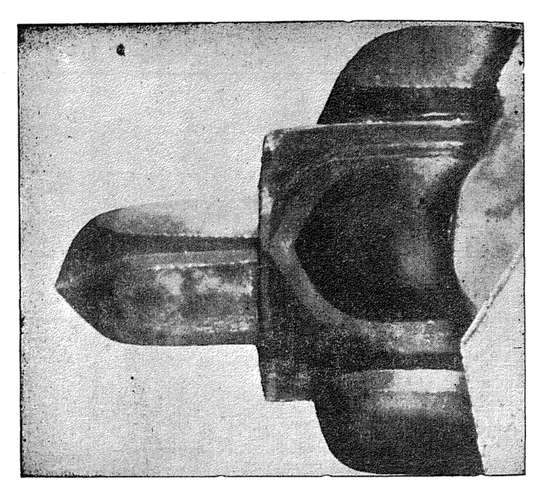
لوحة رقم ٢٠ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



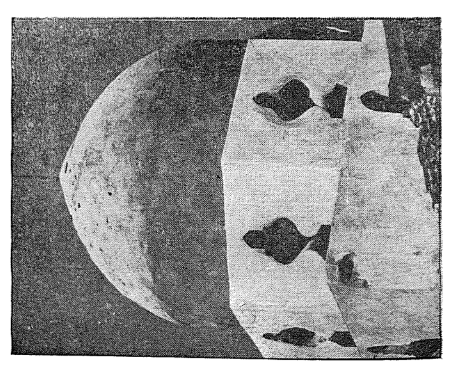
منارة الجامع العتيق بإسنا



منارة مسجد بجورة

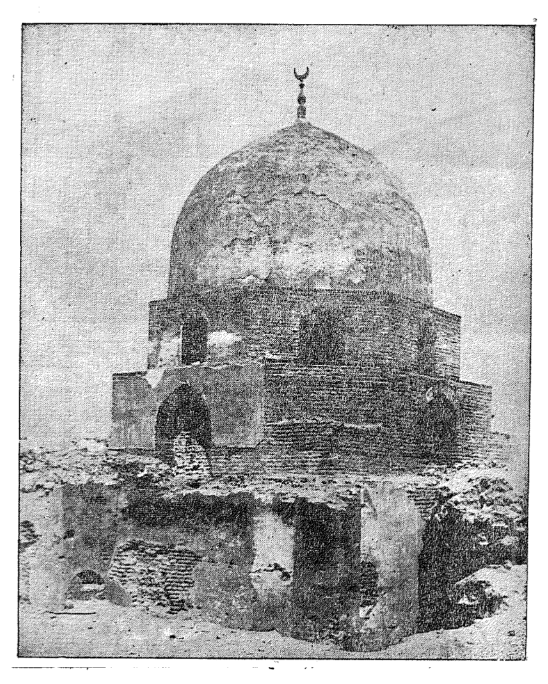


مقرنص قبة بهو الجامع



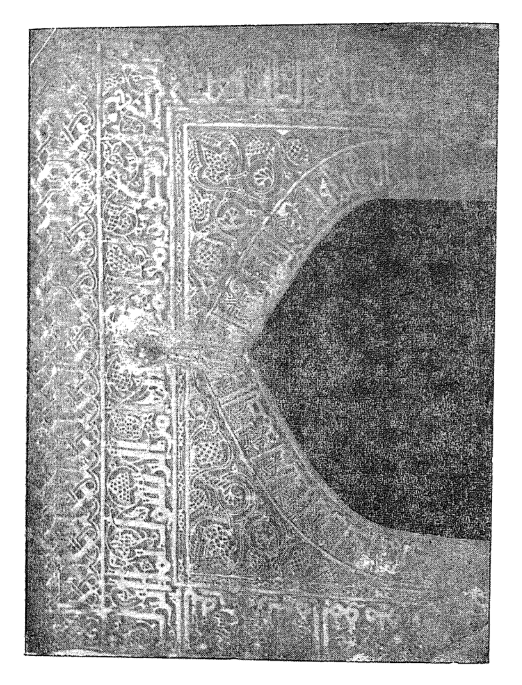
قبة بهو الجامع

لوحة رقم ٢٢ ـ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



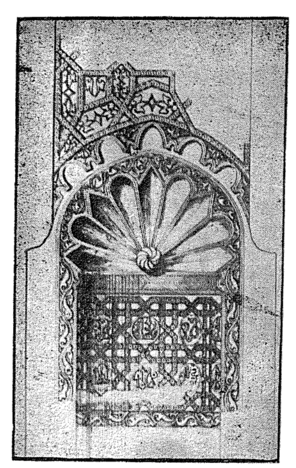
قبة إخوة يوسف

لوحة رقم ٢٣ – الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

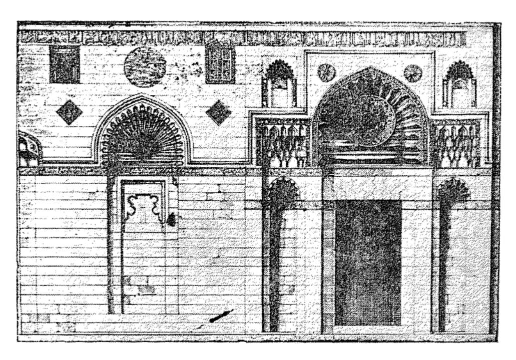


محراب قبة إخوة يوسف

لوحة رقم ٢٤ ــ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

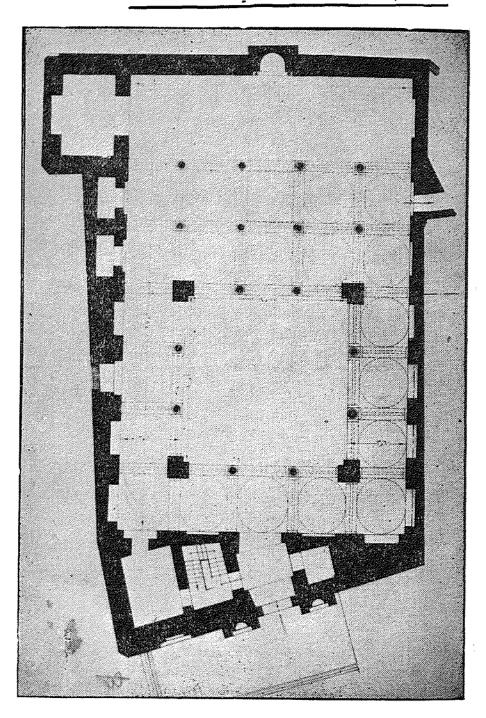


محراب مشهد كلثم



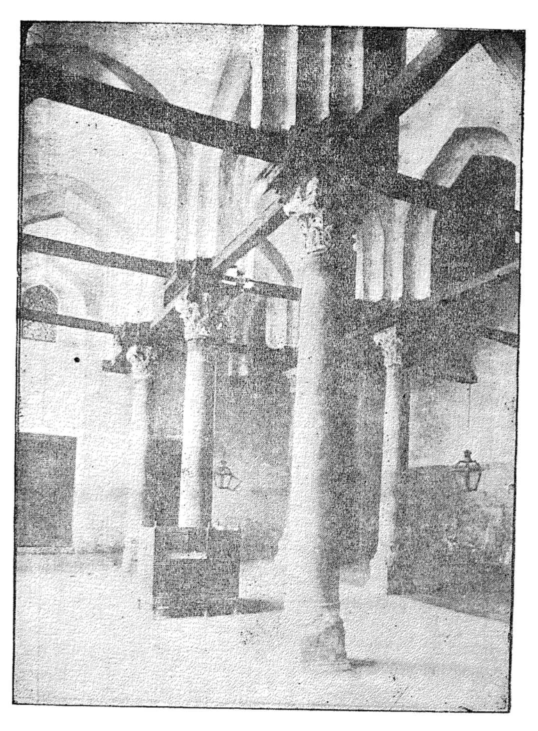
واجهة الجامع الأقمر

لوحة رقم ٢٥ ـ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



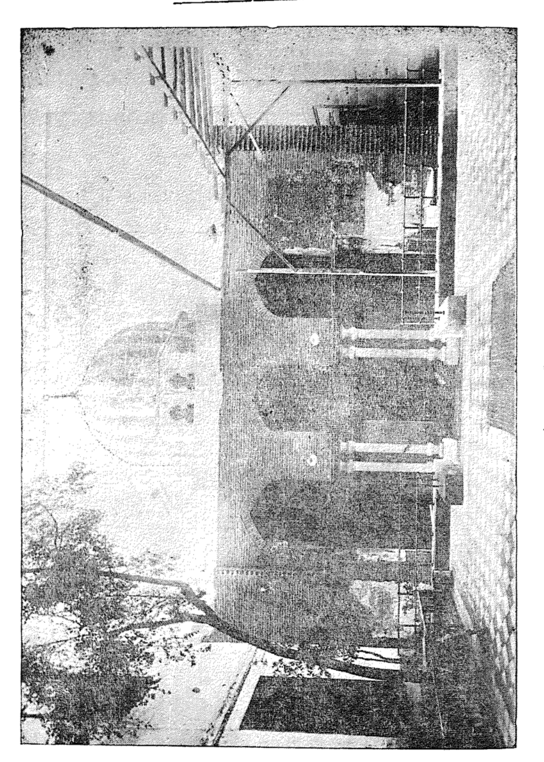
مسقط أفقي الجامع الأقمر

لوحة رقم ٢٦ ــ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



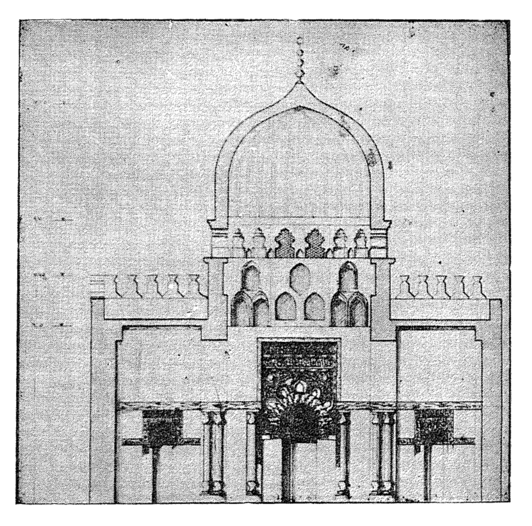
الإيوان الشرقى بالجامع الأقمر

لوحة رقم ٢٧ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



مشهد السيدة رقية

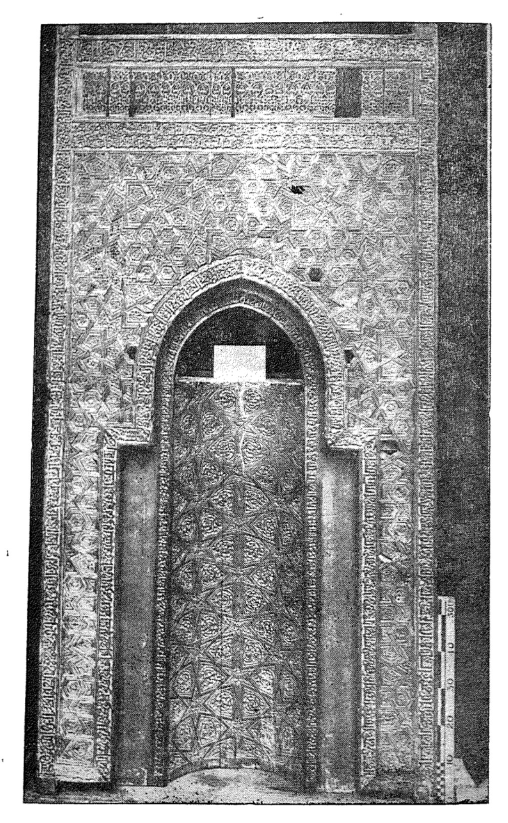
لوحة رقم ٢٨ = الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



قطاع لقبة مشهد السيدة رقية

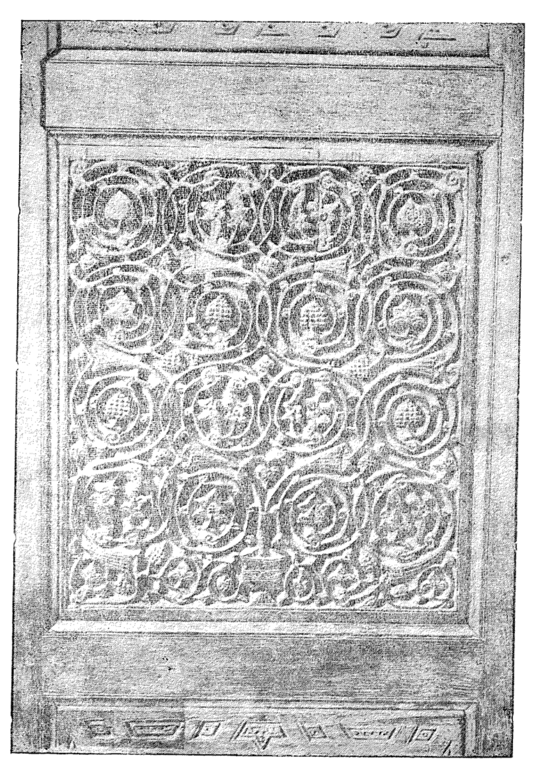
٠٠٠٤٠٩

لوحة رقم ٢٩ – «الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة»

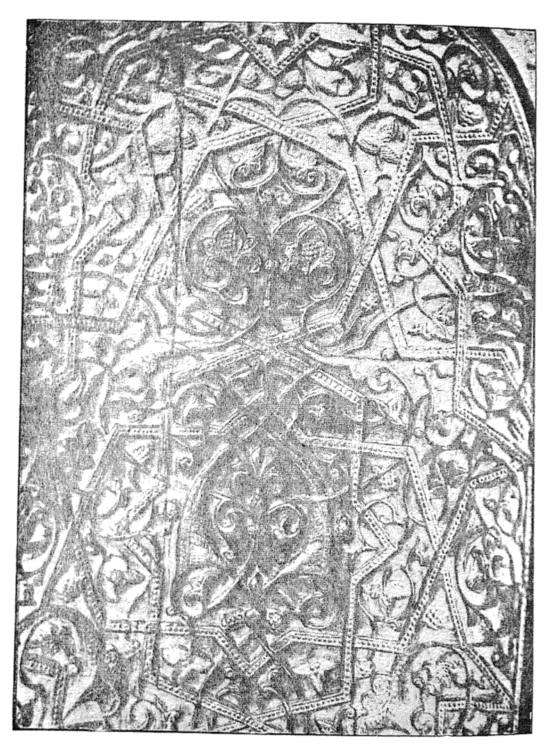


محراب خشبى متنقل من مشهد السيدة رقية

لوحة رقم ٣٠ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

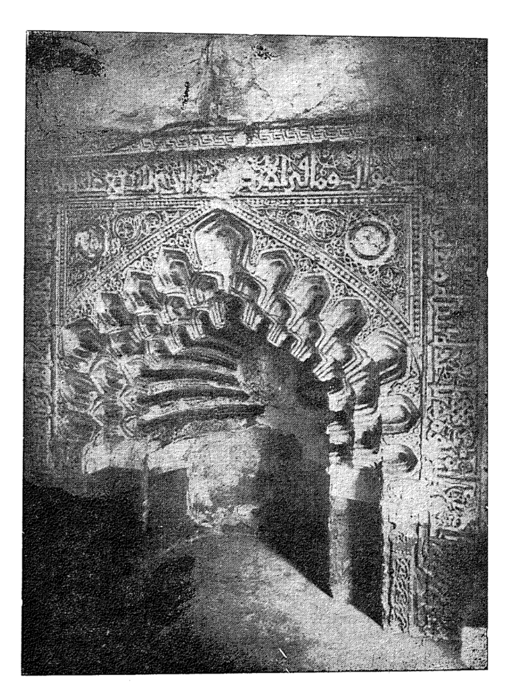


تفاصيل من ظهر محراب السيدة رقية



المشهد النفيسي – تفاصيل من المحراب المتنقل

لوحة رقم ٣٢ ــ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



محراب قبة مشهد السيدة رقية

لوحة رقم ٣٣ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



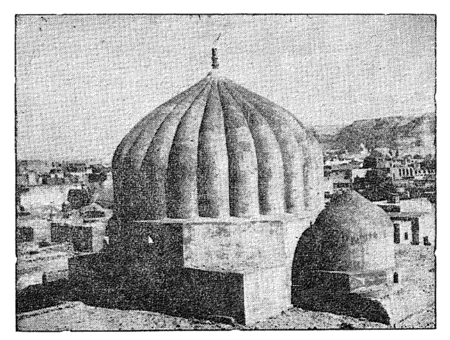
جزء من طراز مخلف من القصور الفاطمية

حشوة من
أحد مصاريع
القصور الفاطمية

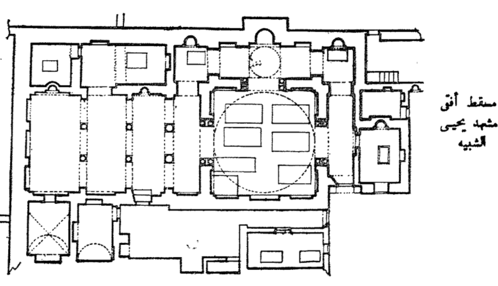
لوحة رقم ٣٤ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



جزء من طراز فاطمى مخلف من القصور الفاطمية

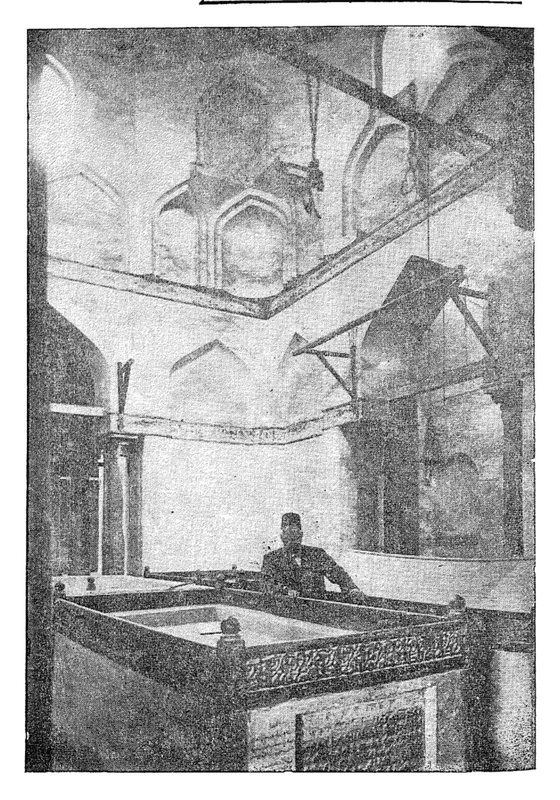


قبة يحيى الشبيه

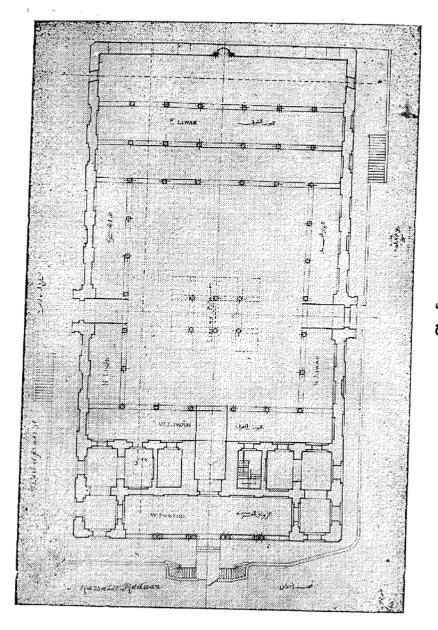


مسقط أفقى مشهد يحيى الشبيه

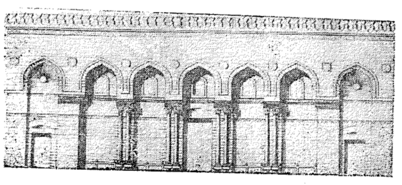
لوحة رقم ٣٥ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



داخل مشهد يحيى الشبيه



مسقط أفقى
مسجد الصالح
طلائع



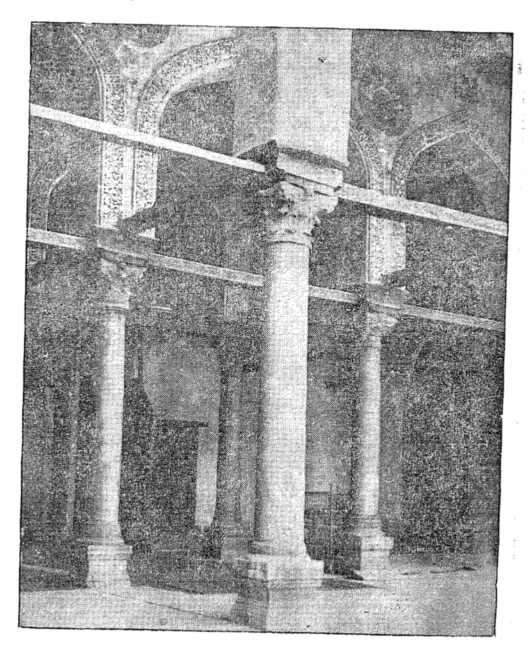
قطاع لمسجد
الصالح طلائع

لوحة رقم ٣٧ — الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



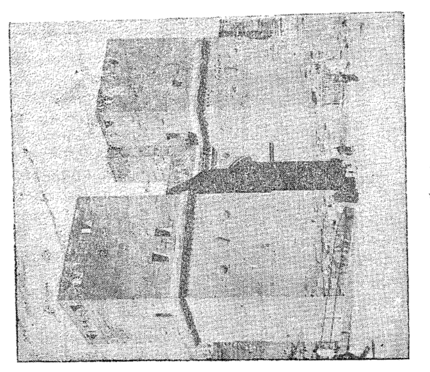
جزء من منبر طلائع فى قوص

لوحة رقم ٣٨ ــ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

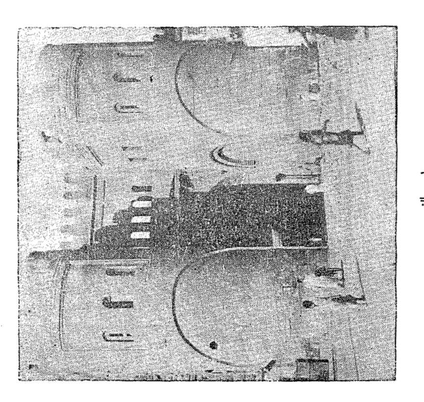


الإيوان الشرقي لجامع الصالح طلائع

لوحة رقم ٣٩ ـ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة

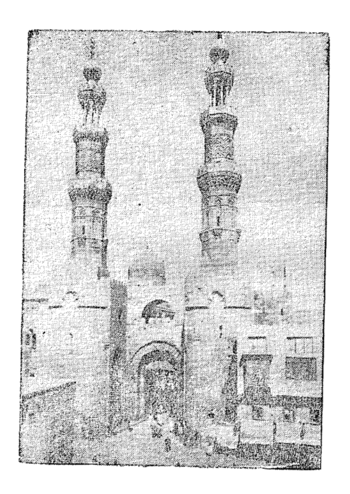


باب النصر



باب الفتوح

لوحة رقم ٤٠ ـ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة



باب زويلة

من تاريخ التحصينات العربية

فى القرنين الأول والثانى للهجرة

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

التاريخ والآثار علمان متضامنان ، وقد درج المؤرخون على أن ينتفعوا فى دراساتهم التاريخية بالنتائج التى يصل إليها الأثريون ، والعكس صحيح إلى أقصى الحدود ، وعلى هذا الأساس أتقدم بهذا البحث لمؤتمر الآثار الرابع الذى تعقده الجامعة العربية والذى أتشرف بتمثيل جامعة عين شمس فيه .

ذلك أنى جمعت من أقوال المؤرخين وخاصة من البلاذرى أخباراً كثيرة جداً عن التحصينات العربية فى القرنين الأول والثانى للهجرة (السابع والثامن للميلاد) ، وأدى هذا الجمع إلى إقرار نتيجة تاريخية أثرية هامة هى أن العرب ارتفعوا منذ القرن الهجرى الأول إلى مستوى أكبر بناة للحصون فى العالم ، وأن عدد العمليات التحصينية فى جبهة صغيرة زاد على سبعين عملية .

ونخص بحثنا ببلاد الشام بسوريتها ولبنانها وفلسطينها وأردنها موحدة كما كانت دائماً وبحدودها القديمة الممتدة إلى سفوح الطوروس الجنوبية وتدخل فيها حد الفرات الفاصل بين الأناضول وأرمينية الكبرى . وأرجو فى المستقبل أن يشمل البحث الجبهات العربية الأخرى فى بلاد ما وراء النهر وفى المغرب والأندلس وغيرها .

وإلى الآن لم يحاول أحد من المؤرخين المحدثين أن يتتبع تاريخ التحصينات فى القرون الأولى للهجرة ، لسبب واضح هو أن الأكثرية العظمى لهذه التحصينات قد بادت ، وكانت النتيجة هى إهمال جانب من الجهود العربية عند كتابة تاريخ الحضارة العربية ، بل لعل المؤرخين اليوم أكثر فطنة لأهمية

التحصينات التي قام بها الإمبراطور البيزنطي جستنيان بفضل الكتاب الذى كتبه المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس عن هذه التحصينات[1] . والحقيقة هى أن جهود العرب فى القرنين الأول والثانى ، فيما يخص بلاد الشام على الأقل ، أكبر وأضخم ، بحيث نستطيع أن نقول إن فن التحصين ازدهر على يد العرب حتى جددوا عصر جستنيان وفاقوه .

وإنى لآمل أن يواصل الأثريون جهود الأب بوادبار[2] ، فإنه استطاع عن طريق التصوير بالطائرات أن يكشف عن أساسات مطمورة لا يراها الإنسان وهو يمشى فوقها . ولو استطعنا أن نصل إلى كشف الأساسات — وهو كل ما نطمع فيه بحسب معلوماتنا الحالية — فإن مثل هذه النتيجة تكون من غير شك عظيمة الأهمية . فالآثار على حد قول المرحوم المؤرخ الأثرى المستشرق سوفاجيه « علم يهتم بكل الأشياء ، دون أن يخص الأشياء ذات القيمة الفنية الجمالية ، فهو يدرس الخرائب التى باد شكلها . . . بنفس الاهتمام الذى يدرس به أفخم الآثار »[3] . بل تدل بعض الدراسات على أنه قد تكفى وسائل البحث العادية عن الطيران فى بعض الأحوال ، مثال ذلك ما حدث أخيراً بالنسبة للرقة وأبحاث دائرة الآثار السورية بها ، ومثال ذلك ما حدث بالنسبة لمدينة chalcis ad Belum عند بحيرة حمص[4] .

ولا يزال البحث عن العمارة الحربية العربية الأولى مهملا إلى الآن إهمالا تاماً ؛ أما بالنسبة للقرون التالية فليس لدينا إلا القليل[5] ، وهذا القليل أفضل من لا شيء .

---

1) *Procopius* : Of the Buildings of Justinian, Trad. anglaise par Aubry Stewart, Wilson et Louis, Londres 1886.

2) *Poidebard* (R.P.) : Les traces de Rome dans le désert de la Syrie. Paris 1934.

3) *J. Sauvaget* : Introduction à l'histoire de l'Orient musulman, Elements de bibliographie. Paris 1943.

4) *Monceauy et L. Brosse* . Chalcis ad Belum. Notes sur l'histoire et ruines de la ville, dans *Syria*, VI, 1927 p. 339 ets.

(٥) عبد الرحمن زكى : (١) العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين ، المجلة التاريخية ، مجلد ٧ ، القاهرة ١٩٥٨ . =

تحصينات الساحل الشامى فى عهد الراشدين عقب الفتح

عند ما انتصر العرب على الروم فى البر انتصاراً ساحقاً حاسماً ، قدروا خطر نزول العدو الرومى إلى السواحل الشامية تقديراً سليما ، واتخذوا لذلك إجراءات دفاعية كثيرة ، منها بناء المناظر ومنها تحصين المدن الساحلية إلى جانب الرباطات الدائمة والجند الغازى وسياسة التهجير أو النواقل وجمع الساحل كله تحت إدارة عسكرية واحدة .

ويهمنا فى تاريخ العمارة الحربية أمر المناظر وأمر المدن الساحلية المحصنة .

١ – المناظر

أقدم تحصينات أقامها العرب على الساحل الشامى هى المناظر .

ولفظ « المناظر » لفظ اصطلاحى وارد عند البلاذرى فى فتوح البلدان ، وقد حل محله اصطلاح جديد فى العصر المملوكى وارد فى المصادر التاريخية المملوكية وهو لفظ « المرقب » . ويبدو أن أهل الأندلس استعملوا اصطلاحاً ثالثاً هو لفظ « الطلائع » كما يوحى بذلك اسم مكان عنده برج فى فرنسا قرب مدينة هنداى عند السفوح الشمالية الفرنسية لجبال البرانس .

أما عن لفظ المناظر الذى شاع فى الشام بشكل واضح بحسب روايات البلاذرى : فإنه شاع فيها وفى العراق ومصر فى الاصطلاح المدنى : مثل المناظر التى تعلو أبواب بغداد الأولى فى منتصف القرن الثانى ، ومثل مناظر القصر الفاطمى فى ساحة بين القصرين فى القرن الرابع . ولا يزال اللفظ مستعملا فى ريفنا المصرى ، فالمنضرة بالضاد أو المناضر هى الحجرات التى تتصل بالخارج وتشرف على الشارع من الدور الأرضى ، ولا يزال لفظ

= (ب) بين قلاع العرب وحصونهم ، المجلة ، السنة الأولى ، العدد ٥ ، شهر مايو القاهرة ١٩٥٧ .

(ج) كريزول : التحصينات فى الإسلام (بالإنجليزية)

« الناضورة » يطلق على أعلى كوم بالإسكندرية وهو « كوم الناضورة » . وكذلك شاع نفس الاسم فى المغرب بالإقليم التونسى الحالى ، فإنه يطلق اليوم على منارة رباط المنستير اسم الناضور .

أما عن الشكل فإننا لا نعرف عنه فى بدء شيوع المناظر شيئاً . وأقدم ما بقى إلى اليوم هو ناضور المنستير وهو اسطوانى الشكل ، أما برج الطلائع القريب من هنداى فإنه مضلع ، ولكننا لا نعرف تاريخ إنشائه .

أما من حيث الوظيفة : فيدل سياق الروايات التاريخية الواردة عند البلاذرى خاصة أن المناظر الحربية عبارة عن أبراج حراسة مبنية فى الأماكن العالية المشرفة على البحر ابتغاء رؤية المراكب المعادية قبل اقترابها من الساحل . والمناظر فى نفس الوقت وسيلة اتصال عن طريق إيقاد النيران بالمناظر الأخرى إيذانا بقدوم العدو وحلول الخطر . وبسبب هذه الوظيفة نفترض أن النيران كانت توقد فى أعلى الأبراج شأنها فى ذلك شأن الفنارات بالنسبة للملاحة البحرية قديماً وحديثاً .

ونحن نفترض منطقيا أن الإشارات يجب أن تتراءى ، وأن قمم المناظر على الأقل يجب أن تتراءى . وعن طريق هذا الفرض الضرورى منطقيا نستطيع أن نقرر أن عدد المناظر المقامة على الساحل الشامى كان كبيراً . ووسائل التحديد يمكن استنتاجها من معرفتنا بالمدن المحصنة التى يتيسر نزول العدو عندها . ونحن نعرف أن مثل هذه المواضع تبلغ ١٥ مدينة محصنة ، وسنشير إلى ذلك فيما بعد . ومن الطبيعى أن نفترض وجود منظرة عند كل مدينة محصنة ، وهو افتراض بدهى يمكن الاعتماد عليه من حيث الصحة التاريخية . ونرجح بعد ذلك أنه لا بد أن توجد منظرة واحدة على الأقل بين كل مدينتين محصنتين . وينتج عن هذا التصور لمعانى الروايات التاريخية ولكيفية تطبيقها على الواقع أن عدد المناظر على الساحل الشامى لا يمكن أن تقل عن ٢٩ منظرة . ويبقى أن نعرف بعملية حسابية الارتفاعات الضرورية لهذه

المناظر . ولهذا نقيس طول الساحل من أنطاكية إلى عسقلان حتى بصرف النظر عما يقع شمالى أنطاكية وما يقع جنوبى عسقلان فنجده ٦٠٠ ك م . وتوزيع المناظر إذن يقتضى أن يختار مكان كل عشرين كيلو متراً لبناء إحدى المناظر . ثم نصل بسهولة إلى المطلوب ، وهو أن المنظرة إذا أردت رؤيتها على بعد عشرين كيلومتراً يجب ألا تقل عن عشرة أمتار إذا قدرت استدارة الأرض ثم ضرورة إمكان التمييز على بعد .

وعلى ضوء هذه التحديدات يكون من الممكن حدس أماكن المناظر على أية خريطة دقيقة من الخرائط الحربية عن طريق اختيار المرتفعات التى تتراءى من مدينة إلى مدينة أو التى تتراءى من منتصف الطريق .

ومثل تلك المناظر يمثل فكرة بسيطة متداولة ، فإننا لا نزال نتخذ لحراسة مزارع القطن فى ريف مصر نوعاً خشبياً من المناظر يعرف باسم الطيارات ، وكذلك تستعمل فكرة المناظر فى الملاحة البحرية عن طريق برج مرتفع ، ولكن الفكرة كانت شائعة فى مصر البيزنطية وكانت الأبراج البيزنطية تعرف باسم « مجدولن » Magdolon ، كما تقرر ذلك المرحومة المؤرخة الفرنسية ج . رويار فى كتابها عن مصر البيزنطية(١) .

والظروف التاريخية التى حتمت الاستكثار من المناظر معروفة .

فقد بنيت المناظر العربية على طول الساحل الشامى بأمر صادر من الخليفة الثالث عمر بن الخطاب ، ويحدد البلاذرى عام ١٨ هـ . ولا بأس من قبول هذا التاريخ المناسب للظروف لأنه لا يوجد لدينا دليل من الآثار .

والسبب فى صدور هذا الأمر هو أن العرب أشرفوا بمجرد فتح الشام على البحر المتوسط على طول السواحل الشامية ، ثم على طول السواحل المصرية قبل أن يكون لهم أسطول بحرى وقبل أن يتمكنوا من إنشاء وسائل دفاع فوق

---

1) Rouillard, J. : L'administration civile de l'Egypte byzantine ; Paris, 1928.

الماء ، فألجأتهم الضرورة إلى أن يحموا سواحلهم من البر فقط ، وأن يركزوا كل دفاعهم الساحلى على الأرض اليابسة ، وأن يحصنوا هذه السواحل تحصيناً كافياً فيه ضمان تام للأمن . ولهذا جعلوا المناظر عنصراً أساسياً من عناصر الدفاع البرى عن السواحل . وعن طريقها توجه أجناد الرباطات حركاتها وتسير نحو الخطر .

وتعمل هذه المناظر طوال الفصل الدافئ من السنة ، ونحن نقدر أن الفصل الدافئ يمتد فى هذه السواحل العربية من أبريل إلى اكتوبر ، وهذا التقدير يستند على الأساس المناخى من جهة كما يستند أيضاً على مواعيد الملاحة الممكنة بحسب ما نعرف من الروايات التاريخية ومن البرديات اليونانية فى العصر العربى فى مصر . والقاعدة هى أنه إذا حل شهر اكتوبر تعذرت الملاحة ثم امتنعت ، وصار نقل الجنود مخاطرة قاتلة . ويعبر البلاذرى عن ذلك بأنه « انغلاق البحر » . ثم يظل البحر منغلقاً طوال أشهر البرد ، فإذا حل الدفء انفتح البحر واحتاج الأمر إلى الحذر والحيطة عن طريق المناظر .

فإذا حل الخطر عند أحد المناظر أوقدت النار فى أعلاه ، ويمتد الإيقاد بسرعة الضوء ومسافة الإشعال ، فلا تمضى ساعة على الأكثر حتى تكون جميع المدن المحصنة على الساحل الشامى قد علمت بطلب النجدة . وعندئذ يتجمع أهل كل عرافة إلى عريفهم ويحتشد المرابطون ويسيرون نحو مصدر الضوء حتى يصلوا إلى المنطقة التى بدأت بطلب النجدة .

ويوازى هذا التنظيم الدفاعى نظام إدارى خاص تحدثت عنه المصادر طوال العصر الأموى وفى أيام بناء المناظر للدفاع الساحلى بوجه خاص . ويتلخص هذا النظام الإدارى فى جمع الشريط الساحلى الشامى كله فى وحدة إدارية عسكرية قائمة بذاتها بصرف النظر عن الأجناد الداخلية ، وفعلا نلاحظ أن أقدم التقسيمات العربية الإدارية فى الشام تجعل « السواحل » قسما خاصاً تطلق عليه اسم السواحل ، وتطلق على واليه اسم « صاحب البحر » .

والخلاصة أننا أمام عنصر معمارى حربى بائد أقدم ما بقى منه إلى اليوم هو ناضور المنستير فى تونس التى يجتمع فيها مؤتمرنا هذا الكريم . وعلينا أن نتنبه إلى أمثال هذه العناصر عند إجراء الحفريات فى المناطق الساحلية . وكان من الضرورى جداً أن ننبّه إليه وأن ندرسه لتكون معرفته وسيلة إلى البحث عنه .

٢ – المدن الساحلية المحصنة

ثم كانت المدن الساحلية مراكز دفاع قوية ، فهى وحدها بما فيها من روابط هى التى تحمل العبء كله فى النهاية . وليست أبراج المناظر إلا عيوناً حولها .

وكان تحصين مدن الساحل ضرورة استراتيجية تقتضيها الظروف السياسية والبشرية وقد استجاب العرب لهذه الضرورة فى عزم وإصرار وجرأة ، ونجحوا كل النجاح فى تخطى هذه العقبة ، وأقبلوا على البناء والترميم بسرعة مدهشة . وتصرفوا بحسب الظروف على ثلاثة أوجه :

١ – الاحتفاظ بالحصون البيزنطية القائمة السليمة والاستفادة بها : مثل تحصينات أنطاكية واللاذقية وطرابلس ، وهى الحصون التى كانت بيزنطة تعنى بها خوفاً من الهجوم الفارسى من ناحية البر .

وأهم هذه القلاع الثلاث التى وصلت سليمة هى أنطاكية دون شك . فإنها كانت قاعدة بيزنطية كبرى لهذه المنطقة ، فلما آلت إلى العرب ظلت بالنسبة لهم أيضاً قاعدة الدفاع عن الحدود الشامية الشمالية . ذلك أنها قاعدة بريتورية إقليم الشرق البيزنطى الشامل لمصر والشام وقاعدة الدفاع خلفية ضد الفرس ، فلما استولى عليها العرب عام ١٦ هـ اهتم بها عمر ثم عثمان من بعده ، وكانت عندهما عظيمة الذكر بحسب تعبير البلاذرى وكانت قاعدة دفاع ضد جبال الطوروس وآسيا الصغرى البيزنطية ، كما كانت مقر رابطة مركزية تكفيها

وتكفى لإمداد جميع ما أمامها ، بل كانت بالنسبة لجبهة الروم تماثل البصرة والكوفة والفسطاط .

وكانت أسوار أنطاكية مزودة بأبراج على ثلاث طبقات عظيمة المناعة وأقوى تحصيناً من الإسكندرية بحسب ما ورد لدى پروكوپ وبحسب دراسات المرحوم المؤرخ الفرنسى شارل ديل .

وقد تسلم العرب هذه التحصينات سليمة وتعهدوها بالترميم فلما تصدعت عام ٩٤ بسبب زلزال سارع الخليفة الوليد بن عبد الملك بإصلاح آثار هذا الزلزال .

٢ — إعادة بناء المتهدم من الحصون ، وقد كانت كل الحصون الساحلية البعيدة عن الفرات وعن متناول الفرس متهدمة كلها قبيل الفتح العربى بسبب عدم أهميتها الحربية نسبياً فى الصراع الحربى بين الفرس والروم . ولذلك أهملها الروم . ثم جاء الفتح العربى فاحتاجوا إلى الاهتمام بها .

وعلى هذا الأساس أعادوا بناء التحصينات فى ثمانية مدن منصوص عليها وهى حصون : بلدة ، وأنطرطوس ، ومرقية ، وبلنياس ، وصيدا ، وعرقة ، وجبيل ، وبيروت . وكذلك أعاد العرب بناء مدينتين أخريين بعد هذه الدفعة الأولى ، وذلك عندما جهزوا أول حملة بحرية إلى قبرص عام ٢٧ هـ . وهاتان المدينتان هما عكا وصور . والجملة عشر مدن أعيد بناء تحصيناتها .

والقاعدة الواردة فى نصوص البلاذرى أن إعادة البناء تكون عادة ودون استثناء على الأساس القديم البيزنطى أو الرومانى .

ونكتشف حالتين لا نجد لهما نصاً وذلك عن طريق استعراض جميع المدن الساحلية . وهما حالتا جبلة وعسقلان . ونرجح نحن أنهما مما أعيد بناؤه على أساس أن إهمال بيزنطة لأى تحصينات مرتبط ببعـــدها أو قربها عن منال الفرس :

والجملة إثنتا عشرة مدينة ورد النص على تحصينها على الأساس القديم ، ثم مدينتان رجحنا أنهما مما أعيد بناؤه ، والمجموع ١٤ مدينة اقتضت جهوداً عربية ، أما ما كان غير محتاج لجهود عربية فلا يتجاوز الحالات الثلاث التى ذكرناها وهى حالات : أنطاكية واللاذقية وطرابلس .

٣ — بناء حصون جديدة من أولها إلى آخرها دون أن يكون لها أساس قديم وقد وقع ذلك فى حالة واحدة هى حالة حصن سفيان المبنى على بضعة أميال من طرابلس .

وهذه التصرفات كلها محددة التاريخ فى مصادرنا القديمة ، وترجع كلها إلى عهد الخليفتين الراشدين عمر وعثمان ، ومن هنا كانت ذات قيمة تاريخية كبيرة فى الدلالة على مبادرة العرب بإجراء التحصينات الضرورية الكفيلة بالدفاع الفعال . وينضاف إلى ذلك الدلالة الإحصائية التى أوردناها والتى دلت على أن العرب دافعوا عن الساحل الشامى بثمانية عشر حصناً ، منها ثلاثة ورثوها عن الروم والخمسة عشر الأخرى مما سارعوا إلى بنائه على الأساس القديم أو على غير أساس قديم .

حالة حصن سفيان القريب من طرابلس

تبين أن بناء الحصون بدأ سنة ١٨ هـ ، أما حصن سفيان فقد بنى بين عامى ٢٣ ، ٢٥ هـ على التحقيق .

ويرتبط بناء هذا الحصن بحلقة تاريخية هامة مهملة لا تكاد تشير إليها المختصرات الحديثة ، وهذه الحلقة هى محاولة الروم القيام برد فعل بحرى عام ضد الفتوحات الإسلامية . وأساس هذه المحاولة هو التفوق البحرى وعدم وجود أسطول عربى . وقد بدأت هذه المحاولة فى الشام ثم امتدت إلى مصر وانتهت بالفشل التام .

والذى حدث فيما يروى البـــلاذرى أن الروم نزلوا بسواحل الأردن

وسواحل دمشق بحسب التقسيمات العربية الحربية الإدارية الأولى ، وغلبوا على المنطقة الساحلية وتشبثوا بها سنتين كاملتين ، وأعانهم على ذلك كثرة الجالية البيزنطية النازلة بمدن الساحل (من ٢٣ إلى ٢٥ هـ) والأجناد العربية تدفعهم حتى ردتهم إلى مدينة طرابلس ذات الحصون الثلاثة ، وكانت طرابلس الواقعة فى ساحل دمشق بحسب التقسيم العربى الأول هى كل ما بقى بيد الروم ، وتعذر أخذها لمناعة حصونها ولوصول الأمداد الرومية بالبحر ، وصمم العرب على إحكام الحصار بالبر ، ووكلوا ذلك إلى القائد العربى سفيان ابن مجيب الأزدى ، فنزل سفيان بعسكره فى مرج على بعد عدة أميال من المدينة ، وبنى فى المرج حصناً عرف بحصن سفيان ، واتخذه قاعدة يغير منها على طرابلس ويرابط جنده فيها آمنين إذا حل الشتاء ، حتى ضاق الحال بالروم فى طرابلس . وما زال سفيان يحاربهم حتى أجلاهم عن حصنين من حصون طرابلس الثلاثة . فتجمعوا فى الحصن الأخير ، والراجح بحسب السياق أنه حصن الميناء ، ثم استمدوا ملكهم قنسطان الثانى بطل هذه المحاولة الفاشلة ، وطلبوا منه أمداداً وسفناً يرجعون بها . وفعلا تمت عملية الانسحاب فى يسر وأمن . فقد قدمت سفن الروم فركبها الجند الرومى ليلا منسحباً من طرابلس . وانجلى الخطر الرومى فى نفس السنة التى فشل فيها نزول الروم بالإسكندرية ، وإذن فقد كان النزول بالإسكندرية امتداداً للهجوم على الشام من جهة وتخفيفاً للحصار الصارم العازل الذى فرضه الروم على طرابلس .

وعن هذه المحاولة نتج حصن سفيان أول حصن من بناء العرب من ألفه إلى يائه ، ومن هنا أهمية هذا الحصن المبنى فى السهل ذى المروج قرب طرابلس .

التحصينات الساحلية فى العهد الأموى

١ ـ تجددت الحاجة إلى العناية بالمدن الساحلية فى عهد الخليفة معاوية ابن أبى سفيان أول خلفاء الدولة الأموية . ويروى البلاذرى فى ذلك أن

معاوية دعم حصون السواحل كلها بالمرابطة وبالتحصينات ، ويرد هذا الخبر مطلقاً من أى قيد ، ويفيد وروده على هذا النحو أن الاهتمام كان شاملا ، وأن الترميم وإعادة البناء كان عملية جارية مستمرة . وأن عملية البناء اقترنت بعملية أخرى هى دعم الرباطات .

ولدينا فوق ذلك أخبار أخص تتعلق بإعادة بناء ما تهدم ، ومضمون هذه الأخبار أن معاوية أعاد بناء ثلاثة حصون هى : أنطرطوس ومرقية وبلنياس .

ولدينا كذلك خبر أخص هو أن معاوية أمر بإهمال حصن بلدة الذى تهدم والاستعاضة عنه بحصن قريب منه هو حصن جبلة .

وحالة جبلة كحالة حصن سفيان ، فهو ثانى حصن يبنيه العرب من ألفه إلى يائه ، وذلك أن معاوية أمر بترك الأساس الرومى القديم ، وبناء حصن جديد على نطاق أكبر بحيث يغنى عن حصن بلدة الذى تخرب وبحيث يكفى المنطقة .

٢ — ثم تجددت العناية بالمدن الساحلية فى عهد عبد الملك بن مروان .

فقد أعيد فى عهده بناء تحصينات فى خمس مدن ساحلية هى : طرابلس ، وعكا ، وصور ، وقيصرية ، وعسقلان .

أما عن طرابلس فإن حصن الميناء (وهو أحد حصون طرابلس الثلاثة) فإنه تهدم وكان العرب قد انتزعوه سلما من الروم ، فلما تهدم أعاد عبد الملك بناءه .

وكذلك أعيد بناء عكا وصور ، وكان معاوية قد بناهما على أساسهما القديم قبل خلافته بمناسبة الحملة على قبرص .

وكذلك أعيد فى عهد عبد الملك بناء قيصرية وعسقلان للمرة الأولى .

سياسة عامة :

وإذن فنحن أمام سياسة عامة يطبقها الراشدون ثم الأمويون فى التحصين الساحلى . وهى سياسة قائمة على اعتبار السواحل ثغوراً . وتشمل هذه السياسة الترميم وإعادة البناء واستحداث الحصون . كما تشمل « الشحن » بالروابط ، كما تشمل الحركات الحربية الفصلية ، كما تشمل حياة الرباط .

ونلاحظ أن العناية كانت أقوى فى عهد الراشدين ، ثم استؤنفت فى عهد الخليفة معاوية ثم فى عهد الخليفة عبد الملك ثم توقفت العناية بعد ذلك أو صمتت النصوص لأن الأمن استقر .

٣ - الثغور البرية فى شمال الشام

اهتم العرب كذلك بالجهة البرية الفاصلة بين الشام وآسيا الصغرى : وجروا فى الدفاع عنها على أساليب مختلفة بحسب العصور ، لكنهم انتهوا على أى حال ببناء مدن محصنة على طول الطرق الواصلة بين الشام وآسيا الصغرى ، وأنشأوا بذلك خطوط دفاع عميقة .

فبنوا مدناً محصنة على طول الساحل شمالى أنطاكية ، وبنوا مدناً محصنة على طول خط الفرات من منبج - وهى فى مستوى أنطاكية - إلى أرضروم الواقعة على ضفة الفرات عند المجرى الأعلى لهذا النهر . فهذان خطان من الحصون أحدهما خط ساحلى والآخر خط نهرى . وينضاف إليهما خط ثالث وسط بينهما .

وتسمى هذه الخطوط الثلاثة باسم ثغور الشام والجزيرة ، وتدافع عن الجزيرة والشام وعن أرمينية أيضاً .

وهذه المنطقة هى التى نظمت مرة أخرى تنظيما شاملا فى عهد الرشيد

وأطلق عليها اسم جديد هو العواصم والثغور ، وفى نفس هذه المنطقة قامت دولة بنى حمدان[1] مع إضافة الموصل وحلب .

أما عن أساليب الدفاع ، فقد استقرت السياسة الحربية على الاعتماد الواثق على تفوق الجندى العربى فى البر ؛ بل نحس أن شيئاً من الأنفة يمنعهم من القتال من وراء أسوار ، وأن الفروسية والشجاعة تغنى عن اتخاذ الحصون الكثيرة وتدفع إلى الاعتداد بالتفوق . بل لم يبن العرب الأمصار أو مدن السواحل المحصنة إلا لتكون قواعد يأمن فيها الجند عن الانتهاء من الحرب . ولهذا السبب الأساسى لم يتخذوا فى شمالى الشام مدنا ثغرية وراء أنطاكية شمالا . واستمر هذا الاعتداد بالقوة طوال عهد الراشدين .

ثم تحول العرب إلى أسلوب التحصينات البرية فى تدرج وبطء فى عهد بنى أمية وخاصة فى عهد هشام بن عبد الملك حتى أنه لم ينته عصر بنى أمية حتى كان نظام التحصين البرى قد استكمل معالمه .

فلما قامت الدولة العباسية حرصت منذ البدء على الاحتفاظ التام بنظام التحصينات الثغرية البرية . ولم تغير شيئاً فيما عدا الانصراف عن نظام الأجناد فى داخل بلاد الشام ، ولم يكن هذا الانصراف اختيارياً بل إنه كان وليد الظروف التى جعلت العباسيين طوال العصر الأول يعتبرون بلاد الشام بلاداً معارضة غير مؤيدة . وبسبب الانصراف عن نظام الأجناد ازداد الاهتمام بالمنطقة الثغرية فى شمالى الشام والجزيرة وعلى طول خط الفرات .

ونحن نجمل هنا أخبار التحصينات البرية بحسب الترتيب الزمنى ، وبحسب الخلفاء .

---

(١) ويدل هذا التسلسل على الدور الذى أسند إلى بنى حمدان ، ولهذا أميل إلى تسمية هذه الدولة باسم « الدولة الثغرية » ، ولدينا فى تاريخنا الإسلامى دوله أخرى كثيرة من هذا النوع مثل الصفارية والغزنوية ومثل السامانية والخانية ، فى ثغور الهند وما وراء النهر .

عصر بنى أمية

عهد معاوية بن أبى سفيان :

اهتم معاوية بالمراكز الجنوبية للمنطقة الثغرية وهى أنطاكية وقنسرين ومنبج ، وهى مراكز تلقاها من عهد الراشدين فزادها مناعة ؛ وكذلك اهتم معاوية بحصون الفرات وهى سميساط وملطية وشمشاط وكمخ وقاليقلا (أرضروم) وهى حصون استولى العرب عليها فى عهد عثمان عندما فتحوا أرمينية ؛ وأهم من هذا كله أنه بنى ، فى المنطقة الوسطى الواقعة بين الخطين الساحلى والنهرى : حصنين جديدين هما مرعش والحدث ، وكان أول من بناهما فهما حصنان إسلاميان .

ولدينا بعض تفصيلات عن تحصين المراكز الجنوبية لهذه المنطقة الثغرية . فإن معاوية زود أنطاكية « بمسلحة » أمامية هى مسلحة بوقا . وكذلك اهتم بمنطقة منبج ، وكان قد بنى لها جسراً لمرور الصوائف منذ عهد عثمان ، فاهتم معاوية بالحصون المجاورة لها وهى بالس وقاصرين . ثم اتجه الاهتمام كذلك إلى قنسرين .

الفتنة الثانية : وفى أثنائها هدم الروم ملطية ومرعش .

عهد عبد الملك بن مروان :

وقد عالج عبد الملك الوضع الناشئ عن تخريب الروم لملطية ومرعش علاجا جريئاً . فإنه اختار مواضع أقرب إلى صميم أرض الروم لتحل محل ملطية ومرعش . وكانت هذه المواضع هى طرندة والمصيصة . أما طرندة فقد بناها عبد الملك عام ٨٣ هـ ، وبنى فيها منازل للجنود وجعلها بديلة لملطية . أما المصيصة فإنه استحدثها على الأساس القديم ، وجعل منها مركزاً هاماً للثغور ، فقد بنى لهذه المدينة أسوراً ومسجداً وصهريجاً ومنازل للجند المرابط الدائم بلغت ٣٠٠ منزل ، وخصص لها ٢٠٠٠ من المرابطة يقيمون

فيها كل شتاء مخافة نزول العدو بها ، ويكثر الغزاة المثاغرون كل صيف عن طريق الحركات الصوائفية العادية .

عهد الوليد :

اهتم الوليد بالمنطقة الثغرية كلها وخاصة الخط الساحلى فإنه استحدث فيه أربع نقاط حصينة هى (١) سلوقية (٢) وبغراس (٣) وعين السلور وبحيرتها (٤) والإسكندرونة . ولاشك أن هذا الخط الساحلى صار أكثر مناعة وعمرانا . وكذلك اهتم الوليد بملطية لتكون بحسب ما نستنتج نحن من من الوضع الجغرافى نقطة خلفية لطرنده الواغلة فى أرض العدو ، وأضاف بذلك مزيداً من الأمان على طول خط الفرات ، وعالج المشكلة الناجمة عن تحطيم ملطية فى أثناء الفتنة الثانية علاجا أسلم . وكذلك اهتم الوليد بمدينة قنسرين وهى عاصمة جند قنسرين وزاد فيها فازداد الخط الدفاعى الأوسط حصانة فى طرفه الجنوبى .

عهد يزيد بن عبد الملك :

اقتصر يزيد على إصلاح ما تهدم . وكان الروم قد نزلوا باللاذقية فى عهد عمر بن عبد العزيز وخربوا تحصيناتها فأعاد يزيد بناءها .

عهد هشام بن عبد الملك :

واهتم هشام بالطريق الساحلى وبعقبات الجبال المؤدية إليه ولم يزد على ذلك النشاط الكبير إلا بالاهتمام بأمر طرندة :

أما عن الخط الساحلى فإن الخليفة هشاما جعل من المصيصة قاعدة كبرى تضارع أنطاكية ؛ وبهذا القصد أحاطها بثلاثة حصون :

(١) حصن الربض ، ويدل الاسم على أنه كان عبارة عن توسيع للمصيصة تدعيما لحصانتها :

(ب) حصن المثقب ويقع على مرحلة من المصيصة إلى ناحية البحر ؛ وكان الهدف منه الإشراف على المنطقة الساحلية المجاورة للمصيصة . وكان بناؤه على أساس قديم ، وتولى البناء مهندس من أهل أنطاكية .

(حـ) حصن قطرغاش وقد بناه رجل من أهل أنطاكية بأمر هشام ويقع هذا الحصن قرب المصيصة أيضاً .

ويدل اختيار المهندسين من أنطاكية فى هذه الحالة والحالة السابقة على أن هذه المدينة كانت العاصمة الحضارية لكل هذه المنطقة .

وكذلك اهتم هشام بالطريق الداخلى الموصل بين أنطاكية والمصيصة عن طريق عقبات الجبال . فبنى على هذا الطريق ثلاثة حصون :

(ا) بنى هشام حصن « بغراس » ، وجعله مسلحة ، وخصص له ٥٠ مرابطاً من المرابطين الدائمين ، وكان عددهم يزداد صيفاً فترد إليها « الطوالع » تقوية لرابطتها .

(ب) وبنى هشام حصن « مرة » فى منطقة الجراجمة فى جبل اللكام عند عقبة من عقبات الطريق ، وخصص له ٤٠ مرابطاً ، وصارت مسلحة ذات رابطة دائمة تعزز كل صيف بعدد من جند الطوالع .

(حـ) وكذلك بنى هشام حصن بوقا ، وكان معاوية أول من اتخذ مسلحة فى بوقا . ويقع هذا الحصن على السفوح الشرقية لجبل اللكام على شاطئ نهر العاصى (الأورنت) .

وكذلك عالج هشام أمر طرندة وملطية . وكان عبد الملك من قبل قد بنى ملطية ، ويظهر أنه بناها على نطاق صغير لتساند طرندة . والراجح أن بناء هشام لملطية كان على نطاق أكبر ونستنتج ذلك من أن هشاماً بعد أن بنى ملطية سحب إليها رابطة طرندة . وتنص مصادرنا على تفاصيل الاحتياطات التى صاحبت بناء ملطية ، فتقول إن الخليفة خرج بنفسه غازياً لحراسة أعمال البناء .

وملخص القول فى نشاط هشام واهتمامه بالتحصينات أنه بنى مدناً ومسالح يبلغ عددها سبعة مواقع .

عهد الوليد بن يزيد :

ثم لم ينشئ هذا الخليفة الشاعر شيئاً كثيراً ، ولكنه اهتم بما يأتى :

١ — اهتم بالمصيصة الواقعة على نهر جيحان قرب الساحل ليصل بينها وبين المنطقة المجاورة (أى منطقة أذنة) ، فبنى لها جسراً ، بقصد تحسين المواصلات .

٢ — وأعاد الوليد كذلك بناء حصن زبطرة . وكان هذا الحصن قديما بقى إلى هذا الوقت فخربه البيزنطيون واحتاج الأمر إلى إعادة البناء ، إصلاحا لما أفسده العدو .

عهد مروان بن محمد :

(ا) وفى عهد مروان تكون الاهتمام بالمصيصة وموقعها ، حتى لنحس أن هذه المدينة الثغرية المحصنة تجتذب على الدوام انتباه الخلفاء ، فقد اهتم بها الوليد بن عبد الملك أشد اهتمام ، ثم بنى لها عمر بن عبد العزيز مسجداً ، ثم تكرر الاهتمام العظيم فى عهد هشام ، ثم فى عهد مروان هذا ، ثم من بعد على يد المنصور وغيره من خلفاء بنى العباس . وأعمال مروان فى هذه المنطقة متعددة :

١ — أعاد بناء الربض ودعمه ، وكان هشام أول من بناه ، ويذهب لسترانج إلى أن الربض هو ربض كفربيا ، ولكن مصادرنا التى تداولناها لا تذكر شيئا عن تحديد لسترانج .

٢ — واستحدث مروان حصنا جديداً على مرحلة من المصيصة ، وهو حصن الخصوص ، وجعل له سوراً وزوده بأبواب من خشب وأحاطه بخندق ، وبنى فيه خططا للفرس وللسلاف ولأنباط الشام ، ثم

نقل إليه أيضا أجناداً عربية ترابط فيه . وكان البناء الحربى وبيوت الرابطة على حساب الدولة أما المدنيون فقد أعينوا على البناء .

(ب) واهتم مروان كذلك بخط الدفاع الأوسط (الواقع بين الخط البحرى والخط النهرى) فبنى له حصنين هامين جداً :

١ ـ فقد بنى بين قنسرين وأنطاكية حصنا سماه حصن منصور على اسم قائد سلاڤى من رجاله ، فأصبح خط القواعد الجنوبية خطا عرضيا من الحصون مبتدئا من منبج إلى أنطاكية .

٢ ـ واستحدث مروان كذلك حصنا جديداً آخر له أهميته بالنسبة لتوزيع القلاع ، وهو حصن منصور ، وأهمية الحصن أنه نقطة مركزية بالنسبة لأربع مدن محصنة محيطة به وهى زبطرة ومرعش وملطية وسميساط .

ويدل اختيار مروان فى هاتين الحالتين على أنه بلغ من البراعة فى توزيع الحصون حداً أعطى المنطقة الثغرية شكلها النهائى مع ضمان تقارب الحصون . فأصبحت المنطقة كأنها مدرعة . ونحن نتصور أن المنطقة صورت له ، فلاحظ عيب التوزيع على خطوط طولية ، فقرر بناء هذه الأربعة الحصون التى أنشأت فى نفس الوقت خطوطا عرضية تقطع الخطوط الطولية . وبذلك أصبحت منطقة الثغر عبارة عن مربعات دفاعية ، على يد خليفة قائد قدير مارس القيادة سنين طويلة .

وينضاف إلى ذلك تحصين حربى عادى اقتضاه التخريب الذى يقوم به العدو ، ذلك أن الروم قصدوا مدينة مرعش فخربوها ، واحتاج الأمر إلى إعادة بنائها . واحتشدت الجيوش لحراسة البناء ، وحضر الخليفة الغزاة على رأس الجيوش فى هذه المرة .

والجديد هو أن مروان بنى فى داخل مدينة مرعش نفسها حصناً مركزيا سمى باسمه « حصن مروان » .

والجديد فى كل حكم مروان هو اعتماده على الصقالبة وهم السلافيون وحمايتهم عن طريق الموالاة ، ثم العودة إلى الاستعانة بالعنصر الفارسى .

عصر بنى العباس

استغل الروم انشغال بنى أمية وبنى العباس بالصراع على الخلافة ، وأغاروا على المنطقة الثغرية البرية فخربوا كل ما كان قائماً فيها من حصون حتى إنه ليمكننا نحن القول بعد النظر فيما خربوا أن الثغور البرية أصيبت بكارثة لم تصب بمثلها من قبل ، وأن الروم اغتنموا الفرصة اغتناماً تاماً فانساقوا فى تخريب وندالى دون سبب وجيه إلا قرب الذكرى نسبيا بانتزاع العرب للشام . أما من الناحية العملية فإن جبهة الثغور كانت مسالمة دفاعية غير عدوانية ، وكل هدفها هو التمسك بالوضع القائم . والمسئول عن هذا التخريب الشامل هو قنسطين الخامس إمبراطور الروم : والربح الوحيد الذى جناه هو استعادة أرمينية وانتزاعها من حلف العرب وإدخالها فى حلف الروم ، غير أن هـــذا كان ربحا مؤقتا بحسب السوابق التى وقعت من قبل .

وعلى قدر هذه الكارثة جاءت حركة البناء فى عهد المنصور خاصة ، ثم الرشيد ، حركة ضخمة تكاد تساوى من حيث الكمية كل ما بناه بنو أمية من قبل أثناء حكمهم الطويل . ولكن آثار الأمويين والعباسيين مجتمعة تدل على مدى القوة المعمارية الحربية فى هذه القرون الأولى ، وتثبت أن العرب كانوا بناة حصون من الطراز الأول .

وأهم من إعادة التعمير على مثل هذا النطاق الضخم ، أمر آخر : هو أن العباسيين استحدثوا مواقع جديدة هى : عين ذربة ، والكنيسة السوداء ، والهارونية ، وكفربيا ، وطرسوس . وأهم هذه الإنشاءات الستة قطعا هو إنشاء أذنة وطرسوس ، فقد كان لهما شأن أكبر بحسب ما نحس من

روايات البلاذرى والطبرى. ولعل أهمية هاتين المدينتين آتية من قربهما من جبهة العدو : فقد كانتا تواجهان بندا من بنود الروم هو « تيم أناطوليا » .

أما الخطة المرسومة التى سار عليها العباسيون بحسب ما نستنتج نحن من دراسة المواقع فإنها ترمى إلى الاهتمام بخط الدفاع النهرى وبخط الدفاع الساحلى ثم بخط دفاع عرضى شمالى واصل بين حدود الفرات وحصون السواحل .

أما عن الخط النهرى فحصونه هى نفس الحصون الأموية القديمة الفاصلة بين الروم وبين أرمينية ، وهى إرضروم وكمخ وشمشاط وملطية وقلوذية وسميساط . وكلها حصون تسلمها العرب وتعهدوها منذ عهد عثمان .

أما عن خط الدفاع العرضى فهو الذى يعتمد على دعامتين إحداهما شرقية والأخرى غربية وهى : ملطية من ناحية والمصيصة من ناحية أخرى . ويقع على هـــذا الخط ثلاثة حصون هى زبطرة ومرعش والحدث وعين زربة .

أما عن خط الدفاع الساحلى فى قطاعه الشمالى فإن الاهتمام انصب على المصيصة وأذنة وطرسوس .

وحملت منطقة الثغور طابع العباسيين ، فقد سميت الحدث باسم المهدية نسبة إلى المهدى ، وحملت المصيصة اسم المعمورة وكذلك يبدو أن المدن الثغرية قد أعيدت على نطاق أوسع قياساً على ما نعرف يقيناً عن اتساع المصيصة وطرسوس .

ولدينا بعض احصائيات عن عدد المرابطين على نفقة الدولة ولايدخل فى هذا الإحصاء المتطوعون الفصليون ولا المثاغرون حسبة لله تعالى :

ملطية	٤٠٠٠ر٤ مرابط	الحدث	٦٠٠٠ر٦
المصيصة	٤٠٣٠٠ر٤ »	طرسوس	٦٠٠٠ر٦

أنماط البناء :

لكل مدينة سور حوله خندق . وللأسوار شرافات فى أعلاها يقف وراءها المحاربون ، وللأسوار أبواب ودهاليز مؤدية إلى أعلى السور . وفى المدينة مسجد جامع وصهاريج وأهراء . وقد يبنى حصن مستقل داخل المدينة وقد يبنى بجوار السور ، وهذه الأوصاف كلها سطحية لا تغنى فى شىء .

أما المنازل فلا نعرف إلا أسماء أنماطها دون أوصاف كل نمط ، فمنها الخانات ونرجح بحسب التسمية أنها مساكن مجتمعة حول ساحة . ثم الخطط وهى عبارة عن ٢٠ ذراعاً فى مثلها بحسب النص الوارد فى حالة طرسوس ، ثم العرافات ، وهى تتسع لنحو عشرة أو خمسة عشر رجلا ، وتتألف من أربعة بيوت بيتان علويان وبيتان سفليان واصطبل ، ويبدو من حساب عدد العرافات وعدد المقاتلة أن المعدل هو ٣ مرابطين لكل بيت من البيوت الأربعة على أن يكون الإصطبل مشتركاً .

أما مادة البناء فهى الحجر ، ولدينا مع ذلك حالة واحدة أريد فيها بناء السور بالحجر وكذلك الأبراج والقلعة ، غير أن التجربة فشلت لأن اللبن تشقق حين دخل الشتاء ، بخلاف ما يتوقع بالنسبة لبغداد مثلا ، بسبب الأحوال الجوية المحلية .

دلالة بناء طرسوس والمنستير :

ولدينا وسيلة للتقدير قد تكون ضعيفة ، وهى بقاء رباط المنستير قائماً إلى اليوم ، فإن بناءه الأصلى كان على يد بانى طرسوس وهو هرثمة بن أعين . فهو الذى بنى طرسوس وعمرها ومصرها سنة ١٧١ هـ بأمر الرشيد ، وبأمره أيضاً بعد ثمان سنين (بين ١٧٩ ، ١٨١ هـ أثناء ولايته على إفريقية) بنى هرثمة رباط المنستير .

ونرجح لذلك أن يكون نظام البناء واحداً ، وأن يكون رباط المنستير

أقدم صورة باقيـــة إلى الآن (مع افتراض وجود تعديل وتحوير) للرباط الإسلامى .

وأرجح فوق ذلك أن يكون الرباط القائم حالياً فى المنستير جزءاً من مدينة ثغرية أكبر . ويكاد يكون هذا الترجيح حتمياً لأن كل رباط مهما صغر (وخاصة على الساحل) يجب أن يتسع للرابطة الدائمة (المكونة من الفرض والندبة) ويجب أن يتسع كذلك للطوالع الفصلية أثناء الصيف ، ويجب أخيراً أن تحتوى مدينة الرباط على مرافق تكفى الجيش الغازى الذى يحتشد عند رباطات الثغور طوال الصيف

النتيجة :

تدل هذه الأخبار المجموعة عن المدن المحصنة على طول الساحل الشامى ، وعن المدن الثغرية التى بنتها الدولة على حسابها من شمالى أنطاكية إلى طرسوس ، وعن المدن الثغرية التى أقامتها الدولة على خط الفرات على حقائق جديدة :

١ ــ أن العمارة الحربية الإسلامية ازدهرت منذ اللحظة الأولى ، ويرجع أوائل ذلك إلى عام ١٦/١٨ هـ بالنسبة للحصون البيزنطية القديمة السليمة ، أما بالنسبة للحصون البيزنطية المهدمة فقد كان الشروع فى بنائها عام ١٨ هـ . ثم كان أول حصن بناه العرب من ألفه إلى يائه هو حصن سفيان (بين ٢٣/٢٥ هـ) .

٢ ــ أن الدفاع الساحلى اعتمد على ١٨ مدينة مسورة ابتداء من أنطاكية إلى عسقلان منذ عهد الراشدين .

٣ ــ أما التحصينات البرية الواقعة شمالا على طول الفرات الأعلى أو على خط الساحل شمالى أنطاكية أو فيما بين هذين الخطين فقد بلغت حين تمت نحو ٣٧ حصناً ومسلحة وجسرين .

والدلالة الإحصائية لا تتم إلا إذا أحصينا « المناظر » أيضاً ونفترض وجود نحو ١٥ من المناظر على الأقل غير مجاورة للمدن . ويصل مجموع كل ذلك إلى نحو ٧٠ عملا حربياً ما بين صغير وكبير .

٤ — ويستتبع ذلك أن نقبل فرضاً حتمياً وهو وجود طائفة من البنائين المعاريين دائبة العمل فى الإنشاء والترميم والصيانة ، ونرجح على ضوء الدلالة الإحصائية أن هذه الطائفة كانت كثيرة العدد .

وقد كنا من قبل هذا الإحصاء نتصور أنه حين يختار لعمل ما مهندس من أنطاكية أو الرها أو حران أن طبقة المهندسين نادرة ، وأنها تعيش فى بعض المدن دون سواها ، وأن أكثرهم من النصارى . ويثبت هذا الإحصاء أن هذا التصور ساذج غير موثوق بصحته .

وأرجو أن يحفز هذا الإحصاء علماء الآثار على البحث والحفر للكشف عن الأساسات القديمة (وهذا كل ما نطمع فيه) وقد تحوى الأساسات ما سقط عليها من السقوف وقد يعين ذلك على تصور العمارة الحربية الإسلامية الأولى قبل إنشاء القاهرة الفاطمية .

المراجـــع

الأصول :

البلاذرى : فتوح البلدان ، نشر دى خويه ، ليدن ، ١٨٦٣ — ١٨٦٦ .

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، نشر دى خويه ، ليدن ، ١٨٧٩ — ١٩٠١ .

بروكس : جمع أخبار الثغور الرومية وسمى مجموعته « العرب فى آسيا الصغرى » (٦٤٠ — ٧٥٠) فى مجـلة الدراسات الهلينية ج ١٨ ، عام ١٨٩٨ .

الدراسات :

١ — M. A. Cheïra : La lutte entre Arabes et Byzantius ; Alexandrie ; 1947

وفيه مراجع كافية مفصلة .

٢ — شعيرة (محمد عبد الهادى) : « المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية فى صدر الدولة العباسية » — القاهرة ١٩٦٢ .

آثار العراق ومشاريع الري

للدكتور فيصل الوائلي

يخوض الشعب العربي فى كل جزء من أجزاء وطنه الكبير معركة من المعارك المصيرية ضد التخلف الاقتصادى ، ويعمل بكل طاقاته وإمكانياته من أجل إصلاح خراب قرون عديدة من الجهل والتسلط ليلحق بالقافلة الإنسانية التى تنطلق بسرعة فى طريق التطوير والبناء . وسوف لن يقف بين الشعب العربى وبين بلوغ أهدافه سبب من الأسباب ولن يعيق البناء عائق إذ ليس هناك أسمى هدفاً وأجل شأناً من تحرير الإنسان من عبودية الفقر والجهل والمرض . . . وطبيعى أن تتجه الجهود إلى الأرض الطيبة التى كانت ولا تزال عماد الحياة الاقتصادية وإلى المياه ، وأهبة الحياة التى تنساب إلى الضياع بين السهول التى أحرقها الظمأ وتحت أعين الملايين من الفلاحين الذين أهلكهم الإملاق .

ويشاء القدر أن تكون المناطق التى ستغمرها المياه غنية بالتراث الفنى والأدبى والذى لايخصنا وحدنا وإنما هو تراث إنسانى وملك لكل المجتمع البشرى فى حاضره ومستقبله . وإذا كانت عملية البناء والتطور لا تحتمل التأخير أو التأجيل لأن هذه العملية تتعلق بالحياة نفسها ، فإنه لا يسع المجتمع البشرى من الناحية الأخرى أن يقف موقف المتفرج من هذا التراث الإنسانى ليزول إلى الأبد . وستتحمل هذه الأجيال مسؤولية تاريخية كبرى إن هى سمحت بضياعه دون بذل أقصى ما يمكن من الجهود فى سبيل إنقاذ أقصى ما يمكن إنقاذه ، ولا أريد هنا التوسع فى إبراز خطورة هذه المشكلة ، وعظم المسؤولية الملقاة على عاتق الأجيال الحاضرة لأن هذا ليس معقولا وأنا أقف أمام الصفوة من علماء هذه الأمة الذين يدركون كل الإدراك خطورة الأمر وعظم المسؤولية ولكننى وددت أن أعرض على حضراتكم جانبا

من جوانب هذه المشكلة فى العراق التى لم تبرز بعد إلى الدرجة التى تجعلها موضع التفكير والدراسة . والواقع أن المشكلة لا تختلف فى طبيعتها عن مشكلة آثارنا فى مصر إلا فى أمر واحد وهى أن الزمن ما زال بجانبنا فى العراق خلافا لما هو عليه الحال فى مصر ، فالمشكلة فى العراق ليست عاجلة بينما هى فى مصر من مشاكل الساعة الآتية التى تتطلب الحل السريع وإلا فإن الفرصة لن تعود ثانية . . . على أننا يجب ألا نخدع فى العراق بما يبدو من اتساع فى الوقت لأن الزمن يسير بسرعة وسيأتى يوم سنجد فيه أنفسنا أمام المشكلة وجها لوجه ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً . فالأمر إذن يتطلب أن نبدأ دون تأخير بمسح شامل للمناطق التى ستغمرها المياه ووضع الخطط الكفيلة بإنقاذ تراثنا العظيم :

أيها السادة : بعد هذه المقدمة المتواضعة أعرض لحضراتكم موجزا لأهم مشاريع الرى فى العراق التى درست ووضعت تصاميمها لتنفذ فى المستقبل القريب أو البعيد وأهم المناطق الأثرية التى ستتأثر بالمياه التى ستتجمع خلف السدود .

منذ نحو عشر سنوات بدأ العراق يفكر فى بناء السدود على نهرى الفرات ودجلة وروافده الزابين وديالى لتحقيق ثلاثة أهداف كبرى وهى :—

١ — خزن المياه المنسابة عبثا إلى البحر للاستفادة منها فى إرواء السهول الواسعة الخصبة التى لا تزرع حتى الآن .

٢ — توليد الطاقة الكهربائية للاستفادة منها فى إنارة المدن والقرى الكثيرة التى لم تستمتع بالنور بعد وللاستفادة من تلك الطاقة فى إقامة صناعات مختلفة وستستخدم بصورة خاصة فى صهر المعادن التى تكثر فى جبال العراق .

٣ — درء أخطار الفيضانات المدمرة التى تهدد مدن العراق سنويا بالدمار وتقضى على الحقـــول والمزارع فتؤدى إلى أضرار اقتصادية جسيمة لا تقدر .

وبعد دراسات عديدة استغرقت وقتا طويلا وضعت الخطط لمشاريع مختلفة أنجز منها حتى الآن ما يأتى : —

١ — السد فى سامراء الذى يحول الماء إلى منخفض الثرثار الواسع عندما يصل الفيضان فى نهر دجلة إلى درجة الخطورة . وقد أنقذ العراق من عدة فيضانات كاد أن يكون تدميرها شاملا .

٢ — السد على نهر ديالى فى دربندى خان .

٣ — سد دوكان على نهر الزاب الأسفل .

وقد أنهت الهيئات الفنية دراسة بقية المشاريع ووضعت تصاميم ستة سدود أخرى ، ثلاثة منها على نهر الفرات فى مدن « هيت » و « الحديثة » و « رواه » وسدان على نهر دجلة فى موضع يعرف باسم « الفتحة » وفى « اسكى موصل » ، أما السد السادس فعلى نهر الزاب الأعلى فى « بخمه » . (إشارة إلى مواضع السدود فى خارطة العراق — لوحة رقم ١) .

ولا نعلم فى الوقت الحاضر متى سيبدأ العمل فى هذه السدود الستة التى ستعرض عليكم خرائطها كما أننا نجهل رأى الجهات الفنية فى تقدير أسبقية بعضها على بعض بالنسبة لحاجة البلاد لكل منها إلا أننا نعرف بأن المياه التى ستخزن فى أحواض هذه السدود ستغمر أماكن أثرية كثيرة تضم آثاراً من مختلف أدوار تاريخ العراق من العصور الحجرية إلى وقتنا هذا ، لأن المناطق التى ستغمرها المياه كانت أصلح البقاع لاستيطان الإنسان منذ أقدم العصور . إن مديرية الآثار العامة لم تقم إلى الآن بالمسح الأثرى لأحواض هذه المشاريع إلا أنها ثبتت على الخرائط المواقع الأثرية المعروفة لديها والأماكن التى اكتشفت عرضا فى أثناء القيام بالتفتيش عن مناطق الآثار المختلفة . ومما تجدر ملاحظته هو أن المواقع التى ستشاهدونها ما هى إلا جزء صغير مما هو موجود فى الواقع فى أحواض هذه المشاريع ، فقد دلتنا تجاربنا السابقة على أن المسح الأثرى فى أى بقعة من بقاع الأرض يضاعف

عدد ما هو معروف لدينا من المواقع الأثرية ، وخير مثل على ذلك ما حدث أثناء المسح الأثرى لوادى النهروان عام ١٩٥٦ حيث قفز عدد المواقع الأثرية المسجلة لدى مديرية الآثار العامة من (٦٥) موقعا قبل المسح إلى (٧٥٠) موقعا ، أى أكثر من عشرة أضعاف ، وعليه فإن عدد المواقع الآثارية فى هذه الخرائط ستتضاعف كثيراً إذا ما أجريت عملية المسح المشار إليها ، ويؤيد رأينا هذا ما ورد فى النصوص المسمارية والتآليف الإغريقية والتصانيف العربية من أسماء لعدد كبير من المستوطنات التى كانت قائمة على ضفاف الأنهار ، هذه المستوطنات التى ما زلنا نجهل مواقع الكثير منها . (انظر اللوحة رقم ٢)

١ – خزان اسكى موصل

يقع فى الجزء الأعلى من دجلة ويعرف باسم أكبر بلدة قريبة من موقع إقامة السد واسمها (اسكى موصل) التى تعنى بالتركية (الموصل القديمة) ، وهى على نحو (٥٠) كم من مدينة الموصل الشهيرة وستغمر المياه على جانبى دجلة منطقة طولها نحو (٦٠) كم ، ويتراوح عرضها بين (١٢) كم والكليومتر الواحد . وسيكون ارتفاع السد حوالى (١٠٠) متر ، واسكى موصل قرية على ضفة دجلة اليمنى تقوم على بقايا مدينة قديمة ورد ذكرها فى الكتابات الآشورية باسم « بلط » . ويخبرنا « سنحاريب » بأنه جلب منها فوق الاكلاك إلى « نينوى » أحجار الرخام الضخمة لصنع التماثيل والنحوتات التى زين بها أبواب المدينة وجدران قصوره .

وعرفت فى العهد الساسانى باسم (شهر آباد) ، واشتهرت فى العهد الإسلامى باسم (بلد) و (بلط) ، فقد وردت بهذا الشكل فى معجم البلدان لياقوت الحموى . وتشاهد فى اسكى موصل خرائب مدينة من العهد الأتابكى من حدود القرن السادس للهجرة مشيدة بالحجر والجص ويحيط بها سور ، وفى وسط المدينة خرائب مسجد جامع له منارة من ذلك العهد ،

ويوجد فيها خان للقوافل من العهد العثمانى وهناك تكثر عليها آثار من مختلف العصور القديمة مما يدل على أهمية هذا الموقع الذى ظل مسكونا كما يبدو طوال العصور التاريخية .

وقبل أن ننتقل إلى خزان آخر لابد لنا من أن نذكر بأن فى كل خريطة نشاهد أحدهما يمثل أقصى ما سيصل إليه الماء إذا ما شيد السد عالياً والثانى ما سيصل إليه الماء إذا تقرر أن يكون السد أقل ارتفاعا ، ففى هذه الخريطة الخاصة لسد « اسكى موصل » يشاهد فى الخط الخارجى خزن الماء إلى ارتفاع ٣٣٥ متر عن سطح البحر وفى الخط الداخلى إذا خزن الماء إلى ارتفاع ٣٢٠ متر عن سطح البحر أيضاً . أما التلول الأثرية المنتشرة فى هذه المنطقة فتعود إلى مختلف العهود . (انظر اللوحة رقم ٣) .

٢ ــ خزان الفتحة :

سينشأ سد فى المكان الذى ينفذ منه دجلة سلسلة جبال حمرين فى الموقع المعروف بالفتحة الواقع على نحو (٢٢٠) كم شمال بغداد ، وسيكون من أكبر الخزانات فى العراق إذا لم يكن أكبرها ، يقارب طوله (١٠٠) كم ويناهز عرضه فى أقصاه (٣٥) كم . ويوجد فى أرض هذا الخزان عدد كبير من المدن الأثرية الدارسة من مختلف العصور . وبالقرب من الفتحة ذكر البلدانيون العرب اسم مدينتين إحداهما (بارمّا) على الضفة الشرقية لدجلة والأخرى (الكحيل) التى باسمها عرف جبل مكحول بشىء من التحريف .

وكانت فى العصر العباسى مدينة تقع على ميل واحد تحت ملتقى الزاب الأسفل بدجلة وكما روى ــ المسعودى ، كان اسمها (السن) وهى من المدن الرئيسية التى يمر بها الطريق من بغداد إلى الموصل فى العصر العباسى : وذكر ياقوت فيها جامعا وسورا .

وتعرف مدينة أخرى من العصر العباسى اسمها « البوازيج » كانت تقع على الزاب الأسفل ويظن أن بقاياه تعرف اليوم باسم « خول الإسماعيلية » ، ويشاهد فى هذه الخرائب بقايا منارة ساقطة وأسس جدران من الآجر والجص وبقايا بناء مستطيل معقود بقوس مدبب وفى جدرانه كتابة لم يبق منها إلا اسم محمد يحيى وتاريخ ٦٧٠ هـ .

وعلى الضفة الغربية قلعة جبار وقلعة البنت ، من الأبنية التاريخية المهمة ولازالت جدرانها تشاهد قائمة فوق الأرض .

ومن الأماكن القديمة تلول العقر الواقعة بالقرب من الضفة اليسرى لدجلة وتضم بقايا عاصمة آشورية شيدها الملك الآشورى « توكولتى نينورتا » الأول الذى حكم فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد وأطلق عليها اسمه فكانت تعرف باسم (كارتوكولتى نينورتا) أى قلعة (تكولتى نينورتا) وشيد فيها برجا مدرجا ومعبدا للإله (نينورتا) إله الحرب عند الآشوريين ، وانتقل إليها من مدينة آشور الواقعة على الضفة المقابلة .

(انظر اللوحة رقم (٤) مخطط مدينة آشور)

آشور :

ولعل بقايا مدينة آشور أوسع الآثار التى ستغمرها المياه فى هذه المنطقة ، وتقع آشور على لسان من الأرض ممتد فى وادى دجلة ويطل على سهل واسع ولقد كانت آشور مقر رئيس آلهة الآشوريين وأول عاصمة عنى بها بصورة خاصة ملكهم (شلمنصر الثالث) فى القرن التاسع قبل الميلاد ، فأحاطها بسورين – كما يشاهد فى هذه المخططة – وشيد فيها معابد وقصور كثيرة منها معبد للإله آشور يقع فى الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة ومعبدا مشتركا للإلهين (شمش وسن) ومعبدا مشتركا للآلهة (عشتار والإله نابو) ، كما أعاد بناء البرج المدرج الواقع جوار معبد آشور وأودع فى أسس هذا البرج أحجارا كريمة وكتابات خلد فيها أعماله يذكر لنا فيها

أنه شيد هذه (الزقورة) بلبن كبير الحجم بمعدل ثلاثة ملايين لبنة ؛
(انظر اللوحة رقم (٥) صورة الزقورة لمدينة آشور)

ولا زالت بقايا هذا البرج المدرج قائمة ويمكن مشاهدتها من مسافة بعيدة ، ونذكر بهذه المناسبة أن الأبراج المدرجة من خصائص الحضارة العراقية القديمة منذ أقدم العصور ، فقد شيد السومريون أبراجاً مدرجة فى كل مدينة من مدنهم الكبيرة وكذلك فعل البابليون من بعدهم ، والبرج عبارة عن بناء صلد مشيد من اللبن محاط بغلاف سميك من الآجر ويكون من ثلاث طبقات أو أكثر إحداها أصغر من الأخرى ويقوم على الطبقة العليا منها معبد صغير لكبير آلهة المدينة .

ومن الأبنية الجميلة الأخرى التى شيدها (شيلمنصر) فى أشور هذا المعبد الذى تشاهدون مخططه (انظر اللوحة رقم ٦) ، هو معبد آنو وأدد وهو نموذج للريازة الآشورية المتميزة بالخطوط الأفقية والعامودية الكثيرة وباستعمال الشرفات وتشاهدون فى هذه الصورة برجين صغيرين كان أحدهما مخصصا (لآنو) إله السماء والثانى (لأدد) إله الزوابع والأمطار . ولا يخفى عليكم أنه وجد بالتنقيب فى مدينة آشور آثار نفيسة من بينها هذا التمثال السومرى الجميل (انظر اللوحة رقم ٧) الذى يرتقى زمنه إلى نحو (٢٧٠٠) قبل الميلاد وهو بطراز النحت السومرى يمثل كاهنا واقفا يمسك بيديه على كأس ويرتدى وزرة من الجلد ، ويبدو أن سكان مدينة آشور — كما هى الحال أيضا فى سكان مدينة (مارى) — كانوا يطلقون اللحى ويحلقون الشارب وشعر الرأس ، أما سكان المدن السومرية فى جنوب العراق فقد كانوا يطلقون الشارب وشعر الرأس .

إن خرائب آشور غنية بالآثار من مختلف العهود وستكون خسارة كبرى إذا ما غمرت بالمياه ، فإننا سنبذل كل جهد للمحافظة على الجزء المهم من بقايا المدينة بإحاطتها بسور إذا اقتضى الأمر للمحافظة عليها لأن

القسم الذى جرى التنقيب فيه إلى الآن لايكاد يتجاوز الواحد بالمائة من العمل الذى يجب القيام به فى حقل التحرى والحفر فى خرائب هذه المدينة الواسعة . (انظر اللوحة رقم ٨) :

خزان بخمة :

ويتكون هذا الخزان بإضافة جدار فى الفتحة التى ينفذ فيها الزاب الأعلى عبر السلاسل الجبلية فى منطقة (شبابندر) وسيكون طول الخزان نحو (٣٥) كم وعرضه نحو (٥) كم وستغمر المياه كهوفا كثيرة على جانبى الزاب ومستوطنات أثرية مبينة فى هذه الخريطة لها أهمية خاصة فى دراسة القرى الأولى التى نشأت فى العراق فى طور انتقال الإنسان من طور جمع القوت إلى طور إنتاجه وذلك باهتدائه إلى الزراعة .

لقد جرى الحفر والتنقيب فى السنوات الماضية فى مكانين من هذه المنطقة أحدهما يعرف باسم (زاوى جمى) إذ وجدت فيه بقايا قرية يرتقى زمنها إلى ما قبل أحد عشر ألف سنة وقد جدد هذا الزمن بطريقة (الكاربون١٤) ووجدت بعض الجدران المشيدة بالطين والحجارة كما كشف عن أدوات بيتية ، إلا أنه لم يعثر على فخار فى هذه القرية فهى أقدم زمنا من معرفة الإنسان للفخار ومما يؤسف له أن هذه القرية ستغمرها المياه أيضاً .

والموقع الثانى كهف (شابندر) الذى تتوقع أن يكون أعلى من المستوى الذى سيصل إليه الماء من هذا الخزان ولا شك أنكم قد سمعتم الشىء الكثير عن أهمية الاكتشافات الأثرية فى هذا الكهف . فهو من أوسع الكهوف فى العراق ، ولقد سكنه الإنسان قبل نحو (١٥٠) ألف سنة ولا زالت بعض القبائل الكردية الرحالة تحل فيه فى فصل الشتاء ويبلغ ارتفاع الركام الأثرى المتكون من بقايا السكن على أرضية هذا الكهف (٤٣) قدماً وكشف فى هذا الركام على آلات صوانية من مختلف العصور الحجرية ، وعثر لأول مرة فى العراق على جماجم وهياكل لأناس من

الجفس (النيندرتال البائد) ، ونذكر بهذه المناسبة أنه قد تمكن المنقبون بطريقة تحليل (الكاربون ١٤) من تحديد زمن أحد هذه الهياكل إلى ما قبل (٣٥) ألف عام وقد وجدت على عمق (٢٣) قدما من السطح الحالى لأرضية الكهف . (انظر اللوحة رقم ٩) .

خزان هيت :

من المقرر إقامة ثلاثة سدود على الفرات أحدهما بالقرب من بلدة « هيت » وسوف يحول الماء إلى منخفض الثرثار الواقع بين دجلة والفرات . (انظر الصورة رقم ١٠)

خزان حديثة :

ويقدر طول المنطقة التى ستغمر بالمياه من نحو (٥٠) كم وتوجد أماكن مهمة كثيرة لعل أهمها مدينة (عنه) المشهورة فى كتب البلدانيين العرب وفيها الكثير من الآثار نذكر منها (المنارة) ، انظر االوحة رقم ١١ ، وتقع هذه المنارة فى جزيرة (لباد) وهى مثمنة الشكل تزين وجوهها ثمانية صفوف من كرى ذات حنيات وأعمدة ، والبعض من هذه الكرى مفتوحة من الداخل لإنارة السلم الحلزونى ، ويلاحظ أيضاً من هذه الصورة أن المنارة تستدق من أعلى حيث تنتهى بجزء ذى طبقتين من الكرى ، وهذه المئذنة فريدة من نوعها فى العراق ولا يعلم زمنها بالضبط وتشبه من حيث الطراز والريازة منارة الرقة وفيه أمام (الدور) بالقرب من سامراء وينسبها العلامة الألمانى هرتسفلد إلى بنى عقيل حكام الموصل الذين امتد نفوذهم فى القرن الخامس الهجرى من جزيرة بن عمر إلى المدائن وشمل وادى الفرات الأوسط .

ويوجد فى (عانه) قلعة من العهد الرومانى تقع أيضاً فى جزيرة (لباد) كما يوجد حصن من العصور الإسلامية ، ومن الأبنية الأثرية من هذه المدينة جامع أبو ريشة يقع على نحو كيلو مترين من شمال (عانه) فى مكان

يعرف بالمشهد ويرجع قسم منه إلى العصر العباسي كان مزيناً بمحراب نقلته مديرية الآثار إلى بغداد ويعود جزء آخر من هذا الجامع إلى الملك عماد الدين زنكي من القرن السادس للهجرة ، كما توجد غرفة مثمنة الشكل مزخرفة فيها من الداخل بزخارف جصية وكتابة تنسب بناءها إلى أمير اسمه (فياض أبو ريش) حكم المنطقة في منتصف القرن السابع عشر للميلاد .
(انظر اللوحة رقم ١٢)

خزان راوه :

وستكون بإقامة سد عند بلدة « راوه » الواقعة على الضفة اليسرى للفرات مقابل بلدة (عانه) المذكورة وسيكون طول هذا الخزان نحو (٩٠) كم وتعرف أماكن مهمة كثيرة ستغمرها المياه ، نذكر منها موقع الجابرية الواقع على الضفة اليمنى للفرات وهو عبارة عن تل واسع محاط بسور ويظن أنه المدينة الآشورية (حرادو) التي ورد ذكرها في الكتابات المسمارية القديمة .

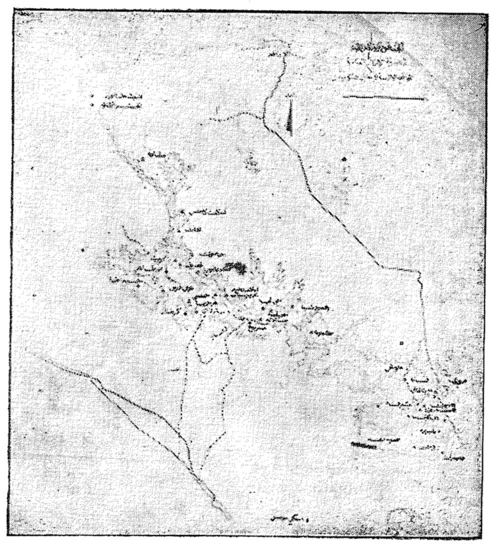
نخلص من كل ذلك بأن على مديرية الآثار العامة في العراق مسؤولية كبرى للبدء بأعمال التحري والتنقيب واستخراج الآثار قبل انغمارها بمياه السدود ، وأن تبدأ في ذلك بأقرب وقت ممكن لأن أعمال المسح والحفر والتنقيب تتطلب وقتاً طويلا فضلا عما تتطلبه من مال وفير وخبرات فنية عالية ؛ ولاشك بأن هذه العملية أثقل من أن يتحملها العراق وحده ولا بد من الاستعانة العلمية بالبلدان العربية والأجنبية للإسهام فيها ، وحبذا لو اتخذ أعضاء المؤتمر الأفاضل قراراً بضرورة تبني الجامعة العربية لهذا المشروع الحيوي وبحث مؤسساتهم العلمية ورجالهم المختصين للاهتمام بإنقاذ هذا التراث الإنساني المطمور في أحواض هذه السدود قبل فوات الأوان .

لوحة رقم ١ – آثار العراق ومشاريع الرى



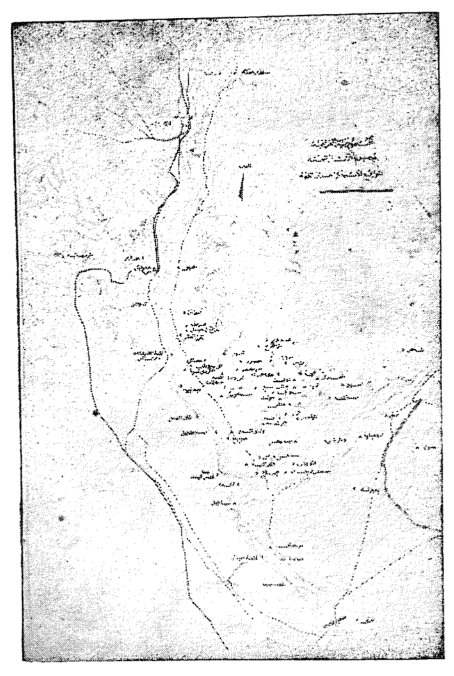
مواقع السدود فى خارطة العراق

لوحة رقم ٢ — آثار العراق ومشاريع الرى



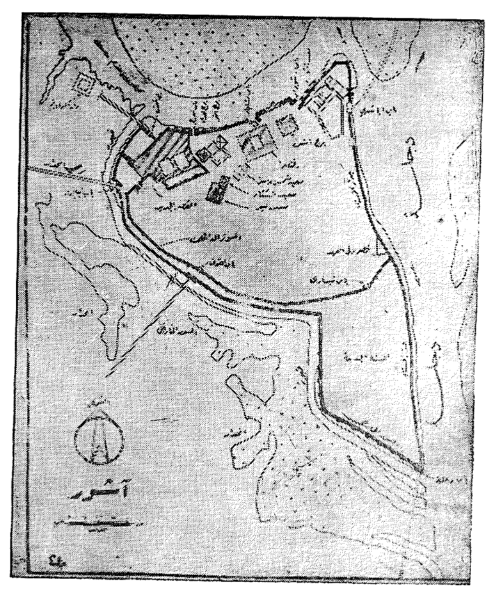
خريطة خزان اسكى موصل

لوحة رقم ٣ ــ آثار العراق ومشاريع الري



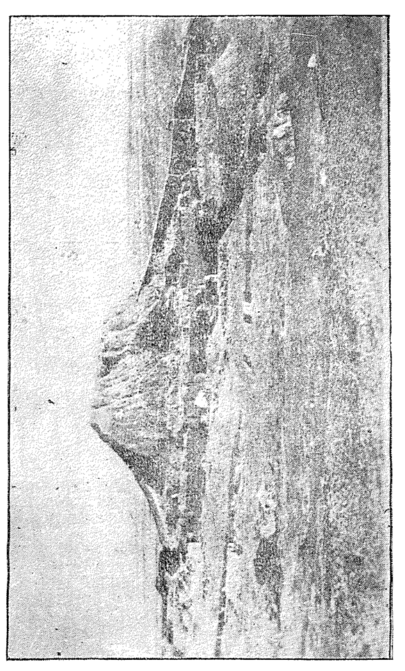
خزان الفتحة

لوحة رقم ٤ – آثار العراق ومشاريع الري



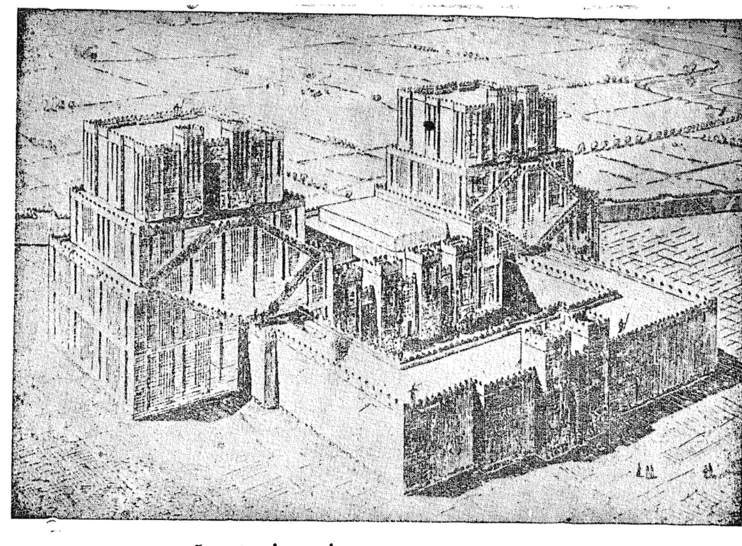
خريطة آشور

لوحة رقم ٥ – آثار العراق ومشاريع الرى



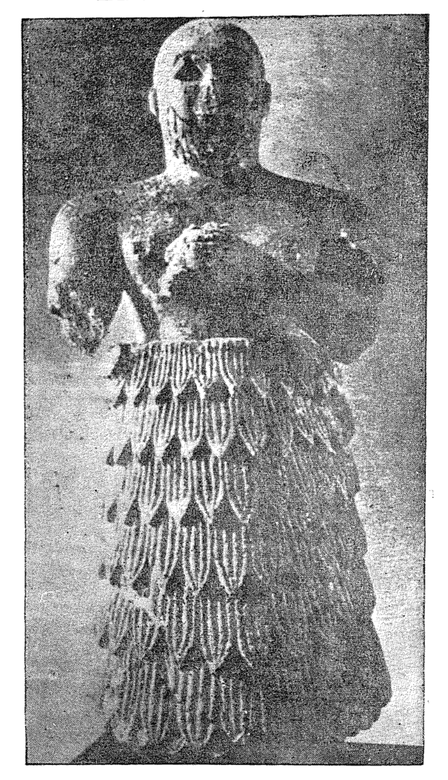
البرج المدرج فى آشور

لوحة رقم ٦ — آثار العراق ومشاريع الرى



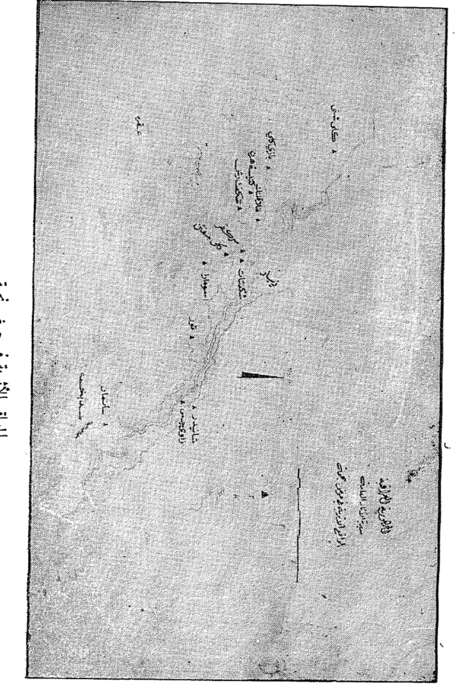
مخطط لبناء المعبد الذى كان مخصصا لعبادة الإلهين « أنو » و « أدد » فى مدينة آشور
وهذا البناء يعد أجمل نموذج للعمارة الآشورية

لوحة رقم ٧ – آثار العراق ومشاريع الرى



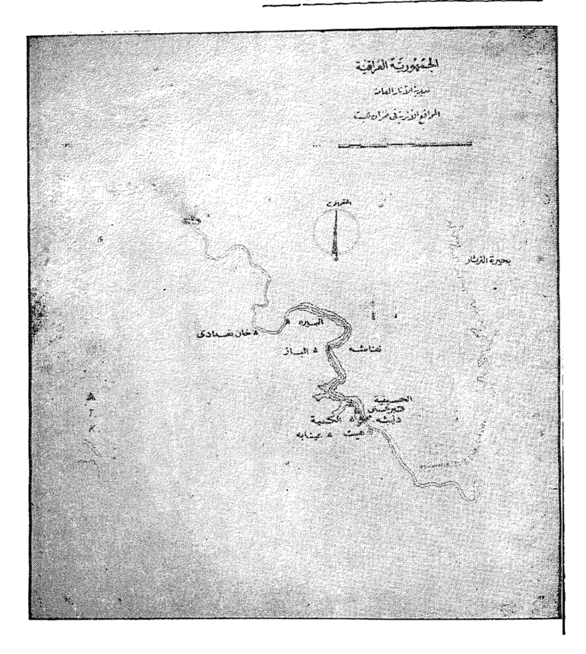
تمثال من الرخام الأبيض يمثل كاهنا أو زعيما وهو منحوت بالطراز السومرى الذى كان مألوفا فى نهاية الدور الثانى من عصر فجر السلالات أو فى الدور الثالث من ذلك العصر ، وهو ذو شبه بالتماثيل المكتشفة فى مدينة مارى الواقعة على الفرات قرب البوكمال .

لوحة رقم ٨ – آثار العراق ومشاريع الرى



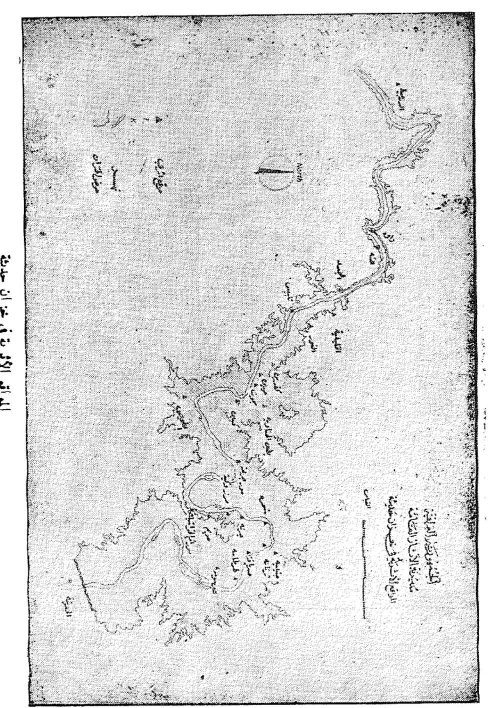
المواقع الأثرية في حوض بخمة

لوحة رقم ٩ – آثار العراق ومشاريع الرى

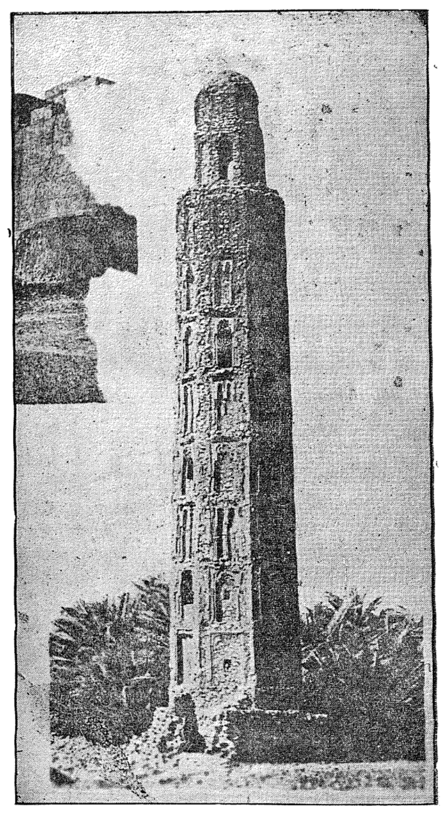


المواقع الأثرية فى خزان هيت

لوحة رقم ١٠ – آثار العراق ومشاريع الرى

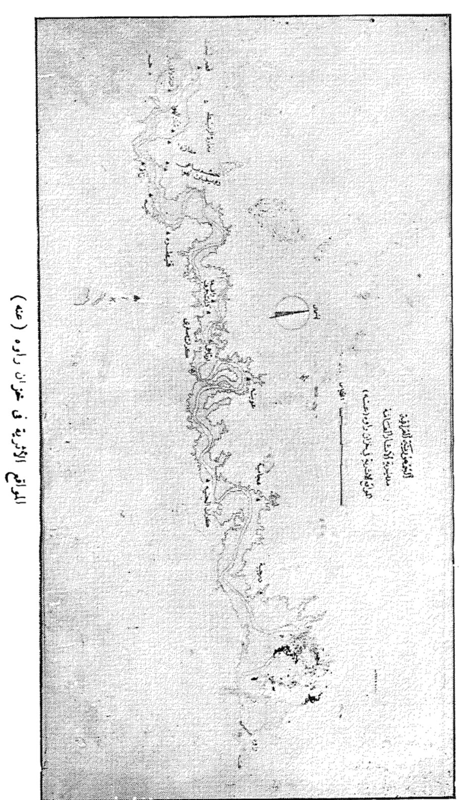


المواقع الأثرية في خزان حديثة



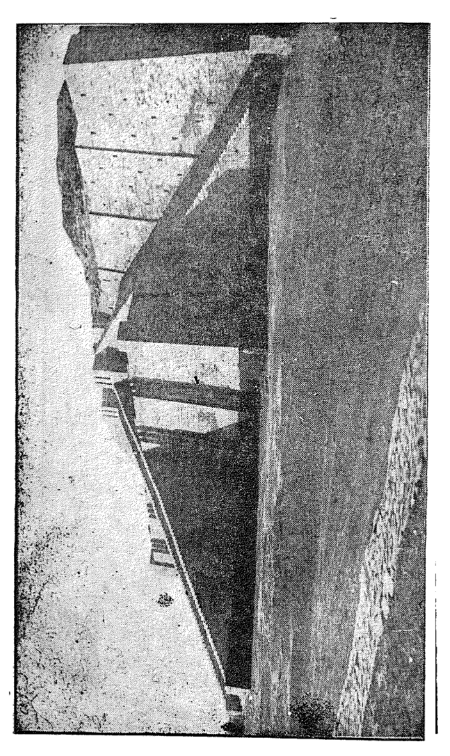
منذنة عانه

لوحة رقم ١٢ — آثار العراق ومشاريع الرى



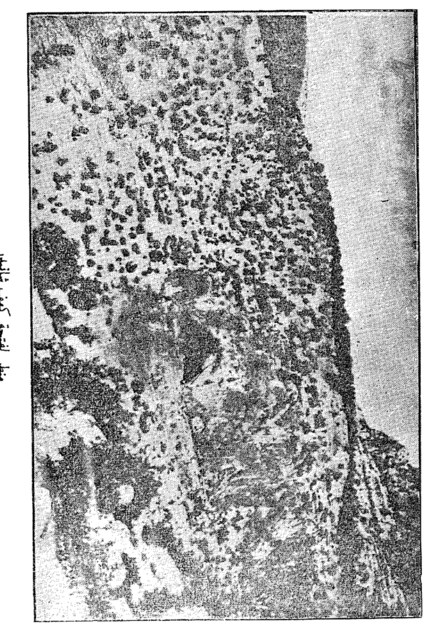
المواقع الأثرية فى خزان راوه (عنه)

لوحة رقم ١٣ – آثار العراق ومشاريع الري



زقورة (أور)

لوحة رقم ١٤ ـ آثار العراق ومشاريع الري



منظر لفتحة كهف شانيدر

الزخارف الرخامية فى الموصل

للأستاذ سعيد الديوه جى

يكثر وجود الرخام فى القسم الشمالى من العراق ، وخاصة فى لواء الموصل ، وقد يكون مائلا إلى الزرقة ، ويسمى بالمرمر ، سهل القلع ، مطاوع للعمل ، وهذا ما جعل السكان يفضلونه على الآجر ، فكان مادة رئيسية فى أبنيتهم ، واتخذوا منه المناطق والأقواس والمداخل والشبابيك ، وبلّطوا به دورهم ، وزينوا به القسم الأسفل من أبنيتهم — كان هذا منذ فجر الحضارة الآشورية . نحت منه الآشوريون التماثيل الكبيرة التى لم تزل باقية إلى اليوم ، وزينوا قصورهم بألواح رخامية ، كتبوا عليها أعمالهم ومآثرهم ، وصوروا عليها مظاهر الحياة الآشورية ، ومعاركهم الحربية ، ومشاريعهم العمرانية ، فكانت سجلات حافلة بأخبار القوم .

ورث العرب عن أجدادهم الآشوريين هذه الصناعة ، ولم يكونوا مقلدين لمن سبقهم ، بل إنهم جمعوا بين ما ورثوه من العناصر المحلية القديمة فى الزخرفة والنقش والنحت ، إلى ما تأثروا به من الصناعات المجاورة لهم ، وابتكروا عناصر جديدة من الزخرفة والنقش والتطعيم ، توافق ذوقهم وعاداتهم ومعتقداتهم ، وذلك بما أجروه من التفنن والإبداع فى عمليات الحذف والتنقيح والتطعيم والإضافة والتهذيب ، فأدى هذا إلى ابتكار فن يتمشى مع طبيعتهم ويلائم عاداتهم وأخلاقهم ومعتقداتهم ، فكان لهم فناً زخرفياً جميلا ، وصارت مدرسة الموصل فى التصوير والوشى وتطعيم النحاس والرخام ، قبلة مدارس العالم ، فكانت تحفهم المعدنية التى أنتجوها ، وتصاويرهم وصناعاتهم مضرب المثل فى الجودة والإتقان فى الشرق الأوسط ،

وهذا ما دعا ابن عبد الحق أن يقول : « وأهل الموصل أهل تدقيق فى الصناعات » :

وانتشرت الصور فى الفن الموصلى منذ القرن الخامس للهجرة ، لأن السلاجقة الذين حكموا هذه البلاد كانوا من أكثر الناس تشجيعاً للمصورين والمزوقين وأصحاب الفنون الجميلة ، وكانوا يرغبون بالصور الجميلة تكون مع الزخارف النباتية والهندسية أو تكون منفصلة عنها فازدهر التصوير على عهدهم . ونجد الصور على النقود التى ضربوها والآثار التى خلفوها والكتب التى زوقوها وزينوها بتصاوير جميلة .

وخلف الأتابكيون السلاجقة فى حكم هذه البلاد واقتفوا أثرهم وقلدوهم فى مظاهر الرخاء والنعيم وكانت قصورهم لا تقل فى الفخامة والتنسيق عن قصور السلاجقة ، ولاقى التصوير إقبالا كبيراً من الطبقة الحاكمة وشاع على عهدهم نحت الأشكال الآدمية والحيوانية على المبانى والقناطر وأبواب المدن الكبيرة ، وحتى على مداخل مراقد الأئمة ومشاهد الصالحين .

أما فى الكنائس المسيحية فكانت كثيرة وخاصة فى كنائس السريان والكاثوليك فنجد صور القديسين والصالحين منهم حول المنحنيات والأبواب وكذا صورة القديس سانت جورج يطعن التنين وصوراً كثيرة لمن بنيت الكنائس على أسمائهم وصوراً لبعض الحيوانات الأليفة والمفترسة كالكبش والأسد ـــ والنمر والفرس وغير ذلك .

كما كانوا يبنون تحت الشخيمات[١] التى تكون للحمام قطعة من المرمر نائتة تكون على شكل رأس كبش ويسمونها « كبش » حتى إذا ما أراد أحد أن يصعد إلى الشخيم علق حبلا بالكبش وتسل الحبل وصعد .

---

(١) الشخيم ، يكون فى أعلى جانبى الرواق . يبات به الحمام ، ولم تزل الشخيمات كثيرة فى الدور القديمة بالموصل .

وكانوا يتخذون من الحلان[1] أحواضاً لشرب الحمام وتكون هذه كثيرة في الدور — والحوض قطعة من الحلان ينقرون بها حوضين كل منهما على شكل نجمة سداسية الأضلاع وينحتون تحت كل نجمة — في مقدم الحوض — رأس كبش نافر مفتوح الفم ويسيل الماء من الحوض إلى هذا ويخرج من فم الكبش أو الأسد .

ونجد صورة الحية حول كثير من المداخل ، ولعلهم كانوا يتيمنون بحفر صورتها ، ويقولون إنها مشهورة بالحكمة . وأهل الموصل لا يؤذون حية الدار ، ويتجنبون إزعاجها ، ويذكرون أنها صارت من أهل البيت ، فلا تؤذي أحداً ، ولا يؤذيها أحد .

وعلى هذا نجد في عدة مداخل قد نحتت صورة حية أو حيتين ، تحيطان بالمدخل ، ويلتقي رأساهما في أعلى الباب — كما في مدخل الإمام ابن الحسن ، والإمام الباهر ، وغيرهما . وقد ينحتون حيتين متدليتين على ركني المدخل ، كما نجد هذا في تكية الشيخ عدي بن مسافر الأموي الهكاري في جبل لالش في قضاء عين سفني .

أما الطرق التي اتبعت في زخرفة الرخام فهي :

الكتابة على الرخام بمختلف الحروف العربية : وتكون غائرة أو نافرة أو مطعمة .

أما المطعمة فكانوا يحفرون الكتابة على الرخام ثم يطعمونها برخام أبيض ناصع ، وهذا ما يسمى بالتطعيم أو التكفيت . وفي البنايات الموصلية القديمة نماذج جميلة جداً منه .

أما الزخارف : فكانت هندسية ونباتية ، وتكون بارزة (نافرة) في الرخام ، وكانوا يتخذون منها شرائط تحف بداخل البناء ، ويزينون الشريط

---

(١) نوع من الرخام ، يكون أسمر اللون ، يقاوم الحرارة والمياه . يبلط به فناء الدار ، ويتخذ منه الأحواض والسواقي والمزملات المائية وغير ذلك .

بأوراق وأزهار مختلفة تكون نافرة فيه ، وخير مثال لهذا هو ما نراه فى مقامى ابن الحسن ، ويحيى بن القاسم ، والمدرسة العزية وغيرها :

وكانوا يمزجون بين الزخارف المختلفة والكتابة ، فتكون متداخلة مع بعضها ، وتؤلف تحفة فنية رائعة .

أما الكتابات فمنها : الخط الكوفى المربع ، والخط الكوفى المثلث ، وهما خاليان من التنقيط والخط الكوفى المشجر : فكانوا يكتبونه على أرضية مزينة بأزهار وأوراق وأغصان مختلفة ، وقد ينهون الحروف بتفريعات نباتية مورقة أيضاً ، ووصل هذا النوع إلى حد كبير من الجمال والروعة والإتقان والخط الكوفى المجدول (المظفور) وكانوا يجعلون الحرف طويلا مجدولا مع الحروف التى تليه .

وتفننوا فى الخط النسخى — وهناك أنواع من الخطوط النسخية والكوفية هى أقرب إلى الزخرفة منها إلى الخط .

ومن طريف ما يذكر فى هذه المناسبة أن بلغ من تفنن بعض المصورين أنهم تركوا ألواحاً جميلة تشهد بما كانوا عليه من التفوق . وهذه الألواح كانت مزيجاً من الزخارف العربية والصور ، فنجد فى الزخارف عناصر طريفة فيها صور أشخاص وطيور وحيوانات أليفة ، وحيوانات كاسرة ، بحيث تكون متداخلة مع الزخارف ومتممة لها ، وتكون الصور متناظرة مع بعضها ، ويصعب على الناظر تمييزها لأول مرة ، كما يظهر لنا هذا فى محراب الجامع المجاهدى الذى قلد به الزخارف التى كانت فى الجامع الأموى .

وكانت الفسيفساء نادرة فى الموصل ، ولذا ابتكر الصناع المواصلة تطعيم الرخام الأزرق برخام أبيض وزينوا به القسم الأسفل من جدران البنايات ، ويكون هذا بزخارف نباتية وهندسية ، بعضها على شكل شريط يحف بالبناء ، وبعضها داخل وحدات زخرفية متعاقبة تحف بالبناء أيضاً :

وقد يتخلل هذا شريط مطعم بكتابة تناسب البناء ومن بناه .

وقد يجعلون شريطاً آخر يحف بالبناء ، يتألف من أوراق أزهار نافرة بالمرمر الأزرق — كما نجد هذا فى مقام الإمام يحيى بن القاسم .

وعلى هذا صارت مدرسة الموصل فى الفن من المدارس التى يحتذى أثرها فى التحف المعدنية ، وفى التصوير والزخرفة والتطعيم وزركشة المنسوجات الخ . . . . وسنقتصر فى بحثنا هـــذا على نموذج الزخارف والتصاوير الرخامية .

١ — ومن القطع الجميلة التى تحوى زخارف رخامية بديعة هى :

(ا) محراب الجامع النووى :—

كان هذا المحراب فى الجامع الأموى صنعه سيف البغدادى سنة ٥٤٣ هـ عندما جدد الأتابكيون الجامع ، وفى القرن التاسع عشر رمم الشيخ محمد النووى الجامع النووى ، وذكروا له أن فى الجامع الأموى محراباً تحت الأنقاض ، فأمر بنقله إلى الجامع النووى وعرف بمحراب الجامع النووى . والمحراب من المرمر الأزرق مزين أعلاه بزخارف هندسية ونباتية متعانقة ، وبعض الزخارف نافرة ، وبعضها غائرة قد حفرت على مستويات متفاوتة ، فكان بعضها أكثر عمقاً من التى فوقها ، حتى وصل الحفر إلى عمق ٤ سم ، ويظهر من هذه الزخارف قطعة فنية رائعة .

وعلى جانبى المحراب أسطوانتان ، فى أعلاهما ما يشبه القيثارة ، ونجد تقليد هذا المحراب واضحاً فى المحاريب التى صنعت فى الموصل بعده ، مثل محراب ابن الحسن ، ومحراب الإمام يحيى بن القاسم .

(ب) محراب يحيى بن القاسم :

صنع سنة (٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م) وهو يشبه محراب الجامع النووى فى تخطيطه وزخارفه ، إلا أن زخارفه تتألف من طبقة واحدة ويتدلى فى

وسطه ما يشبه القنديل – ويعلوه زخارف هنلسية ونباتية تتم الزخارف التى تحف بالقسم الأسفل من الحضرة .

(ح) محراب ابن الحسن – الإمام عون الدين :

يشبه هذا المحراب فى وصفه وزخارفه وهو مصنوع سنة ٦٤٦ هـ – ١٢٤٨ م) وربما كان النحات الذى صنع محراب يحيى بن القاسم هو الذى صنع هذا المحراب .

(د) محراب المدرسة العزية (الإمام عبد الرحمن) :

بنى المدرسة عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد زنكى (٥٧٦– ٥٨٩ هـ) ثم اتخذها بدر الدين لؤلؤ بعد هذا مشهدا للإمام عبد الرحمن .

والمحراب قطعة واحدة من المرمر الأزرق مسطح تزينه زخارف نباتية وعلى كل من جانبه أسطوانتان تعلوها شكل قيثارة . وهى تشبه الأساطين التى كانت فى الجامع النووى وفى أعلاه مكتوب بالخط الكوفى البسملة وبعض آيات من القرآن الكريم .

(هـ) محراب جامع الجويجى – من القرن السابع للهجرة :

وهو يشبه محراب المدرسة العزية يتألف من قطعة واحدة من المرمر كما أن زخرفته النباتية وكتاباته تشبه التى فى المحراب السابق وهو موجود فى الجامع المذكور .

٢ – وأهم الآثار المرمرية المطعمة بمرمر أبيض هى :

(أ) المدرسة النووية (وهى المعروفة اليوم بجامع الامام محسن) :

بنى المدرسة الملك الأتابكى نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى (٥٨٩ – ٦٠٧) .

وكانت المدرسة النووية من البنايات الجميلة المزينة بالرخام الأزرق ، المطعم بالرخام الأبيض .

يحف بأسفل جدران الحضرة شريط من الرخام الأزرق ، مطعم برخام أبيض وهو مزين بزخارف هندسية جميلة .

ودون هـــذا شريط آخر مكتوب عليه بخط نسخي جميل إنشاء المدرسة وألقاب الملك نور الدين أرسلان شاه .

ودون هذا وحدات زخرفة داخل أشكال هندسية مزينة بزخارف هندسية جميلة ، كلها مطعمة بالمرمر ، وهى من أجمل الزخارف التى وصلتنا من القرن السادس للهجرة — ومنها اللوحة رقم (١) .

(ب) حضرة الإمام يحيى بن القاسم :

يحف بحضرة الإمام يحيى بن القاسم إطار من الرخام الأزرق ، فالقسم الأعلى منه مزين بكتابات مطعمة بالرخام الأبيض وفيها نسب الإمام يحيى ابن القاسم وبعض رجال آل البيت .

وتحت هـــذا شريط من الزخارف الزهرية ، تمثل أزهاراً نافرة فى الرخام ، هى من أجمل القطع الفنية التى سلمت من آثار القرن السابع للهجرة .

(ج) صندوق ضريح الإمام على الهادى :

وهو من الرخام الأزرق المطعم بالرخام الأبيض ، دقيق الصنع ، عليه نقوش بارزة ، تمثل أغصاناً وأزهاراً متداخلة ومتشابكة ، وكتابات بارزة بالرخام ، وفى أعلى الصندوق زهرة بارزة ، يتدلى منها قنديل بارز أيضاً . وفى جانبى سطح القبر سطران مطعمة كتابتهما بالرخام الأبيض ، وهى (البسملة ونسب الإمام على الهادى) .

أما جوانبه فزينة بكتابات بارزة تحيط بالصندوق ، وتحت هذا جامات على شكل محاريب متعاقبة تحف بالصندوق داخل كل جامة قطعة زخرفية جميلة .

(د) محراب بنات الحسن :

وهو من المحاريب الجميلة المزينة بكتابات وزخارف نافرة فى المرمر ، فى أعلاه زخارف خشنة ، تشبه التى فى محراب الجامع النووى ، ودون هذه سطر مكتوب عليه كلمة الشهادة بخط نسخى نافر فى الرخام ، وتحت هذا ثلاث وحدات زخرفية ناتجة من تطعيم الرخام الأزرق برخام أبيض ، وبعض أقسام التطعيم نافرة فى المحراب — ودون هذه وحدات هندسية مطعمة بالمرمر أيضاً .

وهو يعد من أجمل محاريب الموصل المطعمة والتى سلمت من عوادى الدهر ، محفوظ فى متحف الموصل :

(هـ) المدرسة النظامية :

وهى التى بناها نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور ، وتعرف اليوم بمقام على الأصغر ، لأن بدر الدين لؤلؤ اتخذها مقاما للإمام المذكور .

ولم يزل فيها قطع نفيسة من الزخارف الرخامية المطعمة ، بعضها على شكل وحدات زخرفية : وكتابات مطعمة بالمرمر أيضاً ، وهى بالخط الكوفى الجميل — اللوحة رقم (١٠) :

٣ — ومن الآثار التى عليها تصاوير هى :

(ا) مدخل حضرة الإمام الباهر :

وهو من أروع المداخل الأثرية التى سلمت من عوادى الدهر وقد تفنن الصانع فى عمله . يحف بالمدخل صورة ثعبانين ملتفين على بعضهما ويتألف منهما نطاق من مستطيلات كل منها على شكل محراب صغير تحف بالمدخل ويكون رأسا الحيتين فى أعلى الباب .

أما داخل المستطيلات ففى كل منها زخارف هندسية ، ونباتية دقيقة بالرخام يعلوها مقرنصات جميلة من الرخام أيضا تكون كالمقرنصات التى فى أعلى المحاريب ، ويتألف من هذا محاريب صغيرة تحيط بالمدخل :

وإن الفنان قد اتخذ من التفاف الحيتين فأظهر هذه المحاريب الصغيرة التى تحف بالمدخل . فقد مزج بين الصور والزخارف واتخذ بين الصور وحدات هندسية داخلها قطع زخرفية فكان موفقا غاية التوفيق فى عمله هذا .

(ب) باب مشهد الإمام ابن الحسن :

وهو المعروف بالإمام عون الدين يشبه المدخل المتقدم وهو من تشييد بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٤٦ هـ .

ومما يمتاز به هذا المدخل أن القطع الرخامية التى فى أعلاه قد ثبتت بطريقة التعانق — التشابك — وهى الطريقة التى كانت متبعة بالموصل فى القرون الوسطى فى تثبيت قطع الرخام مع بعضها وتكون أكثر إحكاما من الطريقة المتبعة فى هذه الأيام .

(ج) محراب من سنجار :

وعثر فى ظاهر مدينة سنجار على محراب غريب الشكل يحيط به حيتان تؤلفان جامات على شكل محاريب صغيرة كما فى مدخل الإمام الباهر ، داخل كل جامة صورة لشخص أو قطعة زخرفية وعلى الأرجح أنه يعود إلى العهد الأتابكى (٥٢١ — ٦٣٠ هـ) وربما كان مدخلا أو شباكا مسدودا يتخذ لتزيين الغرفة التى تكون فيها ومهما كان من أمره فإنه مزين بصور لأشخاص داخل جامات .

(د) — باب الخان :

وباب الخان من البنايات التى شيدها بدر الدين لؤلؤ سنة (٦٣٠ — ٦٥٧ هـ) على الطريق المؤدى من الموصل إلى سنجار ثم إلى سورية وفى قوس باب الخان صورة حيتين كبيرتين بجانب كل منهما جندى بيده رمح يطعن به رأس حيوان خرافى قد تدلى فى أعلى الباب — وربما كانت هذه التصاوير تتخذ كطلسم يدفع أذى الأعداء عن البناء ويقيه شر المغيرين — كما كان هذا فوق أبواب بعض المدن فى العراق وبلاد الجزيرة .

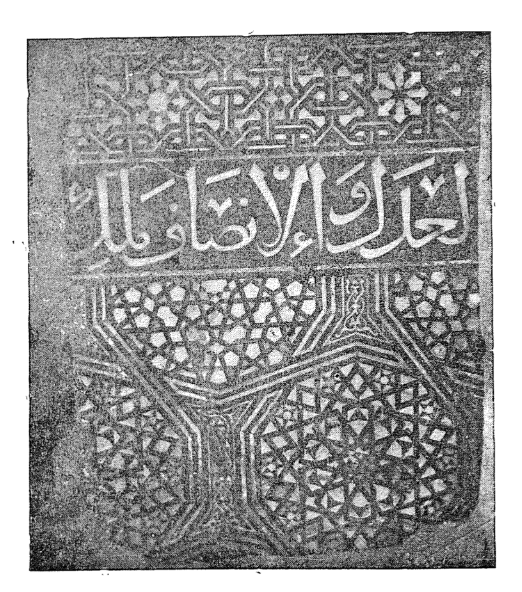
(هـ) كنيسة دير الجب (المعروف اليوم بدير مار بهنام) :

وفى كنيسة الجب بظاهر مدينة الموصل صور منحوتة بارزة لبعض الحيوانات المفترسة كالأسد والنمر والثعلب وغير ذلك . وهى تكون فوق مداخل ، الأبواب كما أنه يحف بالمداخل والأبواب جامات تشبه المحاريب التى فوق مداخل بعض المراقد ، ويوجد داخل كل جامة منها صورة قديس ، وهذه الكنيسة من الكنائس المهمة فى الشرق الأوسط بما تحويه من النقوش والكتابات والتصاوير المختلفة بالمرمر وغير ذلك .

(و) مشهد الإمام إبراهيم :

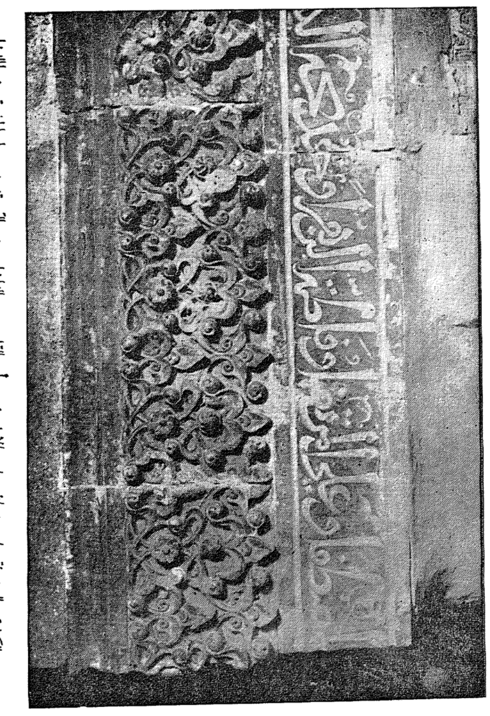
وفى مشهد الإمام إبراهيم حجر أسود من الكرانيت مساحته ٣٣ × ١٥ سم كان مثبتا فى جدار الحضرة رسم عليه الكعبة المعظمة والبيت الحرام وكتب فوق هذا : ومن دخله كان آمنا . وفوق هذا مكتوب البسملة وإن أول بيت وضع للناس للذى ببكة . . . إلى قوله تعالى : مقام إبراهيم — عمل هذا عبد الرحمن بن أبى حمزة — انظر اللوحة رقم (١١) .

لوحة رقم ١ — الزخارف الرخامية فى الموصل



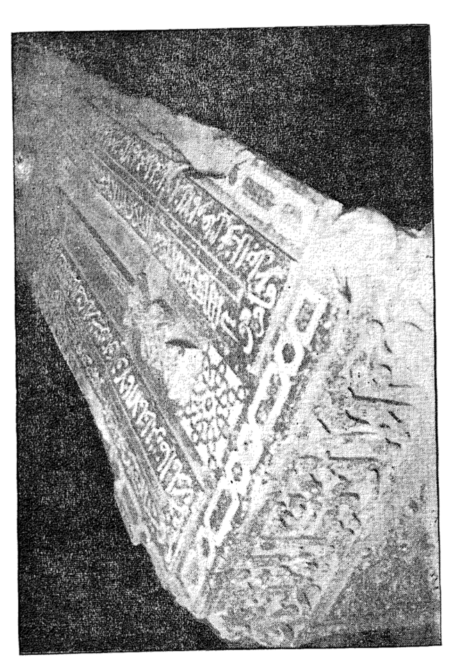
زخارف مطعمة بالمرمر كانت تزين المدرسة النورية

لوحة رقم ٢ — الزخارف الرخامية فى الموصل



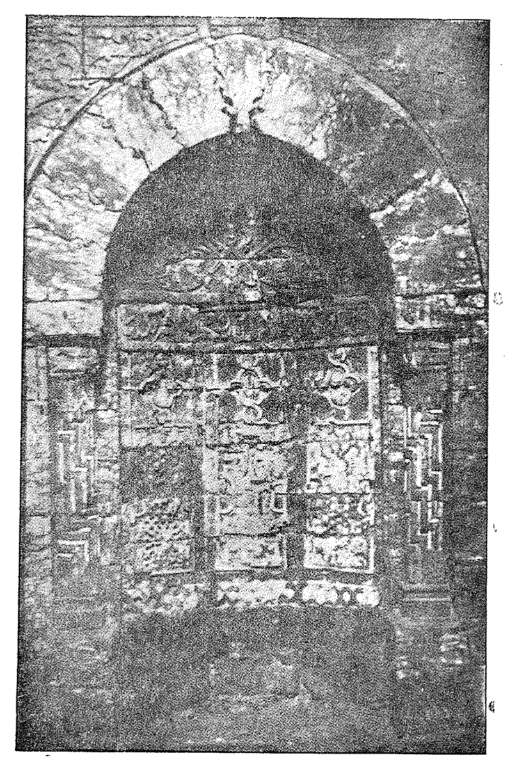
الكتابة والزخرفة على جدران جامع الإمام يحيى أبو القاسم من الداخل وهى التى تزين حول الفجوة من المدخل

لوحة رقم ٣ — الزخارف الرخامية في الموصل



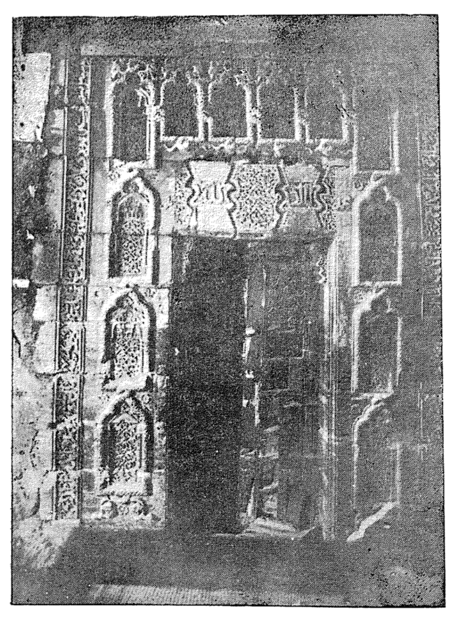
ضريح للإمام علي بن الإمام موسى الكاظم في الموصل

لوحة رقم ٤ — الزخارف الرخامية فى الموصل



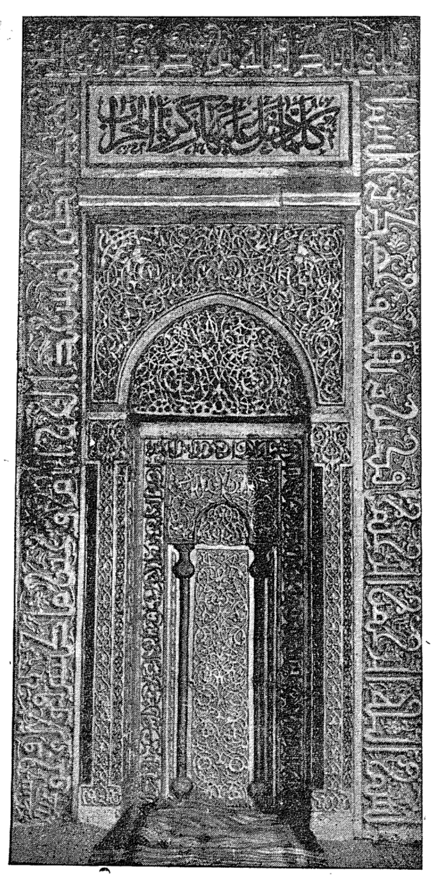
محراب « بنات الحسن » من العصر الأتابكى فى الموصل

لوحة رقم ٥ — الزخارف الرخامية فى الموصل



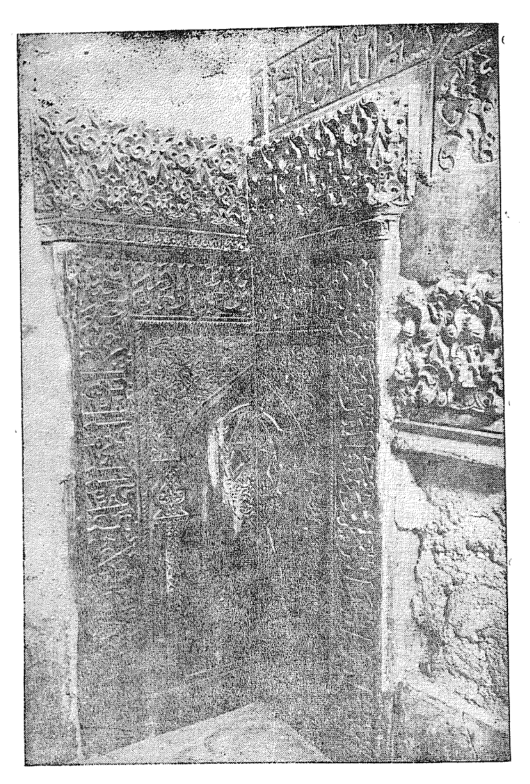
مدخل حضرة الإمام الباهر

لوحة رقم ٦ — الزخارف الرخامية فى الموصل



محراب الجامع الأموى

لوحة رقم ٧ – الزخارف الرخامية فى الموصل



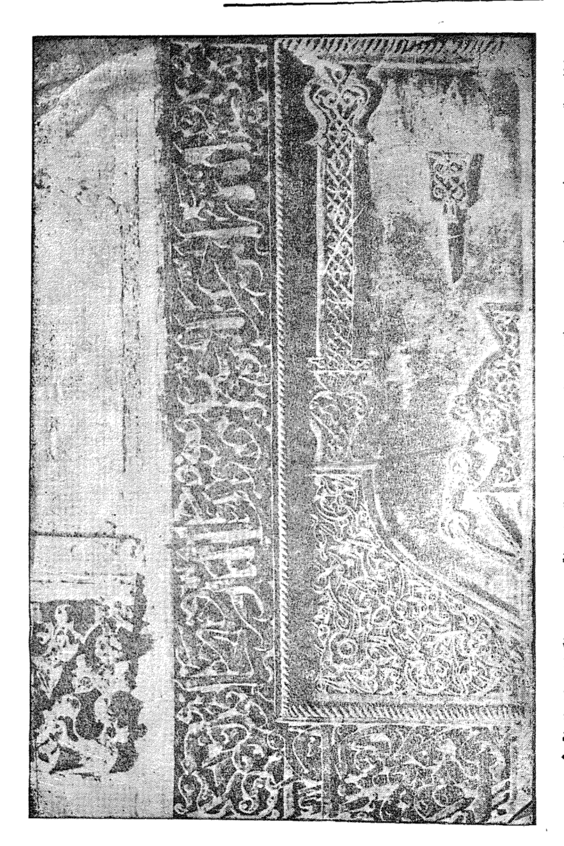
محراب الإمام يحيى بن القاسم وهو من المرمر الأزرق . صنع سنة ٦٣٧ هـ . وبما أن القبلة فى الزاوية من الحفرة . لذا فقد اتخذ المحراب من قطعتين متناظرتين ، وتتجلى فيه مهارة الفنان الذى قام بعمله . وفى أعلى المحراب زخارف نباتية وزهرية نافرة فى الرخام .

لوحة رقم ٨ – الزخارف الرخامية فى الموصل



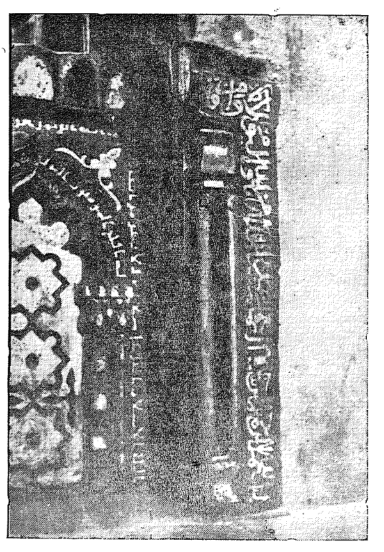
كنيسة ماربهنام – الموصل

لوحة رقم ٩ – الزخارف الرخامية فى الموصل



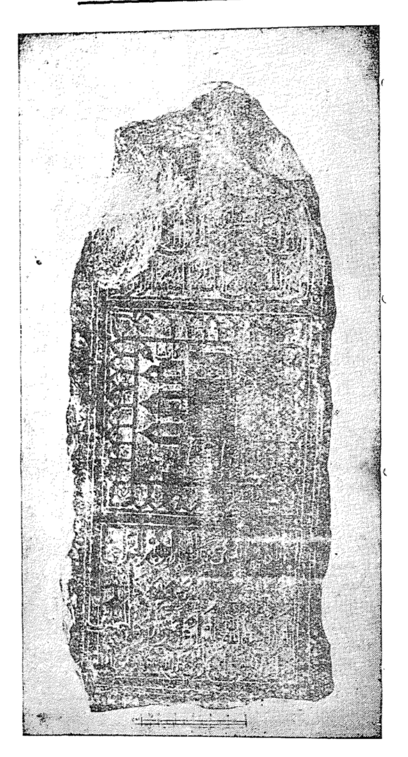
الجانب الغربى من محراب مشهد الإمام يحيى بن القاسم وتظهر فيه دقة النقوش الرخامية فى ترتيبه ، والكتابات الجميلة التى تحف به

لوحة رقم ١٠ – الزخارف الرخامية فى الموصل



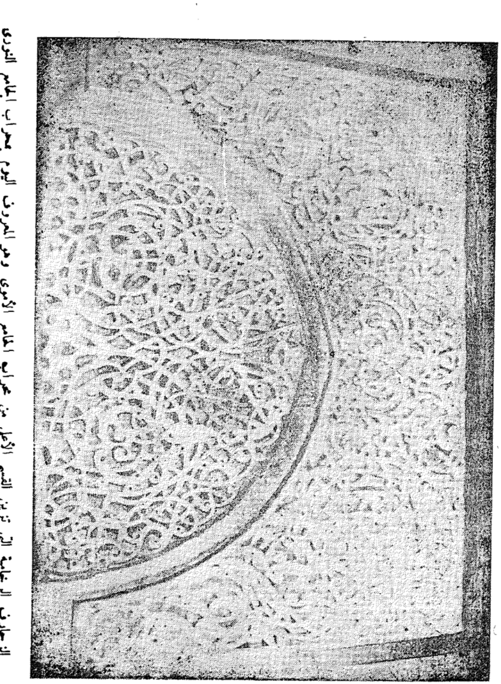
جانب من شباك فى المدرسة النظامية على شكل محراب مزين بكتابات مطعمة وزخارف مختلفة وهى أيضا مطعمة بالمرمر الأبيض

لوحة رقم ١١ – الزخارف الرخاميه فى الموصل



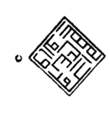
حجر من الكرانيت رسم عليه الكعبة المعظمة والبيت الحرام .
وكانت فى مشهد الإمام إبراهيم فى الموصل

لوحة رقم ١٢ — الزخارف الرخامية فى الموصل



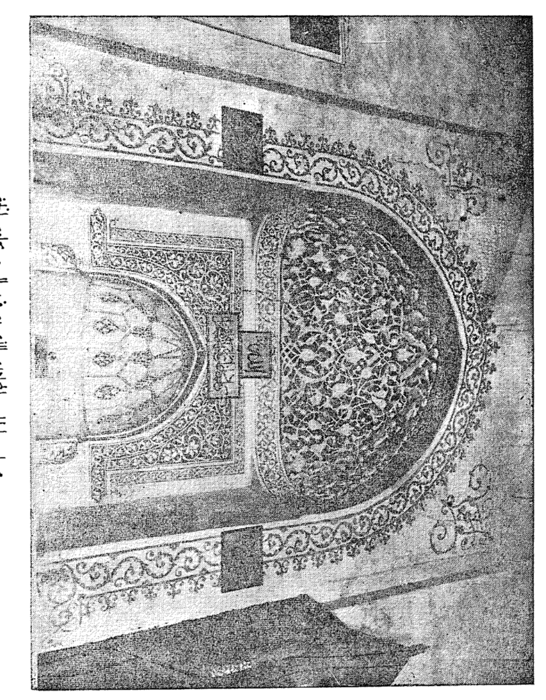
الزخارف الرخامية التى تزين القسم الأعلى من محراب الجامع الأموى وهو المعروف اليوم بمحراب الجامع النورى

لوحة رقم ١٣ — الزخارف الرخامية فى الموصل



نماذج من الكتابات الكوفية

لوحة رقم ١٤ – الزخارف الرخامية فى الموصل



محراب الجامع الخاصكى الذى يعرف اليوم بجامع الخضر

دار الإمارة فى الكوفة

فى ضوء التنقيبات الأثرية الحديثة

للأستاذ كاظم الجنابى

هذا البحث عن دار الإمارة فى الكوفة فى ضوء التنقيبات الأثرية الحديثة ، والكوفة كما لا يخفى على حضراتكم ثانى مدينة إسلامية أسست فى العراق بعد الفتح العربى ، أسسها القائد سعد بن أبى وقاص (رض) عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) بأمر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فى الجانب الغربى من الفرات على بضعة أميال إلى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الحيرة . وكان السبب فى تأسيسها أن تكون قاعدة عسكرية أو دار هجرة للمسلمين بدل المدائن ، حينما ثبت أن بيئة المدائن لاتصلح من الناحية العسكرية والصحية ، فنزلها سعد وخط مسجدها ودار إمارتها ، وخط فيها الخطط للقبائل وأقطع للقائدة والأمراء القطائع وعلّم المناهج ورسم لها السكك والدروب والأسواق ، ثم تسابق فيها الناس على البناء فأسرع إليها النمو وتحولت فى بضع سنين إلى مدينة عامرة مزدحمة بالسكان تقوم هى والبصرة بدور العاصمة للعراق .

كانت الكوفة منذ إنشائها موطن المجاهدين العرب ومركز القوة الإسلامية ، كما رسم لها أن تكون حين أنشأها العرب . فازدهرت ازدهارها الكبير وزهت إلى أكبر حد ممكن ، ثم كثر الوافد عليها فأصبحت مركزاً للدسائس والمؤامرات والثورة إلى نهاية العصر الأموى ، ويبدو أنه حينما انتصرت الدعوة العباسية اتخذها العباسيون قاعدة لملكهم إلا أنهم لم يقيموا بها بل فى الهاشمية شمالا على الفرات وأحياناً فى الأنبار ، لأن الكوفة

أو البصرة كانت مركزاً لسلسلة من الثورات المتصلة . وبعد تأسيس بغداد سنة ١٤٥ هجرية على يد الخليفة الثانى أبى جعفر المنصور بدأت الكوفة تفقد أهميتها كمركز للإمارة العامة ولكنها بقيت لمدة غير قليلة من الزمن مركزاً عسكرياً ومركزاً ثقافياً ، ثم أخذت بعد ذلك تفقد أهميتها تدريجياً ودب فيها الخراب فى معظم أبنيتها ، وحينما زارها الرحالة العربى ابن جبير فى القرن السادس الهجرى قال « إن معظمها خراب » وبذلك انتهى أمر الكوفة كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية :

هذه مقدمات خاطفة أردت بها أن أعرف لكم الكوفة أولا وأن أمهد لموضوع محاضرتى عن دار الإمارة فى ضوء التنقيبات الأثرية الحديثة ثانياً .

أشرت فيما تقدم أن سعد بن أبى وقاص (رض) وصحبه حينما اختطوا مدينة الكوفة وحددوا مسجدها خصوا الفضاء المتصل بالمسجد من جهة القبلة لدار الإمارة — روى ذلك الطبرى إذ يقول : « وبنى سعد فى الذى خطوا للقصر قصراً بحيال محراب مسجد الكوفة فشيده وجعل فيه بيت المال وسكن ناحيته » ويشير البلاذرى فى نص من نصوصه أن زياد ابن أبيه عندما أقدم على توسيع مسجد الكوفة — سنة ٥٠ هـ — وبنائه لم يحرم القصر من عنايته الأعمارية أيضاً ، ولكن أين أبنية الدار وماذا حل بها ؟

لا شك أنه لم يكن غريباً أن تختفى معالم الدار وتندثر كغيرها من المبانى القديمة فى الكوفة ، وكان اختفاؤها إما بفعـــل عوادى الزمن أو بما درج عليه الناس فى هدم المبانى المهجورة واستعمال آجرها اقتصاداً فى النفقات أو لمجرد الرغبة فى تحطيمها ، يقول الرحالة العربى ابن بطوطة الذى زار الكوفة سنة ٧٢٦ هجرية « أما دار الإمارة الذى بناه سعد ابن أبى وقاص (رض) فلم يبق منه إلا أساسه » ويبدو أنه لعين السبب اندثر ذلك الأساس أيضاً ولم يبق منه إلا أطلال طفيفة كانت إلى ما قبل حفائر

عام ١٩٣٨ تنتشر جنوب المسجد الجامع من جهة القبلة وتعرف بين الناس باسم أطلال دار الإمارة .

كما يشاهد فى هـــذه المصورة ــ انظر اللوحة رقم (١) ــ ولهذا أرادت مديرية الآثار العامة فى العراق أن تتعرف على هذه الأطلال الطفيفة وما تحتويه فى بطونها من آثار وأبنية فاستعملت أولا طريقة خاصة بالتنقيب تعرف لدينا باسم طريقة تتبع الجدران وتحديدها كما ترون فى هذه المصورة ــ انظر اللوحة رقم (٢) ــ فكشفت فى مواسم مختلفة من العمل الدقيق عن أسس لدار مربعة الشكل ترتسم خلف المسجد الجامع يحيط بها سور ضخم يتصل طرفه الشمالى الغربى اتصالا وثيقاً بباب مفتوح بالضلع القبلى لمسجد الكوفة ، ولزيادة الإيضاح أعرض لكم هذه المصورات ــ انظر اللوحات رقم (٣) ــ (٤) ــ (٥) .

بعد هذا سأعرض بإيجاز مرافق الدار وما تحتويها طبقاً للكشف الأثرى .

١ ــ السور الخارجى :

يتألف السور الخارجى كما كشفت عنه التنقيبات الأثرية من أربعة جدران تقريباً انظر اللوحة رقم (٦) ، طولها ١٧٠ × ١٧٠ متراً ومعدل سمكها أربعة أمتار ، وتدعم كل ضلع من الخارج ستة أبراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالى حيث يدعمها برجان فقط ، وتنتهى الأركان الثلاثة الشمالية والجنوبية الشرقية والغربية بثلاثة أبراج نصف دائرية ما عدا الركن الشمالى الغربى فإنه يتصل بسور المسجد ، ويمكن أن نحدد قياس هذه الأبراج بثلاثة أمتار وستين سنتيمتراً .

أما المسافات بين كل برج وآخر فكانت أربعة وعشرين متراً وستين سنتيمتراً وأقصر هذه المسافات يصل إلى اثنين وعشرين متراً . غير أن الغالب على هذه المسافات كان أربعة وعشرين متراً ويبدو أن ارتفاع هذا السور

بأبراجه كان يصل إلى ما يقارب من عشرين متراً ، والذى يرشح لهذا الاستنباط إن أساس هذا السور كان عريضاً مما يظن أنه كان يتخذ لرفع البناء إلى ما يقارب من هذا التحديد ؛

أما مداخل السور ، فقد ظهر من نتيجة التنقيب أن الباب الرئيسى لهذا السور يتصل طريق وسط يؤدى إلى عرصة أو فناء الدار ، وقد تبين أن هذا الباب يتألف من برجين مربعين وأن البرج الغربى هو برج المسجد المتصل بالدار ويبرز كما يبدو على هيئة نصف دائرة تقريباً . أما البرج الآخر فهو طرف الضلع الشمالى للسور .

وأمدتنا الحفائر ببعض التفصيلات التى وإن كانت لا تعطى صورة كاملة عما كان عليه الحال وقت بناء السور إلا أنه أمكن أن نستنتج بأنه كان هناك اتصال بين ضلع المسجد القبلى وبين نهاية الضلع الشمالى الغربى للسور ، وفى هذه المنطقة وجد مرفق يتألف من غرف ثلاث وإن الباب الرئيسى لها يطل على القصر وإنه كان المدخل الذى يصل منه الأمير إلى المسجد عن طريق باب صغير قد قد فى حائط المسجد الجنوبى وطرف السور ، انظر اللوحتين (٣ و ٥) ، وفى الضلع الشمالى الشرقى للسور ، كشف البحث عن ثلاث غرف مستطيلة الشكل اثنتان منها عمودية والأخرى موازية للسور ولكل منها مدخل يطل على الفناء المحيط بالدار وسيكشف البحث العلمى عن بقايا هذه الغرف .

أما فى الضلع الشرقى للسور فقد تم الكشف عن غرفة واحدة منه فقط ولها مدخل يعقد وجد ساقطاً على الأرض وما تزال الغرفة بآثارها باقية حتى اليوم لم تمتد إليها يد بعد ، والضلع الجنوبى تقع وسطه ثلاث غرف كشف منها غرفتان ولها مدخل واحد يطل على مجاز تفصل بينه وبين الدار الغرفة الثالثة التى لم يتم الكشف عنها بعد . انظر اللوحة (٦) .

ذلك حضرات السادة هو الوصف المفصل للسور الخارجى لدار الإمارة كما دل عليه الكشف الأثرى وكما يرى فى اللوحة رقم (٦) .

مواد النباء :

أما مواد البناء التى استعملت فى إقامة هذا السور فكانت من الآجر والجص ، وكان هذا الآجر من النوع الضخم الذى يصل قياسه إلى ٣٨ × ٣٨ × ٩ سم ويرسو على تربة رملية صافية ، والجدار المطمور منه فى باطن الأرض كما تبين من الكشف الأثرى يصل إلى قرابة ثلاثة أمتار ، أما الظاهر منه على سطح الأرض فيصل إلى ما يقارب من مترين وقد يقل عن ذلك فى بعض الأجزاء . ولما كان القصر قد تعرض للسرقة فى عصر سعد بن أبى وقاص كما يؤكد ذلك الطبرى بأن السور كان قد بنى بعد هذه الحادثة منعاً لتكرار حدوثها مرة أخرى ، كما توكد كذلك البطانة التى كشف عنها — انظر اللوحة رقم (٧) — محوطة بالقصر ضمانا لحمايته من التلصص، كما أن مستويات بناء السور أعلى من مستوى تبليط الدار . وقدكشفت المجسات التى أجريت فى جنوب الدار أنه كان من الممكن أن يتم التلصص بعد إزالة الرمال المحوطة بأساس البطانة والتسرب من تحتها إلى داخل الدار ، كما أن بناء السور بهذه الضخامة هو حماية للدار وتحصيناً له من كل حادث أو تسرب قد يقع لسكانه فى المستقبل .

دار الإمارة :

أما دار الإمارة فتتألف من بناء مربع طوله ١١٠ × ١١٠ متراً ، ومعدل سمك الجدران متر وثمانون سنتيمتراً وفى بعض أجزائه متران ، وهذه الدار مشيدة بالآجر والجص من قياس ٣٦ × ٣٦ × ٨ سم وأضلاعها الأربعة كما يبدو من المخططة — انظر اللوحة رقم (٦) — تمتد بموازاة أضلاع السور الأربعة وقد دعم كل ضلع منها بأربعة أبراج نصف دائرية وقطر كل منها

يبلغ ثلاثة أمتار ، موزعة على التناظر بحيث كانت المسافة بين كل برج وآخر ثمانية عشر متراً وثلاثين سنتيمتراً .

أما أركانها الأربعة فينتهى كل منها ببرج مستدير يقرب من ثلاثة أرباع دائرة مجموع هذه الأبراج الموزعة على جدرانها يصل إلى عشرين برجاً ، ويلاحظ الناظر للمخططة أن جدران هذه الدار قد دعمت وأبراجها بكسوة من البناء تمتد بطول الجدران وتبرز عنها بمقدار متر وثمانين سنتيمتراً ، وعند الأبراج متر وخمسين سنتيمتراً ، وهذه الكسوة تتعمق فى باطن الأرض نحو تسعين سنتيمتراً .

أما مداخل الدار فيوجد بكل ضلع من أضلاعها مدخل أو مداخل كان بعضها من صميم التخطيط الأول والبعض الآخر تم إنشاؤه فى فترات متأخرة وخاصة فى العصر الأموى وذلك بعد نحت أو قص الجدران كما لاحظنا عند فحصنا لها .

أما المدخل الرئيسى فإنه يقع فى منتصف الضلع الشمالى للدار فى مواجهة المدخل الرئيسى للسور الخارجى تماماً ، وكان عرض هذا المدخل زمن تشييده متران وسبعون سنتيمتراً ، يبرز فى واجهته فخذان يضيقان عند طرفيها البعيدين حيث يصل خمسة وخمسين سنتيمتراً وينتهى طرف كل من الفخذين بدعامة شبه دائرية تستند إلى جدار الدار وقطاعها يمثل ثلث دائرة تقريباً ، وإذا ما تجاوزنا هذا المدخل وصلنا إلى فناء يؤدى إلى غرفة مستطيلة الشكل أبعادها ٢٥ × ١٧ × ١٤ متراً ويمكن الوصول إليها من مدخل فى الطرف الغربى منها عرضه ٩٣ سنتيمتراً ومن مدخل الطرف الجنوبى الغربى للغرفة المستطيلة تصل إلى رواق أبعاده (١٧ر١٤ × ٦٥ر٤ متر) فى جداره الشرقى مدخل عرضه (١٣ر١ متر) يؤدى إلى حجرة مستطيلة يجاورها حمام بديع التصميم من العهد الأموى ، وإذا ما عدنا إلى الرواق وجدناه يطل من جهته الجنوبية على ساحة الدار وهى مربعة أبعادها (١٠ر٣٧ × ٣٧ متراً)

وتتشابه فى أضلاعها من حيث توزيع الإيوانات وتختلف فيما بينها من حيث الطراز والأبعاد والتقسيمات الداخلية ـ فالإيوان الشمالى كما ذكرنا مستطيل فى واجهته عمودان أسطوانيان من الآجر وعلى امتدادهما بروز كل منها على هيئة نصف عمود وهذان العمودان بامتدادهما وما يحملان من بروز يحددان واجهة الإيوان .

أما الإيوان الشرقى فقد شيد على غرار الإيوان السابق وقد كشف البحث الأثرى أن بروز الإيوان الشمالى مغلف بزخارف جصية على شكل مربعات محفورة حفراً غائراً بداخلها ورقة نباتية محورة ذات ثلاثة فروع على نظير عقد القاعة (٣٥) المكتشفة فى قصر الحير الغربى فى بلاد الشام والذى يرتقى زمنها إلى العصر الأموى ـ انظر اللوحة رقم (٨) ـ وهذا الإيوان يختلف من حيث أنه شيد على الطراز (الحضرى) ـ نسبة إلى مدينة الحضر الواقعة خرائبها اليوم على نحو ١٤٠ ك م جنوب غرب الموصل بشمال العراق ـ والمعروف لدى الآثاريين بالطراز (الحيرى) وهو يشمل فيما خلف العمودين على المقدمة والجناحين والقلب وغرفة فى المؤخرة تلى القلب على غرار البيتين (B,H) فى قصر الأخيضر الواقع فى لواء كربلاء ، ويغلب على الظن أن هذه الغرف كانت تستخدم مخازن أو مستودعات لما يحتاج إليه صاحب الإمارة ، والذى دعا إلى غلبة هذا الظن الكشوف الأثرية التى أجريت فى سامراء دلت على ذلك .

أما الرواق الغربى فتتألف جبهته من عمودين أسطوانين أيضاً يقعان فى وسط هذه الجبهة وينتهى هذا الإيوان بطرفى مجازين يؤديان إلى مرافق الدار الشمالية الغربية والجنوبية الغربية المعاقبة لها ، وينبغى أن نذكر أن أهم إيوان فى هذه الساحة الإيوان الجنوبى لما يشمل عليه من أساطين آجرية فى وسطه وهى تقع فى صفين كل منها يحتوى على ثلاثة أساطين وجميعها قد شيد بالآجر والجص وطليت بالجص أيضاً ـ انظر اللوحة رقم (٩) ـ كما أنها كانت

تشمل على بعض الزخارف التي وجدت متساقطة في وسط الإيوان وهذه الزخارف كما يبدو من صفها وطريقة تصميمها تدل أن بعضها تم في العصر الأموى والبعض الآخر في العصر العباسي ، والذى يدل على ذلك النقود التي كشف عنها البحث الأثرى بعضها من ضرب الكوفة باسم الخليفة عبد الله السفاح سنة ١٣٦ هـ والبعض الآخر باسم المهدى من ضرب الكوفة أيضاً .
وقد وجدنا أن عقد الإيوان الذى يحمل سقفه كان ساقطاً في وسط الإيوان ويلاحظ أن في جنوب الإيوان مدخلان على جانبيه برجان يبرزان كل منهما على شكل نصف دائرة — انظر اللوحة رقم (٦) — وعثرنا على جانبي البرجين على زخارف جصية غير قليلة كانت تحمل نقوشاً محفورة حفراً عميقاً بأسلوب مغلظ وهذا المدخل يؤدى إلى قاعة مضلعة في أركانها الأربعة ، وكان سقفها على شكل (قبة) وقد وجد ساقطاً في وسطها ولكل من جدران هذه القاعة منفذ يؤدى إلى مرافق الدار الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية جميعها — انظر اللوحة رقم (٦ و٩) — فالقسم الجنوبي الشرقى يحتوى على ساحة قياسها (١٥ × ٥و٢ متراً) من حولها غرف مستطيلة متناظرة إلى طرفها الشمالى الغربى مجاز طويل يؤدى إلى مرافق الدار الشمالية وفي جنوبها في الطرف الأدنى غرفتان إحداهما تؤدى إلى الأخرى بواسطة منفذين ، وهذا الجانب وجد منقوشاً ، وإلى غرب هذا الجانب تقع ساحة أخرى مستطيلة الشكل أبعادها (٢٢ × ٥ر١٤ متر) ، في ضلعها الشرقى بقايا سلم كان يؤدى في الأصل إلى سطح الدار .

أما القسم الشمالى من الساحة فتقع ثلاث غرف ، الوسطية منها كانت في الأصل مطبخاً حيث عثر فيها على بقايا رماد كثير وجرار فخارية رصفت بطريقة هندسية عجيبة لتصريف المياه القذرة كما وجدت فيها كميات من أوانى الفخار وأقداح الزجاج المهشم .

أما القسم الجنوبى من الدار فيتألف من فسحة بثلاث مرافق ، الطرف الشرقى يضم على ردهة صغيرة ومخرج يؤدى إلى فناء الدار الجنوبية ، والمخرج هذا من صميم التخطيط الأصلى للدار .

أما الجانب الشرقى من هذه الفسحة فيتألف من إيوان صغير فى مقدمته نصفا برجين ومدخل فى الوسط يؤدى إلى غرفة مستطيلةتقع خلف الرواق ، ومدخل آخر فى شماله يؤدى أيضاً إلى فسحة بإيوان يتوسطه مخرج بين دعامتين مضلعتين والمخرج هذا يؤدى إلى فناء الدار أيضاً .

أما الطرف الجنوبى الغربى فيتألف من ساحة مستطيلة الشكل تقريباً قياسها ١٣ × ١٨ متراً ، فى شمالها ردهة مربعة تؤدى إلى المرافق الشمالية والغربية حيث يقع مجاز طويل بموازاة ضلع الدار الغربى ، أما فى جنوب الساحة فيقع مرفقان الشرقى منه غرفة صغيرة والغربى إيوان بمخرج يؤدى إلى عرصة الدار أيضاً .

بعد هذا الوصف الشامل للدار ومداخلها ومرافقها والسور المحصن لها وما عمل لتحصين السور نفسه على ما دل عليه التخطيط أستطيع أن أقرر أن تصميم هذه الدار المعقد يدل دلالة لا ريب فيها على أن من وراء هذا التصميم مقاصد عسكرية وأهدافاً يقصد إليها لتكون الدار فى حماية آمنة من كل شر يراد بها أو لها .

النتائج : أولا ــ أما النتائج التى خرجنا بها هى أن دار الإمارة فى الكوفة أقدم ما عثر عليه من عمائر إسلامية حتى الآن فى كافة أقطار الوطن العربى ــ إذ أن الفتوح العربية الإسلامية حينما بدأت فى هذه الجهات لم تكن مجرد فتح عابر بل كان الهدف منها الاستقرار ونشر الديانة الإسلامية فى منازل العرب البعيدين عن الجزيرة بسبب الهجرة فى عصور مختلفة ؛ لذلك حرص العرب المسلمون على إيجاد مراكز استقرار لهم فيها وبدأ بالطبع بتخطيط مقار حكمهم فى أنسب المواقع للسيطرة على البلاد المفتوحة والإشراف على

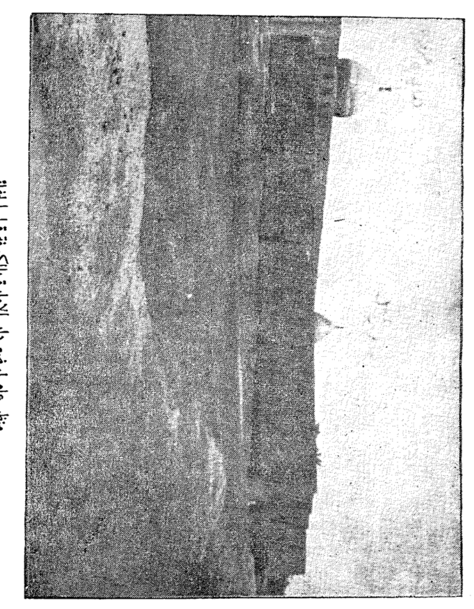
إدارتها ، وعليه يمكن القول بأن دار الإمارة فى الكوفة أقدم عمارة عربية إسلامية كشف عنها حتى الآن ولا يوجد ما يماثلها من نفس الزمن الذى شيدت فيه وعليه نحن نأمل من إخواننا الآثاريين أن يكشفوا لنا عن دور الإمارة التى أسسها العرب فى أقطارهم .

ثانياً – أثبت البحث الأثرى أن مادة البناء المستعملة هى الآجر والجص وبعد الفحص الدقيق ثبت لدينا أن الآجر المستعمل فى بناء الدار جميعه من صنع محلى غير مختلف ولا مهشم ولا منزوع أو منقول من محل آخر وبقياس متناسب ، الطينة فيه موحدة خضراوية تميل إلى الصفرة وقد رصف البناء رصفاً متسقاً ، وهذا بخلاف ما زعمه الرواة من أن سعد بن أبى وقاص قد بنى دار الإمارة فى الكوفة بآجر انتزعه من بنيان كان للأكاسرة فى الحيرة . ومما يؤيد النتيجة التى وصلنا إليها من هذه الكشوف أن الحيرة تبعد عن الكوفة حوالى (١٢ ك م) وهى مسافة لا يستهان بها فى النقل والتكاليف فضلا عن هذا كون الآجر الموجود فى الحيرة يختلف فى شكله ومادته ومقاييسه عن الآجر المستعمل فى بناء دار الإمارة ، والآجر بطبيعته إذا نقل أو نزع من بناء آخر لا بد وأن يتهشم أو ينكسر فلم يظهر أو يتأيد لنا من أن الآجر المستعمل فى الإمارة – خصوصاً فى الأسس الأولى – غير منقول أو منزوع من مكان آخر وإنما كان قد صنع خصيصاً للدار ، ونزيد على هذا أيضاً أن أغلب أبنية الحيرة مشيدة باللبن والآجر وأن الحيرة لم تكن مهجورة حينما خط سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة بل كانت آهلة بالسكان وبقيت مع الكوفة إلى حوالى القرن الثالث الهجرى .

ثالثاً – عثر فى إحدى القاعات على أسلوب من البناء لم يكن معروفاً فى تلك الفترة وذلك برصف الآجر عمودياً صفاً يقطع صفاً آخر أفقياً – انظر اللوحة رقم (١٠) – وهذه الطريقة تسمى عندنا اليوم فى العراق على (جازه) وذلك للمبالغة فى التحصين فى البناء .

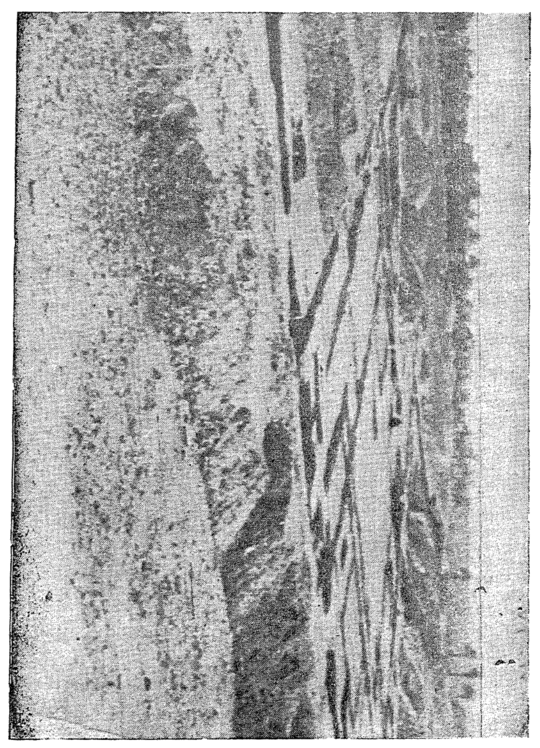
ولا يتسع المجال أن أعرض لكم كل ما كشف عن دار الإمارة لأنه يحتاج إلى مجلد كبير ، ولكن الذى سأقوله أننا قد عثرنا على كميات كبيرة من التحف الخزفية والفخار وقوارير الزجاج والنقود وكسر من النحاس مهيأة للضرب كلها تلقى ضوءاً كبيراً على التراث العربى الإسلامى فى عهوده الأولى هـــذا وسوف نواصل العمل قريباً لإتمام الحفائر فى دار الإمارة كما سنشرع فى صيانة وترميم هذه الدار الفريدة التى هى مفخرة لكل عربى يعتز بتراثه ، حفظاً لها من كل تلف ومن كل سوء .

لوحة رقم ١ – دار الإمارة فى الكوفة



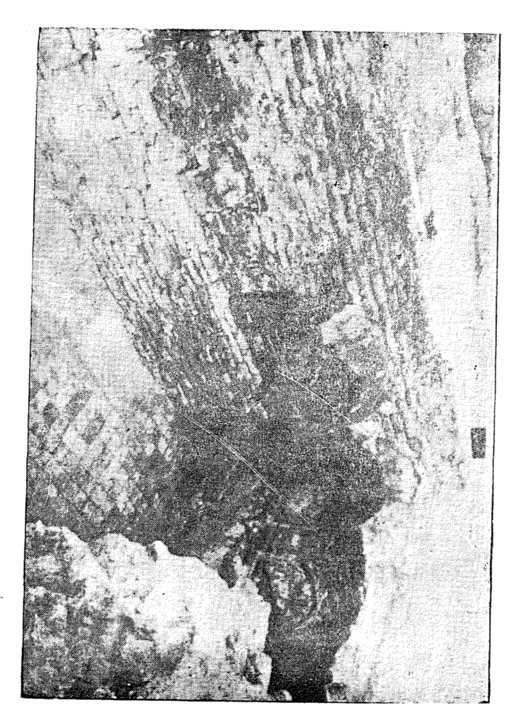
منظر عام لموضع دار الإمارة بالكوفة قبل الحفائر

لوحة رقم ٢ ـ دار الإمارة فى الكوفة



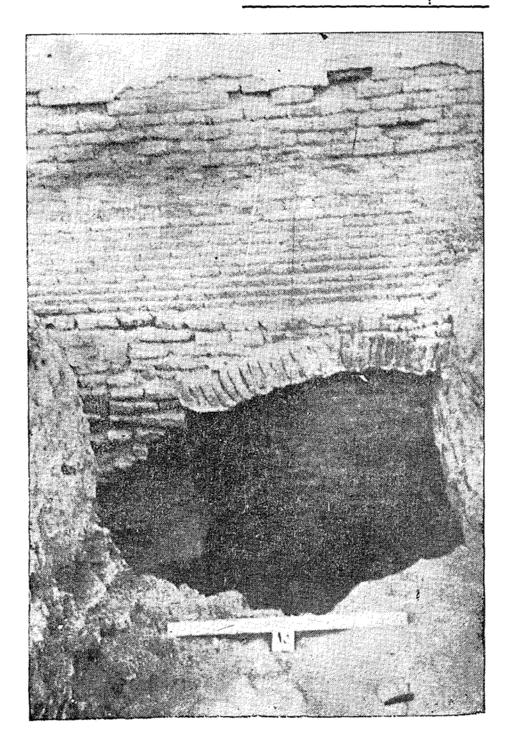
منظر عام لحفائر دار الإمارة بالكوفة ويشاهد فيه طريقة تتبع الجدران (من مبتكرات المدرسة العراقية فى أصول التنقيب) .

لوحة رقم ٣ — دار الإمارة في الكوفة



محل اتصال السور الخارجى لدار الإمارة بالضلع القبلى لمسجد الكوفة عن طريق باب مفتوح يؤدى إلى المسجد

لوحة رقم ٤ — دار الإمارة فى الكوفة



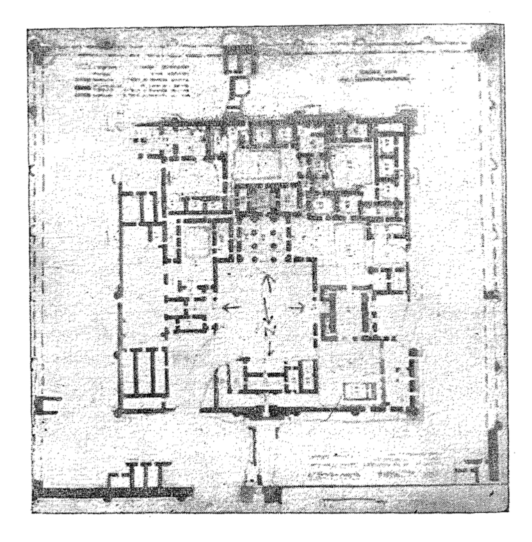
المدخل المؤدى لمسجد الكوفة فى دار الإمارة ، وقد وجد مغلوقا بكسر من الآجر .

لوحة رقم ٥ ـ دار الإمارة فى الكوفة



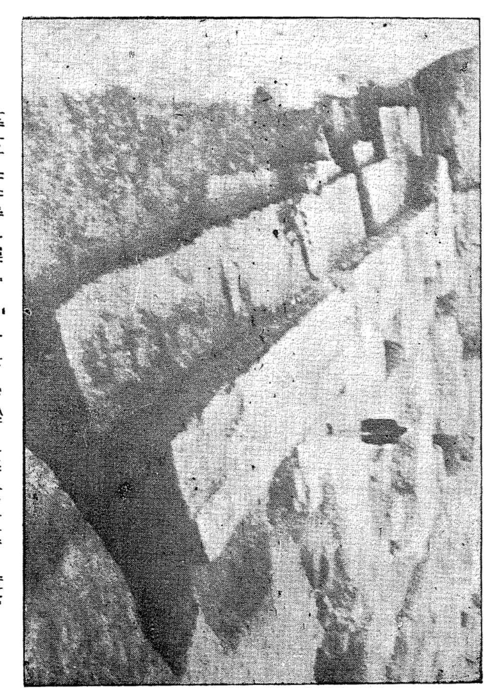
مجموعة من الغرف لصق الجدار القبلى لمسجد الكوفة كما كشفت عنها الحفائر ، والجدار المشار إليه بالعلامة (←) هو سور دار الإمارة وعلى اتصاله بالجدار القبلى لمسجد الكوفة

لوحة رقم ٦٤ ــ دار الإمارة فى الكوفة



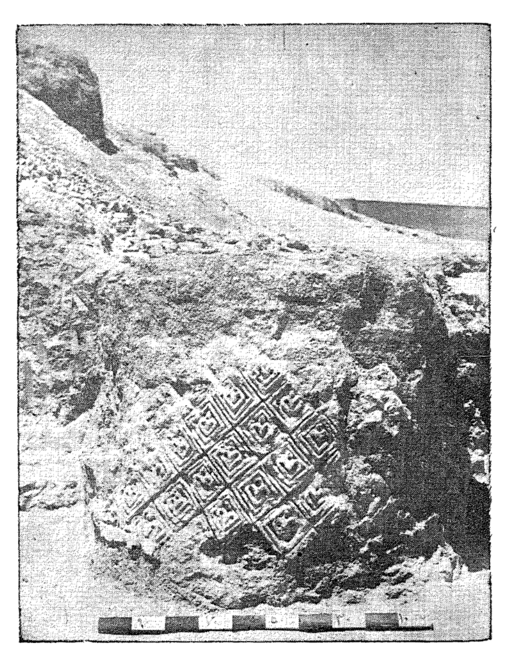
مخطط عام لدار الإمارة بالكوفة كما كشفت عنه الحفائر

لوحة رقم ٧ — دار الإمارة فى الكوفة



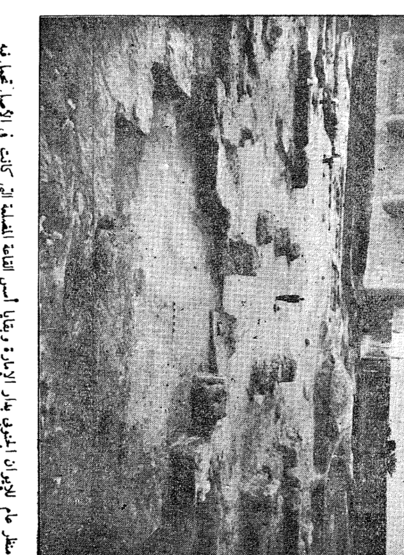
بقايا السور الداخلى لدار الإمارة بالكوفة ويشاهد لصق وجهة بطاقة لمنع التسلل إلى داخل الدار

لوحة رقم ٨ ــ دار الإمارة فى الكوفة



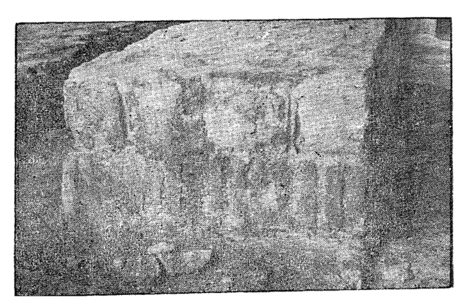
زخارف جصية محفورة حفرا غائرا من العهد الأموى وجد على إحدى أعمدة الإيوان الشرقى لدار الإمارة ، والزخارف تشبه عقد القاعة (٣٥) المكتشفة فى قصر الحير الغربى ، ويقدم زخارف الجص المعثور عليها فى العراق

لوحة رقم ٩ – دار الإمارة فى الكوفة



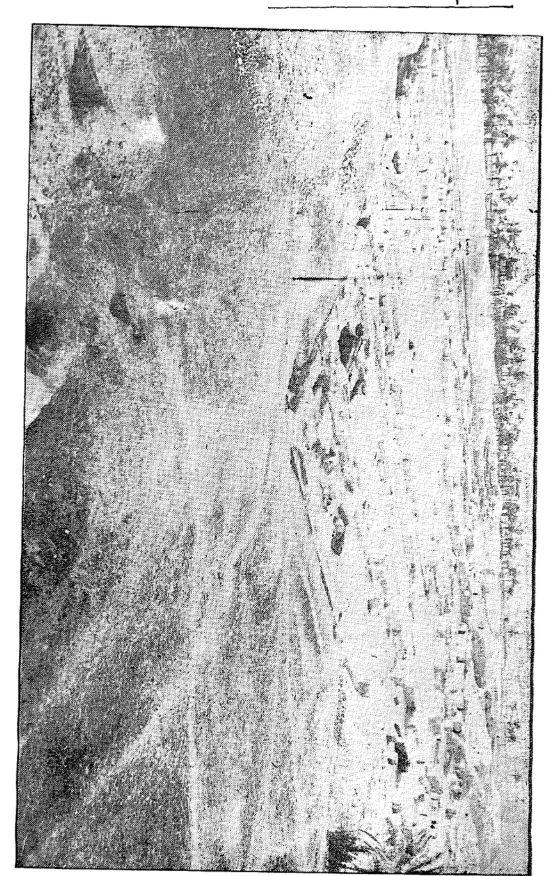
منظر عام للإيوان الجنوبى بدار الإمارة وبقايا أسس القاعة المضلعة التى كانت فى الأصل تعمل فيه

لوحة رقم ١٠ ـ دار الإمارة فى الكوفة



نموذج لرصف الآجر عموديا صفا يقطع صفا آخر أفقيا ،
يكشف هذا النظام من البناء لأول وهلة فن العمارة الإسلامية ،
وهو جزء من القاعة (٥٥) بدار الإمارة بالكوفة

لوحة رقم ١١ – دار الإمارة فى الكوفة



منظر عام للدار الإمارة بالكوفة بعد الحفائر

الحفريات فى تل الغسيل

للدكتور ديمترى براميكى

لقد حدثتكم فى المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية الذى عقد فى فاس فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ عن الحفريات التى قامت بها الجامعة الأمريكية فى بيروت فى موقع تل الغسيل وأوجزت لكم ما قمنا به من اكتشافات ذات بال منذ ابتداء الحفريات فى سنة ١٩٥٦ إلى منتهى سنة ١٩٥٩ . وأود فى كلمتى هـــذه أن أوجز لكم عما جرى من مكتشفات منذ ذلك الحين إلى هذا الوقت .

أولا لقد انتهينا من حفر الهرو الكبير الذى ظهرت معالمه فى أواخر سنة ١٩٥٩ وكشفنا عن البلاط المرصوف فى قعره (لوحة ١) . والهرو اهليلجى الشكل ذو قطرين متفاوتين يبلغ طول أحدهما ٦,٦٠ مترا وطول الآخر ٥,٦٠ مترا . وعمقه الحالى يبلغ ٤,٥٠ أمتار إلا أن قسما من طرفه الأعلى قد تهدم مع الزمن وربما جاوز عمقه الأصلى الخمسة أمتار . وظهر من الحفريات أن الهرو يعود إنشاؤه إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد أى فى مستهل العصر الحديدى ، إلا أنه طمر وانطمست معالمه قبل القرن التاسع قبل الميلاد . والجدير بالذكر أننا عثرنا فى داخله على كمية كبيرة من الرماد يبلغ سمكها أكثر من مترين ، ووجدنا تحت الرماد قطعا من الخزف ترتقى إلى ما بين القرن الثانى عشر والقرن العاشر قبل الميلاد مما يشير إلى أن المدينة المعاصرة لبناء الهرو دمرت فى أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن التاسع قبل الميلاد وربما كان ذلك على أيدى شلمنصر الثالث فى إحدى حملاته على

الدولة الآرامية فى دمشق كما أسلفنا فى حديثنا السابق . وتشير الأدلة على أن المدينة التى قامت بعد ذلك أنشئت على مستوى أعلى من المدينة السابقة فطمست آثار الأخيرة بالمرة وأغفل الهرو تماما .

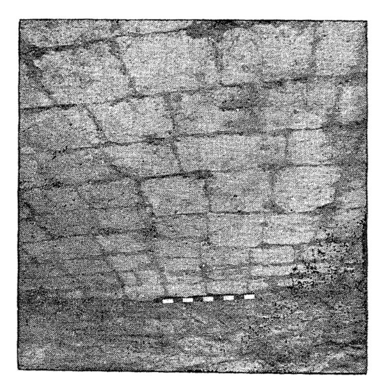
واستأنفنا الحفر فى منطقة المعبد فأزلنا جدران الطبقة الأثرية الثانية من المعبد (لوحة ١) ورفعنا الأنقاض عن الطبقة الثالثة ، فتوصلنا إلى تحديد مخطط المعبد فى هذه الطبقة الأثرية ووجدنا أنه أصغر حجما من المعبد فى الطبقة الأثرية الثانية الذى حدثتكم عنه سابقا . فبعد القيام بإعداد المخطط للمعبد الثالث فى هذه الطبقة وأخذ الصور الضوئية لحفظ سجل كامل لمزاياه القديمة (لوحة ٢) ، أزيل هذا المعبد بدوره فوجدنا تحته بقايا معبد آخر أكبر منه حجما . وأساسات هذا المعبد الرابع أقيمت تماما تحت أساسات المعبد السابق فى الجهتين الشرقية والغربية ، إلا أنه فى الجانب الشمالى من المعبد كان حائط المعبد الرابع قسما منه فقط تحت أساسات المعبد الثالث والقسم الآخر ما زال بارزاً إلى الداخل . وفى الجهة الجنوبية كان المعبد الرابع يمتد بضعة أمتار إلى الجنوب (لوحة ٣) ، ولذلك كان أطول من المعبد الثالث بكثير ولم نعثر تحت المعبد الرابع إلا على أبنية حقيرة ولم نجد أثراً لأى معبد آخر تحت أنقاض المعبد الرابع كما كنا نتوقع وكما هى العادة المألوفة فى المواقع الأثرية القديمة ولذلك خيبت المكتشفات آمالنا .

وقمنا منذ سنة ١٩٦٠ بحفر بقعة من الأرض تقع إلى الشمال الغربى من المعبد وعثرنا فيها على بناء مكون من عدة غرف وأواوين (لوحة ٤) ، ووجدنا ضمن أنقاضه أوان من الخزف يرجع عهدها إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، وبعد إعداد سجل بمحتوياته ومخطط لجدرانه وصور ضوئية لجميع أركانه أزيل البناء فوجدنا تحت أساساته مباشرة جراراً وأوان خزفية عديدة ترتقى إلى ما قبل القرن الثامن قبل الميلاد . وتوصلنا بعد مدة وجيزة إلى العثور على جدران وأساسات غرف أخرى أقدم منه . ومن أهم

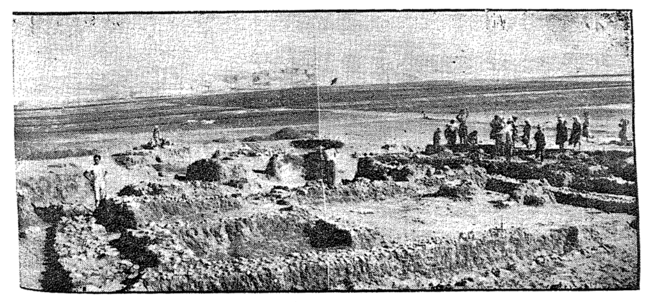
مزايا هذه الأبنية البلاط الحجرى فيها (لوحة ٥) . وباستئناف الحفريات عثرنا على بقايا أبنية أخرى على عمق مترين ونصف من سطح الأرض . وهذه الأبنية قائمة على أساسات من الحجارة ولكن جدرانها كانت مبنية من اللبن (لوحة ٤) كالتى عثرنا عليها فى الطبقة الرابعة فى السنين السابقة فى أماكن أخرى من التل .

سنواصل الحفريات فى السنين القادمة ونوافيكم بنتائج أبحاثنا فى فرصة أخرى إن شاء الله .

لوحة رقم ١ – الحفريات فى تل الغسيل

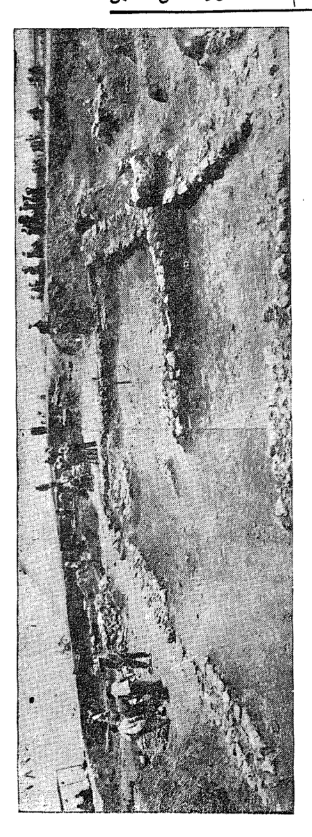


بلاط الهرو الكبير المصنوع ن مااللبن



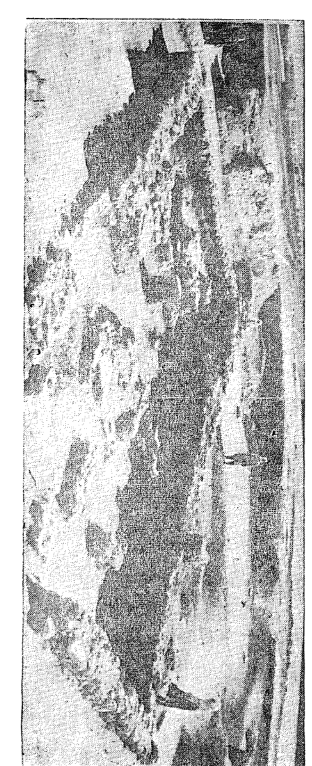
معبد الطبقة الثانية وبجواره أساسات المعبد الثالث

لوحة رقم ٢ — حفريات تل الخسيل



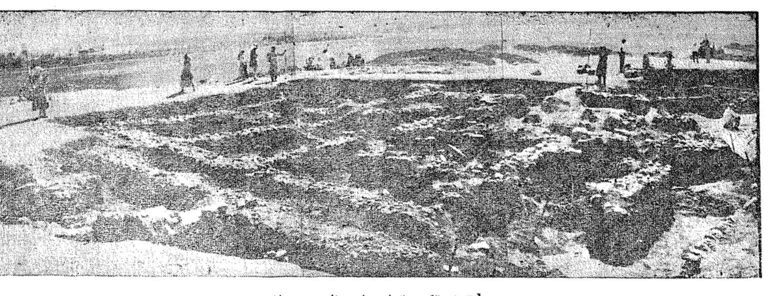
المعبد الثالث وقسم من المعبد الرابع

لوحة رقم ٣ – حفريات تل الغسيل

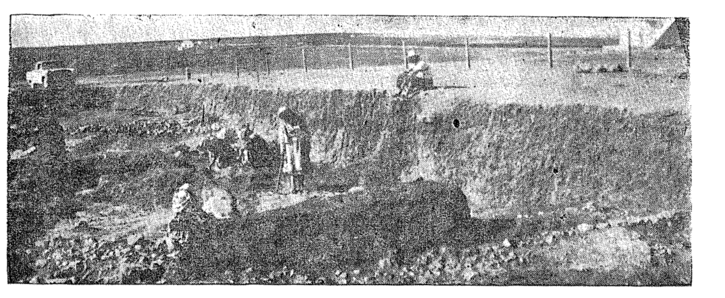


المعبد الرابع بعد إزالة بقايا المعبد الثالث

لوحة رقم ٤ — حفريات تل الغسيل

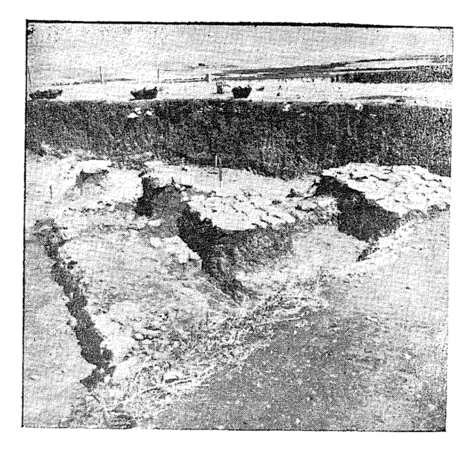


البناء الكبير الواقع إلى شمال غرب المعبد



أساسات وحيطان من الطبقة الرابعة

لوحة رقم ٥ – حفريات تل الغسيل



نموذج من البلاط فى الطبقة الثالثة

بالرم كأنك تراها

للأستاذ عثمان الكعاك

من الطائرة :

حلقت الطائرة فوق خليج تونس الجميل فى هذا الصباح الربيعى المشمس اللموع العطر .

حلقت تزركشها أشعة الشمس الذهبية تخترق الجو الصافى كطائر خرافى عملاقى وتسبح بين ديباج السماء الأسمانجونى ، وسندس البحر الأزرق المطرز بفضة حبب الأمواج وذهب أشعة الشمس .

حلقت الطائرة بين رأس سيدى على المكى ، ورأس آدار وهضاب ضاحية العاصمة التونسية وبحيراتها وبساتينها ومصائفها .

هذه نهاية رأس آدار ، وهذه جزيرة الجامور الكبير ، وهذه . . . . لانهاية من السماء والماء .

لحظات فقط ، لإلقاء نظرة خاطفة على الصحيفة الإيطالية ، وتناول قهوة لذيذة قدمتها مضيفة الهواء .

لحظات فقط . . . ثم البر من جديد يلوح أمامنا ، غير بين أولا كأنه دكنة سحاب فوق الماء ، ثم تتجلى ملامحه ، فكأنه ثعبان مائى خرافى هائل ، أو حوت قيطسى نائم تقدم إليه الأمواج تسابيحها وتلثم جنباته فى حب وتقديس . ثم هو البر بحروثه الحمر ، ومروجه المرصعة بالزهور وكرومه الخضر ، وزياتينه الدكن ومنازله البيض الناصعة وسقوفه القرميدية القرفورية .

هضاب وجبال وأطواد .

أودية وسهول رملية ذهبية .

وشواطئ صخرية عالية ملتوية مشرفة مضرسة وحشية .

وسفن منبثة فى الماء كجزر صغيرة أو مجموعة مهاد ترقصها الأمواج بلطف .

هذه هى أوائل صقلية .

الجزيرة التى فتحها الفينيقيون فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

وتحاربوا من أجلها مع اليونان أولا ، والرومان ثانياً .

واستولى عليها الرومان بالإغارة . حتى أخرجه منها الونداليون فى القرن الخامس بعد الميلاد .

ثم فتحها العرب سنة ٢١٢ هـ .

ومن محاسن الصدف أن طائرتنا تحلق الآن فوق مدينة مازرة :

المدينة الأولى التى فتحها القاضى الغازى أسد بن الفرات .

تبدو المدينة من أعلى الطائرة رابضة فى حضن الهضاب الخضر تحيط بها أهلة من الخلجان . وهى بيضاء ناصعة .

وفى الشرق منها على بعد ٥ ك م فقط المكان المسمى رأس البلاط الذى نزل فيه أسد بن الفرات عندما خرج من مدينة سوسة بتونس فاتجه إليها بالأسطول الأغلبي الكبير .

ونحن نتبين من الطائرة باب المدينة العربى الذى دخل منه أسد بن الفرات . ونتبين . . . لكن سرعة الطائرة لا تسمح لنا بالتبسط :

هذه مدينة مرسى على المعروفة الآن بمارسالا والمشهورة بكرومها

ونحورها . وآثارها العربية التى منها الجامع والمرسى وما احتواه متحفها الغنى من نفائس عربية ونفائس من حضارة الإسلام .

انظر من نافذة الطائرة إلى الأسفل ، ترّ جزيرة صغيرة إلى جانب مرسى على ، تلك هى جزيرة « معقية » الفينيقية ، مدينة فينيقية كاملة بمرساها ومعابدها ومنازلها وطرقها وساحاتها وحماماتها وسط رياض أثرية يتوسطها متحف هو أغنى المتاحف المحتوية على الآثار الفينيقية فى الدنيا .

وأخذت الطائرة ترتفع . لأن السهول تحولت إلى هضاب ، والهضاب إلى جبال ، والجبال إلى أطواد .

فتغير المنظر ، أطواد شهب ودكن قد تعممت بالسحب البيض والزرق والسود ، وظلت قممها بغالية من الثلوج الملتصقة المؤتلقة ، وتسربت بينها السحب .

وهذه فى الأسفل مدينة اطرابنش (ترابنى) العربية . انظر تر مدينة بيضاء بشكل منجل . وهذا وجه تسميتها فى القديم « ترابانس » أى المنجل بلغة اليونان .

يعلوها جبال آرتشه هذا الذى نسبح فوقه والذى نرى فى قيمته هذا الرباط الذى بناه العرب .

ثم جبال وجبال . كأن صقلية قد خشيت الغزوات — وهى بلاد الغزوات — فأحاطت نفسها بسلسلة من الجبال العالية لاتنفصم عراها .

إذن ! فقد أحسن أسد بن الفرات عندما نزل بالناحية الجنوبية التى فيها بعض السهول .

فكرت فى هذا ونظرت إلى النور الأحمر المعلم بقرب النزول :

ثم حولت نظرى إلى الأسفل فإذا أنا فوق مدينة كبرى لا تنتهى ، واقعة فى حضن سلسلة من الجبال على خليج ، ويحرسها جبلان عاليان جبل بلكين غربا ، وجبل العروس شرقا .

تلك هى مدينة بالرم ٥

بالرم المدينة التى أسسها الفينيقيون فى القرن الثانى عشر ق . م محرسا لممتلكاتهم بصقلية وبعامة الجزر المنبثة فى الجهة الوسطى من البحر المتوسط ، وسوقا لبضائعهم الشرقية والغربية ومحطا لأسطولهم الذى كان يومئذ سيد الأساطيل ، ومرحلة أساسية بين الحوض الشرقى والحوض الغربى من البحر المتوسط ، وخط صلة بين أوروبا وإفريقيا ومركزاً جوهريا فى منتصف المحور بيروت — قرطبة ٥

هذه هى بالرم :

بالرم عاصمة صقلية العربية التى دام حكم العرب فيها ما يقارب خمسة قرون ٥

بالرم عاصمة الحضارة العربية طوال هذه المدة وفى هذه الرقعة .

بالرم التى هى الآن متحف كبير حى شامل لهذه الحضارة المدهشة :

بالرم التى كانت مركز التوزيع لهذه الحضارة بأوروبا ومقفزة انتقال علوم العرب وآدابهم وفنونهم وصناعاتهم وفلاحاتهم وعاداتهم وأساليبهم فى السلوك والملبس والمشرب والمسكن وعامة مظاهر حياتهم الراقية . فتحولت من صقلية إلى أوربا :

كأن ربان المركبة الهوائية أراد أن نلقى بنظرة شاملة على هذه المدينة الحضرية قبل أن ننزل فنجوس خلال شوارعها ونتفرج على معالمها ونرى كنوز متاحفها ، ونستمع إلى أحاديث أهلها ونطالع نفائس المخطوطات العربية المحفوظة فى ديار كتبها .

ها هى المدينة تحتنا قد تجمعت حول نفسها حتى صرنا نستوعبها بنظرة واحدة :

هى مستطيلة الشكل فى صورة رباعية غير منتظمة . يحدها البحر من الشمال وسلاسل الجبال من بقية الجهات . وهى تنحدر رويداً رويداً

من الجبال إلى الهضاب ومن الهضاب إلى السهل ومن السهل إلى البحر حيث يدركها إعياء المسير فترابط.

وقد قطعها شارعان كبيران شارع رومة من الشرق إلى الغرب ، وشارع فيكتور عمنويل من الجنوب إلى الشمال . وفى مقتطع الطريقين تقع الكتدرائية الكبرى التى كانت الجامع الأعظم . وشارع فكتور عمنويل هو شارع السماط الأعظم فى العصر العربى الذى ينحدر من قصر ملوك بنى الحسين الكلبيين (البالاتزو ريالى — القصر الملوكى — الآن) فيمر بالجامع الأعظم ، ويحاذى فى اليمين الشرق ربض المقارية ، ثم ينحدر إلى ربض الخالصة ، ثم إلى المرسى البحرى المعروف إلى الآن بالقالة ، تحريفا لكلمة القلعة .

لم يتغير من ذلك شيء إلا وجود أبنية عصرية إلى جانب الأبنية العربية الجميلة الخالدة .

ومن حول ربضى المقارية والخالصة ترى بقايا من السور العربى وبعض الأبواب . وفى النهاية من جهة المشرق بين سور ربض المقرية والباب ومبادئ ضاحية المدينة يسيل نهر عباس المعروف الآن بنهر أوريطو أى الأوريط — وهو لفظ بربرى معناه « مساقط المياه » مثل الأوريط الواقع بتلمسان عاصمة الغرب الجزائرى الذى يسقى بساتينها الغناء والذى وصفه شاعرها ابن خميس فى بدائع شعره النفيس .

وفوق هذا النهر قد بنى الفاطميون جسرا ما زال موجودا صحيحا متينا جليلا رائعاً لطيفا يسمى الآن جسر الألف لأن زعيم الانقلاب الإيطالى قاريبالدى اخترقه على رأس ألف من جنوده البواسل .

تبدو لنا هذه التقاسيم والملامح والمعالم مصغرة كاملة كأننا ننظر فى خريطة مجسمة كبيرة المقياس .

وحول هذه المدينة وأرباضها القريبة وأسوارها وجسرها تقع لاكونكوادورو — أى سلة الذهب — وهى منطقة بساتين فيحاء وحدائق غناء كلها نارنج وليمون ويوسف افندى وأشجار مثمرة وزهور فواحة ومنازل أنيقة ومروج خضر مرصعة بأصباغ الأزاهر وأشكالها .

هذه بالرم من حالق الطائرة ، فلننزل .

وفعلا أخذت الطائرة فى النزول . رويدا رويداً تحليقة إثر تحليقة ، وتعريجة بعد تعريجة وميلة على هذا الجناح ثم ميلة على ذاك الجناح ثم تنكيس بالأنف متجه توا إلى الأرض ، ثم استمرار من جديد ، ثم ميلة . وكل تحليقة تزيدها قربا من الأرض . وتزيد المشاهد اتساعا ووضوحا . حتى لمست عجلات الطائرة الأرض بخفة ولباقة ولطف كما تمس الكرة المطاطة أديم الأرض . فتحولت من سابحة فى الجو ، حوامة فى الفضاء إلى سبّاقة على جادة المطار . تسرع جدا كأنها منقلقة خائفة . ثم تطمئن وتزول مخاوفها ، فتنقص من سرعة السير . ثم تباطأت ثم تثاقلت ، ثم جمدت مكانها ترتعش ارتعاشا وتلهث لهثا من بلوغ النهاية فى الجهد .

خلال سلة الذهب :

أخذت السيارة تلتهم الطريق . تجرى مباشرة ، وتلتوى وفق التواءات الطريق ، وتئز مهزاتها أزيزاً عند الإجهاد ، وتصعد هذه الهضبة ، وتنحدر فى ذلك الوادى ، بين بساتين تتلوها بساتين ، ومغارس زياتين تعقبها مغارس زياتين ، وحدائق تين إثرها حدائق تين .

وهذا طبيعى إذ صقلية هى بلاد التين والزيتون بالأصالة . فقد قال علماء الاشتقاق أن اسمها تركيب مزجى من صق بمعنى التين يبليه بمعنى الزيتون مثلما تشهد به جذور هذا الاشتقاق اليونانى . حتى ذهب بعض

علماء التفسير من أهلها أن الآية الكريمة « والتين والزيتون » إنما تقصد إياها .

ومعظم سلة الذهب مركبة من مجموعات غير متناهية من حدائق النارنج والليمون .

ها هنا ترى زهورها البيضاء اللؤلؤية عقودا وأسماطا فواحة قد تعلقت بفروع الأغصان .

وهناك تراها نشيرة من الجواهر قد انتثرت عقودها تحت ظلال الأشجار .

ثم هى تتحول إلى أكر صغيرة من زمرد قد اندست بين الأوراق .

ثم تراها فيما بعد أكرا كبيرة من ذهب قد تدلت من الأغصان عسجدية وفرفورية وأرجوانية كأنها فوانيس القراطيس المؤتلقة فى مهرجان نوروز .

والطريق فواحة عطرة مما تفوح فى الجو من أزهار الليمون وعبير النارنج الشذى . زرقة سماء وماء وخضرة مروج وأشجار مقببة وأوراق مصعفقة ، وذهبية ثمار ولؤلؤية زهور وموسيقى حفيف أوراق وهدير أمواج وأهازيج طيور وعطر نارنج وقرنفل وورد مبكر وعطرشاه وفرنفل وطرنجان . وساقية إثر ساقية وشلال صغير عقب شلال صغير ، ومياه تترقرق فى السواق وتطش طشا فى البرك وتشرشر من الأنابيب فيجيبها هديل الورق فى الورق ولحون الحسون على الغصون ، ووروروة الوروار على الأشجار ، ونيم النحل المستثار .

قصور العرب :

(أ) قصر بنى الحسين الكلبيين :

هذا القصر واقع فى أعلى المدينة : فى المكان الذى كان يعرف منها بالقصبة . والقصبة لفظ مغربى يعنى به قصر السلطان ودواوين حكومته وثكنات جنده ، وجامعه ، والمقبرة السلطانية وأسوار التحصين والقلاع ، ولا تكون القصبة إلا فى أعلى المدينة مثل قصبة تونس ، وقصبة الجزائر وقصبة الوداية برباط الفتح :

فقصر بنى الحسين هو قصبة بالرم ومركز الحكومة الحسينية الكلبية العربية .

سور جميل مرتفع مزخرف : وبابان كبيران منمقان منحوتان تدخل منهما صلب المدينة إن كنت فى الأرباض . والقصبة والقصر والثكنات واقعة فى هذا الجانب من السور الذى يحيط بهما بين البابين :

وأمام السور والقصر من الداخل بستان كبير ظليل عطر فواح أبق شيق جميل .

تصعد إليه فى مدرج فخم جليل يمتد على طوال الواجهة ، مزين بالتماثيل .

وتجد داخله باحة كبرى وحولها أساطين من رخام أقواس عربية وفى الوسط فوارة من رخام يتصاعد منها الماء كأنه أنابيب من فضة تنتشر فى أعلى تقويسها فتتحول إلى جواهر لألاءة متساقطة .

وأجمل ما فى هذا القصر الرائع سقف جامع السلطان الذى تحول إلى خلوة نصرانية كان يتعبد فيها ملوك النرمان من النصارى ومن أتى بعدهم من أمراء البلد .

والسقف (لا كابيلا بالاتينا) عبارة عن صناديق من الخشب المخرم والمنمق المكسو بالمصطكى المذهبة فيه مربعات ومستطيلات ومعينات وسطها صور لأنواع الصناعين وأفاريز منقوشة بالخط الكوفى المغربى الرائع . وكله من صنع الفنانين الصنهاجيين الصقليين . وهو أبدع سقف مغربى معروف إلى الآن ومحفوظ أحسن حفظ .

(ب) قصر العزيزة :

انتهينا من زيارة خاصة لقصر الأمراء الحسينيين وملوك النرمان ؛ ونريد الآن أن نتفرج على بقية القصور العربية النرمانية الموجودة ببالرم . فلنتوجه إلى قصر العزيزة ؛ أو العزيزية . منسوباً إلى أحد الأمراء أو القصر العزيز لما احتوى عليه من بهاء وجمال ؛

هو على مقربة منا . لنخرج من باب المدينة المحاذى لقصر الأمراء ؛ ولنتجه يميناً فى مجموعة أزقة ملتوية وبناءات قديمة وحديثة بينها خان جميل يرجع إلى العصر العربى .

ها هوذا جدار القصر.

لندخل إذن .

بستان كبير فيه بحيرات وفوارات وبقية أشجار ؛ وحنية ذات أقواس يجرى عليها الماء المبخر من الجبال البعيدة ؛ وبناية كبرى مربعة عالية ذات طبقات ثلاثة .

هذا هو قصر العزيزة .

بناه ملوك بنى الحسين وجدده غليوم الأول النرمانى ؛

نصعد بأدراج إلى القاعة الكبرى ؛

وهى قاعة مستطيلة مكسوة بالزليج المغربى (القاشانى) ذى البريق

المعدنى ، يرتفع إلى نصف الجدار . وأما النصف الأعلى فنقش عربى فى الجص . وكتابات كوفية جميلة منقوشة على الرخام نقشاً بارزاً . وفى الصدر إيوان أى دخلة مربعة تعلوها قبة . وجدرانها مكسوة بالفسيفساء تصور طواويس بألوانها الطبيعية تشرب من إناء مصور من الفسيفساء فى صدر الإيوان . وينحدر من الإيوان أنابيب مختلفة مندرجة فى الجدار تؤول إلى فوارة فى وسط القاعة تنتهى منها إلى فوارة أكبر منها فى بطحاء البستان .

كم من شاعر تلا شعره اللطيف على مسامع الأمير الجالس على صدر الإيوان ؟

وكم من مغنية قد وقعت على العود وأنشدت بصوت بلورى رخيم أناشيدها هنا .

وكم من عالم قد تجادل مع عالم فى هذه القاعة .

كأن الجدران تردد الأشعار والأغانى ، وكأنها أشرطة صوتية قد سجلت جدال الفيلسوف ابن سبعين وبيات الجغرافى الشريف الإدريسى !

وفى الطاقين العاليين غرف لطيفة كبيرة أنيقة وشرفات رائعة المعمار تشرف منها على البستان والبحيرات والفوارات ومدينة بالرم .

(ج) قصر القبة :

قصر القبة واقع فى الأصل وسط بستان كبير قد انبثت فيه بحيرات نزهة حولها السرو وعرائش الياسمين والورد وحواشى القرنفل والعطرشاه والبنفسج ، يسبح فى مياهه النائمة الصقلية الشفافة الأوز العراقى فى جلالة وبهاء .

لكن هذا الإطار الرائع قد حول إلى ثكنات فبقى القصر قائما فى الوسط مجردا من إطاره البديع وهو بناية مربعة عالية كثيرة الطبقات والشرفات جليلة المبنى لطيفة المعمار توحى بالعظمة والهيبة تشرف من حالق على المدينة ، وتحطم بارتفاعها ما حولها من مبان وتتحدى السحاب وتناطحه ، وتأخذ مكانها من

قلب الجو ولم تشب وقد شاب الدهر وتراهن الزمان أن يقضى على شبابها الدائم .

وقد بنى هذا القصر من فصوص من الحجر الأصفر المائل إلى الحمرة المشتهر فى المعمار المغربى . وأخرجت منه أخاديد بارزة تتدرج بينها أقواس مهموزة لطيفة منقوشة مخرمة من نفس الحجر فكأنها عقود جواهر فى جيد غادة ذات جمال باهر .

هذا القصر جدده غليوم الثانى الملك النرمانى . وقد كان قبل قصراً عربياً . والذين جددوه لغليوم إنما هم صناعون ومعماريون من عرب صقلية . وقد زار هذا القصر فى القرن الخامس الهجرى بعض قساوسة تطيلة بالأندلس فاندهش لمارأى فيه من روعة وشاهده فى رياضه وبساتينه وبحيراته وفواراته من جلال وجمال .

(د) قصر القبيبة :

على مسافة قليلة من قصر القبة يوجد قصر القبيبة .

وهذا القصر شبيه جداً بهذه القصور التى نجدها بضواحى تونس فى منوبة ولاباردو ورادس وحمام الأنف وسيدى أبى سعيد والمرسى وقمرت وأريانة . بستان كبير من النارنج والليم والليمون ، وزهور وبحيرات وفوارات وقباب منبثة وسط البستان هى كشكات للجلوس نسميها « مقاعد » وتسمى بالأندلس « أيونا » .

تدخل القبيبة فتجد بستاناً كبيراً قد اصطفت فيها سموط النارنج والليمون وقد انبثت رياض الكلأ والزهور . وقد قامت النواعير على الآبار وإلى جانبها الجوابى والبرك تنصرف منها السواقى تسمع خرير مائها وأغانى الحسون على ضفافها .

وقد قام القصر فى الوسط ثلاثى الطبقات فيه شرفات كثيرة . وأمامه فوارة لطيفة رائعة ، ينطلق منها ممشى من السرو على سماطيه حاشيتان

من الزهور والمعرشات . وفى منتصف الطريق قبيبة لطيفة جداً قامت على أربع عمد ، وفيها أربعة فتحات . قد اتخذت من فصوص الحجر ومن اللبن الذى رصف ترصيفاً هندسياً بارزاً غائراً تتألف منه زخارف عجيبة .

وحيثما اتجه نظرك لا ترى إلا خضرة زمردية وزهوراً مختلفة ألوانها تتفوح منها عطور لطيفة العبير منوعة الشذا .

سكون لا يحركه إلا رقص الغصون الملد ، وتلويح الأغصان المياسة وهتاف الأوراق وطيران العصافير المغردة وتموج الزهور والأعشاب وجريان الماء المرقرق فى السواقى .

واحة سكون وسط غوغاء المدينة ، وميدان فسحة النظر إلى بعيد الآفاق وسط آفاق المدينة التى تحجبها الجدران القريبة العالية .

هذا أيضاً قصر عربى آخر قد بقى لنا محفوظاً من جملة قصور وبساتين قد اندثرت وقضى عليها الدهر .

(هـ) قصر الفوارة :

ويسميه أهل صقلية « الفوارة » أو « البحر الحلو : مارى ــ دولتشى » .

وهو واقع فى المنطقة الشرقية من مدينة بالرم فى نهاية ربض الخالصة .

حارة شعبية ، متهدمة ، معوجة ، ملتوية ، وفجأة قصر وبستان وأطراف حوض مردوم . فالقصر هو قصر الفوارة . لا تزال غرفه وقاعاته وبعض كسوه من الزليج (القاشانى) ، ويتبين من جدرانه أنها من صنف القصور الأخرى أى أنها من فصوص الحجر الأصفر والأحمر المعروف بالنشقة ، ونسميه فى تونس « الحرش » وهو الذى بنيت به قرطاجنة ، جلبه عبيد الله المهدى من صقلية ليبنى به المهدية عاصمته . وهو قابل للنقش والزخرف ، دائم الجدة على وجه الدهر فيه طبقات لونية من الصفرة الداهشة إلى الحمرة القانية . فمن تنسيق ألوانه وترصيع

نقوشه وبروزه وغؤوره تتألف زخارف وتناميق لا نهاية لها .

شيد هذا القصر الأمير جعفر الحسينى الكلبى فى القرن الخامس . وأراد الجمع بين البحرين الحلو والمالح . فجعل القصر كله وسط بحيرة وهو قائم فى تربة كالجزيرة فيها . وقد مدحه شعراء صقلية من العرب . وهو قصر « الجعفرية » المشهرة . ويسمى المكان إلى الآن « البيرة » تحريفاً لكلمة « البحيرة » .

وغرف القصر كبيرة وأنيقة وفيهـــا بقايا من الفخار الفاطمى والزليج المغربى .

وحول القصر بستان جميل فيه سموط من النارنج والليمون وصنوف من الأشجار المثمرة .

القيلولة فى خان ابن جبير :

على مقربة من قصر الفوارة يوجد خان عربى قديم كثير الطبقات ، فسيح الباحة ، جميل السقيف بديع العقود والأعمدة المرمرية التى تحيط بصحنه خان على النمط المغربى الذى نسميه فندقاً .

ومن اليسير أن نعيد الحياة إلى هذا الخان بالقياس إلى نظرائه التى نشاهدها إلى اليوم بالديار المغربية . على جانبى المدخل الرئيسى مطاعم شعبية يتناول فيها – أو منها – نزلاء الخان طعامهم . وفى السقيف دكان برادعى لإصلاح أجهزة الخيول والعربات أو بيعها . ودكان شهودعدول « مأذونين » لإبرام عقود البيع والإيجار التى طالما تقع بالخان . ودكان بيطار لعلاج الدواب وتنعيلها ، وحانوت الفرانق وهو الذى يتولى البريد وإرسال البضائع ومرافقتها وقبولها . وفى صحن الفندق مستودع للعربات واسطبل للدواب ومخازن للعلف والبضائع وأسراب من الحمام والدجاج والإوز والبط . وفى

الطبقات الفوقانية غرف للمسافرين وأرباب المتاجر والرهادرة وهم الذين ينتقلون من قطر إلى قطر للبيع والشراء .

هذا هو الخان الموجود بربض الخالصة قرب قصر الفوارة من مدينة بالرم عاصمة صقلية .

وقد اشتهر عند العارفين من أهل بالرم بالنقل صاغرا عن كابر أن هذا الخان هو الذى نزل به الرحالة ابن جبير عندما أقام ببالرم .

وعلى مقربة منه كنيسة عربية المعمار تسمى سان جوفانى دللى لبروزى أى (القديس يوحنا صاحب المجذومين) كانت قبل جامعا تدل عليه عقودها وأعمدتها وبقية محرابها . ويقولون بالنقل المتواتر إن هذا هو الجامع الذى كان يصلى فيه ابن جبير ويلقى بعض الدروس . وكما يقول المثل الإيطالى « إن لم يكن ذلك حقا فهو على كل حال طريف » (Si non è vero è bene trovato).

عشية على الجسر الفاطمى

فى آخر هذا الخريف كانت العشية ربيعية . الشمس شديدة الحرارة ، وأشعتها تلدغ الجلد كالإبر وتؤذى العيون من قوة نورها . والطريق غبراء ، كلما مرت سيارة أو عربة إلا دفعت وراءها غيما خفيفا ذهبيا من الغبار ينفذ إلى الحلق فيثير السعال . فى هذه الأمسية اللطيفة تمشيت نحو الجسر الفاطمى بين أواخر المنازل وأوائل البساتين .

ها هو ذا نهر عباس ، أو نهر أوريطو ، واد عريض فياض إذا تهاطلت الأمطار ، وسيل خفيف منساب فى الأعماق بين الأعشاب التى تغطى ذراعيه إذا تبخرت المياه فى الفصل الحار .

والجسر قد امتد على هذا النهر العريض فى شكل ظهر حمار وغاصت أرجله فى أعماقه وطوقته عقوده حنية فحنية ومرت عليه طريقه الفسيحة

فى جسارة وغير مبالاة . فمهما كانت المياه المتدفقة تهدر وتغضب وتزخر وتهيج وتموج وتبرق وترعد وترغد وتزبد فالجسر ساخر فى جلالته ضاحك فى عتوه .

وفى مدخل الجسر من الجانبين برجان يمنة ويسرة كانت بينهما شبكة للحراسة . وفى كل برج عدد من الخفير .

جلست إلى جانب هذا الجسر الفاطمى الوحيد الموجود فى الدنيا — على ما أعلم — أنظر إلى السماء من فوق وإلى المياه المترقرقة فى الوادى من تحتى وإلى المدينة وأستمع إلى دوى العجلات وقرقعة العربات وأزيز السيارات وتبويق الحافلات ودوى الجماهير وأحيانا أهازيج العصافير ونقيق الضفادع فى قرارة مياه الوادى ؛

كم من سكون فى باطن هذا الوادى وكم من أسرار يخفيها وكم من أخبار لو شاء يرويها .

كم من هجوم على هذا الجسر . . . وكم من دفاع ! وكم من شاعر تغنى بخرير المياه وهديل الحمام وهزيج الحسون .

وكم من شاعر وصف عيون الكواعب المارة على الجسر ، وقدودهن الرشيقة ، وشعورهن السوداء الفاحمة كجناح غراب .

وكم من مغن قد غنى بأحلامه ، وأنشد آلامه وحكى غرامه وبكى هيامه فوق هذا الجسر .

وكم من قاص قد جلس إلى جانب الجسر فاستوقف المارة . فحلقوا حوله وقص عليهم الأخبار وروى الملاحم والمغامرات وأنشد الأشعار .

وكم رأى هذا الجسر من غزوات : الفاطميون والصنهاجيون والنرمان والصوابيون والكاتلان والأسبان والفرنسيون ، وثوار غاريبالدى فتمر مياهه ، وتغسل دماء الحروب وتمسح دموع الأرامل واليتامى والجرحى والمنكوبين وترفع معها إلى خضم البحر أخبار القرن فتمسى من أسرار الدهر .

سان جوفانى دللى ارميتى :

لعل أجمل معلم عربى ببالرم هو سان جوفانى دللى أرميتى (القديس يوحنا صاحب النساك) جامع ، ومدرسة وقصر وبستان .

ونخيل ونارنج وزهور وقباب ومنائر وعقود وأعمدة .

وظل وشمس وبرود وحرارة وصعود وانحدار وانبساط .

مجمع السواحين والمصورين والرسامين والشعراء والعشاق والمؤرخين والأثريين .

ومتحف آثار العرب وخلاصة معمارهم وقصورهم ودورهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم ومعابدهم وعقائدهم وصناعاتهم وعبقريتهم ومدافن عظمائهم كل هذا فى رقعة صغيرة من الأرض .

هى قريبة من قصر الأمراء فى أعالى بالرم وفى أول ربض المقاربة ، تحت البستان الذى أمام القصر . حولها مجموعة أزقة ملتوية ضيقة ومنعرجة تغطيها سوابيط وعارية تنطلق من جدرانها شرفات ونوافذ خراخة حديدها مسبوك بشكل الزلابية .

إذا مشيت بها فى الليل استمعت إلى وقع قدميك ترن فى صمت الظلام على أحجار الطريق تئز وتئن وتصرصر وتصرف وتقرقع وتردد الجدران والأقبية والقباب أصديتها .

وأنت تخشى فى كل دقيقة أن ينقض عليك دحى من ظلمة ساباط أو من منعرج زقاق غير نافذ . تموء القطط فوق المزابل وتتصارخ فترتعد فرائصك ، وتنفخ الريح فتغلق نافذة بعنف فتهتز وأنت مكانك .

وتنتقل من ظلمة الساباط الحالك إلى فرجة بين ساباطين ترى منها دفعة

من السماء مرصعة بالنجوم المتألقة يتوسطها هلال من عسجد يحصى من شهب الدجى أنجما .

وإذا مررت بالنهار انتقلت من نصف ظلمة الساباط إلى نور الشمس الساطع فى العتم العادى من الرقاق وبان لك سان جوفانى واحة نخيل ونارنج وحناء وموز تتوسطها القباب والمنائر .

النخيل عالية رشيقة القوام تنتهى بقبة من الجريد كالمروحة الفخمة أو المظلة الفاخرة لها انفتاح ذيل الطاووس وصبغات ألوانه الزاهية المنمقة المرصعة .

وبين النخلة والنخلة قبة بيضاء وحمراء ؛

وبين القبة والقبة منارة مربعة عالية جليلة بيضاء وحمراء ؛

وفى الوسط بين سموط النارنج والليمون وأوراق الموز الكبيرة المنتفضة ترى المدرسة أقبية فوق أعمدة حول باحة فيها فوارات مرقرقة وزهور مضوعة وعرائش مظللة .

تتصور فى يسر – ضمن هذا الإطار الشعرى والعلمى أساتذة جالسين على كراسيهم وقد حلق حولهم الطلبة يستمعون إليهم ويقيدون عنهم ويقابلون فيما بعد ما قيدوا ؛

وتتصوروا فى يسر عيشة طلبة العلم فى هذا الإطار . هذا جالس إلى جانب عمود تحت معرش ورد يطالع ويراجع ويذاكر . وذلك فى المكتبة وقد جلس على السجاد وأمامه محمل الكتاب وهو يقرأ وينسخ ويشرح ويعلق ويراجع فى المعاجم . وآخر قد فرغ من دروسه واقترب من ساقية الصهريج يغسل ثيابه ، ورابع قد وضع قدراً على كانون يعد عشاءه . وخامس قد كشف رأسه وشمر كميه وهو يتوضأ من دلو ملأها من البئر .

وهنالك قطة طويلة الذيل عالية على قوائمها صفراء بيضاء سوداء . قد أقعت هى أيضاً وأخذت تتوضأ ثم جثمت على أربع وضمت ذيلها إلى جنبها . ثم نشزت أذنيها وقفزت قفزة واحدة تطارد فراشة ترفرف من زهرة إلى زهرة .

ثم هى بالأخارة آوت إلى خميلة ياسمين امتدت تحتها على جنبها وماءت مواء خفيفاً طويلا لامدلول له إلا أن العادة جرت به ليس إلا . ثم تناومت وأخذت تهر هريراً راضية عن نفسها .

والجامع قائم إلى جنب المدرسة . غرفة كبيرة قائمة على أعمدة من رخام من الصنف الصنهاجى وأعمدتها تحمل عوداً صالحاً من القباب .

لنتصور هذا الجامع الجميل مفروشاً بالحصروقد جلس فى هذه البلاطة ابن القطاع السعدى يقرئ كتاب الأفعال ، وجلس فى تلك البلاطة ابن ظفر الصقلى يسرد كتابه « أنباء نجباء الأبناء » ويشرح غريبه وبديعه . وجلس فى بلاطة ثالثة أبو بكر الصقلى يقرئ المدونة لسمنوت مع شروح البرادعى ونوادر ابن أبى زيد القيروانى .

وجلس فى بلاطة أخرى الشريف الإدريسى وأمامه كرة أرضية وخريطة جغرافية وكتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وهو يلقى بيانات فى كروية الأرض وخطوط الطول وخطوط العرض ويشرح جغرافية البلاد الإيطالية .

ساحة بلليني :

نحن فى فندق الشمس على جادة فكتورعمانوئيل التى تصعد عمودياً على شارع رومة وترتفع رويداً رويداً إلى قصر الأمراء .

أمام الفندق دروج .

فلنصعد !

فجأة نجد أنفسنا فى ميدان مرتفع تتوسطه فوارة كبرى ، حوض مستدير

كبير يكاد يملأ الميدان فيه خيول من رخام بقدودها الطبيعية تحمل قصاعاً من مرمر كبرى فصغيرة فأصغر تتدفق المياه فيها من أعلى فتفيض من القصاع فى شكل شلالات صغرى شفافة لؤلؤية بلورية لموعة ملتصقة . وحولها الحمام يعب الماء ويتطاير ويتواثب ويهدل ويطوس ويدور حول نفسه فى سجود وركوع وتنهمر من فم الخيول أنابيب من ماء تنصب فى الحوض فى رقرقة وشرشرة وهدير وخرير وطش ورش .

والبطحاء مملوءة بالحمام الأبيض والرمادى والأحمر والأزرق والأسود عيونه يواقيت حمراء قد رقص فوق القباب وتماشى على السطوح وجثم على أعمدة الكهرباء ووضع أرجله على حافات القصاع وتبختر على أديم الميدان يختال أو يتسابق أو يلتقط ما نثر عليه من حب أو يهدل أو يطوس كل ذلك جميعاً فى الآن الواحد من آلاف الحمامات . حركة وذهاب وإياب ودوران وطيران ونزول وصعود وتطاير ورفرفة وتحليق وتدويم . . . . وسكون !

وفى آخر هذه البطحاء الجميلة الأخاذة التى جمعت قصيداً شعرياً من الألوان والأشكال والعطور والحركات والمواقف ، يوجد — من الطرف الآخر — مدرج ثان ينحدر منه إلى ميدان بللينى .

فنحن فى ميدانين متقابلين بالرأس .

وميدان بللينى فسيح ، مستطيل مشمس ظليل وطىء ورفيع فى الآن الواحد .

على اليمين بطحاء الفوارة والحمام والخيول فى ارتفاع .

وعلى اليسار ، فى ارتفاع ثان ، جامعان عربيان قديمان جليلان لطيفان جميلان . هما — على حسب تسمية اليوم عند أهل البلد — جامع مارتورانا وجامع كاتالدا ، وقد حولا — طبعاً — إلى كنيستين .

وفى الصدر — أمامك — جامعة بالرم ودار الكتب الوطنية .

وخلفك مجموعة مقاه قد انتشرت كراسيها وانبسطت أسطارها وزجاجياتها .

وعلى الأرض قد مدت الشمس طرفاً من برنسها المذهب ، مدت الظلال جناحاً منتفثاً بروداً لطيفا عطراً بما تضوع فيه من أزهار البساتين حول الجامعين ومن أوانى الزهور المنبثة فى المقاهى وفى دكاكين باعة الزهور .

جو لطيف جداً . إيمان وقدسيات ، وعلم وأدب وفنون منبثقة من الجامعة ، ومطالعة وأنس كتب واستفادة ثقافية رفيعة منطلقة من دار الكتب ، ومناظر شعرية طبيعية وصناعية ومتفارقات شمس وظل وإصحاء وسحب ومياه وجفاف وصعود وحدور ومبان حديثة ومبان عتيقة ، فالجلوس فى أحد هذه المقاهى إنما هو متعة للنظر ورياضة للعقل وبهجة للنفس وراحة للقلب .

بناء جامع المارتورانا على أكمل نمط منهاجى . الجدران والقباب مصنوعة من حجر النشفة الأبيض والأصفر والأحمر مرصوف أروع رصف هندسى فى تعاقب واختلاف ، وغؤور وبروز ، واستواء وتشريف . وداخل الكنيسة — أو الجامع — أعمدة صنهاجية أعاليها مزخرفة بالخواتم المنقوشة المشجرة والمورقة وخلودها فيها تربيعات ضمنها آيات قرآنية كريمة مكتوبة بأروع خط كوفى مزهر . والمحراب لا يزال موجوداً خلف المذبح ولا تزال الأبواب من خشب الساج أو الجوز المخرم والمنمق على أسلوب المقصورة الخشبية بجامع القيروان ، أو هو من نمط منبر ذلك الجامع نفسه الذى اجتمعت فيه جميع الأشكال الهندسية من خطوط مستقيمة ومنحنية ومثلثات ومربعات ومعينات ومخمسات ومسدسات ومن زخارف نباتية عرائش وعناقيد ورمان وعراجين .

والسقف عربى محض تحف من أعلى الجدار زليج صنهاجى بين . كما نشاهد ذلك من خارج الكنيسة أيضاً .

وإلى جانب المارتورانا يوجد جامع كاتالدا وهو محول أيضا إلى كنيسة وليس بينهما إلا بستان صغير جدا لا يتجاز بضعة الأمتار .

وفى القسم الخلفى من المارتورانا توجد بقايا عناصر الجامع من الأعمدة والزليج والنقوش الكوفية وأوانى النحاس العربية الموشقة : مجموعة غالية الثمن يعسر أن توجد فى غير هذا المكان .

أما الكاتالدا فهى على نمط المارتورانا من باب لا فرق .

لقد اعتدت أن أجلس فى مقهى من مقاهى بطحاء بلليني وأن أقضى الساعات المتوالية أتمتع بجمال المعمار العربى فى المارتورنا والكاتالدا وأتشف قهوتى غمجة غمجة أجمع بين متعة العين ومتعة الطعم ومتعة التاريخ والذكريات إلى ما لا نهاية له .

فعسى أن يحظى غيرى بهذه النشوة البريئة الرفيعة الشاملة .

زيارة للجامع الأعظم :

الجامع الأعظم بالأمس ، هو الكنيسة الكاتدرائية اليوم : إذا نظرت إليه عجبت من جمال مجموعه ومن تناسق أعمدته وروعة زخارفه وجلالة مآذنه الأربع .

يستلفت نظرك أولا هذه الأعمدة التى تقوم عليها أقواس المدخل العربية . أعمدة صنهاجية منقوشة فيها آيات قرآنية .

ومنائر أربع لا تختلف من حيث ثروة زخارفها عن مأذنة الجامع الكبير بإشبيلية المعروفة بالجيرالدا وداخل الجامع نقش عربى وفسيفساء عربية وسقوف مذهبة مرصعة على النمط العربى ، والأعمدة دائما قد نقشت فيها الآيات الكريمة .

وهذا الجامع ككل أعظم إسلامى واقع فى الوسط الهندسى من المدينة .

وقد كانت حوله الأسواق حسب اتصالها المباشر بوظائف الجامع . فسوق الشماعين ليقتني منه المصلون الشموع التي يستضيؤون في الصلوات الليلية أو التي يسرجونها في الجامع نفسه . وسوق العطارين يشترون منها العطور التي يتضمخون بها حسب ما وردت به السنة ، وسوق الطيبين التي يشترون منها الطيب الذي يبخرونه مثل الند والعود والقماري والوشق وغيرها . وسوق الوراقين التي يشترون منها الكتب التي تدرس بالجامع حيث أن الجامع هو كلية للعلوم الإسلامية الآلية والأصلية ، وسوق العدول (المأذونين) حيث أن عقود الزواج والبيع والإيجار إنما تقع في الجامع . وهلم جرا على هذا القياس .

ولعلنا نكون موفقين لو أردنا أن نتصور حياة هـــذه الأسواق التي اضمحلت أن نقيسها على ما نشاهده من جموع ذاهبة آتية قد اختلفت سحناتها الجبلية والبحرية والحضرية والقروية والبدوية ، وتعودت ألبستها حسب الجهة وتنوعت ألوانها وزخارفها وقيافاتها جهة جهة وعنصرا عنصرا . واختلفت لهجاتها العربية والإيطالية واليونانية والصقلبية .

نمر في نصف ظلمة السوق التي هي سوابيط في أعاليها كوى تنحدر منها أعمدة من أشعة الشمس ترقص خلالها ذرات الهيام . فتطرز تلك الأشعة ظلمة الأرض وتدنرها وتدرهمها وتجعل أشخاص المارة تارة أشباحا في ظلمة وتارة أعيانا في نور كممثل على خشبة المسرح يروح ويغدو يتابعه مصباح المخرج فتارة يتركها في ظلمة وتارة يكسوه بثوب من نور .

ولقد تزينت الدكاكين بالشموع المزخرفة والأواني المذهلة والمنقوشة والكتب المجلدة بالتجليد المغربي الرائع .

قصيد من حركات وأشكال وألوان وأنغام ومتحف حي للأزياء والسحنات البشرية وارتجاعات الآدميين

فى حارة الخالصة :

تنقسم بالرم إلى « المدينة » وإلى الربض الأعلى وهو ربض المقارية ، والربض الأسفل وهو ربض الخالصة .

كما تنقسم تونس العاصمة إلى « المدينة » والربض الأعلى أو ربض باب الجزيرة ، والربض الأسفل أو ربض باب السويقة .

وكذلك أن القيروان تنقسم إلى « المدينة » وربض النبابذة أو درب النبابذة ، وربض المقارية أو البقارية .

ولا يزال ربض المقارية إلى الآن ببالرم والقيروان على السواء وهو منسوب إلى قبيلة مقرة البربرية التى منها أحمد المقرى الجزائرى صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض .

فكأنما بالرم امتداد لتونس والقيروان فيما وراء البحار :

نحن الآن فى شارع رومة شارع عصرى فسيح مديد سامى الأبنية أنيق المعمار كثير الطيفان ، عمائر وبازرات ودكاكين رفيعة وواجهات بديعة مملوءة بآخر الأزياء وآنق المنتوجات .

سيارات كصفوف النمل لا تنتهى . وحافلات إثر حافلات ، وازدحام ما بعده ازدحام وأرتال كهربائية مثقلة طاغية زاحفة تئز أزيزاً وتقرقع قرقعة وترعد إرعاد القرن العشرين :

ثم دروج بسيطة متواضعة بين عمارة بنك وكنيسة من نمط غير أصيل :

تنحدر من الدروج ، وفجأة تنتقل من القرن العشرين إلى القرن الثانى عشر . تطفر طفرة خلال ثمانية قرون تجتازها فى لمحة البرق بعد نزولك درجات أقل من عدها .

أسواق عربية ، وأزقة ضيقة ملتوية منعرجة متداخلة نافذة وغير نافذة .
وبناءات قديمة هرمة شيباء منحنية الظهر كثيرة الطبقات عديمة الشمس وفيرة الرطوبة متعددة الشرفات قد امتد بينها الغسيل معلقاً فى قصبات معترضة ذاهبة من هذه الشرفة إلى تلك كأنها مجموعة أعلام عالمية بيضاء وصفراء وحمراء وخضراء وزرقاء وسوداء ناصعة وقاتمة وموحدة ومختلطة تميس فى تيار الهواء الجارف كمجموعة الأعلام فى شريط السفين .

ودكاكين ثم دكاكين ، مظلمة من الداخل ومنتشرة من الخارج قد استولت نصباتها على نصف الطريق واستولى المشترون على النصف الثانى وبقى على المارة أن ينسلوا ويتدافعوا بالكتف ويجادلوا بما حضر من ألفاظ السوقة ، وبقى على عربات الحمل اليدوية أو التى تجرها حمير صقلية ضخام أو بغال قزمة أن تقف وأن يتولى أصحابها نشر قواميسهم المخبوءة لمثل هذه المناسبات اليومية فيتراشقون بألفاظها مع المشترين وأرباب الدكاكين بما حضر هؤلاء من ألفاظ مثيلات لها أو أشد منها . ويتحول المار الثانى إلى متفرج والمار الثالث إلى محتج والمار الرابع إلى حكم وتمتلئ الشرفات وأبواب المنازل بكل عجوز شمطاء وشيخ هرم وطفل صغير وقط متشوف وكلب متطلع إلى أن يفتح الله بالفرج بصورة سحرية مباغتة هى سر من أسرار حكمته فى خلقه .

وتنتهى هنا ، لتعيد نفسها « فى طبعة ثانية » بعد عشرة أمتار ، وهكذا دواليك على طول اليوم والأسبوع والشهر والعام والدهر .

قد امتدت نصبات الباعة على نصف الطريق ، أهرام مكومة ، هرم أصفر من السفرجل ، وهرم أخضر من الليمون وهرم أحمر من البرتقال وهرم أوجوانى من الطماطم وهرم زبرجدى من الفلفل وهرم بنى من القسطل وهرم أسود من العنب ، وهرم أبيض من البصل وهرم بنى من البطاطس .

وقطة قد أقعت تحت النصبة تحدق بالنظر فى صغارها التى تتجاذب بينها

كبة خيط أو تقفز من الهواء لتتلقف ذبابة عابرة ، أو تختطف زنبورا يحول فوق عناقيد العنب .

وفى الشرفات الضيقة مجموعة متراصة من حقق الطماطم المفرغة التى حلت محلها منابت الخيرى والعطرشاه والقرنفل والقطمير .

وأمام المنازل ، فى مدخل السقيف قد جلست عجوز شمطاء وضعت نظارات على عينها تريد أن تأخذ حريتها فى النزول من أنفها أثر كل امتخاط أو تنكيس للرسال وتريد عجوزنا أن تستبقيها على أنفها المنحرف فى توازن غير قار . وفى حضن العجوز قطة صغيرة تعبث بأزرار صدارها وأمامها كلب ينوى الشر للقطة ويخشى مخالبها الحادة .

ومجموعة لا تنتهى من الأطفال والبنات فى جميع الأسنان التى يمكن تصورها .

وعجوزنا فى اشتغال بالتشبيك أو الترقيع وتجاذب أطراف الحديث مع زميلة لها فى السقيفة المجاورة وحراسة للأطفال ورقابة شديدة على القطة والكلب مخافة أن تتحول الحرب الباردة أو حرب الأمواج التى هى هرير ومواء إلى حرب عوان .

هنا كنيسة كبرى . كانت فى القديم جامعاً (الجامع الأعظم بربض الخالصة) ولا تزال أعمدتها محلاة بالآيات القرآنية الكريمة ، ولا تزال أقواسها أقواساً عربية . ولا يزال محرابها قائماً .

وإلى جانبها سوق « لاتاريني قراندى » أى العطارين الكبار . وعندنا بتونس العطارين الكبار والعطارين الصغار . ولاتاريني هكذا تسمى إلى الآن وهكذا هى مكتوبة فى عنوان السوق من عمل المجلس البلدى . والدكاكين كدكاكيننا . مزينة الواجهة بالشموع التى كسيت بورق الذهب والفضة والألوان مشرفاً تشريفاً وملتوياً حولها التواء هليلجيا وقد انحدرت من

السقف طويلة ومتوسطة وقصيرة فى سماطين فتألفت منها قوس من أروع ما يكون .

وعلى الرفوف فى داخل الدكان قنينات وزجاجات طويلة ورقيقة ، أو قصيرة وسمينة ، وكبيرة وصغيرة مذهبة ومرصعة مملوءة بعطور الورد والياسمين والعطرشاه والقرنفل . وحقق من عظم أو عاج أوخشت ملوكب محشوة بالزبد والعنبر والمسك وغالية الياسمين أوالورد .

وقد تضوعت منها هذه الروائح العنيفة أو اللطيفة التى تدغدغ الأنف وتبهج النفس وتوحى بعطر العرس وجو الزفاف وبيئة المسجد والزاوية وترجعك بالذاكرة الشمية إلى أسواق العطارين ببغداد وقرطبة ودمشق والقاهرة وتونس والقيروان وسوسة وصفاقس .

وإلى جانب « لاتارينى » سوق الوراقين ، وسوق « العدول » وسوق الصوف فكأنك تتجول خلال مدينة تونس .

وهذه سوق الغرابلية . إلى جانب العطارين كما أن « الغرابلية » بتونس هى قرب العطارين أيضاً .

فأين الغرابيـــل يا ترى ؟ . . . عشرات الحوانيت وليس فيها غربال واحد .

ذلك أننا فى موسم « عيد الأموات » أو عيد « كل القديسين » وهو عاشوراء الأفرنج . وفى عاشورائنا يتحول الغرابلية إلى صناع طبول ودفوف عليه صور على عليه السلام وصور الأسد الفاطمى ، وقد كان الأمر كذلك منذ عهد الفاطميين حتى انتقل إلى صقلية . فزالت هذه الظاهرة من تونس وبقيت بصقلية بصورة مستفيضة .

وحول الكنيسة أطفال وكهول يبيعون « الكبيتى » وهى الجلجلانية عندنا بالمغرب ، والسمسمية بالمغرب ، تباع غالبا حول الجوامع والزوايا .

كما تباع بالرم حول الأديرة والكنائس . ويسميها ابن سيده فى « المخصص » القبيطى وهى سمسم مخلوط بعسل . فضاع اللفظ العربى عندنا وبقى عند الصقليين متأصلا اسماً ومسمى وعادة منذ الفتح العربى .

هذه هى سوق السمك :

لا فرق بينها وبين « سوق الحوت » بتونس أو سوق السماكين بصفاقس .

نصبات وعربات يدوية قد ملأت البطحاء قد كومت عليها أو علقت فوقها أسماك بيضاء وشهباء وزرقاء وحمراء ، طويلة وقصيرة ، مدورة ومكوزة ومفلطحة ، صغيرة وكبيرة . أسماك وأخطبوط وسيبيه وتونيا سلات وأطباق وأخراج .

والباعة يصرخون بالمناداة ويمدون بأصواتهم ويحلونها بالغنة .

ونساء انكببن على الثلج يهرسنه ليضعنه على أطباق السمك حتى لا ينتن ويبقى محفوظاً للغد .

وفى الجانب الآخر من البطحاء مطاعم السماكين . مناضد مغطاة بالمشمعات فوقها الصحون والملاحات وزجاجات الخمر . ومقاعد من خشب . وبين الجدار والجدار أسلاك قد تدلت منها مصابيح كهربائية بيضاء وحمراء وخضراء ملاصقة . وجو مملوء بدخان القلى والشى والطهى ، قتار يدغدغ الأنوف ويعصر المعدة ويثير الشاهية . ورجال وأطفال يطلقون أغانيهم الصارفة الممدة المشيدة بمحاسن الأسماك وحسن طهيها وأنها اصطيدت فى مسائها وطيب طبخها طهاة ممتازون . وغضاريف أسماك قد تكدست على أديم الأرض وجثم حولها قطاط الدنيا بيض وسود ونمرية ورمادية وسحماء ، منكبة ومقعية وجاثمة وهائمة وخاطفة وهارة وصارخة ومنازعة ومخاصمة ومخمشة ووثابة ومنصرفة وغاضبة .

جو حلو لطيف ، بدائى وطريف خالد أبدى . وبنهاية سوق الحوت نصبات عاشوراء . مثل نصبات عاشوراء بتونس . أطباق التمر العسلى والجوز واللوز والفستق والنارنج والليمون والحلويات والملبس وأقراص الحلوى قد علقت ونصبت ودليت شرائط بأنواع من الزخرف وأنواع ألاعيب الصغار من طبول ودفوف ومزامير وبندقيات ودمى .

وباعة ينادون ويعرضون ويستوقفون ويمدحون وينوهون بجودة البضاعة ورخص الثمن .

ودمى من سكر ، وحيوانات من سكر مموهة بالأصباغ اللطيفة .

عاشوراء الخالدة .

عاشوراء الفاطمية .

على ضفتى البحر المتوسط حيثما ذهب الفاطميون .

على رصيف القالة :

القالة هى تحريف لكلمة القلعة ، بمعنى المرسى ، تحريف قد اشتهر فى هذه النواحى من البحر المتوسط حتى صار مستعملا عند العرب أنفسهم .

فقالة بالرم هى المرسى العربى القديم الذى أنشأه بها الأغالبة فى القرن الثالث . فنقروه فى الصخر وبنوا أرصفته بالحجر وجعلوه حوضاً مربعاً فسيح الأرجاء . أما مدخله فبوغاز قصير على حافتيه برجان كبيران للحراسة تنزل منهما شبكة فلا تستطيع سفينة الدخول إلا بالإذن أى لا تدخل إلا بعد تنزيل الشبكة .

وترى فى هذا الحوض جانباً متسعاً هو دار الصناعة فتشاهد سفناً مقلوبة والعملة مقبلون على إصلاح « القرينة » أى « جؤجؤ » السفينة وهو قالبها الذى يشبه السمك :

وترى سفينة أخرى فى حوض مجفف من الماء قد شيدت على أخشاب وهى لا تزال هيكلا دون تسمير اللوح عليها .

وآكام من الأخشاب والألواح والجذوع والسفن المحطمة أو التى هى فى الإصلاح أو الإنشاء .

هذه القالة تعطينا صورة حية مجسمة لما كانت عليه الموانى العربية فى هذا البحر ولما كانت عليه المياه البحرية العربية بمدينة بالرم طوال أربعة قرون ؛

فهل هذه السفن الشراعية المرسية ، هى الأسطول العربى الفاتح ؟ أم هى الأسطول النرمانى الغازى ؟ أم هى أسطول هجرة العرب إلى إفريقيا بعد خروج حكم الجزيرة من أيديهم ؟

علم الله !

المحاريب فى العمارة الدينية

بالمغرب الإســـلامى

للأستاذ سليمان مصطفى زبيس

إن للمحاريب فى العمارة الإسلامية دورا عظيما فى تاريخ الفن الزخرفى : ففى هذه الناحية المتوسطة من قبلة المساجد تتضافر الجهود لتحلية الهندام وبهرجة المظهر وتنميق الكساء وتدبيج الحُلّة .

وهكذا نرى البُناة يعنون بالمحاريب حتى لا تكون خالية من شىء ، ولو ضئيل جدا ، من التزويق يميزها عن بقية أجزاء المسجد عندما يتوخون بناء هذه على غاية البساطة لسبب من الأسباب كالاقتصاد فى الإنفاق .

وليس لنا هنا أن نذكر تاريخ المحاريب من عهد نشأتها ولا أن نتحدث عن تطورها . كما يخرج عن نطاق موضوعنا درس ما ظهر منها فى المشرق إلا بإشارة خفيفة إلى التى تُعيننا على إدراك القرابة بينها وبين المحاريب المغربية التى جعلناها مادة هذا البحث .

وبالمحاريب المغربية نعنى التونسية والجزائرية والمراكشية والأندلسية والصقلية وهو موضوع متسع جدا سوف نقتصر هنا على الإلماع إلى بعض الخصائص التى تبدو لنا طريفة تاركين إلى فرصة أخرى توفية الموضوع بما يحتاجه من التعمق فى الدرس والاستفاضة فى البيان والشرح كما نقتصر على محاريب الصلاة تاركين جانبا المحاريب الزخرفية الموجودة فى القصور وكذلك فى المساجد .

هذا وإننا على علم من أن أول مسجد بنى فى المغرب الإسلامى هو جامع عقبة فى القيروان (سنة ٢٥ هـ) ثم جامع الزيتونة فى تونس . وقد بنى المسلمون فى بقية أقطار المغرب الإسلامى جوامع أخرى فى ذلك العصر ولكنها زالت كلها ولا نعرف على أية صورة كانت . فإن أقدم المحاريب الذى وصلنا سالما هو محراب مسجد رباط المنستير (شكل ١) الراجع إلى سنة ١٨٠ هـ وهو على غاية البساطة يتألف من تجويفة نصف إسطوانية تعلوها نصف قبة تستقيم رجلاها فى سمت الواجهة على كبشين مرتكزين على عمودين تحملهما قاعدتان . وكل هذه العناصر تختلف نوعا وحجما وكيفية تنسيق فقد أخذت من الخرائب الرومانية واستُعملت لتوفى بالحاجة بدون مراعاة موجبات المناظرة الفنية وائتلاف العناصر وانسجامها . فالعمارة الإسلامية فى عصورها الأولى بالخصوص لم تكن تنشد من البنيان إلا قيامه بالوظيفة التى أعد من أجلها وماعدا ذلك إنما هو نافلة .

ويأتى بعد هذا المحراب محراب مسجد الرباط بسوسه ويرجع تاريخه إلى ما بين سنة ١٨٠ هـ . وسنة ٢٠٦ هـ .وهو لا يختلف كثيرا عن السابق من حيث المواد التى تؤلفه والتى جلبت من هنا ومن هناك بدون تبصر (شكل ٢) إنما نرى فيه محاولة فنية محتشمة وهى تغطية أقطاع الحجارة بأشرطة من المطاط مع ترصيف هـــذه الحجارة ترصيفا فنيا صار تحلية للمحراب . نضيف إلى ذلك ما فرِّغ من هذه الحجارة فى بعض المناطق على شكل هندسى قصد به الزخرفة .

ثم ننتظر إلى سنة ٢٢١ هـ . حتى نرى محرابا تَعمَّد منشئه تحليته بالزخرفة البديعة المعروفة . ذلك هو محراب جامع القيروان (شكل ٣) الذى صنع ــ حسب الظاهر على شكل أقواس النصر الرومانية (شكل ٤)

كما يلوح ذلك بالمقارنة بينه وبين قوس الإمبراطور طراجان فى مكثر وسائر الأقوس الرومانية التونسية المصنوعة على هذا النحو . فالمحراب مثل القواس قد جعل فى إطار خارجى يحده يمينا وشمالا عمودان ضخمان يرتفعان إلى جهاز أعلى يغلق الإطار من فوق وهو قوس مزخرف فى المحراب وكورنيش بالغ البروز فى قوس النصر ثم إن هناك إطار أصغر تندرج فيه فوهة الباب فى قوس النصر ويحده يمينا وشمالا أسطوانتان أصغر حجما من السابقتين ترتفعان إلى حد أعلى يتألف من جهاز زخرفى بالغ الأناقة ويقابل ذلك فى المحراب نفس العناصر مع فارق بسيط فالإسطوانتان الصغيرتان جعلتا لتحمل نصف قبة المحراب وجعل فوق هذا الأخير جهاز زخرفى أتقن صنعه إلى أبعد الحدود وأما تجويفة المحراب فقد كسيت بلوحات رخامية بديعة النقش وهذا الكسو لا نظير له فى جميع المحاريب التونسية والمغربية والأندلسية التى عرفناها إلى اليوم إلا محراب جامع الزيتونة الذى أزيل عنه هذا الكسو أوطُمس كما نبين ذلك فيما بعد .

وقد وجدنا ما يقارب هذا الكسو فى المحراب الموصلى الذى تفضل بعرض صورته علينا الأستاذ العلامة سعيد الديوه جى . وهو محراب مسجد بنات الحَسَن[1] . فلعل هذه الطريقة قد جاءتنا من العراق إما عن طريق عبيد الله بن الحبحاب منذ بداية القرن الثانى هـ . فانتشرت فى البلاد وصارت سُنَّةً حتى اتبعها الأغالبة عند بنائهم المسجدين العظيمين : جامع القيروان وجامع الزيتونة ولا غرابة فى ذلك فإن المشهور عن هذا الوالى الأموى الموصلى الأصل أنه جلب معه ألفين من عائلات الموصل إلى البلاد التونسية فأقرهما فيها . فلا يبعد أن

---

(١) هذا المحراب قد حفظ بمتحف الموصل والمحراب الذى كان فيه يرجع إلى القرن السابع هـ .

تكون هذه الحالية هى التى جاءت إلى ربوعنا بالطريقة المذكورة لكسو المحاريب كما لا يبعد أنها دخلت هذه الربوع فى مدة بنى العباس فى أيام أمرائهم الأغالبة ، كما يحمل على اعتقاد ذلك ما كُتب فوق محراب جامع الزيتونة أنه صُنع بأمر من الخليفة العباسى المستعين بالله فلا شك أنه توخى تجهيزه ببعض العناصر الفنية العراقية المألوفة عنده ومنها هذا الكسو بلوحات الرخام المنقوش .

وقد أتى محراب جامع الزيتونة فى هيكله ومحيطاته على نسق محراب جامع القيروان (شكل ٥) ويظهر ذلك جلياً لو نُزيل عنه الزيادات التى أضيفت إليه والتحويرات التى أدخلت عليه فى عصور مختلفة وكذلك لو يُرْجَع إليه ما طُمس فيه أو أزيل عنه . ويشتمل ذلك على الكسو الجديد بالجبس المنقوش على الطريقة الأندلسية وإبدال كل من إسطوانتى تجويفة المحراب باثنتين نحيفتين وذلك أيضاً على نسق المحاريب الأندلسية التى نراها اليوم فى القرويين بفاس وجامع الكتبيين فى مراكش . أما كسو محراب جامع الزيتونة بالألواح الرخامية فإن ذلك يبدو حقيقة لا نزاع فيها فإن بالمحراب ما زالت لوحة من بقية الجهاز الذى كان موجوداً عند بناء الجامع فإمّا أن يكون هذا الجهاز ما زال فى مكانه ويكفى لإبرازه إزالة المطاط الذى لُبِّس به فطمسه ، وإما أن يكون هذا الجهاز قد نُزع من مكانه فى وقت من الأوقات . ويجوز ذلك لأن بالمسجد لوحات من نمط لوحات جامع القيروان قد بنيت فى أماكن متعددة وكان الغرض من بنائها حفظها من التلاشى أكثر منه تحلية الجامع بالألواح الفنية لأنها بُعثرت هنا وهناك بدون انتظام ولا تنسيق وفى أماكن لا تمكن رؤية زخارفها ، فما هو المانع أن تكون هذه اللوحات هى التى كانت فى المحراب ؟ وعلى كل فإن النية معقودة على التحرى من هذا الأمر حتى تتبين الحقيقة وذلك بإزالة التلبيس الموجود

فى المحراب فإذا ما وجدنا تحته شيئاً لم يعد يخامرنا الشك بأن القطع المبعثرة هى ألواح المحراب الأولى .

وفى دار شعبان قرب مدينة نابل يوجد مرقب جميل سالم البنيان به محراب لطيف قد صنع على شاكلة محراب رباط المنستير ومحراب رباط سوسة ولكن الطرافة فيه أن نصف القبة التى تعلو التجويفة النصف إســطوانية قد صنعت على شكل محارة إشعاع أضلاعها من الداخل إلى الخارج على شكل الأكتاف المحارية التى تشاهد فى قباب القرن الثالث هـ . التونسية ، وليس لدينا كتابة تؤرخ لنا هذا المحراب ولكننا لا نحسبه — بموجب طريقة صنعه وبموجب وجوده فى رباط صغير تبدو عليه خاصيات الرباطات الأولى — بموجب ذلك لا نحسبة إلا راجعاً تاريخه إلى القرن الثالث هـ . وإلى هذه الفصيلة يمكن إرجاع محراب مسجد الدّز بالمنستير (شكل ٦) .

وبحلول الدولة الفاطمية فى هذه الديار فى نهاية القرن الثالث تغير شكل تجويفة المحراب تغيراً كبيراً وخرج الصانع نهائياً عن الطريقة المألوفة إلى طريقة سوف نراها تؤول إلى سُنَّة تقليدية لا حياد عنها إلى هذا اليوم وأقدم النماذج المثالية لمحاريب الفاطميين محراب جامع المهدية الذى بنى ما بين سنة ٣٠٣ وسنة ٣٠٨ هـ . (شكل ٧) وقد وصلنا هذا المحراب منقوصاً ذلك أنه طُمس وراء محراب جديد فلما نُزِع هذا الأخير بانَ الأول ولكن نصف قبته قد زال عنها حَرْجُها . وتبدو التجويفة النصف إسطوانية متألفة من محاريب نصف دائرية غائرة ضيقة جداً بالنسبة إلى علوها وتعلو كلاًّ من هذه المحاريب الفرعية محارات زخرفية . وقد زالت أيضاً الاسطوانتان اللتان كانتا تحملان نصف قبة المحراب الأصلى :

وفى مسجد الإشبيلى بتونس (شكل ٨ وشكل ٨ مكرر) محراب يرجع إلى القرن الرابع هـ . إذا ناظرنا صنعته بصنعة مماثلة تمام المماثلة نجدها فى قبة البهو من جامع الزيتونة المؤرخة بسنة ٣٨١ هـ . ويظهر فى هذا المحراب إطار مربع قد وضعت فيه قوس المحراب وهى طريقة تقليدية نشاهدها فى جميع المحاريب الأندلسية والمغربية والتونسية المتأثرة بذلك ونلاحظ أيضاً استعمال نوع لطيف من الفسيفساء الهندسية المصنوعة بالجرش وهى حجارة رملية وذلك بلونها الطبيعى أو ملونة بالمُغْرَة الحمراء أو بالغُنْج وهو السواد الذى يعلق بالقدور بعد وضعها على النار .

وإلى فصيلة محراب مسجد الإشبيلى يمكن إرجاع محراب مسجد شارع الخمسة فى تونس (شكل ٩) .

وأقرب المحاريب التونسية إلى محراب المهدية هو محراب مسجد السيدة بالمنستير (شكل ١٠) ومحراب الجامع الكبير بها (شكل ١١) مع إضافة عنصر جديد وهو « القمرة » المزخرفة الموجودة فى أعلى كل من المحاريب الفرعية وكسو نصف القبة التى تعلو التجويفة بمحارة إشعاع أضلاعها من الخارج إلى الداخل خلافاً لمحارات المعالم الأغلبية . وإلى فصيلة المحرابين السابقين يرجع محراب جامع سيدى عقبة فى الوطن الجزائرى قرب مدينة بسكرة (شكل ١٢) . والفصيلة يمكن تورخها فى النصف الأول من القرن الخامس هـ[1] . وأما محراب جامع سوسة (شكل ١٣) فقد صنع على منوال محراب جامع المهدية مع الاحتفاظ بالعناصر الهيكلية لجامع القيروان ويظهر أنه مما أمر بصنعه الأمير الصنهاجى المعز بن باديس قبل الزحفة الهلالية أواسط القرن الخامس هـ .

---

(١) يلاحظ أن المحارة فى هذا المحراب معكوسة الاتجاه بالنسبة إلى المحرابين السابقين .

ويشبه المحرابَ السابق محرابُ جامع القصر بتونس (شكل ١٤) مع إضافة محارة مشعة من الداخل إلى الخارج. ويبين الرسم اليدوى (شكل ١٤ مكرر) استمرار طريقة محراب جامع القيروان فى محاكاة قوس النصر. ويرجع تاريخ محراب جامع القصر الذى بناه الأمير أحمد بن خراسان إلى ما بين سنة ٥٠٠ و٥٢٠ هـ.

وفى مدينة صفاقس يوجد فى أحد أبراج السور مسجد صغير صُنع محرابه على نسق أحد المحاريب الزخرفية التى تكسى الواجهة الشرقية من جامع صفاقس حُلَّةً بهيجة فى منتهى الروعة (شكل ١٥) وهى تعتمد على أمور بسيطة وهى الإكثار من الناتئات والغائرات والإتيان بها متسلسلة متتابعة فى مساحة متسعة فإذا ما أشرقت الشمس عليها تلاعبَ فيها النور والظلام بصورة فاتنة. ويرجع جامع صفاقس إلى عصور متعددة تبتدئ من القرن الثالث هـ ؛ حيث كان الإنشاء الأول ، إلى نهاية القرن الخامس هـ. حيث انتهى من الزيادات فيه فنحن إذا اعتبرنا أن الواجهة الشرقية من الجامع قد زيدت فى هذه المرحلة الأخيرة فلا يبعد أن يكون محراب السور قد صنع فى ذلك العصر. وأما محراب جامع صفاقس فلا نعرف عنه شيئاً لأنه طُمس فى العصور الأخيرة ولكنه طُمس بحاجز مبنى غطاه فقط حسب الظاهر ونأمل أنه ما زال على حالته وسوف نزيل هذا الحاجز للتحقق من أمره.

ولنقدِّم الآن محرابين آخرين من القرن الخامس أولهما محراب مسجد التوبة بالمنستير ومحراب مسجد البقالين فى سوسة (شكل ١٦) وهما على غاية البساطة.

وفى جامع بلاد الحضر بتوزر فى الجنوب التونسى نرى المحراب مصنوعاً بصورة غريبة جداً عن الأساليب التونسية (شكل ١٧) فقد صنع محرابنا هذا على شاكلة المحاريب المغربية الأندلسية التى تعتمد على الكسو المطرد

بالجبس المنقوش ونغتنم هذه الفرصة لعرض المهم من المحاريب المراكشية والجزائرية : فهذا محراب جامع تلمسان المرابطي الراجع إلى بداية القرن السادس ﻫ (شكل ١٨) ، فمحراب جامع المهدى بن تومرت بتنمل المبنى أواسط القرن المذكور (شكل ١٩) فمحراب جامع الكتبيين بمراكش (شكل ٢٠) وجامع القصبة بها (شكل ٢١) وهما من نهاية القرن السادس ، ثم تأتى المحاريب المدينية وجلها من إنشاء أبى الحسن المدينى أو ابنه أبوعنان فى أواسط القرن الثامن فلا فرق بين المحاريب السابقة وهذه التى أنشئت بعد قرنين كما يظهر ذلك من الصور التالية : مسجد أبى الحسن فى تلمسان (شكل ٢٢) ومسجد أبى مدين الغوث فى قرية العُبَّاد قرت تلمسان (شكل ٢٣) ومسجد المدرسة البوعنانية بفاس (شكل ٢٤) . واستمر الأسلوب الأندلسى إلى مدة السعديين فى القرن الحادى عشر كما يشهد بذلك محراب مقبرتهم (شكل ٢٥) بل إن هذا الأسلوب لم يتغير إلى يوم الناس هذا .

ولنعد إلى محراب جامع توزر وقد استغربنا فيه دخول الأساليب المغربية الإسبانية ولكن الأمر سهل جداً إذا علمنا أن هذا المحراب مؤرخ بسنة ٥٩٠ ﻫ . وأن ذلك الوقت يطابق الفترة التى احتل فيها ابن غانية الجنوب التونسى وأن ابن غانية هذا أندلسى الأصل قد خرج من جزيرة ميورقة إلى تونس محاولا اغتصابها من الموحدين فلا شك أن ابن غانية هو الذى بنى محراب توزر على شكله الحالى فجاء به على نسق المحاريب الأندلسية .

وإذا استثنينا هذا المحراب الشاذ فإن جميع المحاريب التونسية التى ظهرت فيما بعد لم تخرج عن الشكل التقليدى المشترك بين محراب جامع القيروان وجامع المهدية وذلك حتى فى العصور التى كان فيها الذوق الأندلسى واسع الشيوع ففى العهد الحفصى كان الأمراء على تونس ممن سبقت لهم الرئاسة فى الأندلس ثم أقبلت إلينا معهم جاليات أندلسية من الصنف الممتاز بعد سقوط

بلنسية وإشبيليا فى يد النصارى ثم استمرت الهجرة إلينا بعد سقوط غرناطة ثم بعد الجــلاء الأخير الذى أعقب أمرَ الملك الإسبانى فيليب الثالث سنة ١٦٥٩م . حيث أقبل إلى هذه الربوع عشرات الآلاف من اللاجئين المسلمين الذين اندمجوا فى المجتمع التونسى اندماجاً كلياً أو أقاموا بإزائه محافظين على شخصيتهم . وعلى كلٍّ فإن جميع المحاريب التى صنعت طيلة تلك المدة وإن تأثرت بعض الشيء بالمؤثرات المغربية الأندلسية إلا أنها بقيت دوماً محتفظة بمظهرها التقليـــدى التونسى حسبما نشاهد ذلك من عرض الصور التالية .

هذا محراب جامع الموحدين بتونس أو جامع القصبة (شكل ٢٦) وقد بناه الأمير أبو زكريا الأكبر مؤسس الدولة الحفصية سنة ٦٣٣ هـ . وكانت لهذا الأمير ولاية فى الأندلس كما كان بلاطه بتونس مكتظاً بالمبرزين من رجال الأندلس كابن سعيد المغربى وإبراهيم الغسانى وابن أبى الحسين .

وهذا محراب سيدى يحيى فى تونس (شكل ٢٧) المؤرخ بأواسط القرن الثامن هـ . وهذا محراب سيدى قاسم الزليجى (شكل ٢٨) المبنى على رأس المائة العاشرة ، بناه مهاجر أندلسى أمَّ تونس بعد سقوط غرناطة .

وهذا محراب جامع يوسف داى بتونس وكتب على رخامة فى الصحن أن البانى له هو ابن غالب الأندلسى فى بداية القرن الحادى عشر هـ .

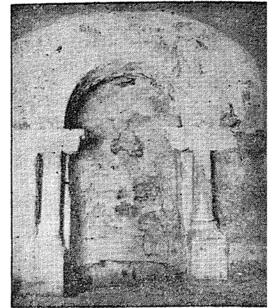
وهذا محراب جامع حمودة باشا المرادى (شكل ٢٩) ومحراب جامع محمد باى أمام زاوية سيدى محرز بتونس (شكل ٣٠) : وغيرها من المحاريب المصنوعة فى العهد التركى كثير ، والملاحظ فيها أنها صنعت بإذن الحكام الأتراك وأن صانعيها قد كانوا غالباً من الصناع الأندلسيين ومع ذلك فإن العاملين المذكورين لم يؤثرا على الأسلوب التقليدى التونسى : نرى ذلك

بأكثر جلاء فى محرابين كانا فى بلدتين أنشأهما من عدم واستقل بهما المهاجرون الأندلسيون وهما محراب جامع بلدة تستور (شكل ٣١) ومحراب جامع بلدة سليمان (شكل ٣٢) : ومن تمكن الأسلوب التونسى التقليدى التمكن الشديد فى صنع المحاريب أن هناك بالمرسى فى ضاحية تونس جامعاً قد بنى منذ أقل من عشرين سنة وقد جُلب إليه صناع من المغرب حتى يكون الجامع مغربى الشكل حسب الإمكان ولكننا إذا تأملنا فى المحراب وجدناه تونسياً صميماً (شكل ٣٣) .

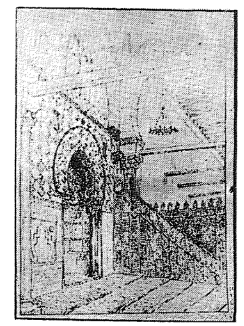
هذا وقد بقيت لنا كلمة وجيزة عن محاريب صقلية والأندلس فلم يبق فى صقلية إلا محراب واحد فى كنيسة سان جيُوفانى فى بالرم (شكل ٣٤) وهو غير إسلامى بل مقلَّد .

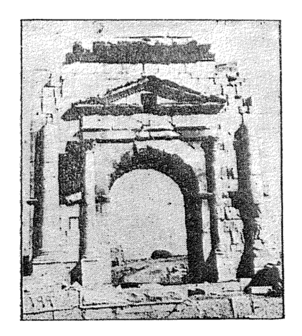
وأما فى الأندلس فقد بقى على الوجود محراب جامع قرطبة (شكل ٣٥) ومحراب مسجد الخراطين (Las Tornerias) فى طليطلة وهو على شكل السابق مبسطاً . ويوجد ثالث فى مدينـــة سراقسطة فى قصر الجعفرية (شكل ٣٦) وهو الحلقة الوسطى بين محراب قرطبة والمحاريب التى اشتهرت منذ القرن الخامس فى المغرب ، ولنلاحظ أن هذا المحراب لم يكن محراباً للصلاة بل هو محراب زخرفى ولكننا أوردناه هنا لانعدام النماذج التى تمثل المرحلة الثانية من العمارة الأندلسية بعد عصر الأمويين .

لوحة رقم ١ – المحاريب فى المغرب الإسلامى


شكل (١) – محراب مسجد الرباط بالمنستير


شكل (٢) محراب مسجد الرباط بسوسة


شكل (٣) محراب جامع القيروان

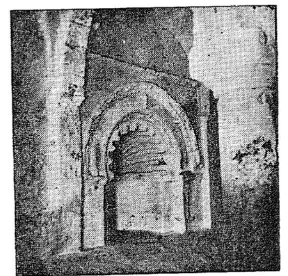

شكل (٤) – قوس الإمبراطور طراجان بالمكثر

لوحة رقم ٢ ــ المحاريب فى المغرب الإســلامى

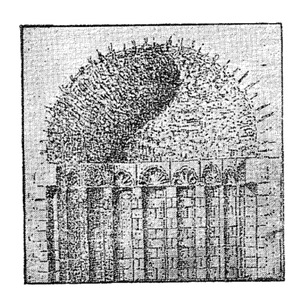
شكل (٥) محراب جامع الزيتونة



شكل (٦) محراب دار شعبان قرب نابل



شكل (٦ م) محراب مسجد الدز بالمنستير

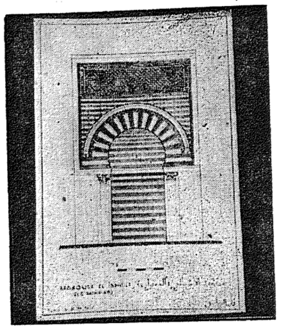


شكل (٧) محراب جامع المهدية .

لوحة رقم ٣ – المحاريب فى المغرب الإسلامى

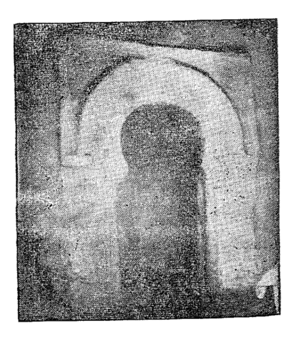


شكل (٨)

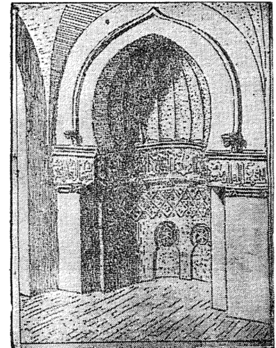


شكل (٨ م)

محراب مسجد الأشبيلى – تونس

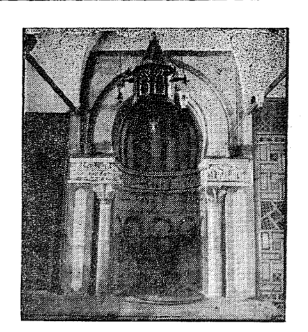


شكل (٩) محراب شارع الحُمْسَّة فى تونس

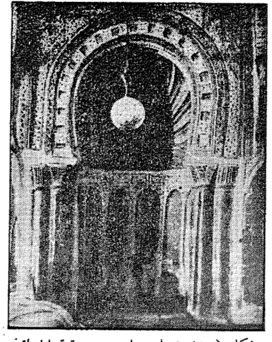


شكل (١٠) محراب مسجد السيدة بالمنستير

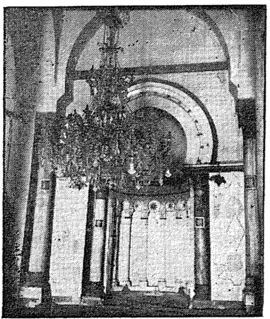
لوحة رقم ٤ ـ المحاريب فى المغرب الإســلامى



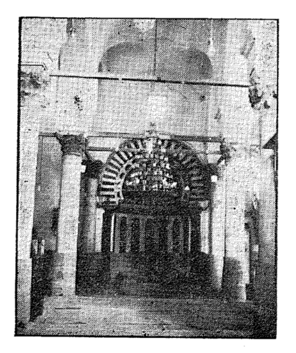
شكل (١١) محراب الجامع الكبير بالمنستير



شكل (١٢) محراب جامع سيدى عقبة بالجزائر

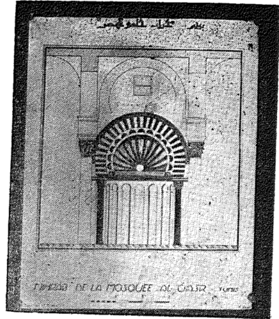


شكل (١٣) محراب جامع سوسة

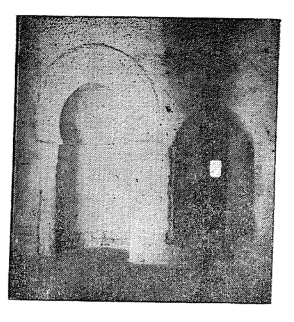


شكل (١٤) محراب جامع القصر بتونس

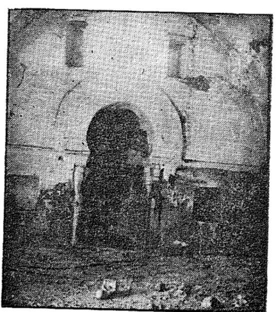
لوحة رقم ٥ – المحاريب فى المغرب الإسلامى



شكل (١٤م) رسم يدوى لمحراب جامع القصر



شكل (١٥) محراب مسجد السور بصفاقس

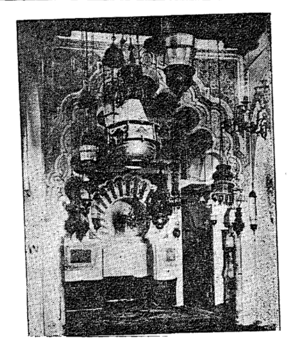


شكل (١٦) محراب مسجد البقالين فى سوسة

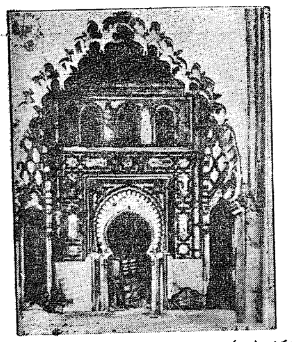


شكل (١٧) محراب جامع بلاد الحضر بتوزر

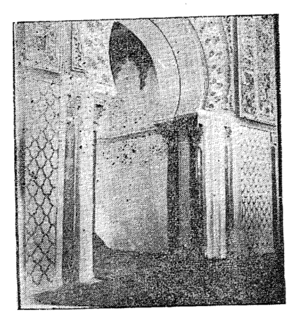
لوحة رقم ٦ – المحاريب فى المغرب الإسـلامى



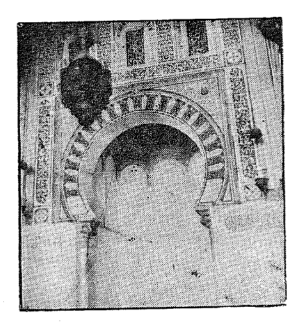
شكل (١٨) محراب جامع تلمسان الكبير



شكل (١٩) محراب جامع المهدى بين تومرت بتنمل

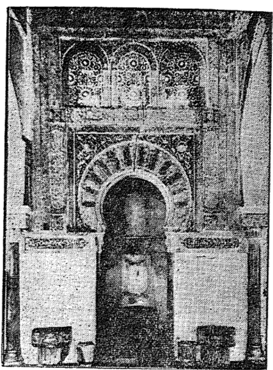


شكل (٢٠) محراب الكتبيين

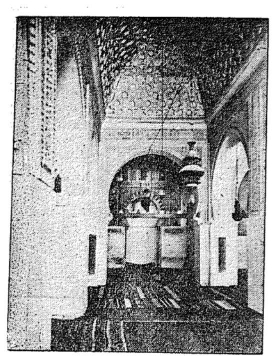


شكل (٢١) محراب جامع القصبة

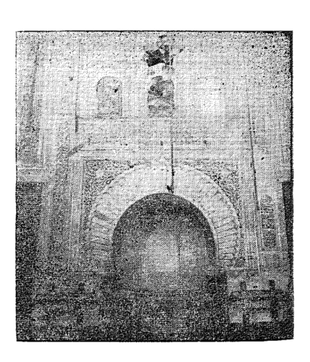
لوحة رقم ٧ – المحاريب فى المغرب الإسلامى



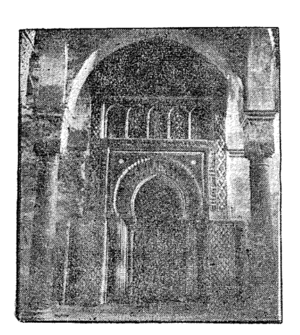
شكل (٢٢) محراب مسجد أبى الحسن فى تلمسان



شكل (٢٣) محراب مسجد أبى مدين

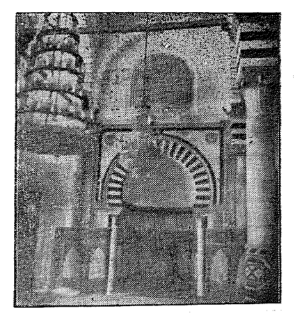


شكل (٢٤) محراب مسجد المدرسة البوعنانية

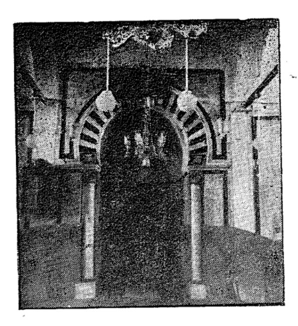


شكل (٢٥) محراب ضريح السعديين

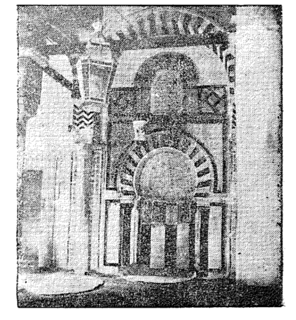
لوحة رقم ٨ – المحاريب فى المغرب الإسلامى



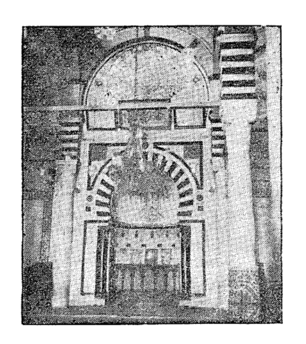
شكل (٢٦) محراب جامع الموحدين (القصبة)



شكل (٢٧) محراب سيدى يحيى

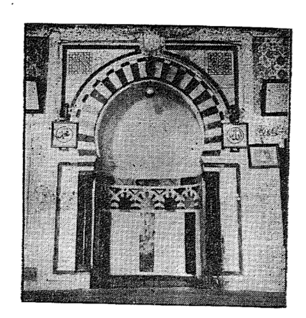


شكل (٢٨) محراب سيدى القاسم الزليجى

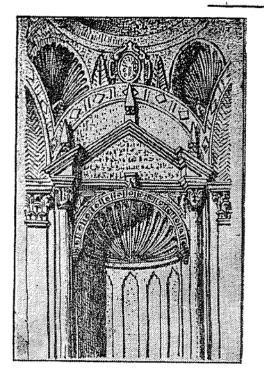


شكل (٢٩) محراب جامع حمودة باشا المرادى

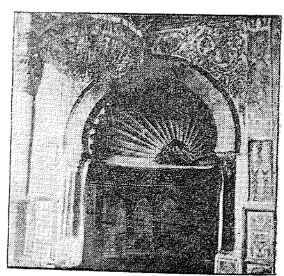
لوحة رقم ٩ — المحاريب فى المغرب الإسـلامى



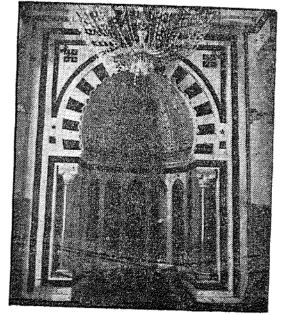
شكل (٣٠) محراب جامع سيدى محرز



شكل (٣١) محراب جامع بلدة تستور

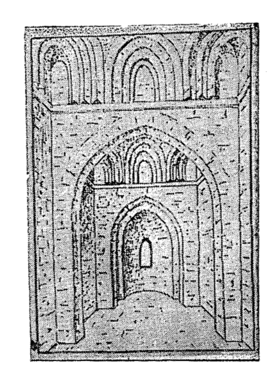


شكل (٣٢) محراب جامع بلدة سليمان

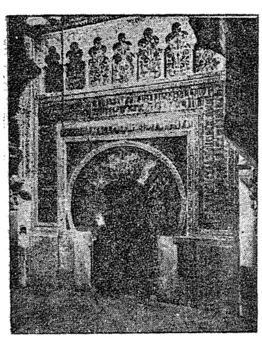


شكل (٣٣) محراب جامع بالمرسى (ضاحية تونس)

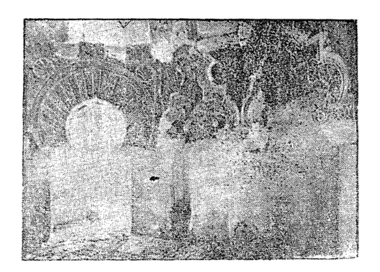
لوحة رقم ١٠ — المحاريب فى المغرب الإسلامى



شكل (٣٤) محراب بكنيسة سان جيوفانى فى بالرم



شكل (٣٥) محراب جامع قرطبة



شكل (٣٦) محراب قصر الجعفرية فى سراقسطة

مشاهد ساتورن بالأفارق

(قرب باجة)

للأستاذ عمار المحجوبي

يقي بعل عصون وهو (عند القرطاجنيين) رب السماوات والأرض وإله الخصب والسعة ، يعبد من طرف الأفارقة في العهد الروماني . على أنه وُهِب آنذاك لقب وأوصافَ وصورةَ الإله اليوناني والروماني « كرونوس ساتورنوس»[1]، وإنا وإن لم نعثر على نص يبرهن على اندماج عقيدة بعل عصون مع عقيدة ساتورنوس فلنا من الأدلة ما يجعلنا لا نشك في ذلك . فقد أصبحت القرابين التي كانت تقدم إلى بعل عصون في العهد القرطاجني تقدم في العهد الروماني إلى ساتورنوس وميزتها أنها صارت حيوانية بعد ما كانت بشرية . وشُيِّدت هياكل ساتورنوس في قرطاجة وتينسوت ودقة وسيرتا في نفس الأماكن التي أقيمت فيها قبل معابد بعل عصون . هذا علاوة على ما جاء في مشاهد نقاوس بالجزائر وهي تنص على تعويض الضحية البشرية بالشاة وتؤكد أن هذا القربان يعوِّض ذلك روحاً ودماً وجسداً :

---

(1) — ان كتابي J. Tou ain هما المرجع الرئيسي لدراسة عقيدة ساتورن :

"De Saturni dei in Atrica cultu", 1894.

و "Les cultes paiens dans l'Empire romain", III, 1, 1917.

انظر أيضا :

F. Cumont, coll. Latomus, II. p. 245 sqq.

J. A. Hild, in Daremberg et Saglio, Dict. Antiqu. gr. & rom., s.v. "Saturnus"

M. Mayer, in Pauly Wissowa, Real Encyclopädie, s.v. "Kronos".

R. Pettazoni, "Kronos chronos in Egittce" in Hommages à J. Bidez".

Ch. Saumagne, Bull. des Antiquaires de Fr., 1948-1949, p. 215 sqq.

Cl. Poinssot, Karthago VI, 1955, p. 32 sqq.

G. Ch. Picard, les religions de l'Afrique Antique, p. 72 - 74 & 118 - 124.

anima pro anima, sanguine pro sanguine, vita pro vita.

وحافظ ساتورنوس فى إفريقية الرومانية على الصدارة التى تمتع بها بعل عصون فى عهد قرطاجة . وما تعدد النقائش والمشاهد والمعابد الساتورنية بشتى المواقع الأثرية الإفريقية إلا دليلا واضحاً على ما وجده هذا الإله من تجاوب فى نفوس الخاصة والعامة وعلى مدى انتشار عقيدته فى البلاد . وتتفق الاكتشافات الأثرية مع ما ورد فى النصوص القديمة تعظيماً لمنزلة هذا الإله إذ يقول ترتوليان لمواطنيه الأفارقة فى القرن الثالث بعد المسيح :

"Ante Saturnum deuspenes nemo est".

« لقد رفع أجدادكم ساتورنوس فوق كل الآلهة » .

* * *

واكتشفنا مؤخراً بالأفارق قرب مدينة باجه وحذو أطلال متواضعة — يبدو أنها بقايا ضيعة رومانية صغيرة — مجموعة من المشاهد التى أقامها عباد ساتورنوس كلما نُذرت لهذا الإله النذور : "votum solvit" ويؤلف بين هاته المشاهد النمط والشكل . وللنص المنقوش عليها أهمية خاصة بينما تكتسى بعض الرموز المصورة قيمة كبيرة لنُدْرَتها .

ولنبدأ بوصف المشاهد :

١ — مشهد ذو جبهة مثلثة نحتت على جانبيها دائرتان مركزهما واحد .

المقاييس : ارتفاع ٧٣ سنتيمترا .

عرض ٤٥ »

سُمْك ١٥ »

ينقسم المشهد إلى ثلاث مناطق :

المنطقة الأولى : تحوى جمعاً من الصور البارزة .

عمود ملوى يعلوه هلال نقش فوقه كوكب ويحيط بالهلال رمزان نشاهدهما عادة ، الأول فى شكل معين ، والثانى فى شكل تاج مستدير

ذى قرنين . وعلى يسار المعين علبة مقفلة ، ونقشت جريدتان على جنبى هاته المنطقة .

المنطقة الثانية : تحوى هاته المنطقة النقيشة التالية :

Saturno Aug (usto) sac (rum) / Massius Victoris f (ilius) ? Sua vota solvit / Animo libens.

Massius لقب شاذ لكن Victor متداول خاصة عند عباد ساتورنوس.
ونلاحظ أيضاً أن فى ذكر اسم الأب ما يدل على أن القاعدة البونقية فى تسمية الأشخاص ما زالت مستمرة فى هذا العهد مما يجعلنا نختار لتاريخ هذا المشهد بداية العهد الرومانى . على أننا سنتناول بالبحث بعد حين مشكلة تاريخ هاته المشاهد .

المنطقة الثالثة : ويظهر بها خروف الضحية.وقد برزت صورته تتوسط رمزين : السلم والجريدة .

٢ ــ مشهد مستطيل ذو ثلاث مناطق ، كسر طرفه الأعلى .

المقاييس : ارتفاع ٦٣ سنتيمتر :
عرض ٤٥ »
سمك ١٣ »

تحوى المنطقة الأولى الرمزين العاديين فى مشاهد ساتورنوس وهما المعين والتاج . وقد كسر طرفهما الأعلى يتوسطهما عمود ملوى كسر الهلال الذى كان يعلوه .

وبالمنطقة الوسطى النقيشة :

Saturni Aug (usti) sacr (um) / Victor (i) olus Gricin/us sua (v) ota solv (i) t bo / num diem soll (e) mnem.

ويظهر على المنطقة الثالثة القربان وهو فى هذه المرة ثور . والضحية تتوسط كما رأينا ذلك فى المشهد الأول سلماً وجريدة .

٣ ــ مشهد ذو جبهة مثلثة كسر طرفها الأعلى ونحتت على جانبيها دائرتان مركزهما واحد .

المقاييس : ارتفاع ٨١ سنتيمترا

عرض ٤٩ »

سمك ١٠ »

بالمنطقة الأولى هلال على جنبيه وفوقه ثلاث كواكب منقوشة ويظهر أيضاً بهذه المنطقة التاج والمعين .

وأعِدَّتْ المنطقة الوسطى كالعادة للنقيشة . وتحيط بهاته المنطقة فى هذه المرة ساريتان تعلوهما جبهة مثلثة . وقد أريد بذلك تشبيه هذه المنطقة بمدخل معبد : وهذا نص النقيشة :

Saturni Aug (usti) sacr (um) / C (aius) Iulius Sarninus sua / vota solvit bonum die / m sollemnem Saturno / Deo Maximo.

ونلاحظ فى هذه المرة أن المتقرب رومانى الجنسية إذ ورد ذكر الأسماء الثلاثة les tria nomina التى يمتاز بها المواطنون الرومانيون فى العهد الإمبراطورى ، ويتوسط خروف الضحية بالمنطقة الثالثة السلم والجريدة .

٤ ــ مشهد ذو منطقتين :

المقاييس : ارتفاع ٨٠ سنتيمترا

عرض ٥٣ »

سمك ١٦ »

فى أعلى المنطقة الأولى الرموز الفلكية : كوكبان يتوسطهما الهلال ــ وتحتها السلم والجريدة والمعين والتاج .

وعلى جنبى المنطقة الثانية المعدة للنقيشة ساريتان : وهذا نص النقيشة :

Iunius Primus sa / cerdos sua vota so /lvit bonum die (m) sol / lemne (m) Saturno Aug (usto)

٥ – مشهد ذو منطقتين ، كسر طرفه الأعلى .

بالمنطقة الأولى مذبح يتوسط الضحيتين العاديتين : الثور والشاه ، ورغم ما لحق هذا المشهد من عطب فناحيتُه أكثرُ براعة من ناحيتَي المشاهد السابقة . وبالمنطقة الثانية النقيشة التالية :

Vot (um) f (ecerunt) Iun (ius) Ian (i) f (ilius) / et Fl (avius) Felicio D (eo) M· (agno).

* * *

تمثل كل هاته المشاهد مدخل معبد ساتورنوس وقد ظهرت جبهته المثلثة ونحتت ساريتاه الأماميتان فى المشهد الثالث والرابع . أما الصور البارزة بجبهة المشاهد من أهِلّة وكواكبَ فهى تشير إلى السماوات التى يهيمن عليها ساتورنوس – وقد ظهرت هذه الصور من قبل فى جبهة المشاهد البونفية مما يدل على امتداد التأثيرات القرطاجنية فى أوائل العهد الرومانى . ذلك أن هاته الصور والرموز عُوِّضت فى أواسط القرن الثانى بصورة بشرية لساتورنوس ومن حوله صور بشرية أخرى تمثل الشمس والقمر والنجوم[1]. على أن مشاهد ساتورنوس حافظت على عدة رموز كانت تظهر فى المشاهد البونفية ولم تندثر حتى فى أواخر العهد الرومانى وهى المعين والتاج والجريدة . وإن كان تفسير الرمزين الأولين لا يزال غامضا ولا حاجة فى التعرض إليه فى هذه العجالة فإن فى الجريدة رمزَ الانتصار على الموت . إذ يعتقد عبّادُ ساتورنوس أنهم إذا ما سلموا روح الضحية وجسدها ودمها إلى الاله فقد تقربوا إليه بروحهم وجسدهم ودمهم ونالوا رضاه وانتصروا على الموت .

أما صورة السلم فهى نادرة إذ لا تظهر إلا على مشاهد الأفارق وتديس

(١) انظر M. Leglay, Les Stèles à Saturne de Djemila - Cuicul, Dans Libyca, I, 1953, p. 37 sqq

وتيجبزيس بالجزائر[١]. وتدل علاقة السلم بالجريدة على أن عباد ساتورنوس يستعملون هذا الرمز للتعبير على صعود أرواح القرابين نحو السماوات .

ونرى بالمشهد الأول علبة مقفلة تحوى طقوس الديانة الساتورنية . وعادة تكون المنطقة الوسطى من مشاهد ساتورنوس مخصصة لصورة المتقرب للإله . فتمثله مشاهد Cuicul و Tiddis واقفا فى هذا الطابق الذى يصور مدخل المعبد وفى ذلك دلالة على أن بيت الإله قد فتحت فى وجه المتقرب فالتحق بمجموعة المؤمنين الصالحين .

لكن مشاهد الأفارق خصصت هذه المنطقة إلى النقيشة كأنّ المتقرب أراد بذلك ذكر اسمه عوضا عن رسم صورته .

وللنص المنقوش على مشاهد الأفارق ميزاته التى تكسبه أهمية خاصة . فقد لاحظ M. Leglay أن لقبى Dominius و Sanctus اللذين وردا أيضاً بمشاهد Cuicul هما لقبان عاديان عند الآلهة الشرقية وهما أيضاً مجرد ترجمة للألقاب البونفية التى كتبت على المشاهد القرطاجنية القديمة . وإننى إذ أؤيد هذه النظرية أدعّمها وأركّزها عندما ألاحظ أن نقائش الأفارق تستعمل جملة لاطنية ليست فى الحقيقة إلا ترجمة لما كتب على بعض المشاهد القرطاجنية ، وهذا ما يبدو جلياً إذا قارنا "Bonus dies sollemnis" بهاتين النقيشتين اللتين عثر عليهما بمعبد بعل عصون بقسنطينة .

"*Jour favorable* / *ce jour-ci* / pour Magon"
"Parce qu'il a entendu sa voix, il l'a béni / *jour favorable*".[٢]

بقى لنا أن نضبط تاريخ هاته المشاهد .

---

(١) انظر : Legaly. & Berthier, Sanctuaire et stèles de Tiddis, Libyca, VI 1958, p. 50.

(٢) انظر : Berthier & Charlier, Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine, p. 93 no 116 B et p. 81 no 98.

رأينا أن أوجه الشبه عديدة ومختلفة بين مشاهد الأفارق والمشاهد القرطاجنية القديمة . فبالرغم من تطور الأحداث السياسية والاقتصادية بقى سكان إفريقية محافظين على العقائد التى ورثوها عن أجدادهم فلم تتغير . واستمر الأفارقة على عبادة بعل عصون لكن التأثير الرومانى بدأ يظهر شيئاً فشيئاً : فهذه اللغة اللاطنية تحل محل اللغة البونقية وهذا اسم ساتورنوس يستعمل عوض اسم بعل عصون — ولهذا لايمكن لنا أن نتجاوز موفى القرن الأول بعد المسيح أو بداية القرن الثانى فى ضبط تاريخ هذه المشاهد — ففى تلك الفترة انتشرت اللغة اللاطنية حتى فى أصقاع البلاد ووُهبت الجنسية الرومانية إلى عدد من الأشخاص والبلديات لكن التأثيرات القرطاجنية لم تزل آنذاك قوية راسخة . أما إذا تجاوزنا أواسط القرن الثانى فإن وطأة هذه التأثيرات تخف ويدخل بعضها طور التلاشى والاضمحلال . فهذه صورة ساتورنوس اليونانى الرومانى تحل محل الرموز السماوية ويُرسم على المشهد معبد رومانى كلاسيكى الشكل ويتطور لباس المتقرب الواقف فى مدخل المعبد فيترك ثوبه القومى البسيط الذى يشبه Péxomis الهلينية فيرتدى ثياباً رومانية بحتة كالـ toga, pallium, stola الرسمية وذلك ما نراه ببعض مشاهد Cuicul و Tiddis المتأخرة والتى يرجع عهـــدها إلى القرنين الثالث والرابع .

لوحة رقم ١ — مشاهد ساتورن بالأفارق



لوحة رقم ٢ – مشاهد ساتورن بالأفارق



لوحة رقم ٣ ـ مشاهد ساتورن بالأفارق



لوحة رقم ٤ – مشاهد ساتورن بالأفارق



لوحة رقم ٥ ـ مشاهد ساتورن بالأفارق



دولة صاحب الحمار ونقوده

بقلم : محمد الشابي

قبل أن أبدأ بدراسة نقود أبي يزيد التي وجدت فى القيروان يكون من المفيد أن أوجز الظروف والملابسات التي أحاطت بالثورة وصاحبها ، وما اكتنفها من غموض ، ومغالطات وتشويه ، محاولا اكتناه الحقيقة ما استطعت .

كانت علاقة إفريقية الإسلامية بالخلافتين الأموية ، والعباسية ، فى دمشق وبغداد ، تتأرجح بين الضعف ، والقوة ، وبين النفوذ التام ، والفشل الذريع . نتيجة لسياسة الولاة وعلاقة الدويلات المستقلة ، والشبه مستقلة بهذا الشعب .

فقد ذاق ألوان العسف والظلم ، على يد الولاة ، والقواد ، والجباة والأسرات الحاكمة التي تكونت منها البورجوازية العربية[1] فى إفريقية . فالضرائب فادحة ، وانتهاك الحرمات ، وسلب الأرزاق ، وغير ذلك من أنواع الظلم التي تاباها ديموقراطيتهم ، ولم يأت بها الدين الذى يدعو إلى المساواة ، وإلى عدم التميز بين المؤمنين إلا بالتقوى . فتذكر النصوص أن سخط البربر فى إفريقية فى العصر الأموى ابتدأ منذ خلافة هشام ، حيث

---

(١) يجب التميز بين البورجوازية العربية ، والشعب العربى ، فقد حاول كثير من المؤرخين تشويه الحقيقة ، بالتأكيد على عنصرية الثورات الإفريقية بأن ادعى كثير منهم أن البربر فى دمشق ، والعرب فى الشق الآخر . ولكن الحقيقة أن الثورات قامت بين الشعب بما فيه من بربر وعرب من جهة ، وبين الحكام من جهة أخرى . والأدلة كثيرة على ذلك ، فالعناصر الخارجية التي اندست بين البربر لم يكونوا غير عرب ، والصنهاجيون الذين قاموا مع الفاطميين كانوا من البربر .

اندس بينهم بعض الخوارج ، حتى إنهم قطعوا صلتهم بدار الخلافة .
وما أورده الطبرى من هذه الأسباب قول أهل إفريقية : « إنا لانخالف الأئمة بما تجنى العمال ، ولا نحمل ذلك عليهم ، فقالوا لهم : إنما يعمل أولئك (أى العمال) بأمر هؤلاء ، (أى الخلفاء) » . « فقالوا لهم لا نفعل ذلك حتى نبورهم ؟ (لعلها نحجهم) » . فخرج ميسرة (البرغواطى) فى بضعة عشر إنسانا حتى يقدم على هشام ، فطلبوا الإذن فصعب عليهم ، فأتوا الأبرش فقالوا : « أبلغ أمير المؤمنين إن أميرنا يغزو بنا ، وبجنده ، فإذا أصاب نفلهم دوننا، وقال هم أحق به » فقلنا : « هو أخلص لجهادنا ، لأنا لا نأخذ منه شيئاً ، إن كان لنا فهم فى حل ، وإن لم يكن لنا لم نرده » . « وقالوا : إذا حاصرنا مدينة ، قال تقدموا وأخر جنده ، فقلنا تقدموا فإنه ازدياد فى الجهاد ، ومثلكم كفى إخوانه فوقيناهم بأنفسنا ، وكفيناكم » . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال ، يطلبون الفراء البيض فيقتلون ألف شاة فى جلد ، فقلنا ما أيسر هذا لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك ، وخليناهم وذلك . ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا هذا ليس فى كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ، فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين؟ قال الأبرش : ففعل . فلما طال عليهم ، ونفدت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم فى رقاع ورفعوها إلى الوزير ، وقالوا : هذه أسماؤنا وأنسابنا، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فاخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية .

فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية ، وبلغ هشاما الخبر ، وسأل عن النفر ، فرفعت إليه أسماؤهم فإذا هم الذين صنعوا ما صنعوا[١] .

نفهم من هذه الشكوى المؤلمة لماذا حاول البربر المرات المتعددة التخلص من سلطان الخلافتين ، إما بالانتماء إلى مذاهب الخوارج ، وإعلان الثورات ،

---

(١) الطبرى : ١ - ٢٨١٥ - ط دى غويه

كما حدث طوال القرون الأربعة الأولى ، من التفاف جماعات من البربر وقبائلهم حول فرق الصفرية والإباضية ، أو بإحباط محاولات البورجوازية العربية إنشاء دويلات مستقلة فى إفريقية ، كما حدث أن أحبطت قبيلة ورفجومة البربرية ، وأحلافها محاولة عبد الرحمن بن حبيب إنشاء ملك عربى مستقل بإفريقية . وقد تصدت القبائل البربرية أيضاً لمحاولة عمر بن حفص هزارمرد وخلفائه من بعده الاستبداد بأمور إفريقية . ولم تكف القبائل البربرية عن الثورات فى وجه الأغالبة تلك الأسرة العربية التى أقامت ملكها على أكتاف أرستقراطية عسكرية عربية ، ثم أجنبية فى النهاية ، كاعتمادها على الصقالبة ، والحرس الأسود . ولم تهادن الفاطميين الذين بدأوا يفكرون فى الرحيل عن هذه الأرض منذ تأسيسهم ملكاً عليها ، لشعورهم أنها غير ثابتة تحت أقدامهم[1] .

دخلت جماعات البربر إلى الإسلام ، وانضمت إلى جبهاته العاملة فى إفريقيا ، وأوربا نشيطة ، فتية ، باسلة ، ويزعم المؤرخون أن دخولهم إلى الإسلام لم يكن عن فهم منهم صحيح للروح الإسلامية بسبب الثورات التى أشعلوها فى وجه الدويلات العربية ــ إنما كان عن إعجاب بالعرب ، أو طمع فى الغنيمة ، أو فرار من الجزية ؛ أو ارتفاع بأنفسهم إلى مرتبة العرب الحاكمين[1]. لكن يبدو أن ذلك غير صحيح فإن الشكوى المتقدمة التى نقلها الطبرى تدفع هذه الاتهامات ، وتدفعنا إلى الاعتقاد أن البربر رأوا أنفسهم شيئا مهملا لا اعتبار له ، وأن عزلتهم هذه وطموحهم الشديد إلى الحكم ، بالإضافة إلى الجور الشديد المسلط عليهم من طرف الحكام ، هى التى دفعتهم إلى رفع لواء العصيان المسلح . ويؤكد الدكتور إبراهيم حسن هذا الرأى بقوله : وفى الحق فإن قيام الخوارج من البربر فى وجه العباسيين لم يكن خروجا على الدين بل كان خروجا على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة

---

(١) رياض النفوس ، مقدمة الدكتور مؤنس ص ٧ م .

لهم ، وفرضهم عليهم ضرائب فادحة[١] ، ويوضح ابن خلدون حقيقة المطالب البربرية بقوله : فتناغى حينئذ البربر فى طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بنى عبد مناف ، يسترون حسوا فى ارتغاء ، إلى أن ظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بإفريقية ، ومكناسة بالمغرب ، ونافسهم فى ذلك زناتة فكانوا من أكثرهم جمعا وأشدهم قوة ، فشمروا له حتى ضربوا معهم بسهم ، فكان لبنى يفرن بالمغرب بإفريقية على يد صاحب الحمار ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخم[٢] . ثم إننا نفهم أيضا من دراسة تاريخ شمال إفريقية أن البرابرة هم الذين اتهموا الحكام العرب بنفس البعد عن روح الإسلام الصحيح الذى يدعو للمساواة ، وعدم التفاضل إلا بالتقوى . فقد نظر البربر حولهم ، لما استقرت عمليات الفتح ، فإذا هم قد أبعدوا تماما بل إنهم لا يساوون حتى الأجانب ، غير العرب ، من الصقالبة ، والخراسانيين ، والفرس ، وغيرهم . ورأوا أن الجهود التى بذلوها جنى ثمرتها العرب الفاتحون .

وتكونت إلى جانب هذه البورجوازية العربية الجديدة طبقة أخرى من الأفارقة المستعربين ، فأخذت تضع الأحاديث المكذوبة فى الازدراء بالبربر ، والحط من شأنهم ، وأصبحت تشعر بالحرج فى الانتماء إليهم . فهذا الخبر الذى يورده المالكى وأبو العرب يثبت كل ذلك ، فقد ذكرا أن البهلول ابن راشد وهو من البكائين المعروفين بشدة الزهد ، والصرامة فى اتباع تعاليم الدين ، صنع طعاما وأحضر له جماعة من أصحابه ، فقالوا له : يا أبا عمرو ، لم صنعت هذا الطعام وليس عندك شىء يصنع لأجله الطعام ؟ فقال : إنى كنت خائفا أن أكون من البربر لما جاء فيهم من الحديث فسألت عن أصلى من يعرفه فأخبرت أنى لست من البربر ، فأحدثت لذلك هذا الطعام شكرا لله عز وجل إذ لم أكن من البربر[٣] . فهذا خبر صريح يثبت لنا

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ص ١٧٤

(٢) ابن خلدون : التاريخ ج ٧ ص ٢١ ، ط بيروت .

(٣) المالكى : رياض النفوس ج ١ ص ١٣٩ . أبو العرب : طبقات علماء إفريقية ص ٨٥

المعاملة التي كان يلقاها البربر . وهكذا لم تدم طويلا صلات الصداقة بين العرب والبربر ، لأن البربر لم يكافأوا على ما قدموه من خدمات بل كانوا يعاملون معاملة السيد للمسود ، وكان من أثر ذلك انتحال البربر لمذاهب الخوارج لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية وأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل فى وجه العرب . حتى إننا إذا تتبعنا حوادث سنوات ١٠٢ ـ ١٣٠ هـ تبين لنا ضعف نفوذ الخليفة فى هذه البلاد[١] .

وكان اتصالهم أعمق وأوثق بخصوم البيتين الأموى والعباسى ، من الخوارج أو الشيعة ؛ أو من المنهزمين فى حروب العصبيات من اليمنية والأنصار ، الذين انهزموا أمام المروانيين ، فاستغلوا فيهم هذه النقمة ، وذلك السخط ، فبثوا فيهم عقائدهم ضمن تعاليم الإســلام ، ووجهوهم الوجهة التى أرادوا . وبذلك اعتنق البربر عقائد الشيعة المتطرفة ، ومذاهب الخوارج الثائرة[٢] ، وبشعاراتها ثاروا فى وجه خصومهم كما نرى فى ثورات قبيلة ورفجومة فى إفريقية ضد عبد الرحمن بن حبيب ، وثورة خالد ابن حميد الزناتى ، فى المغربين الأوسط والأقصى . وثورة أبى قرة اليفرنى الذى بايعه قومه بالخلافة فى تلمسان[٣] ، وثورة أبى ميسورة البرغواطى ـ الذى ذكر الطبرى شكواه إلى هشام ـ فى طنجه ، وثورة منصور الطنبذى فى تونس ، وغيرها من الثورات .

يمكن اعتبار كل هذه الثورات روافد غذت ، وأنضجت ثورة أهم وأشمل ، من حيث التأييد الشعبى ، والمطالب الواضحة ، وعنف الصراع المسلح ، وطول نفس صاحبها ، تلك هى ثورة صاحب الحمار ، التى شغلت

---

(١) حسن إبراهيم حسن : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ، مقدمة الدكتور مؤنس ص ٨ م .

(٣) ابن خلدون : التاريخ ج ٧ ص ٢٤

عملياتها الدعائية ، والمسلحة ، حوالى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى .

كان زعيم الثورة من بنى يفرن من قبيلة زناتة البربرية ، ولد ببلاد الجريد ، أو بالسودان ، حوالى سنة ٢٧٢ هـ ، واسمه أبو يزيد مخلد بن كيداد ، ويلقب بصاحب الحمار ، وقد وصل بفضل دعايته القوية إلى تهييج المغرب كله تقريباً[١] ، واعتصر الدولة الفاطمية حتى كادت تنمحى تحت ضرباته الماحقة .

ولم يكن هذا الثائر الأعرج عامياً جاهلا ، بل إنه درس فى شبابه مذهب الإباضية درساً وافياً إلى درجة أنه كان من بين فقهائه المبرزين[٢] ، كما يقول ابن حماد ، وتبرز فى مذهب النكارية ، الذى هو أشد المذاهب الخارجية صلابة ، وتزمتا ، فقد كان يحلل دماء المسلمين وفروجهم[٣] .

أخذ صاحب الحمار يبث روح التمرد ، ضد الفاطميين ، بين الأطفال الذين كان يدرسهم فى توزر ، أو فى تقيوس (قرية دقاش الحالية) حتى وصلت دعايته فى بلاد الجريد حداً جعل السلطات الشيعية تخشاه ، فأجبرته على مغادرة المكان ، فانتقل إلى مقر الخوارج فى تيهرت حيث تابع دعايته ، وتركزت حركته بعد موت المهدى مباشرة ، فكان يركب حماراً أغبر أهدى له ، يحيط به أبناؤه الأربعة ، وزوجته التى كانت أم ولد ، مرتديا ثياباً بسيطة كعامة الشعب ، معطياً بذلك المثال فى التقشف الشديد[٤] .

وجاب المغرب الأوسط حاثاً البربر على طرد الفاطميين ، وتعويضهم بمجلس من المشايخ ، مثلما كان يقع فى الدول الخارجية . فدغدغت هذه

---

(١) Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, II, 124

(٢) ابن حماد : تاريخ ملوك بنى عبيد ص ١٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٩٣

(٤) Ch. A. Juliena—Ibid. II, 125.

الدعاية الثورية أعمال الشعب الفقير الجائع بتكوين حكومة منه عزيزة وعادلة ووجدت من الطبقات الدنيا أرضاً خصبة ، فانتشرت بسرعة مدهشة ، فكان لها نجاح عظيم ، خصوصاً فى الأوراس ، حتى دفعت المؤمنين بها إلى إقامتها بحد السيف .

كان ابتداء أمر أبى يزيد سنة ٣١٥ هـ ، أو ٣١٦ هـ ، ولكن يبدو أنه لم يتمركز إلى الحد الذى يستطيع فيه إعلان الثورة فى وجه المهدى . فإنه لما غبر فى هذا العام على عامل تقيوس ، وأمر بقتله ، فقتل ، فزع وفر يريد الحج ، فوجه المهدى فى طلبه ، فرجع من طرابلس مع صاحبه أبى عمار الأعمى ، إلى تقيوس فورد كتاب المهدى فى طلبه ثانية ، ففر ، وبقى يفرّ ويستقر ، إلى أن ظهر أمره بعد ذلك[1] . وواصل دعايته سراً إلى أن برز بالفتنة سنة ٣٢٦ هـ أثر موت المهدى مباشرة ، خلافاً لما يعتقده أغلب الناس من أنه بدأ بالاصطدام المسلح سنة ٣٣١ ؛ فابن عذارى يذكر نصاً يؤرخ فيه فتنة أبى يزيد ، عرضاً ، على غاية من الأهمية ، فيخبرنا أثناء حديثه على مدينة المسيلة : بأن ابن الأندلسى هو الذى بناها للقائم الفاطمى سنة ٣١٣ وبقى هو عاملها إلى أن هلك فى فتنة أبى يزيد سنة ٣٢٦[2] . ولكننا لا نعلم ماذا فعل أبو يزيد كل هذه المدة حتى ظهر سنة ٣٣١ ، لانعدام النصوص ، أو لأن المؤرخين أهملوا كل ما قام به من مناوشات صغيرة ، ولم يذكروا إلا حروبه ، حينما بلغت ثورته أشدها سنة ٣٣١ والسنوات الثلاث التى تلتها .

وفى هذه السنة وصل صاحب الحمار إلى جبل أوراس ، ومعه أبو عمار الأعمى ، رأس النكارية ، فى اثنى عشر من الراحلة ، ونزلوا على النكارية بالنوالات (ج . نوالة : أكواخ تبنى من القش والطين) واجتمع إليه القرابة وسائر الخوارج وأخذ له البيعة عليهم أبو عمار صاحبه على قتال الشيعة ،

---

(١) ابن خلدون — التاريخ ج ٧ ص ٢١ .
(٢) ابن عذارى = البيان ١ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

وعلى استباحة الغنائم والسبى ، وعلى أنهم أن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى[1] .

غزا صاحب الحمار إفريقية بسرعة عظيمة وأظهر هو وجماعته قسوة شديدة فى معاملة الناس ألحَّ المؤرخون عليها كثيراً ولكنى لا أرى مبرراً لهذا الإلحاح ، فقد يحدث ذلك فى التاريخ لزعماء كثيرين حين يرون ثوراتهم وبرامجهم فى سهب المساومات والتلاعب ، فقد وقف فقهاء القيروان — وهم زعماء المعارضة الدينية فى البلاد وبانحيازهم إلى شق يتقرر انحياز الشعب — وقف هؤلاء الفقهاء إلى جانبه أحياناً وضده أحياناً أخرى ، فكان يلين لهم مرات ، وينتقم منهم مرات أخرى ، بالإضافة إلى أن هذا العنف الذى صاحب ثورته جذب إليه جماهير الشعب بدل أن ينفرهم منه إذ كانوا يرون فى ذلك انتقاماً من الفاطميين .

واتجه هذا السبيل البشرى فى الطريق التى سلكها من قبل أبو عبد الله الشيعى محاذياً وادى ملاق حتى وصل شمال مدينة تونس حيث كانت تترقبه جيوش القائم التى حاولت صده بدون جدوى فى المعركة التى وقعت قرب باجة ، واحتل تونس بمساعدة السكان السنيين المالكيين الذين استعمل سنيتهم ومالكيتهم لجلبهم إلى جانبه ولو مؤقتاً ، ثم عبر سلسلة الجبال التونسية ، ودخل القيروان حيث طلب منه علماؤها أن يوقف عمليات السلب التى يقترفها جيشه ، فأجاب طلبهم وانتصر على جيش قدم من المهدية تحت قيادة أحسن قواد الشيعة ثم تحرك نحو المهدية فحاصرها حتى بقيت آخر شبر تحت سلطة الخليفة ٣٣٣ هـ .

وتخللت هذا الحصار هجومات قوية كان أبو يزيد فيها على رأس المهاجمين حتى إنه كاد أن يلقى حتفه عدة مرات وكادت المدينة أن تسقط فى يده عدة

---

(١) ابن خلدون — التاريخ ٧ ص ٢٨ .

مرات أخرى ، وبينما كان الجيش المحاصر فى حاجة شديدة إلى تموين نتيجة للحزام الهائل الذى ضربه أبوزيد على المدينة ، استطاع زيرى بن مناد أن يقرر مصير الحرب وينقذ المهدية من الاستسلام المحقق بأن يفك الحصار بشجاعة نادرة فقد تقدم بفرقة من الجيش واستطاع أن يطعم المدينة الجائعة . وكانت هذه المقاومة أكثر مما تتحمله الجماعات المنهمكة التى جلبها أبويزيد فانخفض حماسها بنفس السرعة التى تكون فيها خصوصاً بعد ما فقدت الغنائم . ولعل الداعية العباسى الذى قدم فى هذه الأثناء يدعو للعباسين ويحمل أعلاماً سوداء كان له مفعول أيضاً فى انفضاض الناس من جيش أبى يزيد ، ويمكن أن يكون لاتهامات أصحابه له بحب الرئاسة والبذخ دخل أيضاً فى انخفاض جيشه . فلم يبق له إلا أن يرفع الحصار عن المهدية ٣٣٤ هـ وأن يلم شتات عسكره حول القيروان ويستعد استعداداً جديداً لمواجهة خصم جديد هو المنصور ابن القائم الذى خلف والده فى سنة ٣٣٥ والذى ركز كل إمكانياته لطرد الثائر فلم تحضر إلا بضعة أيام بعد تسلمه مقاليد الحكم حتى دخل القيروان وانتصب فيها رغم ضربات أبى يزيد القوية على أبواب المدينـــة وحول منطقة رقادة .

وأخيراً وقعت معركة ضارية تحت سور مدينة القيروان قررت مصير الحرب سنة ٣٣٥ وبقى البحث عليه بعد ذلك عدة أيام إذ أنه حاول الفرار إلى الصحراء فقطع عليه المنصور طريقها فالتجأ إلى جبال هدفه وأظهر مرة أخرى نشاطا متزايداً فدارت بينه وبين المنصور معركة لم يسلم فيها بالغلبة حتى فنى آخر جنوده وجرح فيها هو أيضاً ومات متأثراً بجراحه رغم معالجة المنصور له سنة ٣٣٦ هـ .

وأنهى هذا الانتصار مرحلتين من مراحل التاريخ الإفريقى : مرحلة المقاومة الشعبية الجدية للبورجوازية الحاكمة فى إفريقية ثم انتهاء مرحلة الحكم العربى فى إفريقية وتسليمه إلى أبناء البلاد (بنى زيرى) .

كان الفاطميون منذ أن استولوا على المؤسسات الحكومية الأغلبية فى إفريقية يتطلعون إلى الشرق لضرب مقر الخلافة العباسية فى بغداد ، لكن وقوعهم بين الدولتين القويتين العباسية فى الشرق والأموية فى الغرب كانت تضيق عليهم الخناق وتصد توسعاتهم ، وكانوا فى الداخل فى موقف حرج إلى أبعد الحدود ، فثورة أبى يزيد والمقاطعة الشعبية لهم ولمذهبهم جعلتهم يعجلون بالرحيل .

وصل الشعب فى إفريقية درجة الاختناق وأخذت هذه الحال تهدد بالانفجار ، وكان الفاطميون يتوقعون ذلك فقد أبلغ القاضى إسحاق بن أبى المنهال عبيد الله المهدى أن أحمد بن نصر بن زياد الهوارى البربرى « رجل من البربر ونحن لا نأمن به » فسجنه المهدى وقيده سنة ٣٠٨ ، وكان يتوقع أمر أبى يزيد[١] ، ووصلت الحال بالناس أن أصبحوا يخفون الكتب خوفاً من بنى عبيد أن ينالوهم بمكروه[٢] ، وكانت الاجتماعات التى تقع فى مسجد السبت بالقيروان والتى يحضرها الجم الغفير من العلماء والصالحين تتغيظ بنى عبيد لأنهم يخافون من اجتماعهم أن يقوموا عليهم[٣] ، وقد أفتى علماء القيروان بمحاربتهم لما كانوا يعتقدون من كفرهم وكان أبو الفضل عباس بن عيسى الممسى يرى أن الخروج مع أبى يزيد الخارجى وقطع دولة بنى عبيد فرضاً لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم الإسلام ويرثون ويورثون ، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا يتوارثون معهم ولا ينتسبون إليهم[٤] .

من هؤلاء الناقمين كان يتألف جيش أبى يزيد زيادة عن العناصر الشعبية المختلفة ، فالفقهاء أصبحوا بعد انتصارات أبى يزيد الرائعة يؤلفون الدعامات

---

(١) معالم الإيمان ، ج ٣ ، ص ٦ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٣٥ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٣٤ .

القوية للحرب ؛ فهم الذين أخذوا يذكون حماس الناس فى الشوارع وفى المساجد أثر الصلوات ، وهم الذين حملوا الرايات لقيادة الفرق . منهم أبو الحسن الحلاق الذى قال : إن قتال الفاطميين أفضل من قتال المشركين[١]، وربيع القطان الذى قال : كيف لا أخرج وقد سمعت الكفر بأذنى[٢] . وأبو الفضل عباس الممّسى ، وأبو الربيع ، ومروان العابد ، وإبراهيم بن العشا ، وكان خطيب المجاهير أحمد بن محمد بن أبى الوليد . ويذكر صاحب المعالم هذه البنود والشعارات التى تحملها وأصحابها فيقول : فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا فى الجامع وركبوا بالسلاح الكامل وعملوا البنود والطبول وكانت سبعة بنود ، الأول أصفر لربيع القطان مكتوب عليه : البسملة ومعها لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى الثانى وهو لربيع أيضاً : نصر من الله وفتح قريب على يدى أبى يزيد ــ اللهم انصره على من سب نبيك ــ وفى الثالث وهو أصفر أيضاً لأبى الربيع بعد البسملة قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . وفى الرابع وهو بند أحمر لأبى الفضل عباس الممّسى : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى الخامس وهو بند أخضر لمروان العابد بعد البسملة قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ــ وفى السادس وهو بند أبيض بعد البسملة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ــ أبو بكر الصديق وعمر الفاروق . وفى السابع وهو لإبراهيم بن العشا وكان أكبر البنود لونه أبيض : لا إله إلا الله محمد رسول الله إن لا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ــ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا[٣]. نفهم من هذا التأييد الشعبى أن انتصار أبى يزيد كان محققاً وأن انهيار دولته واختناق ثورته لم يكن فى الحسبان ، فكيف وقع هذا الاختناق ، ومع المنصور المهدية فقط ، ومع أبى يزيد أغلب إفريقية .

---

(١) معالم الإيمان ج ٣ ص ٣٥ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٨ – ٣٩ .

فى هذه الأثناء برزت قبيلة صنهاجة وأخذت تلعب دورا بارزا فى تاريخ الفاطميين خصوصا وقد تألب الزناتيون ــ قبيلة أبى يزيد ــ ضدهم وانحازوا إلى الأمويين فى الأندلس ، لما تقدم لهم من هجر جدهم خزر بن صولات وإسلامه على يد عثمان بن عفان[١] ، فقد اضطر زيرى بن هناد زعيم صنهاجة إلى محالفة الكتابيين والدخول فى طاعة الفاطميين انتقاما من خصومه الزناتيين ، فأنقذ الدولة الفاطمية من السقوط فى حرب محمد بن خزر الزناتى زعيم بلاد المغرب الأوسط ، وفى حرب صاحب الحمار . وقد ذكر المؤرخون أن أبا يزيد طلب العون من أمويى الأندلس فرفض الناصر طلبه ، ولكنى أشك فى هذا الرفض ، فالنصوص التى بين أيدينا تؤكد هذا الاتصال والتأييد والمدد أيضا ، فكيف يرفض عبد الرحمن الناصر إعانة زناتة خليفة الأمويين خصوصا وقد تحالف الفاطميون والأدارسة لخنق الثورة وقطع المدد عنها ، وهذا الحلف فى نظر الناصر جدار ضد التوسعات الأموية فى الضفة الجنوبية للبحر ، فقد اضطر القائم الفاطمى ، إلى التنازل عن كثير من ممتلكاته للأدارسة ، فى حربه ضد موسى بن أبى العافية صاحب مكناسة والمؤيد للأمويين أمر قائده ميسورا بأن يولى للأدارسة ما فتحه من البلاد[٢] ثم إن النصوص الوافرة تدعم هذا الاتصال بين صاحب الحمار وبين الناصر منذ ابتداء الثورة إلى نهايتها فيخبرنا ابن عذارى أنه فى منسلخ شوال من سنة ٣٣٧ هـ قدم على الناصر رسولان من أبى يزيد مخلد ابن كيداء المعروف بصاحب الحمار القائم بأفريقية على أبى القاسم الشيعى برسالة منه يخبر بتغلبه على القيروان ورقادة وعملهما ، وإيقاعه بأصحاب الشيعى فيها ، وما يعتقده من ولاية الناصر ويأوى إليه من اعتقاد إمامته ، واتصلت كتب أبى يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت إلى حين وفاته[٣] .

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٥٢ .

(٢) ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ص ٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان ٢ ص ٢١٢ .

وفى سنة ٣٣٤ جلس الناصر لدين الله لوداع رسل أهل القيروان الواردين عليه من قبلهم ومن قبل أبى يزيد وهم ثلاثة نفر وجههم تميم بن أبى العرب التميمى فكلفهم بما تقتضيه رسالتهم ودفع إليهم أجوبة من أرسلهم ؟ وأذن لهم فى الانصراف إلى بلدهم[١] .

وفى سنة ٣٣٥ وصل إلى قرطبة أيوب بن أبى يزيد مخلد بن كيداء اليفرنى الإباضى رسولا من والده أبى يزيد فقعد له الناصر قعودا فأوصله إلى نفسه ، وكرم لقاءه ، وأمر بإنزاله فى قصر الرصافة ، وقد أعد له من الفرش والوطاء والغطاء والآنية والآله ، ما يعد لأمثاله ، فأقام هنالك تحت نزل واسع وكرامة موصولة[٢] .

ويذكر ابن خلدون أيضا أن صاحب الحمار بعث رسله فى وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموى صاحب قرطبة ملتزما لطاعته والقيام بدعوته وطالبا لمدده فرجعوا إليه بالقبول والوعد[٣] .

يتضح مما تقدم أن تدخل الناصر فى الحرب كان مباشرا وإيجابيا وأنه لم يقف عند التأييد السلبى فنص ابن عذارى : وأنه دفع إليهم أجوبة من أرسلهم ، ونص ابن خلدون الذى يذكر : . . . وطالبا لمدده فرجعوا إليه بالقبول والوعد . يدفعاننا إلى الاعتقاد أن الناصر كان يمول الحرب إن لم يرسل الجيوش والقواد ، ثم إن هذا التأييد الأموى لم يقف عند صاحب الحمار بل كان شاملا ، لكل الثوار الزناتيين قبل صاحب الحمار ، وفى أيامه وبعده ، فقبول الناصر لرسول الخير بن خزر الزناتى ورسول حميد بن يصل الزناتى سنة ٣٣٣ هـ واعلامه بما كان من دخولهما مدينة تيهرت وأنهما أقاما له الدعوة فيها[٤] خير دليل على ذلك . وأفراح قرطبة بانتصارات

---

(١) ابن عذارى : البيان ٢ ص ٢١٢ — ٢١٣

(٢) ابن عذارى : البيان ٢ ص ٢١٤ .

(٣) ابن خلدون : التاريخ ج ٧ ص ٢٨ .

(٤) ابن عذارى : البيان ٢ ص ٢١٢

الزناتين ، فرسائلهم تقرأ فى منابرها ، ورؤس القواد الأعداء تعلق على أبوابها ، كلها تثبت أن التحالف بين الأمويين والزناتين لا يمكن أن تنفصم عراه ، حتى أن الزناتيين كانوا يتشبثون بكل دعوة فيها رائحة الأمويين ، من ذلك تأييدهم للثائر بطرابلس الوليد بن هشام الذى ادعى أنه من الأمويين ، وأنه سيطهر مصر من حكم الجبابرة سنة ٣٩٦[١] .

يتضح من هذا التحالف القوى لماذا قتل أبو يزيد الداعية العباسى . الذى جاء إلى إفريقية يحمل البنود السود ويدعو إلى العباسيين ببغداد ، لأن بغداد لا يمكن أن تقف مكتوفة الأيدى ، أما هذا الصراع الضخم الذى يمزق أوصال إفريقية ، ولا يتها بالأمس ، ولا يمكن أن تنسى هزيمتها ، هزيمة الأغالبة تحت ضربات الجيوش الفاطمية . ثم إنها لمحت تدخل الأمويين ، وتأرجح الفاطميين ، فأوفدت هذا الداعية ، لعله يستطيع تغيير مجرى الأحداث ، ويعيد إفريقية إلى سالف عهدها ولاية تابعة لبغداد وقد عاودها الأمل فى ذلك أثناء حصار أبى يزيد للمهدية سنة ٣٣٤ ﻫ فقد ظنت أن ثورة أبى يزيد نجحت نجاحا ساحقا ، وأن الفاطميين انهاروا ولم يبق لهم إلا العاصمة .

وقد أوردت تدخل العباسين جميع كتب التاريخ تقريبا ، لكنه نص واحد ذكره جميع المؤرخين بغموض شديد . واختصار أشد ، فالنص يقول : « وفى المحرم من سنة ٣٣٤ ﻫ ظهر بإفريقية رجل يدعو إلى نفسه فأجابه خلق كثير . وأطاعوه وادعى أنه عباسى ورد من بغداد . فظفر به أبو يزيد وقتله[٢] » . هذا كل ما ورد فى الخبر ، وعلى ضوئه الضئيل استطعت أن ألمح تدخل العباسيين فى الحرب الإفريقية بالإضافة إلى الأمويين . أو أن تدخل الأمويين هو الذى شجع العباسيين على التدخل .

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٣٠٣ .

إن الغموض الذى يكتنف هذه الفترة من تاريخ إفريقية الإسلامية ، لم يسمح لى باكتشاف شخصية الرجل الذى وقف ضد الدولة الفاطمية ثلث قرن كما ينبغى . وقد أهملت كتب التاريخ العام كثيرا من التفصيلات التى كان من الممكن أن تنير لنا السبيل . ومن هذه الكتب من ظلم صاحب هذه الثورة عن قصد أو عن غير قصد ، وهناك مؤرخون فاطميون كانوا يدافعون عن النظرية الفاطمية . أما المؤرخون الآخرون فقد بعدوا كثيرا عن مجرى الحوادث ، أو نقلوا عن الكتب الفاطمية ، فقد نعتوه بأن مذهبه كان تكفير أهـــل الملة ، واستباحة الأموال والدماء ، والخروج على السلطان[1] . ولم يذكروا أنه دعى : إلى الشورى فى الحكم وإلى تكوين مجلس من المشائخ ، وأنه بدأ يحتسب على الناس فى أفعالهم ، ومذاهبهم ويراقب جباة الأموال . فشعاراته التى حملها ديناره تحمل تلك العدالة الفطرية ، والمثالية السامية ، التى ينادى بها المصلحون فى كل زمان : لاحكم إلا لله .

قدمت هـــذه المقدمة على أستطيع أن أجيب على الأسئلة الكثيرة التى واجهتنى وأنا أدرس دينار صاحب الحمار – وقبل أن أدخل فى الأسئلة فلأبدأ بذكر الكتابات التى يحملها الدينار :

الوجه ١

الطوق : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر بالقيروان سنة ثلث وثلثين وثلثمائة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ٣٠٢

الوسط : ربنا الله

لا حكم إلا لله

لا إله إلا الله

وحده لا شريك له

الحق المبين

الوجه ٢ :

الطوق ١ : الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون .

الطوق ٢ : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

الوسط : العزة لله

محمد

رسول

الله

خاتم النبيين

قطره : ١٨,٩ ملم وزنه : ٤,٢٠ غم

وقد انفرد هذا الدينار بكتابات نقدية لم يحملها أى نقد فى إفريقية الإسلامية فهى تحمل شعار الخوارج التى أعلنوها يوم التحكيم : لا حكم إلا لله ، ربنا الله ، ولم يذكر اسمه على النقد كما ذكره منصور الطنبذى مثلا ، خطه كوفى صلب يشبه كثيراً نقود الدولة الأغلبية ، وخطوط الرق والقبريات الإفريقية وجد فى مدينة القيروان أثناء حفر بعض الأسس البنائية ؛ ورغم أن صاحب الحمار ينص أن ديناره ضرب بالقيروان ، إلاأنى أشك فى

ذلك ، فلعله ضرب فى بلد آخر ، قد يكون الأندلس أويكون إحدى الدول الخارجية ، كدولة بنى مدرار ، أو الدولة الرستمية . وذكرت القيروان للتضليل فقط فلو لم يكن هذا الدينار من بلد أجنبى لذكره المؤرخون كما ذكروا نقود الثوار غيره ، كدرهم منصور الطنبذى ، ونقود أبى الفهم الخراسانى الداعى الذى ظهر أيام المنصور الصنهاجى ، فصار يركب الخيل ، ويجمع العساكر ، ويعمل البنود ، ويضرب السكة(١)، مع أن ثورتيهما كانتا أقل أهمية من ثورة صاحب الحمار .

ثم إننا إذا قارنا دينار صاحب الحمار الذى يزن ٢٠ر٤ غم بدينار المنصور ، نقود الدولة الرسمية الذى يزن ١٠ر١ غم ، نجد أن حالة البلاد الاقتصادية فى تلك الحرب الطاحنة لا تسمح للثائر أن يضرب هذا الدينار القوى . وهى التى لم تسمح لخزينة الدولة الرسمية بذلك . فمن أين له بالذهب وإفريقية فى فقر مدقع ، وجوع وغلاء فاحش ، وقد عظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الدواب والميتة وخرج من المهدية أكثر السوقة والتجار ، ولم يبق بها إلا الجند ، فكان البربر (جند أبى زيد) يأخذون من خرج ويقتلونهم ، ويشقون بطونهم طلباً للذهب(٢) . ألا يدعونا هذا إلى الاعتقاد أن هذا الدينار ضرب فى بلد أجنبى — ومن رصيد دولة مستقرة لا يعصف بها اضطراب ، ولا تدوخها حرب ، وإلا فكيف نفسر الإمدادات ، والقبول ، والوعد ، من طرف الناصر الأموى إلى صاحب الحمار ، والرسل المتتالية بينهما منذ بداية الثورة إلى نهايتها وأمل قرطبة الكبير فى القضاء على الدولة الفاطمية الناشئة . إنه لا يمكن أن تكون كل تلك الإعانات إلا أموالا طائلة لتمويل الحرب وتمديدها وتشجيع الناس على الثبات فى حصار المهدية ٣٣٣ هـ لأنهم بدأوا ينسحبون عنها أثناء فقدهم للغنائم ، فظهور الدينار فى هذه السنة بالذات

(١) ابن عذارى : البيان ١ ص ٢٤١ .

(٢) ابن الأثير : التأمل ج ٦ ص ٣٠٢

ليس لمحض الصدفة كما أعتقد ، فى المجموعة المتكونة من خمسة وثلاثين قطعة لا يوجد دينار واحد ضرب قبل هذه السنة أو بعدها ، فبماذا نفسر ذلك ؟ عسى أن تكشف لنا الحفريات ما يجلو هذه الشكوك وينير هذا الغموض .

وحتى لو ضرب هذا الدينار بالقيروان فإن المعدن كان من الخارج حتماً ، لأن إفريقية التى أنهكتها الحرب مدى ثلاث سنوات حتى الآن لا تستطيع أن تمول هذا الدينار القوى الذى يقرب جداً من الدينار الشرعى القليل الوجود حتى فى عصور الرخاء والأمن ، ولا يمكن أن تتحمله اقتصادياتها المنهارة . ولا يمكن أن يكون تأييد الناصر سلبياً والرسل تتوافد عليه طيلة الحرب .

ومما يدعم الرأى الأول أن أبا يزيد لم يذكر اسمه على الدينار لأنه لم يكن يريد شيئاً له خاصة ، ولتلاشى حفيظة أصحابه ، وشكوك الناصر ، لما يعتقده من ولايته ويأوى إليه من اعتقاد إمامته[1]، والذى كان يريد حتماً بسط نفوذه على إفريقية بعد طرد الفاطميين ، والأدارسة ، والذى تحمل لأجل ذلك كل أعباء الحرب الإفريقية .

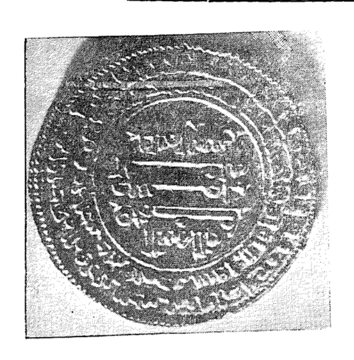
وحالما فشلت ثورة صاحب الحمار ، وانهار الصرح الذى كان يبنيه الناصر أمر بإطلاق اللعن على بنى عبيد فى جميع منابر الأندلس سنة ٣٤٤ هـ[2] .

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٢١٤ .

لوحة رقم ١ ــ دولة صاحب الحمار ونقوده





أضواء حول مشاكل « قصر الجم »

للأستاذ الهادي سليم

أمام الباحث فى آثار (Thysdrus) (الجم حاليا) مشاكل عدة أثارت هم المؤرخين منذ أجيال عديدة ، ولكن أهم هذه المشاكل فى نظرنا وأجدرها بالعناية تحديد أسباب إقامة الرومان للملعب (Amphithéâtre) « كقصر الجم » فى عظمته واتساعه ، ملعب هو أعظم ملعب فى إفريقية الرومانية والسادس أهمية فى العالم الرومانى بصفة عامة . . . تحديد أسباب إقامة مثل ذلك الملعب فى جهة تعتبر الآن اقتصاديا جهة قليلة الموارد .

إن الزائر لهذا « القصر » يلاحظ ولا شك ما بين هـذا القصر العظيم وبين ما يحيط به من أراض وبناءات من تباين يدعو إلى الاستغراب .

فجهة الجم تعتبر حاليا جهة فلاحية فقيرة لا تكاد تفى بحاجة سكان هذه القرية ، وعددهم لا يفوق العشرة آلاف ، بينما أسس هذا « القصر » لثلاثين ألف من النظارة على أقل تقدير .

وإذا اعتبرنا عظمة القصر وأهمية الملعب (Cirque) التى تساوى أهمية ملعب مكسانس (Maxence) برومة ولاحظنا ما فى دور الجم القديمة من فسيفساء ثمينة تدل على بذخ السكان وثروتهم اتضحت لنا قيمة الجم كمركز معمارى فى ذلك العهد ويمكننا أن نفترض افتراضين لحل هذا المشكل :

أولها : أن الإمكانيات الفلاحية لهذه الجهة كانت أوفر فى ذلك العصر فعملت على بروز تلك المظاهر الحضرية .

ثانيهما : أن هذه الجهة لم تكن جهة فلاحية فحسب وأن عوامل اقتصادية أخرى ، غير الفلاحة ، كالصناعة أو التجارة كانت متوفرة لها فى ذلك الحين فساعدت على ازدهارها ، بل كانت السبب الأساسى لذلك الازدهار :

وسنحاول قدر المستطاع واعتمادا على ما لدينا من وثائق تاريخية وأثرية أن نوضح بعض جوانب هذا المشكل ، وأملنا أن تمدنا الحفريات الحالية بوثائق أدق وأوفر فنخرج من الترجيح إلى التحقق العلمى المركز :

إن علماء الآثار فى القرن الماضى دفعهم إعجابهم بما تحمله الأرض الإفريقية من أثار وتأثرهم بما جاء فى الأدب اللاتينى من وصف فاخر لثروة إفريقية الرومانية إلى وضع نظرية تحاول أن تفسر الفقر النسبى الحالى لهذه الجهة بتغيير مناخ البلاد تغييرا جوهريا .

وإنها لنظرية مغرية لو لم يبين التحقيق العلمى خطأها ، فقد أوضح المؤرخ Gsell مواطن الضعف والخلل فى هذه النظرية فأقام علميا الدليل على أن مناخ شمال إفريقية فى ذلك العهد كان شبيها بمناخها اليوم إن لم نقل كان نفس المناخ ، وقد أيده فى ذلك الأستاذ Despois إذ لاحظ أن الآبار التى كانت مستعملة فى ذلك العهد ما زالت مستعملة اليوم مما يدل على أن مستوى المياه لم يتغير ، وقام نفس الأستاذ بتحقيقات عديدة فى الجهة فأثبت علميا ما يلاحظه كل منا من فقر هذه الرقعة من البلاد التونسية لفساد التربة وندور الأمطار وقلة انتظامها وطول فترات القحط ورداءة ماء الأرض وملوحيته ، فكل هذه العوامل تجعل نشاط سكان الجهة مقصورا على الفلاحة؛ فلاحة قليلة الإنتاج لا يمكن أن تفى بحاجيات سكان مدينة عظيمة .

إن الرومان ولاشك حاولوا أن يخففوا من وطأة الظروف الطبيعية القاسية فاستغلوا العبيد لجلب المياه وسقى ما غرسوه من أشجار الزيتون

وهى أشجار أكثر ملاءمة للمناخ ، فأنشأوا غابة من الزيتون أثارت إعجاب جيش المسلمين عند فتح إفريقية ولكن موارد هذه الزياتين لم تكن لتبلغ من الأهمية ما يجعلها العامل الاقتصادى الوحيد على ازدهار مدينة الجم القديمة ذلك الازدهار .

فعلينا إذاً أن نوجه بحثنا إلى بقية ميادين الحياة الاقتصادية علنا نجد لمشكلنا حلا .

ليس لدينا عن الصناعة أية وثيقة تاريخية ولكن انعدام الوثائق عن هذه الناحية من النشاط الاقتصادى يدعونا إلى اعتبارها ناحية ثانوية قليلة الأهمية .

لذلك وجهنا عنايتنا إلى دراسة النشاط التجارى لمدينة الجم فى القديم فاتضح لنا أن هذه المدينة اتجهت نحو التجارة منذ القرن الأول قبل المسيح .

فقد جاء فى كتاب « حرب إفريقية » المنسوب إلى يوليوس قيصر أن بعثة من سكان الجم أتوه عندما كان بالمنستير وأعلموه أن لهم ما يساوى ستة وعشرين ألفا ومائتين واثنين وخمسين هكتوليتر قمحا مذخرا فى مدينتهم ملكا لبعض التجار الإيطاليين ورغبوا منه أن يوجه إليهم فرقة من جنوده لحمايتهم وحماية أملاكهم .

فيمكن أن نستنتج من دراسة هذه الوثيقة .

أولا : إنه كان بالجم فى ذلك الحين جماعة من التجار قدموا من إيطاليا لابتياع القمح وكانت الجم السوق التى اتجهوا إليها .

ثانيا : إن كمية القمح المتحدث عنها هامة جدا خاصة والظروف السياسية المضطربة والحروب الدامية كان من شأنها أن تنقص من نشاط الفلاحين ، وإذ منتوج ثلاث قناطير من القمح فى الهكتار يعتبر الآن كمنتوج مرضى جدا فتكون هذه الكمية إذا منتوج سبعة آلاف هكتار أى منتوج مساحة

فسيحة جدا وليست هذه مساحة واحدة إذ أن فلاحى ذلك العصر كانوا لا يزرعون إلا فى الأودية تاركين مساحات واسعة للمرعى .

فلا بد أن يكون تجار الجم قد اتجهوا عند جمعهم هذا المقدار من القمح لا إلى فلاحى جهتهم فحسب بل إلى فلاحى منطقة متسعة جدا فتبدو لنا إذاً الجم منذ ذلك العهد كسوق تتجمع فيها المنتوجات الفلاحية لمنطقة مترامية الأطراف ، ولكن الجم بقيت رغم ذلك حتى القرن الثانى مركزا تجاريا متواضعا لأن منتوجات الجهة إذا استثنينا القمح لم تكن هامة جداً .

ولكن الثورة الفلاحية التى عرفتها إفريقية فى القرن الثانى والمتمثلة فى انتشار غرس الزيتون جعلت من الجم عاصمة الزيوت فى الجهة كصفاقس حاليا .

وقد وافق ذلك ازدهار اقتصادى عام فى إفريقية فنمى عدد السكان وكثرت المدن واتسعت وتعددت الطرقات وتحسنت فأصبحت الجم واسطة شبكة الطرقات فى الجهة الوسطى من البلاد التونسية فكانت لموقعها الممتاز تربط تجاريا بين موانى الساحل ومدن داخل البلاد فكانت تجمع منتوجات الجهة وتمد الموانى بالمصدرات وتوزع من ناحية أخرى ما توردە تلك الموانى .

والجم كانت مفترق طرق تربط بينها وبين سوسة وبينها وبين لمطة وبينها وبين سلقطة وبينها وبين انشلة وبينها وبين طينه ولكن من أهم الطرقات التى كانت تمر بالجم هى الطريق الرابطة بينها وبين سبيطلة وتلبث تلك الطريق التى تتصل بطريق قرطاج إلى تبسه وتمر بعدة مراكز معمارية هامة واستعمل أهالى الجم هذه الطرقات للقيام بتجاراتهم المتنوعة البضاعات ، وللزيت فى هذه التجارة المقام الأول ولنا عن ذلك أدلة :

أولا : أهمية غابة الزيتون فى تلك الربوع ، تلك الغابة التى اندثر القسم الوافر منها ولكن ما زالت آثارها تظهر لنا مبتسمة فى الصورة الجوية لتلك الجهة .

ثانيا : وفرة المصابيح الزيتية الدالة عن نمو الإنتاج الزيتى . فإحصائيات فهرست متحف « باردو » تدل على أن هذا المتحف يشتمل ، حالما وقعت الإحصائيات ، على مصابيح عثر عليها فى الجم ، صنعت فى القرن الثانى والثالث . وتساوى سدس مجموع المصابيح الرومانية التى وجدت بتونس . وليس لقرطاج ، أى عاصمة البلاد إلا الرتبة الثانية بعد الجم .

ثالثا : ما نلاحظه مرسوما على أوانى تلك الفترة من مشاهد تصور رواج استغلال الزيت فى نفس الفترة (مثلا صورة العبد الحامل لإحدى جرات الزيت) .

رابعا : قيام ثورة سنة مائتين وثمان وثلاثين بعد المسيح فى الجم ومبايعة والى إفريقية قرديان Gordien إمبراطورا فى شهر فيفرى أى فى شهر تم فيه جمع الزيتون وابتدأت العمليات التجارية لبيع الزيوت فمبايعة قرديان إمبراطورا فى هذه المدينة يدل على أنها كانت تعرف فى مثل هذه الفترة من كل سنة نشاطا عظيما وأن أهالى الجهة يتجمعون فى ذلك الشهر فى هذه المدينة .

والمعتقدات الدينية لأهالى هذه المدينة تؤيد ما افترضناه من أهمية التجارة بالنسبة لحياة المدينة : فقد كانت غالب مدن وقرى إفريقية فى ذلك العهد تعبد آلهة فلاحية كساتورن Saturne بينما كان إله الجم الساهر على كيانها حامى حماها مركور ، أى إله التجارة وإله الأسفار .

وعبادة هذا الإله بهذه الصفة أى باعتباره الإله الساهر على كيان

المدينة ظاهرة نادرة فهو إله الجم ولمطة وصبراطة فحسب وهى كلها مدن تجارية قبل كل شيء .

واعتبار أهل الجم مركور الإله الساهر على مدينتهم تثبت عدة نقائش سنخص بالدرس منها نقيشة البصرة (Bostra) عاصمة المقاطعة الرومانية بالبلاد العربية إذ ذاك والمركز الفلاحى لتلك الجهة المنتجة للحبوب وهى نقيشة رسمت على مذبح شيده بعض أهالى الجم الذين كانوا مقيمين فى تلك المدينة للمتاجرة وأقاموه تقربا للإله مركور حامى مدينتهم وهذا نص النقيشة :

MERCU
RIO
AUG (usto)
SAC (rum)
TUSDRI
TANI
GEN (io) COL (oniae)
S (uae) F (erunt).

وهذه ترجمة نص النقيشه :

إلى مركور المقدس

نحن أبناء الجم

(نقيم هذا المذبح)

لحامى حمى مدينتنا

(أقمناه) من مالنا الخاص .

فهذه النقيشة تؤيد ما قدمناه من أن مركور هو الإله الحامى لمدينة الجم وأن هـــذه المدينة مدينة تجارية كانت تجارتها تمتد إلى أبعد الأقطار كما يدل على ذلك وجود هؤلاء التجار أبناء الجم فى البصرة .

وهى وثيقة من أثمن الوثائق لدينا لأنها تقيم الدليل القاطع على أن العلائق التى تربط بين مختلف بلداننا ليست بنت اليوم بل هى علائق أقناها بيننا من قديم العهود ولم تزدها الأيام إلا توثقا .

لقد اتضح لنا إذاً فى هذه الدراسة السريعة أن مدينة (Thysdrus) الجم الحالية قد تطورت بين القرن الأول قبل المسيح والقرن الثالث بعده تطوراً اقتصاديا هاما فمن مركز فلاحى لجمع القموح تحولت إلى مركز تجارى هام سيطر اقتصاديا على جهة فسيحة من البلاد وكان ذلك نتيجة طبيعية لازدهار فلاحة الزيتون من ناحية وتعدد الطرقات وتحسنها من ناحية أخرى ، وقد ازدهرت هذه التجارة ازدهاراً جعلها تمتد إلى أبعد البلدان .

فإذا رجعنا الآن إلى النظر فى التطور المعمارى للجم القديمة وجدناه يماشى هذا التطور الاقتصادى ويسايره .

قد أقامت هذه المدينة فى الفترة الأولى من نموها ملعبا (Amphithéâtre) صغيرا حفرته فى الصخر ثم بنى فى مرحلة ثانية ووسع فى مرحلة ثالثة ولكنه لم يصل إلى أن يفى بحاجيات أهالى الجهة خاصة وقد ازدهرت المدينة ازدهارا عظيما فى مستهل القرن الثالث فشيد القصر الذى بقيت لنا آثاره ماثلة وشيد على حسب حاجيات الجهة فكان فخما عظيما إذ كانت الجم وهى العاصمة الاقتصادية الجهوية التى أوضحنا أهميتها عاصمة الألعاب أيضا يأتيها النظارة من مختلف نواحى الجهة فكانت بذلك عاصمة جدهم ونشاطهم وعاصمة أنسهم ولهوهم .

هنين العتيقة وهنين الحديثة

للأستاذ عبد القادر محداد

هيئة العتيقة قرية درست أكثر آثارها وامحت أغلب معالمها وقد كتب لها القدر أن تبعث وتخرج للوجود بعد موت دام أربعة قرون ونصف . تخيلوا جبالا شاهقة تشقها أودية وشعاب عميقة تطل على البحر الأبيض فى مقاطعة تلمسان الحالية على أربعين كيلو مترا من الحدود المغربية ، جبالا إلى سنين غير بعيدة كانت متوحشة تسكنها قبائل عربية قد أبلت بلاء حسنا فى الحرب الأخيرة ، وقد اضطرت السابقة أن تخط الطرق فى تلك الجبال للتمكن من مراقبة الأهالى وفى حجر تلك الجبال على نحو عشرة كيلو مترات من مصب نهر تافنا قرية حديثة وليدة الحرب إذ أجبرت السلطات الفرنسية العشائر المجاورة إلى التجمع هنالك وإلى بناء دور خفيفة فصار ذلك التجمع قرية ولما انتقل الحكم إلى الجمهورية الجزائرية جعلت منها بلدية وبنت بها دار البلدية ومدرسة والمبانى الرسمية اللازمة ، وتظهر اليوم القرية بمظاهر القرى الأخرى بدكاكينها ومقاهيها وأسواقها غير أن السكان لا يدرون أنهم بنوا دورهم على أنقاض دور أخرى وفى موقع كان مدة قرون مرسى ترسى فيه المراكب والسفن . هذه هى قرية هنين الحديثة المبنية فوق هنين القديمة وقبل أن نصف البقية الباقية من آثارها لا بأس أن نلم بشىء من أخبارها .

أول من ذكر هنين هو البكرى فى كتاب المسالك والممالك على أنها حصن لا مرسى كما صارت بعد ، والمرسى الموجود حينئذ هو مرسى رشقون الفينيقى على مصب نهر تافنا الذى كان ملتقى التجار والمسافرين فلم يمر قرن حتى رأينا مرسى رشقون آخذا فى الأفول والاندراس بينما مرسى هنين يزيد أهمية

وعمرانا ، ووصفه الإدريسي محفوفا بالجنات اليانعة . وبما أن المرسى ليس مستورا عن الأرياح الغربية فقد اضطر أهله أن ينحتوا مرسى داخليا تدخله السفن من باب يغلق عند الحاجة والباب هذا يشبه الباب الموجود إلى الآن فى مدينة بجاية ويسمى باب البحر ، وباب هنين كان لا يزال موجودا إلى أواخر القرن الماضى .

ومن المرجح أن ازدهار هنين يرجع إلى عصر الدولة الموحدية ، ولا ننسى أن مؤسس هذه الدولة هو عبد المؤمن بن على ، نشأ فى قبيلة كومية القاطنة إذ ذاك بتلك النواحى ، ولعل أكثر بناءاتها يرجع إلى ذلك العهد ولكن الظروف التاريخية أرادت أن تلعب هنين دوراً هاما بعد انهيار الدولة المؤمنية وقيام الدولة الزيانية بتلمسان فصارت هنين همزة الوصل بين المغرب الأوسط وما بقى للمسلمين فى الأندلس فى القرن الرابع عشر ، وتقابلها فى العدوة الأخرى من مملكة غرناطة مرسى المرية وجعلت السفن تتخالف بين المرسين ، إما للتجارة وإما للجهاد ، وشاهد مرسى هنين منظرين هائلين للمفكر بن خلدون فشاهده مرة أولى مضطهدا يريد الفرار من ملك المغرب أبى الحسن المرينى الزاحف إلى تلمسان فيأمر الملك المغربى بقبضه وإلقائه فى السجن . ثم يشاهده مرة ثانية راجعا من غرناطة وقد شم رائحة انقباض من ملكها محمد الغنى بالله ووزيرها لسان الدين بن الخطيب فيجد فى مرسى هنين رسل ملك تلمسان أبى حمو موسى ينتظرونه ويأتون به إلى مخدومهم فيوبخه على خذلانه ثم يطلق سراحه ـ وشاهد أيضا مرسى هنين نزول لسان الدين بن الخطيب فى سفره الأخير يجرى إلى حتفه بفاس بعد مروره على تلمسان .

ولكن الحرب القائمة بين ملوك غرناطة والأسبان التى أدت إلى سقوط آخر دولة عربية بالأندلس كان من حظها أن غيرت مهمة مرسى هنين وأصبح بضرورة الحال رباطاً للجهاد ومركزا للقرصنة تغزو سفنه شواطئ

أسبانيا وتنهب وتسبي – غير أن استيلاء الأسبان على وهران بالعدوة الإفريقية أدى إلى استيلائهم على مرسى هنين فأقاموا بها سنين قلائل ثم انسحبوا عنها بعد تهديم وتدمير فتفرق أهلها ، وصارت المدينة السفلى أطلالا أخنى عليها الدهر كما أخنى على لبد ، ولم يبق من هذه المدينة السفلى إلا حمام مقبب رمم واستعمل فى القرية الحديثة وأما صومعة المسجد فكانت لا تزال قائمة إلى أواخر القرن التاسع عشر ثم انهارت كما أن باب البحر الذى لا يزال يذكره ساكنو تلك النواحى انهار هو الآخر منذ نحو عشرين سنة . هذا مصير مدينة هنين السفلى ومصير مرساها الداخلى وقد بنيت فوقها قرية حديثة ، وأما أعلى المدينة فقد بقى منه سور بشرفات يحيط بالمدينة من الطابية ، والسور مدعم بأبراج مربعة الشكل من الطابية أيضا – ويعلو المدينة من جهة الجنوب قصبة محصنة كانت مقر قائد المدينة ، وقد تحطم أكثرها ثم رممتها السلطات السابقة وجعلتها مقراً للجنود .

وناحية هنين خصبة بالآثار : على عشرة كيلومترات منها نحو الشرق مرسى رشقون الفينيقى ، كان موضوع حفائر منذ زمن طويل وتتوبعت تلك الحفائر على ضفاف نهر تافنا فأسفرت عن نتائج تدل على أن الفينيقيين كانوا لا يقتصرون على شاطئ البحر بل يتوغلون داخل البلاد .

وشرقى وجنوب هنين آثار مدينة سيقا البربرية كانت عاصمة لأحد الملوك الذين كانت تحميهم رومية قبل أن تحكم البلاد مباشرة .

وفى السنة الأخيرة عثر على مدينة بربرية لا يذكرها المؤرخون ونأمل أن الحفائر التى ستجرى بها تأتينا باكتشافات قيمة .

عمليات فى حفائر اصطيف وشرشال

للأستاذ دهنية عطاء الله

بما أن الحكومة الجزائرية لم تنشأ إلا منذ عشرة أشهر وبما أن مديرية الثقافة لم تتجاوز حياتها أكثر من شهر ، فليس بالإمكان تقديم بحث شامل عن الحفائر فى الجزائر وإنما نقتصر على ما وصلنا منها فى أثناء الحقبة القصيرة .

وقد استمرت عمليات الحفر خلال السنوات الثلاث الأخيرة فى جميع القطر الجزائرى أينما أمكن ذلك ، أى بتيمقاد وجميلة ولامبيز وشرشال وبطيوة وتيبازا ولم يعثر على أى شىء يستحق الذكر ؛ غير أنه عثر أثناء السنوات الأخيرة على شيئين هامين وهما ، أولا : اكتشاف مدينة حقيقية فى محاط سطيف نفسها والتى سيُعطى وصف مفصل لها فيما بعد . وثانيا : إنه اكتُشفَ أخيراً فسقيتان كبيرتان فى نواحى شرشال . وإن وزارة التربية الوطنية ومديرية الشؤون الثقافية ستبذلان عناية خاصة لدراسة الآثار الإسلامية . ولقد مُنحت مالية هامة لمصلحة الآثار لكى تستأنف فى نطاق واسع عمليات الحرف التى شُرع فيها منذ سنين عديدة فى قلعة بنى حماد ، وقد عثر إلى حد الآن على أسس قصر باديس ؛ إلا أن المدينة ودورها ودكاكينها وحماماتها وقصورها ما زالت مدفونة تحت أربع مترات فى الأرض . ولهذا يجب الحفر عليها وذلك يتطلب سنوات من العمل .

مثال عن عمليات الحفر بمدينة سطيف :

إن ماضى « سيطيفيس » القديمة التى كانت مستعمرة رومانية ثم صارت عاصمة موريطانيا السيطيفية[1] لا يشهد عليه إلا بناءٌ أثرى واحد وهو رواق

(١) هى مدينة سطيف الحالية على الطريق الحديدية التى تمر من الجزائر إلى قسنطينة .

جميل كان يحيط بعين ماء . وإن مجموعة من الكتابات اللاتينية قد وُضعت فى ممرات الحديقة وقد احتفظ بأوان قديمة ونقود فى إحدى قاعات الليسى الصغيرة . وأما القلعة البيزنطية التى رممت أثناء الاحتلال الفرنسى فتحيط بالحى العسكرى .

وفى شهر مايو سنة ١٩٥٨ عين السيد ڤاسبارى مهندس الجسور والطرقات بسطيف . وكان السيد ڤاسبارى قد أتى من مدينة شرشال حيث اكتشف عرَضا فسيفساء فى جزيرة المنارة ، ثم استمر فى عمليات الحفر اللازمة تحت إشراف مدير مصلحة الآثار المباشر إلى أن استكشفت المنارة القديمة . وقام بتقديم هذا الاكتشاف السيد لاسوس إلى أكاديمية التخطيطات بباريس فى جلسة ٣ يونيو سنة ١٩٥٩ .

وعند وصوله إلى سطيف سعى السيد ڤاسبارى حالا فى أن يحافظ على بناءين أثريين حيث اكتشف وراء معبد اليهود حائطاً جميلا مزيناً بمشكاة : وكان الجنود قد شرعوا فى تهديم جزء من سور رومانى بشرقى المدينة قد اكتشفوه وهم يحفرون على أنبوب . فلما عين السيد ڤاسبارى مدير مصلحة الآثار الجهوية أوقف حيناً عمليات الهدم ومكّنته المصلحة من الوسائل اللازمة لكى يستمر فى الحفر حول البقايا المستكشفة التى تدل على أهميتها العظمى .

وفى السنوات التالية أثناء بناءات مختلفة جديدة وأيضاً على أراضى عسكرية استمر السيد ڤاسبارى فى بحوثه وأمده عاملو العمالات المتتابعون بفرق عمال ازداد عددها أكثر فأكثر . وكانت تُمْنح أجور هذه الفرق من ماليات مخصصة للبطالة . وفى الوقت الحاضر تتابع عمليات الحفر ويبلغ عدد العمال الذين يشاركون فيها ١٣٠ شخصاً منهم ١٥ يكوّنون الإطارات وتمنح لهم أجورهم من طرف مصلحة الفنون الجميلة و١١٥ شخصاً تقوم العمالة بأداء أجورهم . وإن السيد فيفرى العضو كان بالمدرسة الفرنسية بمدينة روما قد كُلّف

من طرف السيد لاسوس بالمراقبة العلمية وبالدراسة ونشر الآثار المستخرجة من بطن الأرض .

وهاهى قائمة موجرة للبناءات المستكشفة :

١ — فى شرق المدينة القديمة السور الحائط المركّب بناؤه من الأحجار الناتئة قد عرى على طول ٤٠٠ متراً ، ولقد احتفظ بست طبقات حجرية فى بعض الأماكن منه .

٢ — ولقد شيد هذا الحائط فوق مقبرة قد تابع حَفْرَها السيد ڤاسبارى من الجهة الأخرى المؤدية إلى طريق بجاية . يوجد ثمّ خندق كان له فى البداية ٣٠ م طولا و١٠ عرضاً والذى زيد فى عرضه مرتين قد ساعد على اكتشاف مئات من القبور التى تنتمى إلى القرن الأول والثانى والثالث م . هذه القبور موضوعة على عدة طبقات وتمثل مختلف مذاهب مأتمية من دفن وترميد . وإن هذه القبور مصنوعة من شبه توابيت من حجر وقرميد ونجد بعض التوابيت من مزيج من الملاط والماء والرمل النقى . ومن بين الشواهد المستكشفة نجد اثنى عشر منها ذات طول مُفرط ، ويبلغ فى بعض هذه الأحيان طول هذه الشواهد مترين وعليها كثير من التزويق والتخطيط . وقد وُجدت قائمة وما زال هذا موقع يدهش الناظر إليه . وإن ٣٠٠٠ من الآنية من أنواع مختلفة تمثل أثاث هذه القبور قد أخذت ورتبت حسب أنواعها .

٣ — إن الحائط ذا المشكاة الذى يمر وراءه شارع والذى يوجد بين معبد اليهود والقلعة البيزنطية كان يكون الجانب الأسفل من فناء معبد ، وهذا المعبد قد أصابه هدم كبير إلا أنه قد بقى أشياء هامة من تزيينه من طنوف وأعمدة وبقايا ما كان يُجعل فى أعلى الأبواب ؛ فهذه الأشياء قد اكتشفت أثناء عمليات نزع الردم . وعمليات الحفر هذه قد ضايقتها بناءاتٌ مجاورة لها .

٤ — اكتشف السيد ڤسبارى فى الوجه الغربى من القلعة البيزنطية بعد أن بدأ الحفر من حدود المستشفى زقاقاً مبلّطا فى غاية من الحفظ أوصله إلى باب حائط المعبد الثانى . وهذا البناء الذى هو أهم من البناء الأول كان محاطا بفناء له رواق واسع . وكان هذا المعبد مبنياً على قاعدة مزينة وفى غاية من الاحتفاظ . وما بقى من البناء نفسه فى هذه المرة أيضاً إلاّ شذرات وأسس وأعمدة وتيجان وطنوف وواجهات ؛ وكثرة هذه الأشياء تمكننا من تجديد هذا البناء الأثرى رسماً ويستمر البناء داخل القلعة البيزنطية ؟

٥ — وفى الشمال الشرقى من هذا النَّقب قد مكنتنا خنادق من اكتشاف حى كامل ينتمى إلى القرن الرابع م وقد ازاح عنه السيد ڤاسبارى التراب على مسافة هكتارات كثيرة بين طريق المستشفى والسور القديم . وهذا الحائط مع أنه على حالة غير جيدة فإنه ذو روعة للناظر إليه . وقد نُقب عليه الآن على طول مئات من الأمتار .

وأهم اكتشاف فى هذا الحى هو وجود كنيستين مسيحيتين متشابهتين ذات ثلاثة أروقة قد بُنيت فى آن واحد فى الربع الثالث من القرن الرابع م ؛ وأكبرهما تنتهى إلى الجنوب بمحراب رئيسى . والمحراب الثانوى لم يبق منه إلا سردابه فقط فى وسط الحائط الشرقى . والكنيسة الأخرى موجهة نحو الشرق . والذى تتخصص به هاتان الكنيستان هو أنهما كانتا مغطتين ببلاطات من الفسيفساء تغطى كل منها قبرا . و٥٤ من هذه البلاطات التى طولها ٢,١٠ وعرضها ٧٠, وُجدت فى غاية من السلامة ونرى عليها كثيراً من الرسوم الهندسية والخطوط المؤرخة من ٣٧٨ إلى ٤٢١ وليس منها إلا واحدة مؤرخة فى ٤٧١ . وهذه الفسيفساء التى حافظ عليها أحد صانعى الفسيفساء من المصلحة تنى بمعلومات هامة فيما يخص تاريخ المدينة وانتشار المسيحية وهى كذلك علامة تساعد على تاريخ البلاط المصنوع من فسيفساء تلك الناحية .

٦ – وأثبتنا ذلك حيناً بفضل اكتشاف فسيفساء مربعة فى حمامات خاصة جميلة موجودة على ١٠٠ م شمال الكنيستين . وهذه الفسيفساء تمثل تبرّج ڤينوس [ربة الجمال] . وهذا التبليط الذى هو على غاية الحفظ له قيمة كبيرة من الناحية الفنية ؛ وتزيين حاشيته التى نقارنها بحاشية القبور المسيحية تسمح لنا بنسبته إلى حوالى سنة ٤٠٠ م . وهذه الإشارة هامة جدا لتاريخ مجموعة التبليط المماثل .

٧ – واكتشف السيد ڤاسبارى فى الأسابيع الأخيرة قاعدة منحنية الشكل منقوشة بنوع التضليع ووراءها بناء تحتانى على درجات صغيرة ويغلب الظن أنه كان ميداناً لسباق الخيل لا مسرحاً أو مدرّجاً وهذا البناء قد تم تنقيبه على مسافة ٧٠ م .

٨ – واكتشف أخيرا السيد ڤاسبارى من ناحية الشمال مقبرة أخرى أمدتنا بكثير من الكتابات .

وهذه كلها نتائج سريعة يرجع الفضل فيها إلى عزم واجتهاد السيد ڤاسبارى وإلى المساعدة الهامة التى منحتها السلطات المحلية . وتتطلب عمليات حفر واسعة النطاق كهذه من الأثرى مهارة كبيرة وجهودا مستمرة ، وراقب السيد فيفرى سير عمليات الحفر ليستطيع أن يجمع العناصر اللازمة لتفسير البقايا المستكشفة .

وجعلت هذه النتائج المحصل عليها إلى حد الآن مدينة سطيف مركزا أثرياً هاماً . وما بقى الآن إلا دور الدعاية لكى يقف السواح الكثيرون المتوجهون نحو الآثار الموجودة بجميلة فى مدينة سطيف ويشاهدوا آثارها .

حفائر شرشال من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٣

إن قيصرية أو شرشال الموجودة على الساحل الغربى من مدينة الجزائر كانت تسمى أيول وأسسها الفينيقيون فى القرل الرابع ق م . ثم كبرها

وحسنها الملك يوبا الثانى وسماها قيصرية اعترافاً بجميل القيصر أوغسطس وجعلها عاصمة مملكته موريطانية : بها ساحة رومانية وحمامات ومسرح وملعب وميدان وبها تماثيل كثيرة على غاية من الجمال .

وفى سنتى ١٩٥٨ و ١٩٥٩ تمكّن النقّابون من إخراج مجموعتين عظيمين :

أولا : فى رأس (تيزْغين) حيث أزيح التُّراب عن عمارتين الواحدة فوق الأخرى ، والأولى مبلطة برخام ، والثانية وهى أحدث من الأولى وتنتمى إلى القرن الثانى أرضيتها مغطاة بقطع من الفسيفساء .

ثانياً : فى جزيرة Zowirille عندما اكتشـفت عرضا قطعة من الفسيفساء فأدى ذلك شيئاً فشيئاً إلى إخراج عمارة ثم صهاريج ثم منارة مثمنة الأضلاع قطر دائرتها يبلغ ١٧ متراً ويُظن علوها يقرب من أربعين متراً وهذا الهيكل ذو الأهمية الكبرى يظهر أن تأريخه يرجع إلى عصر الملك جوبا الثانى Juba II وقد تمكن النقابون غير بعيد من المنارة المكتشفة من إصابة بعض آثار تنتمى إلى القرن الثالث قبل الميلاد .

ومنذ سنة ١٩٦٠ اتجهت الحفائر نحو ثلاث وجهات :

أولا : إن بعض الحفائر التى قامت بها مصلحة الآثار القديمة بغرب مدينة شرشال فى أرض تُنتسب إلى قائد يوسف حيث كانت البلدية تنوى إقامة عمائر للسكنى أدت إلى اكتشاف معبدين الواحد تلو الآخر . ومع الأسف فإن الخراب أتى عليها والواحد منهما متسع جداً يحيط به فناء طوله يفوق المائة متر وعرضه أربعون مترا مع أروقة عرضها تسعة أمتار .

وبجنوب المعبد قام ألم قازانى مدير الحفائر بأبحاث تامة عن عمارة واسعة مساحتها تبلغ ٦٠٠٠ متر مربع ، وتشتمل هذه العمارة على فناء قائم الزاوية بأبهاء وقاعات للأكل مزينة بقطع من الفسيفساء

وتشتمل أيضاً على فناء آخر يضىء القسم المخصص للحرم وفى الزاوية الشرقية الشمالية حمام خاص للعائلة .

وبغربى هذه العمارة تستمر الأبحاث عن عمارات أخرى .

وكل هذه العمارات لها واجهات على شارع عظيم يمتد من الشرق إلى الغرب تحفه أروقة ، والشارع مبلط تبليطاً احتفظ برونقه ، وقد أزيح التراب عن هذا الشارع مسافة ٤٠٠ متر ، وبعد حفائر ظهر أن الشارع يخترق مؤسسات صناعية كثيرة كحوانيت للصباغة وأفران لطبخ أوانى الزجاج والخزف .

وقد اتبعنا هذا الشارع إلى أن أدى بنا إلى باب فُتح بسور المدينة وبعد الشارع خارج المدينة قمنا بحفائر سنة ١٩٦٠ وكشفنا عن قسم من مقبرة متسعة تنتمى إلى القرن الثانى والثالث للميلاد ورموس المقبرة تعلوها صناديق حجرية أحياناً ، وأحياناً أخرى شواهد مقبرة وتحتوى الرموس على أوان كثيرة وأما الكتابات فإنها لا توجد إلا نادراً .

ونرجو أن يأتينا هذا الحى الذى لا نزال نزيح عنه التراب بمناظر طريفة لمدينة قيصر القديمة .

وقبل أن يُشرَع فى بناء للسكنى فى الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة عثر بعد حفر على هيكل بمحراب (abside) ولعله بهو مزخرف بزخارف بديعة ، وبلاطه يشتمل على خمائل من أفنان مشتبكة غير أن أرضية القاعة القائمة الزاويا التى قبل المحراب مبلطة بقطعة من الفسيفساء تمثل صوراً آدمية ذات حجم طبيعى ظهر فيها قران الإلاهتين Thetis et Pélcé على لوحتين ، ومن الأسف أن هذه القطعة أتى عليها الخراب من نواح كثيرة وقد رفعت من محلها وجعلت فى جنة مصلحة الحفائر .

وأخيراً ، فى هذه السنة ، منذ أشهر قلائل ، عندما انتهت الحفائر السابقة

عثر ألم فى ملعب كرة اليد على حجر لدارٍ أنفس من الأولى ، وقد أخرج إلى الضوء أربع قطع من الفسيفساء : تمثل الأولى أفنانا والثانية معركة عنيفة للحيوان والثالثة تقدم لنا نصراً جديدا لـ Venus البحرية ، وقد جلست على ودعة محفوفة بخيل نصفها الأعلى إنسان ونصفها الأسفل حصان ، وبالإلاهات راكبة عنقاء مُغْرِب ، وأما القاعة الأخيرة فهى مستديرة مزخرفة بقطعة من الفسيفساء ذات خطوط هندسية بسيطة ولعلها كانت مغطاة بأسرة الأكل وبوسطها دائرة بكتابة وكل هذه القطع تنم عن أسلوب قوى وبسيط معاً ، ولعل تاريخها يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس للميلاد .

وجميع هذه الاكتشافات تمكننا من القول بأن موقع شرشال القديمة خلافاً لما كان يُظنّ لا يُغطّي بصفة نهائية شرشال المعاصرة ، وبين حدود المدينة الحالية والسور الرومانى توجد أرض واسعة لعل تنقيبها يأتينا باكتشافات مفاجئة سارّة .

لمحة عن الحلى الذهبية القديمة وروائعها

فى المتحف الوطنى بدمشق

للأستاذ بشير زهدى

إن أعمال الحفر والتنقيب التى جرت فى مناطق مختلفة من أرض سورية — وأخص بالذكر منها قرى طفس وتسيل ، وفيق وخسفين ، والزوية وتل أم حوران وغوطة دمشق وتل أبى صابون قرب حمص ، وحماة وتل بنى منذ ، وجبلة ويحمور ، ورأس شمرا وتدمر ، والرقة ومارى . . . الخ — كافأت المنقبين بمجموعات هامة من الحلى الذهبيـــة القديمة حفظت فى المتاحف الوطنية . ثم أخذت مجموعات الحلى ترد بكثرة إلى المتحف الوطنى بدمشق بفضل نشاط أعمال الحفر والتنقيب ، ووعى المواطنين الكرام ، وحرصهم على حفظ آثار بلادهم فى متحفهم الوطنى حتى بلغ عدد قطع الحلى الذهبية القديمة فى أحد فروع متحف دمشق (١٢٤٦٨) قطعة ذهبية مما زاد من أهمية هذه المجموعات الذهبية الثمينة ، وجعلها جديرة بأن يخصص لها جناح خاص فى متحف دمشق لتعرض فيه كى يطلع على معروضاته الهامة العلماء المختصون ، وينعم برؤيتها الزائرون العاديون من مواطنين وسائحين .

وهكذا نرى بأنه رغم الغزوات التترية ، والحملات الهمجية ، والحروب الكثيرة التى شهدتها سورية ، فإن أرضها الطيبة قد احتفظت بهذه المجموعات الذهبية فى باطنها ، وكتمت أسرارها للأجيال الصاعدة ، وأخفتها عن عيون اللصوص والغزاة حتى يوم اكتشافها من قبل المسؤولين المختصين أو المواطنين الصالحين .

وإن أهمية هذه المجموعات الذهبية قد دفعتنى إلى دراستها للتعريف بها ، وإبراز جانب هام من رسالة سورية الحضارية عبر العصور ، وحث جيلنا العربى المعاصر على العمل والإبداع لنكون جديرين بأولئك الآباء والأجداد ، وموضع فخر الأبناء والأحفاد ، سيا ونحن فى عصر تشرق فيه على وطننا العربى الكبير من أقصاه إلى أقصاه شمس حضارة حديثة تشمل مختلف النواحى والميادين .

أهمية دراسة الحلى الذهبية القديمة

لهذه الدراسة أهمية كبيرة لأنها متصلة بصميم تطور حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والفنية . كما أنها بمثابة دراسة لمفاهيم الإنسان الجمالية ، وذوقه الفنى ، ورقيه الصناعى ، ونشاطه التجارى ، وتاريخه الاجتماعى . أضف إلى ذلك صلتها بالخبرة المهنية وعلاقتها بمبدأ الادخار ووظيفة الفن فى التوفير :

١ ـ الحلى الذهبية والعامل الاقتصادى : إن ازدهار صناعة الحلى فى مجتمع ما يتأثر إلى حد كبير بمستوى الحياة الاقتصادية لذلك المجتمع . فإذا كانت عادة التجمل بالحلى منتشرة فى كل المجتمعات ، فإن المجتمع الفقير ليس فى قدرة أفراده اقتناء الحلى الثمينة ، كما أن أبناء المجتمع الغنى يبالغون فى طلباتهم لأنهم متعطشون دائماً إلى الترف والبذخ ، حريصون باستمرار على التظاهر والتفاخر . وقد يفرضون أذواقهم الشخصية على الصائغين ، ويحثونهم بذلك على التجديد والابتكار ، والقيام بالتبديل والتعديل فى أشكال الحلى . فيلبى الصائغون طلباتهم ويبدعون لهم الحلى التى ترضى أذواقهم ، وتفوز برضاهم . فيتهافت الآخرون على شرائها لأنهم يعتبرونها عنصر تفاخر ، وثروة ثابتة ذات قيمة مادية ولا سيا فى الأزمات المالية ، مما يدعو الأفراد إلى التمسك بها ، والحرص عليها ، والمبادلة بها وذلك لسهولة حملها ونقلها ، فهى بمثابة قطع نادرة وبضاعة رابحة ، وسلعة سهلة الحمل وقابلة للتداول ؛ وهذا مما يفسر لنا تشابه بعض الحلى الذهبية المكتشفة فى بعض بلاد حوض

البحر الأبيض المتوسط ، وبطء تطور أشكالها ، وقلة تبدل أنواعها عبر العصور لأن أهمية قيمتها المادية تحفظ لها مظهرها الشكلى لفترات طويلة من الزمن .

٢ - الحلى والعامل الاجتماعى : إن الحلى تخضع فى أنواعها وأشكالها واستخدامها للعادات المتوارثة ، والتقاليد الاجتماعية ، والأعراف المحلية . كما أنها - بدورها - تؤثر إلى حد كبير فى نشر عادات جديدة ، وأذواق مبتكرة تتوارثها الأجيال وتضيفها إلى تراثها القديم وتاريخها الاجتماعى .

وإن لكل مجتمع أنواعاً من الحلى قد تختلف فى أشكالها عن حلى المجتمعات الأخرى ، فالحزام المنتشر فى البادية وبعض الأرياف ليس منتشراً فى كل المدن . بل إن بعض سيدات المدن قد لا يرغبن فى التزين به ، كما أن الحلى الثقيلة التى تزين سواعد وأرجل وأصابع وآذان وأنوف نساء بعض البيئات الاجتماعية لا تلقى رواجاً مماثلا فى البيئات الأخرى ، مما يجعل انتشار نوع من الحلى فى مجتمع ما مرتبطاً بعادات ذلك المجتمع ، ومدى تقبل أفراده له ، وإقبالهم عليه ، ومن هـــذه العادات نذكر على سبيل المثال عادة تجمل الأشوريين - نساء ورجالا - بالأقراط ، وتزين الإغريقية ما فوق ركبتها بسوار Periscelis ، ووضع الرومان فى عنق أطفالهم طلسما ذهبياً Bulla ، وتختمهم فى عدد من أصابع أيديهم ، وابتهاج الشرقية بتزيين ساعدها كله بمجموعة من الأساور ، وتزويد الموتى - فى مصر و بلاد ما بين النهرين - بمجموعة من الحلى الجنازية ، وتجهيز الإغريق والرومان موتاهم بحلى جنازية تمثل صورة (ديونيزوس) يبدو متمايلا إشارة إلى الغيبوبة الخالدة للسعداء فى الدار الآخرة . . . الخ .

ولا بد من الإشارة إلى أنه ليس هناك من مجتمع مغلق ، لأن المجتمعات مهما تباينت عاداتها ، فإنها تقتبس من بعضها ما يلائمها ، وتضيفه إلى تراثها الفنى والصناعى والاجتماعى . كما أن ازدهار الحلى يتعلق إلى حد كبير بالحياة

الطبقية للمجتمع ، فالحلى الذهبية تكثر لدى الطبقة السائدة أو المحتكرة للقوى الاقتصادية .

أضف إلى ذلك أن دور المرأة فى المجتمع له تأثير كبير فى ازدهار الحلى ، والتفنن فى إبداعها ، وسرعة انتشار أشكالها ، وهكذا فإن نساء الكادحين لا يتزين بحلى ذهبية ثمينة مماثلة لحلى نساء مجتمع تكثر فيه الصالونات والمنتديات .

مما تقدم يبدو أن فى دراسة الحلى دراسة لعادات المجتمع وتقاليده ، والصلات الاجتماعية بين أفراده .

٣ ــ الحلى وعامل العقيدة والمعتقدات إن الاعتقاد القديم بدور الحلى فى حماية حاملها جعلها بمثابة تميمة ، كما أن اعتقاد القدماء بأن للذهب مفعولا عجيباً من شأنه أن يعيد الشباب . ويطيل الحياة ، ويكثر النسل وأنه يضفى على من يحمله أو يتحلى به صفات الصحة ونعمة الخلود ، وأن الذهب هو المعدن الذى لا يتغير ، فهو إذن المعدن الخالد ، معدن الآلهة ، وأنه واسطة تبجيل ووسيلة تأليه وسبيل تقرب . . الخ ، كل ذلك مما يفسر عادة تقديم الذهب إلى المعابد ، وتزيين المذابح به ، وتزويد الموتى به إلى درجة غدت المقابر مستودعاً غنياً بالكنوز الثمينة ، وغدا الترف المخصص للمقابر يفوق ما كان يتمتع به الأحياء . أما الإسلام ، فإذا كان سمح للنساء بالتزين بالحلى الذهبية والتجمل بها ، فإنه حرم على الرجال التختم بخاتم ما من الذهب ، فنتج عن ذلك انصراف الصائغ إلى إبداع الحلى الذهبية للنساء فقط .

٤ ــ الحلى الذهبى والذوق الفنى : تعتبر الحلى بمثابة مرآة تعكس المفهوم الجمالى ، وتبدو فيها الصور البديعية . فهى مظهر من مظاهر الذوق الفنى ، ونتيجة من نتائج تطوره ، مما يجعل فى دراسة الحلى دراسة لرغبة الصائغ

الفنان فى الابتكار والتجديد والابتعاد عن التكرار والتقليد ، والميل باستمرار إلى اقتباس الأشكال الجميلة من ينابيع الإبداع وعالم الجمال معتمداً فى ذلك على أذواق زبائنه ، ومفهومهم الجمالى ، ومراعياً متطلباتهم الفنية ، وحاجاتهم الاجتماعية ، ومناسباتهم الروحية ، وإمكانياتهم المادية .

٥ ــ الحلى والصناعة : إن إبداع الحلى يتطلب ذوقاً فنياً ، ومهارة صناعية ، وخبرة واسعة فى ميادين عديدة تتعلق بالكيمياء والصناعة والفن . وبتعبير آخر أن ذلك يتطلب موهبة فى الابتكار ، وقدرة على الإبداع ، وخبرة فى العمل ، ودقة فى التنفيذ ، مما يجعل إبداع الحلى من أهم الفنون الصناعية ، وأرقى الصناعات الفنية ، تتميز بمظهرها البديعى ، وطابعها الفنى ، وتقنيتها المهنية .

٦ ــ الحلى ووظيفة الفن فى الادخار والتوفير : ليس الفن لعباً أو تبذير طاقة ، وإن الحلى تعتبر خير دليل على جدية العمل الفنى الذى يهدف إلى الإبداع لخلق قيمة فنية تضفى على العمل الجمال وتمنحه الخلود ، فتتوارث الأجيال المصنوعات الفنية كجزء من تراثها الذى تفخر به وتعتز ، وهكذا نرى بأنه إذا فنى الذين أبدعوا الحلى ، وزال أصحابها من عالم وجودنا ، فإن الحلى تبقى ــ كأى عمل فنى ــ أقوى دليل على خلود الفن ، وخير مثال على وظيفة الفن فى التوفير والادخار لطاقات الإنسان الإبداعية والروحية والمادية .

لمحة تاريخية عن التزين بالحلى

لو استعرضنا تاريخ الحضارات لوجدنا أن رغبة الإنسان فى التزين بالحلى والتجمل بها تعتبر من أقوى الرغبات تأثيراً ، وأقدمها عهداً أو أكثرها استمراراً ، وأوسعها انتشاراً ، إذ يستوى فى ذلك ــ إلى حد كبير ــ البدائيون والمتمدينون ، والقدماء والمعاصرون .

وقد تسابق البشر إلى اقتناء الحلى الذهبية . وتنافسوا فى سبيل الحصول عليها ، وأخذوا يشكلون منها مجموعات تخيلوها مصدر سعادة لهم وعنصر غنى لأبنائهم .

ولكن المختصين والباحثين لم يتفقوا على تاريخ معين لبداية ظهور الحلى الذهبية ، والموطن الأول الذى ظهرت فيه . فهناك من ينسب ذلك إلى مصر القديمة معتمداً فى نظريته على أهمية المصنوعات الذهبية القديمة المكتشفة فيها ، وهناك من يرجع الفضل فى ذلك إلى الكريتيين ولا سيما الميسينيين ، وهناك أيضاً من يعتبر للفنيقيين الفضل فى استخدام الذهب وصناعة الحلى الذهبية القديمة . وسأعالج ذلك بإيجاز .

١ – المصريون القدماء وفن الصياغة :

اشتهرت مصر بغناها وذهبها إلى درجة جعلت الملك الميتانى (توشراتا) يقول للمصريين : (إن الذهب فى مصر كالتراب فى كثرته) ولا سيما فى عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشر . وربما كان اكتشاف المصريين لمعدن الذهب قد حدث صدفة فى إحدى مناطق سواحل البحر الأحمر أو فى النوبة ، فاستحسنوا لونه ، وتذوقوا بريقه ، وأعجبوا بخصائصه ، فأخذوا يحرصون عليه ، ويبحثون عنه ، وينقبون من أجل الحصول عليه لاستخدامه فى صياغة الحلى ووضعه فى مقابر الملوك الفراعنة . ثم أخذوا يتفنون فى صياغته حتى استطاعوا أن يجعلوا من كتله أسلاكاً دقيقة ، وصفائح رقيقة مستخدمين فى ذلك الأدوات البسيطة ، والأساليب البدائية ، ولكنهم كانوا يتميزون بالخبرة المهنية ، والذوق الفنى مما جعل الحلى الذهبية المصرية القديمة تحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الصناعية والصناعات الفنية التى اشتهرت بها مصر . ومن أهم روائعهم الذهبية تاج (نيفريت Nefret وإكليل وتاج الأميرة (خنونيت Khnoumit) وكنز توت عنخ آمون) وحلى رمسيس الثانى فى سيرابيوم ، ولا سيما خاتم (رمسيس الثانى) الذى

يعلوه حصانان يقودان عربة ، أضف إلى ذلك الخواتم والأساور وغيرها من المصنوعات الذهبية الفنية الهامة التى تدل على غنى وترف ، وثراء وإبداع ، وخبرة واطلاع .

وقد استمر الصائغ المصرى القديم على الإبداع فى العصر الهلنستى ، وأظهر البطالمة ميلهم إلى السلاسل والأساور الذهبية الجميلة التى تدل على ذوق فنى ، وعمل أصيل .

من كل ما تقدم يبدو مدى تقدم الصائغ المصرى وإبداعه فى عمل الحلى الذهبية من أقدم العصور ، أو نجاحه فى اقتباسه العناصر الزخرفية لتزيين الحلى الذهبية من تيجان وعقود ، وأقراط وأساور ، وخواتم . . الخ كما يبدو تفننه فى ترصيع الحلى بالأحجار الكريمة ، والعجائن الزجاجية حتى بلغت شهرة الصائغ المصرى الآفاق البعيدة .

٢ ــ فن الصياغة عند الكريتيين والميسينيين والإغريق :

اشتهر الكريتيون فالميسينيون بالإبداع فى فن الصياغة حتى أن الحلى الذهبية المكتشفة فى أوغاريت جعلت البعض يقارنها بالحلى الميسينية ، ويتساءل فيما إذا كانت هذه الحلى من إبداع أفراد جالية ميسينية أقامت فى أوغاريت .

وظهر شغف الإغريق ــ فيما بعد ــ بالأقراط المزينة بشكل حمامة أو إناء أو جرس ، والأساور المنتهية برأس ثعبان ، والعقود المستديرة والمشابك المختلفة .

وقد بلغ ترف المرأة الإغريقية درجة حملت (صولون) على وضع حد له إذ يكفى أن نذكر أن الإغريقية كانت تزين معصم يدها اليمنى بسوار Dextrale وعضد يدها اليسرى بسوار Spinther ، وفخذها بسوار Spathalium . . الخ . ولا شك أن كثرة الطلب وزيادة الإقبال على التزين

بالحلى والتجمل بها مما يؤدى إلى ازدهار هذه الصناعة الفنية ، ويغرى الكثيرين بممارستها .

٣ – فن الصياغة عند الأتروسكيين :

وقد اشتهر الاتروسكيون أيضاً بالعمل الفنى الدقيق طيلة أجيال ، وتعتبر الحلى أحد الميادين الفنية التى أبدعوا فيها ، وتركوا روائع فنية بفضل خبرتهم المهنية التى أتاحت لهم عمل أسلاك دقيقة جداً . وكرات صغيرة جداً كذرات الغبار . مما حقق لهم إبداع روائع فنية ذهبية تتصف بالجمال . وتمتاز بالذوق .

٤ – فن الصياغة فى بلاد ما بين النهرين :

وقد دلت أعمال الحفر والتنقيب فى مقبرة الملكة (شوب عاد) على مدى اهتمام سكان بلاد ما بين النهرين بالحلى منذ زمن سلالة أور رغم عدم أو قلة وجود الذهب فى بلادهم . وقد زودت المكتشفات الذهبية العلماء بمعلومات هامة عن الحلى القديمة المصنوعة من الذهب الصافى . أضف إلى ذلك أن قطع النحت دلت على مدى ميل الآشوريين – رجالا ونساء – إلى التجمل بالحلى عامة والأقراط خاصة ، كما أوضحت أشكال الحلى عند الآشوريين ، ومدى تفنن الصائغ فى ابتكار الأشكال الثقيلة والسلاسل المتحركة ، وميل النساء إلى التزين بالعقود العريضة وغيرها من الحلى الجميلة .

وربما كانت عادة تزين رجال الفرس بالأقراط هى من العادات التى ورثوها عن الشعوب القديمة التى ازدهرت حضاراتها ومدنياتها فى بلاد ما بين النهرين .

٥ – فن الصياغة فى سورية :

إن نتائج أعمال الحفر والتنقيب فى مختلف مناطق سورية برهنت على ازدهار فن الصياغة ومدى تفنن الصائغ السورى القديم فى إبداع نماذج

جديدة وعديدة من الحلى الذهبية وقد عثر فى أحد مساكن (أوغاريت) الأثرية على ميزان صائغ من مجموعة كاملة من الأوزان وقطع ذهبية وفضية لها شكل حلقات مختلفة . أضف إلى ذلك القالب الجميل الذى كان يستخدم فى صنع الحلى ، والقوالب من نوع ذى الشقين ، وطبعات وعصبات . . الخ . مما يدل على مدى ما وصل إليه الصائغ فى (أوغاريت) من ابتكار الأدوات اللازمة لإبداع الحلى الأنيقة ذات الأشكال اللطيفة مما يجعلها رائجة لا فى الأسواق المحلية فحسب بل وفى الأسواق الخارجية أيضاً . وهذا ما يفسر لنا اعتبار البعض للحلى المكتشفة فى بعض بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط عامة وسردينيا خاصة من إبداع مواطنين من الشاطئ السورى .

ورغم الغزوات الهمجية والحروب الوحشية التى أطفأت مشاعل الحضارة فى عدد من المراكز الحضارية القديمة فى سورية ، فإن تقاليد فن الصياغة قد استمرت فى سورية فتوارثتها الأجيال حتى العصر الهلنستى الذى نعمت فيه سورية بمركز هام فى العالم القديم . ويبدو أن فن الصياغة قد استأثر بعطف السلوقيين (٣١٢ – ٦٤ ق . م) ملوك سورية حتى أن الملك أنطيوخس الرابع (١٧٤ – ١٦٤ ق . م) كان كثيراً ما يترك حاشيته ليتجول فى سوق صائغى الفضة والذهب ، فكان يلتقى بالسباكين ، ويقابل الصائغين . فيتحدث معهم ، ويصغى إليهم ، ويتأمل فى إبداعهم الفنى ، فيتمتع بما كان يطلع عليه من أعمال فنية ، وكانت الاحتفالات فى عاصمة سورية ، أنطاكية ، تتميز بظهور الترف الذى كان يتمثل بكثرة الأوانى والتروس والتيجان الذهبية . ولم يكن الصائغ السورى يستخدم الذهب فى إبداع التيجان والأكاليل فحسب بل كان يتفنن فى استخدامه وإدخاله فى النسيج ، وتطعيم الأسلحة به مما جعل السلاح ذاته مظهراً من مظاهر الترف .

وعندما ازدهرت تدمر ، وأصبحت عاصمة سياسية هامة فى الشرق ، ومحطة كبرى للتجارة العالمية ، تتجه القوافل إليها وتخرج منها حاملة البضائع العديدة إلى مختلف أنحاء العالم القديم ظهر البذخ ، وانتشر الترف ، وأخذت الحسان يطلبن الحلى الذهبية ، ويتزين بالأقراط البديعة والأساور المضفورة والمبسطة والعريضة ، والخواتم العديدة المرصعة بالأحجار الكريمة والأطواق الكثيرة المختلفة الأشكال ، والمشابك الكبيرة . . . الخ . ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على تماثيل حسان تدمر لندرك مدى اهتمامهن بالحلى وميلهن إلى التزين والتجمل بها فى عصر اعتلى فيه بعض السوريين عرش روما مثل (كاراكالا ٢١١ — ٢١٧) (وفيليب العربى ٢٤٤ — ٢٤٩) وظهر فيه نفوذ السيدات السوريات مثل (جوليا دومنا ١٥٨ — ٢١٧) وغيرها مما جعل السوريات مثال الأناقة فى ذلك العصر الذى تطلب فيه الترف الاجتماعى والازدهار الاقتصادى التفنن والإبداع فى صياغة الحلى الذهبية حتى غدت تعتبر مظهراً من مظاهر الجمال ، وشارة من شارات الأناقة ، بل إحدى مستلزمات الحياة الاجتماعية التى كان يسودها (مبدأ النفعية فى الجمال) والشعور بالرغبة فى رؤية الجمال فى كل ما كان يستخدمه الإنسان .

وتدل الحلى الذهبية المكتشفة فى سورية على أن الصائغ السورى قد لبى تلك الطلبات وأبدع فى فن الصياغة فى عصر كانت فيه روما تشترى أكثر مما كانت تصدر ، وكانت (روما والولايات الغربية فى نظر السورى . . . أرض الميعاد والمجال الحيوى للكسب والربح) مما أدى إلى ازدهار اقتصادى وصفه الدكتور حتى فى كتابه (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٣٨٣ بقوله : (وقد تجلى التوسع الاقتصادى السورى فى ولايات اللاتين بعدد الجاليات التى يمكن تتبع تاريخها منذ بداية الإمبراطورية حتى نهايتها . . . وملأت السفن السورية البحر كما فى الأيام

السابقة ، وانتعشت الخصائص الفينيقية القديمة) . وقد ارتفعت أثمان الحلى مما دفع (سينيكا) إلى القول بأن ثمن مزرعة أو مزرعتين كان معلقاً فى أذنى المرأة ، وذلك لكثرة إقبال الرومانيات على الحلى والمجوهرات .

أما فى سورية ، فيكفى لبيان أهمية فن الصياغة فيها بشكل عام وفى (تدمر) عاصمة زينوبيا بشكل خاص أن نشير إلى كتابة تعود إلى منتصف القرن الثالث الميلادى وتتعلق بوجود (نقابة لصائغى الذهب والفضة) مما يدل على كثرة الممتهنين لفن الصياغة ، ورغبتهم فى حماية مصالحهم وتنظيم أعمالهم ، وتلبية طلبات زبائنهم ، مما أسهم فى تعدد أنواع المصنوعات الذهبية ، وتنوع أشكالها لأن لنساء الشرق عامة وسورية خاصة ميلاً كبيراً إلى الحلى وذوقاً خاصاً فى حسن اختيارهن النماذج الجميلة الملائمة لهن . ويكفى أن نلقى نظرة سريعة على الآثار المكتشفة فى حوران وجبل العرب لندرك مدى اهتمام السوريات فى العصر الرومانى بالعقود المفردة والمزدوجة ، وأساور المعصم والعضد والقدم ، والأقراط المؤلفة من الكرات وأنصاف الكرات ، والسلاسل الطويلة والحلقات الكبيرة . . . الخ .

أضف إلى ذلك الخواتم والعصبات ، بل يمكن القول بأن الحلى المكتشفة فى حوران وحدها تعتبر من أغنى المجموعات الذهبية المكتشفة فى أية منطقة أخرى فى العالم . وربما كان (روستوفتزف) يفسر ذلك فى كتابه (تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ص ٣٥٣) (فازدهرت حياة جديدة الإقليم الواقع فيما وراء الأردن ، فأصبحت المدن القديمة مراكز تجارية رائجة ، وازداد ثراؤها ورخاؤها . . .) .

وإن الحلى المكتشفة فى غوطة دمشق تتميز بطابع محلى وتؤكد قول ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة) (الجزء التاسع ص ١٢٢) بأن العمال

السوريين الذين اشتهروا بالجد والمهارة فى الصناعات اليدوية إلى درجة أنه لم يكن فى الإمبراطورية الرومانية ولاية تفوق سورية فى صناعاتها .

مما تقدم يبدو خطأ نسبة كل أثر قديم إلى الرومان ، مع أن الطابع المحلى للآثار المكتشفة فى سورية خير دليل على أنها من إبداع مواطنين أخذوا على عاتقهم رسالة الاستمرار على الإبداع ، أضف إلى ذلك أن الرومانى ــ كما وصفه (ديورانت) ــ كان يعوزه الخيال . وكان يحمل ببعض الجهد على أن يحب الجمال ، ولكنه قلما استطاع أن يخلق هذا الجمال خلقاً . . .) .

وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية استمر الصائغ السورى على الإبداع والتفنن مستخدماً الأحجار الكريمة فى ترصيع الأطواق والأقراط ، والخواتم والأساور حتى يخيل للباحثين والمختصين أن الذهب كان بمثابة مادة ثانوية بالنسبة للأحجار الكريمة . وقد تساءل الأستاذ (بول لويرل P. Lewerle) فيما إذا كانت (بيزنطة قد تعلمت من سورية عمل المعادن الثمينة ، واعتبر ما اكتشف فى كيرينيا Kerynia فى جزيرة قبرص من أشياء فضية وحلى ذهبية هى من إبداع سورى . وأكد تأثير المدرسة الفنية السورية على العاصمة القسطنطينية نفسها) .

وقد عثرت البعثة البولونية فى منطقة معسكر (؟) ديوقليسيان فى تدمر على كنز ذهبى هام مؤلف من دنانير بيزنطية وحلى ذهبية تشبه الحلى التى تبدو فى قطع النحت التدمرى .

وعندما أشرقت شمس الإسلام ، تورع الرجال المسلمون عن التزين بالذهب والتدثر بالحرير ، فأخذ الصائغ السورى يبدع الحلى الذهبية للنساء فقط ، ويتفنن فى مظهرها الزخرفى وشكلها الأنيق .

وعندما تعرضت سورية للغزوات التترية والحملات المغولية انحطت الصناعات السورية فى فترة هلك من سكان دمشق وحدها أكثر من ثلاثين ألفاً من سكانها . أضف إلى ذلك أن مصادرة الماهرين من الصناع وتهجيرهم

إلى موطن الفاتحين مما جعل سورية وقتئذ تمر بفترة جمود صناعي وشلل فني .

ولكن الصناعات الفنية أخذت فيما بعد تستعيد مكانتها الأولى ، ومن أهم هذه الصناعات (فن الصياغة) الذى أخذ يزدهر فى عصرنا الحاضر حتى أصبح الصائغ السورى متفوقاً على غيره ، يتهافت على مصنوعاته الذهبية أبناء الأقطار المجاورة وأثرياؤها إلى درجة يمكن القول بأن صادرات سورية من الحلى تشكل قسما هاماً من صادراتها العامة ، وتعود عليها بقسط كبير من دخلها العام بفضل مهارة الصائغ السوري وذوقه الفنى ، واستمراره على الابتكار ، وإبداعه فى التجديد .

روائع الحلى الذهبية المكتشفة فى سورية

مما تقدم تبدو أهمية الحلى السورية عبر التاريخ ، مما يدل على مدى إقبال السوريات على التزين بالحلى والتجمل بها ، والحرص عليها لأنها ثروتهن ، وعنصر تفاخرهن ، ومظهر ترفهن ، وعامل سرورهن ، وسأستعرض أنواع الحلى بإيجاز .

الأقراط : إن كثرة الأقراط الذهبية المكتشفة فى سورية مما يؤكد آراء القائلين بأنه ظهرت فى الشرق للمرة الأولى عادة ثقب شحمتى الأذنين وتزيينها بحلقة معدنية ، فكان ذلك ابتكاراً جديداً أضاف إلى الإنسان عنصراً جديداً من عناصر الزينة التى كانت وما زالت موضع اهتمام المرأة . ويمكن تلخيص تطور إبداع الأقراط الذهبية فى سورية كما يلى :

تعتبر الأقراط الذهبية المكتشفة فى أوغاريت ومارى من أقدم الحلى الذهبية السورية المعروفة حتى الآن لها شكل حلقات ذهبية تنتهى بطرفين دقيقين يكونا — عادة من الجهة الخلفية لشحمتى الأذنين ولبعضها الآخر شكل حلقات ذات مظهر بسيط وطرفين متصلين ببعضهما . ثم أخذ الصائغ السورى القديم يستخدم الخرزات الزجاجية فى تزيين هذه الحلقات مما يضفى على الأقراط

رغم بساطتها جمالا يعتمد على انسجام لون القرط الذهبى مع لون الخرزة الزجاجية ، وقد توصل ذلك الصائغ القديم إلى إبداع أقراط جميلة لها شكل هلال ، وتزين سطحها حبيبات صغيرة جداً . وفى القرن السادس قبل الميلاد أعجب الصائغ السورى بشكل الأقراط الهلالية فأخذ يبدع أقراطاً مماثلة ينتهى طرفاها بشريط طويل ، ويزين سطحها وجوانبها حبيبات صغيرة جداً ، ودوائر تدل على دقة فى العمل وذوق رفيع .

وفى العصر الهلنستى أخذ الصائغ يبدع أقراطاً تنتهى برأس حيوان (أسد ، ثور) . كما أخذ يجعل الأقراط بشكل حيوان خرافى (أسد مجنح) ، ويقتبس أشكال أشخاص من الميثولوجيا (إيروس ، منيرفا ، تيكه ، أتيس . . .) أضف إلى ذلك الأقراط المؤلفة من حلقات أحد طرفى كل منها دقيق ، وينتهى الطرف الآخر بعروة ، وقد رصف فوق الحلقة صفان أو أكثر من الكرات الذهبية المفرغة الصغيرة ، ويزين مقدمة بعض هذه الأقراط أحجار كريمة (كحجر سيلانى ، أو عقيق) .

وفى القرن الأول والثانى بعد الميلاد أخذ الصائغ يبدع أقراطاً أحد طرفى كل منها دقيق ويزين الطرف الآخر رأس امرأة جميلة الملامح .

وعندما كثر استيراد الأحجار الكريمة ، وظهر الميل إلى ترصيع الحلى بها ، أخذ الصائغ يستخدمها فى تجميل الأقراط لتلبية رغبات حسان عصره ، وبدأ ينقش سطح الأحجار الكريمة أو يجعلها تمثل وجه حسناء .

ثم بدأ الصائغ يتفنن فى شكل الأقراط فى القرن الثانى الميلادى ، حتى توصل إلى إبداع أقراط مؤلفة من حلقات ذهبية منثنية لها شكل أذن إنسان ، ثم بدأ يرصعها بالأحجار الكريمة ليحصل من ألوانها على انسجام مع لون الذهب .

ثم ظهر شغف النساء وميلهن إلى الأقراط الكبيرة ، وتذوقهن للأحجار الكريمة ، ولا سيا فى عهد الإمبراطورية الذى كثرت فيه طلبات الحسان

للحلى المرصعة بالأحجار الكريمة أو الفصوص الزجاجية ، وظهر حرصهن على رؤية الانسجام بين ألوان هذه الأحجار الكريمة والأقراص الزجاجية مع لون الذهب وبريقه . حتى صارت هذه الأقراط حلم الحسان وأملهن ، لأنها موضوع منافستهن لبعضهن ، وعنصر تظاهرهن وتفاخرهن فى ميدان السباق فى دنيا الأناقة والرشاقة والجمال .

وفى القرن الثانى والثالث بعد الميلاد أخذ الصائغ يبدع الأقراط الكبيرة ويزينها بكرات صغيرة تبدو كعنقود عنب يتدلى منها .

كما أخذ الصائغ فى القرن الثالث الميلادى يبدع الأقراط الجميلة ذات السلاسل والذوائبات المنتهية بأحجار كريمة أو خرزات زجاجية مما كان يضفى على حسناء ذلك العصر صفة الأناقة ويعطى لحركاتها الرشاقة .

كما ظهرت فى القرن الثالث الميلادى أقراط ذهبية تتميز بقرص كبير يزين سطحه سلك دقيق ملتف يعبر عن ملامح وجه إنسان .

أضف إلى ذلك الأقراط الذهبية المؤلفة من حلقات يتقدمها أقراص ويتدلى من الحلقات أشكال تعلو كلا منها عروة أو ثلاث عرى ، وتضم فى أسفلها خرزة زجاجية أو حجر كريم .

وصارت الأقراط تسمى (حلقات) أذُن ، مما يدل على شكلها ، ولكن هذا الشكل قديم يتميز بالبساطة . وقد عثر فى أوغاريت على عدد منها . إلا أن الصائغ أخذ يهتم بضخامة حجم هذه الأقراط ، ويجعلها مجوفة أو فارغة وذلك اقتصاداً فى المادة ، وابتعاداً عن ثقل وزن الأقراط .

ووجد الصائغ فى شكل الجمل جمالا جديراً بالاقتباس ، فأبدع أقراطاً مؤلفة من صفائح ذهبية لها شكل مشهد جانبي للجمل رصع سطحه بأحجار كريمة .

وفى القرن الرابع والخامس بعد الميلاد ، أخذ الصائغ يتفنن فى إبداع

أقراط ذات عناصر مقتبسة من عالم الأشكال الهندسية (كالهرم والأسطوانة) .

ومنذ القرن السادس الميلادى ظهر تنوق الأقراط الهلالية الشكل ، والأقراط ذات الأشكال نصف المستديرة ، فأخذ الصائغ يتفنن فى إبداع الحلى ، ويتبنى الخيوط الذهبية الدقيقة ليبدع منها أقراطاً ذات مظهر زخرفى ، وتقنية نسيجية تنم عن صبر الصائغ ودقته فى العمل ، وبخاصه فى التنفيذ . وأخذ يزين أطراف هذه الأقراط النسيجية بكرات صغيرة وحبيبات ناعمة ، تضفى على المظهر العام للأقراط جمالا يثير الإعجاب والتقدير والتقييم .

٢ ـ الأطواق : إن روائع فن النحت المكتشفة فى تدمر وحوران وجبل العرب . . . الخ تدلنا على مدى انتشار عادة التجمل بالنقود والأطواق ، بل إنها تساعدنا ـ إلى حد كبير ـ على تحديد تاريخها ، وتعيين أشكالها ، وبيان أنواعها ، وتزويدنا بمعلومات تتعلق بعناصرها وأجزائها ؛ فهناك الأطواق المؤلفة من قطعتين كانت الحسناء تزين بها عنقها ، وهناك الأطواق المؤلفة من كرات ذهبية بسيطة أو من كرات يزين سطحها حبيبات صغيرة جداً . أضف إلى ذلك الأطواق المؤلفة من السلاسل البسيطة أو المعقدة ، والأطواق المؤلفة من زهرات ذهبية ، والأطواق المؤلفة من سلسال ذهبى بسيط ودقيق يضم خرزات من الأحجار الكريمة كالياقوت والعقيق ، والزمرد والفيروز . . الخ . تدل على مدى أهمية الأحجار فى تزيين الأطواق .

٣ ـ الأساور : وتزودنا روائع فن النحت أيضاً بمعلومات علمية هامة تتعلق بالأساور القديمة التى كانت تزين معصم الحسناء وعضدها . وعدد هذه الأساور وأشكالها وإذا كانت الأساور البدائية تتصف بالخشونة فإن الصائغ أخذ يتفنن فى إعطائها الشكل الجميل الملائم لمعدن ثمين كالذهب فجعل الأساور إما بشكل حلقة كبيرة ذات طرف أو طرفين مبسطين ودقيقين . كما أبدع الأساور المؤلفة من عدة أسلاك مضفورة أو مجدولة ذات نهايتين متصلتين . ووجد فى شكل الأفعى والاعتقادات السائدة عنها والمتعلقة بمفعولها

السحرى مما حمله على جعل الأساور بشكل ثعبان أو أفعى ، وجعل طرفى السوار ينهيان برأس أفعى ، أو أن أحد الطرفين له شكل رأس أفعى والآخر له شكل ذيلها . ثم أخذ الصائغ يتفنن فجعل فم الأفعى مفتوحاً ، ومكان العينين مجوفاً ليرصعه بحجر كريم يعطى لمظهر السوار جمالا .

وبدأ الصائغ يستخدم الأحجار الكريمة فى ترصيع الأساور الذهبية ، كما أخذ يهذب فى أطراف السوار لإعطائه شكلا جميلا .

وفى القرن السادس والسابع بعد الميلاد بدأ الصائغ يبدع أساور ذهبية دقيقة تزينها كرات ذهبية مفرغة ومخرمة وخرزات زجاجية لها لون الزجاج الصخرى .

وإذا كانت أساوربعض المتاحف قد نقش عليها حروف تشير إلى اسم الصائغ مثل (زويلاس Zwilac) وغيره ، فإن مما يؤسف له أننا لم نعثر حتى الآن فى سورية على حلية ما تحمل اسم الصائغ الذى تدل مصنوعاته الذهبية على دقة ملاحظة .

ولا بد أن نشير إلى أهمية الأساور (الثعبانية الشكل) تعود إلى الاعتقاد بمفعولها السحرى ، كما أنه كان يعتقد بأن صورة ربة السعادة (تيكه) من شأنها أن تجلب الحظ لمن يتحلى بها . وأن الكرات من شأنها إبعاد كل تأثير سيئ عن كل من يتجمل بها .

٤ – الخواتم الذهبية : لم يكن التزين بالخواتم الذهبية لأسباب جمالية فحسب ، بل كان كامتياز خاص للملك ولفئة معينة من المواطنين وذلك بسبب عراقة نسبهم . وفى عهد الجمهورية الرومانية كان هذا الامتياز يمنح للنواب الذين اختارهم مجلس الشيوخ فأوفدهم بمهمة ما إلى بلد أجنبى مما ينم عن أهمية وظيفتهم . وكانت هذه الخواتم تقدم لهؤلاء من قبل الشعب. أو بتعبير آخر من أموال الخزانة العامة . ولكن الذين فازوا بشرف الحصول

على هذا الخاتم كان لهم الحق فى التختم به فى الحياة العامة بعد انتهاء مهمتهم ، أما فى حياتهم الخاصة فكان عليهم أن يتختموا بخاتم حديدى أسوة بغيرهم . ولكنهم أخذوا فيما بعد يسيئون استعمال هذا الحق بدافع من ميل الإنسان إلى الظهور وحبه للزهو . وكان الخاتم الذهبى فى رأى (بلينى) بمثابة امتياز لكل الشيوخ ، وكان من حق القواد أن يمنحوا الخاتم الذهبى لفرسانهم تقديراً منهم لهم على خدماتهم العسكرية الهامة . كما كان للقائد الحق فى منح الخاتم لكتاب رافقوه فى حملة حربية .

وفى عهد الإمبراطورية كان من حق كل فارس أن يملك خاتماً ذهبياً ، وكان حجم الخاتم يختلف باختلاف الأشخاص وإمكانياتهم وأهوائهم . ولكن إذا كان الخاتم الذهبى من شأنه أن يزيد من شرف صاحب الامتياز بحمله فإنه كان لا يغير كلياً من شروطه العامة . وفى عام ٥٣٩ م أصبح التختم بالخاتم الذهبى حقاً من حقوق الرجال الأحرار الذين كانوا فيما مضى يتختمون بخاتم فضى . أما العبيد فكان لهم أن يتختموا فقط بخاتم حديدى رخيص الثمن .

وأخذ الصائغ يتفنن فى أشكال الخواتم الذهبية ، فبعد ما كانت بسيطة لها شكل حلقة عادية ظهرت المحابس المبسطة وخواتم أختام ومزدوجة وحلزونية ومضفورة ومنتهية برأس ثعبان ، وخواتم يزين سطحها مشهد نصفى جانبى لأحد الأباطرة . أضف إلى ذلك الخواتم التى يعلوها قرص أو كتابة ، والخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة ، ثم بدأ الصائغ يهتم بنقش هذه الفصوص لترصيع الخواتم بها ، مما يجعل قيمتها تتناسب مع أهمية الصور المنقوشة ؛ وندرة الأحجار الكريمة .

وكان الخاتم الذهبى يوضع فى أصبع البنصر ، ثم صار يوضع فى أصبع السبابة ، وأخيراً فى أصبع الخنصر وكان الخاتم الختم يوضع فى البنصر ليسهل بذلك ختم الرسائل والصكوك العامة والخاصة ، وكانت الخرافات السائدة تمنع التختم بخاتم ما فى الأصبع الوسطى .

وفى فترات البذخ ، انتشرت عادة التختم بأكثر من خاتم واحد كشارة ترف ، ودليل غنى ، ومظهر بذخ ، وربما كانت هذه العادة قد انتقلت من الشرق فانتشرت فى ديار الغرب ، فأصبح من مظاهر الأناقة أن يتختم المرء فى أصابع يده اليسرى بثلاثة خواتم ، ثم انتشرت عادة التختم فى أصابع اليدين . بل كان أحياناً يوضع فى الإصبع أكثر من خاتم واحد . وبلغ الترف فى عهد الإمبراطورية درجة جعلت البعض يتختمون بخواتم ذات وزن لا بأس به . وقد اشتهرت حسان تدمر بميلهن إلى تزيين أناملهن بخواتم عديدة مختلفة الأشكال ، جميلة المنظر تنم عن ذوق رفيع ، وترف اجتماعى ، وغنى مادى .

٥ – الوريقات الذهبية الجنازية : اعتاد القدماء على تزويد الموتى بالوريقات الذهبية منذ عهود السومريين والفراعنة والميسينيين ، وقد تساءل العلماء المختصون عن الأقسام التى كانت تغطى بهذه الوريقات ، فقد عثر على بعض وريقات ذات أشكال جعلت البعض يعتقد بأنها كانت توضع على الجبين كعصبة أو على الصدر أو على الفم أو على العينين . وإن من شأن هذه الوريقات أن تقوم مقام قناع كامل يحمى الجسم من الفساد .

وقد عثر على عصبات ووريقات ذهبية جنازية فى أماكن مختلفة من سورية (مثل : تل الحويرة فى شمال سورية ، ولا سيما تل أبى صابون قرب حمص) . وإذا كان لبعضها شكل عصبات مجردة من أى عمل فنى فإن معظمها مزين بأشكال أغصان نباتية ، أضف إلى ذلك صورة (ربة النصر) تبدو مجنحة تمسك بإحدى يديها إكليلا وبالأخرى سعفة نخيل . وصورة (ديونيزوس) ، ولا سيما صورة (ميدوز) التى كان يعتقد بأن لعينيها قوة قادرة على تحويل من يراها إلى حجر ، وكان يعتقد بأن هذه الصور ذات قدرة على حماية الأشخاص من الرقى المؤذية . أضف إلى ذلك الوريقات الذهبية المزينة بصور جانبية لأسد يلتفت إلى جهة المشاهد . وإن الثقوب فى

أطراف الوريقات الذهبية تدل على استخدامها وتثبيتها على الملابس أو الجلود التى كانت تغطى أقسام الجسم . وقد عثر على وريقة ذهبية صغيرة الشكل كانت تغلف نقداً . وهذا ما يذكرنا بعادة وضع نقد الأوبول Obole فى فم المتوفى ليدفعه إلى خارون أجرة نقله . ولكن الوريقات الذهبية لم تكن لغاية جنازية فحسب بل كانت تستخدم لغايات تزيينية أيضاً كتغطية أزرار الملابس وخرزات سوار من الأبنوس ... الخ ، وكان يزين سطح بعض هذه الوريقات مشهد جانبى نصفى لأحد الأباطرة ، ومن أجمل المكتشفات الأخيرة نذكر الوريقات الذهبية الهلالية الشكل ، أطرافها مخرمة وتمثل مشهد ملاكين متناظرين مجنحين ينظران إلى جهة المشاهد تتوسطهما زهرة كبيرة يعلوها تاج كبير .

الحلى الذهبية المختلفة فى المتحف الوطنى بدمشق : وفى متحف دمشق الوطنى حلى ذهبية أخرى نذكر منها : تمثال ذهبى صغير جداً يمثل ربة السعادة (تيكه) ، وحلية بيضوية الشكل عليها مشهد أسد ينقض على فريسته : أضف إلى ذلك الصلبان الذهبية المزينة باللؤلؤ ، والمشابك الذهبية المختلفة .

لمحة عن الطرق الفنية المستخدمة فى صياغة الحلى الذهبية

لئن اشتهر الكريتيون القدماء بفن الصياغة ، ودلت أوانى (فافيو) الذهبية على تقدمهم التقنى ، ولئن ورث الميسينيون تقاليد هذه الصناعة الفنية ، وأبدعوا فى ميدان هذا الفن الصناعى ، فإن الذهب بقى نادراً فى بلاد الإغريق وظلت ثروات الشرق وكنوزه تثير خيال الإغريقى ، كما كانت روائع الفن الشرقى فى مختلف الميادين بمثابة العجائب فى العالم القديم .

وفى الواقع استطاع الصائغ القديم أن يبدع روائعه الذهبية بأدوات بسيطة وطرق بدائية تعتبر نواة للطرق الصناعية المتطورة . وبفضل صبره الطويل ، ودقته المهنية ، وخبرته الطويلة استطاع ذلك الصائغ القديم أن يحصل على وريقات ذهبية رقيقة ، وأسلاك ذهبية دقيقة .

وإذا كان الصائغ المعاصر يستخدم الآلات الكهربائية للحصول على ذلك ، فإن الصائغ القديم كان يحصل على الأسلاك الذهبية الدقيقة بواسطة (الجر بقوة الأكتاف) . كما كان يحصل على الوريقات الرقيقة بواسطة الطرق المستمر . وكان يرى فى خصائص الذهب وقابليته للطرق والسحب خير مساعد له على تقديم العناصر الذهبية الصغيرة لإبداع مصنوعاته الذهبية بواسطة طرقه المهنية البدائية التى هى كما يلى :

١ ــ أسلوب طرْق الأوراق الذهبية بمطرقة ما للحصول على المشاهد المطلوبة على السطح المقابل . ثم القيام بتسويتها بشكل يرضى ذوقه الفنى . وينسجم مع الجمال الذى تخيله وعزم على تخليده . وقد مارس هذا الأسلوب الكريتيون والميسينيون والفنيقيون .

٢ ــ طرْق الأوراق الذهبية على مسند مجوف من شأنه أن يعطى الوريقة أو الصفيحة المطروقة شكل قبة أو نصف قرص . . . ولا شك أن الصائغ القديم كان يهتم بالطرق على المسند المحدب أو المقعر بحجم يلائم ما يرغب إبداعه من حيث الحجم والشكل . أما فى عصرنا الحاضر ، فإن الصائغ المعاصر يستخدم هذه الطريقة . فيطرق الأقراص الذهبية على كتلة معدنية لها شكل مستطيل ، وعلى سطحها سلسلة من التجاويف المحدبة المختلفة الحجوم .

٣ ــ طريقة كسر الجفت : بعد ما نجح الصائغ القديم فى الحصول على الأسلاك الذهبية الدقيقة ، أخذ يجمع أجزاءها بملقط (الجفت) له طرف يساعده على وضع هذه الأجزاء فى الأماكن المخصصة لها بعد ثنيها وجعلها بالشكل المطلوب . وإن هذه الأجزاء . تصبح كتلة واحدة وذلك بتعريضها على الحرارة .

٤ ــ طريقة النفخ للحصول على الكرات الذهبية الدقيقة ووضعها فى الأماكن المخصصة لها .

مما تقدم تبدو بساطة الأدوات القديمة التى كان يستخدمها الصائغ

القديم . وبدائية الطرق الفنية التى كان يمارسها فى إبداع مصنوعاته الذهبية ؛ ولكن علينا أن لا ننسى أهمية خبرته المهنية ، ودقته فى العمل ، وذوقه الفنى ، وصبره الطويل .

مصادر الذهب فى العصور القديمة

مازال موضوع بلاد الذهب ومصادره وبلاده فى العصور القديمة يلفت انتباه الباحثين ، وينال قسطاً كبيراً من اهتمام المختصين . فاليمانيون — حسب رأى زيدان — كانوا ينقلون الذهب والأحجار الكريمة من بلاد الهند كما كانوا ينقلون الذهب والعاج من شواطئ إفريقيا الشرقية . ويعتقد بعض المؤرخين — مثل فيليب حتى — بوجود الذهب والفضة فى بلاد الأنباط . ويذهب الأستاذ عطية فى كتابه (حضارتنا : ص ١٠٨ و ١٠٩) إلى الاعتقاد بأن الإغريق كانوا يستوردون الذهب من البلاد الفينيقية ، وأن الفينقيين هم أول من نجم الذهب فى جزيرة (تازوس) واعتبر الإغريق مدينين بمعرفتهم للذهب واسمه للفينقيين . وذهب الدكتور أنور شكرى إلى القول بأن المصريين القدماء قد حصلوا على الذهب من الصحراء الشرقية ونواحى قفط وبلاد النوبة . وقد كانت لهم مناجم فى وادى العلاقى فى الجنوب الشرقى من بلاد النوبة السفلى . وقد ذكر (ابن حوقل) عن اكتشاف الذهب فى خشباجى فى بلاد سجستان . وحدثنى الصائغ السورى السيد (معتوق) قصة مواطن سورى حمل إلى الصائغين السوريين كتلة حجرية تحتوى على الذهب ولكن تبين لهم أن نفقات استخراجه لاتعادل قيمة الكميات المستخرجة .

والخلاصة :

مما تقدم يبدو أن اكتشاف الذهب واستخدامه رافق الإنسان منذ ظهور أقدم الحضارات التاريخية ، وإذا كان التاريخ يزودنا بمعرفة الماضى الإنسانى ، فإن علم الآثار مازال يزيدنا علماً بذلك الماضى . ويقدم إلينا الآيات الفنية التى كانت تزين ذلك الماضى الحضارى الذى أسهم فى تشييد صرحه أجيال قديمة

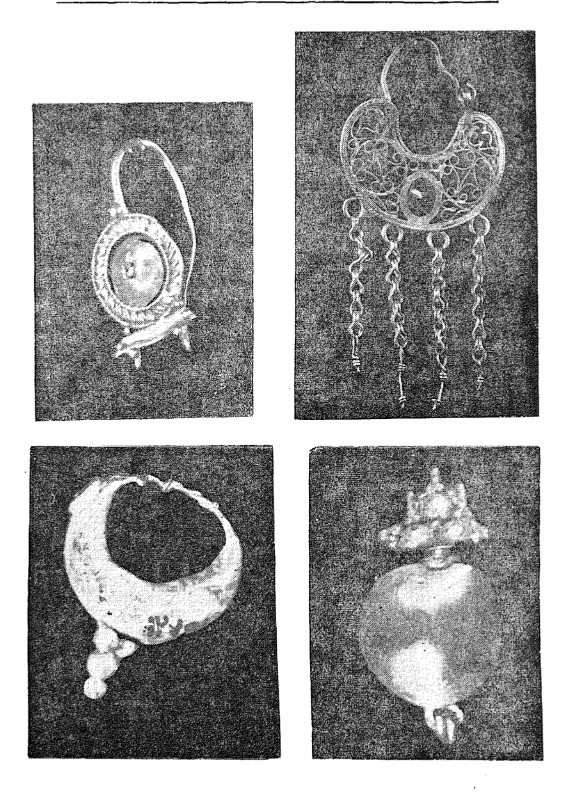
وعديدة تركت روائعها للأجيال الصاعدة : لا لتتغنى بها وتتمتع برؤيتها فحسب بل لتبعث فيها الهمم للعمل والإبداع باستمرار ، والتجديد والابتكار على الدوام ، لتبدع كما أبدع القدماء وتترك روائعها الفنية خير هدية تقدمها للأجيال القادمة وأكبر مساهمة منها فى استمرار إقامة الصرح الحضارى الإنسانى لتقيم فى فردوس الخالدين .

وإن الحلى الذهبية القديمة المكتشفة فى مختلف بقاع سورية تدل على أن تقاليد فن الصياغة أصيلة فيها ، طورتها الأجيال المتتابعة ، وتوارثها الأحفاد عن الآباء والآباء عن الأجداد ، فأضافوا إليها ما ابتكرته أذواقهم الفنية واكتشفته فى دولاتهم العديدة ووصلوا إلى تحقيقه بفضل خبرتهم المهنية .

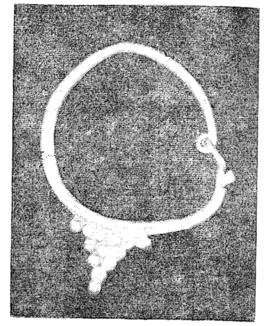
أضف إلى ذلك ما للحلى الذهبية من أهمية لصلتها بحياتنا الاقتصادية ، وتقاليدنا الاجتماعية وأعرافنا المحلية ، وأذواقنا الفنية . وقد ورد ذكرها فى عدد من آيات القرآن الكريم . كما أن الشعراء العرب اعتبروها مادة جميلة جديرة بالوصف والتشبيه بها ، فتركوا لنا روائع أدبية تتميز بجمال اللفظ وسحر التشبيه . وقد ذهبت بعض الأقوال المتعلقة بالحلى مذهب المثل السائر .

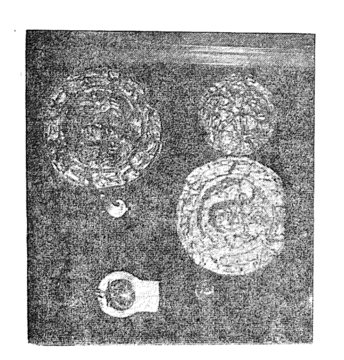
وأن المستوى الفنى الرفيع . والطابع المحلى الأصيل اللذين يعتبران من خصائص كثير من قطع الحلى الذهبية التى يزهو بها المتحف الوطنى بدمشق مما يؤكد من جديد أن سورية هى كغيرها من البلاد العربية موطن حضارات ومدنيات ، وأرض فكر وعلم ، وبلد أدب وفن .

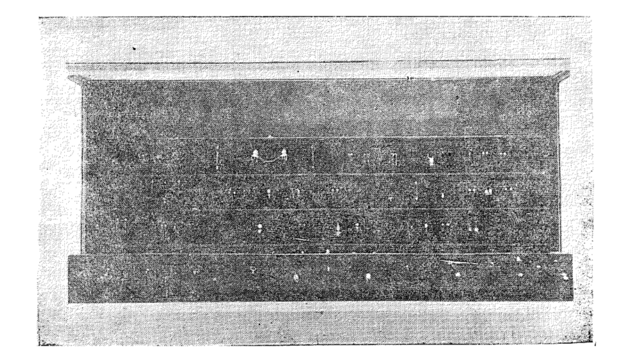
لوحة رقم ١ – الحلى الذهبية القديمة وروائعها فى المتحف الوطنى بدمشق



لوحة رقم ٢ – الحلى الذهبية القديمة وروائعها فى المتحف الوطنى بدمشق







الآثار الحفصية فى المرسى

للأستاذ محمد الفاضل بن عاشور

المرسى قبل العهد الحفصى – فى التاريخ الحفصى – مقبرة حفصية أندلسية – العبدلية – الجامع وما تحته – اقتراحات

المرسى قبل العهد الحفصى :

فى الشمال الشرقى لمدينة تونس ، يمتد رأس ينتهى إلى البحر : على مسافة خمسة عشر كيلومتراً ، على عشر كيلومترات فى أوسع عرضه ، هو القرن الشمالى بقعر الخليج المكون لمرسى تونس . ويقع طرف زاوية هذا الرأس متجهاً إلى الشرق ، حيث تقوم منارة سيدى أبى سعيد ، ثم ينزل أحد ضلعيه إلى حلق الوادى جنوباً بغرب ، والبحر شرقيه ، ويصعد ضلعه الآخر إلى رأس قمرت شمالا بشرق ، والبحر شماليه . فينحصر هذا الرأس بين بحيرة تونس والبحر الأبيض المتوسط ، وسبخة أريانة أو قمرت ، ويتصل باليابسة من جهة الغرب : حيث تقع منه تونس وأريانة وشطرانة وربى وادى مجردة المشرفة على طريق بنزرت .

ذلك هو الفضاء الذى كانت تملؤه العاصمة القديمة للبلاد الإفريقية : مدينة قرطاجنة . وتلك النقطة القصوى منه التى نسميها جبل المنار أو جبل سيدى أبى سعيد هى التى تعرف عند الجغرافيين الغربيين برأس قرطاجنة . وحواليه تقع المراسى الحصينة التى عرفت بها مدينة قرطاجنة فى تاريخها القديم ، وكانت مراسى عديدة كما يقول المؤرخون . والشق الشمالى لهذا الرأس بين جبل سيدى أبى سعيد وجبل قمرت هو الذى يسمى الآن المرسى .

وبقيت آثار مدينة قرطاجنة ، لما تحول العمران عنها إلى مدينة تونس ، أواخر القرن الأول الهجرى ، خرائب ودمنا بين مرابع وحقول لا يعمرها إلا فلاحون وفدادون يأتونها انتشاراً من مدينة تونس ، العاصمة ، أو تسرباً من أراضى وادى مجردة . وكذلك وصفها ابن حوقل فى القرن الرابع ، والبكرى ، فى القرن الخامس : « قرى رفيعة مفيدة عامرة وأصناف ثمارها متناهية فى الطيب »[1] .

أما العوالى ، المشرفة على ساحل البحر ، فقد أقيمت فيها ربط ومحارس من بناء الفاتحين العرب أو من تعميرهم ما تركه الحاكمون الماضون .

فمن المعلوم أنه ، منذ القرن الثانى ، انتشرت الربط على كامل الساحل التونسى ، بالشمال وبالشرق ، وعندنا على ذلك شهود فى رباط المنستير ، الذى هو من آثار القرن الثانى ، ورباط سوسة ، الذى هو من آثار أوائل القرن الثالث . ويذكر اليعقوبى فى القرن الثالث ، أنه كان على طول الساحل ، ما بين صفاقس وبنزرت ، قصور يقرب بعضها من بعض يعمرها العباد والمرابطون .

وكذلك وصفها البكرى فى القرن الخامس . وزاد فأفاد بالسلسلة المتصلة من الربط والقصور والمحارس ، المقامة على مراسى البلاد المغربية كلها ، ما بين الأندلس والإسكندرية . وذكر أن منها ربطا معمورة بالعباد الزهاد منذ فتحت إفريقية[2] .

وإن أولى السواحل بإقامة الربط والمحارس للساحل هذه الرقعة من الأرض ، الذى يهدد على غلوة سهم مدينة تونس ، ويتصل بالخليج الذى حفره العرب بالبحيرة وأجروا فيه الماء إلى مدينة تونس ووصلوه بالبحر

(١) ص ٦٤٩ الجزائر ١٩١١ .

(٢) ص ٦٨٤ الجزائر ١٩٧٧ .

جنوبي قرطاجنة[١] . لا سيما وقد كانت ، منذ العهد الروماني والبيزنطي ، منارة ذات أضواء مقامة على الطرف الشرقي للرأس : كما دلت على ذلك الحفريات الشاهدة بقدم أسس المنارة الموجودة اليو م . فيكون ذلك المركز الدقيق أولى المراكز بإقامة محرس يراقب منه البحر حتى تؤمن طوارقه على مدينة تونس . ومن هذا كله نستطيع أن نفترض ، مطمئنين إلى صحة افتراضنا ، أنه قد كان ، من أوائل القرن الثالث ، على نقط من هذا الرأس محارس وربط ، لا سيما في جبل المنار إذ نقدّر أنه على مثل أو قريباً من رباط سوسة ورباط المنستير .

وبذلك اجتمع لهذا الرأس : من اتساع البسائط وسكينتها ، وارتفاع المشارف على البحر وروعتها ، ووفرة الاطلال وعظمتها ، وقصور الرباط وبركتها ، ما علق بها قلوب الزهاد والصالحين : من أهل الخلوة والسياحة والرياضة والمرابطة .

ففي مناقب العابد الصالح الشيخ محرز بن خلف المتوفى سنة ٤١٣ — : أنه كان كثير الخروج إلى قرطاجنة ، والتردد بين اريانة ومنزل خارجة ، وأنه كان يخرج إلى قرطاجنة قصد الصلاة على الجنايز[٢] ، إذ يظهر أنها كانت مشهورة بمدافن الصالحين ومقصودة للتبرك بالدفن فيها ، مثل المنستير . كما ورد في المناقب المحرزية أيضاً أن الشيخ محرزا كان يقيم حول الحنايا الواصلة إلى قرطاجنة ويعتبر بالأطلال اعتبارا يفيض أشعارا بليغة في وصف الأطلال والملاعب والمعالم :

خليليّ مرا بالمدينـــة واسمعا مدينـــة قرطاجنة ثم ودعا
طلولا بها تبكي لفقدان أهلها كما ندب الأطلال كسرى وتبعا[٣]

---

(١) البكري ص ٨٤ .
(٢) المناقب المحرزية الباريسي ط باريس ١٩٥٩ .
(٣) المنتخب المدرسي لحسن حسني عبد الوهاب ط مصر ص ٥٩ .

وعلى هذا السنن درج رجال التصوف بعد الشيخ محرز . ففي القرن السادس جاء تلاميذ الشيخ أبي مدين شعيب ابن الحسن الأندلسي نزيل بجاية ، صاحب الشيخ عبد القادر الجيلاني ودفين قرية العباد بظاهر تلمسان ، ومنهم أبو محمد عبد العزيز المهدوي وأبو سعيد خلف بن يحيى الباجي ، فاتخذوا من الجبل الذي كان رأس قرطاجنة مقاما لهم ومنقطعا . ولما توفى الشيخ عبد العزيز ثم الشيخ أبو سعيد دفنا هنالك فاشتهر الجبل بذلك ونوه المؤرخون به وهم يسمونه جبل المرسى — لأنه يتصل بمرسى قرطاجنة الذي سموه أيضا مرسى ابن عبدون أو مرسى جراح ، ويسمونه جبل المنار للمنارة القديمة الموجودة إلى الآن التي قدرنا أن المحرس أو الرباط كان مقاما عليها . ولا ينبغي أن يغيب عن ملاحظتنا أن الشيخ عبد العزيز المهدوي أصله من بلاد الساحل وأنه كان معتادا الإقامة في رباط المنستير[1] .

واستمر أهل الطريقة الصوفية ، أواخر القرن السادس ، يعمرون ذلك المحرس ويتبركون بالتعبد فيه والدفن بتربته . فقد ذكر الشيخ محيي الدين ابن عربي الحاتمي في كتاب الفتوحات المكية أنه زار تونس ، مرتين في أواخر القرن السادس ، الأولى سنة ٥٩٠ ، والثانية سنة ٥٩٨ ، وأنه اجتمع في المرتين برجال من أهل التصوف منهم الشيخ عبد العزيز المهدوي ، الذي يصفه الشيخ محيي الدين بالولي ، ويدعوه في كتبه بقوله : « يا وليي » وقد ذكر أن الشيخ عبد العزيز كان ينزل الخلوة في بيوت « المنارة المحروسة.» الكائنة بشرق تونس بساحل البحر . وينزل إلى الرابطة التي في وسط المقابر وبقرب المنارة من جهة بابها[2] . وقد وصف المنارة بأنها محرس على شاطئ البحر على نحو ميلين من مبدأ الحفرة المتصلة بمرسى تونس .

---

(١) كتاب أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ مخطوطة الأحمدية بالزيتونة .

(٢) الفتوحات المكية ج ١ ص ١٩٩ ط دار إحياء الكتب العربية .

كما يذكر الشيخ محي الدين أيضا أن رجلا صالحا مسنا كان رفيقا للشيخ عبد العزيز فى منقطعه يسمى سيدى جراح بن خميش اشتهر بالإقامة للرباط فى المرسى المسمى بمرسى عبدون وذكر الزركشى[١] هذا المكان بقوله : « مرسى الرجل الصالح سيدى جراح ويعرف المرسى المذكور فى القديم بمرسى ابن عبدون واشتهر بعده بسيدى جراح لملازمته الاحتراس به » وذكر جريدة من أعلام المدفونين بتلك المقبرة أوائل القرن السادس . وفى تاريخ ابن الشماع وتاريخ الزركشى ما يفيد أن كثيراً من العلماء دفنوا فى تلك التربة ومنهم من نقل إليها قصدا من تونس[٢] .

والذى يفيده كلام ابن عربى فى الفتوحات وكلام الزركشى أن مرسى ابن عبدون الذى اشتهر بمرسى جراح كان قريباً من المنارة إلى جنوبها لا إلى شمالها . فيظهر أن الجبانة المقصودة هى إحدى المقبرتين الإسلاميتين اللتين توجدان الآن بقرطاجنة إحداهما مقابلة للقصر الملكى السابق ، من غربيه ، وفيها زاوية أقيمت منذ مائتين وخمسين سنة تقريباً على أنها ضريح الشيخ عبد العزيز المهدوى . والمقبرة الأخرى إلى شمالى الأولى تشرف على مرسى قرطاجنة الفنيقى وربما زالت الآن ولكنها مرسومة فى تخطيط رسمى من وضع مصلحة قيس الأراضى أوائل القرن الحاضر .

فى التاريخ الحفصى :

لقد تأتى لنا بما مضى أن نتصور أن الدولة الحفصية ابتدأت أوائل القرن السابع ، وفى رأس قرطاجنة أو جبل المنارة ، وحواليه ، ربط مقصودة ، ومقابر تزار ، وأعلام من العباد والزهاد علت بهم سمعة تلك المزارات والمقابر . وكانت النقطة القصوى ، وهى جبل المنارة ، مشهورة بذلك ، كما كان السفح الجنوبى لذلك الجبل ، ما بينه وبين مرسى تونس ،

---

(١) ص ٤١ ط تونس .

(٢) الأدلة البينة النورانية ط تونس ص ٩١ وتاريخ الدولتين ط تونس ص ٤٢ .

حيث يقع مرسى قرطاجنة الفينيقي القديم (ببرسا) الذى يظهر أنه سمى مرسى عبدون أو مرسى جراح ، مشهوراً بمزاراته ، وخاصة مزار الشيخ عبد العزيز المهدوى .

أما السفح الشمالى لجبل المنار ، فيظهر أنه كان ، إلى ابتداء الدولة الحفصية أقل قصدا واشتهارا من السفح الجنوبى .

بحيث أن اسم المرسى لم يكن يطلق إلا على جبل الشيخ أبى سعيد كما فى الزركشى[1] . وحتى منتصف القرن التاسع كانت مقبرة جبل المرسى لا تصل إلى السفح الشمالى ففى تاريخ الزركشى[2] أن الشيخ أبا الحسن عليا الجبالى توفى سنة ٨٤٤ ، ودفن بجبل المرسى « بطرف جبانته » ومدفن الشيخ الجبالى المعروف الآن يقع فى منتهى الجبل عند ابتداء منحدر السفح الشمالى مشرفا على بلدة المرسى .

فالمشهور اليوم من أن الشيخ عبد العزيز المهدوى مدفون بالمرسى بشمالى جبل المنار على الربوة المعروفة بشاطئ سيدى عبد العزيز ، أمر ليس له أصل من التاريخ . وإن الناس جميعاً كانوا متفقين على مدفن الشيخ عبد العزيز بربوة ببرسا قرطاجنة حتى أن الأمير حسينا ابن على ، فى أوائل القرن الثانى عشر ، بنى زاوية على ذلك القبر . إلا أن العلامة الصالح الشيخ صالحا الكواش فى القرن الماضى ، كان قدر لظن ترجح عنده أن مدفن الشيخ عبد العزيز بالمرسى ، فى المكان الذى اشتهر الآن ، فتقبل الناس ذلك ، وبنى جدار محيط بالتربة التى عينها الشيخ صالح الكواش وابتدأ الناس يرغبون فى الدفن حوله من أواخر القرن الماضى . وأول من دفن فى تلك التربة هو قاضى الجماعة الإمام محمد بن سلامة سنة ١٢٦٦ . وإنه لمن

---

(١) ص ٩٠ ط تونس .

(٢) ص ١٢٥ ط تونس .

الطمع البعيد أن نؤمل الظفر بشاهد قبرية الشيخ عبد العزيز أو واحد من الذين دفنوا معه فى مرسى جراح ، ممن ذكر الشماع أو الزركشى ، لأن نزول الإفرنج بقرطاجنة قد طمس معالم تلك القبور ، وأن تخريب قرطاجنة بعد جـــلاء الإفرنج عنها ، قد كان سببا فى تلاشى كثير مما على أديم تلك الأرض .

فليس عندنا ، حينئذ أثر ولا خبر يتعلق بشاطئ المرسى الشمالى لجبل المنارة ، قبل الدولة الحفصية . وأن جملة ما فيها من الآثار يرجع إلى العهد الحفصى ، ويرتبط بأحداث شهيرة من تاريخ الدولة الحفصية :

أولا ، بخلاصة أطوار الحوادث ، مدة الدولة الحفصية ، لنربط بها ما يرجع إليها من الآثار الموجودة فى المرسى ، أو التى ينبغى أن يبحث عنها خلال تلك الأرض .

قامت دولة الموحدين بمراكش على يد عبد المؤمن بن على سنة ٥٤١ . واستولت على جميع بلاد الأندلس والمغرب الأقصى والمغرب الأوسط . وتم استيلاؤها على البلاد التونسية سنة الأخماس ٥٥٥ ، وذلك بالاستيلاء على المهدية ، وإجلاء النرمان عن سواحل البلاد ، والقضاء على الدولة الصنهاجية . وسرعان ما فشت الاضطرابات فى الأندلس وإفريقية ، بظهور ثورة ابن غانية الميورقى ، فى عهد يعقوب المنصور ابن عبد المؤمن . فلم يتم القضاء على تلك الثورة إلا فى عهد الناصر ابن المنصور ، الذى خلص على عهده أمر البلاد التونسية لحكم الموحدين سنة ٦٠٣ — ورجع الناصر إلى عاصمته مراكش ، وقد نصب وزيره ، عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ، واليا على إفريقية ، وجعل عاصمته مدينة تونس . واستمرت ولاية تونس لعبد الواحد وولديه : عبد الله ثم أبى زكريا يحيى ، تابعة لخلافة الموحدين ، أبناء عبد المؤمن بمراكش إلى أن اضطربت أحوال دولة بنى عبد المؤمن وهاجت الفتن بالمغرب ، فانفصل أبو زكريا عن دولتهم سنة ٦٣٤ — واستقل بملك تونس ، وفتح قسنطينة وبجاية والجزائر وتلمسان ،

فأصبحت مملكته من برقة إلى حدود المغرب الأقصى . وكان أبو زكريا يطمع فى أن يمتلك المغرب الأقصى أيضاً ، ويجمع بيده شتات الدولة الموحدية كما قال عنه ابن خلدون : «كان متطاولا إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسى الدعوة[1] » ، وقال عنه فى فتح تلمسان : « اعتد ذلك ركابا لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين بمراكش وانتظامه فى أمره وسلما لارتقاء ما سموا إليه من ملكه وبابا لولوج المغرب على أصله » .

ونشأ عن اضطراب الدولة الموحدية تزعزع هائل فى البلاد الأندلسية ، فانتشرت الثورات والفتن والانتقاضات بين البلاد الباقية بأيدى المسلمين ، واغتنم الأسبان فرصة تضعضع الأمر ، واضطراب الكلمة فتكالبوا على ملك المسلمين : يفتكون كثيراً مما بقى بأيديهم من البلاد والحصون ، فتساقطت كتندة وبلنسية ولوشة والمرية ومرسية واشبيلية وقرطبة . وضعف موقف المسلمين فى الأندلس فتطلعو إلى العدوة الإفريقية ، وآنسوا فى سماء تونس نجما صاعداً وضاء من همة ابن أبى زكريا الحفصى وقوته ، فوجهوا إليه بآمالهم ورجوا استنقاذ الأمر بالانضمام إلى دولته الفتية فأرسل زيان بن مردنيش ، أمير شرق الأندلس سنة ٦٣٥ — بيعته واستغاثته إلى أبى زكريا الحفصى بلسان كاتبه ابن الابار ، الذى أنشأ فى ذلك قصيدته السينية الخالدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا[2]

وتتابعت بعدها بيعة سبتة وبيعة طنجة وبيعة المرية وبيعة إشبيلية وبيعة غرناطة . وأصبح بذلك للدولة الحفصية فى بلاد الأندلس شأن عظيم . وزاد صيت الحفصيين علواً بالمشرق والمغرب فى عهد محمد المستنصر ابن أبى زكريا ، وقوى الأمل فيه ، وورد عليه حازم القرطاجنى بمقصورته مثل

---

(١) ٢٨٦ ج ٤ العبر : ط بولاق .

(٢) ابن خلدون ٢٨٣ ج ٤ : ط بولاق .

مورد ابن الابار بسينيته ، لولا أن نزول الفرنسيين على تونس سنة ٦٦٨ قد أوقف سير الدولة الحفصية نحو غاية مجدها ، وقضى عليها بالفقر ، واضطراب الأمر .

فبعد وفاة المستنصر سنة ٦٧٥ — لم يدم ابنه يحيى الواثق فى الملك إلا عامين وتخلى . ولم يكد ينتصب عمه أبو إسحاق حتى ظهر الثائر أحمد المسيلى المشهور بالدعى ، فانتزع ملك البلاد من الحفصيين .

ثم عاد الأمر إليهم فاستقر على ضعف نحواً من خمس وعشرين سنة فى عهد أبى حفص عمر وأبى عصيدة . ثم ابتدأ التناحر بين أمراء البيت الحفصى ، وتغلب الأعراب على البلاد ، وتسلسلت الحروب والعداوات مع بنى عبد الوادى ملوك تلمسان وبنى مرين ملوك فاس ، إلى منتصف القرن الثامن ، حيث استولى السلطان أبو الحسن المرينى على البلاد التونسية ، فانقطعت الدولة الحفصية مرة أخرى . ثم عادت تتخبط فى الفوضى والجور والقصور حتى أشرفت على الدمار ، لولا أن تداركها أبو العباس أحمد ثم أبو فارس عبد العزيز وحفيداه المنتصر وأبو عمرو عثمان ، أواخر القرن الثامن وطيلة القرن التاسع ، فانتعشت البلاد وخف اضطراب الأمن وصدت الغارات الصليبية عن الثغور ، وجددت المحارس ، وكثرت المنشآت الخيرية إلى أن توفى أبو عمرو عثمان سنة ٨٩٣ — فكان كما قال ابن أبى دينار : « ختام الدولة الحفصية وانفصال نظام المحاسن الباقية فى البلاد الإفريقية » وأصاب البلاد وباء الطاعون الجارف آخر عام من القرن التاسع ٨٩٩ — فأتى على أكثر من مائة ألف . وأسفر الخلاء والخراب والمجاعة والشدة ، التى خلفها الوباء ، عن ملك أبى عبد الله . فلم يستطع الثبات أمام ثورات الأعراب ، وخرج أكثر البلاد عن حكمه ، وسقطت مملكة الإسلام فى الأندلس ، واستولى الإسبان على سواحل الجزائر وليبيا ، وظهرت شوكة الأتراك العثمانيين

فى البحر . ففكر السلطان أبو عبد الله الحفصى فى التقرب من الغازين العظيمين الأخوين عروج وخير الدين ، ومكنهما من المراسى الجزائرية والتونسية واتفق معهما على أن يستقلا بالمراسى ، وأن يعترفا له بالولاء ويؤديا إليه خمس المغانم البحرية . وبذلك عمرت خزائنه بعد الفراغ . إلا أن التفات السلطان سليم الأول العثمانى إلى خير الدين وعروج ، واصطناعهما ، أوقع أبا عبد الله الحفصى فى خوف عظيم حمله على السعى فى التآمر مع ملك تلمسان الزيانى أبى حمو الثالث لمقاومة الأتراك[1]. وكان صاحب تلمسان متحيزاً للأسبان محتمياً بهم ، فكان أبو عبد الله الحفصى يطمع فى أن يغمس يده فى ذلك الإناء ولكن الموت عاجله قبل أن يقضى حاجة مما يريد ، فاستولى خير الدين على تونس سنة ٩٣٥ — عقب استيلائه على تلمسان . وكان عمل الحسن ابن أبى عبد الله الانتهاء فى منهج أبيه إلى أسقط غاية فركب البحر مستنجداً بالإسبان ، وأتى مع أسطول الإمبراطور شارلكان ، وحكمه فى البلاد ، واستمر النزاع بين القوات التركية والقوات الإسبانية ، التى كان يأتى بها الحسن ثم أبناؤه أحمد ومحمد ، إلى أن تم النصر للأتراك بوصول الأسطول العثمانى تحت قيادة الوزير الشهير السردار سنان باشا سنة ٩٨١ — فاندرجت الدولة الحفصية فى طى الاحتلال الإسبانى .

مقبرة حفصية أندلسية بالمرسى :

بعد هذه الإلمامة بمجمل تاريخ الدولة الحفصية ، نلتفت إلى ساحل البحر شمالى مدينة تونس ، لنرى المرسى فى جون عميق بين الصخور الحمراء لجبل المنار وقفاف الرمل بجبل قرت . وتمتد منه إلى الغرب ، وراء المشارف العليا لقرطاجنة وجبل المنار بساتين وآبار متصلة بأريانة وشطرانة حتى وادى مجردة . وقد أشرفت على تلك الجنات الخضراء ، بين الأطلال الشامخة القائمة

---

(١) الخلاصة النقية للسعيدى ص ٨٥ : ط تونس أولى .

يومئذ على أرض قرطاجنة ، المقابر المشهورة بجبل المنار ومرسى جراح من الربلى والواقعة قبلى المرسى .

ولسنا نستطيع أن نقدر للمرسى أكثر من هذا الوصف عند قيام الدولة الحفصية ، إذ لا أثر ولا خبر يقتضى خلاف ذلك . ولكنا نقف ، فى فجأة غريبة ، على ابتداء ظهورها مع ابتداء تطلع السلاطين الحفصيين إلى السيطرة على البلاد الأندلسية ، وما تبع ذلك من أحوال ربطت بين السلطنة الحفصية بتونس وبلاد الأندلس .

وإن للحفصيين أواصر وثيقة عريقة تربطهم ببلاد الأندلس ، وبطانة من أعيان الأمراء والساسة والأثرياء الأندلسيين تتزايد يوماً فيوماً منذ استقلت السلطنة الحفصية . ناهيك بأسر : ابن خلدون ، وابن عصفور ، وابن الابار ، وابن عميرة ، وابن مردنيش ، والجوهرى ، والرميني ، وحازب القرطاجنى ، وابن سعيد ، وابن سيد الناس ، وابن جابر الوادآشى . حتى إن هيئة شورى السلطان كانت تتركب من دائرتين : الأندلس ، والموحدين ، كما أفاده ابن خلدون[1] .

كانت فى المرسى ، إلى الأيام القريبة ، زاوية تسمى زاوية سيدى صالح لا يعرف لها مسمى أكثر من ذلك . وفى شهر رمضان سنة — ١٣٨٠ — هدمت الزاوية بسبب أشغال أجرتها بلدية المرسى . ورفع التابوت الخشبى ، الذى كان هو الضريح القائمة عليه الزاوية ، فاذا تحته قبر رخامى مكتوب بدائرته بالنقش البارز .

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة هذا قبر الشيخ الحسيب ذو الرئاستين أبو عبد الله بن الشيخ المقدس أبو محمد الرميمى نبيه أهل المرية توفى فى آخر شهر رجب فى عام أربعة وستين وستمائة » .

---

(١) ج ٢ : ص ٢٩٢ .

وتاريخ هذا القبر يعود بنا إلى خبر دخول أهل الأندلس فى الدعوة الحفصية . فمحمد بن عبد الله ابن الرميمى ، هو من سلالة بنى أمية ملوك الأندلس . نسب إلى قرية من أعمال قرطبة اسمها رميمة . ثم استقر جده ، أبو يحيى ، بالمرية . ولما استولى الموحدون على المرية ، نصب عبد المؤمن والياً عليها ، فثار أهل المرية على واليهم ، وقدموا على أنفسهم أحد أعيانهم : وهو أبو يحيى ابن الرميمى . فاسترجعها الإسبان منه عنــوة ، وفر ابن الرميمى إلى مدينة فاس . وفى سنة ــ ٦٢٥ ــ لما قام ابن هود فى مرسية محاولا الاستقلال بمملكة الأندلس عن بنى عبد المؤمن ــ قام حفيد ابن الرميمى ، وهو صاحبنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى يحيى ، فاتحد مع ابن هود ، وأصبح وزيراً له ، وتصرف فى سياسة دولة ابن هود الثائرة ، وولاه ابن هود على المرية ، التى كانت وليها جده من قبل . ثم حدثت أسباب نفرة داخلية بين ابن الرميمى وابن هود قيل إن ابن الرميمى اغتال بسببها ابن هود واستبد بملك المرية . ثم خرج من المرية إلى تونس ، واستقر بها ، وتأثل فيها . هذا ما أورده من خبره ابن سعيد فى المغرب وابن الخطيب فى أعمال الأعلام وابن خلدون فى الجزء الرابع من ديوان العبر والمقرى فى نفح الطيب . فيكون قدومه إلى تونس ، لما قامت دولة بنى الأحمر وحاولت امتلاك المرية ، فبايع جماعة من أهل المرية أبا زكريا الحفصى . وجاء وفد البيعة سنة ٦٤٠ ــ فيكون قد جاء بالبيعة . ولما لم تنجح خطة التحاق المرية بالدولة الحفصية فعلا ، بقى فى تونس كما بقى غيره من أمراء الأندلس وأعيانها مثل ابن مردنيش ، وعاش فى حظوة لدى الحفصيين . ويظهر أنه اختار المرسى مقاماً له ، لأن الأندلسيين الوافدين على تونس ، فى أول الدولة الحفصية ، وهم الذين طفحت آثارهم الأدبية بالحنين إلى البساتين والقصور والبرك والرياض كما يشهد لذلك الباب الرابع لنفح الطيب مما نقل عن ابن سعيد وغيره ، كانوا هم الذين أشاعوا ذوق سكنى

البساتين بالضواحى حتى تأثر بهم الملوك وسراة الدولة ، كما جزم بذلك الأستاذ جورج مرساى أخذا من كلام ابن سعيد الذى نقله المقرى فى شأن المستنصر .

وبذلك يصح لنا أن نقدر أن رجالا من اللاجئين الأندلسيين إلى تونس فى القرن السابع هم الذين ابتدؤوا يسكنون المنتزهات بالمرسى فلذلك قبروا فيها . وعندنا شاهد آخر : فإلى جنب قبر ابن الرميمى ، تحت نفس التابوت ، فى زاوية سيدى صالح ، مشهد فى شكل مقوس منقوش على لوح من رخام ، فى الجدار الذى تحته القبر ، مكتوب فيه بالنقش البارز .

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت هذا قبر الشيخ الفقير المكرم الأفضل الأسرى الأمجد الموقر المرحوم أبى القاسم محمد بن عميرة المخزومى رحمة الله عليه ورضوانه لديه توفى عفا الله تعالى عنه فى اليوم السابع من شهر ربيع الأول المبارك عام تسعة وسبعمائة قدس الله روحه وبرد ضريحه » .

وهذا أيضاً من أعلام العلماء والأدباء التونسيين الذين وفدوا من الأندلس . وقد ذكر الزركشى وفاته بقوله : « وفى الخامس لربيع الآخر من السنة المذكورة (٧٠٩) توفى الفقيه الأديب أبو القاسم ابن عميرة وكان من فضلاء الكتاب الشعراء حذا حذو أبيه وزيادة » .

وإن كان تاريخ الوفاة عند الزركشى يختلف عما فى المشهد يسيرا . ووالده الذى يشير إليه الزركشى هو الإمام الكاتب القاضى أبو المطرف ابن عميرة البلنسى ، ترجم له المقرى فى نفح الطيب[1] وذكر له رسائل بليغة وقصائد بديعة صدرت عنه عند سقوط بلنسية ، وذكر له تأليفاً فى سقوط

---

(١) ص ١٤٦ ج ١ ط : الأزهرية مصر .

ميورقة ، وكان قد كاتب ابن الابار إلى تونس برسالة عجيبة وقصيدة غراء ، جواباً عن رسالة منه ، فوصف له سقوط بلنسية ومآل كثير من بلاد الأندلس . أورد الرسالتين المقرى فى نفح الطيب آخر الباب السابع ، وقد نقل عن الابار بعض ما ترجم به لابن عميرة فى كتاب تحفة القادم . وبعد تنقل بين سلا ومكناسة وسبتة ، قصد ابن عميرة تونس ، قال المقرى : ولم يزل منذ فارق الأندلس متطلعاً لسكنى أفريقية معمور القلب بسكناها ولما قدم تونس مال إلى صحبة الصالحين والزهاد وأهل الخير برهة من الزمن ثم استقضى بالاربس ثم بقابس مدة طويلة ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصى وأحضره مجالس أنسه وداخله مداخلة شديدة حتى تغلب على أكثر أمره ، وتوفى ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٨ » — هذا ابن عميرة الأب ، الذى قال الزركشى أن ابنه ، صاحبنا صاحب القبر ، « حذا حذوه رزيادة » فهذا أيضاً أحد الناشئين فى ظل الحظوة الساطانية بتونس من أبناء جالية الأندلس ، قد أقام فى المرسى كما أقام ابن الرميمى ، ودفن بها .

وإلى جانب هذين القبرين ، قبر ثالث شاهده لوح رخامى مقوس كتب عليه نقشاً بالبارز : بعد البسملة والصلاة «كل نفس ذائقة الموت هذا قبر العبد الفقير عبد ربه محمد بن مظفر الصنهاجى توفى يوم الثلاثاء . . . . . شهر رجب عام سبعين وسبعمائة رحمه الله وغفر له » .

ولا نستطيع أن نحقق عن جزم من هو هذا العبد المرحوم ، ولا أن نثبت بالقطع أندلسيته من عدمها . ولكننا نستقرب ، من كونه ابن مظفر الصنهاجى ، أن يكون أيضاً من سراة الأندلس وسلائل ملوكها . فإنه من المعلوم أن فرعاً من بنى زيرى من صنهاجة كانوا استحدثوا ملكاً فى غرناطة على يد حبوس بن ماكسن ، وكان من أعظم ملوك الطوائف ، ثم كان باديس ابن حبوس هو الذى مصر غرناطة ، واختط قصبتها ، وشاد قصورها

وحصونها ، وكان يلقب « المظفر » كما نص على ذلك ابن خلدون[1] :

وعلى كل حال ، سواء ترجح ما قدرنا فى معرفة ابن مظفر أم لا ، فإن كل ما عرفناه إلى الآن ، ممن دفن بالمرسى فى القرن السابع ، رجال من ذوى النعمة ، يظن بهم أنهم اتخذوا فيها منتزهات ، وآثروا الدفن فيها لقلة الدواعى لدفنهم فى غيرها . فليس فى المرسى مدافن تعرف قبل القرن السابع ، ولا فيها مقابر رجال من العلماء والصالحين مثل الذين فى جبل الشيخ أبى سعيد . ولا يبعد أن تكون الزاوية التى وجدت فيها هذه القبور محرساً أو رباطاً صغيراً دفنوا فيه لقرب بساتينهم منه . فإلى الشمال من هذه القبور الثلاثة على نحو ثلاثمائة متر ، فى مشرف مطل على جون آخر ، وسط أرض المقبرة الحديثة المعروفة اليوم بمقبرة سيدى عبد العزيز ، يوجد قبر عليه شاهد رخامى مقوس صغير مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد كل نفس ذائقة الموت هذا قبر عبد الله بن محمد بن عزفى (كذلك أظنها) الوهرانى توفى رحمه الله فى الرابع والعشرين لشهر رجب الفرد سنة تسعة وستين وستمائة وأنه توفى شهيداً رحمه الله رحمة واسعة » .

فتاريخ هذا المشهد ، المتأخر عن القبور المتقدمة ، مع ما كتب عليه من أنه مات شهيداً يقرب أن وفاته كانت عند نزول الفرنسيين على قرطاجنة . إلا أن الشهر ، وهو رجب ، يبعد ذلك لأن النزول كان كما يفيد ابن خلدون فى ذى الحجة ٦٨ — وأنه دام ستة أشهر فيكون شهر رجب ثامناً أو تاسعاً . فلعل مناوشات استمرت يسيراً بعد الإقلاع ، أو أن ذيولا للحوادث امتدت باضطراب الأعراب أو المرتزقة . وإن فى وصف الشهادة ، الذى حلى بها صاحب القبر الكريم ، لما يقرب أنه كان مقيما حول رباط وأنه دفن حيث استشهد قريباً من الرباط كما قال شوقى :

فكفن فى الصوارم والعوالى ⁂ وغيب حيث صال وحيث جالا

(١) ص ١٨٠ ج ٦ .

العبــدلية :

فى المرسى ثلاثة قصور يسمى كل واحد منها « العبدلية » وتسمى ثلاثتها مجموعة ، بـ « العبدليات » ذكرها المسعودى فى الخلاصة النقية بقوله : « القصور الشاهقة والبساتين الشهيرة بالعبدلية » ، وقد ذكر هذا المؤرخ الأديب أنها من آثار أبى عبد الله الحفصى ، التى كانت ولايته صدر القرن العاشر ، عند تضعضع الدولة الحفصية . ومن العجائب أن هذه العبدليات مع اشتهارها وضخامة شأنها لم يذكرها واحد من المتقدمين على صاحب الخلاصة النقية . وهذه القصور معروفة بالمرسى مذكورة فى الأدب والتاريخ وكتب الآثار والمخططات . وقد شاع ذكرها شعراً ونثراً فى العصر الحسينى على أقلام الورغى والمسعودى وبيرم الرابع بالإفراد مرة « العبدلية » وبالجمع أخرى « العبدليات » .

وهى ثلاثة قصور متقاربة ، بين البساتين والآبار والجوابى . أحد هذه القصور متصل بحد السفح الشمالى لجبل المنار ، يعرف الآن باسم « الحفصى » . والثانى هو الذى أقيم عليه قصر الملك الحسينى أحمد باشا الثانى قبالة مقهى « الصفصاف » ، وإلى جانب الجامع الكبير بالمرسى . والثالث ، ويسمى « العبدلية الكبيرة » ، هو الواقع وراء دار البريد والحديقة البلدية بالمرسى فى الجهة الغربية منها قرب الحى المسمى « الأحواش » .

أما العبدليتان الأوليان ، بالحفصى والصفصاف ، فلقد دخلا منذ القرن الماضى فى القصور الملكية ، وتغيرت صورتهما ، وأقيم عليهما قصران على غير طرازهما القديم . فالحفصى كان للملك الحسينى على الثالث ، وأسكنه بعض بناته وبنيه ، وهو الآن فى حوزة ابن ابنه السيد سيف الله بن إسماعيل .

وقصر الصفصاف كان امتلكه جوزاف رافو الإيطالى من رجال دولة الملك أحمد الأول « المشير » ثم ملكه على الثالث وأسكنه أبناءه ، واختص به

منذ نصف قرن تقريباً ابنه الملك أحمد الثانى فبنى فيه مبانى كثيرة هى اليوم فى تصرف بلدية المرسى .

ولم تبق لهاتين العبدليتين أهمية أثرية ، نظراً إلى التغيير الكلى الذى دخل عليهما ، إلا بما عسى أن يكشفه الحفر عن اسميهما أو الوقوف على رسوم الملكية المتسلسلة لهما إذا وجدت فى خزانة أملاك الدولة أو دفترخانة الأملاك العقارية .

وأما العبدلية الكبرى فهى ذات الأهمية الفائقة التى لا نظير لها فى كامل بلاد المغرب العربى فإنها باقية إلى الآن على وضعها القديم ، لم يدخل عليها إلا تغيير يسير فى بعض النواحى لا يصعب بحال إرجاعه إلى أصله .

وإننا إذا استثنينا قصر الحمراء بغرناطة ، فإننا لا نجد فى المغرب العربى بناية على حالها تمثل طراز المبانى السكنية الفخمة قبل العصر التركى ، غير هذا القصر وهو قصر العبدلية الكبير بالمرسى . فإنه وإن يكن من آثار القرن العاشر ، إلا أنه ، على كل حال ، جاء مغربياً حفصياً ، قبل أن يتأثر فن العمارة بالمؤثرات التى دخلت عليه فى النصف الأخير من القرن العاشر باستقرار الحكم التركى .

وإننا لنعجب لفقيد هذا الفن ، الأستاذ جورج مرساى ، كيف أبدى الأسف ، من جهة ، لأننا لا نجد مبنى من المساكن الخاصة ، فى العهد الحفصى وما قارنه من الملك المرينى بالمغرب الأقصى والملك الزيانى بالجزائر ، إلا أطلالا بالية ، أو أخباراً واردة فى الكتب ثم يثبت لنا أنه وقف على قصر العبدلية ، وألم بوصفه ، ونشر صورته ، وأثبت نسبته إلى العهد الحفصى ، ومع ذلك يدرجه فى آثار العصر التركى ، مع قصور باردو وقصور منوبة وقصر الحكومة بالقصبة ، بل لا يتخذه إلا مثالا لبيت تونسى فى هذا الدور التركى .

وهذا القصر كان يحيط به بستان بنى فيه الآن من الجهة الجنوبية ، أمام القصر ، المدرسة الإعدادية للبنات ، والمستشفى الجهوى بالمرسى على النهج المسمى اليوم : نهج الطاهر صفر وتقع فى مقابلة القصر أمام واجهته بئر ثرة معينة هى اليوم داخلة فى حديقة المستشفى . وقد بقيت الجهة الخلفية للقصر واليمنية له ، أعنى الشمالية والشرقية ، فى أكثرها بستاناً عمومياً تابعاً للبلدية ، حيث كان يقوم قوس عند مدخل البستان عند ابتداء شارع الاستقلال .

أما الجهتان الأخريان فقد بنيت فيهما مبان محدثة أكثرها مساكن بشارع الاستقلال ونهج الشيخ محمد عبده ونهج الأحواش ونهج عبد العزيز الشتيوى .

ويتركب هذا القصر من دهليز يقع فى الجهة الغربية الشمالية منه ، يفتح إلى الجنوب ، أمامه أقواس وله مدخل فخم عليه قبة مدورة بداخلها نقوش زخرفية فى الجص ، على نحو ما هو فى المعاهد الحفصية والمبانى الأندلسية والمغربية فى ذلك العصر . وإلى شرقى هذا الدهليز يقع القصر ممتدة واجهته إلى الجنوب فى مقابلة السقيفة التى كانت مبنية على مدخل البستان على نهج الطاهر صفر اليوم . ويتركب القصر من طوابق متراكبة ذات قاعات وأبهاء تحيط كلها بحنايا وأقباء تتوسطها بركة ماء مربعة يشبه وضعها شبهاً قوياً بهو البركة بقصر الحمراء بغرناطة . وقد ردمت هذه البركة منذ نحو من سبعين سنة وغرست فى وسطها نخلة .

وكان هذا القصر ، من أول العصر الحسينى معدوداً فى القصور الملكية ويسمى « سانية السلاسل » أو « برج السلاسل » لسلاسل كانت عند مدخله مشدودة إلى مدافع مغروسة أفواهها فى الأرض ، ولما سكن الملك محمد الثانى (المشير) بالمرسى أسكن فى هذا القصر الوزير مصطفى خزنة دار وكان له وكيل خاص مكلف بالقيام عليه مثل سائر القصور الملكية . ولما انتصبت اللجنة الدولية للمراقبة المالية سنة ١٢٨٦ ـ أسكن فيه الوزير خير الدين

المتفقد الفرنسى إلى أن انتصبت الحماية الفرنسية وأصبح المتفقد مديراً للمالية فبقى ساكناً فيه . ولما ولى الملك محمد الناصر ١٣٢٥ – إلى ١٣٤٠ – ملك هذا القصر وأسكن فى جزء منه أحد أبناء الوزير مصطفى خزنة دار وكان من خاصته . وبقى أكثر القصر خالياً .

وإن سكنى الملك أبى عبد الله الحفصى للمرسى ، وتعميره هذه القصور ، مع علمنا بما كان عليه أمره وأمر الدولة فى عصره ، ليذهب بالفكر مذاهب فى تقدير الظروف التى كان فيها اتخاذ أبى عبد الله هذه العبدليات مساكن له .

أفلا تكون بساتين المرسى اشتهرت بأزهارها وأشجارها وكرومها ودواليها وبركها ونواعيرها حتى أغرت بنفسها الملك ؟

أولا تكون القصور التى استجادها الأندلسيون الذين سبقوا إلى سكنى المرسى ، قد آلت إلى الملك فعمرها وفخم شأنها وطاب له المقام فيها ؟

أو أن الثروة التى زخرت بها خزائن أبى عبد الله بعد أن خويت دفعت به إلى تجديد شىء مما كان لأسلافه فى جنات أبى فهر ، فبعد بمنتزهه عن مدينة تونس ، المكلومة المنكوبة ، إلى هذا الساحل الساحر ينفض على شواطئه أكداره وهمومه ؟

أو هل أن قصدا إلى استصفاء الأموال ، بعد أن عرف مكان الحاجة إليها ، دفع به إلى أن يضعها بمنجاة ، وأن يفكر فى الفوز بنفسه وبها ، يوماً ما ، إلى المشرق أو إلى المغرب ؟ فإن بين عينيه أحاديث أسلافه ، الذين حين نزل بهم ما أعجزهم دفاعه مهدوا لأنفسهم سبيل الفرار ، موفرين أكثر ما يستطاع الإبقاء عليه من المال والذخيرة . فالسلطان الحفصى ، قبله بقرنين ، وهو أبو يحيى ابن اللحيانى ، كان قد باع كل ما فى القصور الحفصية ، حتى الكتب ، وجمع قناطير الذهب والفضة واليواقت وارتحل بها إلى مصر ، فأقام ، آمناً مكرماً ، فى ظل الملك الناصر ابن قلاوون ، حتى

توفى بالإسكندرية[١] وقد أدركه ابن بطوطة فيها ، ووصف طيب مقامه فى رحلته[٢] :

أفلا يكون أبوعبد الله ، وقد تخلى تقريباً عن الملك لعروج وخير الدين ، نازعاً إلى إقامة هنية على شاطئ المرسى ، تخامره فكرة الخروج عند الاضطرار ؟ فيكون قد جمع أهله وماله ، لهناء حله أو لأمن ترحاله .

ومساعيه التى أثبتها التاريخ ، لدى سلطان تلمسان ، ولدى سلطان مصر الغورى ، والسر الغامض الذى كان يكتنف سفارته إلى الغورى حتى حمل على قتل السفير كما ذكر ابن أبى دينار[٣] ، لعل لكل ذلك ارتباطاً بهذه المقاصد .

على أن فى تراب المرسى سراً لم يزل مدفوناً ، قد يكون له شأن قوى فى إنارة هذه الشكوك والافتراضات ، ذلك هو حديث : الجامع وما تحته — فإن الجامع الكبير بالمرسى الذى بنى على صورته الحاضرة منذ خمس وعشرين سنة تقريباً بعناية الملك أحمد الثانى الحسينى ، قد كان توسعة وتشييداً لجامع بناه فى أوائل القرن الهجرى الحاضر والده . الملك على الثالث ، وأن الملك علياً قد بنى الجامع على أطلال جامع خرب يقال إنه حفصى ، وقد وجدت فى خراباته اسطوانتان رخاميتان شكلهما حفصى مكتوب على كل منهما بحفر بسيط كلمة « حبس » ، فأقامهما الملك على فى بناء الجامع . وقد أدركتهما أنا هنالك قبل أن يجدد الجامع على صورته الحالية .

وفى العام الماضى شرع فى بناء مئذنة جديدة للجامع فى زاويته الشمالية الشرقية فكشف الحفر عن دار مبنية تحت الأرض ، ليست أنقاضاً متهدمة ، ولكنها بناء قائم له أبواب وغرف ، وفى زاويتها بالواجهة اسطوانة مثبتة فى

---

(١) زركشى ص ٥١ وما بعدها .

(٢) شرحه — ص ١٠ .

(٣) ص ١٥١ : ط أولى .

ملتقى الجدارين على الصورة الشائعة المبانى الحفصية فى تونس . وقد تحدث الناس عن نفق تحت الأرض واصل ما بينها وبين البحر . وإن وجود هذه الدار على صورة بناء قصد جعله تحت الأرض ، وكونها متصلة بمسجد ، وما قيل من اتصالها بنفق إلى البحر ، ليسمح كل ذلك بتقدير أن تكون مختبئاً معداً لطوارق الحدثان . ويترجح أن يكون صاحب العبدليات ، بما هو معلوم من الخوف والاضطراب اللذين كانا يخيمان على ملكه ، هو الذى اتخذ ذلك النفق فى الأرض : إما للاختفاء عند الخطر ، أو لاكتناز أموال أو أسلحة أو ذخائر ، وجعل من المسجد ساتراً لها ، وصارفاً للأنظار عن متعهديها . وإن فى تعدد القصور وتقاربها واتصال البساتين ما يعينه على ما يريد .

وإن لهذا نظيراً يشهد له فى شؤون الحفصيين : هو ما ذكر المقرى فى نفح الطيب[1] فى أخبار الرئيس أبى عبد الله بن الحسين بن سعيد ، ابن عم ابن سعيد صاحب المغرب ، وكان مقرباً من السلطان أبى زكريا الحفصى . ولما مات أبو زكريا لم ينل عند ابنه المستنصر ما كان له عند أبيه بل عزله ونكبه ، ثم احتاج إليه فى بعض الأمر ، فاستدعاه ، فأخبر ابن الحسين الملك المستنصر أن أباه ، الملك أبا زكريا ، صنع داراً عظيمة تحت الأرض وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة لسلطانه . ولاشك أن هذا الخبر يكون متناقلا عند الحفصيين فى مناقب أسلافهم وتقاليد سياسة ملكهم . فيكون أبو عبد الله قد اقتدى به . أو لعل الدار تكون هى بعينها التى خلفها أبو زكريا ، ويكون العارف بسرها بعده من الأندلسيين وهو الرئيس ابن الحسين ما يقرب أن تكون من الأسرار التى بين أبى زكريا وبين بطانته الأندلسية ، وقد كان رجال من أعيانها ، مثل ابن الرميمى ، مقيمين فى المرسى ، وربما يكون منهم مؤتمنين عليها .

وهنا نتهى إلى التساؤل عن مصير كل هذه المبانى ومحتوياتها ، ظاهراً

---

(١) ص ٤٧٨ ج ١ ط أزهرية .

وخفياً ، فيتضح لنا ، فى غير كلفة ، أن اليوم الأسود ، الذى أعدت له ، إن لم يكن قد أتى فى عصر بانى العبدليات ، فقد أتى على ولده الحسن بحدثان وفاة الأب ، واحتاج إلى تجهيز ثورة على الأتراك ، وركب البحر إلى إسبانيا حتى أتى بالأسطول الإسبانى . والله يعلم كم أنفق فى وجهته تلك . وعاد إلى إسبانيا بعد هزيمته بالقيروان ، ولم يكن بلا شك إلا متأثلا مالا فى كل ذلك . على أن خروج الحسن إلى إسبانيا ولا سيا فى المرة الأولى يقرب جداً أن يكون من المرسى ، وأن تكون الدار الخفية ، والنفق الواصل للبحر منها ، ممشاه فى تلك اللحظة الرهيبة إلى سوء المصير الذى لقيه هو وأسرته . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

هذه أهم الأمور التى أردت بسطها ، وتوجيه الأنظار إليها ، راجياً أن يتفضل هذا المؤتمر الجليل بتقرير أمور أقترحها نتيجة لعرض هذه العجالة :

الأول : التوجه إلى الحكومة التونسية بطلب المحافظة على قصر العبدلية الكبيرة (برج السلاسل) باعتباره المثال الفريد الباقى من طراز الهندسة المدنية فى المغرب العربى ، والاعتناء بترميمه وإرجاع ما بدأ يفقد من روعته الفنية .

الثانى : توجيه أنظار علماء الآثار ومنظماتهم إلى إجراء بحوث وحفريات بين القصر الحفصى والجامع الكبير بالمرسى وقصر العبدلية الصغرى بالصفصاف عساها تكشف عما يثبت أو ينفى بعض ما افترضناه بشأن تاريخ المرسى فى العهد الحفصى .

الثالث : تعيين لجنة من أهل التخصص تطلب من الحكومة التونسية السماح لها بالعمل فى خزائن الوثائق بمصلحة أملاك الدولة ودفترخانة الأملاك العقارية ، لتضبط تنقلات ملكية السوانى والآبار والمروج فى ما بين قمرت وسكرة والمرسى وقرطاجنة عساها تتوصل إلى كشف شىء عن حقيقة تلك البساتين فى الدولة الحفصية : تطبقه على أعيان الأراضى بالمسح ، وتستهدى فيه بما يؤخذ من نصوص الأدب وكتب التاريخ .

الآثار ... بين مصادر التاريخ العربي

قبـــل الإسلام

للأستاذ حسنى أحمد عبد الرحيم

يقسّم المؤرخون عرب ما قبل الإســـلام ، قسمين رئيسين ، هما : العرب البائدة ، والعرب الباقية .

العرب البائدة :

هم أول طبقة ظهرت من العنصر العربى على وجه الأرض ، وأول من أسس دولا عربية ، كان لطائفة منها دور فى وضع اللبنات الأولى لحضارة الإنسان وثقافته .

وعاصرت تلك الدول العربية الأولى ، الحضارات القديمة المعروفة ، فى مصر وبلاد الرافدين وبلاد الشـــام ؛ وقام العرب فى بعض الأدوار ، بإخضاع تلك الحضارات لنفوذهم . . . وها هى ذى مصر – على ما ذكر ول ديورانت – يتجدد شبابها ، وتكتسب حضارتها بفضلهم دماً جديدا . أما مناطق جنوب الشام فإنهم أتوا إليها بحضارة بالغة التفوق ، تتسم الحياة فيها بمزيد من الحرية والتجدد حسبما يشهد هاردنج .

ويبدأ تاريخ العرب البائدة عند عام ٣٧٥٠ ق . م ، استنادا إلى الأدلة المادية التى أعثرتنا عليها حفريات علماء الآثار – حتى الآن .

وأهم شعوب العرب البائدة :

– عماليق العراق : أصحاب دولة بابل الأولى ، والتى تنسب إلى حمورابى أشهر ملوكها .

– عماليق مصر : ويعرفون فى التاريخ المصرى باسم « الهكسوس » .

– بقايا العماليق وهم : عاد الأولى ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، والأنباط ، وتدمر ، وجرهم الأولى ، وأميم ، ووبار ، وعبيل ، وحضوراء ، وجاسم ، وعبد ضخم ، وقبائل أخرى متفرقة منهم : لحيان ، وبنو خالد . . . وغيرهم .

وتنحدر هذه الشعوب والقبائل جميعاً من « إرم » و « لاوذ » ابنى سام ابن نبى الله نوح عليه السلام . ومعنى هذا أن ارتباط العرب البائدة بالساميين الأول ، ارتباط وشيج ، فصمته سنة التشعب التى جعلت من الجنس السامى ، بعد اجتماع ووحدة ، أمما شتى ، تختلف لسانا ، كما تختلف مكانا ومنهاجا وشرعة .

وقد رافق العرب البائدة ، سير التاريخ ، أجلا شاء الله أن ينقضى قبل عام ١٩٠٠ ق . م ، حيث بادوا فى كوارث أحلها الله بهم ، فتلاشوا ، وانقطع ذكرهم عند هذا الحد « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى . . . »(١)

العرب الباقية :

بعد هلاك تلك الأجيال الأولى من العرب ، أخذت طبقة عربية أخرى فى الظهور ، هى « العرب الباقية » ، وقد تعاقب هؤلاء ، جيلا بعد جيل ، حتى فجر الإسلام ، ودخلوا فيه بحمد الله أفواجا .

وينقسم العرب الباقية – بحسب أصولهم – إلى قحطانية وعدنانية :

---

(١) آية ٤٣ – القصص

عرب القحطانية : وكان مهدهم الأول باليمن ، ويعرفون لذلك باسم « عرب الجنوب » . وعروبتهم أصيلة ، لم يأخذوها عن أحد ، مثلما أخذها عرب الإسماعيلية عنهم ، ولسانهم عربى منذ كانوا ، ولذلك يقال لهم أحياناً « العرب العاربة » . وهم ينتسبون إلى جدهم « قحطان بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح » .

وفوق أرض اليمن السعيد ، وفى مناطق جنوب شبه الجزيرة ، أسس القحطانيون دولا عربية لها حضارة وتاريخ ، أهمها : معين ، وسبأ ، وحمير . ولا تزال بعض البقاع فى تلك المناطق تحمل إلى اليوم اسم زعيمين من زعماء قحطان الأول هما : « حضرموت » و « عمان » .

عرب العدنانية : هم الفرع الثانى من العرب الباقية ، ويقال لهم « العرب المستعربة » نظرا إلى أن جدهم الأعلى ، وهو إسماعيل بن نبى الله إبراهيم عليه السلام ، ليس من العرب ، ولكنه من المستعربين. وأساس صلته بهم أن أباه إبراهيم أنزله مكة ، وفيها حينذاك قبيلة قحطانية هى « جرهم الثانية » ، ثم ارتحل إبراهيم عليه السـلام وترك إسماعيل بين هؤلاء الجرهميين ، حيث نشأ فيهم ، وأخذ عنهم لسانهم العربى ، وتزوج من فتاتهم « رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى » . ومن ذرية إسماعيل نشأ العرب الإسماعيلية ، وهم الأصـول الأولى للفرع العدنانى من العرب الباقية ، وقد أطلق اسم الإسماعيلية على هذا الفرع أول الأمر ، ومع مرور الوقت غلب عليهم اسم « العدنانية » نسبة إلى عدنان أحد أحفاد إسماعيل :

وأهم فروع العدنانيين :

ـ عرب الإسماعيلية : هم أسلاف القبائل العدنانية كلها كما ألمحنا ، ويقال أن عرب مدين والإسماعيلية فرع واحد .

قبائل عدنان الأولى : هى معد ، ثم علك التى ذكرهما بطليموس فى جغرافيته ، وكلاهما من ولد عدنان الذى ذكرناه .

قبائل نزار : وأشهرها قضاعة ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ، ومضر .

بطون قريش : من ولد النضر بن كنانة بن مضر ، ولقد لقب « قريش » نسبة إلى « التقرّش » وهى التجارة الواسعة التى كان يتعاطاها .

بطون العدنانية المتحضرة وقد نشأت فى مكة ويثرب .

* * *

وتقسيم العرب الباقية إلى قحطانية وعدنانية ، لم يكن معروفا حتى ظهور الإسـلام ، وإنما ظهر هذا التقسيم فيما بعد كاصطلاح تاريخى ، يميز بين فرعين من العرب ، يختلفان نسبا ومهدا فحسب ، وربما كان الاهتمام البالغ فى عصر تدوين التاريخ الإسلامى ، بتحقيق أنساب العرب ، ذا علاقة وثيقة بابتكار ذلك الاصطلاح .

* * *

مصادر تاريخهم : والمصادر التى يستقى منها الدارسون والباحثون وعشاق التاريخ ، معارفهم عن تلك القرون العربية التى قدمناها بين يدى القارئ فيما سبق ، أنواع ثلاثة : مصادر قديمة ، ومصادر إسلامية ، ومصادر حديثة (أى أدلة الآثار المكتشفة حديثاً) .

أولا – المصادر القديمة

ويقصد بها تلك المؤلفات والكتب ، التى دونت باللغات المختلفة فى تاريخ معاصر ، أو فى تاريخ قريب نوعاً ما ، من الوقت الذى عاشت فيه الشعوب

والقبائل العربية قبل الإسلام . وتعد هذه المؤلفات والكتب من المصادر الأولى أو الأصيلة لتاريخ تلك الأجيال العربية .

ويعتبر الكتاب الذى يحمل اليوم اسم « التوراة » ، من أهم المصادر القديمة لتاريخ العرب قبل الإســلام ، فهو يرسم صورة واضحة المعالم لطبيعة العلاقات القائمة حينذاك ، بين العبرانيين والعرب ، وعلى وجه الخصوص « عرب الإسماعيلية » ، كما يفيد كثيراً فى تحقيق أنساب العرب البائدة ، وفى الوقوف على أحوال بعض أممهم وقبائلهم وملوكهم .

وما ورد فى التوراة والتلمود؟، عن العرب الجاهليين ، تتعلق أحداثه بالفترة التاريخية ، الواقعة بين منتصف القرن الثامن ، والقرن الثانى قبل الميلاد .

وتوضح الكتب الأخرى التى ألفت بالعبرانية ، جوانب كثيرة من ذلك التاريخ ، وتضيف فصولا هامة إليه . وفى مقدمة هذه الكتب مؤلفات المؤرخ اليهودى : يوسف فلافيوس الذى عاش فى القرن الأول للميلاد ، وأفاض فى تفصيل أخبار مملكة النبط العربية التى عاصرها ، وتعد كتاباته لذلك أثرى مصدر على الإطلاق فى تاريخ هذه المملكة .

وتعطى الكتب المدونة بالفارسية والسريانية ، معلومات جغرافية ذات أهميــة عن مواطن العرب الجاهلين ، بالإضافة إلى ما تحتويه من معلومات تاريخية .

ولقد انفردت هذه المؤلفات بحفظ أسماء كثير من القبائل العربية ، التى لم يكن ثمة وسيلة لمعرفة شىء عنها من أى مصدر آخر . ومما يزيد من أهمية الأخبار الواردة فى تلك الكتب القديمة أنها مستقاة من مصادر حية ، مثل الجنود الذين اشتركوا فى الحملات اليونانية والرومانية على بلاد العرب ، والسياح الذين أقاموا واختلطوا بالقبائل العربيــة ، ومثل التجار وأصحاب

السفن الذين كانوا يهتمون بجمع ما يهمهم من معلومات عن بلاد العرب ، مثل عادات السكان والمنتجات التى يصدرونها ، والبضائع التى يحتاجون إلى استيرادها .

أما كتب المؤرخين والجغرافيين اليونانيين ، مثـــل هيرودتس ، وبروسوس ، فإنها لا تختص الحديث عن أولئك العرب بفصول مستقلة ، وكل ما ورد فيها من إشارات عنهم جاءت عرضا ضمن الكلام عن موضوعات تاريخية مختلفة .

ونجد الأمر غير ذلك فى جغرافية استرابون (٦٤ ق . م) ، إذ خص بلاد العرب بفصل فى الكتاب السادس عشر ، تناول فيه بالحديث المدن والقبائل العربية فى عهده ، كما أعطى صورة واضحة عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للوطن العربى فى أيامه ، وعن الأطماع الخارجية التى أحدقت بذلك الوطن حينذاك .

والأدب الجاهلى ، من أشعار وأمثال وأقوال وقصص من المصادر القديمة الهامة لتاريخ العرب قبل الإسلام ، فقد كان هذا الأدب فى نظر العرب من أصحاب الجاهلية القريبة على الخصوص ، إلى جانب القصد الفنى والحكمة المروية ، سجل غير مسطور ، يستحفظونه أخبارهم وتاريخهم وأيامهم وأنسابهم ؛ تتداوله الأجيال عن الأجيال ، ويتناقله الأبناء عن الأجداد ، معتمدين على ذاكرة وقادة ، وذهن صاف متخفف من عقد الحياة ، قلما يخطئ فى نقل أو رواية .

وتعد الكتابات النصرانية للمؤرخ « زوسموس » والمؤرخ « أشمون الارشامى » ، وكذلك محاضر المجامع الكنسية التى كان يحضرها ممثلون عن الهيئات النصرانية فى بلاد العرب ، مصدراً مفيداً بين المصادر القديمة لتاريخ العرب قبل الإسلام .

ثانيا – المصادر الإسلامية

هذه المصادر هى : القرآن الكريم ، وكتب التفسير . وكتب الحديث وشروحها ، ثم المؤلفات التى وضعها المؤرخون الإسلاميون .

وتتمثل أهمية القرآن كمرجع لبعض جوانب هذا التاريخ ، فى التسليم المطلق بصحة أخباره وصدقها (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

وإذا كان القرآن هو المصدر الأول الذى يصور لنا حياة العرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بما يزيد على قرن ونصف ، والذى يمكن أن نتفهم منه كل ما يتعلق بحياتهم ؛ الفكرية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية ؛ فإنه قد أجمل فى آياته ،الجوهر الذى يتقصاه طلاب المعرفة ، فيما يتعلق بأقدم الأجيال العربية من أخبار .

وتعتبر عاد من أكثر الأجيال العربية الأولى ، ذكرا فى القرآن الكريم ونجد من بين سور القرآن سورة باسم نبيهم « هود » عليه السلام ، كما نجد سورة أخرى تحمل اسم « الأحقاف » موطنهم ، ونقرأ فى إحدى الآيات تحديداً لموضع ذلك الموطن من الأرض : (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف . . . »[1] .

وأورد القرآن اسم مدينة من مدنهم وبين طرز عمائرها ومكانتها بين البلاد جميعاً ، فقال : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد)[2] . وأشار إلى أن عاداً جيلان مختلفان ، فقوله : (وأنه أهلك عاداً الأولى)[3] دلنا على وجود عاد ثانية .

وذكر القرآن ديانة عاد ووثنيتها فقال : (قالوا أجئتنا لتأفكنا عن

---

(١) آية ٢١ – الأحقاف (٢) آية ٦ – ٨ – الفجر

(٣) آية ٥٠ – النجم

آلهتنا[١] ...)[٢] . وتطرق إلى ذلك العقائد السائدة قبلهم وهى الوثنية أيضاً : (قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا)[٣] .

وأشار القرآن فى وضوح إلى تمكنهم حينذاك من أسباب القوة المادية والبدنية والفكرية فقال : (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة . ٥ .)[٤] ، وخاطبهم على لسان نبيهم :(. . . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة)[٥] ، (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين)[٦] ، كذلك أشار القرآن إلى مدى استعلائهم ، وإحساسهم بقوة النفس فى قوله : (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة)[٧] وهذا نبيهم يخاطبهم (وإذا بطشتم بطشتم جبارين)[٨] ، وليس أدل من هذا الخطاب على عظم السطوة الحربية التى كانت لعاد .

ويعطينا القرآن بكلمات قليلة فكرة عن ترفهم وثرواتهم ، ومصانعهم ، وخصب أرضهم ، ومصادر المياه لديهم : (أتبنون بكل ريع[٩] آية تعبثون[١٠] ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)[١١] ، (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ؛ أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون)[١٢] .

ويصف القرآن لنا كيف كان هلاك عاد بأعاصير اجتاحت بلادهم سبع ليال وثمانية أيام دون انقطاع فيقول : (فأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى

---

(١) أى أصنامنا
(٢) آية ٢٢ – الأحقاف
(٣) آية ٧٠ – الأعراف
(٤) آية ٢٦ – الأحقاف
(٥) آية ٦٩ – الأعراف
(٦) آية ٥٢ – هود
(٧) آية ١٥ – فصلت
(٨) آية ١٣١ – الشعراء
(٩) ربوة أو مكان مرتفع
(١٠) قصراً تفاخرون به ، أو تتخذونه لمجونكم
(١١) آية ١٢٨ ، ١٢٩ – الشعراء
(١٢) آية ١٣٢ – ١٣٤ – الشعراء

كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية)[١]، (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر)[٢]، (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى فى الحياة الدنيا)[٣] . ويصف القرآن قبل ذلك كيف استقبل القوم الهلاك المقترب ، وكيف انصرف إليه ظنهم ، فيقول : (فلما رأوه عارضاً[٤] مستقبل أوديتهم ، قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها) . ثم يشير بعد ذلك إلى ما بقى من آثارهم فى قوله : (. . . فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين)[٥] .

ويؤخذ من القرآن أن عادا وثمود كانوا معروفين لدى عرب الجاهلية القريبة كما كانوا يعرفون مواضع آثارهم ومساكنهم القديمة : (وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم)[٦] .

هذا مثال لما أورده القرآن الكريم من أخبار عن القرون العربية الأولى ، وعلى هذا النحو تحدث القرآن عن ثمود ومدين ، وسبأ وحمير وغيرهم . وبيّن القرآن أحياناً رتبة بعض الأجيال بالنسبة للأجيال الأخرى .

ولقد ذهب بعض المستشرقين ، إلى التشكيك فى وجود قومى عاد وثمود ، وزعموا أنها مجرد أسماء لشعوب خرافية ، لم يكن لها يوما ما أى وجود فى التاريخ ، ولكن الكشوف الأثرية – وهى دليل مادى لا شبهة فيه – جاءت بما يدحض هذا الرأى ، مؤكدة وجود عاد وثمود ، برهانا ساطعا على صحة الأنباء التى جاءت فى القرآن الكريم عنهم .

---

(١) آية ٦ – ٨ – الحاقة

(٢) آية ١٩ ، ٢٠ – القمر

(٣) آية ١٦ – فصلت

(٤) أى سحاب يعترض الأفق

(٥) آية ٢٤ ، ٢٦ – الأحقاف

(٦) آية ٣٨ – العنكبوت

وإذا كان القرآن ، باعتباره كتاب إعجاز وهداية وتشريع ، وليس كتابا للتاريخ ، قد أجمل الأخبار عن العرب قبل الإسلام ، قاصدا فى المحل الأول ، إلى ضرب المثل ، وسوق العبرة ، والتذكير بما حل بأقوام عصوا رسلهم ، وعتوا عن أمر ربهم ، فإن كتب التفسير التى وضعها بعض الأئمة النجباء ، كالطبرى والقرطبى والنسفى والبيضاوى وغيرهم ، قد جاءت تفصل لنا تفصيلا ، ما أجمله القرآن من تلك الأخبار ، حتى لتعتبر هذه التفاسير وحدها ، ثروة كبيرة يجد فيها كل باحث ما يغنى كثيراً من حاجته .

ويساوى كتب التفسير – كمصدر فى تاريخ العرب قبل الإسلام وفرة فى المادة – كتب الحديث وشروحها . وإن التحرى الدقيق الذى بذله علماء الحديث ، لتحقيق الروايات وتمحيصها وضبطها ، وفق أصول مدروسة ، وقواعد محكمة ، لمن الأمور التى يركن إليها ضمير المؤرخ المدقق .

والمعلومات التى نأخذها من كتب الحديث وشروحها عن العرب الجاهليين ، تبين لنا أن شبه الجزيرة العربية ، كانت على اتصال وثيق بالعالم الخارجى قبل الإسلام ، كما كان لها معاملات واسعة مع أسواق التجارة العالمية : إليها تسير تجارتها وقوافلها ، ومنها تستورد لوازمها وحوائجها . . . هذا من الناحية الاقتصادية ؛ أما من الناحية السياسية فنأخذ منها أن العرب قبل الإسلام لم يكونوا بمنأى عن أحداث السياسة العالمية .

وخلال القرنين الثانى والثالث للهجرة وما بعدهما نشطت طائفة من المؤرخين المسلمين ، إلى تدوين تاريخ العرب منذ نشأتهم حتى ظهور الإسلام ، بعد ما كان الناس يتناقلون أخبار هذا التاريخ عن طريق السماع والرواية . واعتمد هؤلاء المؤرخون فى عملهم على المصادر الإسلامية من قرآن وحديث ، بالإضافة إلى المصادر القديمة التى ذكرناها ، والنصوص المدونة بالخط المسند على آثار اليمن . ولعلهم استفادوا أيضا بما يكون قد

وصلهم سليا مما دوّنه كتاب الجاهلية القريبة ، وبما وجدوه مسطورا عن تاريخ عرب الشام والعراق فى سجلات الحيرة وكتبها .

وابتكر العرب منهاجا جديدا فى تحقيق وتسجيل تاريخ ما قبل الإسلام ، فكان محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، هو أول من استند من المؤرخين قاطبة — فى تدوين ذلك التاريخ — إلى النقوش المكتوبة على الآثار ، كما اهتم الهمدانى بتفقد آثار القرى العربية الدارسة ، ووصفها وصف الرائى ، وضمن مشاهداته كتابه المسمى : (وصف جزيرة العرب) .

وفى حكم عمر الفاروق بدئ فى تسجيـــل أنساب العرب وتبويبها وإيداعها الدواوين .

ولا تعكس الثروة الكبيرة التى تركها لنا مؤرخو الإسلام ، عن تاريخ العرب فيما قبل الإســـلام — على ضخامتها — حقيقة الجهود التى بذلوها فى هذا السبيل ، فإن كثيراً من المؤلفات التى كتبوها فى هذا الموضوع قد ضل — فى متاهة الأحداث — السبيل إلى أيدينا .

ومهما كان الأمر ، فإن فضل مؤرخى الإسلام من أمثال ابن هشام ، وابن قتيبة ، واليعقوبى ، والأصفهانى ، وابن شريه ، ووهب بن منبه ، والكلبى ، والهمدانى ، وابن خلدون وغيرهم ، فى صيانة تاريخ عرب ما قبل الإسلام والمحافظة عليه من الضياع أو التبدد ، حقيقة غير منازع فيها ، ومع ذلك فإنهم لم يسلموا من كل إنكار أو طعن ، من قبل مؤرخى عصرنا .

وليس من المستغرب أن يأتى هذا الإنكار أو الطعن ، من جانب المستشرقين ، وقد علمنا أن الاستشراق ، قد نشأ أول أمره لخدمة التبشير ، ثم ترعرع تحت رعاية وزارة المستعمرات الفرنسية ؛ وإذا فإن المستشرق ، طالما يذهب — ما وسعته الحيلة — إلى التشكيك فى قيمة التراث القومى ، والتهوين من حضارة الأمة ، كى يفسح فى النفوس مجالا ، لتقبل الحضارة

والقيم الوافدة ، فإنه لا يتعارض مع طبيعة عمله ، ولا مع حقيقة المهمة التى يخدمها تحت قناع الثقافة أو البحث العلمى ؛ وذلك ما يجعلنا ننظر إلى تهجم بعض المستشرقين ، على الجهود المشهودة لمؤرخى المسلمين ، أو محاولة التشكيك فيها ، على أنه أمر غير مستغرب ، كما أنه ليس من المستغرب أيضاً ، أن نجد شارداً مفتونا ، من بين قومنا بهؤلاء المستشرقين .

ولنا أن نسائل هؤلاء جميعا . . . متى وجد مؤرخو المسلمين ، الحرج فى أنفسهم ، وهم يدونون تاريخ العرب قبل الإسلام ، ومتى أوحى الإسلام إلى هؤلاء المؤرخين — كما يزعمون — بطمس معالم هذا التاريخ ، وقد رأينا القرآن نفسه ، يفصل لنا الحديث عن كثير من أقوام عرب الجاهلية ، ويذكر لنا أخبارهم وأحوالهم ودياناتهم وأسماء أصنامهم .

وإذا كان ثمة خلاف بين النسابة العرب ، حول بعض الأنساب ، فإنه على أية حال خلاف ، لا يغير شيئاً من جوهر هذا التاريخ ، ولا يمس أصوله فى شىء ، إلا أنها ثغرة وافقت هوى هؤلاء المغرضين للتشكيك فى صحة روايات التاريخ الإسلامى عن عرب الجاهلية ، ثم إن هذا الخلاف ذاته يرجع إلى أسباب لا حيلة للنسابين فيها ، فاشتراك الاسم الواحد ، وتكرار التسمى به فى المنابت الأولى ، فى فترة زمنية واحدة أو متقاربة ، بالإضافة إلى البعد السحيق عن زمن التدوين ، أسباب تؤدى حتما إلى اللبس ، وإلى اختلاف بعض أوجه الرواية من مؤرخ إلى آخر . ولعل اسمى طسم وجديس ، مما يضرب مثلا على ذلك ، فلاوذ بن إرم أسمى طسما وجديساً ، وأخوه كاثر بن إرم أسمى ولدين له طسما وجديساً ، وكذلك فعل عمهما لاوذ بن سام فأسمى طسما كما أسمى جديساً . . . وبين هذا التكرار تتراوح الرواية ، وتزداد فرص اللبس حتما .

ويأخذ البعض على مؤرخى المسلمين ما أوردوه من أوصاف جسمانية عن العرب العماليق ، فيها كثير من المبالغة . ولا جرم أن ما ورد عنهم

من أوصاف ينطوى على مبالغة فعلا ، ولكن من أين نحكم بأن ذلك شىء كانوا يؤمنون بصحته ، ولماذا لا يكون دافعهم إلى إثبات هذه الصفات — رغم ما يعلمونه من المبالغة فيها — هو الرغبة فى تصوير ما كان يدور فى أذهان الناس من خيالات عن العرب العماليق ، وما كانوا يتصورونه فيهم من الجبروت والبطش والقوة الخارقة ، وإذا ما علمنا بأن هؤلاء العماليق قد تمكنوا بضربة واحدة من إخضاع بلاد الفراعنة وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ، وانتزاع السيادة على العالم آنذاك من دول الأرض ، فلنا أن نتصور مدى ما كان عليه — فعلا — هؤلاء العماليق من قوة ، ولنا أيضاً أن نعتقد بأن ما جاء من أحاديث حول قوة هؤلاء القوم ليس ضرباً من الخيال المحض .

وخلاصة القول أن مؤرخى الإسلام هم الذين فتحوا بجهودهم الرائدة فى هذا المجال طريقاً جديدة شيقة بين الدراسات الإنسانية .

ثالثاً — المصادر الحديثة (أدلة علم الآثار الحديث)

ونعنى بهذه المصادر ما أسفرت عنه التنقيبات الأثرية الحديثة من أدلة أو معلومات .

ويميل بعض الباحثين إلى اعتبار كتابات المستشرقين من المصادر الحديثة لتاريخ العرب فيما قبل الإسلام ، إلا أن مثل هذه الكتابات ليست بحال من الأحوال مادة أساسية لهذا التاريخ كشأن المصادر التى ذكرناها ، ولكنها دراسات تدور حول محتوى تلك المصادر .

وتلك الأدلة من علم الآثار الحديث ، هى من الناحية الفعلية قديمة قدم العرب الجاهليين أنفسهم ، ولكن نظراً إلى حداثة ظهورها وتأخر الاستناد إليها كمصدر تاريخى ، فقد اعتبرت المصدر الحديث لتاريخهم دون نظير أو ند .

ولمدة غير قصيرة ظلت أعمال البحث والتنقيب عن آثار العرب الجاهليين وقفاً على الأفراد والبعثات من دول أوربا ، وترتب على ذلك نقل مجموعات كبيرة من الآثار العربية القديمة إلى بعض المتاحف الأوربية ؛ منها ما هو أصيل منقوش على الحجر أو البرونز أو الألواح ، ومنها ما هو منقول عن الأصل بالرسم أو الطبع نظراً لتعذر نقله . ومعظم هذه النقوش مكتوب بالمعينية أو الحميرية ، وبعضها مكتوب بالتدمرية .

وأدى التوسع فى أعمال التنقيب إلى اكتشاف آثار عربية فى جميع المناطق التى ارتادها أو أقام بها العرب الجاهليون كاليمن وحضرموت وعمان والحجاز وشمال شبه الجزيرة وبلاد الشام وغرب العراق . كما اكتشفت آثار عربية قديمة خارج الحدود ؛ فى مصر وجزيرة ديلوس وبعض مناطق إفريقية .

ويدخل فى نطاق تلك المصادر أيضاً كل ما ورد من أخبار عن العرب الجاهليين على آثار الأمم الأخرى كبابل وآشور ومصر وسومر والنوبة وفينيقية ، فهذه الآثار ليست — كما قد يظن — بعيدة كل البعد عن التعرض لتاريخ العرب ، فمن النقوش المدونة على تلك الآثار تمكن العلماء والباحثون من تفهم طبيعة علاقات العرب القديمة بالدول الأخرى آنذاك ؛ سياسية كانت أم ثقافية أم تجارية ، كما تمكنوا من معرفة المنطوق القديم لكلمة العرب .

وتعتبر النقوش والكتابات والصور التى أعثرتنا عليها الحفائر الأثرية هى الشاهد الحى الوحيد ، والواقع المادى الذى لم تبق الأيام لنا غيره عن تلك القرون العربية الخالية . . . ومن هذا الاعتبار يستمد هذا النوع من المصادر أهميته البالغة .

ومن وجوه مختلفة حققت الكشوف الأثرية فوائد جمة لتاريخ العرب فيما قبل الإسلام ، فعلى هدى منها أضيفت فصول لم يكن لأحد علم بها من

قبل ، وأسهبت فصول أخرى بعد قلة وإيجاز ، وظهرت أسماء ملوك ودول لم تكن معروفة وتثبتت أخبار تأرجحت طويلا بين الشك واليقين ، ولقيت آراء خاطئة فى هذا التاريخ مصيرها ونهايتها .

لقد كان من المتعـــذر ، إقامة دليل صادق ، على خطأ ما ذهب إليه بعض المستشرقين من إنكار وجود أشهر الأقوام العربية القديمة كعاد وثمود ، وطسم وجديس ، وأميم ووبار ، والزعم بأنها مجرد أسماء صنعتها خيالات الرواة والقصاص من العرب ؛ لولا التقدم الذى أحرزته حركة الكشف عن الآثار حيث قرئ اسم (طسم) على نص يونانى عثر عليه فى (صلخد) ، كما قرئ اسما (عاد) و (ثمود) فى بعض الكتابات التى عثر عليها ، ومنها نص من نصوص الملك (سرجون الثانى) ؛ وحيث أيدت دراسات علماء الآثار وجود مخلفات عمران قديم فى المواضع التى عينها المؤرخون المسلمون لمواطن (أميم) و (وبار) بين اليمامة والشحر .

وإلى جانب الفوائد الجمة التى أتاحتها الدراسات والكشوف الأثرية فى تحقيق جوانب خاصة من التاريخ الجاهلى ، فإنها أفادت كثيراً فى تحقيق بعض القضايا العامة لهذا التاريخ ، مثل نشأة العنصر العربى ، وابتكار اسم « العرب » ، ومعرفة أصل اللغة العربية ولهجاتها القديمة ، وأنواع الخطوط التى كان العرب يكتبون بها ، وصلة هذه اللهجات والخطوط بعضها ببعض ، وصلتها وتأثرها أو تأثيرها فى لهجات وكتابات الأمم الأخرى المعاصرة لها . وقد تأتى تلك الاكتشافات فى المستقبل بالقول الفصل عن المواطن الأولى للعرب ، وعن الأحوال الطبيعية التى كانت عليها شبه الجزيرة فى العصور المبكرة ، وحقيقة الصلة بينها وبين العرب الأوائل . كما قد تأتى أيضاً بما يتفق وروايات التاريخ العربى عن عظم سلطان الحميريين وما قاموا به من فتوحات أحاطت بآفاق الأرض ؛ من خراسان وفارس إلى آذربيجان وبلاد الروم والمغرب الإفريقى .

• • •

وقد بدأ الاهتمام بالبحث عن آثار عرب ما قبل الإسلام منذ أواسط القرن السابع عشر ، عندما اقترح العالم الألمانى (ميخايلس) على حكومته فى عام ١٧٥٦ إيفاد لجنة كشفية إلى اليمن ، كان من نتائجها وضع أول كتاب يبحث فى الآثار العربية القديمة .

ونشط إلى التنقيب فى المناطق الشمالية عدد من البعثات والعلماء المهتمين ولم تكن معظم الآثار التى عثر عليها — أول الأمر — فى البتراء والحجر والصفا والعلاء وبصرى وتدمر ، تتصل مباشرة بتاريخ هؤلاء العرب ، ولكن فى الحقبة الأخيرة أدت التنقيبات التى أجريت — والتى اشترك فيها كثير من العلماء العرب ، بالإضافة إلى الدوائر العربية الرسمية المسئولة عن الآثار — إلى الكشف عن كثير من الآثار والمخلفات الحضارية الخاصة بعرب الشمال (العماليق وبقاياهم) .

وقد عثر فى اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية حتى الآن — رغم الأعمال الأثرية المحدودة — على مادة كبيرة فى تاريخ هذه المناطق والشعوب العربية السابقة التى أقامت فيها . وبالرغم من ارتباط معظم هذه الآثار بالأدوار الوسطى من حضارة اليمن فمن المنتظر أن يلقى التوسع فى أعمال التنقيب هناك كثيراً من الضوء على تاريخ الحقب الأكثر قدماً .

ويسود خط حمير (المسند) على آثار جنوب الجزيرة ، وقد حفظت لنا الكتابات التى نقشها سكان اليمن القدماء على جدران معابدهم وعلى لوحات الحجر والنحاس كثيراً من أخبارهم وأسماء حكامهم والأطوار التاريخية للدول التى حكموها وللحكومات التى أقاموها . ويؤخذ من الكتابات المعينية التى عثر عليها فى الجيزة ، ومن الآثار المصرية فى وادى النيل ، وبعض الآثار المصرية التى عثر عليها فى اليمن ، أن علاقات تجارية وثيقة كانت تربط بين مصر وبلاد اليمن وحضرموت ؛ وأن جالية معينية كبيرة كانت تقيم فى مصر .

وتعطينا النصوص المعينية والحميرية التى عثر عليها فى جزيرة ديلوس والعراق وسيناء وفلسطين ، والإشارات الواردة عن جزيرة العرب فى آثار سومر منذ عام ٢٣٥٠ ق. م ، وفى أخبار الملك (تيجلات الثالث – ٧٣٦ ق . م) ؛ أوضح الدلائل على توثق العلاقات بين دول اليمن وحضرموت ، وبين كبريات دول الأرض حينذاك .

كما استدل من تأثير الخط الحميرى المسند فى الخط الحبشي والنوبى والبرهمى القديم – حسبما أثبتت الدراسات المقارنة – على مدى تأثير عرب اليمن القدماء فى اتجاهات الثقافة العالمية أيامهم .

ومنطقة الجوف هى أغنى مناطق جنوب شـبه الجزيرة بالعاديات والآثار ، حيث تقع بها خرائب معين عاصمة الدولة المعينية ، التى اكتشفها هاليفى عام ١٨٩٩ .

ومن الآثار المكتشفة فى الجوف تمكن العلماء والدارسون من الوقوف على نظام الضرائب فى دولة معين ، وأنواعها وكيفية جمعها ، وأسماء الملوك الذين حكموها وأشهر مدنها ، كما وقفوا على نظمها الكهنوتية ، وعلى أسماء الأوثان المعبودة فيها ، والتى كان يرمز لها بكواكب الزهرة والشمس والقمر . . . وأشهر هذه الأوثان (ود) صاحب رمز القمر ، الوارد ذكره فى القرآن الكريم ، والذى عثر على اسمه مكتوباً بحروف كبيرة على بعض الآثار فى وسط شبه الجزيرة العربية :

وقد أفصحت آثار منطقة مأرب والنقوش التى تحملها ، عن معلومات غير قليلة عن تاريخ اليمن القديم ، خاصة تاريخ بناء سد مأرب ، والإصلاحات والترميمات التى تتابعت عليه فيما بين عام ٨٠٠ ق . م و ٥٦٥ ب . م ، والبلاد الزاهرة التى كانت فى تلك المناطق قبل حدوث سيل العرم الشهير ، والتى لا تزال خرائبها شاخصة إلى اليوم عن يمين وشمال .

وتتفق نتائج الدراسات التى أجريت على بقايا السد والقرى الدارسة هنالك ، مع دقة الوصف القرآنى لموضع هذا السد ، والمناطق التى كانت تستمد منه حياتها ، ومدى الأزدهار الذى أشاعه ذات اليمين وذات الشمال ، والتخريب الموحش الذى تسبب عن انهياره ... وذلك فى قوله تعالى : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم[١] ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط[٢] وأثل[٣] وشىء من سدر[٤] قليل)[٥] ثم فى قوله : (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها[٦] قرى ظاهرة[٧] ، وقدرنا فيها السير[٨] ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين[٩] ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث[١٠] ومزقناهم كل ممزق[١١] ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور)[١٢] .

وفى موطن الشحر بحضرموت توجد آثار مدن منقرضة وقرى جاهلية وكهوف ومغاور على حافتى الوادى وصور على الصخور ،

---

(١) إشارة إلى انهيار السد .
(٢) ثمر فيه مرارة .
(٣) نوع من حشيش الطرفاء .
(٤) النبات الذى يثمر النبق .
(٥) آية ١٥ ، ١٦ — سبأ
(٦) أى قرى بلاد الشام المترفة .
(٧) متواصلة بادية .
(٨) أى قربنا المراحل بينها .
(٩) من الجدير بالذكر أن الدراسات الأثرية كشفت عن وجود سلسلة من قلاع أنشئت لحماية طريق القوافل وتأمينه بين الجزيرة العربية وبلاد الشام .
(١٠) أى أخبارا تثير الدهشة .
(١١) أى فرقناهم فى البلاد (لحق غسان منهم بالشام ، وأنمار بيثرب ، وجذام بتهامة ، والأزد بعمان . . . الخ)
(١٢) آية ١٨، ١٩ سبأ .

ودلائل واضحة على عمران سابق . . . وتحتاج هذه الآثار الوفيرة إلى كثير من أعمال التنقيب والدراسة حتى نستخرج كثيرا ما تكتنزه من خبايا تاريخ العرب القديم .

وإلى وقت ليس ببعيد كانت النقوش التى نقلها هاليفى عام ١٨٧١ من آثار مأرب والجوف ونجران ، هى المصدر الرئيسى الوحيد للمؤرخين ، بسبب الفشل الذى لقيه — من بعده — كل من حاول الوصول إلى تلك المناطق واستقراء معالم الآثار فيها .

غير أنه ابتداء من عام ١٩٣٦ تمكن بعض العلماء العرب من ارتياد مناطق الآثار فى اليمن ودراستها ، أمثال الدكتور أحمد فخرى والأستاذين نزيه المؤيد ومحمد توفيق . وقد تمكن الدكتور أحمد فخرى من نقل نقوش كثيرة لم تعرف من قبل ، أضاف بها ثروة كبيرة إلى معلوماتنا عن تاريخ تلك البلاد قبل الإسلام ، كما ألقى بها كثيراً من الضوء على صلات الفن اليمنى القديم بفنون البلاد الأخرى ، وبخاصة الحضارة البابلية . وفى عام ١٩٥٩ تمكن هذا العالم العربى من الوصول إلى منطقة أثرية لم يسبقه إليها أحد من علماء الآثار ؛ تلك هى بلاد مراد التى تقع على مسافة ٢٧ كم من مأرب ، حيث قام بدراسة مفصلة لأهم أثر فيها وهو « معبد المساجد » — كما يسميه البدو — والذى يرجع تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد أدت هذه الدراسة إلى تصحيح ما جاء فى كتابات بعض الباحثين الأوربيين من معـــلومات خاطئة ، أوردوها بظهر الغيب عن الطرز الهندسى للمعبد الكبير .

* * *

وتمكن العلماء، إستنادا إلى نقوش الآ ثار المصرية ، من تحديد الفترة التاريخية التى سيطر فيها عرب العماليق (الهكسوس)على مصر ، كما تمكنوا من الوقوف

على مدى تأثيرهم الحضارى على البلاد ، وعلى الإنشاءات التى قاموا بها ، ونظام الحكم الذى ساروا عليه وعلاقتهم بالمصريين كحكام ومحكومين ، وما يتصل بحركة التحرر التى قادها أحموسى ضدهم فى النهاية .

وزودت آثار الدولة البابلية الأولى هواة البحث بكثير من أخبار تلك الدولة ، التى أقامها العرب العماليق فى بلاد ما بين النهرين ، قبل الميلاد بنحو من خمسة وعشرين قرنا ، والتى تنسب إلى « حمورابى » أعظم ملوكها ، وصاحب التشريع المشهور . ورغم ما يثار حول عروبة تلك الدولة من شكوك إلا أن التراكيب العربية لأسماء ملوكها ، والتى قرئت على الآثار ، مثل (أبى سام) و (شمسو أى الشمس) و (خليلو أى خليل) و (عزيرو أى عزرائيل) و (بلال) و (صعصعة) لا تزال دليلا قويا لم يتزعزع ، على عروبة تلك الدولة .

هذا فضلا عما أثبتته الدراسات التى أجراها علماء اللغة على النصوص المدونة على الآثار ، من التشابه الكبير بين لغة بابل الأولى التى استعملتها دولة حمورابى وبين اللغة العربية ؛ من حيث حركات الإعراب والتنوين وعلامة الجمع وصيغ الأفعال .

وبرهنت الحفائر على أن وحدة العراق القديم قد تحققت على يد دولة حمورابى العربية ، وأن اواء السلام والنظام والأمن قد انتشر بفضلها فوق ربوع لم تكن تعرف غير الفتن والخوف .

كما برهنت الآثار التى تم اكتشافها فى مدينة « زيبارا » من صكوك وعقود وكتب ورسائل وأنقاض إحدى مدارس الأطفال ، وموضوعات رياضية وفلكية وتاريخية ، على أن هذه الدولة العربية الأولى قد تمتعت بنوع من الحضارة بالغ التفوق والرقى .

وتدل وثائق علم الآثار على أن فتوحات حورابي قد امتدت غرباً حتى شواطئ البحر المتوسط . وأن سيطرة العماليق على مناطق جنوب الشام دامت وقتاً غير قصير أتاح لهم إشاعة نوع جديد من الحياة تتسم بمزيد من الحرية ، بالإضافة إلى ما أتوها به من حضارة بالغة التفوق ومن وسائل دفاعية مبتكرة تمثلت فى ظهور المدن والقرى ذات الحصون المنيعة ؛

وأثبتت الكشوف الأثرية فى منطقة أريحا ، على أنها خضعت يوماً ما لحكم العرب العماليق ، حيث شهدت كغيرها من المناطق عصراً جديداً فى فن تشييد الحصون الذى ابتكره وتميزت به حضارة هؤلاء العماليق .

كذلك شهدت أدلة الآثار على أن تفوق العماليق قد تخطى نطاق الحرب والتشريع ، إلى نطاق الفنون الجميلة ، فلهم نوع متميز من الفخار عثر على بعض قطع منه فى عمان وتاعور وغيرهما من مناطق جنوب الشام .

* * *

ودلت الدراسات التى أجرتها مديرية الآثار العراقية على آثار مدينة الحضر فى جنوب غربى الموصل ، والتى ظلت مطمورة فى عالم النسيان حتى عام ١٩٥١ ، على أنها كانت مستوطناً لعرب البادية فى زمن الأشوريين . كما وقف العلماء من هذه الدراسات على أسماء الأوثان التى كان العرب البائدة يتعبدون لها (اللات وشمش وسميا) ، وعلى بعض التفصيلات المتعلقة بتاريخ السلالة العربية ، التى حكمت الحضر مدة قرون ثلاثة ، فعرفوا اسم حاكمها الأول الأمير (سنطروق) الذى ورد ذكره فى نص اكتشف عام ١٩٦١ ، والذى كان يلقب بملك العرب ، وعرفوا اسم أبيه (نصر) الملقب بالكاهن الأعظم ، وتوصلوا إلى معرفة طرق المبانى التى شادها حكام الحضر ومدى التقدم المعمارى الذى أتاح لهم إقامة بنايات شاهقة سامقة .

وفى عام ١٩٦٥ عثر على أربعة عشر لوحاً أثرياً مكتوباً بالصفوية وهى إحدى اللهجات العربية القديمة ، وقد ألقت دراسة هذه الألواح ، كثيراً من الضوء على جماعة (مسكينة) العربية التى وفدت قديماً إلى وادى حوران من تيماء وشمال الحجاز .

* * *

وقد اكتشفت فى جانب جبل رم على بعد ٢٥ ميلا من منطقة العقبة آثار مدينة دارسة يعتقد الباحثون أنها كانت موضع « إرم » عاصمة قوم عاد التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم . ولا تزال هذه الآثار بحاجة إلى مزيد من الدراسة لاستنطاق أسرارها .

والمادة الأثرية لتاريخ ثمود أغنى مما لعاد كثيراً ، كما أن الحدود الجغرافية لآثار ثمود تكاد تحيط بآفاق العالم العربى القديم ، إذ عثر على آثارهم فى شمال غربى الحجاز وفى حائل بنجد وفى تيماء وتبوك ومدائن صالح (الحجر) وفى سلاسل الجبال الممتدة بين مدائن صالح والحجاز ، وفى شبه جزيرة سينا وشرق دمشق وشرق نهر الأردن ، كما ورد ذكرهم فى إحدى نصوص الملك الآشورى سرجون الثانى بمناسبة معركة وقعت بينه وبينهم على حدود بلاد الرافدين . ويمكن لنا من تلك الظاهرة الاستدلال على مدى ما كان عليه الشعب الثمودى من كثرة التعداد ، وما توفر لهم من سلطان فى الأرض واتساع عظيم فى المعاملات التجارية والسياسية على السواء .

وعرف العلماء من آثار الحجر أنها دخلت — بعد ما باد الثموديون — فى حوزة الأنباط ، كما عرفوا من مئات النصوص التى عثر عليها فى الحجر كثيراً من النواحى الدينية لشعب ثمود .

وعلى طول المنطقة الممتدة جنوب شبه الجزيرة إلى معان اكتشفت كتابات ثمودية لا حصر لها فوق الصخور ، ولا يزيد كل نص عن

إعطاء اسم الكاتب واسم أبيه ، وإلى جانبها أحياناً رسوم حيوانات أو أشخاص مصحوبة بتوقيع صاحب الرسم ، وقد دلت دراسة هذه الظاهرة على أن رجال القوافل التجارية من الثموديين هم الذين حفروا هذه الكتابات خلال غدوهم ورواحهم بين جزيرة العرب والشام ٥ ويتبين من وفرة هذه الكتابات أن تعلم القراءة والكتابة كان شائعا بين الثموديين وأن نسبة الأمية كانت من القلة فيهم إلى حد يحسدون عليه ؛

* * *

وتنمّ الآثار المنتشرة فى بادية الشام ؛ من أطلال قصور ومدن وقنوات وغيرها ، عن ذلك العمران الزاهر وتلك الحياة الدائبة التى أشاعها أسلاف هذه الأمة فى تلك البادية .

كما أثبتت دراسات علم الآثار ، أن الآرميين نجحوا فى تأسيس دويلات المدن فى معظم مناطق سوريا الداخلية والشمالية منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، كما دلت تلك الدراسات على أن دمشق وحماة كانتا أهم تلك المدن وأقواها ، وأن هذه الدويلات كانت مرتبطة فيما بينها بمعاهدات للدفاع المشترك والتبادل التجارى ، وقد عثر على نص لها فى حفائر قرية (سفيرة) .

كما ثبتت من دراسة النصوص الآرامية ، أن الأبجدية التى كان يكتب بها الآراميون تشبه تماما الأبجدية العربية من حيث ترتيب الحروف (أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن . . .) .

وأهم المبانى الآرامية التى كشفت عنها التنقيبات معبد فى دمشق يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقطع فنية من العاج فى أرسلان ، وأجزاء من عرش ملك دمشق الآرامى العربى حزاقيل ، وهى تلقى جميعا الضوء على مميزات الفن العربى الآرامى فى العمارة والحفر والصناعات الدقيقة .

وكما استدل على النظام الديني لهذا الشعب العربي من إحدى النقوش التي عثر عليها في واحة تيماء .

* * *

وتمكن المنقبون من الكشف عن آثار مدينة تدمر عاصمة دولة العرب التدمريين ، وأول من زارها ووصف آثارها العالم الفرنسي (فولني) ، في أواسط القرن التاسع عشر . وعن طريق تتبع بقايا المدينة استطاع علماء الآثار في سوريا مؤخرا وصف شوارعها وهياكلها ووضع مخطط تفصيلي بجميع معالمها أيام ازدهارها .

وأسفرت الأبحاث التي أجريت على آثار تدمر ، واستنطاق النصوص المدونة عليها ، عن معرفة أحوال سكانها ومستوياتهم المعيشية ، ونظامهم الاجتماعي الطبقي ، والنقود التي كانوا يتداولونها ، وملابسهم ، وعاداتهم ، وكتاباتهم ، وشيء عن ثقافتهم .

ولبثت مسألة الحكم على جنسية سكان تدمر حكما يرتكن إلى دليل علمي ، مرجوءة ، إلى أن جاءت الدراسات الأثرية والنقوش التي عثر عليها في تدمر بالبرهان على عروبة سكانها .

ومن أهم الآثار المكتشفة في تدمر رواقها الأعظم ، ومعبدا : (بل) و (بعل شمش) — الذي تم اكتشافه عام ١٩٥٤ .

* * *

ومن نقود عرب الأنباط والمواد الأثرية الأخرى التي عثر عليها تعرف الباحثون بشكل أكثر تفصيلا عن ذي قبل ، على أسماء ملوكهم وألقابهم وسني حكمهم ، كما استخلصوا معلومات جديدة عن تاريخهم .

وأول إشارة تاريخية عن الأنباط ، تلك التي وردت في السجلات الآشورية التي ترجع إلى العهد الذي حكموا فيه الشام ابتداء من عام ٨٠٠ ق . م ،

كما ورد اسمهم فى القائمة التى كتبها الملك الآشورى بنيبال (٦٤٧ق.م) عن أعدائه . وقد أظهرت الكتابات المكتشفة على بعض الآثار فى الأردن أن الأنباط كانوا قد قادوا ثورة فى جنوب الشام ضد الاحتلال الآشورى ؛ ويبدو أن هذه الثورة – استنادا إلى ما جاء فى سجلات آشور نفسها – قد بلغت أهدافها فى نهاية الأمر حيث عظم شأن الأنباط وتمكنوا عام ٥٨٠ ق . م من السيطرة على أرض أدوم بعد ما كانوا ينزلون إلى الجنوب والشرق منها ، وبدأوا منذ ذلك التاريخ مرحلة تاريخية جديدة .

وقد نجحت البعثات التنقيبية فى اكتشاف كثير من المدن النبطية الدارسة ، وفى مقدمتها عاصمتهم المعروفة فى اليونانية باسم (البتراء) أى الصخر ، وفى العربية باسم (سلع) أى الشق فى الصخر ، والتى لا تزال أطلالها شاخصة إلى اليوم فى وادى موسى بالأردن .

ومن النقوش والكتابات المختلفة المنحوتة على آثار البتراء تمكن الباحثون من معرفة الاسم القديم الذى كان الأنباط يطلقونه على عاصمتهم وهو (المدرس) ، كما تمكنوا من معرفة شيء واضح عن قصتها فى أول عهدها ، وعن سكانها السابقين من الأدوميين . ودلت الدراسة كذلك على أن العرب هم أول من أقام بالبتراء بصورة مستقرة ، وشاد بها حضارة زاهرة .

وتشير آثار مدينة بصرى على أن عرب الأنباط قد استولوا عليها ونقلوا إليها عاصمتهم عام ٧١ ق . م ، وتمكنوا من توطيد ملكهم فى سوريا الجنوبية حتى دمشق .

وأثبتت حفائر المدرسة الأمريكية فى قرية ذيبان الأردنية أن الطبقة الثانية تحت السطح تضم بقايا المدينة النبطية القديمة . وثبت كذلك أن الأنباط هم الذين أنشأوا فى القرن الأول قبل الميلاد بلدة أم الجمال من الحجر

الناري الأسود كخط دفاع أول على حدود الصحراء المحيطة بمملكتهم من جهة الشرق .

وعرف من الآثار المكتشفة مدى ما بلغته حدود دولة عرب الأنباط من الاتساع ، فقد عثر فى جرش (أنطاكية) على بناء ضخم من طراز نبطى ، وعلى كتابات نبطية تشير إلى أن نفوذ الأنباط وتأثيرهم قد بلغ ذلك الموضع غربا ، كما عثر فى عمون على فخار نبطى يعود للقرن الأول قبل الميلاد ، الأمر الذى يدل على أن المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن كانت تخضع كلها لنفوذ الأنباط .

وأمدت آثار الأنباط الباحثين فى تاريخهم بمعلومات كافية عن ديانتهم وطقوسهم وأصنامهم وعقائدهم وهياكلهم . ومن أهم تلك الهياكل هيكل (قرية العصر) وهيكل (وادى الحسا) الذى أجريت فيه حفائر كشفت عن بعض تماثيل ورسوم ونقوش ذات قيمة تاريخية خاصة .

وتدل الآثار النبطية فى خربه كثارة وفى الأودية الواقعة إلى الشرق من جبل رم قرب العقبة على أن الأنباط أقاموا السدود لحجز الماء ، كما عرفوا طرق الرى المنظم .

وتبين من بعض لفائف بردية عثر عليها فى مغارة على البحر الميت أن الأنباط قد عرفوا هـذا النوع من مادة الكتابة ، كما بينت دراسة كتابات الأنباط أن لغتهم عربية . وأن حروف كتابتهم متأثرة بالحروف الآرامية ، وأن الكتابة الكوفية تعود فى أصلها إلى حروف الأنباط .

ويؤخذ من كثرة استخدام اللغة النبطية فى البلاد بعد وقوعها فى يد الرومان ـ كما أثبتت النصوص المكتوبة على آثار تلك الفترة ـ أن ثقافة الأنباط ولغتهم كانت من الرسوخ والتأصل إلى حد أعجز المستعمرين عن التعرض لها .

وأوضحت الدراسات الأثرية مدى ما كان عليه عرب البتراء من تقدم عظيم فى فنون العمارة والنحت والزخرفة وصناعة الفخار . وأثبتت بعض القطع الأثرية المكتشفة أن فخارهم وصل درجة من جودة الصنع ودقة النقش والزخرفة والطلاء بحيث لا يمكن مقارنته إلا بأفضل أنواع الخزف الصينى . وثبت كذلك نجاحهم فى صنع أشكال فخارية يصعب كثيراً صنعها على الدولاب ، مثل الجفنة المفتوحة ، ومن المحتمل أنهم توصلوا إلى استخدام آلة أرقى لصنع الفخار ، وإلا فإن براعة الفخرانى العربى فى البتراء ومطاوعة الدولاب لأنامله السحرية بلغت حد الإعجاز .

* * *

تلك مختارات من المعلومات التاريخية التى زودتنا بها تنقيبات علم الآثار عن العرب قبل الإسلام ؛ وعلى وجه الخصوص عرب الجاهلية غير القريبة . وما كشفت عنه تلك التنقيبات حتى الآن ليس هو كل ما تضمه الأرض العربية من آثار سكانها السابقين ، حيث لا يزال تحت ثراها كثير منها يحمل أثارات وفيرة من علم ذلك التاريخ .

مراجع البحث

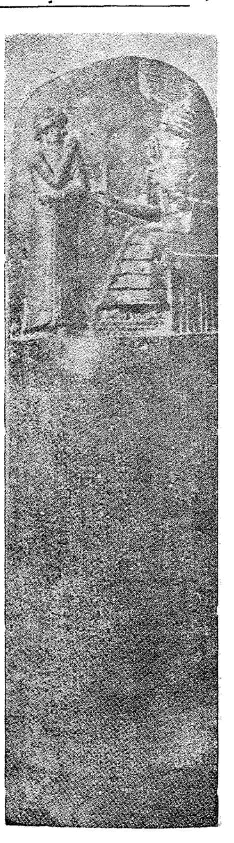
١ — القرآن الكريم
٢ — تفسير القاضى حافظ الدين البيضاوى
٣ — قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين
٤ — السيرة لابن هشام (ج ١ ، ٧)
٥ — مروج الذهب للمسعودى (ج ١)
٦ — تاريخ الأمم والملوك للطبرى (ج ١)
٧ — تاريخ ابن خلدون (ج ٢)
٨ — محمد رسول الله ، لأحمد تيمور
٩ — تاريخ العرب قبل الإسلام ، للدكتور جواد على (ج ١ ، ٢).
١٠ — العرب قبل الإسلام ، لجورجى زيدان
١١ — « تراثنا بين أيدى المستشرقين » محاضرة للدكتورة عائشة عبدالرحمن
(كتاب الموسم الثقافى بالكويت فبراير ١٩٥٧)
١٢ — حضارة العرب فى الجاهلية والإسلام ، لأديب لحود
١٣ — آثارنا فى الإقليم السورى ، لأبى الفرج العش
١٤ — صيانة الأبنية الأثرية فى العراق ، (من منشورات دائرة المعارف)
١٥ — « أحدث الاكتشافات الأثرية فى اليمن » مقال للدكتور أحمد فخرى
(كتاب المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية).
١٦ — قصة الحضارة لول ديورانت ، ترجمة محمد بدران (ح ٢).
١٧ — آثار الأردن لهاردنج ، ترجمة سليمان موسى

لوحة (١) الآثار من مصادر التاريخ العربى



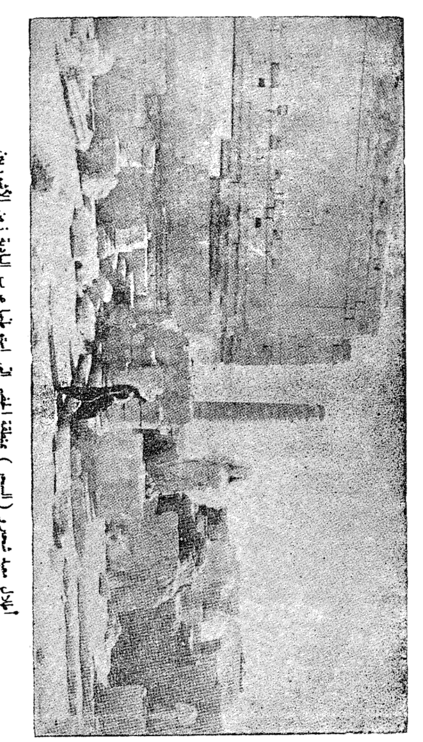
نص من شريعة حورابى أول ملك عربى ذاع صيته

***



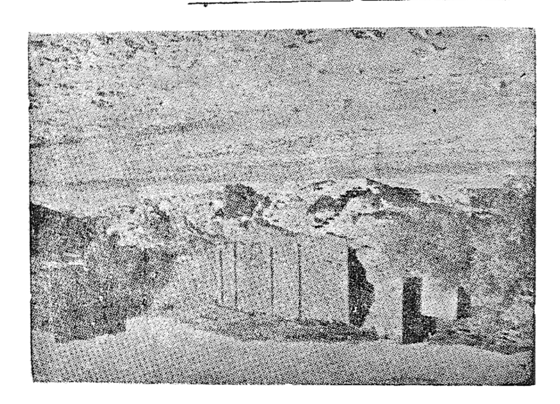
←
حورابى يتلقى قوانينه من شمس ، أحد الآلهة المزعومة التى عبدها العرب القدماء

لوحة (٢) الآثار بين مصادر التاريخ العربي

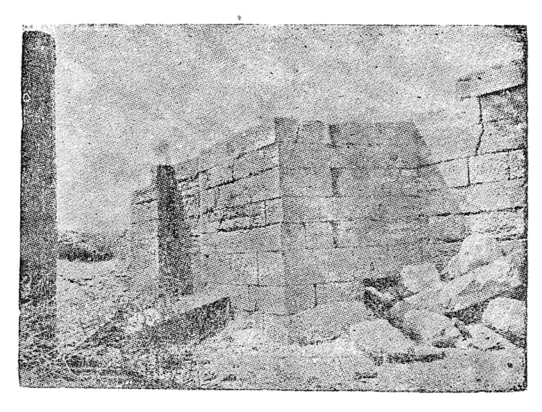


أطلال معبد شهيرو (السحر) بمنطقة الحضر التي استوطنها عرب البادية زمن الآشوريين

لوحة (٣) – الآثار بن مصادر التاريخ العربى



بقايا جدرانية من سد مأرب



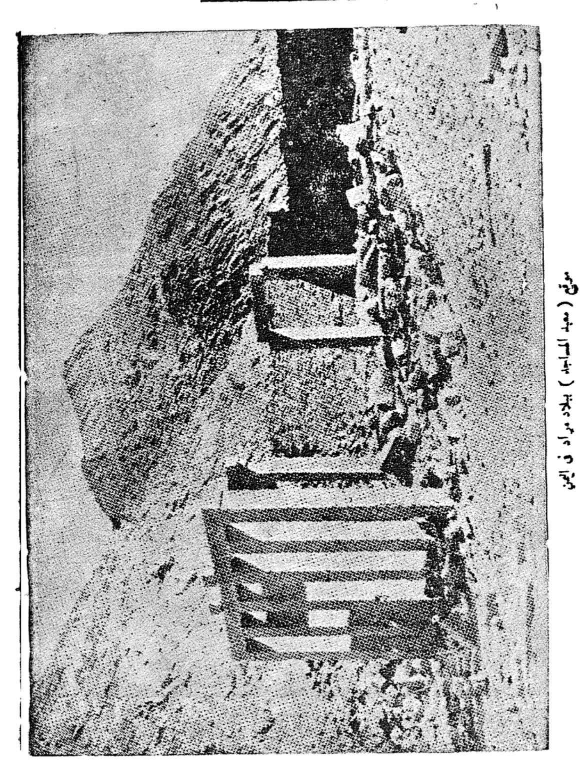
إحدى مداخل معين الرئيسية بمنطقة الجوف

لوحة (٤) الآثار بين مصادر التاريخ العربى



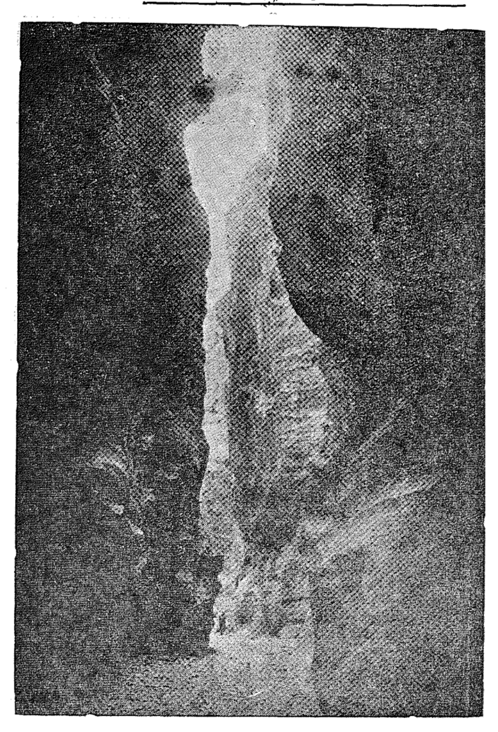
مرسوم ملكى فى مدخل صرواح العاصمة الأولى لسبأ ، وهو يلقى الضوء على جوانب هامة من النظام المالى والاجتماعى فى اليمن القديم

لوحة (٥) — الآثار بين مصادر التاريخ العربى



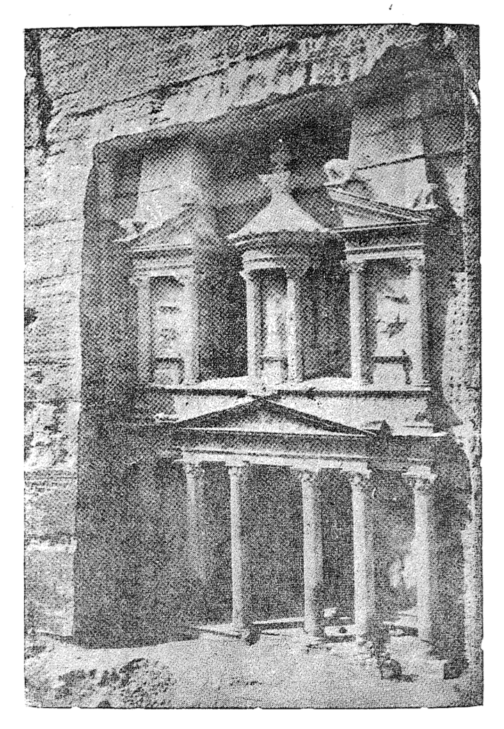
موقع (معبد المساجد) ببلاد مراد فى اليمن

لوحة (٦) ــ الآثار بين مصادر التاريخ العربي



هذا الشق الصخرى هو مدخل البتراء ، عاصمة عرب الأنباط

لوحة (٧) الآثار بين مصادر التاريخ العربي



خزنة البتراء المنحوتة فى الصخر ، تدل على المقدرة الفنية الرائعة التى حازها عرب الأنباط

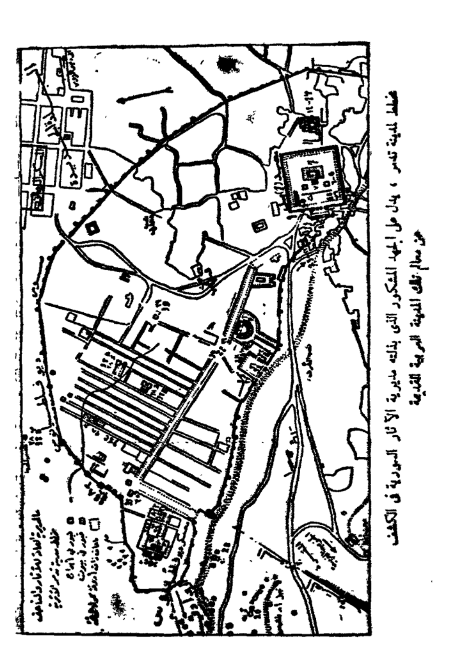


باب أثرى فى بصرى من صنع الأنباط



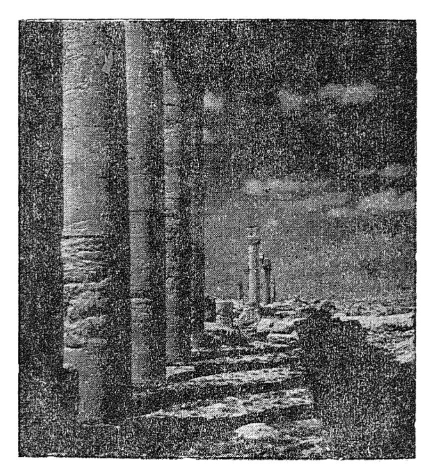
نص معاهدة بين دولتين من دويلات الآراميين العرب ، تقيم الدليل
على أن التضامن قديم بين أبناء العروبة

لوحة (٩) الآثار بين مصادر التاريخ العربى

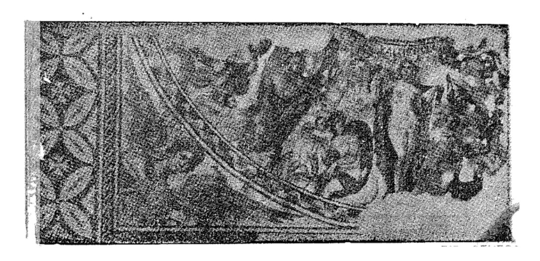


مخطط لمدينة تدمر ، يدل على الجهد المشكور الذى بذلته مديرية الآثار السورية فى الكشف عن معالم تلك المدينة العربية القديمة

لوحة (١٠) الآثار بين مصادر التاريخ العربي



بقايا أحد الشوارع الرئيسية فى تدمر



هذه اللوحة تشهد بتقدم فن صناعة الفسيفساء فى تدمر


Bibliotheca Alexandrina
0228089